

الشيخ الوائلي في سطور

اسمه ونسبه وولادته

أحمد ابن الشيخ حسون ابن الشيخ سعيد بن حمود الليثي النجفي. ولد في النجف الأشرف يوم الجمعة ١٧ / ٣ / ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧ م. ودرس في المدارس الرسمية ثم التحق بكلية الفقه وتخرج منها، انتقل إلى بغداد لمواصلة دراسته في معهد العلوم الإسلامية، ونال منه شهادة الماجستير، وحصل على شهادة الدكتوراه من القاهرة في العلوم الإسلامية.

أقام في الشام لدوافع سياسية، مواصلاً طريقه في التأليف والتصنيف والبحث. وهو عالم وخطيب ومتكلم وشاعر يشتهر بأدبه الجم وقريحته الوقادة؛ فقد عرف بجودة البيان والاطلاع الواسع^(١).

مكونات خطابه:

- ١- الدراسة الأكاديمية والحوزوية.
- ٢- اطلاعه الواسع ومتابعاته العلمية.
- ٣- البيئة التي ترعرع ونشأ فيها.
- ٤- الملكة الشخصية والأدب الرفيع، مما ساهم في تطويره للمنبر الحسيني الذي تربع على قمته. وكان منفتحاً على جميع قطاعات الأمة، وكان يحضى بثقة الجميع واحترامهم حتى من يختلف معه، وكان متواصلاً مع كل المسلمين في دول عديدة، وكان من الوعي والعبقرية بمكان يجعل الكل يحترم موضوعيته وإنصافه.

مؤلفاته

- ١- الشعر الواله ج ١ - ٢ (ديوان شعر).

(١) للمزيد انظر: مقدمة موسوعتنا (محاضرات الوائلي).

- ٢- هويّة التشيع.
- ٣- أحكام السجون بين الشريعة والقانون.
- ٤- من فقه الجنس في قنواته المذهبية.
- ٥- الأوليات في حياة الإمام علي عليه السلام.
- ٦- جمعيات حماية الحيوان في الشريعة الإسلامية.
- ٧- الخلفية الحضارية لموقع النجف قبل الإسلام.
- ٨- تجاربي مع المنبر.
- ٩- إيقاع الفكر.
- ١٠- استغلال الأجير وموقف الإسلام منه.
- ١١- منتج الغيث في الصحابة والأعلام من بني ليث.

وفاته

عاد من منفاه بعد (٢٤) عاماً، وكان راغباً في العودة إلى الوطن، وأن يدفن فيه بعد موته، حيث كان يعاني من مرض عضال، توفي عليه السلام مساء الاثنين (١٤ / ٥ / ١٤٢٤ هـ) (١٤ / ٧ / ٢٠٠٣ م) في الكاظمية، وشيعته الجماهير في حشد منقطع النظر، ودفن في النجف الأشرف، وبفقدته خسرت الأمة عظيماً لا يعوض. وتلبية للطلب الحثيث على تقديم البحوث الموضوعية تسهيلاً للتناول، فسوف نتواصل معكم إن شاء الله بتلبية طلبكم، كما نشكر لكم متابعتكم مشروعنا (موسوعة محاضرات الوائلي) الذي لازلنا نواصل إنتاج مجلداته القيمة.

مؤسسة المصطفى عليه السلام قم المقدسة

مصطفى آل مرهون

١ / ١ / ١٤٣١ هـ

الفصل الاول
مكانة المرأة

﴿ ١ ﴾

الإسلام والمرأة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ
كَالْأُنْثَىٰ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

تتناول هذه الآية مجموعة من المواقف، ومنها موضوع المرأة،
وموضوع نسبة الرجل إلى المرأة ونسبة المرأة إلى الرجل.

المبحث الأول: المرأة بين الإسلام والجاهلية

هناك مجموعة من الأحاديث حول المرأة، منذ أن وجد الذكر على
سطح الكرة الأرضية، وقد كثر التساؤل حول موقف الإسلام من المرأة،
وهناك مجموعة من المستشرقين تناولت هذا الموضوع، وحاولت أن
تعزل المرأة - بوصفها تمثل نصف المجتمع - عن المجتمع الإسلامي،
وذلك عن طريق إشعار المرأة بأن الإسلام يحطُّ من قيمتها أمام الرجل،

(١) آل عمران: ٣٦.

ويعاملها معاملة تدلُّ على استضعافها، ويفضّل الرجل عليها. وهذه البحوث تفتقر إلى الدقّة العلميّة؛ لأنها خلطت بين المرأة في المجتمع العربي، وبين المرأة في المجتمع الإسلامي.

لقد جاء الإسلام إلى مجتمع الجزيرة العربيّة، وهو يحمل تعاليم جديدة في نظر هذا المجتمع، ومن الطبيعي ألاّ يمتثل هذا المجتمع لبعض هذه التعاليم، لأننا نعلم كما في علم الاجتماع أن تطبيق المبادئ والقيم الجديدة على كلّ مجتمع وتأثره بها يحتاج على الأقلّ لثلاثة أجيال:

فالجيل الأول يتأثر بنسبة ٣٠٪ بهذه القيم الجديدة.

والجيل الثاني يتأثر بنسبة ٦٠٪.

أمّا الجيل الثالث فيتأثر بنسبة ١٠٠٪.

وبكلام آخر أن تأثر المجتمع بالمبادئ والقيم الجديدة يشبه عملية تمثيل الغذاء في الدم، فهو يمرُّ بعدة مراحل، وعلى ذلك فدخول الإسلام إلى الجزيرة العربيّة، لا يعني الامتثال للمبادئ والقيم الجديدة التي جاء بها، بل إن الواقع أنه قد بقيت في هذا المجتمع رواسب اجتماعيّة تحتاج إلى زمن طويل كي تتلاشى وتذهب أمام هذه القيم الجديدة.

وعلى ذلك فإن كثيراً من مواقف حملة الإسلام الأوائل كانت متأثرة بقيم الحضارة السابقة، وهي قيم الجاهليّة، وهناك في بعض المجتمعات العربيّة إلى هذا الوقت من يتحدّث عن المرأة بصورة سلبية، متأثراً بتلك القيم الغابرة.

ولقد لاحظ المستشرقون الدارسون لتاريخ المجتمع العربي في الجزيرة أن الشاعر يصف عدداً من الصور المفتعلة، كما في الأبيات

التالية:

القبر أخفى ستره للبنات ودفنها يُروى من المكرمات
ألم تر الرحمن عزَّ اسمه قد وضع النعش بجانب البنات^(١)

وهو يعني أننا ننتظر المرأة ساعة الولادة، فإن ولدت ذكراً أخذناه، وإن ولدت أنثى دفناها. وأمثال هذا الشاعر كانوا قد عاشوا في كنف حضارة تضع المرأة في مرتبة منحطة عن الرجل؛ لذلك لم يكن لها نصيب من الميراث مثلاً، أو تكون قليلة القيمة إذا ولدت أنثى. وقد نقل القرآن الكريم هذه الصورة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٢). وقد تأثر المستشرقون بهذه الصورة، ونقلوها على أنها تمثل نظرة الإسلام إلى المرأة، وادَّعوا بأنه - أي الإسلام - ينظر إلى المرأة هذه النظرة المنحطة، دون أن يفرقوا بين قيم الجاهلية المتأصلة في نفوس المجتمع الجاهلي، وبين القيم التي ينطوي عليها الإسلام وإن لم تكن واضحة في المجتمع الإسلامي الأول بخصوص النظرة إلى المرأة من قبل هذا المجتمع، ذلك أن تلك القيم الجاهلية - كما أسلفنا - كانت متأصلة في نفوس الناس، وليس من السهل إزالتها بسرعة.

المبحث الثاني: الفرق بين الرجل والمرأة؟

ومن جانب آخر يجب أن نتساءل عن جملة أمور؛ منها: هل ثمة فروق بين المرأة والرجل من حيث الخلق والتكوين؟ وهل رتب الإسلام آثاراً على هذه الفروق إن وجدت؟

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٥٥٥، كشف الخفاء ١: ٤٠٧ / ١٣٠٨.

(٢) النحل: ٥٨.

وجواباً على التساؤل الأول يذهب الاختصاصيون إلى أن هناك (٣٢) فرقاً بين الرجل والمرأة، منها فروق بايولوجية، فسرعة حويمن الرجل تتفوق على سرعة البويضة في رحم المرأة، ويترتب على هذه أثر هو كون السعي للرجل أكثر تخطيطاً منه في مخ المرأة، وذلك لغزارة العاطفة عند المرأة، أما حجم مخ الرجل فهو بنسبة $\frac{1}{4}$ وحجم مخ المرأة هو $\frac{1}{44}$ ، كما أن المرأة أطول عمراً من الرجل في معدل الأعمار، وهي تختلف عن الرجل، في تكويناتها النفسية والجسدية.

لكن هل وجدت هذه الفروق لتفضيل الرجل على المرأة أو بالعكس، أم أنها للتفصيل؟ ونجيب بأنه من المعلوم أن دور المرأة أضخم من دور الرجل، فالمرأة هي صانعة الأجيال، وإذا كان الرجل يكدح خارج البيت من أجل لقمة الخبز، فإن المرأة تتولى أخطر عملية في نشأة الأسرة، ألا وهي التربية، فالطفل يتأثر بأمة أكثر من تأثره بالرجل، فهي ترضع طفلها القيم والأخلاق مع الحليب.

أما موقف الإسلام من هذه الفروق، فإنها في نظره وجدت للتفصيل لا للتفضيل، فعندما خصها الله سبحانه وتعالى بالعاطفة خصها بذلك لا لتخلف عن دور الرجل العقلي، وإنما لأن دورها في الأسرة يحتاج إلى هذه العاطفة، ولأن هذا هو الجو الذي ستعيش فيه.

أما عن طول عمر المرأة عن الرجل، فذلك لأن المولود يحتاج إلى حنان الأم أكثر من حنان الرجل، ففقدان الأب يعوّضه حنان المرأة. وهذا ضروري جداً إلى جانب التربية، فلو فقد الطفل هذا الحنان فإنه سيعاني كثيراً مثلما يعاني من فقر الدم، فلا تستطيع أفضل مؤسسة حضانة أن تعوّض هذا الطفل ساعة من الحنان.

فإذن خلاصة هذه المسألة أن الفروق بين المرأة والرجل وجدت لتفصيل وليس لتفضيل الرجل على المرأة.

أما عن تفسير الآية الكريمة: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ فإن أمّ مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ لما أحسّت بالحمل، نذرت ما في بطنها أن يكون خادماً في البيعة - أي ما يشبه المسجد عند المسلمين من معبد وغيره - ومن المعروف أن خدمة البيعة تحتاج إلى طهارة ونظافة، فلما وضعتها أنثى قالت: ربي إني نذرت لك أن يكون ما في بطني خادماً للمعبد، وقد وضعتُ أنثى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ أي أن الولد لن تمرّ عليه فترة حيض، عكس الأنثى، وهي لا تصلح لهذه الخدمة.

إذن هذا هو تفسير الآية، لكن المستشرقين أخذوا هذه الآية خارج سياقها، واتهموا الإسلام بأنه يقول: ليس الذكر كالأنثى، وذلك من أجل رمي السهام عليه. وقد حشدوا لذلك عدداً من الآيات، مثل شهادة المرأة، حيث إن الإسلام اشترط شهادة امرأتين مقابل رجل واحد، فقالوا هذا دليل على أنه يعتبرها نصف الرجل. وهذه مغالطة؛ لأن من بين الفروق بين الرجل والمرأة، أن المرأة أكثر عاطفة من الرجل؛ وذلك لأن بناء الأسرة يحتاج إلى جوّ عاطفي وهو مناط دور المرأة داخل الأسرة.

إن زيادة العاطفة عند المرأة ينعكس على دورها العقلي، فالغدة الدرقية عند المرأة أضخم مما هي عند الرجل، والمرأة تتأثر بالحمل وبالولادة وبحالات الطمث، فتؤثر على الجانب النفسي عندها، وأحياناً على ذاكرتها. وكذلك فإنّ المشرّع الإسلامي تعامل مع شهادة المرأة من جانب الشهادة ذاتها، فهي خطيرة فيما يخصّ الدماء والأموال والأعراض، ولاحظ وضع المرأة العاطفي من جانب آخر، فوضع مثل هذا الشرط لا

لتفضيل الرجل عليها أو للتقليل من شأنها.

إن خطورة الشهادة في بعض المواطن اقتضت مثل هذا الشرط، إذ أن المرأة في مواطن أخرى تقبل شهادتها لوحدها، ففي حالة الولادة، مثلاً يعتمد في شهادة أن هذا الولد هو ابن هذه المرأة أو العكس على شهادتها لوحدها.

أما عن موقف الإسلام من ميراث المرأة، كونه جعل لها النصف، فيجب النظر إليه من منطلق كلي وليس من منطلق جزئي، فنظريّة الاقتصاد الإسلامي لم تكبّد المرأة أي أعباء ماليّة مثلما تكبّد الرجل من صرفيّات السكن وغيرها، فإذا كان دخل الرجل ١٠٠٪، فإنه يصرفه على المرأة وعلى المنزل، وليس في ذلك عدالة؛ إذ الرجل هو المسؤول عن احتياجات المرأة، ذلك أن للرجل الولاية العامة على المرأة وليس لها ذلك؛ لأن الإسلام خصّها بدور آخر داخل الأسرة، والولاية العامّة تحتاج إلى أعصاب أقوى من أعصاب المرأة.

وعلى ذلك فإن موقف الإسلام من المرأة ليس موقف تفضيل وإنما هو موقف تقسيم الواجبات والحقوق، لكن مغالطات المستشرقين دائبة ومستمرّة؛ إذ ينقلون عنا أننا نقول: المرأة لا تدخل الجنّة، ولا أدري من أين جاؤوا بمثل هذا النصّ؟ مع أن القرآن يقول: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾^(١).

﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٢) هل ينتمي إلى دين من يقول: إذا نظرت عينك إلى امرأة فاقلعها؟ أو: إذا أردت القرب من ملكوت السماء فابتعد عن

(١) النساء: ٥٧.

(٢) التوبة: ٧٢، وغيرها كثير.

المرأة؟ الإسلام لا يقول بذلك، بل يقول عن رسول الله ﷺ: «إن في وضع إحدائكن لأجراً»، فالإسلام لا يحتقر المرأة، بل جعل لها أرفع مكان، والرسول ﷺ يقول: «الجنة تحت أقدام الأمهات»^(١).

المبحث الثالث: دور المرأة في واقعة كربلاء

وحقاً فإن للمرأة أدواراً عظيمة في المجتمع، وهي أدوار متميزة جداً، ومن تلك الأدوار دور زينب بنت أمير المؤمنين ؑ في واقعة الطف، فهناك كثير من الناس يتساءلون: لماذا أخرجها الحسين ؑ إلى كربلاء وهي في عصمة رجل هو عبد الله ابن جعفر؟ ذلك أنه ؑ كان يعلم أنها ستقوم بأدوار لن يقوم بها أحد غيرها، ومن أهم هذه الأدوار الدور الإعلامي الذي قامت به ؑ بعد معركة الطف، والذي لولاه لما عرفنا الكثير عن نهضة الحسين ؑ، فقد حمل التاريخ صوت زينب ؑ معه وهي تنقله من ساحة المعركة إلى مجلس ابن زياد في الكوفة ومجلس يزيد في الشام، ومن ثم إلى المدينة، وقالت في خطبتها في أهل الكوفة: «أما بعد، يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر، أتبكون وتنتحبون؟ فلا رقأت الدمعة^(٢)، ولا هدأت الرئة، إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم، فتعساً ونكساً وبعداً لكم وسحقا، فلقد خاب السعي، وتبّت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضبٍ من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلّة والمسكنة. ويلكم يا أهل الكوفة، أتدرون أي كبد لرسول ﷺ الله فريتم، وأي

(١) مستدرک وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، عن لب الباب للقطب الراوندي، مسند

الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز العمال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

(٢) رقأت الدمعة: جفت وانقطعت. لسان العرب ١: ٨٨ - رقاً.

كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟ لقد جئتم شيئاً إداً، تكاد السماوات يتفطرن منه، وتنشق الأرض، وتخر الجبال هداً. ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء، طلاع الأرض والسما، أفعجبتم أن مطرت السماء دماً، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون»^(١).



(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٦١، الاحتجاج ٢: ٢٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٧.

حقوق المرأة في الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ
أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

مقدمة حول دور المرأة في المجتمع الإسلامي

تدور هذه الأيام مطارحات حول (دور المرأة في المجتمع الإسلامي)، وهل أنها أخذت دورها ضمن إطارها الطبيعي أو أنها لازلّت مظلومة ومعتدى عليها من قبل المسلمين؟

توجد كتابات كثيرة تدور حول هذا المجال، والآية تتطرق إلى هذا الموضوع، لكن قبل الشروع في شرحها كان لابد من مقدّمة نوضح فيها بعض النقاط:

(١) النساء: ١٢٤.

الأولى: وجوب التفريق بين الإسلام والمجتمع الإسلامي

فالفرد في المجتمعات الإسلامية لم يأخذ سلوكه كله من الإسلام، بل إن مصادر بعضه عبارة عن ميراث اجتماعي ورثها من آباءه السابقين، فالعربي يأخذها من حضارته والكردي كذلك والإيراني كذلك، فالمواريث التاريخية متوارثة لحد الآن على الرغم من أنها من عصر ما قبل الإسلام. أضف إلى ذلك التفاعل مع الحضارات المعاصرة، وهو مصدر للتأثر كالتلفون والانترنت ووسائل الاتصال الحضاري؛ ولذلك يتأثر الناس بالسلوك المقابل ويقتبسونه منه. وعليه فعندما توجد حالة بين المسلمين فلا ينبغي أن نقول: هذا رأي الإسلام.

وحضارتنا فيها شقان: مادّي ومعنوي:

فالمادّي مثلاً أن الإنسان كان يركب الدوابّ والآن بعد تمدّنه يركب السيارة، وسابقاً كان يتناول أعشاباً للعلاج أمّا الآن فيتناول الدواء الكيماوي. وهذه القضايا المدنيّة ترتبط بالجسد وهي سهلة التغيير. أما الشقّ الثاني فهو الشقّ الفكري، وهو ماله علاقة بالعقيدة والأخلاق والتاريخ. وهذا الشقّ ليس من السهل تغييره؛ فهو يعيش معنا آلاف السنين ويحتاج لوقت طويل لتغييره. فإذا قلنا: إن المرأة مظلومة في الإسلام، فلا يعني هذا أن السبب هو الإسلام، وإنما هو الميراث الاجتماعي المتبقّي من أيام الجاهليّة، والإسلام إنّما يقول: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(١).

(١) الإسراء: ٧٠.

الثانية: كلٌّ كائن خلقه الله ضمن وظيفته، وتكامله النسبي

فالشمس لها دور في أن تقوم بالتفاعلات النووية فتبعث الدفء في الأشياء وتمنح الحياة، والقمر له دور المدّ والجزر ويلطّف جوّ الكرة الأرضية ويعطينا شيئاً من الضوء، وبما أن لكلّ دوراً فلا يجوز أن أقول: القمر أفضل من الشمس، والبرّ أفضل من البحر؛ لأنّ لكلّ واحد منها تكاملاً نسبياً ضمن نطاقه. وكذلك عندما نقول: رجل وامرأة، فليس معناه أن الرجل أفضل من المرأة أو المرأة أفضل من الرجل، حسب نوع البلاد والتشريع فيها، بل إن لكلّ واحد منهما دوره الطبيعي؛ فلا ينبغي أن يتمرّد أحدهما على دوره.

المبحث الأول: نظرة المجتمعات آنذاك إلى المرأة

وعليه فالقرآن نزل في الجزيرة العربية، وهي ذات حضارة خاصة، كما أن العالم المحيط بالجزيرة له حضاراته، وتلك الحضارات غير العربية كشرائع أوروبا كانت تبيح للرجل أن يبيع ابنته كما يبيع السلعة، بل إن أحد المجامع الكنسية في روما كان يرى أن المرأة كيان نجس لا روح له ولا خلود، وينبغي أن نمنعها من الضحك؛ لأن ضحكها فيها إغراء. وكانت في أوروبا لا تعطى ذمّة مالية مستقلة، ولا يحقّ لها أن تملك، ولا يرون أنها مخلوقة لجلال الأعمال. وأفضل شيء مُنحته آنذاك كان في حدود سنة (١٥٧١)م حينما أصدرت فرنسا تعليماً ينصّ على أن المرأة لها روح كالرجل ولكن خلقت لخدمة الرجل. فأوروبا كانت تراها كسلعة ووسيلة للتسلية. وهكذا فإننا برجعنا إلى تاريخ الحضارات نرى أن المرأة كانت تعامل بأشكال مختلفة؛ وكذلك الحال عند العرب أيضاً، فقد كانوا لا يورثون البنت بل يرثونها، وكانت إذا قُتلت تُقتل وإذا قُتلت لا

يُقتل بها الرجل، أي الرجل لا يقتل بالأنثى. ويرون أن الأب له الحق في أن يدفن ابنته وهي حيّة، ويرون فيها أنها كيان متخلّف فطرياً عن الرجل ويستوجب العار:

إذا المرثي شَبَّ له بنات عصبين برأسه إبة وعماراً^(١)

أثر المجتمعات في السلوك الشخصي للإنسان

وهذه العمليّة ولدت عقدة عند البعض، فعائشة زوجة الرسول ﷺ عندما تأتي للقرآن وتقرأ هذه الآية: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾^(٢) - وكانوا يتصوّرون أن القرآن ذمّ الأنثى بدمّه العرب من جهة أنهم كانوا يدعون من دون الله إناثاً، فلماذا يدعون الإناث ولا يدعون الرجال؛ فإنهم أكثر قيمة؟ فيقولون: إن الآية في معرض الذمّ للأنثى، حيث إن عندهم اللات والعزى وغيرهما من الأصنام إناثاً - فإنها تقرؤها: (إن يدعون من دونه إلا أوثاناً) في قرآنها. وينصّ على ذلك القرطبي^(٣)، فهذه عقدة ولدها المحيط، فهم يرونها من كلّ جنس أحسنه، وأفضله الذكر.

هذا موقف العرب من المرأة، كما كانوا يخرجونها من البيت إذا جاءها الحيض.

فهذا اللون من التخبّط والجهل كان مصدراً للسلوك، وإلا فإن «النساء شقائق الرجال»^(٤) كما هي نظرة الإسلام إليها. وهي نظرة عادلة قائمة على أساس العدل في النسبة بين الرجال والنساء. مع أن هناك من يقول الآن: إن

(١) العين ٨: ٤٢٠ - أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ - وأب، والمرثي في الأصل: امرئي، نسبة إلى امرئ

القيس، ثمّ قالوا مرثي، فكأنهم جعلوها منسوبة إلى (مرء) مطلقاً. والإبنة: الخزي.

(٢) النساء: ١١٧. (٣) الجامع لأحكام القرآن ٥: ٣٨٦.

(٤) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ١: ٧٥ / ١١٣.

في الشريعة الإسلامية مواقف لا يمكن أن تتحقق بها المساواة بين المرأة والرجل. وفي الحقيقة إن مسألة المساواة في كل شيء غير واردة وغير ممكنة كما في مسألة الزواج، فالرجل يمكن أن نعطيهِ حقَّ التزوُّج بأربع في حالات معينة، لكن هل يمكن أن نعطي هذا الحقَّ للمرأة؟ طبعاً لا، بل هي ذاتها لا ترضاه؛ لأن النسل حينئذٍ يختلط ويضيع، ولا يعرف الولد أباه، وتضيع العواطف ويضيع الجوُّ الأسري بضياعها.

وهذا المعنى نجده حتى عند الحيوانات فإذا شارك ذكر ذكراً آخر أنثاه فربما قاتله. فليس كلُّ مساواة تتحقق العدل، فهل من الصحيح المساواة بين العالم والجاهل؟

ومن الأشياء التي أخذوها على الإسلام قولهم: لماذا جعلتم دية المرأة نصف دية الرجل؟ والجواب أن المرأة في الإسلام لا تقتل حتى في الحرب إلا إذا اشتركت اشتراكاً فعلياً فيها؛ ولذلك عدَّ من العار على الزبيريين قتلهم زوجة المختار بن أبي عبيدة:

إن من أعجب العجائب عندي	قتل بيضاء حرة عطبول
قتلوا ظلماً على غير جرم	إن لله درهما من قتيل
كُتب القتل والقتال علينا	وعلى المحصنات جزّ الذبول ^(١)

(١) الأبيات لعمر بن أبي ربيعة، والقصة هي أنه لما أَمِن المختار في قتل قتلة الحسين عليه السلام جعلوا يفرّون إلى البصرة التي كانت ولا تزال في ملك الزبيريين، ففرَّ إليها شيبث بن ربعي، ومحمد بن الأشعث وغيرهما إلى نحو عشرة آلاف من قتلته عليه السلام، وجعلوا يستغيثون بمصعب ابن الزبير، وكان عاملاً لأخيه عليّ البصرة، ويسألونه النصر لهم والمسير معهم لحرب المختار بالكوفة. وما زالوا به حتى استقدم المهلب بن أبي صفرة بجيوش من فارس وكان عاملاً لهم عليها وسار بذلك الجيش مع من معه بالبصرة إلى حرب المختار. وما زال القتال قائماً بين الفريقين إلى أن قتل المختار عليه السلام يوم (١٥ / ٩ / ٦٧ هـ)، بعد (١٨) شهراً من ملكه.

فصاروا سبباً وصارت عليهم عاراً.
بل إن المرأة إذا رماها أحد بحجر أو عصاً عيروه. فالإسلام كرمها؛
لأنها تحمل شرف الأمومة وكونها ولدت الأنبياء والعباقرة والعظماء،
وهي الوعاء الذي يصنع الدنيا، والحضن الذي يُربّي الأخلاق والصدق
والوفاء ...

فالذي يرزق بحجر غير نظيف ينتهي إلى كارثة أخلاقية حيث يشبّ
على الجرم والانحطاط والتخلف؛ فهي إذن المصدر للأخلاق. وإذا قُتلت
المرأة في حالات خاصة فإن من حقّ الولي أن يقتل القاتل لكن يدفع
نصف الدية لورثته؛ فيوجد هنا فارق أدبي.

المبحث الثاني: الطلاق وأخطاره الاجتماعية

والأمر الأكثر خطورة هو في إعطاء الرجل حقّ الطلاق مطلقاً؛ إذ مع
تقييده وجعله وفق شروط معينة لا يكون فيه نوع خطورة، بل هو حينئذ

وبعث مصعب إلى حرم المختار ودعاهن إلى البراءة منه، ففعلن إلا امرأتين له إحداهما أمّ
ثابت بنت سمرة بن جندب الفزاريّ وثانيتها عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصاريّ، فإنهما
قالتا: كيف تبتراً من رجل يقول: ربي الله، وكان صائماً نهاره قائماً ليله، وقد بذل دمه لله
ولرسوله ﷺ في طلب ثار ابن بنت رسول الله ﷺ؟

فكتب مصعب إلى أخيه عبد الله بخبرهما، فكتب إليه: إن تبتراً منه، وإلا فاقتلها. فعرضهما
مصعب على سيف فرجعت ابنة سمرة وتبتراً منه، وقالت: لو دعوتوني إلى الكفر مع
السيف لأقررت. وأبت ابنة النعمان وقالت: شهادة أرزقها، ثم أتركها؟ يا رب، إنها موتة ثم
الجنة والقدوم على رسول الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين. ثم قالت: اللهم اشهد أنني متبعة لنبيك
وابن بنت نبيك وأهل بيته وشيعته. فأمر بها مصعب فأخرجت إلى ما بين الكوفة والحيرة،
وقتل صبراً. وفي قتلها قال عمر بن أبي ربيعة القرشيّ أبياته هذه.

تاريخ الطبري ٣: ٤٥١ - ٤٩٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢١١ - ٢٧٨، البداية والنهاية ٨:
٢٨٩ - ٣١٣.

والعطلول: المرأة الجميلة الفتية الطويلة العنق الشبيهة بالطيبة. لسان العرب ٩: ٢٦٥ - عطل.

يكون من التشريع. وهذه مصيبة وكارثة في المجتمع، فبوسع الطلاق أن يهدم العائلة ويشرد الأطفال. فبعض المذاهب الإسلاميّة - ويا للأسف - تذهب إلى أن المرأة تطلق حتى بالنيّة، فإذا نوى الرجل أن يطلق امرأته أصبحت مطلقة^(١) والبعض يقول: إن طلاق السكران صحيح^(٢) مع أن العقل هو مناط التكليف، فالخمر تشلّ عقله فكيف نقبل طلاقه؟ بل إن البعض يقول: حتى لو غلط صحّ طلاقه، فلو أراد القول: أنت طاهر، لكنه غلط وقال: أنت طالق، فهنا يقع الطلاق، مع أن الإرادة هنا غير موجودة، فكما أن «العقود بالقصود»، فكذلك الإيقاع لا يكون إلا بقصد حتى يحصل.

وهذه الآراء إما أنها تعتمد على روايات مخدوشة السند أو هي معارضة بما هو أصحّ منها أو لا تلتقي مع الملاك الصحيح بكلمة واحدة. وبعض المذاهب تجعل حقّ الطلاق ليس بيد الرجل فقط بل إنه إذا وكلها في صلب العقد بأن تتولّى الطلاق بنفسها فإن الطلاق يصبح بيدها^(٣). لكن ينبغي ألا ننسى أن المرأة تمتاز بغزارة العاطفة، وهذا ليس عبثاً بل هو لأجل أن تنشر روح اللطف والرفقة في بيتها، ففي الوقت الذي يقع الرجل فيه تحت طائلة مشاكله، فإنه إذا دخل البيت وجد الدعة والحنان، فزوجته بما لها من خصائص أودعها الله تعالى فيها تمتصّ منه الألم وتخفّف عنه متاعبه. فهي مصدر حنان ورحمة في البيت، وبما أنها

(١) انظر الأم ٥: ١٢٩، ٧: ١٦٦، وقريب منه ما في مختصر المزني: ١٩١، روضة الطالبين ٦: ٢٨، فتح المعين ٤: ٢١.

(٢) مختصر المزني: ١٩٤، عن الشافعي، روضة الطالبين ٦: ٢٣، فتح الوهاب ٢: ١٢٤.

(٣) وهو ما يسمّى بجعل العصمة بيد المرأة. انظر حاشية الدسوقي ٢: ٤١١.

خاضعة للجانب العاطفي والانفعالي، فلا يمكن جعل الطلاق بيدها. وكذلك الرجل لما يعيشه من ظروف عمل فإنه قد يكون منفِعاً لحظة ما فإنه حينها وإن طلق، لا يقع منه الطلاق.

وعندنا - نحن الإمامية - أن الطلاق لا بدّ فيه من الشهود والإرادة، كما لا بدّ من إيقاع الصيغة: (أنتِ طالق) ^(١) ولا يقع بغير صيغة، ونضع عقبات قبل الطلاق؛ ف«الطلاق يهتزل له العرش» ^(٢).

إذن هنا حقّ متبادل؛ فالمرأة غالباً عاطفية تنفعل بسرعة فلا يكون بيدها الطلاق.

المبحث الثالث: بعض الإشكالات حول تعامل الإسلام حيال المرأة

هناك إشكالات عدّة تثار حول هذا الموضوع؛ ومنها:

عدم أهلية المرأة لإمامة الصلاة والقضاء

ومفاد الإشكال أن المرأة لم تُعطَ الأهلية في الإسلام للأعمال التي يقوم بها الرجال مثل الإمامة لصلاة الجماعة وحقّ القضاء وحقّ الولاية العامة.

نعم، نحن نمنعها؛ لأنها كيان مرغوب فيه ولطيف، فكيف تكون أمام الرجال فتشغلهم عن الصلاة ^(٣)؟ وأمّا مسألة الولاية العامة فإنما يحظر على المرأة مزاولتها ليس لنقص فيها وإنما لحالة ذكرتها في موضوع

(١) النهاية: ٥١١، شرائع الإسلام ٣: ٥٨٣.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ / ٢٧٨٨٠.

(٣) والدليل على ذلك صحّة إمامتها للنساء. انظر: النهاية (الطوسي): ١١٢، السرائر ١: ٢٨١،

شرائع الإسلام ١: ٨١، ٩٤، ذكرى الشيعة: ٢٦٧، الأمّ ١: ١٩٩، عون المعبود ٢: ١١٣،

المصنف (الصنعاني) ٣: ١٤٠، المصنف (ابن شيبه) ١: ٥٣٦.

الطلاق، فالمرأة تمرّ بها ظروف قاهرة كظروف العادة الشهرية والنفاس، وتكون فيها عرضة للتأثر والانفعال والرقّة. وتوجد حالات لا تهيئها للقيام بالولاية أو القضاء، ولكن ذلك لا يمنع من ممارستها أدواراً أخرى، فالبعض قمن بالتدريس، فمثلاً الإمام الشافعي تلمذ لأمرأة، وتوجد مجتهدات كثيرات، ولا مانع من إسناد الدور العلمي لها، ولها حقّ أن تبيع وتشتري، ولها حقّ في الميراث حيث لها النصف بسبب أن الإنفاق وأمور المعيشة على الرجل مع بقاء حقّها محفوظاً لها دون أن تطالب بإنفاقه. لكن أقولها ببالغ الأسف: إن بعض الأقلام المأجورة أو الأقلام المغفلة تحاول تضخيم هذا والاستفادة منه.

عدم إعطاء المرأة حقّ التعلّم

وممّا يثار أيضاً في هذا المجال أن المرأة لم تُعطَ حقّ تعلّم القراءة والكتابة، والواقع أنه توجد رواية عن حمّاد بن سلمة عن عبد الله بن مسعود، عند المذاهب الإسلامية الأخرى، وهي: «لا تسكنوا نساءكم الغرف، ولا تعلّموهن الكتابة». ويعلّلها القرطبي بأنها إذا سكنت الغرفة (الحجرة العلوية) فإنها تعين الرجل، أمّا الكتابة فحتى لا تكتب لمن تحب^(١). وهذا من باب «سد الذريعة»، فهل نمنعها من المشي؛ لأنها إن أحبّت فستمشي لمن تحبّ، أو تقيّد كي لا تذهب إليه؟ مع أن القرآن الكريم يقول: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٢) والإنسان: الذكر والأنثى، والرسول ﷺ يقول: «طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة»^(٣)، وقد بعث

(١) الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٩، ٢٠: ١٢١، وانظر كنز العمال ١٦: ٣٨٠ / ٤٤٩٩٩، وفيه:

ولا تعلّموهن الكتاب. (٢) العلق: ٥.

(٣) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي

النبي ﷺ للشفاء بنت عبد الله العدوية وكلفها تعليم زوجته حفصة القراءة والكتابة^(١)، وهو ﷺ يشترط على الأسرى أن يعلم كل أسير عشرة من المسلمين لقاء حرّيته من دون فرق بين الذكر والأنثى^(٢).

الإيرادات على الإسلام ليست من الإسلام

ثم إنه توجد كثير من القضايا تدور حول المرأة في المجتمع الإسلامي، ويجب أن نعرف هل إنها جاءت من تعاليم الشريعة أو من روافد حضارية أخرى، وإن كانت من الإسلام فهل هي لتصنيف الأدوار أم لتفضيل الرجل عليها؟

إذن فالمرأة مكرّمة في الشريعة الإسلامية، ولم يكرّمها أحد كما كرّمها الإسلام؛ فقد جعل الجنة تحت أقدامها^(٣).

المبحث الرابع: في معنى ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ في الآية

فالآية تقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾، و﴿مَنْ﴾ للتبعيض؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يعمل كل الصالحات: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٤). و﴿الصَّالِحَاتِ﴾ اختلف في تفسيرها، فالبعض يقول: إن الصالحات هي ما نصّ عليها الشرع أنها صالحات، مثلاً لو لم يقل الله: إن الكذب حرام؛ فإنه يجوز الكذب حتى على النبي ﷺ. وهذا ما يسمى بالحسن والقبح الشرعيين، كما أنه يوجد حسن وقبح عقليّان، وقد عبّنا الشارع بالعقول.

حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

(١) المستدرک علی الصحیحین ٤: ٥٧، المعجم الكبير ٢٤: ٣١٦، الطبقات الكبرى ٨: ٨٤.

(٢) أوائل المقالات: ٢٢٦.

(٣) مستدرک وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، ١: ١٠٣ /

١١٩، كنز العمال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩. (٤) البقرة: ٢٨٦.

ف﴿مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ ألا يؤدي عملاً يضرّ بالمجتمع حيث إنه باعتقاده أنه عمل صالح في حين أنه لا يلتقي مع أذواق المجتمع ومع الشريعة، فيتقرب بشيء يبعده عن الله. فالمجتمع إذا أقرّ بشيء فعلينا أن نحكمه. ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى﴾^(١) من غير فرق بينهما.

المبحث الخامس: الفرق بين القبول والجزاء

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾^(٢)، قد يقول قائل: إذا عمل شخص عملاً صالحاً وهو غير مؤمن فهل إنه لا يقبل منه؟ والجواب أن القبول غير الجزاء، فإذا ابتكر عالم غير مؤمن علاجاً للسرطان أو وسيلة تخدم المجتمع فهل يكون له جزاء من الله؟ بعض الفقهاء يقولون: إن هذا العمل لوجه الله، فوجه الله هو محض الخير، وهذا فعل الخير، لكن دخول الجنة مشروط بالإيمان؛ لذلك يكافئه الله بعمر طويل أو مركز اجتماعي أو مجد في الدنيا أو سعادة وخير. بل إننا قد رأينا أن حضور غير المؤمن حتى في قضايا المسلمين حضور واسع؛ فالمسلمون مرّوا بنكبات كالشيشان والكوسوفو وفلسطين، فمن الذي أنقذهم ووفّر لهم اللباس والمسكن؟ نرى إسهامات المسلمين قليلة جداً، فأين نحن من «المسلم للمسلم عينه ويده ولسانه»، و﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٣)؟ فأبناء المجتمعات الأخرى يتعاطفون ويتراحمون ولا يعتدون على حق الآخر، وكلّ يسير ضمن القانون ويتناصفون به، ونحن لا نريد أن نقول: إن مجتمعهم مثالي، لكن مجتمعنا يعجّ بالنقص.

(٢) النساء: ١٢٤.

(١) آل عمران: ١٩٥.

(٣) الحجرات: ١٠.

وعلى أية حال فالمرأة في شريعتنا لم تُظلم، وإذا ظلمت فإما من ميراث اجتماعي، أو من أثر إحدى الحضارات التي تأثرنا بها، أو من أسباب وضعيّة، أما الإسلام فلم يظلمها، فالله لا يظلم أحداً وهو بعباده غفور رحيم، وقد كرّم الأدميين^(١).

المبحث السادس: الدور الحقيقي للمرأة في الإسلام، زينب أنموذجاً

ولنأخذ نموذجاً للمرأة وهي زينب عليها السلام التي يعبر عنها أحد الشعراء

بقوله:

يا ابنة المجد في ذرا آل فهر وابنة الوحي في مدى جبريل
يانسجاً به مزاج علي وهدى أحمد وزهو البتول

وفعالاً هكذا كانت (سلام الله عليها)، يقول الشيخ الصدوق: كانت لها نيابة خاصّة عن الحسين عليه السلام^(٢)، فما السبب الذي أخرجها من بيتها وهي زوجة عبد الله ابن جعفر؟ وكيف خرجت من بيتها مع أولادها الاثنين

(١) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ الإسراء: ٧٠.

(٢) نقل في ذلك رواية في كمال الدين وتمام النعمة: ٥٠١ / ٧٢، ٥٠٧ / ٧٢، قال: حدثنا أحمد بن إبراهيم قال: دخلت على حكيمة بنت محمد بن علي الرضا عليه السلام أخت أبي الحسن العسكري عليه السلام في سنة اثنين وثمانين بالمدينة، فكلمتها من وراء الحجاب وسألتها عن دينها فسمت لي من تأتم به، ثم قالت: فلان بن الحسن عليه السلام، فسمته، فقلت لها: جعلني الله فداك، معاينة أو خبراً؟ فقالت: خبراً عن أبي محمد عليه السلام كتب به إلى أمه. فقلت لها: فأين المولود؟ فقالت: مستور. فقلت: فإلى من تفرع الشيعة؟ فقالت: إلى الجدة أم أبي محمد عليه السلام. فقلت لها: أفتدي بمن وصيته إلى المرأة؟ فقالت: اقتداء بالحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، إن الحسين بن علي عليه السلام أوصى إلى أخته زينب بنت علي بن أبي طالب عليه السلام في الظاهر، وكان ما يخرج عن علي بن الحسين عليه السلام من علم ينسب إلي زينب بنت علي تستراً على علي بن الحسين عليه السلام.

وعنه بنصّه في وفيات الأئمة (لمجموعة من علماء البحرين): ٤٤٠.

(محمد) و(عون) اللذين قتلا في الطف؟

موقف لعبد الله بن جعفر

وقد حاول أحد غلمان عبد الله بن جعفر التزلف له بعد واقعة الطف، فقال له ناعياً ولديه: هذا ما لقينا من الحسين بن علي. فأخذ عبد الله نعله وحذفه به وقال: يا ابن اللخناء، أللحسين تقول هذا؟ والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه، والله إنه لممّا يسخي بنفسي عنهما ويعزّي عن المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخي وابن عمي مواسيين له صابرين معه. ثم قال: إن لم أكن أسيت حسيناً بيدي فلقد آساه ولدائي^(١). خرجت زينب عليها السلام، وأناط بها الحسين عليه السلام مجموعة من الوظائف منها قيادة الحملة مع ما فيها من الرجال والنساء، فالحسين عليه السلام يوظفها لدور الإسلام في واقعة الطف، فنرى موقفها في ليلة العاشر من المحرم وموقفها في صبيحته وموقفها بعد المعركة في مجلس ابن زياد ثم في مجلس يزيد، نراها تمارس دورها الإعلامي على أتم وجهه، وهو دور بطولي شرحت فيه للناس ما صنع الأمويون، ثم مارست ذلك الدور في المدينة، ممّا اضطرهم لأن يخرجوها من المدينة وينفوها منها إلى مصر على رأي بعض الروايات أو إلى الشام على رأي البعض الآخر^(٢)، والروايات متكافئة.

وهذا ليس مهماً، فزينب محفورة في قلب كل مسلم، يقول الشيخ الصدوق: دخلت على الحسين عليه السلام ليلة العاشر وهو يقرأ القرآن، فوضع

(١) الإرشاد ٢: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ١٢٤، تاريخ الطبري ٤: ٣٥٧.

(٢) انظر: وفيات الأئمة: ٤٦٧، ٤٦٨، مستدرک سفينة البحار ٤: ٣١٦-٣١٧، من كتاب السيدة زينب.

القرآن على المحراب وتوجه إليها واشترك معها في المصائب. وكانت شريكته في الكفاح، فعندما رجع الحسين ولم يبقَ أحد يجلب له فرسه أو يناوله سلاحه وقف بباب الخيمة وهو يقول: «من يقدم لي جوادي؟». فمرت زينب بتثاقل وجاءته بالجواد وهي تتمتم بهدوء وتقول: أي أخت تقدم لأخيها فرس المنية؟ ما أجلدني وما أقسى قلبي؟ جاءت بالجواد فلمح الحسين عليه السلام في عينيها دمعة، فأدناها إليه قال لها: «أخية تعزي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان، اعلمي أن أهل السماء لا يقبون، وأهل الأرض يموتون ولي ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة. أخية تمسكي بحبال الصبر»^(١). صاحت: والوعتاه ابن أم أراك تغتصب نفسك اغتصاباً^(٢):

آه إن چان تریدني أنس ابطل النوح وونيني
إخذ نكراك من كلبني واخذ صورتك من عيني
أيام الجنة وياك أناغيك وتناغيني

ولم يُطل الإمام الحسين عليه السلام الوقوف معها؛ لأنه تأثر وانفعل، فمسح بيده على كتفها وودّعها بسرعة، وكأنها تقول له: إن خرجت من الخيمة فلم تخرج من مشاعري. ثم خرجت إليه نصف الليل بعد مقتله:

منهو انصدع يا بين صدعي لهدات تسعر تحت ضلعي
أخبي عن الشفقات دمعي واضمّ وتتي حتى على سمعي

وانذكرك بنص الليل والعي



(١) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

(٢) مقاتل الطالبين: ٧٥.

المرأة بين الحقوق والواجبات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: ورقة حقوق المرأة والمناوئين للإسلام

تكثر هذه الأيام المؤتمرات والندوات التي تحمل شعار تجسيد حقوق المرأة، وهذه تحدث في أوروبا وغيرها، ونحن جعلنا من دورنا تلقى الشعارات وإن لم تكن من متبنياتنا. وبعض من مفكرينا يرى أن المرأة في مجتمعاتنا لا تُعطى كامل حقوقها الشرعية؛ والسبب أننا نمثل امتداداً لشعب الجزيرة العربية، وهي تتعامل مع المرأة تعاملاً خاصاً قائماً على أساس موروثاتنا، وهي إلى الآن لم تأخذ حقها كما ينبغي على الأسس الإسلامية.

(١) البقرة: ٢٢٨.

ونودّ أن نلفت النظر إلى أن انكلترا قد سنّت فيها المحاكم الكنسيّة قانوناً يجوّز للرجل أن يعير زوجته لرجل آخر، وهذه المحاكم الكنسيّة ترتبط بالدين، وفي انكلترا أيضاً صدر قرار سنة (٥٦٧)م في مجلس النّوّاب لا تُمنح المرأة بموجبه أي سلطة على أي شيء. والقانون الإسكتلندي يمنع المرأة حتى من حيازة العهد الجديد (الإنجيل)؛ متذرعاً بالقول: إنها غير نظيفة. وكانت المرأة في القرن الحادي عشر تباع في إنكلترا.

ونحن الآن في القرن العشرين ومع ذلك بدأت ألحظ بعض الظواهر، وسألت من المفكرين الإنكليز وبعض المسلمين المقيمين: مانمط الزواج من المرأة في هذا البلد؟ وكيف يتم؟ فأجابوا: أيّ شخص يرغب في امرأة يضمها إليه. وبالعكس، فلا عقد أو وى شيء يربطهما، بل هي مجرد علاقة تقوم على التواصل الجنسي فقط، ونادراً ما يتزوّجون في الكنيسة؛ فإن زالت عندهما الرغبة في بعضهما تركا بعضهما، ويبقى الأطفال ضائعين. وكذلك إذا كبر الأب أو الأمّ فإنهم يرمونهما في دور العجزة، فلا توجد إنسانيّة ولا حنان، فلا يشعر أب بابنه أو حفيده. وهذا ما لا نريده، إذن فليقل: ظلمها المجتمع، لكن لا يُقل: ظلمها الإسلام؛ فالإسلام ليس عنده مصلحة في أن يظلم نصف المجتمع.

المبحث الثاني: إشكالات حول دور المرأة في المجتمع الإسلامي

نأتي للآية: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي للنساء من الحقوق مثل الذي عليهن من الواجبات. وهنا إشكالات وآراء عديدة للمفسرين حول هذا، نلخصها بالآتي:

الأول: مسألة الطلاق

وهي إعطاء الرجل حقّ التخلية في الطلاق، فلمّا كان «الطلاق بيد من أخذ بالساق»^(١)، فإن هذا قد يوّلّد حساسيّة؛ فمثل هذه الكلمة يمكن أن تضيّع المرأة. والحقيقة أنه توجد ثغرة منشؤها سوء فهم النصّ، فمع أن الرجل يملك حقّ الطلاق، لكن يجب أن نعرف كيف يقع، فالطلاق له شروط صعبة كيلا تنهدم الأسرة؛ لأنه إذا انهدمت الأسرة انهدمت خلية من المجتمع، وضاع الأولاد، وبالنتيجة سيصبحون مجرمين، أو أدوات بأيديهم.

شروط الطلاق عند الإمامية

وعند الإمامية أن طلاق السكران لا ينفذ؛ لأنه لا يملك الإدراك، والإرادة هنا منعدمة؛ فهو باطل، وطلاق الثلاثة نعتبرها طلاقة واحدة، والطلاق بغير لفظ الطلاق باطل، فإذا لم يقل: «أنت طالق» فإن الطلاق لا يقع، في حين أن عند غيرنا إذا قال الرجل لها: «أنت عليّ كظهر أمي» أو «أنت كأمي» فإنها تطلق. والطلاق عندنا لا بدّ أن يكون في طهر لم يقربها فيه، وأن يُشهد على الطلاق، وأن تكون لديه الإرادة وأن يكون باللفظ المعين^(٢).

وقد وضع الاسلام عقبة وهي تصريحه بأن «الطلاق يهتزّ له العرش»^(٣)

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٣٤ / ١٣٧، مستدرک وسائل الشيعة ١٥: ٣٠٦ / ١٨٣٢٩، سنن ابن ماجه ١: ٦٧٢ / ٢٠٨١، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٣٦٠.

(٢) انظر شرائع الإسلام ٣: ٥٧٩ - ٥٩٣.

(٣) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ - ٩ / ٢٧٨٨٠.

وهو «أبغض الحلال عند الله»^(١).

فإذا حصل شيء من سوء التفاهم بين الزوجين فإن عليهما أن يتذكرا أن هناك شيئاً فوق المزاج وفوق هذه الخلافات، وهو الولد والأسرة، فعلينا ألا نجعلهما ضحية، فإذا كنت لا تريدها فعليك أن تخيّرهما بين أن تبقىها فتأخذ هي حقوقها المنصوص عليها، وبين الطلاق، فإن رضيت فهو الصلح، والصلح خير. وكذلك في حالات أخرى حيث نرى أن المرأة عندما لا تريد الزوج فإنها تتركه، فهل الزواج موضوع تسلية؟ مع ما يترتب على ذلك من أنها تترك طفلها، وما ذنب هذا الطفل؟ هذا شيء يأباه الدين ويعاقب عليه، فهو يمنع من ظلم أبسط الحيوانات، فكيف بالإنسان وهو أشرف الكائنات؟ فإذا كان الزوج كذلك، فإن المرأة لها أن تشترط الوكالة على طلاق نفسها في صلب العقد، وهو حق يمنحها إياه الإسلام^(٢).

أسباب الطلاق

ومعلوم أن الطلاق يأتي غالباً نتيجة لسرعة الزواج، فالزوج حينما لا يدرس وضعه ولا وضع زوجته قبل الزواج فإن من الممكن أن تكون النتيجة هي الطلاق. أو أن البعض عنده مال ويريد أن يتزوج من آل فلان، وهم أسرة متميزة، لكن بعد الزواج تبدأ التناقضات. ومثل هذا ما حدث بين زيد بن حارثة وزوجته، فزوجته تقول: أنا بنت عبد المطلب أما أنت

(١) سنن ابن ماجة ١: ٦٥٠ / ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٢١٧٨.

(٢) وذلك عند ارتكابه بعض الأمور؛ من سفر طويل أو جريمة يسجن عليها، فتكون حينئذ وكيلة على طلاق نفسها، ولا يجوز له عزلها إذا طلقت. انظر منهاج الصالحين (الخوئي) ٢: ٢٨١ / المسألة: ١٣٥٩.

فمولى. فأمره النبي ﷺ بتطليقها.

فهذا اللون من التعالي ينبغي الابتعاد عنه، وأن يتزوج الإنسان من طبقته، والله أمرنا بالعدل، وهو وضع الشيء في موضعه، وكذلك الزواج ينبغي أن يكون في موضعه، فيجب أن أعرف الأسرة التي تناسبني وأناسبها. وكذلك الذي يريد تزويج ابنته فيجب ألا يبحث عن المال فقط، فـ«ابنتك كريمتك، فانظر لمن ترقها».

ولذلك لمّا دخل الأشعث بن قيس على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام - وهو رئيس قبيلة ضحمة، وعنده أموال - يخطب إليه زينب عليها السلام رفض الإمام تزويجه منها؛ حيث إن الأشعث كانت له انحرافات كبيرة وخطيرة. وكان ذلك مدعاة له لأن ينقم على الإمام عليه السلام فيما بعد ويشارك في قتله، وهو الذي كان يقول لعبد الرحمن بن ملجم حينما أدركه الفجر: النجا النجا لحاجتك؛ فقد فضحك الفجر^(١). أي اقتله قبل أن يطلع الفجر. والأشعث له قضايا كبيرة.

والإمام عليه السلام أراد أن يضرب لنا مثلاً: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه»^(٢). فالأشعث ليس له دين، ومثل هذا عليّ أن أبعده، أمّا الملتزم ومن يتخلّق بأخلاق الاسلام فليس هناك مانع من أن أزوجه.

ومع هذا كلّه يعد الأشعث بن قيس - وبالأسف - شيخاً من شيوخ الحديث، بل ومن شيوخ الإمام البخاري^(٣)، وسألني البعض: لماذا عندكم موقف سلبيّ من البخاري؟ فقلت له: على العكس، نحن نحترمه

(١) شرح نهج البلاغة ٦: ١١٧، الطبقات الكبرى ٣: ٣٦، أسد الغابة ٤: ٣٧.

(٢) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ - ٣.

(٣) انظر صحيح البخاري ٣: ١١٦، ١٥٩، ١٦٠، ١٦٦، ٧: ٢٢٤، ٢٢٨، ٨: ٤٢.

ونقدّر له جهده الذي بذله في تأليف هذه الموسوعة، لكن نحن لا نأخذ برواياته، وسأضرب لك مثلاً. قال: تفضل. قلت: عمران بن حطان يقول لعبد الرحمن بن ملجم:

ياضربة من تقّي ما أراد بها إلا ليلبغ من ذي العرش رضوانا
إنّي لأذكره يوماً فأحسبه أوفى البريّة عند الله ميزانا

ويرد عليه أحد كبراء شعراء السنّة وهو عبد القاهر التميمي فيقول:

إنّي لأذكره يوماً فألعنه دهرأ وألعن من يعطيه غفراناً^(١)

ونحن نسأل البخاري: بمقدّساتك ودينك، لو كان عبد الرحمن بن ملجم هذا قد قتل أبا بكر أو عمر، هل كنت تأخذ بروايته؟ قطعاً لا يأخذ. لكن هذا قاتل إمام المتّقين، ويمدحه ابن حطان وهو شيخ من شيوخ البخاري، فهل تريدني أن آخذ بروايته^(٢)؟ فهذا هو عمران بن حطان. وكذلك حريز بن عثمان كان يجلس صباحاً ويتقرّب إلى الله بلعن الإمام عليّ عليه السلام سبعين مرة، وهذا شيخ من شيوخ البخاري أيضاً^(٣)، فهو يسبّ رجلاً يقول عنه الرسول: «حبّك حبّي وبغضك بغضي»، و«من مات يحبّك بعد

(١) قال الأمير العلامة أبو سعيد نشوان بن سعيد الحميري اليميني في (الحوار العين) بعد أن نقل أبيات عمران هذه: فبلغت الأبيات القاضي أبا الطيب الطبري، فقال:

يا ضربة من شقيّ ما أراد بها إلا ليهدم من ذي العرش بنيانا
إنّي لأبرأ مما أنت قائله عن ابن ملجم الملعون بهتانا
إنّي لأذكره يوماً فألعنه وألعن الدهر عمران بن حطانا
عليك ثمّ عليه الدهر متّصلاً لعائن الله إسراراً وإعلانا
فأنتم من كلاب النار جاء به نصّ الشريعة برهاناً وتببانا

انظر الحوار العين: ٢٠١. (٢) انظر صحيح البخاري ٧: ٤٥.

(٣) انظر صحيح البخاري ٤: ١٦٤.

موتك ختم الله له بالأمن والإيمان، ومن مات يبغضك مات ميتة جاهليّة وحوسب بما عمل في الإسلام»^(١).

فكيف آخذ بروايته، وهو ليس له نصيب من الإسلام؟ ومثال آخر أن روايات أيمة أهل البيت عليهم السلام لا يؤخذ بها ويؤخذ برواية مروان ابن الحكم، ولتقف عند الروايات التي وضعها الأمويون، فهل أنت لا تدري أن الذين كتبوا التاريخ هم الأمويون؟ فهذا والي الأمويين خالد بن عبد الله القسريّ على الكوفة - وهو أحد الذين كتبوا التاريخ الإسلامي - كان عنده كاتب، فقال له يوماً: عندي مشكلة. قال: ماهي؟ قال توجد روايات تمدح علي بن أبي طالب وتمدح الأنصار - وكان عند الأمويين حساسية تجاه الإمام علي عليه السلام وتجاه الأنصار؛ لأنهم كانوا معه يوم صفين - فهل أذكرها؟ قال: لا، لا تذكرها إلا أن تجده في قعر جهنم.

فهل هذا يذكر لعلي بن أبي طالب عليه السلام منقبة؟ بل إنه لا تطيب نفسه بذكر ولو رواية واحدة في تكريم هذا الرجل، وكل ما تجده روايات تطعن في الإمام علي وزوجته عليهما السلام، كرواية أن الرسول صلى الله عليه وآله دقّ عليهم الباب فلم يخرجوا إلى الصلاة إلى أن طلعت عليهم الشمس وهم لم يصلوا، فهل يعقل أن الإمام علياً وفاطمة عليهما السلام تطلع عليهما الشمس ولم يصليا؟ إن هي إلا كرواية أن النبي موسى عليه السلام جاء إليه عزرائيل ليقبض روحه، فقال له: «ماذا تريد؟». قال: «أريد أن أقبض روحك». فضربه موسى بعينه ففقاها، وردّه إلى ربه وهو أعور^(٢).

فنحن لا يمكن أن نقبل بهذا الحديث وأمثاله قطعاً.

(١) مسند أبي يعلى ١: ٤٠٣ / ٥٢٨، كنز العمال ١١: ٦١١ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٥٩ / ٣٦٤٩١، جواهر المطالب ١: ٧٠. (٢) صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

أم أنك تريدني أن أبغض الذي يقول عنه النبي ﷺ: «من أحببك فقد أحببني، ومن أبغضك فقد أبغضني»^(١)، و«أنت مني بمنزلة هارون من موسى»^(٢)، ومن هو ابن عم الرسول ﷺ ونفسه كما جعله القرآن^(٣)؟ يجب أن تكون المقاييس علمية ومحفوظة، ويجب أن يكون لدينا موقف من المرويّات ومن النظريات.. موقف من هذا اللون من الروايات التي تحاول دفع الناس إلى الابتعاد عن إمام المتّقين علي ابن أبي طالب عليه السلام.

نرجع للموضوع، فإنّ هذا الرجل (الأشعث) إنما رفضه أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأن الزواج لابد أن يقوم على أسس صحيحة، فالله تعالى يريد منا أن نتخيّر قبل أن نقدم على الزواج، ولا بد من حفظ كرامة المرأة؛ لأنها هي عماد الأسرة، والإسلام يعطيها كياناً لا حدود له ضمن فطرتها وقابلياتها.

الثاني: مسألة الميراث

وقضية الميراث تبرز كمشكلة أخرى هنا، حيث يُشكل بعضهم بالقول: إن في مسألة الميراث في الإسلام ثغرات بالنسبة للمرأة، فلماذا تُعطى مثلاً النصف، وفي بعض الحالات تحرم؟ أما مسألة إعطائها النصف فهي معروفة، حيث إن هناك قاعدة تقول:

(١) أسد الغابة ٤: ٣٨٢، تهذيب الكمال ١: ٣٥٩، بشارة المصطفى: ٢٥٣.

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٢٠، فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣ - ١٤، الجامع الصحيح ٥:

٣٠٢ / ٣٨٠٨، ٣٠٤ / ٣٨١٣ - ٣٨١٤، السنن الكبرى (التسائي) ٥: ٤٤ / ٨١٣٨ - ٨١٤٣،

فتح الباري ٧: ٦٠.

(٣) في قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاؤَنَا وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾. آل

عمران: ٦١، انظر: مسند أحمد ١: ١٨٥، الجامع الصحيح ٤: ٢٩٣، ٥: ٣٠٢، وغيرهما كثير.

«الْغَنَمُ بِالْغَرَمِ»^(١)، أي أنك تأخذ بالمقدار الذي تخسره، فالرجل مسؤول عن تكاليف الحياة ومستلزماتها، والمصاريف والسكن، أما المرأة فليست مسؤولة عن ذلك كله، بل هي ليست مسؤولة حتى عن ثمن العلاج، فهي تدخر المبالغ التي تدخل حيازتها، بخلاف الرجل. وقد يسأل أحد: لماذا لا تعطون المرأة حصّة من الأرض، بل وفي بعض الحالات تحرمونها من نصيبها الأعلى؟ لنوضح ذلك، فإنّ المرأة لها نصيب أدنى ونصيب أعلى، النصيب الأدنى هو الثمن لزوجة مات زوجها وعندها أولاد منه، أما إذا لم يكن عنده أولاد فتأخذ الربع، وهو النصيب الأعلى.

ميراث أبناء الأبناء وحجبهم غيرهم

وهنا مسألة هي أنه إذا مات الرجل وعنده أولاد من ابنه أو ابنته المتوفيين في حياته، فهؤلاء الأولاد هل يمنعون المرأة أن تأخذ نصيبها الأعلى وهو الربع، أم لا؟ الشوافع^(٢) والمالك^(٣) يقولون: إن ابن البنت لا يرث نهائياً ولا يحجب، أما عندنا فإن الرجل إذا مات وعنده بنت قد ماتت وهذه لها بنت، فهذه البنت تمنع المرأة من الحصول على ميراثها الأعلى، أي أنها حينئذ تأخذ الثمن^(٤). فهذا ليس حرماناً بل هو توزيع، فهذه ابنتي ومن صليبي.

أما الجواب عن مسألة الأرض فهو أن هذه المسألة حسّاسة جداً؛ لأنها وسيلة الإنتاج الأولى فأنا مثلاً إذا كان عندي قطعة أرض فإنه لا يمكن لي

(١) وتقابلها قاعدة: من له الغنم فعليه الغرم. بلغة الفقيه ١: ١٧٨.

(٢) المجموع ١٦: ٩٠. (٣) الثمر الداني: ٦٣٩ - ٦٤٠.

(٤) الناصريات: ٤١٣، كفاية الأحكام: ٢٩٢.

أن أنساها، بل إن ذكراها تظلّ باقية في ذهني ولا تفارق رأسي. ولذلك عندما سئل الإمام عليه السلام: لماذا لا تأخذ المرأة من رقة الأرض؟ قال عليه السلام: «لئلا يتزوجن فتدخل»^(١) عليهم من يفسد موارثهم»^(٢). فالرجل إذا كان قد توفي وبقيت زوجته، ثم تزوجت بآخر، فإن الأرض إذا كانت عندها، فإنه حتماً سيأخذها سواءً بآرث أو بكونها ملك زوجته، وهو أجنبي عنهم؛ فمن الممكن جداً حينها أن تحدث بينهم الكثير من المنازعات.

وقد يسأل سائل: إن البنت إذا أخذت الأرض فكذلك ستتزوج وتذهب الأرض، فلم لم تحرم كذلك؟

فنقول له: إن المسألة تختلف؛ فإن البنت من صليبي؛ فهي بالتالي دمي ولحمي^(٣). فالمشرع الإسلامي عندما منع الزوجة من موضوع الأرض وإنما منعها حتى لا تحصل مشاحنات ومنازعات ومشاكل، ومن جملتها أن العلاقات تتعقّدين المجتمع، والله يريد أن تكون علاقات منسجمة وطبيعية، فهو لم يحرمها وإنما أراد أن ينظم العلاقات ويعطيها الحق الذي يتناسب مع تنظيم هذه العلاقات.

الزوجة تأخذ ثمن الأرض لا عينها

وهناك نظرية عند بعض فقهاءنا تقول: إن حق الزوجة في الأرض هو أن تأخذ ثمنها، حيث تُقوّم الأرض وتأخذ ثمنها وتشتري به أرضاً في مكان

(١) كذا، والظاهر أنها: فيدخلن.

(٢) الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٤.

(٣) كتب الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان فيما كتب من جواب مسأله: «علّة المرأة أنها لا ترث من العقار شيئاً إلا قيمة الطوب والنقض؛ لأن العقار لا يمكن تغييره وقلبه، والمرأة يجوز أن ينقطع ما بينها وبينه من العصمة ويجوز تغييرها وتبديلها، وليس الولد والوالد كذلك؛ لأنه لا يمكن التفصّي بينهما، والمرأة يمكن الاستبدال بها. فما يجوز أن يجيء ويذهب كان ميراثه فيما يجوز تغييره وتبديله إذا أشبههما، وكان الثابت المقيم على حاله كمن كان مثله في الثبات والقيام». الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٩.

آخر إن أرادت^(١). فليس في مسألة الميراث مشكلة من هذه الناحية؛ من حيث إن الزوج هو المسؤول عن البيت وتكاليف الحياة، فلا يوجب ذلك نقصاناً للمرأة، فكلاهما ذو إرادة، وكلّ ما في المسألة أنها ترتبط بالتنظيم الاقتصادي للمجتمع.

الثالث: مسألة الجهاد

والتساؤل حول قضية الجهاد هو: لماذا منع الإسلام المرأة من الجهاد ولم يكلفها به؟ ولماذا خصّه بالرجل؟

ونقول: هل إن المرأة بتركيبها الجسدي هذا تستطيع أن تتحمّل تلك الشدائد؟ كما أن هناك حالتين من الجهاد: حالة جهاد ابتدائي، وحالة دفاع. وحالة الدفاع غير حالة الجهاد، فحالة الدفاع أن يتعرض بلدك إلى هجوم من عدوك فتضطرّ إلى الدفاع عنه، فلا يقتصر الدفاع حينئذٍ على الذكور بل حتى الإناث والصبيان. فهذه هي حالة ثانوية، وهي الدفاع عن الوطن والأعراض.

أما الناحية الأخرى فهي الجهاد الابتدائي، فإن الجيش الإسلامي خارج لإعلاء كلمة الإسلام ومحاربة المشركين، وليس هناك حالة اضطرارية، فللمرأة رخصة. والمجتمع فيه شقان: مدني، وحرّبي. فالمدني هو المرأة حيث إنها مسؤولة عن البيت والأطفال، وتقوم بواجباتها وترعى نصف المجتمع، والرجل للحرب ليقوم بالالتزام تجاه نصف المجتمع.

فالإسلام لم يمنع المرأة من الجهاد، بل توجد بعض النساء أقوى من بعض الرجال، وقد ثبت علمياً ومن الواقع أن المرأة أحياناً أصعب بكثير

(١) إيضاح الفوائد ٤: ٢٤١.

من بعض الرجال. ونذكر رواية هنا هي أنه لما غزا اليهود المدينة أمر النبي ﷺ، فجمعوا النساء على الأطم (المرتفعات) وطوقوها حتى لا يهجم اليهود عليهن، وخرج المسلمون للقتال. وكانت صفية بنت عبد المطلب ترصد فرأت يهودياً يدور حول الأطم، وكان حسان بن ثابت معها، وكان غير شجاع، فقالت: هل رأيتَه؟ قال: نعم. فقالت: هذا سيف فاذهب واضربه لأنه سيرى عوراتنا ويعرف نقطة الضعف فيدل عليها من خلفه من اليهود فيهجمون علينا. فقال: لا، قد علمت ما أنا بصاحب هذا. فنزلت صفية وضربت اليهودي بعصا، ثم قالت له: إنني قتلته وعليه بزة كاملة (ما يحتاجه المقاتل)، فاذهب لأخذها. قال: لا، جنينني هذا؛ فإنني لا أستطيع أن أرى الدم^(١). فهذا رجل وهذه امرأة، وهذا طبعاً له علاقة بالتربية والتكوين.

فالبينة التي يعيش فيها الإنسان تنعكس عليه، لذلك يقول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾^(٢)، يعني عندما يأمر بالإعداد فإنه لا يأمر بشيء لا يمكن له أن يتحقق، بل إنه يكون في إطار الإمكان، فالإمكان موجود؛ فإنه إذا رُبي في أجواء الرجولة فسيكون رجلاً قوياً. وعليه فإنّ الجهاد عندما فرض على الرجل فإنه لم يكن احتقاراً لقباليات المرأة، مع أن الإسلام قد أعطاهم عوض ذلك «جهاد المرأة حسن التبعل»^(٣)، أي قيامها بواجباتها الأسروية فتشارك زوجها في بناء الأسرة، فالإسلام يكرم المرأة^(٤) بإنابته بها مثل هذه الأدوار

(١) الأمازي (الطوسي): ٢٦١، تاريخ مدينة دمشق ١٢: ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٧: ٣٧٩.

(٢) الأنفال: ٦٠.

(٣) الكافي ٥: ٩ / ١، كنز العمال ١٦: ١٤١ / ٤٤١٧٣، ٤٤١ / ٢٤١، ٤٤٣٠٨.

(٤) جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يارسول الله، من أبر؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال:

فالإسلام لم يسلب المرأة حقوقها مطلقاً، بل نحن من يسلبها ذلك، فإننا نسمى مسلمين لكن ممارساتنا ليست ذات صبغة إسلامية، بل هي بعيدة عن الإسلام حيث لازلنا نعيش بعض أجواء الجاهلية حتى إزاء الأولاد والمجتمع. فموارثتنا تحتاج إلى تعديل، ونحن بحاجة إلى الترويض على تعديلها، فعندما نمسك مسلماً ونقول له: هل تحسن أدبيات السلوك الأسروي حينما تدخل بيتك، وكيف تعامل زوجتك وأطفالك؟ فإنه قد لا يجد ما يجيبك به. والحال أنه توجد مجموعة قواعد ونظم في الإسلام حول ذلك، وظيفتها تقنين الحياة الأسروية.

وها قد بينا وضع المرأة في قمة المسؤولية والتكريم من قبل الإسلام، والدليل على ذلك أن المرأة لعبت أدواراً في تاريخ الإسلام لا تقل أهمية عن الرجل؛ فقد أعطاه مكانة في الأسرة، وفي مجال الحرب، وفي الأوضاع السلمية. وتاريخنا حافل بالنجوم من النساء، حيث إن هناك نساء ضربن أسمى الأمثلة، ومن ذلك أنه دخل ابن عباس وجماعة على الإمام الحسين عليه السلام وقالوا له: إنك ستخرج وستقتل، فما حملك لهؤلاء النسوة؟ فأشار عليه السلام إلى جملة من خواصه وقال: «أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي ديني يأمرني بذلك، فهي عليها النصف مما أقوم به أنا، وهذه مؤهلة للقيام بهذا، فأنا سأعطي دماً والمرأة ستعطي موقفاً.

وفعالاً كانت مولاتنا زينب عليها السلام في غاية الصلابة، وكانت تدير شؤون العائلة بأجمعها، وترعى الرجال. يقول أحدُ دباثنا:

«أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك». الكافي ٢: ١٥٩ / ٩.

وكذلك قال عليه السلام: «الجنة تحت أقدام الأمهات». مستدرک وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، عن لب اللباب (القطب الراوندي)، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز

العمال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

يا ابنةَ المجدِ في ذرا آلِ فهِرٍ وابنةَ الوحي في مدىِ جبرئيلِ
 وابنةَ الطهرِ فارقِ الجاهليّاتِ ت وأعرّاقها بجذرِ أصيلِ
 يانسجاً به مزاجِ عليٍّ وهدى أحمدٍ وصبرِ البتولِ

وحملت إلى جانب الحسين عبء النهضة، وسنرى كيف لعب لسانها دوراً في مجلس ابن زياد، ومجلس يزيد، وفي الكوفة، وفي السبا، وهي تعرب عن لسان أبيها. تأمل هذه النبذة التي تنم عن قوّة الجنان وبُعد الإدراك، تقول ليزيد: «كِد كيدك واسعٌ سعيك وناصرٌ جهديك، فوالله لا تمحو ذكرا ولا تميم وحيناً، وهل رأيك إلا فند وصحبك إلا بدد وأيامك إلا عدد يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين؟». وهو لا يملك شيئاً أمامها فيقول: لعمرى، إنها لسجاعة. قالت: «إن لي عن السجاعة شغلاً»^(١). فالتجأ إلى السباب والشتم، ورحم الله أحد أدبائنا حيث يقول في أرجوزة له:

وإن من أدهى الرزايا السودِ وقوفها بين يدي يزيدِ
 أتوقف المرأة من آل العبا بين يدي طليقها واعجبا

وعندما شتمها قالت: «أنت أمير تشتم ظالماً، وأنا امرأة لا والد ولا عمّ ألؤذبه». فأخرجوها، وعادت إلى الخربة ومعها لغييف الأسرة، و جلبوا لها الرأس الذي ألحّت الطفلة على جلبيه إليها، فتوجّهت زينب نحو الحسين ...



(١) الاحتجاج ٢: ٣٧، مثير الأحران: ٧١، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٥، ١٦٠، بلاغات النساء (ابن طيفور): ٢٣.

﴿٤﴾

تكريم المرأة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ
أَيُّمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ
أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: بعض الجوانب الإيجابية حيال المرأة

ترسم هذه الآية الكريمة صورة من الصور الاجتماعية التي كانت سائدة في محيط الجزيرة العربية قبل الإسلام، واستمرت رواسبها إلى ما بعد الإسلام. وهذه الآية نزلت بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٢)، فمن هنا نعرف أن الإسلام يبدأ مع المرأة منذ انفصالها عن رحم الأم إلى نهاية حياتها، ويعالج نظرة المجتمع لها. ولدينا في هذا الموضوع جانبان:

(٢) النحل: ٥٨.

(١) النحل: ٥٩.

الأول: الجانب الموضوعي

وهو أن النساء شقائق الرجال، ولا فرق بينهما وبين الرجال، غاية ما في الأمر أن المرأة لديها وظائف خاصة في الحياة، والله تعالى كيف أعضاؤها وفقاً لتلك الوظائف، والرجل له وظائف خاصة في الحياة فكيف أعضاؤه وفقاً لتلك الوظائف أيضاً. وهنا لابد من توضيح نقطة مهمة، هي أن المدرسة السلوكية التي يترأسها «فرويد» تقول: إن الوظيفة تخلق العضو، في حين أن المدرسة الإسلامية تقول: إن العضو يخلق الوظيفة. فوظيفة الطير مثلاً هي الطيران، وهذه الوظيفة عند المدرسة السلوكية هي التي خلقت له الجناحين، والمرأة كذلك فهي لما كانت مصدر النسل، وهي التي تحمل الطفل خلقت لها هذه الوظيفة الرحم، في حين أن المدرسة الإسلامية تقول: إن الله تعالى خلق الرحم ليحدد وظيفة الحمل والولادة.

وقد يقول قائل: إن هذا النزاع لا يعنيننا من الناحية العملية، ولا ثمرة له. فنقول: لا، إنه يعنيننا من ناحية مهمة هي أن الله تعالى وضع للكائن الإنساني تصميماً منذ البداية، وخصص له وظائفه في الحياة. فإن كان الأمر كذلك، فالمسألة ليس فيها تفضيل، إنما فيها تصنيف، فهذا الصنف لوظيفته وهذا لوظيفته. وبالنتيجة فإن الوظائف المتنوعة تحتاج إلى تخصص، وكل صنف يختص بالعمل الذي يمارسه.

الثاني: الجانب الذاتي

وهو نظرة المجتمع للمرأة وتقييمه لها، فهل يقيم المجتمع المرأة تقيماً موضوعياً أو ذاتياً؟ لا شك أن المجتمع يقيمها تقيماً ذاتياً،

بمعنى أنه يقيّمها وفق ميراثه من الجاهلية والعصور التي سبقت، فينظر لها من هذا المنظار، وذلك كمن يلبس نظارة زرقاء فيرى الأشياء من حوله زرقاء على غير حقيقتها. فنحن في جانب النظر إلى المرأة نلبس نظارة من الميراث الاجتماعي، أو التحليلات المخطوءة لنصوص الشريعة. وهذا ما جعلنا ننظر إليها نظرة مخطوءة وغير واقعية، وإلا فالمرأة تمثل النصف الآخر من المجتمع، وكل ما في الأمر أن العملية هي عملية تصنيف لا تفضيل.

المبحث الثاني: دوافع التعامل السلبي للمجتمع مع المرأة

وبعد هذا المبحث الذي عقدناه كمقدمة وتوطئة لما بعده من مباحث نعود إلى المجتمع الذي نزلت فيه هذه الآية وهو الجزيرة العربية، وسنجد أنه مجتمع ذو نظرة خاصّة للمرأة تنقلها لنا هذه الآية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. فلنتعرّف الدوافع التي جعلتهم ينظرون إليها هذه النظرة السلبية، فمنها:

الأول: دافع الشرف والكرامة

فإن جريمة الزنا مثلاً يمارسها الرجل ويخرج منها دون أية تبعة اجتماعية ظاهرة، أما إذا مارسها المرأة فتخرج بتبعة الحمل والفضيحة الناتجة عن علاقة غير شريفة. وهذا يتصادم مع أوضاع اجتماعية قائمة مثل الشرف والكرامة، فيؤدي ذلك حتماً إلى نتائج مرعبة. ومن ذلك أيضاً أنه حدث مرة أن أغارت قبيلة على أخرى وسبت بعضاً من نساؤها، ثم أعادتهن إليها، فكان أن تمسكت بعض المسبيات بمن سباهن وبقين معه، فتحول ذلك من وجهة نظر أهلها إلى فضيحة وعار على قبيلتهن.

الثاني: دافع الفقر والجوع

فالجزيرة العربية كانت تعيش الفقر المدقع، وقد وصفت الزهراء عليها السلام تلك الحالة بقولها: «وكنتم على شفا حفرة من النار أذلة خاسئين تقتاتون القد»^(١) وتشربون الطَّرَق^(٢)»،^(٣) فكان فقرهم يبلغ بهم حداً يأكلون معه حتى جلد الشاة، أو يحشون المصارين بالدم فيأكلونها، كما أنهم أيضاً كانوا يقتتلون على ماء الآبار لقلة المياه عندهم.

وقد روّض المجتمع الجاهلي المرأة على أن تكون جليسة البيت، أما الرجل فقد روّضه على الغزو والقتل والفتك، فكانت المرأة عرضة لخطر الجوع وطلب الحاجة، وقد تتعرّض للامتهان وسلب الكرامة والعرض. وهنا لا ينظر المجتمع إلى الظروف الموضوعية التي أدت بها إلى ذلك، بل يعتبرها خاطئة، وينظر إليها على أنها قد انحرفت.

وهذا أشبه شيء ببعض النُظُم التي تعتبر نفسها إسلامية، فتقطع يد السارق لمجرد معرفتها أنه سرق، دون أن تنظر إلى الظروف الموضوعية التي دعت له للسرق، فربما يكون قد سرق بسبب التربية الفاسدة، أو الجوع، أو عدم تلبية المطالب الأساسية، أو بسبب القدوة السيئة، أو غير ذلك من الظروف التي سببت عنده التوجه نحو السرقة. كلّ ذلك وغيره لا بدّ أن يُدرس، ثم يُقرَّر ما إذا كان يستحقّ القطع أو لا. ولذا يمنع فقهاء المسلمين مثلاً قطع اليد في عام المجاعة؛ لأن الجوع عامل مساعد على ارتكاب

(١) القدّ: جلد الخروف بعد أن يؤخذ لحمه. لسان العرب ٣: ٣٤٥ - قد.

(٢) الطَّرَق: ماء السماء الذي تبول فيه الإبل وتبعر. لسان العرب ٨: ١٥١ - طرق.

(٣) من خطبتها عليها السلام في الاحتجاج على الخليفة الأوّل لمنعها فذك، انظر شرح الأخبار ٣: ٣٤ -

٤٠، بحار الأنوار ٩٢: ٢٢٠ - ٢٣٥.

الجريمة.

فأهل الجاهلية لم يكونوا ينظرون إلى الظروف الموضوعية التي سببت للمرأة ارتكاب الجريمة. وفي عصرنا هذا أيضاً يوجد من يهين أسباب الانحراف للمرأة، فيجعلها تخرج بزيتها، وتخالط الرجال، وتراقصهم أحياناً، وقد تشرب معهم، فيضعها في النار ثم يعاقبها إذا احترقت. وهناك من يكون مع المرأة على العكس من ذلك، فيجعلها لا ترى الشمس. فيكون الأمر إما إفراطاً أو تفريطاً.

إذن، كان بعض الآباء يتصور أن ابنته سوف تجوع بعده، وإذا جاءت ذلت، يقول أحد الشعراء في هذا المعنى:

لولا أميمة لم أجزع من العدم ولم أجب في الليالي حنّس الظلم
إذا تذكرت بنتي وهي تندبني جرت بعيني مني دمعاً بدم^(١)

فهذا الشاعر يقول: إن كل همّي أن تكون ابنتي أميمة تعيش بعيداً عن الجوع والفقر، ولولاها لما جزعت من الفقر، ولا ذهبت في الليالي الظلماء أبحث عن القوت. ويقول آخر:

أحبُّ بسنيتي وودت أنسي دفننتُ بسنيتي في قاع لحد
وما بي أن تهون عليّ لكن أخاف بأن تلاقي الذلّ بعدي^(٢)

إذن، هذا واحد من الدوافع التي كانت تدفعهم لحمل هذه النظرة غير الموضوعية للمرأة.

(١) تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ١٣٥، ولم ينقل البيت الثاني، بل نقل أبياتاً غيره.

(٢) البيتان لعبد العزيز الديريني. المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ٢٣.

الثالث: دافع الغلظة والقسوة

فهناك صنف من الناس قد ربي على القساوة والغلظة، فتجد قلبه أشد قساوة من الحجارة. وقد قاسى النبي ﷺ من هؤلاء ما قاسى، دخل أحدهم يوماً على النبي ﷺ فقبل يده، ثم قال: يا رسول الله، ليس للإسلام في فمي طعم، ولم أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت. فقال ﷺ: «لماذا؟». قال: كانت لي بنت في الجاهلية، فأمرت أمها يوماً فزيتها، ثم أخذتها إلى وادٍ سحيق، فدفعتها فيه، فسمعتها تقول: أبي قتلني. وهذه الكلمة لا زالت في قلبي إلى الآن.

انظر كيف أن التربية الفاسدة تفسد فطرة الإنسان، وتأمل كيف تعب الإسلام ليطوِّع هذه القلوب القاسية، وكم تحمل لي جعل من هذه القلوب الشبيهة بالصخور الصماء قلوباً تقطر بالرحمة؟ يقول أحد الشعراء:

يا هديلاً المُرَجِّعِ الأغرودِ	طيبةً يا شذى البساتين طيباً
غام في نظرة الكتاب المجيدِ	يا رُؤى جبرئيل والنور والأندِ
حبّ في أمة من الجلمودِ	يا عطاء القرآن يصنع دنيا الـ

هذه المجموعة من العوامل وغيرها جعلت قسماً من مجتمعهم يقف هذه الوقفة السلبية من المرأة، وإلا فإن المجتمع الجاهلي لم يكن كلّه سلبياً تجاه النساء، فهناك من كان يعتبرهن شقائق الرجال. ولا ننس أن قسماً من ذلك المجتمع كان متأثراً برواسب من الحضارات السابقة التي كانت تنظر إلى المرأة نظرة إجلال واحترام؛ باعتبارها تحمل السر المقدس. ومن هؤلاء فلاسفة اليونان أيام سقراط وإفلاطون، الذين كانوا يخلعون قبعاتهم ويقفون خشوعاً واحتراماً عندما تمر بهم امرأة حامل،

فهي عندهم تحمل السر المقدس، فلولا الأمومة التي تحملها الأم لما كان للدنيا أن تقوم.

نعم، كان من العرب أيام الجاهلية من يستشير أهله ويسكن إليها، وهناك من قوادهم من كان يجلس إلى زوجته ويطارحها الرأي، ثم جاء المشرع الإسلامي فدعم هذا المعنى.

ويتضح موقف الإسلام هذا منذ بداية الدعوة، وذلك لما جاء النبي ﷺ خديجة مرتعداً عند نزول قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١)، فجلس إلى جانبها قائلاً: «دثروني». فقالت له ﷺ: إن الله لا يفعل بك إلا خيراً؛ لأنك تُقري الضيف، وتصل الرحم، وتعطي الجائع. فدثرته إلى أن سكن، فهبط عليه جبرئيل ﷺ يحمل الآية الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾^(٢). فالنبي ﷺ أتى أول أمره إلى المرأة؛ لأن الله تعالى جعلها سكناً للرجل^(٣).

فأهل الجاهلية لم يكونوا جميعاً يقفون من المرأة موقفاً سلبياً، بل يعتبرها بعضهم الكائن الذي يمد المجتمع بالجيل. ولا أرى أن نابليون كان مخطئاً عندما قال: «إن المرأة التي تهز المهدي بيمنها تهز العالم بيسراها». وهي كذلك طبعاً، فهي التي تربي الجيل وتُنشئه، وهي التي تستطيع أن تبعث العزيمة في نفس الرجل أو تبعث الخور فيها. تقول إحداهن لابنها وقد فقد ملكه في الأندلس، وهو آخر الملوك فيها:

ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تدافع عنه دفاع الرجال

(١) العلق: ١.

(٢) المدثر: ١ - ٢.

(٣) قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم: ٢١.

وهذا موقف من المواقف التي تبعث العزيمة في النفس، وهناك موقف معاكس يرسمه لنا حال عبد الملك بن مروان عندما عزم على قتال مصعب بن الزبير، فقد وقفت له زوجته أم البنين، وقد كانت على درجة من الجمال والتأثير عليه، فأمسكته وقالت له: مَتَّعْنَا بِنَفْسِكَ، وَلَا تُتَّقِ بِهَا فِي لَهَوَاتِ الْحَرْبِ. فقال: كَلَّا، ثُمَّ أَنْشَدَ:

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوُ لَمْ تُثْنِ عَزْمَهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا نَظْمٌ دُرٌّ يَزِينُهَا
نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ بَكَتْ فَبَكَى مِمَّا شَجَاهَا قَرِينُهَا^(١)

فالإسلام إذن بدأ يستل من قلوب هؤلاء تلك القساوة شيئاً فشيئاً، وجعلها قلوباً تنبض بالرحمة والعطاء والتعامل الإنساني. ثم ذهب النبي ﷺ معهم شوطاً أبعد من هذا، فقال لهم: «من دخل السوق فاشترى تحفة إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قوم محاوٍيج، وليبدأ بالإنث قبل الذكور»^(٢). فأراد ﷺ أن يحدث التوازن في ذلك المجتمع. ويقول ﷺ «من كفل ابنتين فعالهما حتى كبرتَا وزوجهما، دخل الجنة»^(٣). فالنبي ﷺ بدأ يعدل التوازن في تلك الأجواء التي كانت تعتبر المرأة عاراً، يقول شاعرهم:

إِذَا الْمَرْئِي شَبَّ لَهُ بِنَاتٌ عَصَبِنَ بِرَأْسِهِ إِبَةَ وَعَارَا^(٤)

وهكذا أخذ الإسلام يُعزِّزُ هذا المعنى، فكان النبي ﷺ لا يذهب إلى الصلاة ما لم يطرق باب بيت فاطمة عليها السلام فيقول: «السلام عليكم يا أهل بيت

(١) البداية والنهاية ٩: ٢٧٩، تاريخ مدينة دمشق ٥٠: ٨٩، ٦٩: ٢٤٥ - ٢٤٦، والبيتان لكثير.

(٢) ثواب الأعمال: ٢٠١. (٣) قريب منه في الكافي ٦: ٦ / ١٠.

(٤) العين ٨: ٤٢٠ - أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ - وأب، والمرئي في الأصل: امرئي، نسبة إلى امرئ القيس، ثم قالوا مرئي، فكأنهم جعلوها منسوبة إلى (مرء) مطلقاً. والإبته: الخزي.

النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة، أتأذنون لمحمد بالدخول؟». فتخرج الزهراء عليها السلام لتقول: «البيت بيتك والبنات ابنتك». فيأخذها النبي صلى الله عليه وآله فيقبلها ^(١). وكان صلى الله عليه وآله إذا رآها وقد أقبلت إلى المسجد وأحس أن عندها حاجة انتفض قائماً وأقبل إليها ليجلس معها وينظر في حاجتها. فكان في فعله هذا يوحى لهؤلاء بأن البنات يجب أن تُعامل كما يعامل الولد. هذا بالإضافة طبعاً إلى ما كان للزهراء عليها السلام من المنزلة الرفيعة والمقام السامي والخصائص الجليلة التي اختصت بها (سلام الله عليها).

بعد هذا وصل مع فاطمة عليها السلام إلى مرحلة الزواج، فأعطاه حقوقاً لا حدود لها، وأهم هذه الحقوق اختيار الزوج، فالمرأة لا تجبر على من لا تريده. أما إذن الولي في زواج البكر، وهل هو من الأمور التي لا بد منها أو لا، فأغلب الفقهاء على أنها تستقل بإرادتها، إلا في حالات معينة يعتبر فيها إذن الولي شرطاً، وهي الحالات التي يخشى من ورائها وقوع الفساد أو ما شابه.

المبحث الثالث: مسألتان هامتان حول الزواج

وأحب أن أشير هنا إلى نقطتين مهمتين:

الأولى: دور الأب في زواج ابنته

فإنه لا يمكن أن نتصور أن أباً من الآباء لا يريد أن يختار البيت

(١) لم نعر عليه بهذا النص، وقد ورد أن الزهراء عليها السلام لما مرضت أراد أبو بكر وعمر أن يزوراها، فاستأذن لهما الإمام علي عليه السلام منها فقالت له: «البيت بيتك والحررة زوجتك». كتاب سليم بن قيس: ٣٩١، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٣، ٤٣: ١٩٨. أمّا تقبيله صلى الله عليه وآله لها وقوله: «أشتم منها رائحة الجنة»، فقد ذكر في علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٥ /، وغيرهما. وقد مرّ في ج ٢ ص ٢٧٩ من كتابنا هذا.

المناسب والزوج المناسب لابنته، فهو تدفعه الشفقة والرحمة والنظر للمستقبل أن يراعي بنته. وهذا من مقتضى الأبوة والفترة، وقد يحصل شذوذ عن هذه القاعدة فنرى أن بعض الآباء يكون متعنتاً، أو غير مقدّر للأمور تقديراً سليماً، فيشترط على الزوج شروط هتلى للصالح. وهذا خارج عن منهج الإسلام الذي يقول: «من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزوّجوه»^(١). وليس هناك من شرط في الكفاءة سوى الإسلام البعيد عن التهاون في العرض أو الدين.

فعلى الأب ألا يعضل البنت، فيشترط شروطاً يتصور أنهما من مصلحة البنت، وأن ينظر إلى الواقع من الناحية المادية والعرفية والمعنوية، فقد ورد عن النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام أن المرأة كالثمرة الناضجة، لا بد من قطفها حين القطف وإلا فسدت. فليس هناك من داع للشروط التافهة التي توضع أمام الزوج؛ لأن هذا من الفتنة التي نهى عنها النبي ﷺ: «إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»^(٢).

الثانية: النتائج السلبية للطلاق

وهي أن بداية الزواج لها شأن يؤكد عليه علماء النفس، فالزوجان من أسرتين متباعدين في الطباع والأخلاق والسلوك والتصرفات، وليس من الممكن أن نرى الانسجام منذ اليوم الأول، بل إن علماء النفس يعتبرون الستين الأولى والثانية بل وحتى الثالثة فرصاً مهيأة للطلاق، فالأم ترى ابنها قد انفصل فجأة من حضنها وأصبح في حضن امرأة، وأم البنت ترى

(١) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٢) المصدر نفسه.

أن ابنتها أصبحت فراشاً لرجل أجنبي . فهذه تريد أن تستبدّ بابنها، وتلك بابنتها، وهذه العوامل تخلق لوناً من التوتر. وهنا على المجتمع أن يلتزم في هذه المسألة نظرية الإسلام: حكمٌ من أهله وحكمٌ من أهلها^(١). فمن الواضح أن معظم حالات الطلاق التي تسمم المجتمع كان يمكن تلافيها من أقصر طريق عبر التزام أخلاقيات الإسلام، ولكنها لما أهملت أدت إلى نتائج مرعبة، ومن هذه النتائج:

النتيجة الأولى: عدم توفر فرصة للبنت في الزواج

فأول هذه النتائج المرعبة أن البنت قد لا تحصل لها فرصة أخرى في الزواج، خصوصاً في مجتمعنا الذي أصبح مثل المجتمع المسيحي الذي يشدد على عدم الزواج بالمطلّقة في حين أن الإسلام يدعو إلى سترها وجبران خسارتها في تجربتها السابقة. وليس من الدين أو العقل أن توضع علامات الاستفهام حول المطلّقة، فعدم توفر الظروف الموضوعية في زواج المرأة الأول، وعدم انسجامها مع زوجها لا يعني القضاء عليها، ألم يتزوج النبي ﷺ المطلّقات؟ وهل كان زواجهن عفواً، أم أنه ﷺ أراد أن يضع الأسوة والقُدوة لنا في الزواج؟ نعم، أراد النبي ﷺ أن يقول لنا: إن الزواج قد يكون تعويضاً للمرأة عمّا أصابها من ألم أو سترّاً لها أو تكريماً، فأراد أن يقضي على تلك النعرة في النفوس، وإلا فقد كان النبي ﷺ يستطيع الزواج من أي البيوت والقبائل التي كانت حوله.

(١) قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِضْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء: ٣٥.

وقد تزوج أمير المؤمنين عليه السلام من نساء صالحات مطلقات، كأسماء بنت عميس الخثعمية التي كانت متزوجة باثنين قبله، فقد تزوجت جعفرًا الطيار، ثم أبا بكر، ثم تزوجها أمير المؤمنين عليه السلام، فوُلد له منها يحيى وعون. وهكذا جملة من أزواجه عليه السلام. وكان هذا المعنى أيضاً في حياة الأئمة عليهم السلام، فلماذا يكون عندنا عيباً؟

نحن مع الأسف لا نملك التفكير الجماعي بمجتمعاتنا وبلداننا وأسرنا، وإلا فإن الزواج بالمطلقة إنقاذ للمجتمع وحماية له، وفيه جوانب إنسانية كبيرة تتعلق بحياة امرأة من نساء المسلمين.

النتيجة الثانية: ضياع الأطفال وتشردهم

فالتأثير السلبي الذي يؤدي إليه الطلاق فيما إذا كان عند المرأة طفل أن هذا الطفل قد تتزوج أمه أو يتزوج أبوه، ويبقى هو ينظر بعين لأمه المشغولة ببيت جديد وأطفال جدد، وبعين لأبيه المشغول هو كذلك بأسرة جديدة، فيتحول إلى مأساة وكارثة. إلى غير ذلك من المشاكل التي يؤدي إليها الطلاق الذي وصفه الإسلام بأنه أبغض الحلال إلى الله ^(١)، وأن العرش يهتز منه ^(٢).

وقد يلجأ البعض إلى الطلاق لمجرد أنه اختلف مع زوجته اختلافاً بسيطاً، خصوصاً إذا كان من أهل الأموال، لكنه لا يلتفت إلى أنه قد كسر قلب إنسان، والله تعالى لا يدع أصحاب القلوب الكسيرة. ومن هنا حدثت ردود الأفعال التي نشاهدها في مصر أو بعض البلدان العربية، وهي أن

(١) سنن ابن ماجة ١: ٦٥٠ / ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٢١٧٨.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨-٩ / ٢٧٨٨٠.

المرأة أخذت تشترط ضمن العقد ألا يتزوج عليها الرجل. وهذا شرط مخالف للعقد لا يأخذ به الفقهاء^(١)، لكن الذي أريد قوله هو أن هناك ردود أفعال وتشنجات أخذت تحدث بسبب الشطط عند الزوج.

ومن الغريب في هذه الأيام أن بعض الأزواج يقول: إن امرأتي قد أصابها الترهُّل والكبر بسبب الحمل وكثرة الإرضاع، وقد مللتها لكثرة المعاشرة. وهذا هو منتهى الأنانية، فالمرأة وضعت الأولاد للزوج، وخدمت في بيته، فهل هذا من الوفاء؟ وهل من ضرور الوفاء أن المرأة التي أفنت ذاتها من أجل ولدك تربيته، أو بيتك تصلحه، أو ثوبك ترفِّوه، أو حاجة تقضيها أن تقابل بالعقوق؟

فالآية الكريمة موضع البحث تصف حال هؤلاء الذين إذا بشر أحدهم بالأنثى غيَّب وجهه عن الناس حياءً وهروباً من العار، في حين أن الذي يحدّد جنس المولود هو نطفة الرجل لا نطفة المرأة، فالرجل هو المسؤول عن كون الولد ذكراً أو أنثى. تقول أعرابية وهي تُرَقِّص ولدها:

ما لأبي حمزة لا يأتينا	يظل بالبيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا	وإنما نأخذ ما أعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا	نُعطيهم ما بذروه فينا ^(٢)

المبحث الرابع: قضية الوأد ومعالجة الإسلام لها

ثم قالت الآية: ﴿أَيْمُسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ أي أنه بين أمرين: إما أن يتركها في البيت وهو معيّر، وهذا يسبب له الجفاء والاحتقار؛ فقد كانوا يحتقرون أبا البنات إلى حد أنهم لا يأكلون في بيته. ويُلاحظ هنا أنه ورد في الروايات

(١) انظر المكاسب ٦: ٤٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٠.

أن الأنبياء آباء بنات، أي أن الله تعالى أكرمهم بهذه المكرمة فجعل ذريتهم من البنات، أما هؤلاء فكانوا ينظرون لأبي البنات نظرة احتقار وازدراء، فيكون الأب متأرجحاً بين أن يتركها في البيت أو يدسها في التراب.

وهذا هو الذي أشرنا إليه من أن قلوب بعضهم كانت أقسى من الصخر، فينتظرها حتى تكبر ثم يزيئها ويدفنها، وكان قائلهم يقول:

أحب أصهاري إلي القبر^(١)

ولذا فإن الإسلام عاملها معاملة تتناسب معها، فوضع الخطط لتربية الأبناء؛ ذكوراً كانوا أو إناثاً. وقد وقف النبي ﷺ يرسم ذلك مع ابنته، ومما قام به ﷺ أنه أراد أن يكسر أحد الحواجز النفسية التي كانت سائدة، وهو أن الرجل كان لا يطيق أن يرى ابنته تتزوج في حي هو فيه، وإنما يطلب من زوجها في ليلة زفافها أن يأخذها إلى مكان آخر. فما كان من النبي ﷺ إلا أن جمع رؤساء الصحابة ليلة زفاف فاطمة ؓ لبعلها، ثم قال لأم سلمة: «يا أم سلمة، هيئي لابنتي حجرة». قلت: وأي حجرة تريد؟ قال ﷺ: «حجرتك». فهيات الحجرة، ثم قال لي: «استدعي لي علياً». فدعوته له، فقال له: «اصنع لأهلك طعاماً، وادع من أحببت».

تقول أم سلمة: فدعا علي ؓ الصحابة، فأكلوا وصدروا شباعاً، ثم دعاني رسول الله ﷺ لما غابت الشمس وقال: «هل أصلحت ابنتي؟». قلت: نعم، فصلى النبي ﷺ المغرب ثم استدعى سلمان وأبا ذر وعماراً والمقداد وجمعاً من الصحابة، فجعلهم أمام الناقة، وكان النبي ﷺ وكبار

(١) شطر بيت لعقيل بن علفة. أمالي المرتضى ٢: ٤٠، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٣٢.

الصحابة معهم في موكب فاطمة عليها السلام، ونساء النبي صلى الله عليه وآله والصحابيات معهم وهن ينشدن مستبشرات بهذه المناسبة:

سِرْنَ بِعَوْنِ اللَّهِ جَارَاتِي وَانْكَرْنَهُ فِي كُلِّ حَالَةٍ
وَاشْكُرْنَ مَا أَنْعَمَ رَبُّ الْوَرَى مِنْ دَفْعِ مَكْرُوهِهِ وَأَفَاتِ

وطاف النبي صلى الله عليه وآله بابتته على المسجد، وزمام الناقة بيد سلمان وإلى جانبه عمار والمقداد وباقي الصحابة، فلما وصل صلى الله عليه وآله إلى الحجر أخذ زمام الناقة بيده، وثنى ركبته، ونحى الصحابة عنه، ثم أنزل فاطمة عليها السلام بيده، ثم دخل إلى الحجر، فقال: «يا أم سلمة، هاتي لي ماء».

تقول: فأتيته بقدر فيه ماء، فشرب منه شيئاً وبض الباقي في القدر ثم قال: «استدعي لي علياً». فنضح بين صدره عليه السلام ونحره، ونضح بين صدر فاطمة عليها السلام ونحرها، ثم أمسك يد فاطمة عليها السلام بيده وأمسك بيد علي عليه السلام فقال: «يا علي هذه وديعتي عندك». ثم رفع شيبته إلى السماء فقال: «اللهم إنك باركت على آل عمران فبارك على آل محمد، اللهم أخرج منهما النسل الطاهر، اللهم كن بهما حفيئاً ولهما وفيئاً».

ثم ودعها وخرج وعيناه تنظر إليهما، ثم أطبق باب الحجر خلفه ^(١). فليتك يا رسول الله (صلى الله عليك وآلك) تقف على هذا الباب لترى ما جرى عنده:

يَا بَابَ فَاطِمَ لَا طَرَقْتَ بِخَيْفَةٍ وَيَدُ الْهُدَى سَدَلْتُ عَلَيْكَ حِجَابًا
نَفْسِي فِدَاكَ أَمَا عَلِمْتَ بِفَاطِمَ وَقَفْتُ وَرَاكَ تُنَاشِدُ الْأَصْحَابَا

(١) انظر أمر زواجهما عليهما السلام كاملاً في مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٩٣ - ٤٠٥، بحار الأنوار ٤٣:

أوما رقت لصلعها لما انحنى كسراً وعنه تزجر الخطأبا
أفهل درى المسمار يوم أصابها من قبلها قلب النبي أصابا

* * *

تلوج وتنده بفضة يبو الحسنين ونته تشوف
ما رديت لهفتها ونته غوث كل ملهوف

أقبلت عليها تقوم ويقعدها الألم، حتى وصلت إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله،
فأدارت وجهها إليه:

لا خير بعدك في الحياة وإنما أبكي مخافة أن تطول حياتي
نفسي على حسراتها محبوسة يا ليتها خرجت مع الزفرات^(١)



(١) تنبيه الغافلين: ٤١، مناقب آل أبي طالب ١: ٢٠٧، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٣.

﴿ ٥ ﴾

دور العلم في بناء الحضارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ *
عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١).

المباحث العامة للنص الشريف

مقدمة

هذا البحث يتعلّق بالمرأة بشكل عام من حيث وجوب تعليمها؛ لكن بعد ذلك سنختمه بدور السيدة زينب عليها السلام التي شاركت الحسين عليه السلام في مأساة كربلاء. ولنذكر قبل ذلك مقدّمة وهي أننا نعرف أن آدم عليه السلام هو أول الأنبياء، وعندما نزل للأرض لم ينزل وحده، وإنما كانت معه امرأته حواء. وكلاهما تقاسما عبء الأسرة، وكذلك خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله لم تفارقه المرأة، حيث كانت معه خديجة التي وقفت لتؤدي رسالتها أيضاً. وهذا البحث يهمننا؛ لأنه يرتبط بزينب عليها السلام ودورها في واقعة الطف.

(١) العلق: ٣ - ٥.

المبحث الأول: في أمية الرسول ﷺ

نرجع للآية الكريمة فنقول: مامعنى أن يقول الله تعالى: ﴿اقرأ﴾، والمفروض أن النبي ﷺ أمي، والأمي لا يعرف القراءة؟ ونحن نعرف من جهة ثانية أن الاستطاعة شرط من شروط التكليف: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(١)، فكيف نوجه الآية إذن على ضوء هذه القاعدة؟ الأمية التي ينعت بها النبي ﷺ لا تعني أنه ﷺ لا يقدر أن يقرأ أو يكتب، لأن القدرة على القراءة والكتابة من صفات الكمال، ولا يمكن سلب هذه الصفة من النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ خاتم الأنبياء وحامل رسالة السماء إلى الأرض؛ فلا بد أن يتصف بكل الكمالات وأن ينتزه عن كل نقص.

فتوجيه الآية إذن أن النبي ﷺ لو أراد أن يقرأ ويكتب لقرأ وكتب، لكنه ﷺ لم يمارسها، فهو ﷺ عنده الملكة لذلك لكن عنده معها فقدان الممارسة؛ وذلك حتى لا يرمى بأن القرآن من عنده^(٢)، فهو ﷺ لم يسلم من هذا الادعاء والافتراء حيث إن البعض من المستشرقين يقول: إن محمداً اخترع القرآن من عنده، وهو ليس من السماء. وهناك الكثير من الناس ممن يقول: إن المرأة لها حقوق محترمة في الإسلام، فلماذا يعطى الرجل المسلم حق الزواج من المرأة المسيحية ولا تعطى المرأة المسلمة ذلك الحق؟ نحن نترسم ما رسم لنا القرآن الكريم من أحكام: ﴿أَمَّا الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^(٣).

(١) البقرة: ٢٨٦.

(٢) وهذا ما أكده الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخِطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾. العنكبوت: ٤٨. (٣) البقرة: ٢٨٥.

فنحن نؤمن بالأنبياء كافة، وإذا مررنا بعيسى عليه السلام نعطيه حقه من التعظيم، وكذلك موسى عليه السلام وما له من الكرامة، أما المسيحيون فإنهم يشتمون النبي صلى الله عليه وآله وسلم شتماً ذريعاً. ولو أطلعنا على كتاباتهم لوجدنا حقداً لا حدود له. ومع أننا نحن نعيش في القرن العشرين لكن المسلم موضع نقمة من هؤلاء، فعندما يتزوج المسلم من المسيحية فهو يعترف بدينها ولا يجرح مشاعرها بل يكرم عقيدتها، أما الرجل المسيحي فهو لا يؤمن بالإسلام؛ ولذا فإنه سيؤثر حتماً على بيته وأبنائه، ولهذا جاز للمسلم الزواج من المسيحية دون العكس.

فدعوى أن القرآن من كتابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومن عنده لا قيمة لها؛ لأن المعلومات الضخمة الموجودة في القرآن ما كان يتسع لها عصر النبي، فالقرآن له قابلية المماثلة مع الإنسانية مهما تقدمت علمياً، فإنه يغطيها، وهذا يتضح لها يوماً بعد يوم.

المبحث الثاني: لماذا وصف الله نفسه بـ ﴿الْأَكْرَمُ﴾؟

ثم قالت: ﴿وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾، (أكرم) أفعل التفضيل، وهو يعني أنه تعالى أكرم الأكرمين، فلماذا؟ ذلك يعود لعدة أسباب منها:

السبب الأول: أنه منح قابلية الاقتدار على الكتابة

فمن كرمه تعالى أنه رزقك الاقتدار على الكتابة، فتلاحظ أن الحيوان له مخ، ومكوناته هي مكونات مخ الإنسان عينها، لكن الحيوان ليس له قدرة على اختزان المعرفة، فكل ما عنده هو غريزة تسييره، ونسبة ضئيلة من الفكر. وبين علماء الحيوان نزاع مفاده: هل إن الحيوان له عقل أم غريزة؟ فالفسيولوجيون يذهبون إلى أن الحيوان له نسبة من الفكر والعقل

بسيطة جداً، وهذا ما نبحثه في التكليف الخاص به، فنحمله مسؤولية جنائية في الآخرة بنسبة ما يحمل من فكر.

فمن نعم الله تعالى على الإنسان أنه عندما خلقه أعطاه القدرة على التعلم والكتابة، وهذا أعظم كرم، فهو سيد الأرض؛ حيث اكتشف المعادلات الرياضية وأسهم في بناء وتشيد الحضارة، فالله جلّ وعلا أعطى قيادة العالم للإنسان.

السبب الثاني: أنه تعالى لا ينتظر عوضاً على كرمه

إن كل كريم من الكرماء ينتظر منفعة من المنافع لكرمه، ويريد عوضاً؛ فهو يريد إمّا ثواباً من الله أو ثناء من الإنسانية، فحاتم بن عبد الله الطائي يخاطب زوجته بقوله:

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت نفس وضاق بها الصدر
أماوي إن المال غادٍ ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر^(١)

فهو يقول لها: أنا أريد أحاديث وذكراً من بعدي. فالبعض إذن يريد عوضاً مادياً أو اجتماعياً، كأن يمدحه الناس من بعده، أو عوضاً نفسياً كأن يرى فقيراً فيتألم له، فيعطيه المال كيلا يتألم. وهو تارة يريد العوض من الله تعالى.

فكل كريم إذن يريد عوضاً إلا الله عزّ وجلّ فإن الله تعالى إذا أعطى لم ينتظر عوضاً، فما قيمة هذا العبد البسيط حتى تنتظر منه العوض؟ وها هو الإنسان قد اكتشف مجموعة شمسية بقدر مجموعتنا الشمسية، وكما تقدمت الدنيا ازدادت الاكتشافات، حيث اكتشف وجود (١٥٠٠)

(١) تاريخ مدينة دمشق ١١: ٣٧٦، لسان العرب ٤: ٥٤٨.

مليار مجموعة شمسية، فما مكاننا من هذا العالم؟
 وإننا لانستطيع أن نعرف عظمة الله إلا بالرجوع إلى أدعية
 المعصومين عليهم السلام: « الحمد لله الذي من خشيته ترعد السماء وسكانها، وترجف
 الأرض وعمّارها، وتموج البحار ومن يسبح في غمراتها»^(١) فنبتة بسيطة تفتح
 نافذة على العظمة اللامتناهية عند الخالق عزّ وجلّ .
 وعليه فإن معنى «الأكرم»: الذي أعطانا العلم وأقدرنا عليه، ولم يرد
 منا الجزاء .

السبب الثالث: أن كل كرم هو من كرمه تعالى

فكل ذي عطاء فعطاؤه مبدئياً من الله، فنحن عندما نكرم فإنما نكرم
 بالأشياء التي خلقها الله، فالله قد خلق الحيوان والنبات والمعادن، وهي
 كلها من نعمه تعالى وكرمه وتكريمه؛ لذلك عبّر عنه بـ «الأكرم».

المبحث الثالث: حول أهمية العلم وتعلّمه

ثمّ قالت الآية الكريمة: «الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ»، إن نعمة القلم ونعمة العلم في

(١) مصباح المتعجب: ٥٨٠، وقال الإمام السجادة عليه السلام في تسبيحه: « سبحانك ترى ما في قعر
 الماء، سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار، سبحانك تعلم وزن السماوات،
 سبحانك تعلم وزن الأرضين، سبحانك تعلم وزن الشمس والقمر، سبحانك تعلم وزن الظلمة
 والنور، سبحانك تعلم وزن الفيء والهواء» .

اختيار معرفة الرجال ١: ٣٣٤، الصحيفة الكاملة السجادية: ٢٣ .

وفي قوله عليه السلام: « والنور»، إشارة إلى جسيمات الضوء الافتراضية المسماة بـ «الفوتونات»،
 وهي الجسيمات المسؤولة عن نقل القوة الكهرومغناطيسية، أمّا قوله عليه السلام: « والظلمة»، فلعلّ
 فيه إشارة إلى ما يسمى حديثاً بـ «المادة المظلمة» أو المادة المضادة التي يقدر العلماء
 وجودها، وهي تلعب دوراً رئيساً في نظريتي الانفجار الكبير والانهييار الكبير (ولادة الكون
 وتكوّره أو موته).

تعليم القراءة والكتابة لا سبيل إلى تحديدها؛ حيث إنه لا تقوم حضارة ولا دين، ولا يصمد فكر، ولا تتقدم الدنيا بدون الكتابة التي هي نافذة على عالم المعرفة والإنسانية؛ ولذلك أراد الله عز وجل منا أن نتعلم، وهو ما حث عليه النبي ﷺ بقوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»^(١)، وقد بعث النبي ﷺ للشفاء بنت عبد الله العدوية وكلفها بتعليم زوجته حفصة القراءة والكتابة^(٢)، فهو ﷺ يأمر بتعلم الكتابة، ويروى أن عبد الله بن عمر قال: دخلت على النبي ﷺ وقلت: نروي عنك أحاديث، فهل تأمرني بأن أكتب ما يصدر عنك منها؟ فقال النبي ﷺ: «بلى اكتب، إن الله علم بالقلم»^(٣).

وهناك روايات كثيرة في هذا الباب حيث روي عن عبد الله بن عمر أيضاً أنه قال: رأني جماعة أكتب أحاديث النبي ﷺ فقالوا: لا تكتب، ونهوني. فقلت: لماذا؟ فقالوا: إن النبي بشر قد يصدر منه كلام بحالة غضب أو حالة رضا، وربما كتبت عنه أشياء لا يرضى بها. فجئت النبي ﷺ وقلت له: إن قريشاً تنهاني عن الكتابة. فقال ﷺ: «اكتب، والذي بعثني بالحق، لا يخرج من بين هاتين الشفتين إلا الحق» ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾^(٤).

فالراصد لتأريخنا يجد أن فيه ثغرات عجيبة، فيمكن أن يتساءل: كيف ينهى النبي ﷺ عن كتابة السنة؟ فيقول التاريخ مجيباً: حتى لا تختلط

(١) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي: ٤ / ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

(٢) المستدرک علی الصحیحین ٤: ٥٧، المعجم الكبير ٢٤: ٣١٦، الطبقات الكبرى ٨: ٨٤.

(٣) تفسير أبي الفتوح ٥: ٥٥٦، الجامع لأحكام القرآن ٢: ١٢٠.

(٤) النجم: ٣.

بالقرآن. فأين أسلوب القرآن من أسلوب السنة. هذان ناحية، ومن ناحية ثانية إن القرآن الكريم كان مكتوباً في عهد النبي ﷺ، وكتبه أربعة من الأنصار، والإمام علي عليه السلام لم يخرج من البيت حتى أكمل القرآن، فالقرآن مكتوب، وغاية ما في الأمر أنهم كانوا يكتبون بوسائل بسيطة كدفة كتف الحيوانات أو كربة سعف النخل، ثم جمعت بعد ذلك وأخذت منها الآيات وكتبت. فكيف يمكن أن يختلط بالحديث؟ فسوره (١١٤) وآياته معروفة وعددها معروف، وكل شيء كامل.

فمن المستحيل أن ينهى الرسول الأكرم ﷺ عن تدوين الحديث الشريف وكتابته؛ فهو من القرآن مقام المبيّن، فالقرآن فيه إجمال وليس فيه تفصيلات، فهو مثلاً يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾^(١)، لكن لم يبيّن متى وكيف الخروج، وماهي شروط الإحرام وغير ذلك، وهذه كلها توضّح في السنة الشريفة، فكيف ينهى النبي ﷺ عن السنة وتدوينها؟ فإنها بذلك ستدرّس وتُنسى.

ومحاولة النهي هذه استمرت عشرات السنين، فذهب الكثير من الأحاديث، ولذلك يستغرب البعض عندما نروي حديثاً عن أيمة أهل البيت عليه السلام، ووجه الاستغراب أن هذا الحديث غير موجود في الصحاح ولا في الكتب. وجواب هذا المستغرب بأن نقول له: إن السنة لم تمنع عندنا، فإن أيّمتنا كتبوها، وجملة من أصحابهم عليه السلام كتبوها أيضاً فلم يضع شيء منها. فنحن نأخذ الرواية من عدل الكتاب^(٢).. من آل

(١) آل عمران: ٩٧.

(٢) الذين قال فيهم النبي الأكرم ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً ولقد نبأني

الرسول ﷺ . يقول الإمام الباقر عليه السلام: « يا أبا محمد ، اذهب أنت وسلمة وأبو المقداد يميناً وشمالاً ، فوالله لا تجدون العلم أوثق منه عند قوم كان ينزل عليهم جبرائيل »^(١) .

فالواقع أننا لم نهمل السنة ؛ فالروايات موجودة عندنا ، أما البعض فينهى عن تدوين السنة ، أو يحرق كتاباً فيه أحاديث من السنة ، ويقول أحدهم : جلبت كتاباً من اليمن لأحد الصحابة ، فوضعها في طست فيه ماء دون أن يقرأها ؛ لأن فيها روايات في فضل علي بن أبي طالب .

فلا يمكن إذن القبول بالروايات التي تقول : إن النبي ﷺ نهى عن كتابة السنة ؛ لأن السنة توضح الأحكام في القرآن ؛ فإنها تقيّد المطلق ، وتخصّص العام ، وتبيّن المجمل ، وتشرح الأحكام المختصرة بالتفصيل . فالسنة لا يمكن أن نستغني عنها أبداً .

ولقد أمر الرسول ﷺ بكتابتها ، لكن ذهب الكثير منها بعد ذلك ؛ ولذلك قال النبي ﷺ : « قيدوا العلم بالكتابة »^(٢) ؛ لأن العلم يهرب من الذهن .

مأساة الفكر ومحاربتة

فالكتاب هو النافذة المطلقة على العالم ، وهو الذي يرفع الإنسانية في مسيرتها ، ويجب أن ترعاه الإنسانية في مسيرتها أيضاً ، وأن تكرمه .

اللطف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض . فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل) :

١٥ ، ٢٢ ، مسند أحمد ٣ : ١٤ وغيرها ، سنن الدارمي ٢ : ٤٣٢ ، وغيرها كثير .

(١) رجال النجاشي : ٣٦٠ / ٩٦٦ ، وأبو محمد هو الحكم بن عتيبة .

(٢) المجازات النبوية : ١٧٩ ، المستدرک علی الصحیحین ١ : ١٠٦ ، مسند الشهاب ١ :

٣٧٠ / ٦٣٦ ، ٦٣٧ .

ونحن للأسف الشديد أمة قليلة القراءة، ولو قرأ بعضنا تراث البعض لزالنا الكثير من المشاكل، ولو اطلع أحدنا على مافي المذاهب الأخرى، واطلعت المذاهب الأخرى على تراثنا الفكري فإن كثيراً من العقبات ستزول. لكن بعضنا يحذر من قراءة بعض الكتب، ويمنع فكر آل محمد ﷺ أن يصل إلى الناس، مع أن آل محمد ﷺ من الجزيرة العربية، وهم سادة العرب، وبيوت النبي ﷺ وعدله وعدل كتابه، فلماذا نحاربهم؟ هل لأن فكرهم لا يهادن الظالمين ولا يتحول إلى أبله، ولا يقول: سيدنا معاوية قتل سيدنا حجراً (رضوان الله عليهما)؟ نعم توجد حذية في الفكر.

لذلك فالكتاب يجب أن ترعاه الإنسانية كما ترعى نفسها لكن ببالغ الأسف نجد الكتاب أحياناً عدواً لنا، كيف؟ ليعلم بأن كثيراً من المكتبات قد أحرقت لأنها تحمل فكراً معيناً، فمكتبة «أردشير بن نصر ساپور» أحرقت وهي من أضخم المكتبات في بغداد، ومثلها مكتبة الشيخ الطوسي، وقد رمى التتر كتبها في نهر دجلة، وأصبح الماء أسود من كثرة المداد، وضاعت علينا الكثير من المعارف، والكثير من مجاميع المخطوطات، وكذلك مكتبة الأزهر الشريف التي أسسها الفاطميون، وهي مكتبة فخمة أحرقتها الأيوبيون بقيادة صلاح الدين.

وهذه نقطة سوداء في تاريخنا، فالكتاب يجب ألا يحرق حتى لو كان كتاب ضلال، فقد ينتفع به الغير في مرحلة الردّ عليه وعلى ما فيه من أفكار ضلال.

وقد تقول: إن فيه أفكاراً خطيرة.

فأقول: لماذا لا نلقح أنفسنا ضد الأفكار الخطرة، وننقّفها لندفع الفكر

الخطر؟ إن إزالة الخطر عن القارئ تأتي من التعليم، فقد أمرنا الله تعالى بأن نقرأ وأن نطالع ونطلع على أفكار الآخرين، وأن نوسّع مداركنا، ومن المستحيل أن ينهاننا عن التطلع إلى الحياة، فلا حياة بدون معرفة. فكيف إذن ينهاننا النبي عن الكتابة؟ فعلى البشرية أن تحتضن الكتاب، وإذا رأينا أي كتاب فيه نظرية ناهضة من أي مذهب إسلامي، فالذي ينبغي علينا هو أن نعتزّب بها؛ لأنها تصبّ في جدول «لا إله إلا الله» وأن نعتبرها رصيذاً لنا؛ فالمسلم إذا كان لديه عطاء فهو غذاء له ولباقي المسلمين، ولذلك يقول القرآن الكريم: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

هناك رواية تقول: «خلق الله أربعة بيده: العرش وعدن والقلم وأدم، ثم قال لكل شيء: كن فكان»^(١).

وهذه الروايات تروى في الصحاح، وهي لا تصمد أمام النقد؛ فلا يوجد فرق بين أن يخلق الله تعالى شيئاً بيده أو بأمره، فكأنها مخلوقات بأمره، وإذا أراد خلق شيء قال له: كن، فيكون، كيف؟ بالأسباب الطبيعية، فالولد يقول له: كن، فيكون، وهذا كتاب الله التكويني وليس التدويني، وذلك عن طريق التزاوج؛ حيث يضع قابلية في البويضة وتأثيراً في الحويمن، فيلتقيان وينشأ الجنين.

والبعض من الناس يقول: عندي مريض وأنا أدعو الله له منذ عشرين سنة فلا يشافيه، فلماذا؟ ونقول له: هناك دعاء تدويني (مكتوب)، ودعاء تكويني جعله الله في بعض الحشائش أو الأعشاب أو الأدوية. فهذه قوانينه التكوينية، وقال النبي ﷺ - وقد سئل: يا رسول الله، أنتدواي؟ -

(١) جامع البيان، المجلد: ١٢، ج ٢٣: ٢٢١ / ٢٣١٠٢.

«تداووا»^(١). فداوه بالدواء، ثم إذا عجزت فارجع إلى كتاب الله التدويني وادعُ الله له.

نرجع للرواية: فعندما نأتي للرواية: «خلق الله أربعة...»، فنقول: لا فرق بين أن يخلق الله بيده أو بأمره، فلماذا فُضِّل هؤلاء على غيرهم، فهذه الرواية لا تصمد أمام النقد.

دور السبب الطبيعي في الحياة

فالله تعالى كرم الإنسان بالقلم، والكتاب نافذة على المعرفة: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، فما الذي علّمه إيانا بالقلم؟ إنه تعالى علّم بالقلم أن السبب الطبيعي له أثر، فبعض الناس يظن أن هذا غرق لأن الله أراد أن يغرقه، والبعض إذا كان عنده مبلغ من المال فإنه يبذره ثم يقول: إن الله إذا أراد أن يعطيني فهو يعطيني «اصرف ما في الجيب يأتك ما في الغيب». إن الله نظّم الأشياء، وعلمنا على النظام، وأن نتصرف التصرف العقلاني، فينبغي أن نتعلم مما علمنا الله، فكل سبب طبيعي له دخل، وتترتب عليه فائدة.

فإذا كان الله تعالى قد وفر لنا الزرع لنا أكل منه، ووفر لنا الكهرباء للتدفئة والاستصباح فيجب ألا نقول: لماذا نعمل؟ لأن الله تعالى أمرنا أن نستخرج خيرات الأرض، ونوظف طاقاتها وما عندنا من قدرات. فالسبب الطبيعي له دخل: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾، أي بواسطة القلم، لكي ينبهنا إلى أهمية السبب الطبيعي.

وهناك صراع بين المذاهب الإسلامية حول أن السبب الطبيعي له أثر

(١) قرب الإسناد: ٥٢، طب الأئمة: ٦٧، وسائل الشيعة ٢٥: ٢٢٤ / ٣١٧٤٥، مسند أحمد ٣: ١٥٦، سنن أبي داود ٢: ٢٢٣ / ٣٨٧٦.

أم لا؟ فالكثير يذهب إلى أن النار لا تحرق وإنما الله هو الذي يحرق، ولكن جرت العادة على أن الذي يحرق هو النار. وهذا دخول من الباب وخروج من الشباك، فإن الله جعل النار تحرق بطبيعتها، فلماذا ننكر السبب الطبيعي إذن؟ فهؤلاء غاية ما يريدون قوله أن المعصية ليست بسبب الإنسان، وإنما من الله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١)، حتى لا يقال: إن مروان عاصٍ. وهذا ظلم، والله تعالى لا يظلم أحداً، وإنما سلّحنا وأعطانا قدرة عقلية، وأمرنا، فنحن نمثل لأمره.

المبحث الرابع: وجوب التعلّم على الجنسين

ثم قال: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، والإنسان هو الذكر والأنثى، أي علم الرجل والمرأة، فكلاهما له حصّة من العلم؛ ولذلك ساوى الإسلام بينهما وقال: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»^(٢)، فإن الله أمرنا أن نتعلم رجالاً ونساءً. ومع هذا فإننا نجد أن القرطبي في تفسيره يذهب إلى خلاف ذلك فهو يروي بسنده إلى عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «لا تسكنوا نساءكم الغرف، ولا تعلّموهن الكتابة». ويعلّلها القرطبي بقوله: إنها إذا سكنت الغرفة (الحجرة العلوية) فإنها ستري الرجل، أمّا الكتابة فلنمنعهما من أن تكتب لمن تحب^(٣).

وهذا من باب «سد الذريعة» أي ذريعة الفساد، فهل نقطع قدميها لأنها ربما خرجت إلى السوق؟ أو هل سنقطع يدها لأنها ربما سرقت؟ وهل

(١) النحل: ٩٣، فاطر: ٨.

(٢) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤: ٢٩، ٢٠: ١٢١، وانظر كنز العمال ١٦: ٣٨٠ / ٤٤٩٩٩، وفيه: ولا تعلّموهن الكتاب.

نمنعها من المشي؛ لأنها إن أحببت فستمشي لمن تحب، أو تقيّد كي لا تذهب إليه؟ مع أن القرآن الكريم يقول: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ والإنسان: الذكر والأنثى، والرسول ﷺ يشترط على الأسرى أن يعلم كل أسير عشرة من المسلمين لقاء حرّيته من دون فرق بين الذكر والأنثى^(١).

يروى أن أحد الصلحاء جاء يوماً للمسجد فسرقوا حذاه، فلم يشتر حذاء بعدها، معللاً تصرّفه هذا بقوله: إذا اشتريت حذاء فربما سرقه أحد المسلمين، فيتحمل وزراً بسببي.. وهذا الفكر عجيب؛ لأن هذا لا يمنع عن الوقوع في المعصية المنظورة إذا لم تُرب الفتاة تربية طيبة، فربّها كذلك، وعفّفها ولا تهملها، فهي شريكة الرجل: «النساء شقائق الرجال»^(٢). فلا تفرط فيهن وفي تربيتهن، فتكون كمن يُسقط أحداً في المستنقع ثم يقول له: لا يقرصك البق؛ فإنه يسبب لك الحمى. ولذلك المرأة فإن تحتاج إلى توجيه نحو طريق الخير.

إن الإسلام كفل حق التعلم للمرأة في وقت كان العرب يرون أن للرجل الحق في قتل ابنته، وبعضهم يرى أن المرأة ليست كفؤاً للرجل حتى تقاد به، فإذا قتل رجل امرأة لا يقتل بها، لماذا؟ لأن المرأة كائن منحط وأدنى رتبة منه. وعندنا في الفقه أن الرجل يعطي نصف الدية، وإذا أرادوا قتله قتلوه بها. فأما أوروبا المسيحية فتقول: إن المرأة يجب أن يكّم كمّها كما يكّم البعير، حتى لا تضحك؛ لأن ضحكها فيها إغراء، والمرأة لا روح إنسانياً لها، ولا تقرب من ملكوت السماء. وغاية ما صدر بحقّها آنذاك كان سنة (١٥٧١)م حيث صدر قانون في فرنسا اعتبر

(١) أوائل المقالات: ٢٢٦.

(٢) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٥٩ / ٢٣٦.

بمقتضاه أن المرأة لها روح، ولكن خلقت لخدمة الرجل . أمّا الإسلام فقد جاء ليعطي المرأة تلك الحقوق الفخمة، فأعطاهما حقّ التعلّم، والذمّة المستقلّة، وساواها مع الرجل ؛ لأنها شقيقته، وقد تلعب دوراً في أداء رسالتها لا يقل عن دور الرجل .

المبحث الخامس: حول دور عالمة أهل البيت عليهم السلام

ولنتقل الآن إلى عقيلة الطالبين زينب عليها السلام، فالحسين عليه السلام عندما أراد أن يخرج كان عارفاً بمصيره، ولذا قال (سلام الله عليه) لأصحابه: «خُطَّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه . كأنني بأوصالي هذه تقطّعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلا، فيملأن مني أكراشاً جوفاً وأجربة سغباً^(١)، لا محيص عن يوم خطّ بالقلم»^(٢). فهو عليه السلام كان يعرف مصيره، فلماذا أخذ العائلة معه؟ فقد أخذ زينب وأخواته . قد يقال: لرعاية الرجال . ونقول: لا لأن الرجال من الممكن أن يرعوا أنفسهم . فلماذا إذن؟ ذلك أن الحسين عليه السلام أراد ألا يحرم الساحة من الدور الذي ستلعبه زينب عليها السلام، وفعلاً لعبت دوراً ضخماً؛ حيث شرحت أهداف الدعوة والنهضة . والإمام الحسين عليه السلام خطط لذلك الدور معها، وشرح كل تفاصيله قبل أن يخرج من المدينة، وبيّن لها الأدوار التي ستقوم بها ومقدار رعايتها . وهكذا وقفت هذه المرأة لتجسد وراثتها الضخمة من جدّها وأبيها (صلّى الله عليهما وعلى آلهما) في واقعة الطف، ورحم الله صاحب هذه الأبيات التي علقت على الضريح:

(١) السغب: الجوع . مختار الصحاح: ١٦١ - سغب .

(٢) مثير الأحزان: ٢٩، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦ .

هل بالضريح عقيلةً تتوسدُ أم صارمٌ تحت الثرى يتمردُ
 جلى بزینب رملهُ والأرض كم تشقى بمن حلوا بها أو تسعدُ
 خُلُقُ به فيما تألق حيدر وشمائلاً يبدو بهن محمداً
 جمعتهُمُ الزهراءُ فيك فأنت ما بين النبوة والإمامة معقدُ
 ولقد رأيتك والمصائبُ والأسى جممٌ وحقدُ الظالمين يعربدُ
 تتوَكِّفين حصافةً وصلابةً وتحذرين اليومَ ما يأتي الغدُ

وفعلًا وقفت بوجه يزيد وقالت له: «كِد كيدك واسعٌ سعيك وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا ولا تميمت وحيناً، وهل رأيك إلا فند وصحبك إلا بدد وأيامك إلا عدد يوم ينادي المنادي: ألا لعنة الله على الظالمين؟». وهو لا يملك شيئاً أمامها فيقول: لعمرى، إنها لسجاعة. قالت: «إن لي عن السجاعة شغلاً»^(١). فما كان منه إلا راح يسبها ويشتمها، ورحم الله أحد أديبائنا حيث يقول:

وإن من أدهى الرزايا السودِ وقوفها بين يدي يزيدِ
 أتوقف المرأة من آل العبا بين يدي طليقها واعجبا

وبالفعل وقف الحسين عليه السلام في مثل هذه الأيام بعد أن بين لزینب (سلام الله عليها) دورها ما بعد مرحلة النهضة وأثناءها، ليتأهب للخروج إلى مكة ومنها إلى الكوفة.. خرج من مدينة جده بعد أن خطط، وأخرج النساء، فدخل عليه عبد الله بن عباس فقال: أنت قد مررت بتجارب وكذلك أبوك وجدك، فما معنى حملك النساء؟ فقال الحسين عليه السلام: «قد

(١) الاحتجاج ٢: ٣٧، مثير الأحزان: ٧١، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٥، ١٦٠، بلاغات النساء (ابن طيفور): ٢٣.

شاء الله أن يراهن سبايا»^(١). والواقع أن زينب عليها السلام كانت تمرغ جبهة من سبها كما قال الشاعر علي لسانها:

تقول له اسع فمهما سعيت وناصب بمالك من منصب
ستفنى ويفنى دوي النفير وما حشد الزيف من موكب^(٢)

وتبقى مراقدا آل الرسول عليهم السلام تعانق أبواب السماء شموخاً ورفعة، وهانحن الآن نرى مرقد السيدة زينب عليها السلام في دمشق، وهي تقول للظلمة: هنا الحق. وقفت هذه المرأة إلى جانب الحسين عليه السلام بكل صلابة وتحداً، وهذا الموقف ليس عن كلاله وإنما هو عن وراثته، يقول الشاعر يمدح الهاشميين:

يادار منتجج الرسا لة بيت مختلف الملائك
يابن الترائك والأرائك والفواطم والعواتك

فحملت تراث أمها وجدتها (صلوات الله عليها)، وخرجت إلى عرصة كربلاء مسلحة بالسلاح الضخم الذي غداها به الحسين عليه السلام، ومتازودة بهذا التراث الضخم، إضافة إلى الإيمان، فهي لا تكاد تفارق الحسين عليه السلام حتى ليلة العاشر من المحرم، يقول الشيخ الصدوق: كان الحسين عليه السلام في خيمته يقرأ القرآن، فدخلت عليه أخته زينب عليها السلام، فوضع القرآن في المحراب، وقام إجلالاً لها، وكان إلى جانبه جون مولى أبي ذر يصلح السيف والحسين عليه السلام يقول:

«يادهر أف لك من خليل كم لك بالإشراق والأصيل

(١) مختصر بصائر الدرجات: ١٣٢، المحتضر: ٤١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٤، ينابيع المودة ٣: ٦٠. (٢) ديوان المحاضر ٢: ٢٥.

من طالب بحقّه قتيلٌ والدهرُ لا يقنحُ بالبديلِ
وإنّما الأمرُ إلى الجليلِ وكلُّ حيٍّ سالكٌ سبيلي»

يقول الإمام السجاد عليه السلام: «فأعادها مرّتين أو ثلاثاً حتى فهمتها وعرفت ما أريد، فحنقنتني العبرة فردّتها ولزمت السكوت، وعلمت أن البلاء قد نزل، وأمّا عمّتي فإنها سمعت ما سمعت وهي امرأة، ومن شأن النساء الرقة والجزع، فلم تملك نفسها أن وثبت تجرّ ثوبها حتى انتهت إليه فقالت: واثكلاه! ليت الموت أعدمني الحياة، اليوم ماتت أمّي فاطمة وأبي علي وأخي الحسن، يا خليفة الماضي وثمان الباقي. فنظر إليها الحسين عليه السلام وقال لها: يا أختي، تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان. وترقرقت عيناه بالدموع وقال: ولو ترك القطا ليلاً لنا ما»^(١). فقالت له: «كيف تطلب مني أن أهدأ وأنت غداً تفارقني؟».

لقد كانت علاقتها بالحسين عليه السلام عجيبة، فهي لم تكن علاقة أخت بأخ لها فقط، بل كانت علاقة أخت وأمّ وابنة، فلا تكاد تفارقه أو يفارقها، وكان يحمل لها الإجلال والتكريم. فهي تقول له: كيف تريد مني أن أسكت وأنت موشك علي مفارقتي؟

انجان تریدني أنسی وبطل النوح وونینی
إخذ نكراك من گلبي وخذ صورتك من عيني
أيام الجنة ویاك أناغيبك و تناغيني

(١) الأملی (الصدوق): ٢٢١، وانظر: الإرشاد ٢: ٩١ ٩٢، روضة الواعظین: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤ - ٣١٩، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠ - ١٩٢، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩، وقد مرّ مفصلاً في ج ٢ ص ٩١ من كتابنا هذا، وقد مرّت الإشارة إلى قوله عليه السلام «لنا ما» في ص ٢٢ من هذا المجلد.

شبيدي عايشه ويّاي من ذيح الايام اشباح

* * *

عمر ما فارغيتك بيه تذكر يوم واحنه صغار

من حزن امي الزهره لجوانح حيدر الكرار

عيني تبخر بوجهك وروحي ويك ليل انهار

ويقول لها الحسين عليه السلام: أختي البكاء أمامك، فلا تدعيني الآن ألمح في عينيك دمعة، دعيني أخرج من الدنيا وأنا واثق من أنني تركتك مثل ما أحب.

وفعلاً ادّخرت الدمع إلى أن سقط، وخرجت إليه في الليالي المدلهمة، وكانت تناجي طيفه طول الليل، وهكذا كانت في السبا وفي أثناء الطريق وفي الخربة، فإن جنّ عليها الليل تراءى لها شبح الحسين عليه السلام:

بعد هيات دهري بيكم يعود أرد اشيل راسي بيكم ردود

وعند ذلك غالبتها دموعها فتوجّهت إليه:

وصيت من يحسين بينه من تجبل الغارة عليه

لا تعتذر يا بسكينه حريم وغرب شنهو حجينه

وقد حانت التفاتة من الحسين عليه السلام فرأى ابنته سكينه مطرقة، فقال لها: «بنية، ارفعي رأسك، مالي أراك مطرقة؟»، قالت: أبه، وبمن أرفع رأسي وأنت غداً تفارقني؟

وصوا بنه گبلن ترحلون گبلن على الغبره تنامون

يحسين منته نور العيون



الفصل الثاني
التربية الدينية

معالم التربية الإسلامية

بسمه تعالى

إن من البديهيّات المفروغ منها في
 عرف المفكرّين المسلمين أن تقويم
 شخص ما وتربيته ينبغي أوّل ما ينبغي أن
 تتمّ عن طريق إشباع الحاجات
 الأساسيّة له، وأن التربية ليست مجرد
 مجموعة من التعاليم أو منظومة من العظات التي لا توفر للمسلم مناعة عن طريق
 كفايته ذاتياً.

المباحث العامة للموضوع

المبحث الأول: منطقة الفراغ؛ تحديدها وإشباعها

إنّ هذا يعني أنّنا إذا أردنا أن نصنع الإنسان المهذب المسلم الذي
 نلزمه بالتأدّب بأداب الإسلام والتخلّق بأخلاقه، وأن تكون تصرّفاته
 وحركاته وسكناته على ضوء القواعد والضوابط الإسلامية، فيجب أن
 نعترف أولاً بأن هذا المعنى لا يمكن أن يتمّ إلّا عن طريق إشباع حاجاته

الأساسية. فما دامت هناك منطقة فراغ في هذه الحاجات عند الإنسان، فإن هذا الإنسان سيبقى معها عرضة للانحراف والانجراف خلف كل ما هو غير إسلامي.

معالجة الإسلام لمشكلة الجوع

وكمثال على هذا - على سبيل الإيضاح - أننا حينما نكلّف الإنسان بأن يكون عفيفاً فينبغي أن نوفّر له مقومات العفة؛ فهي إن كانت فيما يتعلّق بالبطن فينبغي علينا أن نوفّر له الطعام. وليس معنى هذا أن نشجّعه على أن يظلّ جليس بيته واضعاً يداً على يد ينتظر أن نبعث له بما يملأه ذلك البطن، فإن هذا فهم سلبي للمسألة، بل معناه أن نوجد له فرص عمل يستطيع من خلالها كسب قوته من حلال، وأن نوفّر له الجوّ الملائم الذي يتوفّر معه العمل لكلّ عاطل، مضافاً إلى ذلك التربية السليمة التي يجب أن نربّيها عليها، وأن نغذيه بها، والتي يمكن له أن يعرف بها ضرر التكاسل، والقعود عن العمل، والاتّكال على الغير، والتي يعرف معها كذلك قيمة العمل والمبادرة إليه.

وبهذا فإننا نضمن بأننا قد صنعنا إنساناً سيحصل على كفايته في سدّ فراغ هذا الجانب عنده، وبالتالي تأمين جانب الشبع له حتى لا ينحرف عن القواعد الشرعية عن طريق الحاجة إلى الطعام. أما كيف يتمّ هذا فسنمرّ به إن شاء الله من خلال إعطاء لمحات موجزة عن الموضوع كي نأخذ عنه فكرة واضحة.

كيف عالج الإسلام مشكلة الزواج

وفي الوقت الذي نطلب من المسلم أن يكون عفيفاً من ناحية ممارساته الأخلاقية، ينبغي علينا هو أن نوفّر فرصاً كثيرة للزواج. والإسلام

الحنيف له مخطّط ومنظور في هذا الجانب - توفير فرص الزواج - فهو يرى أن الذي لا يقوى على الزواج فعلى بيت المال أن يهيئ له الأسباب التي توصله إلى هذا الهدف. وهذا يتم عن عدّة طرق منها:

- ١- توفير الأرضية الصالحة لإزالة الموانع كما مرّ ذكره.
- ٢- دعوة الناس إلى التعفّف وإلى الابتعاد عن الانحراف.
- ٣- تربيتهم على الخلق القويم، ودفعهم إلى إنشاء الأسرة السليمة القائمة على الطهارة والتربية الإسلامية وتعاليم السماء.

وعن طريق هذا المخطّط الشامل تتمّ عمليات الزيجة بأوقات معيّنة وأعمار متقاربة ومقبولة إلى حدّ ما، وبهذا نكون قد أمّنا للإنسان سبل كونه عفيفاً؛ لأنه إذا لم يجد ما يعفّ به فرجه مع وجود المغريات، فإننا لا نأمن عليه من أن ينحرف؛ مع توفّر الفرصة للانحراف. والغريزة بما تتّصف به من عنف تعصف أحياناً ببعض القيم الأخلاقية ما لم يكن هناك حلّ عملي لهذه المشكلة. وهو يتمّ عن طريق إيجاد فرص الزواج كما ذكرنا.

معالجة الإسلام أزمة الأخلاق

وكذلك الأمر مع عقّة النفس، فإننا إذا أردنا أن ننشئ الفرد على الخلق العالي، والتربية الإسلاميّة الصحيحة، والهمّة العالية بحيث إنه يترفع معها عن الركوع للدنيا، فلا بدّ أوّلاً من توفير جوّ صالح له يستطيع عبره إشباع طموحاته عن طريق إيجاد مشروع تكافؤ الفرص.

أقسام التكافل في الإسلام

إن الإسلام بما يمثّله من حالة شمولية، وما فيه من مجموعة نظم يكفل للفرد المسلم احتياجاته على أصعدة عدّة:

التكافل الاقتصادي

وبطبيعة الأمر فإن هذه الأمور هي عناوين عامّة، أمّا كيف يمكن لنا أن نرفع الفرد عن مستوى الدنيا فهذا واضح، أي من خلال توفير الفرص المشروعة له، وبالعكس يكون العكس أيضاً؛ فعندما تغلق في وجهه هذه الفرص المشروعة فإنه سيتحوّل إلى إنسان يسهل عليه أن يركع أمام هذه الدنيا. والمجتمع الذي تكون فيه الفرص منفتحة يكون فيه مضمّار ومجال لأن تتبارى فيه قدرات الأشخاص وإمكانياتهم.

ومتى كانت الفرص متساوية ومضمونة للجميع، فإن كل شخص عنده طاقات في مجال ما سينطلق بها ويستثمرها دون أن يحدّها شيء أو يحول دونها حائل، أو أن يمنعها مانع من أن تُستغل في نفع المجتمع. وكل شخص في مثل هذا المجتمع يمكن أن يبدع في مجال تخصّصه وأن يصل إلى مستوى رفيع فيه. أما إذا أُغلقت في وجه هؤلاء أبواب الفرص الشريفة، وأصبحت الفرص منحصرة في الطرق الملتوية والمنحرفة، فإن الإنسان حتماً سيبيع كرامته حينها، وسيسجد على أعتاب من بيده الحلّ والعقد، وسيتحوّل إلى «إمّعة» وإلى إنسان مسلوب الإرادة؛ لأنه لا يجد طريقاً مفتوحاً أمامه لاستغلال مواهبه وقدراته وإمكانياته.

وهذا الكائن حينما يجد هذا الواقع أمامه، وأن الفرص متوفّرة لفئة معيّنة من الناس دونه ودون أمثاله، وأنه لا يستطيع أن يستغلّ مواهبه، فإنه سيضطرّ إلى التحوّل إلى الطرق الملتوية حتى يجد فرصة أمامه يستطيع أن يكسب بها قوته. وهو بهذا سيتحوّل إلى كسور إنسان خانع، وليس إلى إنسان كامل ذي قيمة وكرامة.

والإسلام يعمل على توفير هذه الجوانب بأجمعها للإنسان في إطار عمله على تقويم الفرد وتهذيبه. ولذا فإن من يتصور أننا نستطيع أن نخلق الإنسان الكامل المهدب ونقومه باعتباره لبنة أساسية في بناء المجتمع من غير أن نمسك بأيدينا بزمام توجيهه فهو واهم، وهذا غير متاح وغير ممكن الوقوع أبداً. ولا يقوى على فعل هذا إلا الدولة الإسلامية؛ فهي الجهاز الوحيد القادر على تحقيق ذلك من خلال هذه الأطر، لا عن طريق الموعظة فقط دون توفير مقوماتها.

والموعظة من غير مقومات هي موعظة جوفاء لا قيمة لها. ومقومات الموعظة هي ما تكلمنا عنه أول المحاضرة من إشباع حاجات الإنسان الأساسية. وإلا فإن الموعظة مع عدم توفر الفرص لانطلاق طاقات الإنسان وإمكانياته تكون غير نافعة وغير مجدية؛ لأن هذا من المعوقات التي تقف دون هذه المواهب، وتحول بينها وبين انطلاقها.

ثم إن صاحب هذه المواهب حينما يجد الأمر بهذا الشكل وهذه التركيبة سيضطر إلى أن يكفر بالمجتمع، وبكل القيم والأخلاق؛ لأنه يرى المجتمع أنموذجاً قائماً على أساس من الطبقية والاختلال الوظيفي والاستغلال البشع. وحينها فإنه سوف لن يؤمن بهذا المجتمع ولا بأي قيمة من قيمه، ولن يكرمه أو يحترمه. فهو إنما يؤمن بالمجتمع فيما إذا أحس بأن قيمته محفوظة، وأنه لن يغلق أبوابه أمامه، بل يفتحها ويوفر له جميع مستلزمات تكافؤ الفرص، ويفسح المجال واسعاً أمام الطاقات لتنتلق وتبدع. فلا سبيل إلى إيمان أي فرد بالمجتمع ولا إلى تقديسه لأهداف المجتمع وأخلاقياته وآليات تعامله معه ما لم يكن ذلك المجتمع منفتحاً أمامه في مسألة تكافؤ الفرص. وبعبارة أخرى: يكون

مجتمعاً قائماً أساساً على مبدأ تكافؤ الفرص .
 ولتوضيح هذه الفكرة - المجتمع القائم على أساس تكافؤ الفرص -
 نفرض أن هناك مجتمعاً قائماً على أساس طبقي استغلالي، فهو يرى أن
 الطبقة الفلائية تختلف عن غيرها من الطبقات، وأنها أعلى منها، وبالتالي
 فالذي ينبغي هو أن تمنح الفرص دون غيرها في جميع المجالات .
 مضافاً إلى ذلك أن طبقة العمال فيه لا تتمتع بالمزايا عينها التي تتمتع بها
 طبقة الحرفيين، وطبقة الحرفيين كذلك بالنسبة لطبقة العسكريين . لكن
 هذا المعنى ملغى في نظر الإسلام؛ فهو يضع مبدأ تكافؤ الفرص أو
 الفرص المتكافئة أمام المسلمين على حدّ سواء؛ فلا نبالي أن يكون فلان
 مثلاً مزارعاً أو مهندساً أو على نمط أعلى من المعيشة، فالفرص أمامه
 واحدة متساوية . يقول الله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا
 خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
 أَتْقَاكُمْ﴾ (١) .

الإسلام يأخذ بالفوارق الدينية والخلقية

وهكذا يكون هدف الإسلام هو توفير الفرص أمام مجالات الانطلاق
 والعمل، وفتحها أمام جميع العوائل لترتبط ببعضها بغض النظر عن
 وجود عوامل التمايز والتفاوت بالمنازل والمراتب . وهذا ما أكد عليه
 الرسول الأكرم ﷺ فهو يقول: «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه،
 إلا تفعلوا تكن فتنة» (٢) . ولنلاحظ التعبير الذي يلغي مبدأ أن هذا ينتمي

(١) الحجرات: ١٣ .

(٢) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١ - ٣، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧ .

إلى عرق عالٍ وهذا ينتمي إلى عرق دانٍ، فالكل سواسية، والتكريم إنما يكون بالتقوى والدين والخلق كما هو لسان الحديث: «دينه وخلقه» لا العرق أو المال أو المنزلة.

وأحب أن ألفت النظر إلى نقطة هامة هي أن فقهاء المسلمين بصورة عامة يقولون بجواز زواج الرجل العامي من المرأة العلوية مع أن العلوية بنت رسول الله ﷺ، أي أنها ابنة أرقى أسرة وأشرف عائلة من ناحيتي الدين والدنيا. ومع ذلك فإن هذه العلوية قد يتزوج منها رجل عامي، أو من أسرة عادية، دون أن يقدر ذلك بالكفاءة ما دام قيد «دينه وخلقه» موجوداً.

الإسلام يأخذ بالفوارق العلمية والثقافية

إذن ليس هناك في الدين الحنيف فوارق ومميزات تخلق طبقة تترفع على طبقة أخرى وفق الدم أو العرق أو اللون، من ناحية إيجاد الأسرة أو العمل، أما من ناحية العلم والثقافة فنجد أن الإسلام يضع في هذا المجال أمام من يطلب العلم قاعدة ينتظم فيها الصغير والكبير، والدنيء والشريف على حدٍ سواء. فالله عزّ وجلّ يأمر بتوفير فرص العلم للناس، وكذلك رسوله الكريم ﷺ الذي جعل «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة»^(١). كما أن المؤسسات العلمية الإسلامية تحتضن طالب العلم من أي جنس ومن أي نوع كان، فلا فرق عندها - بل لا وجود أصلاً لأي لون من ألوان التفرقة عندها - بين أي مسلم وآخر، مهما كانت انتماءاتهم

(١) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

العرقية أو اللونية أو الأسرية، وكون أسرهم أسراً عالية أو دانية^(١).
وعليه فيمكن القول على سبيل الإيجاز: إن المجتمع الإسلامي كما
ترسمه أسس التربية الإسلامية يُعنى بخلق المسلم المؤمن المتكامل عن
طريق ملء حاجاته الأساسية وسدّها. وهذه الحاجات بطبيعة الحال لا
يمكن أن تسدّ إلا إذا كان المجتمع متكافئاً وكانت جميع الفرص أمام
جميع أبنائه متوفرة ومفتوحة بالتساوي في جميع نواحي الحياة
ومجالاتها. وهذا المعنى من أبرز الأمور المتصورة في التربية الإسلامية،
وهي واضحة في هذا المجال، وتجعل مهمتها الأساسية سدّ حاجات
الفرد المسلم على ألا يكون على جوع اقتصادي؛ لأنها تفترض به أن
يكون مضموناً من المجتمع، ومضموناً من الدولة. فالتكافل الاقتصادي
يعتبر من أبسط وأول الأسس الاقتصادية التي عُني الإسلام بتخطيط
مضمونها وتحقيقه من الناحية التشريعية، ثم تطبيقها بين الناس؛ فهي
تشريعياً وتطبيقياً ثابتة.

التكافل الأسري

وهو تكافل يتم عن طريق تذويب الحواجز والعقبات بين أسرة
وأخرى، وجعل كلّ أسرة منفتحة على غيرها من الأسر عن طرق
المساواة بينها جميعاً في هذا الحق. فهو تكافل إسلامي الغرض منه إزالة
عائق الطبقيّات أمام الزواج، فيؤمن الحاجة الجنسية بذلك لمن يريد

(١) ممّا تجدر الإشارة إليه أن هذه الفوارق الطبقيّة التي استزرعها المجتمع هي من صنع
المستعمر وزراعته، وفق متطلّبات سياسته القائمة على مبدأ «فرّق تسد»، ثمّ تلاقفها
المسلمون فعملوا بها، وإلا فإن الإسلام ليس عنده فرق بين عائلة وأخرى إلا في الدين
والعلم والأخلاق، كما يسعى المحاضر رحمته الله إلى بيانه وتوضيحه.

الزواج . فإذا عجز هذا الشخص من الناحية المالية تدخل بيت المال ليوفّر له المقومات والمقدمات المالية التي تدلّل له هذه العقبات ، وتوصله إلى الزواج .

التكافل النفسي

وهكذا عرفنا أن المشرّع الإسلامي يعني بفتح الفرص المتكافئة أمام الجميع ، سواء كانت فرص طلب العمل أو طلب العلم ، وأنه ليس فيه نظام يضع أي عقبات في طريق طبقة دون طبقة . وفرص العلم والتوظيف والعمل والتقييم وإعطاء المواهب حقّها والقبليات جزاءها كلّها مفتوحة أمام جميع الناس على حدّ سواء ، وكل هذا مضمون بصورة تفصيلية في التخطيط التربوي والاقتصادي والاجتماعي للبيئة الإسلامية ، فهذا الفرد الذي يعيش ضمن المجتمع الإسلامي وفي ظل التشريع الإسلامي له ما لأي مسلم آخر من حقوق على حدّ سواء ؛ حذو القذة بالقذة .

وعليه فلا يمكن أن نجد هناك عوزاً في ظلّ التشريع الإسلامي يؤهّل الفرد للانحراف ، أو يساعده على ذلك . والإسلام يؤمن بأن الفرد المتكامل لا يمكن تخليقه ما لم يتمّ سدّ حاجاته الأساسية من سكن وعمل وزواج وطعام ، وهي الحاجات التي يُفتقر إليها في بناء أسرة سعيدة تعيش حياة مستقرّة دائمة ، بعيدة عن العوز والحاجة . فهذا كما قلنا تعنى به الشريعة الإسلامية عناية تامّة .

لكن يبقى علينا كمسلمين أن نتعرّف إلى الوصفة الإسلامية التي وصفها المشرّع الإسلامي لعلاج مثل هذه الحالات ، فنحن نعيش حالة من الجهل والأميّة حيال فهم ذلك ، ومعرفة الآلية التي يتمّ بها . وحتى

المتَّقف المسلم لو سئل عن وجود مخطَّط كامل يعنى برسم الهيكل التام لصنع الفرد المسلم إسلامياً والكامل والمتكامل على ضوء الشريعة الإسلامية لما عرف ذلك، ولما أمكنه التطرُّق حتى إلى هذه الخطوط العامَّة العريضة له.

وعليه فالذي ينبغي على كلِّ فرد يمتلك قدرًا من الثقافة أن يتعرف على المدرسة الإسلامية في هذا الباب، وعلى الهيكل التخطيطي العام لسدِّ حاجات الفرد الاقتصادية والاجتماعية والوظيفية، وكيفية تخليق وإيجاد الفرص المتكافئة له. ومن يرد ذلك فكتب المفكرين المسلمين أغنت المكتبة الإسلامية بذلك على صعيد هذه الجوانب كافة، فلا تجد عوزاً أبداً. وكل فرد يستطيع أن يتناول أي كتاب يشاء؛ سواء في مجال تنظيم الأسرة، أو في مجال تنظيم العمل والعمَّال، أو في مجال تنظيم العلاقات الجنسية والزواج، أو في مجال فتح الفرص أمام الإنسان واستغلالها. فكل هذه الجوانب تناولها الكتاب المسلمون وخصوصاً مفكرهم بشكل شامل، وأشبعوها بحثاً وتنقيباً.

فالفرد المسلم لا يُعفى أبداً من وجوب التعرّف على هذه الأمور الأساسية، إذ أن كل واحد من المسلمين يجب عليه السعي لمعرفة ذلك في حدود استطاعته، فربما يعتذر عامل عن ذلك محتجاً بضيق وقته أو عدم اتساع دائرة أفق معرفته عن متابعة هذا أو فهمه. لكن نقول: إن في هذا الأمر مغالطة خصوصاً فيما يتعلّق بضيق الوقت وعدم اتساع المجال للاطلاع على هذا؛ لأننا نعرف أن العمل لا يستغرق من وقت الإنسان أكثر من عشر ساعات في اليوم، وعليه فإنه سيبقى عنده فسحة من الوقت يستطيع فيها أن يتابع ويطالع ويقرأ ويتعرّف على هذا. أو لا أقل من أن

يستمع فيها إلى أصحاب الشأن في أحاديثهم حول هذه الجوانب، سيما أن وسائل الإعلام لا تخلو من بعض الجوانب ذات العلاقة بهذا الموضوع.

الدور الخطر والحساس لوسائل الإعلام

وعدا هذا فإن وسائل الإعلام تتحمل مسؤولية كبيرة تجاه هذا الجانب الحيوي والهام، بل نحن نحملها هذه المسؤولية، قبل أن تتحول إلى مؤسسة رخيصة المتاع، وتنزل بالإنسان إلى مستوى الغرائز المنحطّة. وهذه الوسائل - السلاح ذو الحدين - يمكن أن ترقى إلى مستوى مؤسسة متكاملة، وإن لم تكن متكاملة فلا أقل من أن تكون أقرب إلى الكمال ممّا هي عليه الآن؛ فتعالج هذه المسائل على أساس من العلم والتخطيط. وبتعبير آخر أكثر صراحة نحن مثلاً كمسلمين نعيش في دولة إسلامية فيجب أن نعرف أن تكاليف الإذاعة والتلفزيون تقوم بها الأمة، وتدفعها عن طريق دفع الضرائب، ونحن نريد لهذا الجهاز الحساس أن يشبع عندنا الفهم والجوع العقيديين، وأن يعرفنا على منظور الإسلام في جانب الاقتصاد أو جانب الاجتماع أو جانب الأسرة، وفي الوقت نفسه نحن لا نريد أن نتعرف على كلّ هذا من خلال جماعات تفرضها على مؤسسات دينية معيّنة.

فالمسألة ليست مسألة ارتزاق، وليس الأمر مجرد محاولة إعاشة وإعالة جماعة من الناس عاطلين، عندهم بضع كلمات يلوكونها ويتشدقون بها. فالفرد المسلم يجب أن يكون أعزّ علينا من هذا، كما أن مهمتنا لا تبتني على إشباع حشرة على حساب جوع الملايين. فيجب ألا نترك الملايين من الشباب الذين عندهم نهم وجوع إلى المعرفة لأجل أن

يعتاش على فكرهم شخص يكرّر لهم كل سنة أكثر من مرّة أن النبي ﷺ كان جميل الوجه، وأن نور بهاء طلعتة يسطع على جدران المنازل لحظة مروره بالقرب منها، ويصحب هذا ضرب الدفوف وما إلى ذلك من وسائل مشابهة.

فهذا ليس هو الذي يحتاجه الفرد المسلم من وسائل الإعلام، بل إن هذا الفرد يحتاج إلى المعلومة الفكرية والعقيدية التي يستفيد منها في حل مشاكله الشخصية والعامّة، والتي تتماشى مع طبقات المجتمع كافة، فتشرح للناس على اختلاف مراتبهم وأعرافهم وأذواقهم منظومة الفكر في ديننا وحضارتنا. كما يجب ألا يكون طابع الحضارة الذي يعكسه أي فكر مجموعة من التشنجات القومية، بل الواجب أن يكون الطابع الذي يعكسه هذا الفكر عن حضارتنا هو الطابع الإنساني الذي يشكّل مادّة دسمة في معطياتها. وحضارتنا غنية بهذا الطابع أو الجانب، وكذلك تاريخنا.

وكل واحد منا يستطيع أن يصوّر ذلك ويعكسه بهذا الأنموذج الحيّ الرائع، وليس على أنه عبارة عن مجموعة من مظاهر التشنّج القومي، بل يجب تصويره على أنه منطلق إنساني بحث كما أسلفنا.

ونحن لدينا أقلام كفوءة تستطيع أن تعطي هذا الجانب حقّه من الشرح والتحليل الكافيين. فليس كافياً أن نعرف مثلاً أن البيت الذي يدفع الزكاة ستحلّ به بركة الله جلّ وعلا، بل اللازم حينئذٍ هو أن يذكر هذا الكاتب أو الفرد المسلم علاقة إخراج الزكاة بتوزيع الثروة، وبتطهير النفس الإنسانية ومشاعرها، وبإيصال الغذاء للمحرومين، أو باعتبارها جزءاً من البنية الاقتصادية الإسلامية فيما يتعلّق بعملية إعادة توزيع الثروة داخل

المجتمع الإسلامي، ومنع تمركزها في جانب معين منه، والعمل على تفتيتها وفق الضوابط الشرعية.

وهكذا فإن المطلوب هو توفير أقلام تتناول هذه الجوانب الحيوية الهامة في مسألة إخراج الزكاة، أما أن تُقصر وسائل الإعلام على جانب البركة أو الثواب، فهو أمر غير صحيح، وتصوّر فجّ لا ينم عن عمق في التفكير وشمولية في التحليل والتنظير. ثم إن هذا الأمر يعدّ ثانوياً قياساً بالجانب الأهم الذي أشرنا إليه؛ لأنه يخصّ الفرد نفسه، أما الجوانب التي أشرنا إلى ضرورة تناولها دراسة وتحليلاً فهي جوانب أولية حيوية تمتاز بأن لها الأولوية في التفكير والتحليل والدراسة؛ لأنها تتناول مشاكل المجتمع ككل وليس خصوصيات الفرد بشكل مستقل.

إذن ينبغي أن نرتقي بوسائل الإعلام عن أن نقصرها على مجموعة تظل تردّد وتكرّر المعلومات عينها، حتى إن الأسماع ملّتها لكثرة ما سمعتها. فنحن نتوقع ونأمل ونتطلّع إلى وسائل إعلام تقوم بهذا الدور وتضطلع به؛ وتمتاز بكونها وسيلة تربية ضخمة. وهذا خصوصاً الوسائل المرئية (جهاز التلفاز)، فهو يفعل في النفوس فعله. فإذا توفرت لدينا مجموعة كفوءة وكان كل همها ودأبها ومهمتها سدّ حاجات البلد عقيدياً، وحقنه بجو من المناعة، وتحصينه بالفكر، يستطيع هذا المجتمع أن يقف في وجه الغزو الثقافي الوافد.. الغزو الثقافي المنحرف الذي يحاول أن يحرك رغبات الناس ويستفزّها، وخصوصاً الشباب منهم.

فالجهاز الإعلامي وسيلة تربية ضخمة، وهو جهاز حساس جداً من هذه الناحية، وهو الجهاز الوحيد الذي يمكن أن يقف حائلاً دون

الثقافات الوافدة أن تتسرّب إلى مجتمعاتنا وعقول أبنائنا بما يقوم به من دور إيجابي وفَعَال في هذا المجال. فمعلوم أن فراغ البطن يولّد انحرافاً عند الإنسان من ناحية الطعام وتحصيله ما لم يكن هناك توجيه في هذا الباب، وسدّ حاجة ذلك الجائع بما أسلفنا ذكره من مقومات النظام الاقتصادي والاجتماعي في الإسلام، وهي مقومات تقوم أساساً على مبدأ التكافل والتكافؤ.

وكذلك فراغ الفكر، فإنه يولّد انحرافاً عقيدياً؛ لأن فراغ الفكر عند الإنسان يضطرّه إلى استيراد أفكار من الخارج. وغير خفي على الفطن وغيره ما تخفي الأفكار المستوردة بين طياتها من عناصر لهدم الشباب وآليات العمل الذي ترصد له الطاقات الفكرية والإمدادات المادية الضخمة من أجل بلوغه والوصول إليه. وحبذا لو قام الإعلام الإسلامي بملء أفكار الشباب بفكر واضح سليم، ينبع من قوانين الدين ونظمه، مع العلم بأن الإعلام يستطيع أن يوصل هذا الفكر إليهم؛ لأنه يستطيع أن يضع يده على مادّة دسمة تركها لنا مفكرون وروّادنا، لها القابلية الكاملة والطاقة الكافية على ملء ذهن الفرد المسلم، وتغنيه عن التطلّع إلى أي فكر آخر.

إذن فنحن في مسيس الحاجة إلى أن نفهم الإسلام فهماً صحيحاً، وأن نكون بعيدين عن التشنّج إزاء قضاياها وأبناء ديننا، وأن نشرب من ينبوع الدين ونهر الإسلام الخالد. وكمثال على ذلك فإننا حينما نقف عند نظرية لأحد فقهاء الخوارج أو لأحد فقهاء الظاهرية أو الإمامية أو الحنابلة أو الأحناف - بغضّ النظر عن مذهب صاحبها - فإننا يجب ألا نقف منها موقف المتشنّج، أو نتخذ إزاءها موقف عداو وحقد، بل يجب

أن ننطلق من مبدأ أن هذا الفقيه - مهما كان مذهبه - إنما يستمد نظرياته وأفكاره من ينبوع الإسلام، وإن الجهة التي تغذيه بهذه الأفكار وهذه النظريات هي الإسلام عبر الكتاب والسنة؛ وبالتالي فيجب أن نحترمها ولا نأخذ منها موقفاً عدائياً.

فالمفروض أننا لا يعيننا أن تكون هذه المسألة التي اقتبسها وشرحها عالم ما للناس من أي مذهب كان ووفق أي مذهب كانت مادام مصدرها الكتاب والسنة.

إن الحق هو أن يكون هذا منطلقنا في الحياة وفي تعاملنا مع الآخرين من علماء ومفكرين، وألاً نحجر على أفكار هذا الفقيه أو ذلك، أو نغفل رأيه ونظرياته لأنه يستمي إلى المذهب الفلاني، فهذه هي الصنمية بعينها.

ونحن بهذا اللون من التعامل البعيد عن التعصب نفتح الطريق أمام مجتمعاتنا لتفكر بنا. وعليه فإن الغيور على الإسلام يجب عليه أن ينهل من ينبوع الإسلام عبر أي قناة توصله إلى ذلك النبع مهما كانت، ومهما كان المذهب الذي تمثله ما دام يستمد فكره وقوانينه وتشريعاته من الإسلام.

إذن هناك مهمة مقدّسة وثقيلة تقع مسؤوليتها على عاتق وسائل الإعلام في البلدان الإسلامية، وهذه المهمة هي المساهمة في صنع الفرد المسلم الذي أراده الله، ويكون ذلك بمساهمة وجوه المحيط الأخرى؛ حتى يتسنى لنا ملء جوانب الفراغ عند هذا المسلم عن طريق تأمين وسائل حياته كافة، وإشباع حاجاته الشخصية الأساسية. فعن طريق هذا المنظور فقط يمكننا صنع الفرد المسلم الذي رسم الله سبحانه وتعالى

ملاحح شخصيته وبيئها لنا.

والله سبحانه وتعالى وحده المأمول في أن يعيننا على سلوك هذا الطريق، والثبات عليه حتى بلوغ الهدف؛ فلقد مرّت بنا تجارب قاسية حتى الآن انحرف البعض فيها بعيداً بعيداً عن الإسلام، وانجرف مع الحياة مبتعدين عن هديه. ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما يصلح به أولها، فالأمة التي كانت تتشكّل من بضعة أشخاص استطاعت أن تدكّ بهم عروش كسرى وقيصر لم تصنع ذلك بالطلاسم والسحر، وإنما صنعتها بعد أن صنعت أولاً الفرد المسلم الذي آمن بالإسلام واندكّ في تعاليمه وقواعده وأهدافه، والذي لم يكن يحسّ بأي نقص أو فراغ في حاجاته، فانطلق يحطّم عروش الطغاة ويصنع المعجزات.

ونحن إن شاء الله على ذلك الدرب وعلى تلك المسيرة، ولنا والله الحمد من ديننا وسيرة نبيّنا وأيّمنا ما يعصمنا وما يقوّمنا وما يعيننا على تقويم اعوجاجنا وانحرافنا، والله وحده هو المسؤول في هذه الليالي المباركة أن يرحمنا برحمته، وأن يجعلنا دائماً في خط «لا إله إلا الله»، وأن يغنيننا بما أغنى به سلفنا الصالح من ركوب جادة الطريق المستقيم، والتحلّي بالإيمان القويم حتى نصل إلى ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى لنا من خلافة في الأرض؛ فهو ولي الإعطاء والمنع. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المبحث الثاني: أسئلة وأجوبة^(١)

هذه بضعة أسئلة وردتني من بعض الأخوة الحضور سأجيب عنها قدر الإمكان والمستطاع، وبما يتّسع لها المقام إن شاء الله:

(١) للمزيد من الأسئلة والأجوبة. انظر موسوعتنا: محاضرات الوائلي ٧: ص ٨٥.

السؤال الأول: موقف الإمامية من شرع من كان قبلهم

يقول السؤال: ما هو موقف الإمامية من شرع من كان قبلنا من الأمم، وهل يعتبر شرعاً لنا؟

الجواب: إن فقهاء المسلمين بصورة عامّة وليس فقهاء الإمامية فقط يقولون: إن أي حكم من أحكام الأمم التي سبقتنا، وقد ذكره القرآن الكريم، إذا لم ينص القرآن على أنه منسوخ فهو حكم لنا أيضاً، أي أنه يبقى جارياً عندنا فنعمل ونتعبّد به. وهناك الكثير من الأحكام التي كانت معمولاً بها عند الأمم السابقة وأقرّها الإسلام وأعطاهها صفة المشروعية، وأصبحت من الأحكام الإسلامية. وعليه فالواجب علينا التعبّد بشرع من كان قبلنا ما لم يرد دليل شرعي على نسخه.

السؤال الثاني: دخول ابن الزنا الجنة

يقول السؤال: هل يوجد في الأحاديث أن ابن الزنا يدخل الجنة إن كان مسلماً؟

الجواب: إن كلامنا سينصب على ابن الزنا المسلم. وأحبّ قبل ذلك أن أنوّه إلى أننا لا نستطيع أن نعبر عن أحد بأنه مسلم أو غير مسلم إلا بعد مرحلة التكليف، وكلمة (ابن) تعني أنه لا زال طفلاً غير مكلف. ثم إن هذا المتولّد من غير الوجه الشرعي إن كان مؤمناً صالحاً تقيّاً ملتزماً، هل يقدر بذلك كونه ابن زنا؟ بمقتضى القواعد العامة أن ذلك لا يقدر، والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾^(٢).

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(١) الأنعام: ١٦٤.

فالقرآن الكريم صريح في أن الإنسان يتحمّل تبعه أعماله ومسؤولية أفعاله، فالولد لا يتحمّل جناية الأب والأم. وبمقتضى القواعد العامّة أن هذا إذا عمل بالتكاليف الشرعية، وسلك طريق الله عزّ وجلّ فلا مانع من شموله برحمة الله ورضوانه. وإذا كانت هناك روايات تنصّ على أنه لا تجوز الصلاة خلفه^(١) فهي روايات ضعيفة، لأننا نعلم أن زياداً يجمع المسلمون على أنه ابن أبيه وليس ابن أبي سفيان، وقضية إلحاقه بأبي سفيان فرية معلومة معروفة^(٢)، ولذلك فإنّ أمّ المؤمنين عائشة أرادت ذات يوم أن تكتب له رسالة جواباً على كتاب كان قد كتبه إليها، فتحيّرت ما الذي تكتبه له؛ هل تكتب زياد بن أبي سفيان وهذا كذب، وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»^(٣)، فمن لم يولد على فراش شرعي لا يعتبر ولداً شرعياً، أم زياد بن أبيه (كما هو المعروف) وهذا يترك أثراً في نفسه وخاطره ويغضبه، وأخيراً كتبت: من أمّ المؤمنين إلى ولدها زياد.

فلما وصلت الرسالة إليه تبسّم، فسأله أحد جلسائه قائلاً: ضحكت؟ قال: لقد لقيت أمّ المؤمنين من هذا العنوان نصّباً^(٤).

ومع هذا فقد ولّاه أمير المؤمنين عليّ اصطخر، وكان من واجبات الوالي وإدارة الولاية أن يصلّي الوالي بالناس. وعليه فابن الزنا إن كان

(١) الكافي ٣: ٣٧٥ / ١.

(٢) انظر شرح نهج البلاغة ١٦: ١٨٨، ١٩١، تاريخ مدينة دمشق ٥٦: ١٧٩.

(٣) الكافي ٥: ٤٩١ / ٤٩٢، ٧: ١٦٣، كتاب المسند (الشافعي): ١٨٨، مسند أحمد ١: ٢٥، وغيرها.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٠٤، تاريخ مدينة دمشق ١٩: ١٧٧.

صالحاً فلا يمنع من الصلاة خلفه^(١) ولا يقدر بهذا كونه متولداً كذلك .

السؤال الثالث: نكاح الصدق

يقول السؤال: هل يجوز المبادلة في الزواج والنكاح بين أخت صديق وأخت صديق آخر من غير مهر؟

الجواب: أن هذا النكاح من الأنكحة الباطلة، وهو من أنكحة الجاهلية؛ فالزواج لا بد فيه من تسمية المهر وإن كان رمزياً، أما بغيره فالزواج باطل. فالمبادلة من غير مهر لا ينعقد الزواج بها. ولأجل حل هذه المشكلة يتم زواج كلا الصديقين من أخت الصديق الآخر لكن مع ذكر مهر رمزي في المقام ليصح العقد بذلك وينعقد النكاح.

السؤال الرابع: زواج أولاد النبي آدم ﷺ

يقول السؤال: هل صحيح أن أولاد النبي آدم ﷺ تزوجوا من أخواتهم، مع أن البعض يقول: إنه لم تكن هناك أحكام تشريعية تردع هذا الزواج وقت وقوعه؟

الجواب: إن هذا غير صحيح لأسباب عديدة وكثيرة منها:

- ١- أن هذا الزواج لا موجب له .
- ٢- أن هناك نظريات حول زواج أولاد أبينا آدم ﷺ منها أنهم تزوجوا من قارات أخرى. ونحن لا نملك تصوراً حول آدم ﷺ إلا أنه نشأ على الأرض وحده وفي قارة معينة، وهذا غير صحيح؛ فهناك الكثير من

(١) على رأي علمائنا أن ابن الزنا لا تجوز الصلاة خلفه إن علم يقيناً منه ذلك . انظر كتاب الصلاة (السيد الخوئي): ٤٠٨ .

الروايات^(١) التي تنصّ على أن هناك أكثر من آدم ونشؤوا في قارات مختلفة. فمن الجائز أن يكون أبناء كل جماعة قد تزوّجوا من الجماعة الثانية.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن هناك روايات تنصّ على أن الله عزّ وجلّ أنزل زوجتين لابني آدم ﷺ إحداهما جميلة والأخرى غير جميلة، وهذا هو الذي سبب صراعاً بين قاييل وهابيل ﷺ. وعليه فمسألة زواجهم من أخواتهم أمر مرفوض وغير صحيح، والرواية الواردة في هذا الخصوص هي رواية إسرائيلية يهودية. ومن أراد الاستيضاح في المسألة والاستزادة منها، فعليه بالرجوع إلى الجزء الخامس من كتاب (الغدير) للأميني، فقد كتب فيه بحثاً كاملاً حول الموضوع.

السؤال الخامس: مشروعية التحليلات الجنسية

يقول السؤال: صدرت فتوى مؤخراً عن السيّد الخوئي تحرّم على الشخص الذي يشكو من بعض الأمراض التناسلية أن يذهب إلى الطبيب المختصّ ويحلّل مادّته المنوية.

الجواب: إن المسألة إذا وصلت إلى حدّ الضرورة، وهو ما يسمّى بـ«الأحكام الحرجية» أو «الضرورية» فإن المنع لا يشمل المكلف حينها. أما وجهة نظر السيّد فلم أطلع عليها بعد، لكن ما أعرفه عن الكثير من الفقهاء أنهم يجيزون للمكلف ويبيحون له أن يراجع الطبيب المختصّ

(١) التوحيد: ٢٧٧، الخصال: ٦٥٢، التفسير الكبير ١٩: ١٧٩، وقد رواه عن الإمام الباقر ﷺ.

فيما لو وصل الأمر حدّ الحرج، فيأخذ الطبيب منه ما أراد للتحليل. ولعل توقّف السيّد هو في طريقة إخراج المكلف لمادّته المنوية التي ربما تكون بوسيلة محرّمة، أما إذا كانت بوسيلة مباحة، فالأمر حينئذٍ يختلف ويصبح في حيّز الجواز.

السؤال السادس: تأويل القرآن

يقول السؤال: ذكرتم في بعض الليالي موضوعاً عن التأويل، فما هو رأيكم بتأويل بعض علمائنا لبعض الآيات في بعض الأيّمة الأطهار عليهم السلام كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾^(١)، وأن المراد بالكوثر: الزهراء عليها السلام؟

الجواب: أرجو أن يلتفت إلى أن هذا ليس بتأويل، وإنما هو شرح لمعنى الكوثر، وسليين لك لماذا قال هذا البعض من العلماء بهذا القول، فسبب نزول هذه السورة المباركة أن مجموعة من القرشيين، ومنهم عمرو بن العاص وصفوا الرسول ﷺ بأنه أبتّر لا عقب له؛ لأن أولاده ماتوا في حياته، وكان من عادة العرب في تلك الأيام أن من لم يمت عن ولد ذكر يسمونه أبتّر ولو خلف عشرين بنتاً؛ لأنهم لا يعتبرون البنت نسلًا. وكان أولاده ﷺ القاسم والطاهر من خديجة (رضي الله عنها)، وإبراهيم من مارية القبطية (رضي الله عنها)، وكلهم ماتوا في حياته ﷺ كما أسلفنا، فبقي بلا ولد؛ ولذا غيرته قريش بأنه أبتّر؛ كونه لا عقب له؛ فنزلت هذه السورة: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

ويتّضح من هذا أن جوّ السورة المباركة يدور حول أن الكوثر هو

(١) الكوثر: ١.

الوسيلة التي تناسل فيها رسول الله ﷺ ومنها أعقب. فلوجود هذه المناسبة قال بعض المفسرين بهذا، أما البعض الآخر فيفسر الكوثر بمعناه الظاهري، وهو اسم لبنع الماء، وليس للبنع التناسلي الذي هو امتداد النبي ﷺ عبر الحسنين عليهما السلام، وهو نبع ينهل منه الناس علم النبي ورسالته وفكره. فهؤلاء يفسرونه بنبع الماء. وهذا الرأي طبعاً مخالف لما عليه الجمهور، ولكنه يبقى رأياً له وجه لغوي.

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر أن بعض الآراء لا تكون قائمة على أساس علمي، بل إنها مجرد تشبه من أصحابها، كقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ﴾^(١) فيفسر الـ «ثَمَانِيَةَ» بأربعة من المتقلّمين وأربعة من المتأخّرين، ويذكر منهم أبا حنيفة ومالكاً وأحمد بن حنبل. وهذا في واقع الأمر تحكّم، فلا مناسبة بين الحكم والموضوع فيها، بخلاف آيات أخرى حيث يوجد فيها مناسبة. أما في المقام فالسورة فيها حكم وموضوع؛ لأن قريشاً حينما عيّرتهم ﷺ بأنه أبتري، نزلت السورة تقول له: إن مبغضك هو الأبتري، وأما أنت فقد ﴿أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الذي هو امتدادك ونبعك الذي يكون من صلبك، وهو فاطمة الزهراء عليها السلام ثم الحسنان عليهما السلام؛ ولهذا كان رسولنا الأكرم ﷺ يقول: «كلّ بني أمّ ينتمون إلى عصبتهم إلاّ بني فاطمة فإنني أنا أبوهم»^(٢). إذن توجد هنا مناسبة حكم

(١) الحاقّة: ١٧.

(٢) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال ﷺ: «إن الله لم يبعث نبياً إلاّ جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر: كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكلّ بني أب عصبة ينتمون إليه إلاّ ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمال ١٢:

وموضوع.

السؤال السابع: الأخذ برواية غير الشيعي

يقول السؤال: ذكرتم بأنه لا بأس بالأخذ بأقوال فقهاء المذاهب الأخرى إذا كان مصدرها الكتاب والسنة، فما رأيكم بالاتجاه الذي يدعو إلى عدم الأخذ بآراء بعض فقهاء كربلاء المقدسة؟

الجواب: سألت النظر إلى نقطة أكون فيها صريحاً مع السائل، وهو أننا إذا وردنا حكم مرتبط ومصحوب بدليله الشرعي المستمد من الكتاب والسنة، نأخذ به، لكن ليس كل رواية تؤخذ مستنداً، بل لابد من معرفة أن أحد مرجحات الأخذ بالرواية هو أن تكون ذات سند غير مخدوش أو مجروح (مضمونة السند) وواضحة المضمون، أي أن تكون نصاً^(١) في الحكم.

أما السند المضمون فنحن نعرف ونعتقد بأن أهل البيت عليهم السلام معصومون، وإنما قلنا بعصمتهم تبعاً للدليل الذي يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾^(٢)، والرجس كل خطأ، ومنه الكذب. إذن يكون طريق أهل البيت عليهم السلام مضموناً بناء على هذا، فإذا جاءت رواية لأهل البيت عليهم السلام وجاءت رواية أخرى تعارضها عن غيرهم فنحن نقدم رواية أهل البيت عليهم السلام؛ لأنها مضمونة لعصمتهم. وهذا ليس تعصباً أبداً، وإنما هو مبالغة بالدقة، فيأخذ الحكم من الطريق السليم. أما إذا لم تكن هذه الرواية معارضة برواية من روايات أهل البيت عليهم السلام،

٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

(١) المراد هنا: النص الاصطلاحي، وهو البالغ في ظهوره ودلالته بحيث إنه لا يقبل التأويل.

(٢) الأحزاب: ٣٣.

فنحن نأخذ بها بشرط كون السند مضموناً من هذه الجهة، وهي الرواية المسماة في اصطلاح أصوليينا «الموثقة». والرواية الموثقة هي الرواية التي يرويها العامي الصادق، وهذا ما تنص عليه كتبنا؛ فنحن نأخذ بكل رواية يرويها غير الإمامي إذا كان صادقاً مهما كان مذهبه، ونحن نصف حديثه بـ «الموثق» ونسمي روايته «الموثقة». وهناك باب من الأبواب في كتب الدراية يسمى «باب الموثق». فإن شدّ أحد عن هذا الرأي فلا قيمة لرأيه.

السؤال الثامن: وسائل منع الحمل

يقول السؤال: ما هو رأي الإسلام باستعمال وسائل منع الحمل في الدول الإسلامية؟

الجواب: إن استعمال وسائل منع الحمل لا ضير فيه، ومسألة تحديد النسل لا مانع منها بالعنوان الأولي، لكن إذا تدخلت العناوين الثانوية، كما في مصر مثلاً حيث يرى البعض أن الدعوة إلى تحديد النسل تعني أن يصبح الأقباط أكثر عدداً من المسلمين، فهو بهذا اللحاظ يثير حساسية معينة، فهنا يحكم العنوان الثانوي كما مرّ، ويؤول الحكم إلى عدم الجواز. لكن هذا في حالات خاصة - وهي الحالات التي يتدخل فيها العنوان الثانوي فيحكم على العنوان الأولي - أما الحالات العامة فقلنا فيها: إنه لا بأس بذلك. وكل الفقهاء يفتون بجواز تنظيم النسل عن طريق استعمال الموانع.

السؤال التاسع: وسائل منع الحمل الدائمة

يقول السؤال: هل يجوز تحديد النسل لدى النساء بإجراء عملية جراحية؟

الجواب: يفتي الفقهاء بأن تحديد النسل بهذا الشكل لا يجوز فيما لو أدى إلى منع الحمل بصورة دائمية، أما إذا كان بصورة مؤقتة فنعم. ويستثنى من هذا ما إذا كان الحمل يعرض المرأة إلى الخطر، فحينها يجيز الفقهاء إجراء التداخل الجراحي لمنع الحمل بصورة دائمية؛ لأنه حينئذ يكون من باب تعارض المهم مع الأهم، فيقدم الأهم وهو حياة الأم.

السؤال العاشر: الحجاب الإسلامي

يقول السؤال: هل يجوز الصيام من غير حجاب؟ وهل ارتداء الحجاب ضروري مع العلم بأني أصلي وختمت القرآن؟

الجواب: إن الصوم لا علاقة له بالحجاب، لكن الله يعاقب على ترك الحجاب ويرسل فاعلته إلى النار كما أنه يرسل الصائم إلى الجنة. وهذا ما لا كلام فيه، وإنما يعاقب الله تعالى على ترك الحجاب؛ لأن الحجاب طهارة للنفس وللأسرة وكف للأعين الفاسقة عن التطلع إلى جسد المرأة المسلمة. وعليه فالحجاب سيرة عالية وصورة راقية من الأدب والخلق قبل أن يكون داخلاً في دائرة الحلال والحرام. والمرأة قطعاً تعاقب على ترك الحجاب، لكن صومها وصلاتها صحيحان بلا إشكال؛ إذ ليس هناك أي ارتباط بينه وبين العبادات الأخرى.

السؤال الحادي عشر: خروج المرأة من غير إذن زوجها

يقول السؤال: ما رأي الدين في امرأة أصيب أحد والديها بمرض الموت، وقد غاب عنها زوجها فلم تستطع أن تستأذنه للخروج إليه، فهل يجوز لها أن تزوره دون إذن زوجها؛ لما له من حق عليها، أم لا؟

الجواب: إن عليها قبل الخروج في هذه الحالة أن تحرز رضا زوجها، وأنه لا يمانع من خروجها في مثل هذا المورد، وهذا ما يسمى بإذن الفحوى الذي إن أحرزته جاز لها الخروج حينئذٍ حتى مع عدم حضوره ساعتها. وكذلك الحال فيما لو لم تكن تعلم عدم رضاه، أي لم تحرز رضاه ولا عدمه، ففي مثل هذه الحالة يتغلب جانب برّ الوالدين في الأمر؛ ذلك أن الله تعالى أوصى الإنسان بوالديه وأمره ببرّهما^(١). فالذي يظهر لي أن الفقهاء يفتون في مثل هذه الحالة بجواز زيارة والديها. وأنا لأحب أن أُلج حقل الإفتاء، فأفتي فتوى لست متأكداً منها، لكن الذي يظهر لي والذي أذكر أنني مررت به هو هذا.

السؤال الثاني عشر: سماع الموسيقى

يقول السؤال: هل نستطيع أن نعتبر الموسيقى فناً من الفنون كالأدب وغيره، فنأخذ الجيد منها ونترك الفاسد، أم لا؟ وهل هناك فرق بين الموسيقى الهادئة الهادفة، والموسيقى الخليعة؟

الجواب: الظاهر أن الفقهاء يفرّقون بين نوعين من الموسيقى:

النوع الأول: الموسيقى الوطنية

وهو النوع الذي يحقق معنى وطنياً، وليس هو لاستثارة الغرائز، كالمارش العسكري أو غيره من هذا القبيل. فهذا النوع من الموسيقى يجيز الفقهاء سماعه.

النوع الثاني: الموسيقى الداعرة

وهو النوع الذي يهيج الغرائز عند الإنسان ويتميز بأنه يصطبغ بصبغة

(١) قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾. الأحقاف: ١٥، وقال عزّ من قائل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ العنكبوت: ٨.

ألحان أهل الفسوق. ولعل أكثر من تعرّض لهذا الأمر من المتأخّرين هو السيّد عبد الأعلى السبزواري في كثير من فتاواه، أو فيما يمكن استفادته من بعض فتاوى السيّد الخوئي من خلال تحديده لمفهوم الغناء بأنه نوع الموسيقى الذي يعدّ من ألحان أهل الفسوق يحرم سماعه، وفي الوقت نفسه في تحديده مادة كلمة (الغناء) بأنها مادة مهيجّة، فما يصاحبها من هذا اللون من الموسيقى يحرم استماعه. وهذا دليل المنطوق، وعليه فيكون بدليل المفهوم (مفهوم المخالفة) - أي إذا لم يكن من ألحان أهل الفسوق، وكان ذا صبغة وطنية أو عسكرية أو صبغة فنية كما يعبر عنه السائل - جواز سماعه حسب الظاهر من كلامهما.

السؤال الثالث عشر: حدّ قطع اليد

يقول السؤال: يقول علماء السنة بأنه عند تطبيق الحدّ على السارق تقطع اليد من الرسغ، أما علماء الإمامية فيتجهون في هذا المجال إلى قطع أصابع اليد، فما هي الحكمة في ذلك؟

الجواب: يتّضح من خلال مراجعة المسألة اختلاف المذاهب فيها على صعيد حدّ القطع أو مقدار الواجب قطعه من اليد. وحينما نأتي إلى فتوى الإمامية فنجد أن دليلهم^(١) على قطع أصابع اليد فقط هو قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾^(٢) فالكاتب يمسك القلم بأصابعه وليس باليد كلّها، ومن هذا يستفاد أن الأصابع تسمى يداً أيضاً، ويكفي في قطعها تحقيق مسمى اليد وامتثال الأمر الوارد في قوله تعالى:

(١) الخلاف ٥: ٤٣٧ / المسألة: ٣١. (٢) البقرة: ٧٩.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(١).

أما من يقول بجوب قطعها من المرفق فيستند إلى قوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(٢)، فأطلق لفظ اليد على المقدار المحصور بين المرفق وأطراف الأصابع.

في حين أن البعض يستند إلى العرف اللغوي (الانصراف)، فيحكم بأن اليد هي كامل العضو المحصور بين الكتف إلى أطراف الأصابع.

وعليه فإن الاختلاف في مقدارها نشأ من اختلاف الدليل؛ فمن يستند إلى العرف اللغوي يحكم بأن اليد هي من الكتف، ومن يستند إلى النص ويحتط يحكم بأنهما من المرفق، كما في آية الوضوء، ومن يستند إلى النص أيضاً لكن يغلب جانب الصدق اللغوي لليد الذي عبّر عنه القرآن بقوله ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، فالقرآن حدّد معنى اليد وجعل الأصابع بمعناها، فهي تحقّق معنى اليد؛ وعليه فإننا نكتفي بالقطع منها، وكلّ له دليله.

وأخيراً أتمنى من الله العليّ القدير لكم التوفيق وأسأله تعالى أن ينفعنا بأمثال هذه الجلسات في هذه الليالي المباركة وأمثالها. وباعتبار أننا في ليالي القدر فلنختتم مجلسنا بالدعاء إلى الله عزّ وجلّ والتضرّع إليه بأن يطهر قلوبنا ونفوسنا ومشاعرنا من كل ما لا يرضيه، وأن يفتح علينا أبواب رحمته، وأن يعصمنا بـ «لا إله إلا الله»، وأن يرحمنا بـ «لا إله إلا الله» إنه سميع مجيب وصلّى الله على محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.



(٢) المائد: ٦.

(١) المائدة: ٣٨.

﴿٧﴾

أثر البيئة في التربية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ
وَلَا الضَّالِّينَ﴾^(١).

مباحث النص الشريف

المبحث الأول: مدارس التفسير

تقول الآية الكريمة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، و﴿الصِّرَاطَ﴾ يُنطق بالسين وبالصاد، والأصل فيه السين. وهو الطريق الذي يمشي عليه الإنسان في حياته. وبما أن المقصود به الطريق الذي يسير عليه الإنسان، فهو قطعاً يراد به طريق الحق وليس طريقاً غيره. ونحن بطبيعة الحال حينما نرجع إلى كتب التفسير نجد أن الإسرائيليات قد استغلّت الفرص الكثيرة لتتغلغل فيها، وهو ما سنلاحظه ونشير إليه خلال المباحث القادمة إن شاء الله تعالى. وقد أشرت سابقاً إلى أن عندنا أكثر من مدرسة في مجال

(١) الفاتحة: ٦ - ٧.

التفسير، منها:

الأولى: مدرسة التفسير بالرأي

ولا يُراد هنا: الرأي الشخصي المبني على انفعالات المفسّر، أو طبيعته الاجتماعية، أو ميراثه الاجتماعي أو الأخلاقي، أو ما شابه ذلك، بل إننا نريد به الرأي المستند إلى العلم. فتفسير آية كريمة بالطرق الفنية تعني أن نعلم التفسير العلمي لها، وهو تفسير بالرأي، لكنه تفسير مستند إلى الدليل العلمي أو البرهان العقلي. وبعبارة أخرى أنه التفسير المستند على المقدمات، وليس هو التفسير الذي يرجع به متبنيه إلى المأثور النبوي الشريف.

ولبيان هذا الأمر نضرب مثلاً فنقول: قوله تعالى: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾^(١)، فالبعض من الفقهاء مثلاً يستفيد من قوله تعالى: ﴿يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أن هذه المرأة يحق لها الزواج من شخص آخر بمجرد أن تلد جنينها، مستدلين على ذلك بأن ظاهر لفظ القرآن يُشير إلى أن هذه المرأة إذا وضعت حملها حلت للأزواج بمجرد ذلك؛ لأننا لو خَلينا وظاهر لفظ الآية الكريمة لعرفنا أن هذا هو مفاد هذه العبارة.

في حين أن القسم الآخر من الفقهاء لا يرتضون هذا التوجيه، ويقولون: إن هذا الظاهر غير مقصود؛ لأنه ربما كان عند المرأة أكثر من جنين، فمسألة أن أول جنين يحقّ الوضع أمر صحيح ولا إشكال فيه، لكن نحن بحاجة هنا إلى إعمال الوسائل الفنية الأخرى التي يجب أن تتبع في مقام التفسير. وعليه فإن المقصود هو حتى تُفرغ ما في رحمها من

(١) الطلاق: ٤.

أجنة فيما لو كانت حاملاً بأكثر من جنين، وهذا يعني أنها لا يجوز لأحد أن يعقد عليها حتى تضع الجنين الثاني أو الثالث إن كان هناك ثلاثة أجنة في بطنها.

إذن فالمناط هنا هو إفراغ الرحم من الأجنة، وليس تحقّق الوضع بنزول أول جنين منه.

وكما قلنا فإن هذه المدرسة هي مدرسة التفسير بالرأي المستند إلى العلم، وهي مدرسة مشهورة، ولها الكثير من الأنصار والأتباع الذين انتهجوا هذا المنهج في تفسير كتاب الله الكريم.

الثانية: مدرسة التفسير بالمأثور

وفي مقابل مدرسة التفسير بالرأي هنالك مدرسة التفسير بالمأثور، وهي المدرسة التي يعمد أصحابها إلى تفسير الآية الكريمة برواية من الحديث الشريف، وليس برأي من آراء العلماء. فهي إذن أن المفسّر حينما يتناول آية من كتاب الله تبارك وتعالى فإنه يتناولها ليفسرها بالأحاديث والروايات الواردة عن النبي الأكرم ﷺ أو عن أهل بيت العصمة عليهم السلام أو ما ورد بلغة العرب. وهكذا نخلص إلى أن مدرسة التفسير بالمأثور تنقسم إلى قسمين:

الأول: التفسير بالمأثور اللغوي

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوْفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(١)، فالتفت هنا يمكن معرفة معناه بالرجوع إلى لغة العرب، حيث نجد أنه قصّ الأظافر والشعر. فهذا تفسير للقرآن العزيز بالمأثور

(١) الحج: ٢٩.

الوارد عن العرب لغة واستعمالاً.

الثاني: التفسير بالمأثور الحديثي

أما في بعض الآيات الكريمة الأخرى فإننا نرجع في تفسيرها بالمأثور الوارد عن المعصوم عليه السلام، أي أن نرجع إلى الحديث الشريف لنفسه الآية القرآنية الكريمة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾^(١)، فلمعرفة أسماء هؤلاء الثلاثة هنا فإنه لا مجال للرأي. هذا من ناحية، وكذلك لا مجال للرجوع إلى كتب اللغة أو إلى الآثار اللغوية الواردة عن العرب، بل لابد من الرجوع إلى الروايات، أي الرجوع إلى المأثور لبيان أسماء هؤلاء الثلاثة الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، فعن طريق الرواية نعرف أسماء هؤلاء.

المبحث الثاني: سلبيات التفسير بالمأثور

وعلى العموم فما أريد أن أقوله هنا هو أن مدرسة التفسير بالمأثور قد دخلت فيها روايات إسرائيلية كثيرة غير معتمدة، وهي الروايات التي خلقت لنا كثيراً من المشاكل على نطاق التفسير، وفي إطار بيان كتاب الله جلّ وعلا. ومن موارد تغلغل الروايات الإسرائيلية في مدرسة التفسير بالمأثور ما يتعلق بأية المقام وأخص منها كلمة ﴿الصِرَاطِ﴾. فالإسرائيليات تدخلت في هذا الباب حتى وصل الأمر حدّاً أنها تصف الصراط معه بأنه معبر دقيق كالشعرة، أو كحد السيف^(٢)، إلى آخره من

(١) التوبة: ١١٨.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢٤٢، روضة الواعظين: ٤٩٨، ٤٩٩، المستدرک علی الصحیحین: ٣٧٥، ٣٧٦، ٤: ٥٩٠، فتح الباري ١١: ٣٩٥، عمدة القاري ٢: ٤٢، ٦: ٨٤، ١٩:

هذه الأوصاف التي لا يمكن تعقلها ولا تقبلها بحال من الأحوال . فكيف يعقل أن الله تبارك وتعالى يكلف الناس في أن يمروا على شيء مثل الشعرة أو مثل حدّ السيف، فإن استطاعوا وإلا دخلوا النار؟ إن الله تبارك وتعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها^(١) ثم إنه ليس هنالك من تكليف يوم القيامة حتى يقال بأن الله تبارك وتعالى يكلف الناس، أو يأمرهم باجتياز هذه الشعرة .

وعلى العموم فالروايات الإسرائيلية موجودة في التراث العلمي للمسلمين، وقد لعبت دورها فيه، وفي تفسير هذه الآية كذلك .

الكليني رحمته الله والبخاري

وهنا أود أن ألفت النظر إلى أن البعض يتّهمون الشيعة بأنهم يأخذون عن الكليني (رضوان الله تعالى عليه) وهو الذي يروي ما يروي في كتابه من روايات شاذة . وهذا غير صحيح، فالكليني رحمته الله وإن كان من خيرة مؤلفينا، ومن علمائنا الأفاضل العظام الذين نعتزّ بهم، لكننا مع ذلك لا نأخذ بكل ما ورد عنه، بل إننا نطرح ثلث ما ورد في كتاب (الكافي) لأننا نعتبره روايات ضعيفة^(٢). فنحن إذن لا نأخذ بكل ما في (الكافي) الذي يعتبره خصمنا هو أفضل كتبنا، بخلاف الخصم الذي يأخذ كل ما هو

٢٩٢، المصنف (الصنعاني) ١ : ٢٩٤، المصنف (ابن أبي شيببة) ٨ : ١٠٤، الأحاديث الطوال : ٩٩، المعجم الكبير ٩ : ٢٠٣، الفايق في غريب الحديث ٢ : ١٦٩، السيف الصقيل : ١٣٢ الموافق ٣ : ٥٢٣، ٥٢٥، التخويف من النار : ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٥٢، العهد المحمدية : ٦٢٨ .

(١) إشارة إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ البقرة : ٢٨٦ .
(٢) بل بالرجوع إلى كتاب (مرآة العقول) للعلامة المجلسي الثاني نجد أنه يضعف فيه أكثر من ثلثي هذا الكتاب .

موجود في كتاب البخاري ولا يحكم على شيء منه بالضعف أو ما إلى ذلك.

وهكذا فإننا في الوقت الذي نضعف فيه نحن الكثير من روايات الكليني ولا نأخذ بها ونطرحها، ولا نرتب عليها أي أثر؛ لأنها معارضة بما هو أقوى منها دلالة أو سنداً، أو بما لا يلتئم مع أصولنا العامة، أو مع القرآن الكريم مع كون الكليني محققاً، ومن خيرة الأتقياء البررة نجد أن الخصم يأخذ بكل ما جاء في (صحيح البخاري)، مع أن فيها الكثير ممّا هو غير معقول أبداً.

أ نموذجان من إسرئيليات القوم

إن هناك الكثير من الروايات التي تبرز فيها اليد اليهودية واضحة معالمها على هذا التراث الذي ينبغي أن يكون مقدساً، ومن هذا نضرب بضعة أمثلة:

الأول: البخاري يروي أن النبي موسى ﷺ سمل عين عزرائيل

أنهم يصدقون بأن عزرائيل أعور لأن نبي الله موسى ﷺ قد لطمه ففقأ عينه، تقول الرواية: إن الله تبارك وتعالى أرسل ملك الموت عزرائيل إلى النبي موسى ﷺ، فلما جاءه قال له نبي الله موسى ﷺ: «جئتني زائراً أم قابضاً؟». قال: «جئتك قابضاً». قال: «أتقبض روحي؟». ثم صكّه ففقأ عينه، فرجع إلى ربه بعين واحدة، فقال: «أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت». فردّ الله عز وجل عليه عينه، وقال: «ارجع فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة». فقال ﷺ: «أي رب، ثم ماذا؟». قال: «الموت».

قال: «فالآن»^(١).

الثاني: أن الله قد كشف عن عورة نبيه موسى ﷺ

ذلك أن الناس كانوا يظنون أنه ﷺ به عاهة في عورته (تنزهه ﷺ عن ذلك)، فكشفها الله تبارك وتعالى أمامهم ليتأكدوا من سلامته ﷺ من هذا المرض، حيث تقول الرواية: إن بني إسرائيل قالوا لموسى ﷺ قولاً سيئاً في عورته ﷺ، واتهموه بأنه آدر^(٢)، فأراد الله أن يبرئه أمامهم من هذا العيب، فوضع ثيابه مرّة على صخرة وهو يغتسل، فأوحى الله للحجر أن يطير، فطار بعيداً عنه، فانطلق النبي موسى ﷺ يتبعه في أثره وهو يقول: «يا حجر، ألقِ ثيابي». حتى أتى به على بني إسرائيل، فرأوه مستويًا حسن الخلق، فلجبه ثلاث لجبات^(٣).

ثم يعقب أبو هريرة راوي الحديث على هذا فيقول: فوالذي نفس أبي هريرة بيده، لو كنت نظرت لرأيت لجبات موسى فيه^(٤).

وكذا في الكثير من الروايات غيرها مما لا يدخل في مجال العقل^(٥) وهم مع ذلك يأخذون بها ويصدقونها لأن راويها البخاري الذي لا يجوز

(١) صحيح البخاري ٢: ٩٢، وانظر صحيح مسلم ٧: ١٠٠.

(٢) الأدر من الأدرة، وهي انتفاخ كيس الصفن. الصحاح ٢: ٥٧٧ - أدر.

(٣) قال ابن الأثير: «وفي قصة موسى ﷺ: «فلجبه ثلاث لجبات». قال أبو موسى: «كذا في (مسند أحمد بن حنبل)، ولا أعرف وجهه، إلا أن يكون بالحاء والتاء، من (اللحت)، وهو الضرب. ولحته بالعصا: ضربه...». النهاية في غريب الحديث والأثر ٤: ٢٣٣ - لجب.

(٤) مسند أحمد ٢: ٣٢٤، تفسير مجاهد ٢: ٥٢١، جامع البيان ٢٢: ٦٣ / ٢١٨٨٢.

(٥) كحديث: «فقدت أمة من بني إسرائيل لا يدرى ما فعلت، وإنني لا أراها إلا الفأر، إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشرب، وإذا وضع لها ألبان الشاة شربت». صحيح البخاري ٤: ٩٨، وأشباهاه.

أن تنسب إحدى الروايات التي في كتابه إلى الضعف أو الوضع أو الكذب^(١). فكون البخاري يروي شيئاً وبالتالي لا يمكن رده لهو كلام فارغ لا يوصل إلى نتيجة، بل هو كلام أناس لا شأن لهم، وليس لديهم غيرة على الدين، ولا على المسلمين، ولا على وحدتهم، ولا على تنزيه أنبياء الله تبارك وتعالى عن النقائص والمعائب. وأنا من هنا أقول: جزى الله خيراً أولئك الذين تمكّنوا من أن يستخرجوا النفط لنعيش به، ولولا هذا لبقينا نعيش على أولئك الذين يتبعون البخاري، ولبقينا حتى الآن نأكل الضبّ ونمشي على آرائهم وأفكارهم.

إن الأولى بهؤلاء أن يتجهوا إلى تدعيم كلمة «لا إله إلا الله»، وأن يصبّوا جهودهم على معالجة مشاكلنا الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية، إن على كل مسلم أن تكون عنده غيرة على المسلمين وعلى الإسلام من قبل ذلك. وبناء على هذا فإنه لا يجب أن نأخذ بكل رواية لأنها وردت في الكتاب الفلاني. وكمثال آخر على هذا فإن هناك العشرات من الروايات المروية في (صحيح البخاري)، والتي تقول بتحريف القرآن الكريم^(٢)،

(١) بل الأكثر من هذا أنهم يقدمونه على كتاب الله تبارك وتعالى، فيقرؤونه عندما تنزل بهم نازلة كالطاعون وما إلى ذلك. انظر: قواعد التحديث (القاسمي): ٢٤١.

(٢) هناك الكثير من هذا القبيل نقل منه ما يتيسر كدليل على صحة المدعى، وهو: الأول: أن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وانزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها. صحيح البخاري ٨: ٢٦. الثاني: عن عبد الله قال: (وما أوتوا من العلم إلا قليلاً)، قال الأعمش: هكذا في قراءة تنا. صحيح البخاري ٨: ١٨٩.

الثالث: عن ابن عباس: كان عكاظ، فنزلت: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج). صحيح البخاري ٢: ١٩٧، ٣: ٤، ١٥، ٥: ١٥٨. الرابع: وقرأ ابن عباس: (أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً، وأما الغلام فكان كافراً وكان

فهل يمكن لنا أن نأخذ به؟ قطعاً لا؛ لأن هذا يخالف ما عليه صريح القرآن الكريم^(١)، وما عليه إجماع المسلمين. ومن أراد التحقق من الأمر فعليه بكتاب (التحقيق في نفي التحريف) للسيد علي الميلاني، وكذلك لينظر إلى الروايات التي ينقلها أبو زهرة، وكذلك لينظر في كتاب (مصباح الظلام) للجرداني.

كما أنني على استعداد لأن أعطي القارئ عشرات المصادر والكتب التي تحتوي على خبط من السماء إلى الأرض، لكن هذا لا يعني أنني أعطي نفسي حقّ اتهام المسلمين، وأن ادّعي عليهم بأنهم يقولون كذا وكذا، وأن أجلس في كل قارعة لأهرج عليهم. فما هو الهدف الذي يمكن أن يُجنى من وراء هذا التهريج؟ إنه لا يتمخض إلا عن تفريق

أبواه مؤمنين). صحيح البخاري ٤: ١٢٤، ٥: ٢٣٢، ٢٣٥.
الخامس: عن علقمة: فقرأت عليه: (والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلّى، والذكر والأنثى).
قال والله أقرأنيها رسول الله من فيه. صحيح البخاري ٦: ٨٤.
السادس: وعنه لما نزلت: (وأندر عشيرتك الأقربين، ورهطك منهم المخلصين)... صحيح البخاري ٦: ١٩٨.
السابع: نزلت: (تبت يدا أبي لهب وتب، وقد تب)، هكذا قرأها الأعمش. صحيح البخاري ٦: ٩٤.
الثامن: عن ابن عباس: قال عمر: لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل: لا نجد الرجم في كتاب الله. صحيح البخاري ٨: ٢٥.
التاسع: وعن عكرمة عن عمر قال: (لولا أن يقول الناس: زاد عمر في كتاب الله لكتبت آية الرجم بيدي). صحيح البخاري ٨: ١١٣.
العاشر: وعنه عن عمر: ثم إننا كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله تبارك وتعالى: (أن لا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم)، أو (إن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم). صحيح البخاري ٨: ٢٦.

وغيرها كثير من موارد نسخ التلاوة وما شاكل.

(١) في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّنَا الذُّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الحجر: ٩.

للمسلمين، ولا يثمر إلا تشتيتاً لشملمهم وتمزيقاً لوحدتهم. ومن يعلم أن هذه هي النتيجة الحتمية لمثل هذا التهريج، ثم يعمد إليه فيفعله، فإنه حتماً يكون إنساناً مريضاً غير نظيف، وذا هدف غير نظيف أيضاً، بل إن مثل هذا الإنسان يُخفي وراءه أكثر من علامة استفهام.

إننا ندعو هؤلاء الذين يهزجون علينا الليل والنهار إلى أن يأتوا لينظروا إلى ممارسات الفرد الشيعي، فإنهم حينما يرونها فحتماً سوف يجدونها ممارسات لا تختلف عن ممارساتهم الدينية والعبادية، فهو يصلي اليومية مثلهم، ويصوم رمضان، ويحج بيت الله كما يحجون. فليس هنالك من فرق في تطبيق هذه الطقوس أو هذه الشعائر بين مسلم ومسلم؛ سواء كان شيعياً أو غير شيعي. لكن للأسف نجد أن البعض يبحثون عن رواية في بطون الكتب لعلمهم يستطيعون أن يستخرجوا منها حكماً بكفر هذه الطائفة.

ولسنا ندري ما هي الجدوى من وراء ذلك، وما هو النفع المترتب على هذا. وأنا طبعاً أربأ لنفسي عن أن أخوض في مثل هذه المهارات؛ لأنني أعلم أنها مضيعة للوقت، لكن الإنسان يضطر أحياناً إلى الخوض فيها؛ نتيجة لما يوضع فيه من حال، أو ما يكون عليه من وضع؛ لأنه يجد نفسه قد حوَصر بكثير من هذه القضايا التافهة، محاصرة تامة، ويجد نفسه لا يستطيع معها إلا أن يخوض في مثل هذه الأمور والمهارات؛ ليدفع بها عن نفسه وعن مذهبه الحق.

وأنا أرى أنه يجب أن يوضع حدٌ لهؤلاء؛ لأن حالهم حال الوباء الذي يصيب بلداً، فإنه إذا أصاب وباء بلداً ما وجب على أهله الاستعداد لمكافحة ذلك الوباء والقضاء عليه، وللوقاية منه في البلاد التي لم يصل

إليها. وهكذا فإن هؤلاء أيضاً يجب عليهم أن يحاصروا ويكافحوا مثل هؤلاء؛ ليقضي على هذا الوباء الديني والأخلاقي الذي يعيثُ فساداً في جسد الأمة الإسلامية وينخر في جسمها. فهذا الوباء يجب ألا يصل صوته إلى المسلمين، ويجب أن يمنع المسلمون عنه؛ كيلا تصل عدواه إليهم.

فعلى المجتمعات الإسلامية كافة أن تضع الحواجز دونهم لتمنعهم عن أن يصلوا إلى جسد هذه الأمة وأن ينخروه ويفتتوه ويشتتوا اجتماعه ووحدته.

بين النقد والانتقاد

إننا لا نريد أن نكمّ الأفواه، ولا أن نمنع شخصاً عن أن يعبر عن رأيه بحريّة، لكن شريطة أن يكون ذلك التعبير ناشئاً عن مدرك علمي، أو أن يكون نقد الناقد نقداً علمياً أكاديمياً مبتنياً على أسس الحوار وقواعد النقد؛ كي نتوصّل عن طريقه إلى نتيجة دون المساس بوحدة المسلمين وباجتماع كلمتهم، ودون أن يؤدي ذلك إلى بثّ الفرقة بينهم. ومن هذا المنطلق فإن على الآخر الذي يريد أن يناقش نظرية فقهية، أو في علم التفسير، أو في علم الكلام عند الخصم فإن عليه أن يحافظ على الأدب في الحوار الإسلامي، وعليه وهو يكتب كتاباً أن يقيّد نفسه بالخلق الإسلامي النبيل الذي يحجر على الإنسان أن يسبّ أخاه أو أن يكفره، وعليه أن يكتب كتاباً ليس فيه سوى النقد العلمي المتين القائم على أسس النقد العلمي والمبني على نظريّاته، وليس فيه سوى الكلام المستند إلى الأدلة والبراهين، لا أنه مجرد تهريج أهوج لا ينمّ إلا عن فراغ

صاحبه وضحالة فكر كاتبه .

الوحدة الإسلامية وضرورة الحفاظ عليها

إن على كل مسلم أن يظلّ محافظاً على أدب الحوار الإسلامي الذي ألزّمنا به هذا الدين الحنيف؛ فالمفروض بكل مسلم أن يشعر بأن على لسانه رقيباً وأن على يده رقيباً وأن على ضميره رقيباً؛ كيلا يكتب إلا ما هو حقّ وما فيه رضا الحقّ، ولا يلفظ إلا ما هو حق، ولا يقول إلا ما هو حقّ، لكن البعض لا زال يعيش أيام الجاهلية وأوهامها؛ إذ يفعل كل ذلك دون رقابة من ضميره أو دينه أو غيره على وحدة المسلمين والحفاظ عليها، بل إنه بتصرّفه هذا يكون قد سحق على وحدتهم بالأقدام.

والواجب يقضي عليه أن يعرف وأن يتنبّه إلى أن هذا الكلام ليس له مسوِّغ أبداً، فجميع الناس ممّن يدين بالإسلام اليوم قد ولدوا على كلمة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وربوا في بيوت مسلمة يظلمهم فيها لواء «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»؛ وعليه فينبغي أن يضرب أي صوت يחדش وحدة المسلمين بعرض الجدار.

المبحث الثالث: أثر النعمة في الإنسان المؤمن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهنا يطرح سؤال في المقام هو: من هم الذين أنعم الله عليهم؟ وهنا يتكفل المصحف الشريف بالإجابة؛ فبالرجوع إليه نجدنا نقرأ فيه: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ (١).

(١) مريم: ٥٨، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ

سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾

ويروي المفسرون أن هذه الآية الكريمة نزلت بشأن عبد الله بن زيد بن عبد ربّه الأنصاري .

رواية الأذان

وهذا الرجل هو الذي يروي أنه السبب في حكم الأذان وصيغته وتشريعه كما تقول الرواية ، ذلك أن النبي الأكرم ﷺ لما أراد أن يجمع الناس إلى الصلاة جمع أصحابه واستشارهم، فقال بعض منهم: نضع ناقوساً كما يفعل النصارى، نضربه وقت الصلاة فيجتمع الناس . وقال البعض الآخر: نصنع كما تصنع العرب، بأن نشعل ناراً على رأس الجبل فيراها الناس فيجتمعون . وقال بعض غيرهم: نبعث وقت الصلاة من ينبّه الناس في بيوتهم بأن وقت الصلاة قد حان .

ولم يوافق رسول الله ﷺ على رأي من هذه الآراء ، وتفرّق الصحابة دون أن يحسم الأمر، حتى إذا باتوا ليلتهم وأصبح الصباح جاءه عبد الله بن زيد هذا، فقال: يا رسول الله، لقد رأيت في الرؤيا من يقول لي: أذنوا للصلاة بأن تأمروا أحدكم بالصعود على مرتفع، ويقول: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله، أشهد ألا إله إلا الله... إلى آخره . فاستحسن النبي ﷺ ذلك، وأمر بلالاً أن يصعد فيؤذن به (١) .

نقد الرواية

ولنا مؤاخذه حول هذه الرواية هنا؛ ذلك أن الأحكام الشرعية - سيّما

النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿النساء: ٦٩ .

(١) مسند أحمد ٤: ٤٣ .

الهامّ منها، وهو ما يتعلق بالمجتمع كافة - لا يمكن أن يؤخذ عن طريق الرؤيا. وهذا المذهب في واقع الأمر ليس بكلام علمي ولا منطقي؛ فلا ينبغي الاستناد إليه، وإلا فإن أي شخص يريد أن ينتقد المسلمين فإنه يحكم على دينهم بأنه دين الخرافات والأحلام والرؤى. وعلى أية حال فإن هذا الكلام لا يصمد أمام التحقيق، لكن هذه الرواية تروى عن هذا الرجل في سبب نزول هذه الآية الكريمة. على أن النبي الأكرم ﷺ حاشا له أن يأخذ حكماً من أحكام الإسلام عن طريق الرؤيا. فالرؤيا لا يمكن أن يُبنى عليها حكم شرعي أبداً، فما أكثر ما يرى الإنسان في حياته من رؤى ومن أحلام!

وعلى أية حال فعبد الله هذا هو السبب في نزول هذه الآية الكريمة، ذلك أنه جاء مع جماعة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إذا متّ ومتنا كنت في عليين لأنراك ولا نجتمع بك. وذكر حزنه على ذلك، وقال الجماعة الذين جاؤوا معه: يا رسول الله، كيف يكون الحال في الجنة، وأنت في الدرجات العلى، ونحن أسفل منك؟ وكيف نراك؟ فنزلت هذه الآية الكريمة^(١).

استنتاجات على ضوء سبب النزول

وبمعارضة هذه الآية الكريمة على أية المقام فإننا يمكن أن نستنتج عدّة أشياء من سبب النزول هذا، هي:

النتيجة الأولى: أن الإنسان لا يستغني عن الرفيق

وهذا الأمر لا يقتصر على الدنيا فقط، بل إنه يمتدّ ليشمل حتى الحياة

(١) تفسير السمعاني ١: ٤٤٦، تفسير الثعالبي ٢: ٢٥٩ - ٢٦٠.

الآخرة. والقرآن الكريم حينما يحدّثنا عن أجواء الجنة في كلِّ مقاماته فإنه يحدّثنا عن أجواء تقوم على نمط من أنماط الاجتماع، وليس على نمط فردي، ففي الآيات التي تتناول حال الناس يوم القيامة أو حال المؤمنين الذين أنعم الله عليهم بالجنة تصف هذه الآيات الكريمة سكّان الجنة على أنهم في اجتماع دائم، وعلى اتصال مستمرّ يلتقي بعضهم بعضاً. وبناءً على هذا التقرير فما الذي نفهمه منه؟ إننا نفهم من هذا أن الإنسان يأنس بغيره ويؤنس به، وهذا يعني بطبيعة الحال أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، بل لابدّ أن يعيش ضمن منظومة اجتماعية يتكامل معها وتتكامل معه.

ثم إن الإنسان مدني بطبعه وتركيبته، ومعنى هذا أنه يحتاج إلى أن يتألف مع غيره ويندمج وينسجم معه^(١)، وكما قلنا: سواء كان هذا في الدنيا أو في الآخرة. ففي الجنة لابدّ للإنسان من إخوان يحلّ معهم فيؤنسهم ويؤنسونه^(٢). والجنة إذا خلت من الإخوان أو الرفقاء الذين ينسجم معهم الإنسان لم تكن جنة أبداً بل إنها تتحول إلى نوع من أنواع السجون الانفرادية^(٣)، غاية ما في الأمر أن هذا السجن واسع كبير فيه كل ما يشتهي الإنسان لتلبية حاجاته الجسدية. وهذا يعني أن النعمة هي أن يجلس الإنسان إلى أخ يتناغم معه روحياً، وينسجم معه؛ كي يردّ

(١) قال الشاعر:

وما سمّي الإنسان إلا لأنسه ولا القلب إلا أنه يتقلّب

الجامع لأحكام القرآن ١: ١٩٣.

(٢) قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ الحجر: ٤٧.

(٣) قال الشاعر:

إن قبر الحبيب دارٌ وداراً ليس فيها الحبيب قبرٌ كئيبٌ

أحدهما عن الآخر الوحشة.

وهذا هو النعيم الذي تتناوله آية المقام؛ سواء كان في الدنيا، أو في الآخرة والرفاق المؤمنون هم رفاق في الدنيا ورفاق في الآخرة؛ لأنهم كما هم متحابون هنا ومتألفون ويؤثر بعضهم بعضاً على نفسه فكذلك هم في الآخرة إخوة متحابون متقاربون. وقد قرّر الشاعر هذه الحقيقة حيث يقول:

ورفاق هذي الدار فيما أسلفوا للكاتبين رفاق تلك الدار

وبهذا فإننا نعرف أن هناك سنخية في الأمر؛ فالإنسان المؤمن يبحث عن إنسان مؤمن مثله ليلجأ إليه ويأنس به، وكذلك الإنسان الفاسق فإنه يبحث عن إنسان على شاكلة ليأنس به ويتناغم معه؛ لأنه كما قلنا هناك سنخية وتجانس في الباب^(١). ولذا فإن هناك وصايا كثيرة حثت فيها الشريعة المقدسة على اختيار الرفيق أو الصديق المناسب للإنسان؛ لأن هذا الرفيق هو أشبه شيء بـ برقع الثوب، فهذه الرقعة ما لم تكن من جنس الثوب ومن لونه فإنها سوف تُصبح أمراً ناشزاً ومعيباً على الثوب، بخلاف ما لو كانت من عين جنسه أو لونه أو مادة صنعه؛ لأنها حينئذٍ سوف تُصبح أمراً غير مرغوب فيه على ذلك الثوب.

وهذا هو شأن الرفيق والصديق الذي يجب على الإنسان أن يحرص على أن يختاره بدقة؛ لأن الصديق هو مرآة أخيه التي تعكس له جملة أخلاقياته^(٢). وبناءً على هذا فإنه يجب على الإنسان ألا يختار الصديق

(١) أن الطيور على أشكالها تقع

(٢) يقال في المثل: صديقك من صدقك لا من صدقك. الغارات: ٧١٢.

الفاسق، أو الذي اعتاد على أن يلفظ الكلمات النابية، أو الذي اعتاد على أن يتصرف تصرفات بعيدة عن روح الإسلام.

ثم إنه وكما يُقال: «الطبع سراق»^(١)، وهذا يعني أن الإنسان سوف يتعلم من رفيقه كثيراً من أخلاقياته وعاداته وتقافته، وهذه الأخلاقيات أو الثقافة التي يتخلق بها الرفيق، أو كان قد تتقّف بها سوف تسرق شيئاً من طبع الرفيق وعاداته، وتحل محلّها، وبالتالي فإنه سوف يتأثر تأثراً كبيراً بصديقه.

إذن فالصديق إذا كان من أصدقاء السوء فإنه حتماً سوف يطبع بصماته على صديقه بشكل سلبي، ويغيّر أخلاقياته وعاداته والتزامه إلى خلاف ما تريد السماء. ولذا فإننا نجد أن الوباء الذي يعيث فساداً الآن في مجتمعنا هو وباء ناشئ عن رفاق السوء الذين يدفعون برفاقهم إلى المعصية والوقوع في الجريمة دفعاً. ومن هذا ما يعانیه بعض الآباء الذين لا يتمكّنون من السيطرة على أبنائهم؛ ذلك أن هذا الولد بمجرد أن يُصبح صبيّاً يظنّ أنه يملك أمره، فيخرج إلى الشارع الذي سوف يسرقه من أبيه، وكذلك تفعل المدرسة.

ولابدّ من أن ننوّه إلى أن الشارع والمدرسة يعدّان أنموذجين مصغّرين من المجتمع؛ لأنهما يضمّان الإنسان المؤمن والإنسان الفاسق، والإنسان الخلق والإنسان غير الخلق، وما إلى ذلك، كما أن فيهما ابن رجل الدين وابن العامل وابن التاجر وابن المهندس وأبناء آخرين غيرهم. وهؤلاء كلهم يكونون عادة ذوي أخلاق متباينة وطباع مختلفة.

(١) منية المرید: ٢٢٩.

والشاب حينما يخرج إلى الشارع أو المدرسة فإن ما ستؤول إليه حاله يختلف باختلاف وضعه النفسي وتربيته الأساس التي تلقاها في البيت؛ فهو تارة يكون نابهاً متيقظاً، فيختار رفاقه اختياراً دقيقاً؛ لأنه يعرف أن هذا الرفيق سوف يتأثر به ويؤثر فيه؛ ولذا فإنه يعمد إلى أن يختار من يتجانس معه ولا يختار رفاقه عشوائياً؛ كي يتعد بذلك عن رفاق السوء. وهذا بخلاف الإنسان أو الشاب غير اليقظ وغير الحذر، فإنه يعمد إلى عدم الانتقاء في مرافقة ومصادقة الآخرين، فيرافق الخير والشرير، وهذا قد يوقعه في مشكلة هي أن الصديق الشرير سوف يؤثر سلباً على أخلاقه وعلى طباعه، ويدفع به دفعاً حثيثاً إلى اقتراف الخطيئة وارتكاب المعصية.

ومثل هذا فإن الشارع أو المدرسة سوف يسرقانه من أبيه الذي حينئذٍ سوف لن يتمكن من السيطرة عليه، بل ربما يفقدها تماماً؛ لأن هذا الولد يرى من نفسه أنه قد ملك زمام أمره، وأن له الحق في أن يصادق من يريد وألا يصادق من يريد. وهنا نجد حرص الإسلام والشارع المقدس واضحاً في الحث على تجنب الآباء أبناءهم عن أن يتصلوا برفقاء السوء، ذلك أن المرض الاجتماعي لا يختلف في خصائصه عن المرض البدني أبداً، فهو يسري في المجتمع ويدمره تدميراً كاملاً كما يسري السرطان في الجسم من مكان إلى مكان حتى يأتي عليه، ويؤدّي به أخيراً إلى الموت.

النتيجة الثانية: زهاب الرفيق يؤدي إلى الاغتراب

فالإنسان إذا ما ذهب عنه رفاقه أصبح يعيش في غربة واغتراب، وفي

عزلة عن المحيط الذي يعيش فيه؛ لأنه حينئذٍ سوف لن يجد من يتجانس معه أو يتناغم مع روحه. وهذا غالباً يقع مع الإنسان الذي يحدو به ركب الأيام، ويتقدم به مشوار السنّ؛ فبعد أن يمتدّ به العمر، ويكون رفاقه الذين عاصروه وأترابه الذين عاشوا معه طفولته وصباه وشبابه، ولعبوا معه ولعب معهم قد فارقوه إلى الحياة الأخرى، فإنه حينئذٍ سوف يحسّ بنفسه بأنه في وحشة حقيقية، وفي عزلة ما بعدها عزلة.

فهؤلاء هم الذين كان يأنس بهم ويأنسون به، وينجذب إليهم وينجذبون إليه، وبذهابهم فإنه يكون قد فقد عنصراً روحياً هاماً يجد من خلاله نفسه وأجواءه التي عاشها، أو التي كان فيها.

وقد مرّت هذه الحالة بإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان كثيراً ما يناجي أصحابه ورفاق دربه المعنوي، فيقول: «أين إخواني الذي ركبوا الطريق ومضوا على الحقّ؟ أين عمّار؟ وأين ابن التيهان؟ وأين ذو الشهادتين؟ وأين نظرائهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة؟». ثمّ ضرب عليه السلام بيده الكريمة إلى لحيته الشريفة، وأطال البكاء، ثمّ قال (صلوات الله وسلامه عليه): «أوه على إخواني الذين تلوا القرآن فأحكموه»^(١).

وهكذا كان عليه السلام، وقد كان كثيراً ما يخرج إلى الجبّانة ويجلس ينكت التراب بإصبعه ويقول:

وفي الصّدر لُباناتُ إذا ضاق بها صدري
نكت الأرض بالكفِّ وأبديت لها سرّي

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٢.

فَمَهْمَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ فَذَاكَ النَّبْتُ مِنْ بَذْرِي^(١)

فالواقع أن الإنسان إذا مرَّ بهذه المرحلة فإنه سوف يعيش حالة من النزاع مع الحياة والنفس لا حدود لها؛ لأنه بطبيعة الحال لا يمكن له أن ينفك عن رفاقه الذين عاش معهم العمر كلّه، وانسجم معهم انسجاماً كاملاً، فإذا ما افترق عنهم حينئذٍ فإنه سوف يحسّ بأنه يعيش في دائرة من الفراغ اللامتناهية، وأن الدنى كلّها قد أصبحت سوداء في عينيه. ذلك أنه أصبح على هذه الدنيا في يوم جديد وهو يفتقد تلك الأجواء التي يأنس بها، والتي تتناغم مع روحه، وكذلك دون أن يرى صحبه وأحبّته. وهذا الأمر هو الذي يحدو به إلى أن يحنّ إلى اللحاق بهم.. برفاقه الذين عاش معهم، وأترابه الذين قضى عمره معهم.

لكنه ﷺ كان يستعويض عن ذلك باللجوء إلى الله تبارك وتعالى، والانتقطاع إليه، فمن الممكن للإنسان أن ينشغل عن هذه الأجواء فيما لو اتخذ رفيقاً آخر لا يفارقه، وهو الله جل وعلا. سئل أحد العباد الملازمين لبيوتهم: ألا تستوحش من ملازمتك بيتك؟ فإننا نرى الناس تمرّ بأدوار من الوحشة والغربة، وأنت نراك لست كذلك، أفلا تستوحش من هذه الحال؟ فقال: لا. فقيل له: لماذا؟ فأجاب: إذا أحببت أن أكلم الله صلّيت، وإذا أحببت أن يكلمني الله قرأت القرآن؛ لأنه كلامه تعالى. فهذا يقول: أن كلاً من الصلاة وقراءة القرآن يجعلاني أعيش أجواء روحية لا حدود لها؛ ولذا فإنني لا أفارقهما أبداً.

(١) فضل الكوفة ومساجدها (المشهدى): ٦٥، بحار الأنوار ٤: ٢٠٠، ٩٧، ٩: ٤٥٢.

حقيقة التصوّف وأنواعه

وهذا لون من ألوان التصوّف ؛ ذلك أن للتصوّف أنماطاً عدّة، نذكر منها:

الأول: التصوّف المعتدل

وهو مذهب يعتقد أصحابه بأن كلاً من الصلاة وقراءة القرآن أمور تجعلهم يعيشون أجواء مليئة بالروحية ؛ ولذا فإنهم لا يستوحشون معها أبداً. وللحقيقة نذكر أنّ هناك نوعاً من التصوّف يقف عند هذا الحدّ، وهو تصوّف سليم لا غبار عليه ؛ لأنه وسيلة تعمل على انقطاع صاحبها إلى الله تبارك وتعالى ، وتحقيق صلته به بشكل سليم ومعقول دون أن ينقطع عن المجتمع أو عن علاقاته الأخرى داخله ؛ سواء كانت علاقات اجتماعية أو اقتصادية أو غيرها.

الثاني: التصوّف المتطرّف

وهو التصوّف الذي تشوبه بعض التوابع التي راحت تشوّه أصلته وحقيقته بعد أن كان يمثل فكراً سليماً. وهو التصوّف الذي ينقطع فيه الإنسان عن المجتمع انقطاعاً كاملاً دون أن يكون له أثر أو تأثير فيه^(١). إذن ما أريد أن أقوله هو أن التصوّف المعتدل هو في حقيقته منازل العارفين بالله تبارك وتعالى . العارفين الذين لا يستوحشون في هذه الحياة أبداً ؛ لشعورهم بأن الله تبارك وتعالى معهم في كلّ لحظة من لحظات حياتهم ، وفي كلّ حركاتهم وسكناتهم ، فيجعلون الله تبارك وتعالى رفيقاً

(١) والحقيقة أن هذا الإنسان يعيش عائلاً على المجتمع ؛ لأنه يأكل ويلبس مما يعمل المجتمع ، في حين أنه لا يقدّم للمجتمع هذا شيئاً يُذكر .

لهم في كلّ جزئية من جزئيات حياتهم، مهما استقلت أو صغرت .
وهذه الحالة التي أشرنا إليها هي أظهر وأشدّ وأشرف مراحل
التصوّف الصحيح؛ لأن الإنسان إذ ينقطع إلى الله تبارك وتعالى فإن عليه ألاّ
يبتعد عن أداء الواجبات أو المستحبات الشرعية أو الاجتماعية، ولا
ينقطع عن أداء حقوق المجتمع الذي يعيش فيه، بل عليه أن يظلّ يعيش
القرب الإلهي ولا يرى إلاّ الله تبارك وتعالى عوناً وردناً وحافظاً ورازقاً
ومعيناً. وهؤلاء هم الذين نسمع شاعرهم وهو يقول:

توهّمت قدماً أن ليلى تبرّقت وأن حجاباً دونها يمنع اللثما
فلاحت فلا والله ما ثم حاجب سوى أن طرفي كان عن حسنها أعمى^(١)

وهذا لون من الجذبات الصوفيّة الرائعة التي تحمل روحية عالية
تجعل صاحبها لا يشعر بشيء من حوله إلاّ بوجود الله تبارك وتعالى،
ولسان حاله أنه حاول أن يضع حاجباً أو حاجزاً بينه وبين الله عزّ وجلّ،
لكنه لم يستطع؛ ذلك أنه جل وعلا كان معه أينما يذهب^(٢).
وهذا الأمر هو الذي يجعل من الإنسان بعيداً عن الإحساس بالغربة
الحقيقيّة وقريباً من الاستئناس؛ لأنه تبارك وتعالى هو أنسه، فهو
الموجود الوحيد الذي يأنس به؛ ولذا فإننا نقول في الدعاء الشريف: «يا
نور المستوحشين في الظلم»^(٣).

(١) تفسير الألوسي ١: ٥٨، ٢٩: ١٤٦.

(٢) قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الحديد: ٤.

(٣) مصباح المتهدّد: ٣٦١ / ٤٨٥، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٣٧.

النتيجة الثالثة: أن الإخوة لا تحول بينهم الرتب

إن هؤلاء الصحابة الخُلص إذ يقولون للنبي ﷺ: يا رسول الله، كيف يكون الحال في الجنة، وأنت في الدرجات العُلى، ونحن أسفل منك؟ وكيف نراك؟ ثم نزول الآية الكريمة مجيبة على تساؤلهم، فإننا نفهم من هذا أن الإخوة كما ذكرنا قبل قليل لا يمكن أن تحول بينهم المراتب أو المنازل التي أنزلهم الله فيها.

وما هو متعارف من أن هناك حواجز رسمية بين الناس وذلك حينما يكون لأحدهم رتبة أو مركز اجتماعي أو إداري أو سياسي مرموق؛ وهو بهذا يظن أن عليه أن يتميَّز عن الآخرين وأن يترفَّع عنهم، وألا يكلمهم إلا بواسطة رسل أو حجَّاب دونه ودونهم، ولا يخاطب إلا طبقة مختصة به فهذا ما لا وجود له في الإسلام أبداً، بل إن الإسلام يعدّه لوناً من العصبية الجاهليَّة أو التصرُّفات البعيدة عن روجه وعن تشريعاته.

فالرتبة بأية حال من الأحوال لا يمكن أن تحول بين إنسان وإنسان وإن كبرت، أو عظم ذلك التفاوت فيها؛ لأن هذه الرتب التي ينعم بها الإنسان غير منتزعة من ذاته، وإنما هي رتب قد حُلعت عليه من الخارج. فالإنسان عندما يكتسب مقداراً من المال يؤهِّله للعيش بمستوى خاص، فإنه إذا ما فقد ذلك المال فسوف يرجع إلى وضعه السابق قبل أن يحصل عليه.

وهذا الأمر يدفعنا إلى القول بأن هذه المرتبة الخاصَّة التي حصل عليها بواسطة الأموال هي مرتبة خارجية عن ذاته، وأجنبية عنها، والشيء الأجنبي لا يمكن أن يكون سبباً للتفاضل والتمايز عن الآخرين، بل إن الشيء الذي يجب أن يكون كذلك هو ما كان من داخل الذات، كأن يتم التمايز بين الناس على ضوء العلم، فيقال: هذا عالم وهذا جاهل، أو

على ضوء التقوى فيقال: هذا تقي وهذا شقي عاصٍ .
 إذن فالرتب الخارجية عن الذات والأجنبية عنها لا يمكن أن تكون
 مورد تفضيل بين الناس أبداً، ولا يحق لأحدهم أن يتعالى على الآخرين
 ممن خلق الله تبارك وتعالى، بل إن الواجب يقضي بأن يكون العكس هو
 الواقع؛ لأن هذه الرتب الخارجية عن الذات التي جاءت للإنسان من غير
 أن يكون له يد فيها ينبغي أن تلزمه بأن يكون أكثر تواضعاً ودون أن يكون
 مترفعاً ومتكبراً عليهم. يصف أحد الشعراء وادياً مرّ به فيقول:

مررتُ على الوادي فسفّت عَجاظُهُ	وكم من بلادٍ بالعجاج ومن نادٍ
فكم كومةٍ للتُّربِ من بعدِ كُومةٍ	مُعلّمةٌ هذا الزعيمُ وذا الهادي
ثلاثون جيلاً قد ثوثُ في قراره	تَزاحمُ في عُربٍ وفُرسٍ وأكرادٍ
ففي الخمسةِ الأشبارِ نُكَّتْ مدائنُ	وقد طُويت في حفرةٍ ألفُ بغدادٍ
طلبتُ ابنَ عبّادٍ فألفيتُ صخرةً	وقد رُقشت: هذا ضريحُ ابنِ عبّادٍ
وأبقيتُ لم أنفضُ عن الرأسِ تُربها	لأرفعَ تكريماً على الرأسِ أجدادي
فدو الزهُوِ خلّى الزهُوَ عنه وقد مضى	وظلت على الغبرا سيادةُ أسيادٍ
أُعقبك يا دُنيا قميصُ وطِمرَةٌ	بحفرةٍ أرضٍ من خرابات زُهّادٍ ^(١)

إذن ففي الواقع أن رفاق الحق الذين تحابوا في الله تبارك وتعالى،
 والذين اجتمعوا على طاعته وحبّه والإيمان به لا يمكن أن تفصل بينهم
 الرتب، ولهذا فإننا نجد أن أولئك التلاميذ الذين أنجبتهم مدرسة الرسول
 الأكرم ﷺ لم تكن تشكّل عندهم هذه الآثار الخارجية نوعاً من العصبية
 الجاهلية أو التعالي والترفع على الآخرين، ولم تكن بالتالي تدفعهم إلى

(١) الأبيات للشيخ علي الشرقي. انظر مدينة النجف: ٧٦.

الانعزال عن الناس والانقطاع عنهم بحجة أنهم ذوو مراتب اجتماعية أو سياسية أو إدارية تلزمهم أن يكونوا بهذا الوضع الجديد، وان يترفعوا عن مخاطبة الناس أو تكليمهم إلا بواسطة حجاب.

أ نموذج من مدرسة رسولنا الأعظم ﷺ

إننا حينما نرجع إلى أولئك التلاميذ النجباء لمدرسة الرسول الأكرم ﷺ، فإننا نجد أنهم كانوا كسائر الناس لا يختلفون عنهم أبداً، فهم كغيرهم في ملبسهم ومطعمهم، وفي حيثيات حياتهم العامة.

سلمان المحمدي ﷺ

وكمثال على هذا فإننا نجد أن سلمان المحمدي ﷺ كان من أولاد الملوك كما ينقل بعض المؤرخين ذلك؛ حيث إنه كان في قرية من قرى أصفهان تُسمى جي^(١). وكان ﷺ من المعمرين، وكان كتلة من المعارف والعلوم، وغاية في التكامل الجسدي والروحي. ويكفيه أنه من عبّر عنه الرسول الأكرم ﷺ بقوله: «سلمان منا أهل البيت»^(٢).

وهو ﷺ قد أعطاه بهذا مركزاً ومكانةً عاليين لا يمكن لأي من الناس أن يصل إليهما. يروي ابن أبي الحديد عن السيدة عائشة قولها: كان لسلمان ﷺ مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به بالليل، حتى كاد يغلبنا على رسول الله ﷺ^(٣). وهذا يعني أن له وقتاً يخصّصه له الرسول ﷺ؛

(١) الدرجات الرفيعة في طبقات الشيعة: ١٩٨، بحار الأنوار ٢٢: ٣٦٢، مسند أحمد ٥: ٤٤١؛ دلائل النبوة ١: ٣٥٢، تعليق التعليق ٣: ٢٦٥، الإكمال في أسماء الرجال: ٩٦، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٤.

(٢) عيون أخبار الرضا ١: ٧٠ / ٢٨٢، المعجم الكبير ٦: ٢١٣.

(٣) شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٦.

ليجلس معه ويقربّه، ويحدّثه ويعلمه. وبهذا فإنه ﷺ كانت له مزايا كثيرة قد اختصّ بها دون غيره من الصحابة والمسلمين.

وكذلك يروي ابن أبي الحديد عن النبي ﷺ بطريق عبد الله بن عمر بن الخطاب قوله: «أمرني ربي بحبّ أربعة، وأخبرني أنه يحبهم: علي، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان»^(١).

وعلى أية حال فإن سلمان ﷺ هذا كانت له مزايا كثيرة تجعله أهلاً لتلك المنزلة التي أولاه إياها الرسول الأكرم ﷺ، كما أن هناك روايات كثيرة تُشير إلى فضله وفضائله^(٢)، وكان كثير الزهد شديد الانقطاع عن الدنيا دون أن يمنعه ذلك من الاجتماع بالناس ومشاركتهم في حياتهم الاجتماعيّة.

أُنموذج من زهد سلمان ﷺ

ويروى في هذا المجال أن سلمان المحمدي ﷺ كان له عبادة ليس له غيرها، فكان إذا أراد أن يجلس أو أن ينام افترشها، وإذا أراد أن يمشي رفعها ووضعها على منكبيه، مع أنه يمتلك القابلية على أن يشتري غيرها^(٣)، ولم يكن ليفعل؛ فقد كان راتبه من بيت المال خمسة آلاف درهم، لكنه ﷺ كان ينفقه جميعه على الفقراء دون أن يأكل منه شيئاً، ثم يأتي إلى بساتين النخيل ويأخذ بضعة سعفات ليصنع منها زناويل ويبيعها ويأكل من ثمنها^(٤). أي أنه ﷺ كان يأكل من كدّ يده ومن عرقه، وبهذا فإنه

(١) المصدر نفسه، وانظر: شرح الأخبار ٣: ٤٨٧ / ١٤١٢، الاستيعاب ٢: ٦٣٦.

(٢) انظر: شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٤ - ٤١.

(٣) الاستيعاب ٢: ٦٣٥، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٥.

(٤) المصدر نفسه.

كان غاية بالزهد.

أُنموذج من تواضعه عليه السلام

يروى المؤرخون أنه عليه السلام بعد أن ولّاه عمر بن الخطاب على المدائن جاء راكباً على حمار، وكان عنده مطهرة وشيء يسير من الأثاث الذي يحتاجه في طعامه ووضوئه، فلما وصل المدائن راح الناس يسألونه: هل مريك موكب الأمير؟ لأنهم قد وصل إليهم الخبر بأن الأمير سوف يصلهم. وكان عليه السلام يسكت عنهم حتى جاء ودخل الدار المعدة للولاية، وحينها عرف الناس أنه هو الوالي أو الأمير المرسل إليهم. فكان بهذه الدرجة من البساطة والترسل، وفي قبوله منصب الولاية دليل على أنه لم يكن يريد أن ينقطع عن الناس ويشتغل بالعبادة فقط، بل إنه مع ما كان عليه من الانقطاع إلى الله جل وعلا لم يترك أمور الناس ومساعدتهم وسدّ احتياجاتهم.

أُنموذج ثانٍ من تواضعه عليه السلام

يروى المؤرخون أن رجلاً اشترى بالمدائن بضاعة ثقيلة، فمرّ سلمان وهو أمير بها كما ذكرنا، فلم يعرفه الرجل، فقال له: احمل هذا معي يا عالج. فحمله سلمان وسار معه إلى الدار، فكان كل من يتلقاه يقول: ادفعه إلي أيها الأمير. فعرف الرجل أنه هذا الذي نعتة بالعالج هو الأمير، فأخذ يعتذر منه، ويطلب منه أن يعطيه الحمل، وسلمان يأبى ويقول: لا والله، ما يحمله إلا العالج. حتى بلغ منزل الرجل ^(١).

فتأمل هذا اللون من الخلق الرفيع والتواضع العالي، وهل هذه إلا

(١) نثر الدرر ١: ١٢٢، التذكرة الحمدونية ١: ٢٢، الطبقات الكبرى ٤: ٨٨.

المدرسة التي أنشأها وأشادها رسول الله ﷺ وغذاها بروح الإسلام وأعطها ذلك النفس الخالي من الجبروت والتعالي عن الناس والتكبر عليهم.. النفس المرن اللين الذي لا يفكر في أن تكون هناك حواجز بينه وبين الآخرين؛ لأنه يرى أن الجميع إخوان في الدين، وبالتالي فهم إخوان على سرر متقابلين في هذه الحياة الدنيا وبعد الموت في الحياة الآخرة؟ وبهذا فإنهم مثال الوفاء، ومثال حفظ العهود والاتصال ببعضهم البعض دون أن تُقطع تلك العلة التي تربط بينهم.

سارتر والوجودية

فالإنسان لا يمكن أن يعيش لنفسه، بل إنه يعيش لمجمعه وللناس كافة. أم أن يعيش الإنسان لنفسه، ويرى منها أنها أكبر من غيرها، فهذا ليس إنساناً في حقيقة الأمر، بل إنه إغراق في الأنانية التي تبعث على الكره، والتي تجعل من صاحبها يرى الناس كلهم دونه.

وفي هذا المجال نذكر أن سارتر إمام الوجوديين كان في أول أمره قد طرح نظرية أن الإنسان قد خلق لنفسه، وبتعبير آخر أنه لا وجود متحقق إلا وجود الإنسان الفردي، فهو فرد بوجوده، ولا علاقة له بالآخرين. وكأنما الإنسان بهذا قد جاء من عالم مجهول، ثم بعد ذلك يذهب إلى عالم مجهول، ولذا فإنه لا يستطيع أن يحقق وجوده إلا بإشباع رغباته الوجودية.

فهو إذن ينطلق مع رغباته دون أن تكون له هنالك أية علاقة مع الآخرين، ودون أن يكون لجميع المعايير والقيم التي تخلق الإنسان الصالح أي اعتبار عنده، بل إن هذه المعايير والقيم من وجهة نظره تشل

الإنسان وتقيّد حياته وحركته. وبهذا فإن عليه أن ينبذها لأنها تقيده بقيود لا حدود لها، فتقضي على الشعور بوجوديته وفردانيته، مع أنه فرد يجب أن يعيش مع نفسه ولنفسه دون أن يهتمّ بكلّ تلك المعايير والقيم والأخلاقيات.

وهكذا نجد أن سارتر بهذه النظرية يذهب إلى أن نبذ تلك القيم والأخلاقيات، ويرى أن التخلّي عنها يؤدّي إلى تحرّر الإنسان من القيود كافة، وإلى تمكّنه من أن يشبع رغباته، فيحقّق وجوده لنفسه.

هذا ملخّص نظريته، لكنه عاد بعد ذلك وأجرى عليها بعض التغيير والتعديل فقال: إذا أراد الإنسان أن يبحث عن ذاته فليبحث عنها في خدمة غيره. وهو بهذا يكون قد انتقل في فكره هذانقلة كبيرة.. انتقل من الخطأ إلى الصواب. وهذا هو الذي ينبغي أن يكون؛ فالإنسان لا ينبغي عليه أن يفكر مجرد تفكير أنه لا يمكنه أن يجد ذاته مع الآخرين، بل إن عليه أن يعي أن وجوده متحقّق بوجودهم، وهذا ما أشار إليه الحديث النبوي الكريم الذي يقول: «المرء كثير بأخيه»^(١)، أي أن الإنسان من غير أخيه الإنسان لا يمكن له أن يعيش أبداً.

رجع

وعلى أية حال فهؤلاء الصحابة كانوا يقولون للنبي ﷺ: يا رسول الله، كيف يكون الحال في الجنّة، وأنت في الدرجات العلى، ونحن أسفل منك؟ وكيف نراك؟ مع أن أخلاق الإسلام ليست كذلك؛ فكما أنّ مقام النبي ﷺ السامي لم يكن ليمنعه من الاتّصال حتى بأدنى الناس في الدنيا

(١) تحف العقول: ٣٦٨، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٨٠، ٧١: ١٣.

فكذلك هو الشأن في الآخرة، حيث إنه ﷺ مهما بلغ من مراتب العلوّ في الجنة فإن ذلك سوف لن يمنعه من الاتّصال بالصحابة والصالحين من أمّته، بل إن العكس هو الكائن؛ لأنه ﷺ أرأف الناس بأُمَّته، وأرفقهم بها، وأشفقهم عليها؛ ولذا فإننا نجد أن الرواية تقول: «ما خلق الله عبداً من عباده؛ ملكاً ولا نبياً إلاّ وينادي: يا ربّ نفسي نفسي، وأنت تقول: يا ربّ، أمّتي أمّتي» (١).

وفي هذا دليل على أن الإنسان لا يفكر في أن يفارق إخوته؛ لأن هذه العلاقة التي تربطهم لا يمكن لها أن تنفك أو تنكسر، ولو أنها انكسرت بالموت، فإن الذي يبقى على قيد الحياة سوف يعاني ويقاسي من ألم الوحدة والفراق والاعتراب والتوحّش، ما لم يكن قد استبدل ذلك بالتقرّب إلى الله تبارك وتعالى. لكن هذا الأمر لا يعني أنه سوف ينسى إخوانه، أو أنه سوف لن يفكر بهم، أو أنه سوف ينقطع عنهم وينساهم. ولذا فإننا نجد أن هذا الإنسان سوف يعزف عن المكان الذي كان فيه أحبّاءه ورفاقه؛ لأنه حينما يأتي إلى ذلك المكان يجد خياله وذهنه يصوّران له وكأن ذلك المكان يعجّ بطيوف أحبّائه وصحبه، وهذا ما يبعث عنده الذكريات الأليمة، ويشحن صدره بالشجن والذكرى والألم.

فالأحبة ينشرون الذكرى بديار الأحبة، وهذا ما أشار إليه دعبل بن علي الخزاعي رضي الله عنه عندما يمرّ بذكر بيوت آل محمد رضي الله عنهم.. البيوت التي بقيت خالية محاربيها، ولا مكان للذكر فيها بعد أن انصرف أهلها عنها وبقيت تنطق بالأسى واللوعة والألم. وهنا أقول: ينبغي علينا أن نشاركه

(١) الكافي ٨: ٣١٢ / ٤٨٦، الدر المنثور ٢: ٣٨٥، ٥: ٦٤.

في هذه العواطف والمشاعر النبيلة تجاه أهل هذا البيت النبوي الكريم:

قفنا نسأل الدارَ التي بادَ أهلُها متى عهدُها بالصَّومِ والصَّلواتِ
وأينَ الألى شَطَّتْ بهم غُرْبَةُ النَّوى أفنانينَ بالآفاقِ مُفْتَرَقَاتِ
ديارُ عليٍّ والحسينِ وجعفرِ وحمزةَ والسجادِ ذي الثَّقَنَاتِ (١)

وهذا المعنى الذي ذكرته آنفاً قد مرّت به الحوراء زينب عليها السلام حينما رجعت إلى المدينة من كربلاء، وتراءت لها دور إخوتها، فوجدتها خالية ليس فيها أنيس منهم إلا الأرامل واليتامى:

يناعي اشبعد تدري شبكالي وشخّفت عندي الليالي
بيتي وبگه من الزلم خالي

* * *

بالأمس كانوا معي واليومَ قد رحلوا وخلّفوا في سويدا القلب نيرانا
نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا لأملأن طريقَ الطفِّ ريحانا (٢)



(١) ديوان دعبل: ٣٨.

(٢) شجرة طوبى ١: ٩١.

الفقه التربوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ
 إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ
 يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ
 غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: سبب النزول

إن السبب في نزول هذه الآية الكريمة هو أن رسول الله ﷺ حينما كان قائماً يخطب على المنبر ليبيّن للناس أحكامهم وتكاليفهم، قام إليه أحد الحضور وقال له: من هو أبي؟ فقال ﷺ: «أبوك حذافة بن قيس». فقام إليه رجل آخر، فقال: يا رسول الله، أين أبي؟ فقال ﷺ: «في النار». ويسأله غيره إذا ضلّت ناقته: أين ناقتي؟ ويسأل آخر عن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. فبان التأثر على وجهه ﷺ، فنزل جبرائيل عليه السلام

(١) المائدة: ١٠١.

يحمل هذه الآية المباركة (١).

وهذه الآية تدخل في باب الفقه التربوي، مع أن القرآن الكريم بصورة عامة كلّه قوانين ونظم للتربية السليمة الصحيحة؛ فأول أهدافه - كونه كتاباً إلهياً - نشر الوعي التربوي الإسلامي بين الناس، وبثّه في أوساطهم لتربية المجتمع وتنظيم شؤونه وتحديد علاقات أهله. ومن هنا فإنه يعدّ كتاب تربية بالمعنى الأشمل الأوسع، لكن بعض آي القرآن الكريم يكون ذا طابع واضح في مجال التربية، وتكون سمته في المجال هذا بينة المعالم أكثر من غيره كما هو حال آية المقام.

المبحث الثاني: الملامح التربوية في القرآن والسنة

وتبرز السمات التربوية واضحة في جواب النبي ﷺ مع أن هذه الأسئلة كانت قد أثارت امتعاضه ﷺ، وفي تذكير القرآن الكريم بعد ذلك المسلمين بالألّا يسألوا عن أمور لا تعنيهم.

لكل قوم نكاح

فالسؤال الذي أثاره قيس مثلاً - وهو قوله: «من أبي؟» - يعدّ محرّجاً، وربما أساء إليه وإلى غيره، وهو ما عبّر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿تَسْؤُكُمْ﴾. وكان سبب السؤال أن أبويه قد تزوّجا في الجاهلية - أي أن نكاحهما كان نكاح جاهلية - فأراد قيس أن يعرف هل إنه نكاح شرعي وبالتالي هو ابن شرعي، أم لا. وهكذا نجد أن امتعاض النبي ﷺ كان منشؤه أن هذا الأمر قد ذهب، فلم يثار في مثل هذا الوقت؟ فمسألة أن

(١) مجمع البيان ٣: ٤٢٨ - ٤٢٩، الجامع لأحكام القرآن ٦: ٣٣٠ - ٣٣١، مسند أحمد ٣:

٢٠٦ - ٢٠٧، صحيح البخاري ٥: ١٩٠ - ١٩١، صحيح مسلم ٧: ٩٢ - ٩٣.

فلاناً ولد من نكاح الجاهلية؛ فهو ربما يكون ابناً غير شرعي مفروغ منها؛ لأن «لكل قوم نكاح»^(١)، وبهذا لا يكون من يولد بعقد غير إسلامي وفق التشريع الإسلامي ابن زنا، بل إنه ابن شرعي لأبيه.

وطء الشبهة

وأودّ أن ألفت النظر إلى أن المشرع الإسلامي يعتني بهذا المجال عناية شديدة؛ محافظة على نسب الإنسان وكرامته، فنراه يلحق حتى ابن وطء الشبهة بأبيه، ويعامله معاملة بقية أبنائه على السواء. فلو أن رجلاً ضاجع امرأة ظاناً أنها زوجته، معتقداً أنه يمارس حقّه الشرعي، وأن نكاحه حلال - كمن دخل في مخدعه فوجد امرأة نائمة فيه، فهو في مثل هذه الحال لا يظن إلا أنها زوجته، فأيقظها وقاربها^(٢) - ففي مثل هذه الحالة يعدّ المتولّد من هذا النكاح ابناً له وإن لم يكن عن عقد شرعي. فالإسلام الحنيف يحرص على ألا يتركه بغير أب؛ لأنه بهذا سيصبح لعنة على المجتمع.

الآثار الوضعية للزنا

وهنا ينبغي التنبيه إلى أن ابن الزنا حينما يعامله المجتمع معاملة ازدراء وانتقاص، ويشير إليه على أنه ابن زنا، فإنه على الأعم الأغلب سيتحوّل إلى قبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في أي لحظة في وجه المجتمع محدثة فيه خراباً ودماراً؛ فإن حاز سلطة وطالت يده المجتمع فإنه سيحرق

(١) تهذيب الأحكام ٧: ٤٧٢ / ١٨٩١.

(٢) فائدة: المدار في وطء الشبهة على الشبهة من جانب الرجل وإن تعمّدت المرأة الحرام، وإن كانت المرأة في شبهة لم يكن وطء شبهة. انظر: منهاج الصالحين (السيد محمد سعيد الحكيم) ج ٢ ق ٢: ٩٤ / المسألة: ٩٢.

الحرث والنسل؛ لأنه يشعر أن المجتمع يحاربه في وجوده وحياته وكرامته، ويعامله بقسوة إذ لم يعترف به. ولذا فإن المشرّع الإسلامي يلحقه بصاحب الماء تلافياً لحدوث مثل هذا الأمر.

وهذا وجه لموضوع يمكن أن يقع وإن كان قليلاً، أما الوجه الآخر - وهو الوجه الأكثر شيوعاً ووقوعاً - وهو الزنا، فهو مما لا يمكن أن يدخل في باب إلحاق النسب؛ لأنه تعدّد صريح على حدود الله وقوانينه وتشريعاته، وإلحاق النسب فيه يلحق هذه الفتنة، ويشجع على ممارستها، ويفتح الباب واسعاً أمام طالبيها، وبالتالي تسهيل الأمر أمام طلاب الجريمة والوقوع فيها.

إذن فمسألة النسب هنا مفروغ منها، وعقود الزواج التي تقع عند جميع الأديان والأقوام صحيحة كحالة عامّة، ومتحقّقة، والإسلام يقرّها؛ حفاظاً على الأنساب، وعلى وحدة المجتمع وإن لم تكن صحيحة في نفسها ووفق ضوابطه، لكنه يتعامل معها بهذا الشكل لما ذكرنا، وإلا فإن هذا العقد ليس عقداً من بنية الإسلام، والشريعة الإلهية. والمسوغ فيه أن تلك الطائفة أو ذلك الدين يقرّه، وهذا كافٍ في تحقّقه ووقوعه؛ فالتقاعدة الشرعيّة تقول: «الزموهم بما ألزموا أنفسهم»^(١). وبهذا يكون الولد ابن صاحب الماء.

فجواب الرسول ﷺ يتمخض عنه أن إثارة مثل هذه المسائل ربما كان فيها إساءة للنفس أو للآخرين، وهو ما قرّرت آية المقام. وعلى الإنسان أن يعلم أن عمره محدود لا يتسع لما لا فائدة فيه ولا جدوى، فالذي ينبغي

(١) تهذيب الأحكام ٩: ٣٢٢ / ١١٥٦.

عليه ألا يحشوه بالأشياء التافهة، بل عليه أن يسارع إلى اغتنام الفرص الطيبة للأعمال الحسنة والطيبة. فمن يرد أن يسأل النبي ﷺ عن شيء فليكن ذلك الشيء ذا فائدة ونفع له.. ليسأله حول أمور تهتم دينه ودنياه، وحياته الاجتماعية والدينية والاقتصادية وغيرها وفي تنظيم شؤونها وشؤونه. وخلاف هذا فإنه يسأل عما لا يعنيه ولا ينفعه، ويذر ما يهمله وينفعه؛ فيظل جاهلاً بكل ما هو ذو أثر مباشر وهام في حياته.

والداهية أن هذا الأمر لا يزال يعيش إلى الآن، فهناك شريحة كبيرة من الناس ممن يطرح الكثير من الأسئلة التي لا تعنيه بشيء، ولا تغنيه معرفته بها شيئاً من قبيل: ما اسم أم نوح؟ وما أسماء أبنائه؟ وهي أسئلة لا طعم لها؛ فهل يعلم هذا السائل أن الله تعالى لن يسأله عن معرفته بها يوم القيامة، ولا عن كونه علم بها أو لم يعلم؟

فالواجب إذن أن يسأل المرء عما يهمله ويعنيه من قبيل حقوق زوجته وعائلته عليه، وحقوقه هو على زوجته، وحقه على أبويه، وحق أبويه عليه، وعن القانون الذي ينظم علاقاته مع جيرانه ومجتمعه بحيث لا يدخل دائرة الخطأ والإثم الشرعيين في إطار تعامله مع كل هؤلاء، فتجعل منه مواطناً مهذباً صالحاً بوسعه أن يطبق أحكام الله تعالى كاملة على الأرض، ويمارس النظرية الإسلامية واقعاً وعملاً؛ ليتمكن بالتالي إظهارها بثوبها الذي وضعه الله لها؛ كي يأخذ بها الآخرون دستور حكم وميثاق حياة.

ومن باب أن (الشيء بالشيء يذكر) يروى أن أحدهم طرق باب المرجع الديني الكبير آنذاك السيد أبي الحسن الأصفهاني عليه السلام وقت الظهيرة وكان عليه السلام نائماً، وبعد إلحاح الطارق بالسؤال والإصرار على مقابلة السيد

أبي الحسن أيقظه أهله وأخبروه أن أحدهم عنده سؤال ملح يريد أن يسأله عنه، ويرفض الانصراف، فاستقبله السيّد وطلب منه أن يلقي مسأله، فقال السائل: قد وقع خلاف بيني وبين جماعة من أصحابي حول لون الفرس التي كان يركبها القاسم بن الحسن عليه السلام؛ فهل كانت حمراء أم بيضاء؟ فأجابه السيّد عليه السلام بقوله: أسأل الله لك تمام العقل، وكمال العافية.

وببالغ الأسف نذكر أن هذا النمط من الناس موجود، وهذا يدل على أن المستوى الديني والتربوي عند الأغلب من المجتمعات الإسلامية وأفرادها متدنٍ، ويكاد يكون معدوماً، وخصوصاً هذا الجيل الناشئ الجديد الذي لا يملك أدنى فكرة عن حضارته ودينه ومجتمعه والرواد الأوائل منه الذين رسموا معالم تاريخه وحضارته، فهو فارغ المحتوى إلا من بضعة قضايا منحلّة، أو كلمات فارغة، وبعض مصطلحات أجنبية يلوك بها دون أن يعي معناها أو ضررها. أما أبناء الأمم الأخرى المتحضرة والمتطورة، فتجدهم ذوي خلفية حضارية وتاريخية، ومزوّدين بسلاح علمي ثقافي وأدبي هو الذي ارتقى بهم، وجعلهم في طليعة الأمم والمجتمعات والشعوب، وفي مصاف العلماء.

ولو سألت أحد أبناء مجتمعاتنا عن مزاج الأمة التي ينتمي إليها، وعن العوامل التي صاغت هذا المزاج، وعن أثر الدين والتاريخ في العادات التي تحكم مسيرتهم وحياتهم، والعادات القبلية والبدوية، وعن الطريقة المثلى التي تمكنا كعرب ومسلمين من التصرف على ضوء عاداتنا ومزاجنا وسلوكياتنا محكومة بقانون السماء وخاضعة لها، وعن الكيفية التي تتم بها هذه التوافقية، وعن طبيعة هذه السلوكيات، فحينها لن تجد عنده أي فكرة أو معرفة بهذه الأمور الحساسة في حياة كل مجتمع وأمة.

ولو سئل عن عظماء تاريخه وأُمَّته وعباقرتهم ومواقفهم الجليلة التي خلقت تاريخ أُمَّته وحضارتها، فلن تجده يعرف عنها شيئاً، وهو بهذا لن يستفيد من عبْرها وعظاتها وإفرازاتها التي تصبّ في خدمة المجتمع وبناء حضارته.

والأمر اللافت للنظر والمستغرب، في أن هذه النماذج الجاهلة حينما تسير على الأرض تجد أن الأرض لا تكاد تطيقه؛ ظاناً أنه ملك الكون وسيد الناس وإمام العباقر.

وهذا الأمر ينبع من اللون التربوي الذي نشأ عليه، وهو لون فارغ تافه. فالقرآن الكريم يريد أن يربينا تربية صحيحة ويأمرنا بالابتعاد عن هذه الأسئلة التافهة غير المثمرة، وأن نسأل عما يعيننا حقاً وعمّا يعود جوابه بالفائدة علينا وعلى مجتمعنا وحياتنا ممّا له الأثر البناء في ذلك. فنحن مواطنون نعيش ضمن إطار عام نخضع لقوانينه ومتطلباته، فيجب إذن أن نعرف ما هو حقّ هذا النظام علينا، وما حقّنا نحن على هذا النظام، وما هي واجباتنا إزاءه وما هي حقوقنا عليه، وأين هو موقعنا من الدنيا، وأين سنكون وإلام سنصير، وما هي حقيقة ديننا، وهل يمكن أن يتفاعل مع الأمم والحضارات الأخرى أم لا، وهل يستطيع أن يتجاوب مع التطوّرات العلمية الهائلة الحاصلة في العالم أم لا، وهل هو دين متحرّك أم جامد، وما هي وجهة نظره في القضايا الإنسانية والسياسية والاقتصادية والمشاكل العالمية العالقة.

كلّ هذا مما يجب علينا أن نسأل عنه ونعرفه، لأنّ نسأل عن أمور لا تُسمن ولا تغني من جوع، بل ربما عادت علينا بالضرر والسوء كما قرّرت آية المقام.

ومعرفة هذه الأمور الهامة والمصيرية هي التي تبني شخصية المسلم بناءً صحيحاً وتربيته تربية سليمة وتنشئه تنشئة عالية تجعل منه شخصاً عارفاً بحضارته وتاريخه، وما يجب له وما يجب عليه، وما الذي يجب أن يكون عليه هو وأُمَّته ومجتمعه.

وبهذا نجد أن القرآن الكريم من خلال هذا المقطع الشريف ينبّهنا إلى أمرين:

الأول: ألا نسأل إلا عما يعيننا، وان نترك ما لا يعيننا.

الثاني: ألا نضيع وقتنا بأموور تافهة لا تعود علينا بفائدة، فالعمر أقصر من أن يفعل فيه مثل هذا^(١)، والواجب الذي ينبغي والذي لا يصحّ غيره هو استغلال كل فرصة من العمر لتطوير النفس والمجتمع والرقىّ بهما؛ فالوقت أثن من أن يضيع، وغداً سيسألنا الله تعالى عنه^(٢).

فالوقت طاقة، والطاقة لا ينبغي هدرها بشكل من الأشكال. أمّا كيف أن الوقت طاقة، فسأبيّنه بالمثال التالي: يقول فقهاء المسلمين: لو أن أحداً استأجر عاملاً على أن يعمل له عملاً ما، فجاء هذا العامل صباحاً ليقوم بما استؤجر له، فلم يجد صاحب العمل؛ لأنه كان قد غادر مثلاً لنسيانه العمل، أو لعذر آخر، ولم يتمكن هو من أداء عمله، فله أن يلزم صاحب العمل بأجرته. والفقهاء الإسلاميّ يعلّل هذا بأن العامل قد هبياً نفسه

(١) اشترى أمير المؤمنين عليه السلام قميصاً، ففضل كتمه عن أصابعه، فقال للغلام: «اقطع هذا الفضل». فقطعه الغلام له، ثم قال: ياسيدي، هلمّ أكفّه لك. فقال له الإمام عليه السلام: «دعه كما هو؛ فإن الأمر أسرع من ذلك». روضة الواعظين: ١٠٧.

(٢) قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم واعظاً أبا ذر رضي الله عنه: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك». الأمالي (الطوسي): ٥٢٦، المستدرک علی الصحیحین ٤: ٣٠٦.

للخروج لهذا العمل وأعد له عدته، وهو إنما لم يعمل بسبب تراجع صاحب العمل لا لتقصير منه هو؛ فالوقت المخصص للعمل قد «صرفه» العامل، وهو أمر له ثمن ينبغي بذله إزاءه. فالوقت جدّ ثمين عند المشرّع الإسلامي. يروى أنه يجاء يوم القيامة بثلاثة صناديق: أحدها فيه صور حسنة، والثاني فيه صور قبيحة، والثالث ليس فيه شيء، ثم يقال لابن آدم: هذا الذي فيه صور حسنة هو وقتك الذي قضيته في الطاعة، والثاني الذي فيه صور قبيحة هو وقتك الذي قضيته في المعصية، والثالث الذي ليس فيه شيء هو وقتك الذي لم تقضه بشيء نافع ولا بمعصية، أي أنه لم يستغل وقته. وهذا لأنه أهدر وقته وتركه يذهب هباء.

إذن فالوقت طاقة ينبغي المحافظة عليه واستثماره لأبعد حدوده وإمكانياته، والسؤال عن الأمور التافهة هدر للوقت؛ ولذا فينبغي ألا يحصل.

المبحث الثالث: تحريم ما لم يحرمه الله تعالى

ومن جملة ما سئل عنه النبي ﷺ وكان السبب في نزول هذه الآية الكريمة هذه الأربعة المارّ ذكرها، وهي البحيرة والوصيلة والسائبة والحامي. ومن أجل بيان هذه الأربعة نقول:

البحيرة

وهي عبارة عن الناقة التي تلد خمسة بطون، فحينها تبحر أذنبا - أي تشقّ - وتترك فلا ينتفع بشيء منها؛ حيث إنهم يحرمون لحومها؛ لأنها بظنهم قد أدّت دورها ورسالتها في الحياة. وهذا الأمر تضييع للطاقة وهدر لها؛ لأن هذه الحيوانات يمكن أن تستعمل في شتى موارد العمل،

وكذلك هو هدر للمال؛ لأنها عبارة عن كمية من اللحم لها عوض مالي.

السائبة

وهي ما يندر للصنم، فتسيب فلا يستطيع أحد ردها عن زرع أو غيره؛ لأنها في عرفهم للكعبة والصنم خاصة؛ فلا يجوز ردها وإيذاؤها، ولا يجوز الانتفاع بها. ولها معاني أخر مذكورة في محالها.

الوصيلة

وهي فيما إذا ولدت الشاة ذكراً فإنهم يجعلونه لآلهم، وإذا ولدت أنثى جعلوها لهم، فإذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا: قد وصلت أخاها، فجرت مجرى السائبة.

الحامي

وهو الجمل الذي يلحق جيلين: أبناءه وأبناء أبنائه، أو الذي يولد من ظهره عشرة بطن، فيقولون: قد حمى ظهره، فيتركونه، فلا يُركب ولا يُمنع عن مرعى ولا عن ماء ولا عن شجر، ولا يستعمل حتى يموت.

الإنسان والتشريع

فالقُرآن الكريم يقول لهؤلاء: من أين جئتم بهذا التخبُّط؟ ثم إن هذا التخبُّط يتضمَّن أمرين في غاية الخطورة:

الأول: إهدار المال والطاقة

فكون هذه الدابة سائبة أو وصيلة أو ما إلى ذلك هو - كما قلنا - هدر للطاقة التي يمكن استثمارها فيها عبر العمل والنقل، وهدر للمال الذي يكون إزاء ما فيها من لحم، وللمال الذي ترتع فيه كالزرع والشجر وغيره

دون أن يردعها أحد عنه .

الثاني: تصدّي من ليس له أهليّة التشريع له

كما أن هذا الأمر ينطوي على خطورة التشريع غير الصحيح، فإن يزجّ الإنسان نفسه فيما لا يخصّه ويدخلها فيما لا يعنيه مما لا يعلم جميع مداركه وحيثياته لهو أمر في غاية الخطورة؛ لأنّ للتشريع أهله، ولا ينبغي لكلّ أحد أن يمارس هذا؛ فهو حقّ من له أهليه التشريع، فقط وهو الله تعالى.

وحينما يقرر الإنسان أن هذا للصنم وهذا له فإنه يفعل ما ليس في صالحه ولا في صالح المجتمع، وإلا فما هي إمكانيات هذا الإنسان حتى يعطي نفسه حقّ التشريع؟ ومكمن الخطر هنا أنه يجعل تشريعاته مقابل تشريع السماء، وهو أمر ليس من مختصات عصر الجاهلة فقط، بل إنه يحدث في جاهلية القرن العشرين أيضاً، فمن السهل جداً أن نسمع من يطلّ علينا ويقول: إن الإنسان والمجتمع من حقّهما أن يشرّعا لهما ما يحفظ وجودهما وينظم حياتهما. فالإنسانية من وجهة نظر هذا البعض مدينة لفقهاء القانون في تنظيم شؤونها، مع أن هذا المشرع الإنسان مهما كان عبقرياً في تصور هؤلاء، فهو لا يعدو أن يكون كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «تؤلّمه البقّة، وتقتله الشرقة، وتُنتِنُهُ العرقة»^(١).

وهو لا يستحقّ أكثر من وصف فرويد له بقوله: أستطيع أن أقلبه إلى حيوان بلحظة. ولما سئل: كيف؟ قال: ألتقي إنساناً في الشارع فأضربه، وحينها سينزع عقله وإنسانيته وسيحوّل إلى حيوان لا يفكر إلا في ردّ

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٤١٩.

الفعل الانتقامي، ولا يدور في خلده أن هذا الذي ضربه ربما كان فاقد العقل أو واهماً.

وكثير من بني البشر من يعيش مع غيره سنوات طويلة ثم في لحظة واحدة ينسى صحبة كل تلك السنوات لأنفه الأسباب، ويتحول إلى عدو كاسر. يقول الشاعر:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان أعرف بالمضرة^(١)

وهو حكيم في هذا؛ إذ أنه يتكلم عن تجربة واعية شاهدها ووعاها. وإن كان الأمر بهذا الشكل فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يشرع لغيره، وهو ما بين لحظة وأخرى ينقلب عدواً لذلك الغير؟ وكيف له أن يضع القوانين ويسنّ الدستور وهو عرضة للخضوع لشهواته وانفعالاته لأدنى الأسباب ولأبعد الحدود؟ ثم إن لنا أن نتساءل عن الإنسانية والمعروف الواجب التعامل بهما بين الناس، وعن الدواعي التي تحيل أخاً في الدين أو الإنسانية عدواً شرساً للاختلاف معه بالفكر والعقيدة. مع أن هذا ما لا نشاهده عند ذوي النفوس الكبيرة التي تصفح عمّن خالفها وأساء إليها، كان الإمام عليّ عليه السلام على منبره فسئل عن بيع أمّهات الأولاد، فقال عليه السلام: «كان رأيي ورأي عمر الأبيّعين، ثم رأيت بيعهن».

وأم الولد هي الجارية المملوكة التي إذا وطئها مالکها بملك اليمين وحملت منه تصبح ملكيتها متزلزلة؛ فلا يجوز بيعها ولا غيره. وبعد أن تلد تسمى «أم ولد» إكراماً لولدها ورعاية له، فإذا مات سيدها اعتقت من

(١) الفتوحات المكية ٢: ٣١٤، ٤: ٥٥٠، شرح نهج البلاغة ١٩: ٣٩.

حصّة ابنها من الميراث وأصبحت حرّة. فقال له عبدة السلماني: رأيك مع الجماعة أحبّ إليّ من رأيك وحدك^(١).

فالإمام عليه السلام أبدى رأيه في هذه المسألة حينما اعترضه عبدة السلماني، لكنه عليه السلام بيّن له أن له رأيه، ولا يضيره هذا، في حين أن الحجّاج هو الذي خطب الناس مرة حتى غابت الشمس، فقام له أحدهم وهو يخطب وقال له: أصلحك الله، الوقت لا ينتظر، والرّب لا يعذر. فقال له الحجّاج: ما تقوله صحيح، لكن مثلك لا يأمر مثلي. ثم أمر به فسجن^(٢).

فهذا هو الفارق بين ذوي النفوس الكبيرة وذوي النفوس المتدنّية، وبين المعادن الثمينة والمعادن الخسيسة، فالإمام عليه السلام يقول له: لك رأيك ولي رأيي، ولا أجبرك على اتّباع رأيي، والحجّاج يقول: خذوه فاحبسوه.

كان أمير المؤمنين عليه السلام جالساً في أصحابه، فمرّت بهم امرأة جميلة،

(١) بدائع الصنائع ٤: ١٣٠، الإحكام في أصول الأحكام ١: ٢٥٤، ٢٥٨، ٤: ٤٣، شرح نهج البلاغة ٧: ٧٢.

قال أبو بكر الكاشاني: على أنه - أمير المؤمنين عليه السلام - كان لا يرى استقرار الإجماع ما لم ينقض العصر. ومنهم من قال: كانت المسألة مختلفة بين الصحابة (رضي الله عنهم) فكان علي وجابر (رضي الله عنهما) يريان بيع أم الولد.

هذه هي الرواية في مصادر أهل السنّة، وهذه هي تعليقة أبي بكر الكاشاني، مع أن رواياتنا وفقهنا صريحان في النصّ على أن أم الولد تعتق من نصيب ابنها. انظر: الفقيه ٤: ١٦٢ / ٥٠٩، وسائل الشيعة ١١: ٥٣، المختصر النافع: ١٦٤، كشف الرموز (الفاضل الآبي) ٢: ٧٥، قواعد الأحكام ٣: ٢٣١، ٢٥٦، إيضاح الفوائد ٣: ٥٦٩، المهذب البارع ٣: ١٠٩، مسالك الأفهام ١٣، ٥٢١.

(٢) البيان والتبيين ١: ٣٦٠، المستطرف من كل فن مستظرف ٢: ١٦، محاضرات الأدباء ١: ٢٣٩.

فرمقوها بأبصارهم ، فقال عليه السلام : « إن أبصار هذه الفحول طوامح ، وإن ذلك سبب هبابها . فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلمس أهله ؛ فإنما هي امرأة كامرأة » . فقال رجل من الخوارج : قاتله الله كافراً ما أفقهه ! فوثب القوم ليقتلوه ، فقال عليه السلام : « رويداً إنما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب » ^(١) .

فكأنه يريد أن يقول لهم بأنه إذا أراد أن يعاقبه فإنه سيسبّه بمثل ما سبّه به ولكنه يترفع عن ذلك ، فهو قد ارتكب خطأ ولا يريد أن يكون مثله وينزل إلى مستواه ويقابل خطأه بمثله ^(٢) .

وهؤلاء هم ذوو النفوس الكبيرة الذين إذا تربعوا على كرسي الحكم يُطمأن إلى أن هناك إنسانية وفكراً وحقاً وعدلاً ستسود الأمة وتعمّ المجتمع ، أما أن يتربّع على كرسي الحكم من هو من نمط عبد الملك وأسلافه وأمثالهم ممن جاء بعدهم ممن يتتابه مركّب النقص ، ويملؤه الحقد ، ويسيطر عليه كره العدل وحبّ الدم فإن الكون سيتحول حينها إلى كارثة ؛ لأن هؤلاء نقمة حقيقية . وبهذا نجد أن تعبير الإمام عليه السلام : « رويداً إنما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب » في غاية العدل والكمال ، بل وبلوغ أعالي درجات الرقيّ في مراتب سلّم الكمال الإنساني .

رجع

ومن هنا نتبيّن الخطأ الفادح والفاحش في مذهب القائلين بأن من حقّ الإنسان أن يضع التشريعات والقوانين للمجتمع والحياة ، وأن هذه

(١) نهج البلاغة / الحكمة : ٤٢٠ .

(٢) ولا ننسّ وصيته عليه السلام ليلة استشهاده بقاتله ابن ملجم حيث قال : « ما فعل ضاربي ؟ أطعموه من طعامي واسقوه من شرابي ، فإن عشت فأنا أولى به » . كشف الغمّة ٢ : ٦٠ ، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (الخوارزمي) : ٣٨٨ / ٤٠٤ .

المنظومة القانونية ستسعد الجنس البشري وتصل به إلى شاطئ الأمان. فأين لهذا المخلوق الضعيف الضيق الأفق، الذي تؤثر فيه وعليه المؤثرات البيئية والانفعالات النفسية، والذي تتملكه أكثر من عقدة نقص أن يقنن نظرية تحكم العلاقات البشرية؟ فكم من نظرية عاشت فترة ثم بعد فترة أصبحت خرافة ونسياً منسياً؛ لأنها لم تصمد أمام الشواهد الواقعية كنظريات تفسير الضوء وهل إنه موجي أم جسيمي، فكان يظن أنه موجي، ثم ذهب العلماء إلى أنه جسيمي^(١). وربما يجيء وقت تفنّد فيه الكثير من النظريات الأخرى وتركن على رفوف التاريخ.

هشام بن الحكم يرى الطبيعة الجسيمية للضوء

وهذا الأمر موجود في تراثنا العلمي؛ فقبل أكثر من ألف وثلاثمئة سنة كان هشام بن الحكم رحمته الله - أحد تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام - يرى أن الضوء ذو طبيعة جسيمية، وأنه يتكون من جسيمات رقيقة ومتلاحقة، وهو ما أثبتته العلم بعد ذلك^(٢).

وكان عند هذا الرجل من الآراء العلمية ما أثبتته العلم في أوروبا فيما بعد.

على أية حال فهناك الكثير من النظريات التي وضعها الإنسان ثم جاء بعده من بني جنسه من نقضها وركنها لثبوت عدم صحتها، وهو أمر لا يمكن أن تخلو منه نظرياته القانونية؛ لأن المصدر واحد. وما دامت هذه

(١) حتى جاء العالم الألماني بلانك ماكسويل الذي أثبت الطبيعة الثنائية للضوء؛ فهو في الفراغ يسلك سلوكاً موجياً وفي الوسط الجسيمي يسلك سلوكاً جسيماً، وبذلك فسّرت كمومية الضوء (نظرية الكوانتوم).

(٢) في أحد سلوكي الضوء كما مر في الهامش السابق.

النظريات عرضة للتخطئة والنقض فمن الواضح إذن أن الإنسان لا يملك القابلية التي ينبغي أن تتوفر في المشرع أو المقنن كي يشرع لنفسه أو لغيره. وأنه يصلح المجتمع. كما أن على أي فرد ألا يضع مجرد مقايسة بين تشريعات الأرض وتشريعات السماء، فأين الثرى من الثريا؟ وربما يعترض معترض بأن هذا القانون لم تضعه السماء وإنما وضعه النبي الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ.

ويجاب هذا المعترض بأنه لو تأمل الفترة التي عاشها النبي ﷺ تأملاً جيداً، ثم قايس ما في القرآن الكريم من معارف وعلوم بمستوى الحياة الثقافية لها (الفترة التي عاشها الرسول ﷺ)، لوجد أن ذلك العصر لم يكن يتسع ولو لجزء يسير جداً لما جاء في القرآن الكريم. وهذا الأمر يثبت أن القرآن والإسلام ليسا من ابتكار النبي ﷺ بل هما من وحي السماء. ومن هذا أن الفترة التي تفصلنا عن الإمام الصادق عليه السلام هي قرابة الثلاثة عشر قرناً، ومع ذلك نسمعه يقول: «يرى الذي في المشرق أخاه الذي في المغرب».

وفعالاً بدأت أجهزة التلفزة بنقل بث محطات التلفزة عبر الأقمار الصناعية مباشرة من كل أرجاء العالم، فصار من بالمشرق يرى من بالمغرب^(١).

وهذه الرواية يرويها المجلسي^(٢) عن الشيخ الصدوق عليه السلام وغيره^(٣)، والصدوق توفي قبل ألف سنة، فمن أين جاء بهذه المعارف إن لم تكن من كلام المعصوم؟

(١) مضافاً إلى هذا وسائل الاتصال الحديثة عبر الإنترنت.

(٢) بحار الأنوار ٥٢ : ٣٩١. (٣) مستدرک سفينة البحار ١ : ٣٦٠.

وعليه فالبيئة التي عاش فيها النبي ﷺ في الحجاز كانت تترقد في حجر الجاهلية والظلمات، ولا يمكن لها أن تتمخض عن مثل هذه المعارف.

إذن فهذا الكلام من المعصومين عليهم السلام مأخوذ عن النبي ﷺ، والنبي ﷺ كلامه من وحي السماء لا محالة، لا من البيئة الجاهلية^(١)، فلو لم تكن السماء قد أطلعتهم عليهم السلام على ذلك ما أمكنه أن يقوله.

ونخلص من هذا إلى أن الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة التي وردت على لسان الرسول ﷺ والأئمة المعصومين من آل همام عند الله تعالى، وإذا كانا كذلك فلا يجوز ولا يصح بأي حال من الأحوال أن نضرب بهما عرض الحائط ثم نلهث وراء نظم وقوانين وضعية يعترئها النقص ويشوبها التناقض^(٢)، إن هذا لا يسوغ أبداً. ثم إن هذا الذي يقنن ربما كان يوماً ما راقصاً أو غير ذلك، وقد يسكر فتتغشاها الخمرة ثم يسنن القوانين والسنن، فهل يعقل أن نأخذ بما يشرع وننبذ قوانين السماء من أجل من هو من هذا النمط؟ فالإنسان الضعيف غير قادر على حماية نفسه وتوفير الأمن والسلام لها، وهو ما يعبر عنه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «تؤلمه البقّة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقة»، فهو بهذا محتاج لمن يتم له نقصه لا أن يشرع لغيره.

(١) ففاقد الشيء لا يعطيه.

(٢) قد ذكر المحاضر عليه السلام في إحدى المحاضرات السابقة أن من أوجه هذا التناقض أن يسنّ المشرع القانوني مادة تقول: يجب مراعاة التقاليد، وتغذية الناس بالفضيلة. لكنه يعود فيسنّ مادة أخرى تناقضها دون أن يلتفت إلى ذلك، فيقول فيها: يجب توفير الحرية للناس وضماتها في كلّ ما يمارسونه من أعمال. ومن جملة هذه الأعمال ما يكون منافياً للفضيلة.

المبحث الرابع: ضريبة السؤال اللاواعي

فالأية الكريمة تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ﴾ والله تعالى يأمر الناس على لسان نبيه الكريم ﷺ ألا يسألوا عما يعود عليهم بالضرر، أو عما لا يعود عليهم بنفع أو فائدة، وأن يسألوا عن أشياء تعينهم وتخصهم.. أشياء هم مسؤولون عنها يوم القيامة، بل وحتى في الدنيا. ثم إن هناك من يسأل لأجل تعجيز المسؤول وإظهار عدم مقدرته العلمية وكفاءته، وبالتالي تصغيره في عيون الناس. ومن ذلك ما رواه الزهري من أن هشام بن عبد الملك حج سنة فدخل المسجد الحرام معتمداً على يد سالم مولاه، ورأي الإمام الباقر عليه السلام جالساً في المسجد والناس حوله يسألونه، فأغاضه هذا الأمر، وجعل الحقد يعتمل داخل نفسه، فكان قلبه يتأكل لما يرى من حب الناس له والتفافهم عليه واجتماعهم حوله للتبرك والاستفتاء، فأراد أن يسأله سؤالاً يراه تعجيزياً، ظاناً أنه بهذا يعجز الباقر عليه السلام أمام الناس فيقلل من قدره عندهم، وينتقص من هيئته أمامهم، وبالتالي سيفضحه عليه السلام أمامهم.

وهذا كما ذكرنا سلفاً شأن ذوي النفوس الصغيرة التي لا يرضيها أن ترى مكانة غيرها أعلى من مكانتها وإن كان الغير أهلاً لذلك، وهو يفسره بأنه منقصة له؛ لأنه يشعر بالنقص؛ لنقصه فعلاً، فلا يريد أن يرى من له أهلية التفضيل أفضل منه. على أية حال أمر غلامه سالماً بأن يذهب إليه ويسأله ليحرجه، فقال له سالم: هذا محمد بن علي بن الحسين. فقال له هشام: المفتون به أهل العراق؟ قال: نعم. قال: اذهب إليه، وقل له: يقول لك أمير المؤمنين: ما الذي يأكل الناس يوم القيامة ويشربون إلى أن يفصل بينهم.

فجاء إليه فذكر له ذلك فقال له ﷺ: «إن الله عز وجل يقول: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾»^(١) فيحشر الناس يوم القيامة على الأرض. وتكون لهم الخبزة النقية يأكلون منها، وأنهار متفجرة يشربون منها، إلى أن يفرغ من حسابهم».

وهذه المسألة من الأمور التي لا يمكن أن نحكم فيها العقل أو الحواس؛ لأننا لم نرها، وهي مسألة حسابية نحكم فيها المقدمات العقلية، كما أنها مسألة سماعية نأخذها عن النبي الأكرم ﷺ؛ لأنه لا ينطق عن هوى، بل هو وحي الله وكلامه^(٢)، ونحن لا نستطيع أن نصل إلى هذه الأمور بعقولنا القاصرة. على أية حال انصرف سالم إلى هشام، فأخبره بجوابه، فرأى هشام أنه ظفر به، فقال: الله أكبر، ارجع إليه، فقل له: أما يشغلهم عن الأكل والشراب يومئذ ما هم فيه من هول يوم القيامة؟ فرجع إليه فقال له ذلك، فقال له الباقر ﷺ: «هم في النار أهول من ذلك وما شغلهم ما هم فيه أبداً عن أن قالوا لأهل الجنة: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُم﴾»^(٣) وأكلوا الضريع والزقوم وشربوا الصديد والحميم». فرجع إلى هشام فأخبره، فأفحم وخزي وأطرق ولم يحر جواباً^(٤).

لقد كان بإمكانه أن يسأل عن سؤال يستفيد منه، بل وحتى هذا السؤال نفسه لكن لا يقصد سيئ ونية حاقدة بل بنية الاستفادة والاستزادة والتنوير، وهذا هو الذي يريده القرآن الكريم من الناس على لسان النبي ﷺ كما ذكرنا.

(١) إبراهيم: ٤٨.

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ النجم: ٣ - ٤.

(٣) الأعراف: ٥٠. (٤) شرح الأخبار ٣: ٢٨٠ - ٢٨١.

المبحث الخامس: في تحريف القرآن

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ﴾، وفي المقطع الشريف تنبيه إلى ضرورة السؤال عن القرآن حين نزوله.. عن تنزيله ومعانيه وأهدافه وما إلى ذلك من أغراض شريفة ومضامين عالية. وهو أمر يبزره ما شاهدناه بعد ذلك من الدس والتحريف والتزوير في معاني القرآن الكريم - لا في ألفاظه - مما هو واقع في كتب التفسير والحديث، فلو أنهم سألوا عن معاني الكتاب كافة لكان الرسول الأكرم ﷺ قد أجابهم عن كل ذلك، وهو بدوره يبعد كل محاولة لتزوير وتحريف معاني القرآن الكريم ومضامينه.

مصحف علي ؑ وتحريف القرآن الكريم

إن هذه المسألة - تحريف معاني القرآن الكريم دون ألفاظه - واقعة فعلاً، إن عندنا روايات تقول: إن المصحف الشريف الذي جمعه أمير المؤمنين ؑ هو بحجم هذا المصحف ثلاث مرّات، وهذا ما حدا بالبعض أن يفتروا على الشيعة كذباً بأنهم يقولون بتحريف القرآن، وأن القرآن الصحيح هو ثلاث مرّات بحجم القرآن الحالي.

الشيعة لا يقولون بوقوع التحريف بل غيرهم

والجواب على هذا الادّعاء الكاذب يكون بالرجوع إلى كتبنا ومصادرنا في الحديث والعقائد والتفسير تنفي وقوع مثل هذا الأمر، بل غيرنا هو من يقول بذلك؛ فهم يروون مثلاً أن سورة (براءة) قد ذهبت ولم يبقَ إلا ربعها، فقد روى الهيثمي في (مجمع الزوائد)^(١) والحاكم في

(١) مجمع الزوائد ٧: ٢٨.

(المستدرك)^(١) أن حذيفة قال: تسمون سورة التوبة هي سورة العذاب وما يقرؤون منها مما كنا نقرأ إلا ربعها. وأن بعض الآيات نسخت تلاوة لا حكماً كما في الآية « والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكلاً لمن الله تعالى »^(٢)، وينسب إلى عائشة حذف آيات الرضاعة بنسخ التلاوة^(٣)، في حين أننا نقول: إن الموجود بين الدفتين حالياً هو القرآن كاملاً لا زيادة فيه ولا نقص. نعم، هناك تقديم حرف وتأخير آخر، وهناك قراءات تختلف باختلاف القراء ورواتها في المد والإدغام والإقلاب والإمالة والتفخيم، لكنه ليس تحريفاً. وهذا الأمر موجود في القرآن الكريم بإجماع المسلمين، ومذكور في كتب علمائهم. فليس في عموم

(١) المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٣١.

(٢) الطبقات الكبرى ٣: ٣٣٤، المنحول في علم الأصول (الغزالي): ٣٩٢.

(٣) التفسير الكبير ٣: ٢٣٠. وذكر هذه الأمور مستفيض عندهم ومشتهر، ولعل ما في كتاب (الإتقان) للسيوطي في باب عدد سور القرآن وآياته وحروفه، وفي غيره كفاية، ففي (الإتقان) مثلاً ينقل عن الخليفة الثاني رأياً مفاده أن عدد حروف القرآن يبلغ مليوناً وسبعة وعشرين ألف حرف. وكذلك عدد السور في قرآن أبي فإنها مئة وست عشرة سورة؛ في حين أن إجماع علماء المسلمين على أن عدد سور القرآن مئة وأربع عشرة سورة. وهاتان السورتان يرى أنهما لم تكتبتا، وأنهما قد سقطتا، ويسميها سورة (الخلع) وسورة (الحفد)، وكان يقنت بهما أبي والخليفة الثاني نفسه. بل إنه (الخليفة الثاني) يصرح بأن هناك آيات قد حذفت من القرآن مثل آية الرجم، وينسب إلى بعض نساء النبي ﷺ أيضاً أن بعض الآيات قد أكلها الداجن. انظر: مسند أحمد ١: ٢٣، ٢٩، ٣٦، ٤٠، ٥٠، ٥٠٩، ١٢٩، ١٣٢، ٦: ٢٦٩، صحيح مسلم ٢: ١٠٥٠ / ٧٢٦، ١٠٧٥ / ١٤٥٢، سنن الدارمي ٢: ٢١٧٩، السنن الكبرى ٨: ٢١١، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤: ٤٥٦، المصنف (الصنعاني) ٧: ٤٦٧، ١١: ٤٧٠، سنن ابن ماجه ١: ٦٢٥، المستدرك على الصحيحين ٤: ٣٥٩، ٣٦٠، الكشاف ٣: ٥١٨، الجامع لأحكام القرآن ١٤: ١١٣، ٢٠: ٢٥١، مناهل العرفان ١: ٢٧، ٢٥٧، ٢: ١١١، روح المعاني ١: ٢٥، الطبقات الكبرى ٣: ٣٣٤، الإتقان ١: ١٩ / ٩٧١، ٢٤٢، ١٧٦ / ٨٣٢، ١٧٨ / ٨٤٣، ٣: ٨٢، ٨٤، ٢٠٦، الدر المنثور ٦: ٥٥٩ - ٥٦٠، وغيرها كثير.

مذهبتنا من يذهب إلى وقوع التحريف في القرآن الكريم، وإن وقع من واحد أو اثنين فهو شذوذ عن قواعد المذهب ومقتضى معتقداته؛ لأن عندنا أن القرآن الكريم إن وقع فيه تحريف من زيادة أو نقص أو غيره فإن حجّيته تسقط عن الاعتبار، فقد يدفع امرؤ الزكاة أو غيرها مما هو في آية من القرآن الكريم وربما تكون هذه الآية مزيدة، أو أن المكلف لا يؤدّي واجباً؛ لأن الآية التي ذكرته حذف من القرآن. وهكذا نجد أن الأمر لا ينتهي عند حد. وكذلك الحال مع الصلاة وغيرها من التكاليف.

وعليه فإن جمهور علمائنا وفقهائنا يرون أن القرآن هو ما بين الدفتين، فلا زيادة ولا نقص. ومن أراد أن يطّلع أكثر على هذا، ويتأكد منه فليرجع إلى مؤلفات علمائنا (رضوان الله عليهم) كالشيخ المفيد في (أوائل المقالات)^(١) والشيخ الصدوق^(٢) والشهيدين والشيخ البهائي وغيرهم، فهؤلاء الأفاضل لهم آراء صريحة وواضحة في هذا المجال لا تقبل الشك والتأويل.

ومع هذا فإننا نسمع ونرى إلى الآن من يتّهم الشيعة بالقول بتحريف القرآن الكريم، وأنا لا أدري كيف يجرؤ إنسان مسلم المفروض به أنه يخشى الله تعالى على مثل هذا الافتراء، مع أنه لم يرجع في مثل هذه الافتراءات والتقولات إلى مصادرنا بل إلى مصادر من يكتب عنا ممن هم ليسوا منّا. زار الكاتب المصري المعروف أحمد أمين النجف مرة والتقى الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء رحمته الله فقال له الشيخ: إنك تقول: إن في النجف أولاداً يلبسون الأقراط، وهم أبناء المتعة، فلنذهب معاً ونطف في

(٢) تصحيح اعتقادات الصدوق: ٨٤.

(١) أوائل المقالات: ٨١ - ٨٢.

شوارع النجف لنرى ما إذا كان ما قلته حقاً أم لا. فقال أحمد أمين: أعتذر عن هذا؛ فقد رأيت في كتب المستشرقين.

ولا أدري لم يعمد كاتب إلى نقد طائفة عن طريق ما يكتبه عنها أعداؤها، مع أن مكتباتنا غنية بالمصادر والكتب. ونحن إن أردنا أن نحسن الظن بمثل هؤلاء فإننا نصفهم بالسدج والمغفلين، وإن أردنا أن نحسن الظن بهم فإننا لا نعدو وصفهم بأنهم مأجورون يبغون بثّ الفرقة بين المسلمين. وإلا فهل يصحّ أن تُنقد آراء أبي حنيفة أو مالك من خلال ما يكتبه عنهما الآخرون؟ إن المنهج العلمي الدقيق والصحيح يلزمنا بأن نرجع إلى كتبه هو أو كتب أتباع مذهبه لناخذ منها مادة النقد والمناقشة. ثم إن مسألة المتعة عندنا أصبحت مسألة نظرية لا تعيش إلا في بطون الكتب ولا واقع معاش لها، وهي نظرية تتفق نحن وأبناء السنة على أصل مشروعيتها وإن كنا نختلف في وقوع النسخ فيها.

إذن فالقرآن يحثّ على وجوب تتبّع أحكامه والسؤال عنها، وهذا ما فعله أمير المؤمنين عليه السلام في مصحفه الذي يعدل هذا المصحف المعروف ثلاث مرّات؛ حيث إنه عليه السلام كان كلّمنا نزلت آية سأل الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله عن معناها أو ما فيها من أحكام وتشريعات، كآية الوضوء^(١)، حيث إن معرفة الحكم تقتضي معرفة ما هو المقصود من **«المَرَّاقِ»**. وما المقصود بالغاية فيها؟ ف**«إلى»** من الألفاظ المشتركة في كلام العرب، حيث إنها تأتي بمعنى (من) وتأتي بمعنى انتهاء الغاية، فكان عليه السلام يأخذ المعنى الحقيقي المراد من الرسول صلى الله عليه وآله ويدوّنه تحت كلّ آية مختصّة به بها أو

(١) وهي قوله تعالى: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَاقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ»** المائدة: ٦.

فوقها. وهذا هو كل ما في الأمر، ونحن حينما نقول: مصحف علي أو مصحف فاطمة فإنما نقصد به المصحف الشريف مع شروحه التي أضافها الإمام عليه السلام عليه نقلاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

المبحث السادس: وجوب السؤال عن القرآن والدقة في نقله

فالله تعالى يأمر المسلمين باستقصاء معاني القرآن من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه؛ لأن الأمر إذا دخل في باب (فلان عن فلان) حصل السهو والنسيان والزيادة والنقص غير ذلك مما يضيّع الهدف من الرواية؛ فإن سألوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونقلوها كلهم فإنه يحصل اطمئنان للرواية؛ للتواتر حينئذٍ. روى أحد الصحابة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه». فبلغ خبر الرواية السيدة عائشة، فقالت: غلط الراوي إنما هذه الرواية كانت في يهودي مات ومروا أهله يحملونه ويكون عليه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن هؤلاء يبكون عليه وهو يعذب»^(١).

فالمسألة هنا خاصة، وعدم دقة الراوي هي التي أوقعته في مأزق نقل الرواية؛ فإن من الطبيعي أن يبكي أهل الميت ميتهم، فلماذا يعذب هو؟ وما هو ذنبه؟ وهل يعاقب على ذنب اقترفه غيره؟ فالراوي هنا فهم الحديث على غير ما أراه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ومثل هذا النمط من الرواة كثيرون^(٢).

(١) منتهى المطلب ١: ٤٦٧ (حجري)، مسند أحمد ١: ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٥٧، ١٠٧.

(٢) ومنها رواية دخول امرأة النار في هرة حبستها، فقد دخل أبو هريرة على عائشة، فقالت له: يا أبا هريرة أنت الذي تحدث أن امرأة عذبت في هرة لها ربطتها لم تطعمها ولم تسقيها؟ فقال أبو هريرة: سمعته منه - يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم - فقالت عائشة: أتدري ما كانت المرأة؟ قال: لا. قالت: إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكرم على الله من أن يعذبه في هرة، فإذا حدثت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فانظر كيف تحدثت. مسند أحمد ٦: ٢٩٩، المستدرک

والله تعالى إنما يحثّ على السؤال عن معاني القرآن الكريم؛ لأنها معانٍ توقيفية؛ بمعنى أنه لا يجوز تفسير القرآن الكريم بالرأي دون الرجوع إلى أحاديث الرسول ﷺ الذي يوقف المسلمين على المعاني الحقيقية له. وهو أمر معناه النهي عن تفسير القرآن الكريم، بل والحديث الشريف كذلك بالآراء والأهواء، وما توحىه الظنون وتمليه الرغبات، فيدخل في الدين ما ليس فيه، أو يُصنع مشرّعون مقابل تشريع السماء وهم لا يمتلكون القابلية الفعلية لذلك؛ لأنه مخلوق ناقص ويكمل نقصه بالدين. فالعقل البشري لا يمكن أن يرى حقيقة الأشياء الصالح منها له وغير الصالح إلا بنور البعثة والنبوة، وهو في ذلك حال العين لا ترى الأشياء إلا بوجود النور أو الضوء.

المبحث السابع: في البراءتين: الشرعية والعقلية

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾، أي أن هذه الأمور قد مضت وقد صفح الله عنها؛ فلماذا تعودون إلى إثارتها بعد اندراسها؟ إن الله تعالى قد رخص لكم بأشياء فخذوا برخصه فيها؛ لأنه جلّ وعلا يحبّ أن يؤخذ برخصه كما يحبّ أن يؤخذ بعزائمه؛ فما أمركم الله به فاتبعوه وافعلوه، وما نهاكم عنه فاجتنبوه وما تركه تتركوه منه

على الصحيحين ٣: ٥١٣، تحفة الأحوذى ١: ٢٦١. ومنها ما فهمه محمد بن مثنى العنزي - أحد شيوخ البخاري - من حديث أن رسول الله ﷺ إذا زار المقابر، ورغب في الصلاة هناك، وضع عنزة بينه وبين القبر الذي يصلّي إليه كحاجز عرفي؛ لأن الصلاة بين القبور مكروهة، ثم صلى. مسند أحمد ٤: ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، صحيح البخاري ١: ١٢٧، ٤: ١٧٥. فقال هذا الشيخ: نحن قوم لنا منزلة وكرامة. فقيل له: كيف؟ قال: لأن رسول الله ﷺ قد صلّى إلينا. سير أعلام النبلاء ١٢: ١٢٥، وادعى أنه قالها مازحاً. والعنزة: العصا. العين ١: ٣٥٦ - عنز.

فلا تكلفوا أنفسكم به؛ فإنه تعالى تركها؛ لأنه لا يريد أن يكلفكم بها^(١).

قبح العقاب بلا بيان

فما عفا الله عنه من أشياء لا تكلفوا أنفسكم بالخوض فيه والسؤال عنه؛ لأنه مما لم يصلكم بيانه ولستم مكلفين به، وهو ما يسمى البراءة الشرعية والبراءة العقلية الذي تتفق به مع فقهاء القانون القائلين بأنه لا جريمة^(٢) إلا بقانون، فعبور الشارع من نقطة معينة لا يمكن عدّه جريمة ولا يجوز المقاصّة عليها أو المحاسبة ما لم توضع يافطة عند تلك النقطة تشير إلى حظر العبور منها. وعدا ذلك تعدّ المحاسبة على الاجتياز منها غير قانونية وغير صحيحة؛ لأنه ليس هناك من جريمة حتى تسوغ المحاسبة. وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(٣).

(١) قال رسول الله ﷺ: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلفوها». سنن الدار قطنية ٤: ٢٩٨، كنز العمال ١: ٣٨١ / ١٦٥٦ نحوه.

وقال أمير المؤمنين ﷺ: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً، فلا تتكلفوها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٥.

(٢) النفي هنا ليس للجريمة، بل هو نفي لترتب آثارها على مرتكبها، فهو من قبيل النفي في قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام». ففيه دلالة اقتضاء، وهي الدلالة المقصودة للمتكلم بحسب العرف ويتوقف صدق الكلام أو صحته عقلاً أو شرعاً أو لغة أو عادة عليها. فإن صدق الكلام في قوله ﷺ يتوقف على تقدير عبارة «الأحكام والآثار الشرعية» لتكون هي المنفية حقيقة؛ لوجود الضرر والضرار قطعاً، فيكون النفي للضرر باعتبار نفي آثاره الشرعية وأحكامه. انظر: أصول الفقه ١: ١٨٤ - ١٨٥.

(٣) الإسراء: ١٥.

وأما ما يعبر عنه أصولياً بقاعدة «قبح العقاب بلا بيان»^(١) فهو ما يسمى بالبراءة العقلية. فالله تعالى لا يعاقب عبداً على شيء ما لم يبين له حرمة ومحظوريته؛ ومن هذا على سبيل المثال التدخين فهو لم ينزل به نص من الله تعالى، ولم تذكره السنة النبوية المطهرة؛ لأنه لم يكن موجوداً في زمن النبي ﷺ، وبهذا فإن الأغلب يذهب إلى حليته، باعتبار أن الأصل في الأشياء الإباحة، فلو كان حراماً لبينه الله ولأنزل فيه قرآناً أو بيّنه على لسان نبيه ﷺ، أو لدخل هو تحت أحد عناوين الحرمة المعروفة، فما لم يدخل تحت أحد هذه العناوين ولم يبينها الله تعالى فالحكم بحرمة مستبعد.

ومثل هذا أيضاً ركوب الطائرة التي لم تكن معروفة في زمن النبي الأكرم ﷺ، فلا يمكن القول بحرمة ركوبها كذلك. فالبراءة العقلية هي التي يحكم العقل وفقها بقبح العقاب بلا بيان، والبراءة الشرعية هي التي تستفاد من جملة آيات كريمة^(٢) وأحاديث شريفة^(٣).

آية المودة

فالله تعالى يريد أن يبين للمسلمين في كتابه الكريم، وعلى لسان

(١) ويقابل هذا الرأي رأي آخر هو مسلك حقّ بالطاعة القائل بأن أعمّ الأصول العمليّة هو أصالة اشتغال الذمّة، وأنه أصل يحكم به العقل. ومفاده أن كلّ تكليف يحتمل وجوده ولم يثبت إذن الشارع في ترك التحقّظ تجاهه فهو منجّز، وتشتغل به ذمّة المكلف. ومرّد ذلك إلى أن حقّ الطاعة للمولى يشمل كل ما ينكشف من التكاليف ولو كان انكشافاً ظنّياً أو احتمالياً. دروس في علم الأصول ١: ١٦٦. (٢) ومنها الآية الكريمة المارّة.

(٣) ومنها حديث الرفع، قال رسول الله ﷺ: «رفع عن أمتي تسعة: الخطأ، والنسيان، وما أكرهوا عليه، وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطروا إليه، والحسد، والطيرة، والتفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشقة». التوحيد: ٣٥٣ / ٢٤، الخصال: ٤١٧ / ٩.

رسوله الأمين ﷺ أن ما وضعه عنهم وعفا عنه لهم يجب عليهم ألا يشغلوا أنفسهم به؛ لأنهم غير مكلفين به أصلاً، ولو كانوا كذلك لأمرهم الله به ولبينه لهم. لكن الذي كان يحصل أنهم يشغلون أنفسهم والرسول ﷺ بالسؤال عنها والاستقصاء، وما كان لهم حاجة ماسة يتساهلون ويتهاونون في السؤال عنه.

ومن هذا نجد أن القرآن يصرح آناء الليل وأطراف النهار على السنة قارئيه: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(١)، لكن مع ذلك لم يكلفوا أنفسهم جميعاً بالسؤال عن ذوي القربى، وعن كيفية إظهار المودة لهم، يقول الكميّ:

وجدنا لكم في آل حم آية تأولها منا تقي ومعرّب^(٢)

وهكذا نجد أن البعض من المسلمين معرضين عن ذوي قربي رسول الله ﷺ، بل إن البعض يتوجّه بالنقد اللاذع والتعنيف على من يجده مواداً لذوي قربي رسول الله ﷺ، كما هو الحاصل معنا في أمر تعظيم أبي الأحرار والشهداء وسيدهم الإمام السبط أبي عبد الله الحسين عليه السلام. فهؤلاء يتساءلون عن الأسباب التي تدعو إلى مثل هذا التكريم، وكأنه عليه السلام لم يكن قد قُتل لتكريم الدين وإعلاء شأنه، بل إن الواقع الذي لا مفرّ منه أن الحسين عليه السلام وجد ليكرّم؛ لأنه الامتداد الطبيعي لحمّاً ودماً وفكراً وعقيدة للرسول الأكرم ﷺ ولرسالة السماء. إن الحسين عليه السلام قد قارع برسالته الظالمين، وهو يحمل على كفه مبادئ الدين ويدافع عنها حتى وصل به

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) مجمع البيان ٨: ٤٢٤، ٩: ٤٩، جامع البيان ٢٤: ٥١.

الأمر إلى أن يستشهد هو وأهل بيته وأصحابه كافة وإلى أن تسبى عائلته، فلم يتراجع ولم يدع رسالته بل أداها حتى القطرة الأخيرة من دمه الطاهر، فكان بهذا سيد الشهداء، و«سيد شباب أهل الجنة»^(١).

استذكار الحسين عليه السلام استجلاء للحق

فنحن حينما نذكر الحسين عليه السلام فإننا نستجلي الحق، والدين والعقيدة الصحيحتين عبر سبر أغوار حياته الكريمة وسيرته الشريفة العطرة، وهذا جميعه يستحق التقدير والتعظيم؛ أفليس الله تعالى يأمرنا بتعظيم شعائره؟ وهل هناك شعيرة من شعائر الله تعالى أعظم من آل بيت محمد عليه وآله الذي نحروا نحر الأضاحي من أجل الله تعالى وأجل دينه؟ إن هؤلاء هم أعظم شعائر الله مكانة وأعلاها شأنًا. وهكذا فإننا حينما نقف على قبره الشريف فإنما نقف على المبادئ التي جسدها عليه السلام وضحى من أجلها، لا على شباك من ذهب أو قطعة حجر، إنما إذ نقف أمام الضريح نقف على موقف مشرف وغضبة من غضبات النبوة لله تعالى ومن أجل دينه القويم. فهذا الدم قد غضب لله فسأل إعلاءً لكلمته وتكريماً وإحياء لدينه. فتكريم الحسين عليه السلام تكريم للإنسان الحر المجاهد في سبيل الله والمتقمص في شخصيته عليه السلام. والإمام الصادق عليه السلام حينما يدعوا لزوار الحسين عليه السلام لم يدع لهم لأنهم جاؤوا يتلمسون شباكاً من ذهب أو يمسكون بقطعة من فضة، فالموقف أبعد من هذا، يقول معاوية بن وهب:

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ٢٠، ٥٨، ٧٦، مسند أحمد ٣: ٣، ٦٢، ٦٤، ٨٢، ٥؛ ٣٩١، ٣٩٢، سنن ابن ماجه ١: ٤٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٢١، ٣٢٦، المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٦٧، ١٦٧، ١٦٧، ٣٨١، صحیح مسلم بشرح النووي ١٦: ٤١، وغيرها كثير.

استأذنت على أبي عبد الله عليه السلام، فقيل لي: ادخل. فدخلت فوجدته في مصلاه في بيته، فجلست حتى قضى صلاته، فسمعتة وهو يناجي ربه في سجوده ويقول: «اللهم إن أعداءنا عابوا عليهم خروجهم فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا وخلافاً منهم على من خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي قد غيرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تقلبت على حفرة أبي عبد الله عليه السلام، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم الصرخة التي كانت لنا. اللهم إني أستودعك تلك الأنفس وتلك الأبدان حتى نوافيهم على الحوض يوم العطش» ^(١).

أول خدّ تقلّب على الثرى لأجل الحسين عليه السلام

أمّا أول خدّ تقلّب على الثرى بعد استشهاد الحسين عليه السلام فهو خدّ سليمان بن قبة رضي الله عنه، فقد وقع على مصرعه عليه السلام وأنشأ يقول:

مررت على أبيات آل محمد فلم أرها أمثالها يوم حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها وإن أصبحت منهم برغمي تخلت
وإن قتيل الطفّ من آل هاشم أدل رقاب المسلمين فذلت ^(٢)

وأمّا الخد الثاني فهو خدّ بنات الرسالة بعد رجوعهنّ من السبي ومرورهنّ على كربلاء:

يا نازلين بكربلا هل عندكم خبر بقتلنا وما أعلامها
ما حال جثة ميت في أرضكم بقيت ثلاثاً لا يزار مقامها

(١) الكافي ٤: ٥٨٢ - ٥٨٣ / ١١، ثواب الأعمال: ٩٥ - ٩٦.

(٢) بحار الأنوار ٤٥: ٢٤٤، ٢٩٠، ٢٩٣، تاريخ مدينة دمشق ١٤: ٢٦، أسد الغابة ٢: ٢٢، الإصابة ٧: ١٢٦.

بإلله هل وارىتموها في الثرى وهل استقرت في اللحد رمائمها^(١)

وبعد ثلاثة أيام أمرهم السجاد عليه السلام بالاستعداد للرحيل ، ممّا حدا بأحد أصحابه أن يقول له : يابن رسول الله ، دع العيال تنزود من أهلها . ثم أقبل إلى عمته زينب وقال : « عمّة قومي » . قالت : إلى أين ؟ قال : « إلى المدينة » فقالت : وماذا بقي لي في المدينة ؟ وهل فيها إلا ديار خالية ، وأرامل ویتامی ؟

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا وخلفوا في سويدا القلب نيرانا
نذر علي لئن عادوا وإن رجعوا لأملأن طريق الطفّ ريحانا^(٢)



(٢) شجرة طوبى ١ : ٩١ .

(١) وفيات الأئمة : ١٦٧ .

الفصل الثالث
سنّة الزواج

مشروع الزواج الإسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا
تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا
يَعْلَمُونَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: قانون الزوجية العامة

تقول الآية الكريمة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾، ومن خلال هذا المقطع الشريف من هذه الآية الكريمة نستطيع أن نخرج بما يمكن أن يسمى « القانون الكوني »، الأمر الذي يوحي بأن الكون كأنما يبتني على قانون عام شامل، هو « قانون الزوجية »، وهذا القانون قد أشار إليه القرآن الكريم مجرد إشارة، كما هي عادته عندما يمرّ بحقيقة علمية. فمن المعلوم أن القرآن الكريم عادة يشير إلى الحقائق العلمية إشارة يمكن أن نعبر عنها بأنها عابرة دون أن يخوض في تفاصيلها؛ لأن القرآن ليس من شأنه أن يخوض في دقائق المسائل العلمية وتفاصيلها، بل إن فيه إشارات

(١) يس : ٣٦.

إليها؛ باعتبار أنه كتاب دستوري بالدرجة الأولى .
 ونحن يجب ألا نغفل أمراً هو أن التفاصيل العلميّة يُترك تقديرها إلى
 الزمن وإلى العلماء المختصّين؛ لأن القرآن الكريم لم يأتِ ككتاب علمي
 مختصّ في الفلك والهيئة أو الكيمياء أو الفيزياء، ولم يأتِ ككتاب علمي
 في هذه الأمور عامّة، بل إنه في واقع الأمر دستور للحياة الدينية
 والتشريعية والسياسية وما يدور في هذا الفلك؛ ولذا فإنه حينما يمرّ
 بالقاعدة العلميّة فإنه يكتفي بالإشارة إليها دون الولوج بذكر تفاصيلها.
 إن قانون الزوجية العام كحقيقة لم يكن معروفاً آنذاك؛ لأن العلم لم
 يكتشفه إلا في وقت متأخّر، فلم يكن هنالك من العلماء وغيرهم من يعلم
 أن بقانون الزوجية العامّ ينتظم الكون كلّهُ. ومن خلال هذه الآية وأمثالها
 التي تتناول بعض الحقائق العلميّة بشكل عامّ نتعرّف على عبقرية
 المفسرين، وعلى قدرتهم على التعامل العلمي مع النصّ القرآني
 الشريف، وما إذا كان تعاملهم ينمّ عن معرفة وأفق واسعين أم لا. ومن هذا
 التقريب فإننا نذكر هنا أن للمفسرين في معنى مفردة ﴿الزَّوْجِ﴾ الواردة في
 الآية الكريمة رأيين هما:

الأول: أنها الأثيَاء المتقابلة

ويريدون بها كلّ ما يمكن أن يطلق عليه لفظ المتقابلين، مثل (الليل
 والنهار)، و(النور والظلمة)، و(الحرارة والبرودة)، وهكذا إلى آخر
 المتضادات أو المتقابلات التي يكثر وجودها في هذا الكون. وهذا الوجه
 ليس غريباً عن أن تحتمله الآية الكريمة، وليس هو ببعيد بعداً كبيراً عن
 جوّها؛ لكن القرآن الكريم في واقع الأمر ليس بهذا الصدد، كما سنرى في

الرأي الثاني .

الثاني: أنها الزوجية البايولوجية

ومن هذا التقريب نعلم أن مراد القرآن الكريم هنا هو الزوجية العضوية . والواقع أن هذا الموضوع يمشي مع الإنسانية في كلّ يوم وكلّ زمان وكلّ مكان ، ذلك أنها لا يمكن أن يمرّ عليها وقت تستغني فيه عن هذه العلاقة ؛ لأن امتداد النوع يتوقّف عليها . ونظراً لأهمية الزواج فمن الضروري أن يبحثه ذوو الاختصاص بشكل مفصّل لوضع حدوده وقوانينه ، ومسوّغاته ومحرماته والمبيحات له . ولذا فإننا نجد أن في كتب الفقه باباً خاصّاً في هذا المجال يغطّي احتياجات الإنسان فيه ، والتساؤلات والإشكالات ذات العلاقة بهذا الموضوع كافة .

والعلماء أو الفقهاء إنما يستفيدون أحكامهم بالدرجة الأولى من القرآن الكريم والسنة النبوية أو المعصومية المطهّرة ، وهما منجمان غنيّان بالتشريعات والقوانين والنظم ؛ وهو الأمر الذي يعطيهم مساحة واسعة للتحرك في مضمار التشريع حينما يتناولون هذا الموضوع ، فيعطونه حقّه من ذكر محلّلاته ومحرماته وبقية جزئياته تحت مجهر الأحكام التكليفية الخمسة ، وسائر متعلّقاته بناء على ما يستفيدونه من هذين المصدرين المقدّسين .

المسلمون والقرآن

إننا كمسلمين نعيش مشاكل يومية متعدّدة متكرّرة دون هوادة ، ومن ضمنها مشكلة الزواج ، فعندما نتابع الصحف نجد أن هناك أعمدة مختصّة تتناول جوانب معيّنة من مشاكل الزواج ؛ فهناك بعض المواضيع

التي تتناول جانب غلاء المهور، وهناك مواضيع أخرى تتناول مشكلة التفاوت الطبقي، وثالثة تتناول الموضوع من مشكلة أخرى ومن زاوية أخرى، وهي مشكلة الكسبيات أي أن هذا الطالب يد الفتاة هل هو مثقف أم غير مثقف؟ وهل هذا غني أم غير غني؟ ورابع يتناوله من وجهة نظر السلوك، أي من جهة ما يتعلّق بحقوق الزوجين وواجباتهما؛ سواء كانت داخل البيت، أو خارجه.

وفي الحقيقة إن هذه المشكلة نتجت أو تفرّعت عن مسألة عدم التقيد بالقواعد التي رسمتها الشريعة المقدّسة، فبحكم كوننا مسلمين يجب على كلّ واحد منا أن يخضع لعلاقاته الشخصية لمصادر التشريع الإسلامي، وأن يقننها على ضوئها، وأن يتعامل مع الآخرين وفق ما توحى به هذا الشريعة المقدّسة أو تقننه له. فمصادر التشريع الإسلامي هي التي تحدّد لنا معالم الطريق الذي رسمه الله تبارك وتعالى لنا. وعليه فلا بد من ولوج موضوع الزواج عبر معالجة هذه الأمور وفق تسلسلها، فنقول: إن هذا الأمر تتمّ معالجته وفق بيان حقيقتين ذاتي علاقة به.. حقيقتين لا بدّ من أخذها بنظر الاعتبار في عملية المعالجة، وهما:

الأولى: أنه غريزة متأصلة في النفوس

ففضيئة الزواج قد أودعها الله جلّ وعلا في نفس الإنسان كغريزة منذ بدء خلقه، والإنسان لا يمكن في أي حال من الأحوال أن يتجرّد من غريزته.

الثانية: أن الله تعالى لم يخلق الغريزة عبثاً

ثم إننا يجب أن نلتفت إلى أن الله تبارك وتعالى حينما وضع الغريزة

عند الإنسان لم يضعها عبثاً، بل إنه جلّ وعلا وضعها عنده لهدف نبيل وغاية سامية هي حفظ النوع من الانقراض والإبقاء عليه. لكن شريطة أن يتمّ هذا التعامل معها لتحقيق هذا الهدف السامي على ضوء نظم الشريعة المقدّسة ومرتاياتها وقوانينها، وليس استجابة للاندفاع الأهوج وراء الغريزة، الناجم عن الابتعاد عن الله تبارك وتعالى، وعن الانقياد للنفس والهوى والشيطان.

وبهذا البيان يتّضح خطأ من يذهب إلى أن الإنسان إذا لم يتزوَّج فإنه يكون أفضل حالاً مما لو أنه تزوّج. وهؤلاء الذين يذهبون إلى هذا الرأي يفلسفونه بالقول: إن الزواج حالة بهيميّة تعتري الإنسان الذي يجب عليه أن يكون أسمى وأعلى وأرفع من أن ينزل إلى مستواها، وتعتريه فتحولّه إلى مثلها. وهذه المدرسة السلبيّة تجاه مسألة الزواج موجودة في تاريخ الأمم كافّة، وفي الأزمان كافّة، فهي من المدارس الفكرية التي ترى أن الزواج هو نوع من ممارسة الغرائز البهيميّة التي يشترك بها الإنسان مع الحيوان، وينزل بها عن مستوى إنسانيته التي رفعه الله تعالى إليها. وعليه فإنه بهذا إنما يقضي على إنسانيته.

وفي واقع الأمر إن الله جلّ وعلا عندما استخلف الإنسان في الأرض أراد منه أن يعمرها، وإعمار الأرض لا يكون إلّا باستمرار وجود الإنسان فيها؛ لأن هذا الاستمرار يعدّ ضماناً لذلك الاستعمار والاستخلاف الذي أراده الله جلّ وعلا للأرض، وأن يكون من الإنسان. وهذا الاستمرار لا يكون كما هو معروف ومألوف وغني عن الإشارة إلّا عن طريق الأبوين، أي عن طريق الزواج الذي يحقّق لنا هذا الهدف.

وهذه العلاقة ليست حالة مشيئة بحال من الأحوال حتى ندعو الإنسان

إلى الابتعاد عنها؛ فإننا نعرف أن الأنبياء ﷺ جميعاً قد تزوّجوا، مع أن البعض قد أنكر على الأنبياء ﷺ أن يتزوّجوا شأنهم في ذلك شأن بقية بني الإنسان؛ لأنهم ﷺ أرفع شأنًا، وأفضل خلقًا وأشرف وجوداً ممّن خلق الله تبارك وتعالى؛ ولذا فإنه من باب أولى أن عليهم أن يتزوّجوا عن هذه الحالة الحيوانية التي يمارسها الحيوان والإنسان المتشبه به، وألا يتزوّجوا.

ومما يذكر من هذا الباب أن أحد الفقهاء كان كلّما مر بطريقه وجد أن أحد الأشخاص يمشي خلفه ويطيّل النظر إليه، فناداه وسأله عن شأنه وعن الأمر الذي دعاه إلى أن يطيّل النظر إليه في كلّ مرة يمر به من قربه، فأجابته بأنه يفكر في مسألة هي هل إن هذا العالم الرّباني الوقور، والمجتهد الورع - يعنيه هو نفسه - حينما يأتي بيته يمارس هذه العادة البهيمية مع أهله شأنه في ذلك شأن الناس جميعاً؟ فقال له: هكذا كان جدّنا رسول الله ﷺ يفعل.

فالمشكلة إذن هي أن تتخذ هذا المنحى من التفكير عند البعض، أي أن يشكّوا بأن الأنبياء والأوصياء ﷺ والعلماء والعاملين مثلهم من وجهة نظرهم لا يمكن أن يلجوا هذا المجال، أو أن يمارسوه؛ لأنه طريق حيواني، وهم لا يريدون لهم أن ينزلوا عن مستواهم الإنساني إليه، أو أن ينزلوهم هم عنه. فهؤلاء في تصوّورهم وفي ظنّهم أنهم بهذا التوجّيه إنما يرفعونهم عن الحالة البهيمية إلى الحالة الإنسانيّة التي خلقهم الله عليها. وهذا الأمر ينطوي على مغالطة واضحة؛ ذلك أن الإنسان بشكل عام - حتى الأنبياء والمرسلين ﷺ وغيرهم - عنده حاجات نفسية وحاجات جسدية وحاجات روحية:

فالحاجات الروحية هي الإيمان بوجود إله، والعلم والمعرفة، وما يدور في نطاقها ونطاق الروح ممّا يغذيها ويشبعها. أما الحاجات النفسية فهي الأمان والاستقرار وما هو في فلك هذا السياق. أما الحاجات الجسدية فهي الطعام والجنس وغيرهما. وكلّ حاجات الإنسان قد وضعها الله جلّ وعلا عنده لحكمة ولغاية يرتبها هو تعالى، والحكمة من الزواج هو امتداد النوع الإنساني، كما أن الحكمة من ممارسة الحيوانات لهذه الحالة هي عملية امتداد لنوعها وبقائها والحيلولة دون انقراضها. فبالزواج يتحقّق استمرار النوع البشري كلّ على سطح الأرض. أما أن يأتي من يقول: إن ترك الزواج أفضل؛ لأنّ الله تبارك وتعالى قد مدح أحد أنبيائه، وهو يحيى بن زكريا عليه السلام بقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(١)، فهذا ينطوي على مغالطة؛ فصحيح أننا نعلم أن الحصور هو الذي لا يتزوَّج، لكن هذا لا يعني أن الذي لا يتزوَّج أفضل من غيره.

ولو أردنا أن نتناول هذه الآية من وجهة نظر علماء الأصول فإننا نقول: إن هذا هو مفهوم الوصف الذي لا تقوم له حجّية كما هو معروف في علم الأصول^(٢). وكدليل على ما نقول ما يروى من أن الأرض تشكو من بول الأعزب. وعليه فإذا كان الشخص ذا مال وصحة وقوّة ومقدرة على الزواج فعليه أن يفعل ذلك، وإلا فما هو المانع من أن يلجّه، أو يحول دون تحقيقه، وقد منحه الله الصّحة والطاقة والقابلية على إتيانه؟ فالإنسان عبر الزواج يطمئن إلى أنه سوف لن يقع في محذور ولن يرتكب محرّماً أبداً.

(٢) انظر: أصول الفقه (المظفر) ١: ١٦٩ - ١٧٤.

(١) آل عمران: ٣٩.

إن الله جلّ وعلا عندما ينعم على عبد بنعمة منه فإنه يريد منه أن يستعمل تلك النعمة فيما أحلّ له، وليس هناك من شك في أن الزواج من الأمور المستحبّة، وربما يصل الأمر به إلى أن يدخل في دائرة الوجوب لمن لا يستطيع أن يسيطر على غريزته وعلى نفسه. وعليه فإن من استطاع أن يصبر عنه فإنه يبقى على استحبابه؛ لأن النبي ﷺ ندب إليه فقال: «تناكحوا تكاثروا، فاني أباهي بكم الأمم يوم القيامة» (١).

وقد ندب إليه القرآن الكريم من قبل فقال: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢).

وعليه فإن الزواج واجب على من لا يتمكن من أن يتغلب على غرائزه ورغباته؛ لأن الشرع والعقل حينئذٍ يقضيان بأن عليه أن يعف نفسه وأن يصونها؛ لأنه بهذا السلوك إنما يحترم المجتمع، ويحترم القيم، ويحترم الدين والرسالات؛ لأن ما يترتب على هذا الأمر هو أنه سوف لن ينجر في وراء الغريزة والرغبات والأهواء، وبالتالي سوف لن يقع في دائرة المعصية والمحدور. إن من لم يستطع أن يسيطر على غريزته ولم يتزوج فإنه حتماً سوف يعتدي على المجتمع؛ لأن المرأة التي يعمد إلى ممارسة الرذيلة معها هي ابنة لهذا المجتمع، كما أنه هو نفسه ابن لهذا المجتمع. وبهذا فإنه حينما يعتدي على هذه المرأة، فإنه يكون قد

(١) الخرائج والجرائح ٢: ٩٢٠، عوالي اللآلي ١: ٢٥٩ ٣٤، مستدرک وسائل الشيعة ١٤:

١٥٣ / ١٦٣٤٦، المصنف (الصنعاني) ٦: ١٧٣ / ١٠٣٩١، معرفة السنن والآثار ٥: ٢١٩ -

٢٢٠ / ٤٠٥٠، كنز العمال ١٦: ٢٧٦ / ٤٤٤٤٢.

(٢) النور: ٣٢.

اعتدى على المجتمع مرتين: مرة لأن المرأة ابنة المجتمع، وأخرى لأنه ابن لهذا المجتمع أيضاً وقد عمد إلى إفساده.

وهكذا فإننا نجد أن هذا الذي يمتنع أو يبتعد عن الزواج وهو لا يملك قابلية على حفظ نفسه، وفي المقابل يمتلك مقومات الوصول إلى الزواج، فإنه إنما يعرض المجتمع إلى الانهيار. وهذا يعني أنه يتحمل إثم المجتمع؛ سواء من حيث إفساده، أو من حيث اعتدائه عليه. وهذه هي إحدى الحكم التي من أجلها حرّم الله تبارك وتعالى هذا السلوك، وشدّد في التنكير عليه.

ومن هذا نخلص إلى أن الأصل في الزواج هو الاستحباب، حتى يطرأ عليه طارئ، أو يعرض عليه عارض؛ فإنه حينئذٍ يتحول إلى زواج واجب. مع أن النزعة إلى الزواج هي نزعة عميقة في نفس الإنسان؛ ولهذا فإن الأديان السماوية جاءت لتهدّب هذه النزعة، ولتضع لها قوانين ونظماً؛ كي تسير بها في المجرى الصحيح، ولتكبح تلك الرغبة الجامحة فيها من غير أن تؤدي إلى إفساد المجتمع وإلى تدميره، وبخلافه - ولوج طريق الحرام - فإن الأمر سوف ينتهي إلى الانحراف والرديلة، وسقوط المجتمع.

المبحث الثاني: معالجات الإسلام لمعوقات الزواج

وقد جاء الإسلام بعد ذلك ليزيل كلّ تلك الحواجز التي تقف في طريق الإنسان دون الزواج، أو التي تحول دونه، وقد عمد الإسلام إلى أن يدفع الإنسان نحو تحقيق هذا الهدف؛ لأنه هدف نبيل يُبتغى من ورائه

إدامة هذا النوع واستمراريته^(١). وقد استعمل الإسلام طرقاً عديدة للقضاء على المعوقات التي تحول دون ولوج الإنسان طريق الزواج، ومنها:

العقبة الأولى: القضاء على الشعور العرقي (الشعور بالذات)

إننا حينما نتلمّس تاريخنا فإننا نجد أن هناك ميراثاً اجتماعياً ثقيلاً كان ولا زال يحكم بعض أبناء هذا المجتمع، وهي تتمثل بالنزعة إلى التفاخر على الآخرين، والترفع عنهم، والرغبة عن الاختلاط معهم^(٢). ونحن حينما ننظر في تاريخ قبيلة تميم نجد فيها من يقول معبراً عن لسان حالها: إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غضاباً^(٣)

(١) كما أن في الزواج أيضاً أموراً أخرى، منها إعلاء كلمة «لا إله إلا الله»، كما نصّ الرسول ﷺ، وقد مرّ قبل قليل، ومنها توفير الكادر العسكري للدفاع عن الإسلام، كما مرّ ذكره في إحدى المحاضرات التي طبعت ضمن هذا الكتاب.

(٢) كما يروى عن جبلة بن الأيهم، فبعد أن أسلم جاء يريد الحجّ، وأثناء الطواف وطئ رجل من فزارة على إزاره فأنحلّ الإزار، فالتفت إليه جبلة وقال له: يا بن اللخناء، أتطأ على رداي؟ ثم ضربه بكفه على وجهه ضربة هشم بها أنفه، فأقبل الفزاري إلى عمر بن الخطاب - وكان يومئذٍ معهم في الحجّ - ودمه يسيل من أنفه، فأخبره بقصّته مع جبلة، فبعث عمر إلى جبلة فأحضره، ثم قال له: أرضي الرجل في حقّه وإلا أقدته منك. فاستكثر جبلة هذا وقال: أو تفعل هذا؟ قال: نعم والله أفعله. قال جبلة: إنه رجل من السوق وأنا ملك ابن ملك، والله لقد ظننت أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهليّة. فقال له عمر: إن لم ترضه أمرته أن يهشم أنفك كما هشمت أنفه قصاصاً؛ فإن الإسلام جمعك وإياه.

فلما رأى جبلة أن عمر يأبى إلا القصاص قال: نعم، غير أنني ناظر في أمري ليلتي هذه. فقال عمر: ذلك إليك. فأنصرف جبلة يومه ذلك مفكراً، حتى إذا نامت العيون خرج في قومه الذين قدموا معه إلى بلاد الروم، ثم أقبل قاصداً إلى القسطنطينية، ودخل على هرقل ملكهم، فتنصّر هو وجميع من كان معه، وفرح به هرقل ورأى أنه فتح فتحاً عظيماً. الفتوح ١: ٢٣٢ - ٢٣٤، خزنة الأدب ٤: ٣٦٢ - ٣٦٤.

(٣) البيت لجرير، وهو من قصيدة يهجو بها الراعي النميري. ديوان جرير: ٦٢، وانظر: إعجاز

وحينما نأتي إلى الخزرج نجد أن شاعرهم يقول:

لنا الجففات الغرّ يلمعن بالضحي وأسيفنا يقطن من نجدة دما^(١)

وبالذهاب إلى القبائل الأخرى نجد أنها لا تخرج عن هذا الإطار، ولا تنحرف عن هذا اللون من التفكير وعن هذا المسار. وهنا بناءً على هذا التفاخر بالأموال والأولاد وبالنفس فإنه تبدأ سلسلة حينئذٍ من التساؤلات لا حدود لها حول هذا الذي يتقدّم للزواج إلى إحدى بنات هذه القبائل، فيثار تساؤل مثلاً هو: هل إن هذا الشخص مناسب أم إنه غير مناسب؟ وهل يناسبنا نحن أن نتزوج من القبيلة الفلانية أم لا؟

إذن فهذه عقبة من العقبات الكأداء التي تقف في طريق الزواج، وهي العقبة العرقية، بل هي من ألّعن العقبات التي تعترض هذا المشروع على امتداد تاريخ البشرية. وقد سعى القرآن الكريم جاهداً إلى تذليلها وإذابتها، وإلى مخاطبة معتنقيها بتركها؛ لأنه ليس هناك من شخص قد جاء من ماء من ذهب و آخر جاء من ماء من خزف، بل إن الناس كلّهم على حدّ سواء: «كلّكم لأدم وأدم من تراب»^(٢).

وبهذا فإن على هؤلاء أن يتركوا هذا النمط من التفكير، وهذه العقلية المتخلّفة، وهي عقلية أنهم أفضل من غيرهم، أو أنهم من قبيلة هي أشرف من القبائل الأخرى أو أنهم من معدن غير المعدن الذي خلق منه الآخرون.

القرآن: ٢٣٥، تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ١٩٢.

(١) ديوان حسان: ٦٩.

(٢) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدر المنثور ٦: ٩٨.

تزويج العلوية من غير العلوي

ومن هذا ما أثير في زماننا الحالي حول الارتباط بين العلوية وغير العلوي، فالبعض يذهب إلى أن الرجل عندما يتزوج من هي أدنى منه شرفاً فإن هذا ليس فيه عيب، كما لو أن علويًا يتزوج من غير العلوية، لكن أن تتزوج المرأة من هو أدنى منها شرفاً فهذا غير جائز عندهم كما لو أن علويةً أرادت أن تتزوج من غير العلوي. فهؤلاء بهذا التقدير لا يتحقق عندهم معنى الكفاءة.

وقد حارب الفقهاء هذا التطرف في التفكير، وصرحوا بأنه يصطدم اصطداماً مباشراً بالنص؛ فليس في الإسلام من علوية وغير علوية، أو علوي وغير علوي، بل إنهم جميعاً من وجهة نظر الإسلام على حد سواء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١).

وعليه فسواء كانت المرأة علوية أو غير علوية فإن الإنسان هو نداء للإنسان ما دام على ديانة واحدة.

وهذا المبدأ قد أعلنه الإسلام منذ نزوله، وإذا كانت الحضارات الأخرى تخالف الإسلام في هذا المبدأ، فإن هذا يعدّ شرفاً للإسلام، وسبقاً له في تحقيق الأخوة الإنسانية، والمساواة، والعدالة بين أبناء الإنسان.

(١) الحجرات: ١٣، وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، إن العربية ليست بأب والد، وإنما هي لسان ناطق، فمن تكلم به فهو عربي، ألا إنكم ولد آدم، وآدم من تراب. والله لعبيد حبشي أطاع الله خير من سيد قرشي عاصي لله، و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾...». تفسير القمي ٢: ٩٤، بحار الأنوار ٧: ٢٣٩.

إن الحضارات الأخرى غارقة في بحر العرقية والطائفية إلى أنوفها، وليس من أحد إلا ويسمع عن المذابح العرقية التي تمارس ضد السود مثلاً، أو التي تمارس ضد المسلمين في بعض البلاد^(١)، ومع كل هذا نجد أن الدول الكبرى تقف موقف المتفرج من ذلك دون أن تحرك ساكناً؛ لأنها لا تريد أن تجرح عواطف أصدقائها كما هو الحال مع الأقلية البيضاء في جنوب أفريقيا، فتسكت عن تلك المذابح والمجازر، وسيل الإهانات الذي يتعرض له المسلمون على أيدي جلاذيتهم، والسود على أيدي الأقلية البيضاء هناك، وليس من جريمة لأولئك سوى أنهم خلقوا سوداً، أو أنهم مسلمون.

إذن أين العامل الإنساني الذي يجب أن يتحكّم في تصرفاتنا وعواطفنا، فضلاً عن العامل الديني؟ وأين الجمعيات الإنسانية التي تدّعي أنها تحافظ على حقوق الإنسان؟ إن جمعيات الرفق بالحيوان تحارب من أجل حيوان يضرب أو يقتل، وطالما تباكت من أجل حيوان

(١) في حين أن الإسلام يعلن على لسان صاحبه الكريم رسول الله ﷺ يوصي بهم خيراً حتى في أحلك الساعات، وهي الحرب؛ فقد كان ﷺ يوصي قائد كل سرية ببعثها بقوله: «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله، لا تقتلوا القوم حتى تحتجوا عليهم بأن تدعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جئت به من عند الله، فإن أجابوكم فأخوانكم في الدين. ثم ادعوهم حينئذ إلى النقلة من دارهم إلى دار المهاجرين؛ فإن فعلوا، وإلا فأخبروهم أنهم كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المسلمين، وليس لهم في الفياء ولا في الغنيمة نصيب، فإن أبوا من الإسلام فادعوهم إلى إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون، فإن أجابوا إلى ذلك فاقبلوا منهم وكفوا عنهم، وإن أبوا فاستعينوا بالله عليهم وقتلوهم، ولا تقتلوا وليداً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تمثّلوا ولا تغلّوا ولا تغدروا». دعائم الإسلام ١: ٣٦٩، منتهى المطلب ٢: ٩١١ (حجري)، السنن الكبرى (البيهقي) ٩: ٩٠ - ٩١.

أُرسل إلى القمر، فألا يخجلون من أنفسهم ومن هذا الدجل الذي هم فيه؛ حيث إنهم يرون الآلاف من بني الإنسان يقتلون ويذبحون كل يوم وهم لا يحركون ساكناً مع أنهم يتباكون من أجل حيوان؟ إنهم يبكون على الكلاب ولا يقدرّون الإنسان، وهذا لا يعني إلا شيئاً واحداً هو أن الحيوان في نظرهم أفضل من الإنسان الأسود الذي ليس له من ذنب سوى أن الله خلقه بهذا اللون.

وهكذا نجد أن شعوباً تباد بأسرها، وأن أقواماً يُقضى عليها عن بكرة أبيها بسبب العرق وما إلى ذلك دون أن تحرك هذه الجمعيات ساكناً. والواقع أن الإسلام حينما أعلن عن مبدأ المساواة بين الإنسانية فإنه قد طبقها قولاً وفعلاً، أما حالات الشذوذ التي حدثت في تاريخ الإسلام، فهي موجودة فعلاً لكنها لا يقاس عليها، ولا تمثل رأي الإسلام، وإنما تمثل رأي أصحابها الذين ارتكبوها. وهم بهذا يبتعدون عن الإسلام الحنيف، وعن روحه وعن جوهره، بل حتى عن اعتناقه؛ لأنهم بهذا يخالفون نظمه الصريحة، وقوانينه الواضحة، وتشريعاته المشرفة المشرفة التي تحرّم الاعتداء على الآخرين بأي شكل من الأشكال، ويقتلون النفس التي حرّم الله تعالى، ويعتدون على بني الإنسان. وهذا محرم، وربما يخرجهم من رتبة الإسلام، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

فليس في الإسلام أو معه عنصرية أبداً، بل إنه يرى الناس كلهم لآدم وآدم من تراب، كما هو صريح الحديث النبوي الشريف الذي مرّ قبل

(١) الأنعام: ١٥١، وقال عزّ من قائل: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ النساء: ٩٣.

قليل. ومن هذا المنطلق ذكرت أن من يذهب إلى انعدام الكفاءة بين العلوي وغير العلوي في مسألة الزواج يصطدم بأكثر من دليل؛ لأن الإنسان نَدُّ للإنسان، وهذا الأمر لا يقدر بالكفاءة.

وهذا أول جانب هدمه الإسلام ممّا يحول دون ولوج طريق الزواج، وكما ذكرنا في محاضرات سابقة فإن الرسول الأكرم ﷺ قد أمر أسرة من أضخم الأسر بالمدينة من الأنصار من حيث الشرف والخلفية الحضارية، والمال والتجارة، وصراحة النسب وعدم اللبس والغموض فيه أن تزوّج إحدى بناتها من جووير، وهو أحد الموالى الذين كانوا يعيشون في مسجد رسول الله ﷺ. تلك هي قبيلة بني بياضة التي كانت تعدّ من أكبر الأسر وأشرفها وأعرقها آنذاك. وهؤلاء حينما جاءهم أمر رسول الله ﷺ هذا قالوا: أنزوّج بناتنا لموالينا؟ ولمّا تردّد جووير في أمر رسولنا الأكرم ﷺ إياه بالزواج؛ لفقره ونسبه ووضع الاجتماعى كمولى، قال له الرسول الأكرم ﷺ: «يا جووير، إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفاً، وشرف بالإسلام من كان في الجاهلية وضيعاً، وأعزّ بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلاً».

وفعلًا نزلوا عند رغبة الرسول الأكرم ﷺ وزوجوه (١).

وهناك حوادث أخرى زوّج فيها الرسول ﷺ بنات عائلات كبيرة معروفة ومشهورة من مساكين أو من موالٍ؛ ليكسر بذلك هذه العادة، بل إنه ﷺ نفسه قد زوج ابنة عمته من زيد بن حارثة. ولو رجعنا إلى زيجات الرسول ﷺ نفسها وإلى زيجات الأئمة (عليهم أفضل الصلاة والسلام)

(١) الكافي ٥: ٢٤١ / ١، بحار الأنوار ٢٢: ١١٨.

لوجدنا أن بعضها كانت من الإماء، بل إن الأغلب منها كان كذلك^(١). وكل هذه خطوات عملية لتذليل هذه العقبة التي وضعها المجتمع الجاهلي في طريق الزواج؛ لأن الشعور بالعرقية له نتائج السلبية التي سوف تظهر فيما بعد على كل ما يتعلّق بالمجتمع حوله، والتي سوف تخلق عقبة في طريق بناء المجتمع، وسوف تؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباه على امتداد الخط.

وبهذا فإن الرسول الأكرم ﷺ يريد أن يجعل من الإنسان كائناً يشعر بأنه أخو الإنسان، لا فرق بينه وبينه إلا بما فضّل الله وهو التقوى. وفي هذا المجال نقرأ رواية شريفة تنصّ على ضرورة عدم احتقار أي إنسان من أي طبقة كان، فعن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إن الله تعالى خبأ ثلاثة في خبأ رضاه في طاعته، فلا تحقرن من الطاعة شيئاً؛ فلعلّ رضاه فيه. وخبأ سخطه في معصيته، فلا تحقرن من المعصية شيئاً؛ فلعلّ سخطه فيه. وخبأ أولياءه في خلقه، فلا تحقرن أحداً، فلعله الولي»^(٢).

وقد ورد في هذا الحديث الشريف ثلاثة أمور هي:

(١) وهو ما احتجّ به الإمام السجاد عليه السلام في حديثه مع عبد الملك بن مروان، حيث إنه عليه السلام كان قد تزوج سرّية، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه في ذلك كتاباً: إنك صرت بعل الإماء. فكتب عليه السلام إليه: «إن الله رفع بالإسلام الخسيسية، وأنتم به الناقصة، فأكرم به من اللؤم فلا لؤم على مسلم، إنما اللؤم لؤم الجاهلية. إن رسول الله ﷺ أنكح عبده ونكح أمته». فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال لمن عنده: خبروني عن رجل إذا أتى ما يرضع الناس لم يزد إلا شرفاً؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين. قال: لا والله ما هو ذاك. قالوا: ما نعرف إلا أمير المؤمنين. فقال: فلا والله، ما هو بأمر المؤمنين، ولكنه علي بن الحسين. الكافي ٥: ٣٤٥ - ٣٤٦ / ٦.

(٢) الدرّة الباهرة من الأصداف الطاهرة: ٥ / ١، بحار الأنوار ٧٥: ١٨٨ / ٣٤.

الأول: خبأ «رضاه في طاعته»

ذلك أن البعض ربّما يتساءل عن الأثر المترتب على رفع مسمار مثلاً عن طريق المسلمين، وزمّ الأذى عنهم، ظاناً أن هذا العمل صغير ليس ذا قيمة، ولا أثر له، ولا يمكن أن يكون ذا أثر عند الله جلّ وعلا. وهذا تفكير سطحي ساذج وغير صحيح؛ لأن الإنسان لا يعلم أن رضوان الله جلّ وعلا ربّما يكون مخبئاً في ذلك العمل الذي استصغره^(١).

الثاني: خبأ «سخطه في معصيته»

وكذلك الحال مع المعاصي، حيث إن الإنسان ربّما يظنّ أن هذه المعصية أو هذا التناول على حدود الله تبارك وتعالى هي معصية صغيرة لا يمكن لها أن تدخله النار أو تحرمه الجنة، مع أن واقع الحال يفرض على الإنسان أن يعتقد بأن الله جلّ وعلا ربّما يكون قد خبئاً سخطه في هذه المعصية المحترقة، وأنه سوف يعاقب عليها بنار جهنم^(٢). إننا يجب أن نعلم أن مقاييسنا لم نضعها على وفق مقاييس الله جلّ وعلا؛ وعليه فما نظنّه ليس بمعصية ذات أهمية عند الله جلّ وعلا ربّما كانت معصية كبيرة يحاسب الله عليها، ويعاقب بأشدّ أنواع العقوبات. وعليه فإن على الإنسان ألا يركن إلى هذا النوع من التفكير السطحي،

(١) قال الشاعر:

كلّ الحوادث مبيداها من النظرِ ومعظم النار من مستصغر الشررِ

إعانة الطالبين ٣: ٣٠٠، تفسير الآلوسي ١٨: ١٣٩.

(٢) ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا في بطن وادٍ فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم. وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه». انظر: مسند أحمد ٥: ٣٣١، المصنّف (عبد الرزاق) ١١: ١٨٣ - ١٨٤ / ٢٠٢٧٧، المعجم الأوسط ٧: ٢١٩ - ٢٢٠.

ويتهاون في بعض المعاصي بانياً هذا التهاون على أنها معاصٍ بسيطة، ولا أثر لها في حياة الإنسان أو على سلوكه في الدنيا، أو في تحديد نمط جزائه وعقابه وحسابه، أو في تحديد فئته التي سيكون عليها يوم القيامة. وبهذا فإنها تعتبر معصية عظيمة عند الله تبارك وتعالى، مع أن الإنسان ينظر إليها على أنها معصية يسيرة. ومن هذا أن البعض يعرض أخاه المؤمن إلى الإهانة، أو أنه يعتدي على كرامة إنسان غيره، أو ربما يقوم بعمل فيه ضرر وأذى ولو جزئي، ظاناً أنه عمل هين، ولا يدخل في نطاق إثارة سخط الله عليه، وهو في واقع الأمر داخل في تلك الدائرة.

الثالث: خبأ «أولياءه في خلقه»

ومن هذا فإن البعض قد يحتقر فئة معينة من الناس احتقاراً مبتنياً على التفاوت العرقي أو الطبقي، أو من حيث الغنى والثروة والفقير، أو لاعتبارات اجتماعية أخرى وضعها الإنسان نفسه، ولم يضعها الله جلّ وعلا. وهكذا فإننا نجد أن الإسلام قد أزال هذه العقبة. وهذه هي الجنبه ذات العلاقة بموضوعنا الذي نحن بصدد الحديث عنه.

العقبة الثانية: حرية الاختيار

إن البعض من الآباء يعمد إلى وضع عقبة جديدة في طريق هذا المشروع، وهي عقبة الاختيار؛ حيث إنهم لا يعطون المرأة حقّ اختيار الزوج بناءً على موافقتها، بل إنهم يجبرونها على الزواج ممن يريدون. وهذه مسألة مهمّة جداً، وولاية الأب الممنوحة له هي عامل أدبي وليس عامل تحكّم. إن البعض من الآباء يتحكّمون بالمرأة، ويسلبونها حرية الاختيار، وكأنها أمة أو جارية مملوكة، فيحولونها بذلك إلى متاع يباع

ويشترى . وهؤلاء الآباء كأنهم هم الذين يريدون أن يتزوّجوا، لا بناتهم أو حتى أخواتهم كما عند البعض ، فيحقّقوا عامل رضاهم هم عن الزوج ، دون عامل رضاها هي بما أنها صاحبة الشأن .

ونحن لا نريد أن ننكر دور الأب في هذه المسألة أو نحجّمه نهائياً ، بل إننا لا بدّ أن نقر أن بعض الآباء إنما يتدخّلون في هذه المسألة بناءً على تفكيرهم الناضج ، وتحكيمهم العقل فيها . فبعض الآباء الذين يتّصفون بالنضج والعقل ينظرون إلى ما هو أبعد من الزمان الذي هم فيه ، أو من الحالة التي هم عليها ، فيقولون بأننا لا نريد أن نضع بناتنا في مكان قد يسبّب لهن الأذى . وهذا الأمر طبعاً داخل في نطاق الشريعة الإسلامية التي تنهى عن تزويج البنت من شارب الخمر مثلاً أو من إنسان غير ملتزم ؛ لأنه سوف يمنعها عن ممارسة عباداتها وطقوسها الدينية ، أو سوف يؤثّر عليها فيجرّفها في تياره بعيداً عن الدين والالتزام^(١) .

وهنا فإننا نجد أن منع الأب إن كان من هذه الناحية ، فهو أمر محمود ولا بأس به ، لكن هناك آباء كما نعرف جميعاً ليسوا من هذا النوع أو هذا النمط من التفكير والتخطيط ، ومثل هؤلاء يتقدّم إليهم الشاب الذي تتوفر فيه مقومات الزواج الشرعيّة كافّة ، بالإضافة إلى نضجه والتزامه ، لكنه يرفضه ويردّه ، ولا يعطيه غايته ؛ لأمر بسيط كأن يكون فقيراً مثلاً ، أو ابن عائلة من مستوى أدنى من مستوى عائلته .

الوَأد قسمان

وبهذا يتّضح لنا أن وأد البنات قد بدأ يتّخذ منحى آخر غير ذلك

(١) ففي الحديث الشريف : « من زوّج ابنته شارب الخمر فكأنما قادهها إلى الزنا ، ومن زوّج ابنته مخالفاً له على دينه فقد قطع رحمها » . الفقيه ٤ : ٥٨ / ٥٠٩١ .

المنحى الذي درج عليه العرب آنذاك، ومن هنا فإننا نرى أن الواد قد أصبح مفهوماً يقع على معنيين:

الأول: الواد في التراب

فقد قرأنا في التاريخ وسير العرب أن كندة وربيعة وتميماً كانوا يثدون البنات؛ لأنهم يقولون: إن البنت ربما تسبى فيصيبها الذل، أو ربما يتقدم إليها شخص لا يناسبها طالباً يدها إلى الزواج. ولذا فإنهم عمدوا إلى وأدها؛ كي يتخلصوا من ذلك العار الذي يروونه فيها، وهو أمر قد تسالموا عليه جميعاً. وبذا فقد تعرضت هذه القبائل الثلاث وغيرها ممن ينتهج عملية الواد إلى كبير نقد، وإلى كثير تشنيع بسبب هذه السيرة السيئة التي اختطوها^(١).

الثاني: إيصال الفتاة إلى العنوسة

ففي وقتنا هذا أصبح الآباء يثدون بناتهم، لكنه ليس وأداً خارج الحياة

(١) كان قيس بن عاصم يحدث رسول الله ﷺ فقال له: كنت أخاف سوء الأحدوث والفضيحة في البنات، فما ولدت لي بنت قط إلا وأدتها، وما رحمت منهنّ موءودة قط إلا بنية لي ولدتها أمها وأنا في سفر، فدفعتها إلى أخوالها، فكانت فيهم، وقدمت فسألت عن الحمل فأخبرتني المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً. ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت فزارت أمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها، وجعلت في قرونها شيئاً من خلوق، ونظمت عليها ودعاً، وألبستها قلادة جزع، وجعلت في عنقها مخنقة بلح، فقلت: من هذه الصبية، فقد أعجبني جمالها وكيسها؟ فبكت ثم قالت: هذه ابنتك كنت خبرتك أنني ولدت ولداً ميتاً، وجعلتها عند أخوالها حتى بلغت هذا المبلغ. فأمسكت عنها حتى انشغلت عنها، ثم أخرجتها يوماً فحفرت لها حفيرة، فجعلتها فيها، وهي تقول: يا أبت ما تصنع بي؟ وجعلت أقذف عليها التراب وهي تقول: يا أبت أمغطي أنت بالتراب؟ أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني؟ وجعلت أقذف عليها التراب ذلك حتى وارتبها وانقطع صوتها، فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها. فدمعت عينا النبي ﷺ ثم قال: «إن هذه لقسوة، وإن من لا يرحم لا يرحم». الأغاني ١٤: ٧٠ - ٧١.

أو وأدأ تحت التراب، وإنما هو وأد في الحياة؛ وذلك حينما يعمدون إلى أن يندونهن في بيوتهن عن طريق منعهن من الزواج بحجة أن هذا الشخص المتقدم لا يصلح لهن، أو أنه غير كفء لهن؛ لأنه من مرتبة أدنى، أو لأنه فقير الحال أو متوسّطه، وما إلى هناك من أذكار تصبّ في هذا المضمار. ولعل هؤلاء الآباء يتجاهلون أن تأخير الفتاة عن الزواج بعد أن تتجاوز السن المناسبة له، وأن التحكم بإرادتها، بل مسخ إرادتها وكيانها ربما يؤدّي إلى نتائج غير سليمة.

ومن هنا فإننا نقول: إنه يجب على الأب وجوباً شرعياً أن يعطي ابنته حقّ اختيار الزوج، على أن يكون ذلك الحقّ في حدود معينة من تشريعات السماء، وضمن نطاق محدّد منها؛ كيلا تحصل حالة من حالات التعدّي على الحدود الشرعية.

إذن ولاية الأب ولاية أدبية، ونحن عندنا أن البنت البالغة البكر الرشيدة ليس لأحد عليها ولاية، وهذا ما عليه الفقه الإمامي^(١) والفقه الحنفي^(٢).

(١) قال المحقّق: « والثيب تزوّج نفسها، ولا ولاية عليها لأب ولا لغيره. ولو زوّجها من غير إذنها وقف على إجازتها، أما البكر البالغة الرشيدة فأمرها بيدها ». المختصر النافع: ١٧٣. وقال العلامة: « الأب تثبت له الولاية على الصغيرين الحرّين؛ الذكر والأنثى، وعلى المجنون كذلك، ولا يثبت له ولاية على غيرهما؛ فلا ولاية له على الذكر البالغ الرشيد، ولا على البالغة الرشيدة. وقد سبق الخلاف في ثبوت ولايته على البكر البالغة الرشيدة، وبيننا بطلان إثباتها في طرقها ». تذكرة الفقهاء ٢: ٥٨٦ (حجري).

(٢) نقل عن أبي حنيفة قوله: إذا بلغت المرأة الرشيدة فقد زالت ولاية الولي عنها، كما زالت عن مالها، ولا يفتقر نكاحها إلى إذنه، بل لها أن تتزوّج وتقعّد على نفسها. فإذا تزوّجت نظرت؛ فإن وضعت نفسها في كفاء لزم، وليس للولي سبيل إليها، وإن وضعت نفسها في غير كفاء كان للولي أن يفسخ. انظر الوجيز ٢: ٥، المجموع شرح المهذب ١٦: ١٤٩، أحكام القرآن ١: ٤٠١، المبسوط ٥: ١٠، اللباب ٢: ١٨٩، ١٩٣، عمدة القاري ٢٠: ١٢٨، البحر الزخار ٤: ٢٤، الميزان الكبرى ٢: ١٠٩، رحمة الأئمة ٢: ٢٧، سبل السلام ٣: ٩٨٨، ٩٩٢.

أما بقية المذاهب الإسلامية فلهم آراء تختلف عن المذهبين الإمامي والحنفي في هذه المسألة^(١). وعليه فما أريد بيانه هنا هو أن المرأة كيان مستقل، شأنها في ذلك شأن الرجل.

وقد لا نلوم الأب حينما يقول: إن ابنتي ما زالت صبيبة قليلة التجارب في هذه الحياة المعقدة المشارب والمآخذ، مضافاً إلى ذلك كونها - كما هو حال جنس المرأة عام - عاطفية، وربما أدت بها عاطفتها إلى أن تنساق وراء مسار عاطفي، لكن هذا لا يعني أن الأب له الحق في أن يتعدى حدود الله تبارك وتعالى التي وضعها لنا، ويتطاول على تشريعاته، ويتجاوز على حرّيات الآخرين، ولو كان هؤلاء الآخرون أبناءه.

نعم إن الأب ربما لا يلام في مثل هذه الحال كما ذكرنا، وذلك من باب أنه يريد أن يختار لابنته المكان الصحيح أو الفراش المناسب، لكن على أن يكون هذا الأمر مبتنياً على أساس إسلامي أو شرعي؛ فإن كان كذلك، فإن من واجب الأب أن يفعله، كما لو أرادت الفتاة أن تتزوج من شارب خمر مثلاً، كما مرّ بيانه، أما أن يكون الأمر تحكماً بمصير الفتاة لمجرد أن هذا المتقدم لخطبتها غير كفاء للزواج منها وفق مقاييسه، فإن هذا لا يجوز، بل إنه في واقع أمره يعتبر وأدأ بمفهومه الجديد الذي أشرنا إليه. ومن هنا فإنه لا بد أن أشير إلى أن بعض الآباء ربما أوصل الأمر في خصوص هذه المسألة التي نحن بصدد الحديث عنها إلى أن يحقق في

(١) انظر: الأم ٥: ١٩، الوجيز ٢: ٥، السراج الوهاج: ٣٦٤، المجموع شرح المهذب ١٦: ١٤٨ - ١٥٠، المبسوط ٥: ١٠، عمدة القاري ٢٠: ١٢٨، المغني ٧: ٣٣٧، أحكام القرآن ١: ٤٠١، الشرح الكبير ٧: ٣٨٧، رحمة الأمة ٢: ٢٧، الميزان الكبرى ٢: ١٠٩، سيل السلام ٣: ٩٩٢، الجامع لأحكام القرآن ٣: ٧٢.

الجيل الخامس صعوداً للعريس الذي يريد أن يتقدّم لطلب يد ابنته . وهذا النمط من الناس موجود في كل زمان ؛ لأنه نمط يعتمد قاعدة هي أن هذا الذي يتقدّم لخطبة ابنته لا بدّ أن يكون من عائلة معروفة بالثراء أو الجاه وما إلى ذلك . ومن هنا فإننا نلاحظ أن هذا الجانب قد ألغاه الإسلام ، وسعى جاهداً إلى تحقيق ذلك ، وجعل الإرادة بالنسبة للمرأة إرادة كاملة ، وأعطاهها حرية الاختيار المغلّفة بلون من ألوان التوجيه الأدبي للأب أو الجد وفق نظام الولاية الممنوح لهما عليها .

القبيلة وضرورة الزواج من ابن العم

وتبرز لدينا هنا ظاهرة أخرى هي من مظاهر الميراث الاجتماعي الذي وصلنا عبر الزمن ، فقد توارث الناس ظاهرة ضرورة تزويج الفتاة من ابن عمّها ، بل حتمية ذلك ، فابن العم له الحق في أن يمنعها من أن تتزوّج من أي شخص ترتضيه ، ما دام هو يريد لها زوجة له . وهذا أمر غير مقبول ولا معقول ، بل هو خارج نطاق الشريعة ؛ لأن ابن العم ليس له حقّ شرعي أو حتى قانوني عليها ، بل ولا ولاية له عليها . وبهذا فإن هذا الحقّ الذي أعطته إياه القبيلة لا يجوز له أن يستعمله ؛ لأنه يتعارض مع الشريعة الإسلامية ومع قانون السماء .

إن هذه الزيجة يمكن أن تتمّ فيما لو كانت الفتاة نفسها راضية راغبة ، أما أن تكون غير ذلك فلا يدلّ ابن عمّها أو لغير ابن عمّها عليها لإجبارها على الزواج منه ولو كان أباه . ونحن لا ننكر أن هناك عوامل نفسية منشؤها ترعرع الولد والفتاة في بيت واحد كما هو الحال في البيوت التي ترتئي ضرورة أن تكون العائلة في بيت واحد يضمّها .. بيت كبير يحتوي جميع

أفراد العائلة كما هو الشأن الغالب في بيوت الريف، وبهذا فقد تبرز عوامل نفسية تؤدّي إلى النفرة بالطباع لحصول ذلك الاختلاط أو التعايش في بيت واحد، وهو الأمر الذي سوف ينعكس سلباً على حياة الأسرة ممثلة بالزوجين أولاً، ثم بالأبناء ثانياً.

سلبيات الزواج من الأقرباء

وفوق هذا كله فقد ثبت علمياً - بعد أن أثبت الشرع ذلك قبل أربعة عشر قرناً - أن الزواج بهذه الطريقة له مضار كثيرة. يروى أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مرّ في يوم من الأيام، فرأى جماعة من قریش كلهم قصار القامة، فسألهم عن السبب، فأجابوه أنه الزواج من بنات الأعمام. وفي هذا المضممار نذكر حديثاً نبوياً شريفاً يقول: «اغتربوا لا تضووا»^(١). ومعنى «اغتربوا»: تزوّجوا الغرائب دون القرائب، و«لا تضووا»: حتى لا يولد لكم أولاد ضوايا، والضواوي هو النحيف وضئيل الجسم ودقيقه.

وعليه فإن على الإنسان إذا أراد أن يتزوّج أن يبتعد قليلاً عن قريباته؛ كيلا تتلاقح الدماء والخواص الوراثية القريبة؛ ممّا يؤدي إلى تورث الأمراض بنسبة أكبر. إن العلم الحديث قد أثبت أن الزواج من الأقارب غالباً يعطي نتائج سلبية بسبب ارتفاع نسبة احتمال حدوث الأمراض الوراثية.

إذن فالعادات الموروثة التي تفرض على ابن العم أن يتزوّج من ابنة

(١) المجازات النبوية: ٩٢ / ٥٩، القواعد والفوائد ٢: ٣٧٥، المغني ٧: ٤٦٩، الفائق في غريب الحديث والأثر ٢: ٢٩٣ - ضوي.

عمه، أو تفرض على ابنة العمّ أن تتزوج من ابن عمها ليس لها أي علاقة بالدين، ولا بالسماء؛ لأنه تزويج بالإكراه، وما كان عن إكراه فهو باطل؛ لعدم تحصيل رضا أحد الطرفين أو ربما كليهما. وهذا ميراث اجتماعي باطل يجب اجتنابه، ونحن يجب أن نعتزف بأن تقاليدنا ليست جميعها صحيحة؛ ففيها الشيء الصواب، وفيها الشيء المخطوء.

ومن هنا فإننا لا بدّ أن ننوّه إلى أنه ليس عندنا كبشر منهنج صحيح مستقل، أو قانون منظم يدير لنا دفة حياتنا، كما هو الحال في قانون السماء الذي أنزله الله تبارك وتعالى عبر قنواته التي هي الأنبياء ﷺ. فالله تبارك وتعالى قد وضع لنا هذا القانون لنستثمره، ولنعيش على ضوئه في مسيرة حياتنا؛ كي تكون حياة سليمة مستقيمة خالية من الأمراض والأخطاء. وهذا القانون ينصّ على أن الإنسان حرّ في عقيدته، وفي سلوكه، وفي تصرّفاته، وفي تعاقداته كافة على ألا تتجاوز حرّيته حرّيات الآخرين.

مفهوم الحرية في الإسلام

وليعلم بأنه ليس هناك شيء في الوجود أغلى من الحرية في الإسلام، لكن لا بدّ من التنبيه إلى أن هناك فرقاً بين الحرية والفوضى، والإنسان في كثير من الأحيان يسيء إلى مفهوم الحرية حيث ينسب إليه تصرّفات فوضوية كثيرة. فهذه الكلمة الجليلة يجب ألا تُخلط مع مفهوم الفوضى، وذلك كأن يقول قائل: أنا حرّ اشتري ما أريد، وأفعل ما أريد دون أن يكون لأحد الحقّ في منعي عن شيء من ذلك، كأن يشتري سيارة ويعطيها إلى ولد له مراهق غير ناضج، فيرتكب بسببها حوادث عبر السير بسرعات

جنونية في الشوارع المكتظة، أو يعتدي بها على الناس أو على أعراضهم.

وهذه الحال واقعاً ليست بحرية أبداً، وإنما هي الحالة القصوى من الفوضى التي يسيء البعض فهم الحرية عبر ممارستها، أو يسيء إلى الحرية نفسها بممارستها. ومن موارد التصرفات الفوضوية التي تنسب إلى الحرية ما يعطيه البعض لبنتهم من مساحة للتحرك واسعة، فيفسحون لهن مجالاً كبيراً في التصرف دون رقابة أو دون متابعة إلى حدّ يصل به الأمر إلى الانفلات عن القواعد الأخلاقية أو الأدبية، أو الأعراف فضلاً عن القوانين الشرعية أو الدينية. وهذه ليست حرية أبداً، بل إنها تدمير للأخلاق، وفوضى، بل هي غاية في الفوضى.

وعليه فيجب أن تكون هناك مقاييس نعتمدها في حياتنا وفي كل تصرف من تصرفاتنا، وهذه المقاييس لا تكون إلا مقاييس السماء التي ترشدنا إلى المحجّة والطريق الصحيح، وتبعدنا عن الخطأ. وهذه المقاييس ليست شيئاً معوماً، أو شيئاً معلقاً في الفضاء حتى يمكن أن يدعى بأنها لا يمكن الاعتماد عليها أو انتهاجها، وإنما هي دستور مكتوب ومحدّد يبيّن حدود الحرّيات الشخصية، والحقوق والواجبات، وطبيعة قانون الأسرة. وهذا القانون الذي رسمه الإسلام ووضعته قد أبدع في تحديد معالمه، وفي تصويره وفي تخطيطه.

إذن في واقع الأمر لا بدّ من الرجوع إلى ما رسمه الإسلام في تحديد معنى الحرية، وهي أن المرأة لها إرادتها ولها حرّيتها على ألا تتعدى فيها ما رسمه الله تبارك وتعالى لها، وفي المقابل على ألا يتعدى الإشراف الأدبي الذي منحه الإسلام لأبيها عليها حدوده. فبهذا التصرف سوف

تتحول الوصاية إلى حالة من القسر والإكراه على الزواج من شخص معين، أو إلى وأدها وهي حية بين جدران المنزل تعاني العنوسة وما يترتب عليها من آثار سلبية، ومن مضاعفات نفسية خطيرة ربما تؤدّي بهذه المرأة إلى الانجراف في تيار الخطيئة والانحراف، أو إلى حالة من حالات الكبت والمرض النفسي.

إذن فالمرأة لها إرادتها ولها حريتها المضمّخة بالإشراف الأدبي لأبيها عليها، والولد كذلك له إرادته وله حريته في تصرفاته وفي تعاقداته وللأب أيضاً حقّ الإشراف الأدبي عليه. وهذا هو الأمر الطبيعي والمعقول في مسيرة حياة الأسرة المستقرّة، أما أن تتحول الحالة إلى نهج من التحكم في الأولاد، وقسرهم وإكراههم على أن يتزوجوا ممن لا يريدون ولا يرغبون؛ لأن الأب يريد ذلك ويرغب فيه، أو إلى منع الفتاة من الزواج لأن الأب لا يرغب في ذلك الشخص، أو أنه لا يناسبه؛ لأنه من مستوى مالي معين، أو من مستوى اجتماعي معين، يراه منحطاً عن مستواه، فهذه عقبة يضعها الأب في طريق ابنه أو ابنته لولوج هذا المشروع الإلهي المقدس.

ثم إنه ما ذنب المرأة أو الولد إذا لم يولدا في بيت موسر أو غني، أو من طبقة غنية راقية؟ إن الغنى ليس شيئاً يولد مع الإنسان، فالإنسان المكافح إنما هو ذلك الذي يبني نفسه بنفسه. وفي هذا كلّ الفخر؛ لأن الفقير الذي يجاهد الحياة ويكابدها ليكون نفسه، ويكون عائلته، وليرسم حدود بيته لهو إنسان جدير بالاحترام؛ ذلك أنه إنسان عصامي وليس إنساناً

عظامياً^(١).

وعليه فمن بين نفسه مبتدئاً في حياته من الصفر لهو الإنسان العظيم الذي يستحق التقدير والاحترام، وهو الإنسان الجدير بأن يكرم وأن يزوج وإن كان من أصل فقير أو من طبقة أدنى لا أن يردّ طلبه، أما ذلك الخامل الذي يرث الثروة من غير تعب أو كد أو كفاح في الحياة أو نضال فيها فلا يمكن أن نعتبره إنساناً يتفاعل مع الحياة تفاعلاً صحيحاً.

ومن هذا فإننا نرى أن من الخطأ أن نتحكّم بالأبناء بناء على أن المستوى الاجتماعي لبعض دون مستوى الآخر، أو أن المستوى المالي لهم ليس كمستوى الطرف الثاني وهكذا؛ لأن هذا مما لم ينظر إليه الإسلام ولم يقره. وفي حقيقة الأمر فإنه لا الغنى فخر لصاحبه، ولا الفقر عيب له، وليس من إنسان يولد موصوماً بالفقر أو موصوفاً بالغنى. ولذا فالواجب تزويج الإنسان لا على أساس حالته الماليّة، أو وضعه الاجتماعي، وهذا ما تؤكّد عليه الرواية الشريفة الواردة عن الرسول الأكرم ﷺ، حيث تقول: «إذا جاءكم من ترضون دينه فوزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة»^(٢).

إذن فالقاعدة التي ينبغي العمل عليها في مشروع الزواج هي أن

(١) كانت العرب تقول لمن يفخر بأبائه: هو عظامي، ولمن يفخر بنفسه: هو عصامي، وفي هذا

إشارة إلى قول النابغة في عصام بن سهل حاجب النعمان:

نفس عصام سوّدت عصاما وعلمته الكسر والإقداما
وجعلته ملكاً هماما

وقال غيره:

إذا ما الحيّ عاش بعظم ميت فذاك العظم حيّ وهو ميت

انظر: حقائق التأويل: ٨١، شرح نهج البلاغة ٢٠: ١٩٢.

(٢) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ - ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

المسلم كفاء المسلم، لا ينبغي رده أو دفعه بدعوى أنه فقير أو ما إلى ذلك.

الزواج من غير المسلمة

وهنا لابد من الإشارة إلى أمر هو أنه ربما يقع أحد المسلمين في شرك الرغبة في الزواج من امرأة غير مسلمة؛ لأنها تقع من قلبه موقفاً لا يمكن له أن يتخلص منها معه. وفي مثل هذه الحالة ينظر إلى المرأة؛ فإن كانت غير ذات دين، كأن تكون مشركة أو ملحدة فإنه حينئذ لا يجوز للرجل الزواج منها، أما إذا كانت كتابية فالأمر يختلف حينئذ، ولا يجوز لأحد أن يمنع هذا الإنسان من الزواج منها، ولا يجوز له أن يحجر عليه في ذلك. فالإسلام قد أذن للمسلم أن يتزوج امرأة غير مسلمة شريطة أن تكون ذات دين، أي أن تكون كتابية كاليهودية والمسيحية.

والمرأة التي حرّم الإسلام الزواج منها هي الكافرة؛ ولذا فإننا نجد أن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُوفِرِ﴾^(١). والقصد هو الكافر الذي ليس له دين، أما الكتابية فيجوز الزواج منها. وقد كان الفقهاء فيما مضى يفتون بجواز الزواج منها زواجاً منقطعاً، أمّا الفقهاء المعاصرون منهم فإنهم يفتون بجواز حتى الزواج الدائم منها^(٢).

مفهوم الكفاءة والتشيع

ونحن إذ نقول: إن المرأة المسلمة هي كفاء للرجل المسلم، فما الذي نعنيه بالرجل المسلم؟ إننا لا زلنا حتى اليوم نبتلى بشريحة لا تريد أن

(١) الممتحنة: ١٠.

(٢) انظر حول هذا الموضوع، واختلاف آراء الفقهاء حوله فقه الجنس: ٢٤٥ - ٢٥٠.

تفهم الأمور فهماً حقيقياً صحيحاً. وسنرى كيف أن هذا الأفق الضيق الذي حصرت به هذه الشريحة نفسها قد قادها إلى تكفير طائفة كبيرة من المسلمين.

إننا حينما نقرأ آراء فقهية لفقيه عاش قبل ألف سنة أو أكثر أو أقل في مكان ضيق وأفق محدود مملوء بالعصبية، فإن من الممكن أن نجد له مبرراً حينما نرى أنه لا يفهم شيئاً من أفكار الآخرين أو من عقائدهم لصعوبة الوصول إلى المعلومة في ذلك الوقت وإن كان هذا ليس مبرراً لحصول مثل هذا. لكن على أية حال فإن الكتاب في ذلك الوقت كان عزيزاً ومحدوداً جداً، وليس من السهل الوصول إلى المعرفة؛ لأن وسائل المعرفة كانت محدودة، ووسائل انتشارها كانت أكثر محدودية. وبناءً على هذا فإننا إذا قرأنا شيئاً من كتابات ابن عابدين مثلاً، أو لفقيه غيره عاشوا قبل قرون عديدة، ووجدنا فيها آراء أو معلومات مغلوطة فإننا يمكن أن نلتمس لهم العذر إلى حد ما، لكن عندما يعيش شخص في القرن العشرين حيث المكتبات تملأ الدنيا، ووسائل الإعلام يصل صوتها إلى أبعد نقطة في المعمورة، وحيث أصبح العالم قرية صغيرة بل عائلة واحدة بحكم التطور التكنولوجي والتقدم في مجالي المعلوماتية والاتصالات، وانتشار وسائل نشر العلم ووسائل إيصال الأفكار والعلوم إلى كل شخص موجود على هذه المعمورة إن أراد هو ذلك، وفوق هذا فإن هذا الشخص يحمل شهادة عليا ومع ذلك نجده يقول: إن المسلم كفاء المسلم، والمسلم لا يجوز له أن يتزوج من غير المسلمة، ثم يعمد إلى أن يعدد مجموعة من الفرق هي في نظره كافرة لا يجوز تزويج أبنائها، أو الزواج منها، ويعد من ضمنها فرقة الشيعة، فهذا ما لا يمكن قبوله

بحال من الأحوال ، ولا يمكن معه التماس أي عذر أو مبرّر لقائله الذي يقول : إن الشيعة فرقة كافرة لسببين ، هما .

الأول: قولهم بغرية (خان الأمين)

فهو يعلّل كفر الشيعة وأنهم لا يجوز الزواج منهم ولا تزويجهم بأنهم يقولون بأن الله تبارك وتعالى قد أمر جبرائيل عليه السلام بأن ينزل بدين الإسلام وبالقرآن الكريم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، ولكنه لم يفعل ، بل إنه أعطاهما لنبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثاني: مخالفتهم القرآن الكريم

ثم إن الشيعة من وجهة نظره يخالفون صريح القرآن الكريم ؛ لأنهم يرمون عائشة بارتكاب المحذور والعياذ بالله .

ومثل هذا من أين يمكن أن يلتمس له العذر ، كما التمس لابن عابدين ومن سبقه أو عاصره أو جاء بعده من فقهاء القرون الماضية؟ ألم يكن بإمكانه أن يكلف نفسه لبحث في كتب الشيعة عن مثل هذه التشنيعات التي رماهم بها؟ ولكننا لا نعتب على هذا الإنسان ؛ لأنه لا يحترم نفسه ، ولو كان يحترم نفسه لعمد إلى انتهاج طريقة البحث العلمي والمنهجية العلميّة في اتّهاماته للآخرين قبل أن يكيلها لهم ، ولعمد إلى استقصاء ذلك في كتبهم قبل أن يرميهم بمثل هذه الافتراءات . ولكنه لمّا لم يحترم نفسه لم نجد للعتب عليه مكاناً عندنا ، لكننا نعتب على ذلك الأستاذ الذي ناقشه ومنحه شهادة الدكتوراه ؛ لأن هذا الأخير لم يكلف نفسه كذلك في أن يسأله عن مصادره التي جاء منها بهذا الرأي الذي اتّهم به ما يربو على مئتي مليون نسمة .

جواب الإشكال الأول

كما أننا نطالب هذا الأستاذ بأن يأتينا بكتاب يروي فيه أحد الشيعة أن جبرائيل عليه السلام قد مال بالرسالة إلى النبي الأكرم ﷺ، ولن يجد. إن على هذا الشخص الذي يحمل لقباً طويلاً عريضاً في العلم أن يخجل من نفسه على لقبه هذا. وأنا أقصد به أمير عبد العزيز رئيس قسم الشريعة الإسلامية في جامعة الفلاح في نابلس، وهو خريج إحدى الجامعات الأردنية، وله كتاب اسمه (الأنكحة الفاسدة المنهي عنها في الشرع)، والثاني عبد الرحمن الزبيري صاحب كتاب (الفقه على المذاهب الأربعة).

إن مما يثير العجب والاستغراب أن ينسب هذا البلاء إلى أمة مسلمة، مع أنه كفر، ولسنا ندري من أين جاء به. إن عندنا أن علي بن أبي طالب عليه السلام يفتخر بكونه عبداً لرسول الله ﷺ^(١). ثم إن هناك الآلاف من المساجد والحسينيات عند الشيعة تنادي كل يوم ثلاث مرّات: «أشهد أن محمداً رسول الله»، فألا يكفي هذا في إثبات أن الشيعة يؤمنون بنبوة محمد ﷺ، وأنه رسول الله دون غيره؟ والله إن هذا لهو البلاء الحقيقي، ومنشأ البلاء هذا هو أن أبناء تلك الطائفة التي ينتسب إليها هذا الدكتور حينما يقرؤون في كتابه هذا ما ينقله من معلومات كهذه عن الشيعة، فإنهم سيأخذونها أخذ المسلمات، وسيصدقونها؛ لأنهم يستبعدون أن مثل هذا الدكتور

(١) وكتب السنة والشيعة تروي أنه عليه السلام خاصف نعل رسول الله ﷺ، فلو كان هو صاحب النبوة لما رضي لنفسه أن يخصف نعل النبي الكريم ﷺ، بل ولحمل حقداً عليه؛ لأخذه النبوة منه، كما بيّنه المحاضر فيما سبق من محاضرات عندما تناول هذا الموضوع. وقد مرّ ذكر مصادر هذا الحديث في ج ١٠ / محاضرة: (الخلافة في الأرض) من كتابنا هذا.

يقول كذباً، أو يفترى على غيره من الناس؛ فهو رئيس قسم الشريعة، ويحمل شهادة عليا، فليس من المعقول أن ينقل معلومة غير صحيحة. ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون^(١). وكما ذكرت سابقاً فنحن لا نعتب على هذا، بل إننا نعتب على ذلك الذي ناقشه في رسالته تلك، ومنحه هذه الشهادة العليا دون أن يسأله عن المصدر الذي استقى منه هذه المعلومات، وهل إنه من كتب الشيعة أنفسهم، أم من غير كتبهم. إن هذا التصرف بعينه هو تصرف بعيد عن روح العلم وعن انتهاج الطريقة العلمية الصحيحة المبتنية على إقامة الدليل، وعلى أسلوب البحث العلمي الأصيل القائم على البرهان. إن هذا الدكتور وذلك الذي ناقشه ومنحه هذه الشهادة كأنهما لم يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾^(٢). مع أن الواجب عليهما أن يتقيا الله تبارك وتعالى في وحدة المسلمين، وأن يتقياه في الفكر الإسلامي، وفي مراعاة عدم تكفير المسلمين وعدم تفريق شملهم وتمزيق اجتماعهم. فوالله إن هذا الشيء ليبيكي ويؤلم.

جواب الإشكال الثاني

كما أن المفروض بهذا الأستاذ أن يسأله عن مصدر هذا الكلام - قضية الإفك - من كتب الشيعة أنفسهم، ولو أنه سأله لما استطاع أن يجيب؛ لأنه

(١) قال الشاعر:

وما من كاتبٍ إلا ستبقى
كتابته وإن فنيته يده
فلا تكتب بكفك غير شيء
يسرُّك في القيامة أن تراه

تأويل مختلف الحديث ١ : ٥٩، كتاب الغرابة : ١٦.

(٢) الإسراء : ٣٦.

لم يكلف نفسه لبحث، ولو أنه بحث لما كان ليجد من مثل هذه الفرى في كتب الشيعة ومدوناتهم شيئاً؛ فهذه مدوناتهم مبنوثة في كل مكتبات العالم^(١)، ويستطيع أي إنسان أن يمدّ يده ويأخذ منها ما يريد، ليتأكد من صحّة ما نقول نحن أو ما يقول هذا المفتري. ولو أن هذا المفتري مدّ يده إلى كتب الحديث أو كتب التفاسير عندنا لوجد أنها حينما تمرّ بأُمّ المؤمنين عائشة وتتناول قضية الإفك فإنها تدافع عنها دفاع المستميت، وتقرر أن من المستحيل أن يعرض الله تبارك وتعالى عرض نبيه ﷺ إلى أن يلوّث (معاذ الله من ذلك).

إذن فلا يوجد مسلم يقول بهذا، وقطعاً إن من يقلّ^(٢) بهذا فهو معاند للقرآن الكريم، وبالنتيجة فهو كافر. وعليه فإن على هذا الأستاذ أن يجيئنا بكتاب واحد ولو لمخرّف من كتبنا يقول صاحبه بهذا القول، وينسبه لأُمّ المؤمنين عائشة^(٣).

(١) بل وحتى على الشبكة العنكبوتية في عصرنا الحالي .

(٢) أي يعتقد به .

(٣) وقد مر كيف أن كتب الشيعة تنزّه عائشة عن هذا، انظر: التبيان ٧: ٤٠٨، فقه القرآن ٢: ٣٨٨، مجمع البيان ٤: ١٥١، الكاشف ٥: ٤٠٩، الميزان ١٥: ٩٦، بحار الأنوار ٢٠: ٣١٥، وإن كان ذكر بعد ذلك أن الأقرب أنها في مارية القبطية زوجة رسولنا الأكرم ﷺ. وقد ذكرنا فيما مضى من هذا الكتاب أنه حتى من يرى من علمائنا أن آية الإفك - وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ النور: ٢٢ - ليست في عائشة خاصة، وأنها في نساء رسولنا الأكرم ﷺ عامّة، فإنهم يُدخلون عائشة ضمن المجموع. ثم نقلنا قول الشيخ الطوسي، وهو: «قال سعيد بن جبیر: هذه الآية نزلت في عائشة. وقال الضحاک في نساء المؤمنین. وهو الأولى؛ لأنه أعمّ فائدة وإن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة، فلا تقصر الآية على سببها». التبيان ٧: ٤٠٨. ثم ذكرنا أنه يلاحظ على هذا الكلام أمران، هما: الأول قوله: «وهو الأولى؛ لأنه أعمّ فائدة». وهذا معناه تنزيهه لكل نساء النبي الأكرم ﷺ.

تزويج النواصب والزواج منهم

إن عندنا طائفةً من العلماء تقول بعدم جواز تزويج الناصب من الشيعة؛ لأن الناصبي معاند للقرآن. والناصري هو الذي يكره آل محمد ﷺ، وكره آل محمد ﷺ مقابلة للقرآن ومعاندة لصريحه؛ ذلك أننا نقرأ في القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(١). ولهذا فإن هذه الطائفة من العلماء لا تجوز تزويج الناصبي، أما إذا كان طالب يد الفتاة غير ناصبي، فإنهم لا يفتنون بحرمة تزويجه أبداً، بل إنهم يزوّجونهم وإن كان من أبناء المذاهب الإسلامية الأخرى؛ لأنهم يرونه مسلماً كفتناً، وهذا خلاف ما عليه غيرنا.

إذن فالكفاءة هي اعتبار الدين فقط، وليست كما يذهب إليها البعض من أنها كفاءة في النسب أو في المذهب أو في الحرفة؛ فالمسلم كفاء المسلم وهذا هو الذي عليه علماؤنا. ثم إن جميع الأمور التي يمكن أن تعتبر عوائق في طريق الزواج قد ألغاه الإسلام؛ فقد ألغى المهر ولم يعتبره ركناً في العقد، وقرّر ضرورة أن يكون المهر شيئاً يسيراً، حتى ولو كان تعليم آية من القرآن^(٢)، وقد قال ﷺ: «أفضل نساء أمتي أصبحهن

الثاني قوله: «وإن كان يجوز أن يكون سبب نزولها في عائشة»، وهو قول صريح بعدم نفيه عنها.

(١) الشورى: ٢٣.

(٢) روي أنه جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ، فعرضت نفسها عليه، فقال لها: «اجلسي بارك الله فيك، أما نحن فلا حاجة لنا فيك، ولكن تملكيننا أمرك؟». قالت: نعم. فنظر ﷺ في وجوه القوم، فدعا رجلاً منهم، ثم قال لها: «إني أريد أن أزوجه هذا إن رضيت». فقالت: ما رضيت لي يا رسول الله فقد رضيت. ثم قال ﷺ للرجل: «هل عندك من شيء؟». قال:

وجهاً، وأقلهن مهراً»^(١).

كما أن الإسلام قد ألغى الاعتبار النفسية، وندب إلى الزواج المبكر؛ ولهذا فإننا نجد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام قول الإمام الصادق عليه السلام: «من سعادة المرء ألا تطمث ابنته في بيته»^(٢).

ونحن نتمنى أن تكون تلك المؤسسات التي تتصدى لإثارة الفتن والخلافات بين المسلمين أن توجه جهودها لمثل هذه الأمور. وهذا يعني أن الفتاة متى ما جاءها عريسها، فإن على الأب ألا يضع المعوقات أو المعرقات التي تحول دون إكمال زواجها، وعليه أن يعتمد على أي عقبة تقف في هذا الطريق فيزيلها أو يرفعها عنه؛ كي يسهل أمر هذا المشروع السماوي. ونحن إذا كنا مسلمين حقاً فعلياً أن نتبع قواعد الإسلام الحنيف، ونظمه وقوانينه في جميع مسائل حياتنا، ومنها هذه المسألة.

وإني لأمل من هذه المؤسسات التي تسمي نفسها مؤسسات إسلامية أن تلتفت إلى هذا الأمر، وإلى هذا الوضع بدلاً من أن تضيع وقتها كله، أو أن تشبعه في الشتم والتكفير والسب لطوائف إسلامية أخرى. وعليه بدلاً من كل هذا السب والقذف والشتم كان ينبغي على هذه المؤسسات أن تفتح مراكز علمية توعوية لتثقيف الشباب وتوعيتهم بأمور الحياة التي

لا والله يا رسول الله. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تحفظ من القرآن؟». قال: سورة البقرة والتي تليها. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قم فعلمها عشرين آية، وهي امرأتك». المجموع شرح المهذب ١٥: ٢٧، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٢٤٢، تلخيص الحبير ١٢: ٣١١، تنوير الحوالك: ٤٢٩ - ٤٢٧ / ١١٠١.

(١) الكافي ٥: ٣٢٤ / ٤، تذكرة الفقهاء ٢: ٥٦٩ (حجري)، مسند الشهاب ٢: ١٨٣ / ١١٤٥.
(٢) الكافي ٥: ٣٣٧ / ١.

لها علاقة مباشرة بحاجاتهم على اختلافها، وبرغباتهم وتطلّعاتهم وطموحاتهم، وبأمور الدين، والسياسة، وأوضاع المسلمين وما إلى ذلك.

فمثل هذا الدور التوجيهي أو التربوي أو التثقيفي ضروري جداً سيّما مع الشباب المقبلين على الزواج، فتمارس دور توعيتهم حول هذه المرحلة الخطرة القادمة من حياتهم؛ لأنها مرحلة ينتقل فيها الإنسان من عالم له خصائصه ومزاياه إلى عالم آخر له غير تلك الخصائص والمزايا، فتوضّح له طبيعة الحياة الزوجية، وما يراد منها وما يراد لها، وما هي حقوقها وواجباتها.

وكذلك توجيه الشباب الراغبين في الدراسة في الدول الغربية إلى طبيعة الحياة والعلاقات والأوضاع وحقيقتها في تلك الدول، وتبيّن له بأن هذه الدول تعيش حالات من الإباحية بشكل غير طبيعي وإن كان أمراً طبيعياً عندهم، وأن عليهم أن يتحصّنوا ضدّ هذا الداء؛ كيلا يهواؤا معهم في بؤرة الرذيلة ومستنقع الخطيئة، وكيلا يتركوا دينهم وينسوا عقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم، وينساقوا وراء الهوى والرغبات التي توفّرها كافة تلك الدول التي يزعمون السفر إليها للدراسة، أو ربما العمل كما شأن شريحة عريضة من شبابنا.

ولذا فإن من واجب هذه المؤسسات أن تدعو هؤلاء الشباب إلى تحصين أنفسهم بالزواج، وأن تبيّن لهم بأنها على استعداد لأن تيسّر لهم أمر الزواج وتكاليفه، وأن توفّر لهم معدّاته ومستلزماته؛ كي تشجّعهم على أن يتحصّنوا به ضدّ هذا المرض قبل أن يذهبوا إلى تلك الدول التي تساعد على نشره. وبهذا الإطار (تذليل العقبات) يصبح لوجود هذه

المؤسسات معنئ حقيقي، أو يصبح هناك هدف واضح يمكن أن يبرر من أجله وجود مثل هذه الجمعيات.

وفي حقيقة الأمر فإن هناك الكثير من الصيحات التي تتعالى من هؤلاء الشباب الراغبين في السفر حول ارتفاع المهور وغلائها، مع أن الحق أن هذه الصيحات ليست كلها صادقة، أو نابعة عن حاجة فعلية أو تصوير صحيح للواقع، بل إن الأغلب منها هي صيحات كاذبة سيما في هذا الزمان. وإلا فإن القليل من الآباء في هذا الوقت من يفكر بهذا النحو، فالأغلب منهم حينما يرى من ابنه شاباً مهذباً قادراً على إعالة نفسه وزوجته، فإنه يقدم على تزويجه.

نعم، ربما يبقى الكلام في التكاليف الاجتماعية التي تكون باهضة الثمن والتي تكلف الزوج أو أباه الكثير من الأموال من أجل تحقيقها؛ ولهذا فإننا نقول: إنه ليس من الضروري أن تكون هناك مثل هذه التكاليف، كأن يكون الزواج في أمكنة راقية تدفع إزاءها أجور عالية من أجل مراعاة الوضع الاجتماعي، أو ما يشابه ذلك. وتحقيق مثل هذا الأمر يحتاج إلى تضافر الأيدي، وإلى تكاتف المجتمع من أجل القضاء على هذه العوائق، ومنها هذه العقبة؛ لكي يسهل طريق الرجل المسلم إلى المرأة المسلمة. وبالتالي فإننا نحفظ للمجتمع عفته وقيمه وقدره.

المبحث الثالث: حقيقة زواج القاسم يوم الطف

وبما أننا في مقام الحديث عن الزواج، فإننا نود أن نطرح تساؤلاً هو: هل حصل يوم الطف زواج أم لا؟ ونحن إذ نطرح هذا السؤال مستعلمين لا بد أن نذكر أن هناك من يؤكد هذا ويذهب إليه، ويرى وقوعه، لكن في

الحقيقة أنه ليس هناك من زواج يوم الطف. لأننا حينما ننظر إليه بعين الفاحص نجد أنه محض وهم، وذلك يعود إلى أسباب عدّة، نذكر منها سببين هما:

الأول: أن سكينه كانت متزوجة قبل تلك الفترة

فالمراة التي نصبت علماً للزواج في هذه الواقعة - وهي السيدة سكينه بنت الإمام الحسين عليه السلام - كانت متزوجة من عبد الله بن الحسن عليه السلام قبل واقعة الطف، وحينما وقعت معركة كربلاء كانت على ذمّة زوجها. وهناك البعض من المؤرخين يقولون: إن عبد الله بن الحسن كان قد عقد عليها ولم يدخل بها حتى معركة الطف، أي أنه لم يتزوجها، بل إنه عقد عليها فقط ^(١). وممن يذهب إلى هذا الرأي ابن عساكر في تاريخه، أما المؤرخون الآخرون فإنهم يخالفون أولئك الرأي في هذا، ويذهبون إلى أن عبد الله كان زوجها وقد دخل بها. وكانوا يعبرون عنه بالقول: إنه كان أبا عذرها، وقد مات عنها ^(٢).

الثاني: صغر سنّ القاسم

فالقاسم يوم الطف كان صغير السنّ لا يتجاوز عمره الثالثة عشرة على رواية، وعلى رواية أخرى أن عمره كان إحدى عشرة سنة. نعم ربما يقال: إنه كان قد عُقد له على إحدى بنات الإمام الحسين عليه السلام غير سكينه، فهذا ليس في الإمكان إنكاره، كما أنه ليس بالإمكان إثباته، لكنه

(١) شرح الأخبار ٣: ١٨٠ - ١٨٢ / ١١٢٤، إعلام الوري بأعلام الهدى ١: ٤١٨ - ٤١٩، سير أعلام النبلاء ٥: ٢٦٢ - ٢٦٣ / ١٢٢، .

(٢) أنساب الأشراف: ١٩٥، المحبّر: ٤٣٨، المترادفات (المدائني): ٦٤.

يبقى احتمالاً قائماً سيما إذا أخذنا بنظر الاعتبار إن هذا الأمر كان رغبة قائمةً في نفس الإمام الحسن عليه السلام؛ حيث تقول بعض الروايات بأن الإمام الحسن عليه السلام قد أوصى في آخر أيامه الإمام الحسين عليه السلام بالقاسم خيراً وطلب منه أن يجعله موضع عطفه وشفقته، وأن يزوجه إحدى بناته. فبعض الروايات ربما فيها إشارة أو تنويه إلى هذا المعنى، لكن أن يكون هناك زواج قد حصل بالفعل في يوم الطف فهذا ما لا يمكن قبوله، وما لم يكن قد حصل أبداً.

وكذلك فإن هذا الأمر كان رغبة في نفس أمّه (رضي الله عنها)؛ حيث إن كل أمٍّ تود أن ترى ولدها وقد بلغ سنّ رشده وتزوج، فهذا أمل كل أمٍّ في ولدها. فهذه الرغبة كانت قائمة في نفس رملة، وهي رغبة في الوقت نفسه كانت عند الإمام الحسين عليه السلام؛ لأنه أراد أن ينقذ وصية أخيه الحسن عليه السلام، وأن يتعامل مع القاسم كما لو كان يتعامل مع أحد أبنائه.

وعلى أية حال فقد خرج القاسم يوم العاشر من المحرم، وجاء حتى وقف بين يدي الإمام الحسين عليه السلام وقال له: والله يا عم، لا صبر لي على السكوت وأنا أسمعك تنادي: «هل من ناصر ينصرنا؟» فلا يجيبك أحد، فائذن لي حتى أطلب بثأري من هؤلاء القوم. فيطلب منه الإمام الحسين عليه السلام الرجوع؛ لأن عنده أمّه وعمّاته وابن عمّه. فرجع القاسم، ثم عاد إليه مرة ثانية وقال له: والله يا عم، لقد ضاق صدري، وسئمت الحياة وأنا أراك وحيداً، فائذن لي لألحق بأبائي، وأن اختطّ درب الشهادة الذي اختطّه أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما ألحّ على الإمام عليه السلام بالخروج - كما ذكره المؤرّخون - دخل الإمام الحسين عليه السلام إلى خيمته فأخرج صندوقاً، وأخرج منه عمّة الإمام الحسن عليه السلام فألبسه إياها، وأخرج سيفه فقلده إياه،

ثم أخرج درعاً فأفرغه عليه، ثم احتضنه طويلاً، وشخص ببصره الشريف إلى السماء وقال: «اللهم اشدد وطأتك على هؤلاء القوم؛ إنهم دعونا لينصرونا، فوثبوا علينا فقاتلونا»^(١). فنزل القاسم عليه السلام يقارع الكتائب ويواجه الأبطال، وهو يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا نجلُ الحسن سبط النبي المصطفى والمؤمن
هذا حسين كالأسير المرتهن بين أناسٍ لا سقوا صوب المزن^(٢)

يقول عمر الأزدي: لئن مرّ بي وهو يفعل ما يفعل، فولله لأتكلنّ به أمّه. فقال له حميد بن مسلم: أتمدّ يدك إلى هذا الصبي؟ والله لو ضربني ما ضربته. قال: والله لأتكلنّ به أمّه. وفي أثناء ذلك انقطع شراك نعله فأهوى إليه ليصلحه، فلمّا نظر إليه عمرو الأزدي، رفع سيفه وضربه على رأسه، فسقط إلى الأرض يتخبّط بدمه، وصاح: أدركني يا عماه. فامتطى الإمام الحسين عليه السلام جواده وأقبل إليه يذود الخيل عنه يميناً وشمالاً، إلى أن وصل مصرعه، فجلس عنده يمسح الدم والتراب عن وجهه وهو يقول: «صبراً بني إخوتي، صبراً بني عمومتي، لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم».

اهنا يمغسل الشبان بهداي ابهيد من تصبّ عليهم الماي

أريد او كف وغسلهم بيميناي

يقول أحد المؤرّخين: ثم حملة الحسين ووضعته على صدره يريد به

(١) انظر: الإرشاد ٢: ١١١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، وفيهما أنه عليه السلام قالها حين نزل علي الأكبر عليه السلام إلى المعركة، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٣، ٣٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩، وفيها وفي غيرها أنه عليه السلام قالها حين قتل صبي له، باختلاف في اللفظ في الجميع.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخورزمي) ٢: ٢٩.

خيمة النساء؛ لأنه ﷺ كان يعرف أن أمه وعمّاته سوف يخرجن إليه، فأراد أن يحافظ على خدر عائلته. وكانت رجلاه تخطّان الأرض، ثم طرحه في الخيمة. فكانت أمه بعد ذلك لا تهدأ الليل ولا النهار:

يشيبض بعدها للمسه بنفسه يا مضروب يا مونس هله بحسنه

* * *

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ أقمار تسبح في غدِير دمَاءِ (١)



(١) ديوان الشيخ صالح الكواز / العلويات / القصيدة الأولى في رثاء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه، ومنها:

وقدوا وما مرّت بهم بسنة الكرى	وغفت جفونهم بلا إغفاء
متوسدين من الصعيدِ صخوره	متمهدين خشونة الحصباء
مدّثرين بكربلا سلب القنا	مرّملين على الرّبي بدماء
أطفالهم بلغوا الحلوم بقربهم	شوقاً إلى الهيجاء لا الحسناء

﴿١٠﴾

الزواج وقانون التكافؤ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذُّوَجَيْنَ الذَّكَرَ
وَالْأُنثَى﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الحكمة من سنّ الولادة بهذا الشكل المألوف

من معاني الخلق: التقدير، وبناءً على هذا المعنى فإن الله تعالى يشير إلى حقيقة سنمّر بها خلال البحث إن شاء الله تعالى، وهي حقيقة تستحقّ الوقوف عندها قليلاً، وهي موضوع الزواج والزوجية.

معنى الزوج

فالزوج يطلق على المشاكل (المشابه) الذي له فرد من جنسه، فكل من له فرد من جنسه يشاكلة يقال له «زوج». وهذا معنى المماثلة. وهناك معنى آخر للزوجية هو الذكر والأنثى، وهو المعنى الذي تريده الآية الكريمة، فهي أخرجت المعنى الأوّل وإن كانت المشاكلة موجودة

(١) النجم: ٤٥.

ضمناً. فالمقصود بالزوجين هنا: الذكر والأنثى كما هو صريح الآية الكريمة، أي من يتكوّن منهما النسل.

وفي الآية الكريمة إيحاءة إلى أن هذا الطريق هو القناة الطبيعية التي جعل الله تعالى منها وسيلة لإيجاد امتداد النوع البشري. وكأن فيها إجابة تساؤل مفروض مفاده أنه إذا كان الله تعالى قادراً على كل شيء، فلماذا لا يوجد الإنسان بالطريقة نفسها التي يوجد بها النبات، فيخرج من التراب دون الحاجة إلى اللجوء إلى مشقّة الحمل وعناء الولادة وآلامها ومضاعفاتها، ثم بعد ذلك مرحلة الحضانة وما يصاحبها من ألم ومعاناة؟ إننا نلاحظ أن الكثير من الحيوانات بمجرد أن تخرج من بطون أمهاتها فإنها تحاول أن تمشي فتتحرك أقدامها وتقع، تفعل ذلك مرّات عدة حتى تمشي في ساعتها، وكذلك بعض الطيور غير الطيّارة التي تمشي فراخها بمجرد أن تفقس البيضة عنها فتخرج منها مع ملاحظة أنها تخرج منها مكسوة بزغيبها، أمّا الإنسان فطفولته مرحلة كبيرة واسعة يحتاج فيها إلى الرعاية المركزة والعناية الفائقة كي يصل إلى مرحلة يتمكن فيها من الاعتماد على نفسه بشكل أو بآخر. فهي طفولة طويلة تحتاج إلى سنوات عدّة لإكمال الرعاية فيها من حمل وتوفير طعام وكساء. وبهذا فالإنسان يحتاج إلى أن يُلفّ بخرقة أول ولادته كما أنه يحتاج لذلك عند وفاته:

وهزّة المهد في أيدي قوابلنا كهزّة النعش عند الحمل أحياناً
والعمر حبات أسلاك تفرّقها أنفاسنا وصبغ اللحد مأوانا

وهذا التساؤل ليس له مورد في واقع الأمر؛ لأن من المفروغ منه أن

الإنسان يجب ألا يقترح على الله تعالى أو يسأله عن الأسباب التي من أجلها كان الشيء الكذائي بالهيئة أو الكيفية الكذائية؛ فهو تعالى أرحم بنا من أنفسنا، كما أنه تعالى حكيم عليم، والحكيم لا يصدر عنه إلا ما يتناسب مع الحكمة والصواب. ثم إن أفعال الله عزّوجل لا يمكن أن نجعلها عرضة للتساؤل؛ لأنه تعالى كما قلنا عليم، والعليم معناه أنه أعلم من غيره؛ فهو أعلم بنا وبمصالحنا منا ومن غيرنا.

ثم إن الحكمة واضحة ظاهرة في عملية ولادة الإنسان بهذا الشكل، ذلك أن بهذه الصورة من دورة الولادة تنشأ علاقة عاطفة وحبّ وحنان بين الأب والأم من جهة وبين أبنائهما من جهة أخرى، وهذه العلاقة تكبر مع حجم الألم والمشقة. وليعلم بأن هذه العلاقة موجودة حتى عند الحيوان؛ لأنه يتوالد بالطريقة عينها لكن لا بالمستوى نفسه من العلاقة الإنسانية؛ لأن العلاقة الإنسانية قائمة على أساس امتزاج العواطف وتبادلها والارتباط والتفاعل المستمر، وهي علاقة مبتنية على الوشائج الروحية التي تنشأ بين الأب والأم والطفل.

وقد ذكرت فيما مضى رأي «سماريو» إحدى عالِمات النفس البارزات تقرّر أن العلاقة بين الأم والرضيع ليست علاقة ثنائية، وإنما هي علاقة ثلاثية، فالطفل يرتضع لبن الأم وحنانها، ومشاعر الأب أيضاً؛ لأن الأم إذا كانت سعيدة مع الأب فإن ذلك ينعكس على لبنها وعلاقتها ودفعها ومشاعرها، وإذا كانت غير سعيدة انعكس سلباً على ذلك أيضاً، وهو بالتالي في كلتا الحالتين ينعكس على الطفل إيجاباً وسلباً. إذن هناك ثلاثية تتحكّم بحالة الطفل هي: الأب.. الأم.. الطفل.

وعليه فإن الطفل إذا فقد أحد الأبوين فإنه ينشأ نشأة غير طبيعية،

يتملكه شعور بالنقص وتذبذب عاطفي مشوب بعدم التلاؤم. إذن فهذا اللون من الولادة والتربية والطفولة الطويلة أمر حيوي وهام للطفل؛ لأنه ممّا يترتب عليه وجود نوع من التناغم العاطفي والتلاؤم الروحي بين الطفل وأبويه من جهة، ويترتب عليه أيضاً تفجّر ينابيع المودّة والرحمة في قلبي الأبوين للطفل من جهة ثانية. فالطفل لا يمكن أن يجد نبعاً من الحنان والرحمة صافياً لا يشوبه كدر إلا عند أبويه؛ ولذا فإن الله تعالى أراد أن تقابل هذه الرحمة برحمة أخرى مثلها، فقال جل من قائل: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(١). فهذا الطفل إذا التصق بصدر أمّه أو تعلق برقبته أو برقبة أبيه فإنه لا يرضى أبداً بأن يؤخذ منهما، بل إنه يتشبّث بهما وكأنه لا يريد أن يفارقهما.

وممّا يصبّ في هذا المجال ما يروى من أن امرأتين ضربتني كانتا في أيام الخليفة الثاني قد تنازعتا على طفل تحملاه؛ ذلك أن إحداهما كانت قد ولدت أنثى، والأخرى ولدت ذكراً، لكن أمّ البنت ادّعت أن الولد لها وأن البنت للأخرى، أمّا الأخرى فقالت: لا، هذا ابني. وطال النزاع، فدخل أمير المؤمنين عليه السلام، فالتفت إليه الخليفة الثاني وقال: احكم بينهما. فكان عليه السلام كماً حاول أن يجعل أمّ البنت تعترف بأن البنت لها امتنعت، فوعظهما وخوّفهما فأقامتا على التنازع والاختلاف، فقال عليه السلام: «يتوني بمنشار». فقالت المرأتان: ما تصنع؟ فقال عليه السلام: «أقدّه نصفين لكل واحدة منكما نصفه».

(١) الإسراء: ٢٤.

فسكتت إحداهما وقالت الأخرى: الله يا أمير المؤمنين، إن كان لابدّ من ذلك فقد سمحت به لها. فقال ﷺ: «الله أكبر هذا ابنك دونها، ولو كان ابنها لرقت وأشفت». فاعترفت المرأة الأخرى أن الحقّ مع صاحبته وأن الولد لها، فسرّ عمر ودعا لأmir المؤمنين ﷺ بما فرّج عنه في القضاء^(١). فهو ﷺ إنما أعطى الطفل لهذه؛ لأنها انفجرت حناناً ورحمة وعواطف مشبوبة نحو هذا الطفل الذي لو لم يكن طفلها لما انفجرت عندها هذا العاطفة تجاهه، ولما فضّلت حياته على موته وإن كان في حياته سلبها إياه.

ولا شكّ أن هذا نابع من الحنان الغريزي والرحمة الذاتية ومشاعر الأمومة التي أودعها الله فيها تجاه الطفل؛ لأنه هو الذي يلطّف حياة الأسرة ويرطب أجواء الإنسانية، بل هو جنة الدنيا التي لولاها لأصبحت الحياة جحيماً؛ فعالم الكبار عالم مملوء بالحقد والحسد واللؤم والعداء والبغضاء، في حين أن الطفل صفحة بيضاء بريئة، وكل ما فيه طبيعي؛ ضحكته ومشيته وحركاته فإن البغض ليس إلا من شتم الكبار فما إن يضحك أحدهم حتى تحسّ أن وراء ضحكته ما وراءها، ولا تعرف ما الذي يريده منها، وكذلك لا تعرف ما الذي يخبئه وراء بكائه، يروى أنه ﷺ جاءه خصمان، وكان أحدهما يبكي بحرقة ويتظلم على خصمه، فقال له: «اجلس؛ فإن إخوة يوسف ﴿جَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾^(٢)...»^(٣).

(١) الإرشاد ١: ٢٠٥ - ٢٠٦، شجرة طوبى ٢: ٤١٨، ونسبها في المصنف (الصنعاني) ٧:

٣٦٢، والسنن الكبرى (البيهقي) ٣: ٤٧٢ / ٥٩٥٧ لنبى الله سليمان بن داود عليه السلام.

(٢) يوسف: ١٦.

(٣) بحار الأنوار ٤٢: ١٧٥، شرح نهج البلاغة ١٤: ٢٩، وفيهما أنها بين شريح وامرأة.

وهذا حال الكثير ممّن لا يمكن للمرء أن يحزر ما الذي يخبئ وراء ضحكته أو بكائه من أهداف أو قصود، أما الطفل فهو بمنأى عن كل هذا، فهو لا يملك سوى البراءة، ولا يعرف غيرها؛ ذلك أنه صفحة بيضاء كما قلنا.

وبهذا نعرف أن الزواج بهذا الشكل المرسوم إسلامياً هو اللون الطبيعي لامتداد الحياة واستمرارها، واستمرار الحبّ والحنان المتبادل بين الأبناء والآباء، وإلا لغرقت الدنيا في خضم عالم متوحّش رهيب.

المبحث الثاني: آلية الزواج في الإسلام

تقول الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾، وفي لفظ «الزَّوْجَيْنِ» هنا تضاييف، بمعنى أنه لا يعرف الزوج إلا بزوجه، فلولا أحدهما لما كان الآخر. فالزوجان خلقا لهذه العملية التناسلية، كي يمدّا النوع بالذرية، ولو أننا نظرنا إلى هذا الأمر بشيء من التعقّل والجديّة والنظرة الواقعية للحياة لوجدنا أن الحياة لا طعم لها إلا بهذا المسار الاجتماعي، وأنه هو المسار الطبيعي، وإلا فإن ممّا هو معروف أن الطفل يفعل ما يفعل بأهله حينما يلج حياة الأبوين سيّما إذا كان الطفل الأول لهما؛ فتجد أن الأب لا تسعه الفرحة لذلك، والأم أكثر منه فرحاً وأشدّ ابتهاجاً؛ لأنهما يريان أن أملهما في الحياة قد تحقق، وأن امتدادهما على هذه الأرض قد حصل. لكنهما في لحظة من اللحظات، وحينما يسلبان هذا الامتداد تجد أن حياتهما قد استحالت إلى فاجعة، وأصبحت أماً لا يطاق:

إن حزناً في ساعة الموت أضعا ف سرور في ساعة الميلاد^(١)

(١) البيت للمعري. التفسير الكبير ١٧: ١١٨، تفسير الآلوسي ١٣: ٦٣، تاريخ بغداد ٤:

وهذا المنظر يتكرّر كل يوم أمام أعيننا، يقول النبي ﷺ: «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سميناً»^(١).
 فالله تعالى أكرم الإنسان بالنسيان، ولولا هذا لما كان الناس على هذا الحال، يقول محمود الوراق:

نراع لذكر الموت ساعة ذكره	فتعترض الدنيا فنلهو ونلعب
يقين كأن الشك أغلب أمره	عليه وعرفان إلى الجهل ينسب
ولكنني منها خلقت لغيرها	وما كنت منه فهو شيء محبب ^(٢)

الوقوف بوجه قانون إمداد النوع وأسبابه

فالغاية من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الرُّؤْسَيْنِ﴾ إذن هي إمداد الحياة والنوع بوسائل مسببات استمرارهما، وبالتالي يكون هناك تغيير مستمر؛ حيث تمضي أجيال وتأتي عوضها أجيال أخرى، فتجدد دم الحياة منها. وهذه هي مسيرة الحياة، والوقوف بوجه هذه المسيرة أو هذا القانون هو وقوف بوجه الفطرة؛ ذلك أن الله تعالى حينما وضع قانون امتداد النوع: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَأَبْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٣)، فقد كتب الله تعالى لنا أن نخرج أفراد هذا النوع إلى حيّز الفعل والوجود، لكن البعض يقفون بوجه هذا القانون الطبيعي والإلهي متذرّعين بحجج واهية وأعدار لا مصداقية لها ولا حقيقة؛ لأنها قائمة على مبدأ عدم الإيمان بالله تعالى والوثوق به. ومن هذه الحجج:

(١) كشف الخفاء ٢: ١٥٤ - ١٥٥ / ٢٠٩٧. ٤٦٤
 (٢) كنز الفوائد: ١٧، الوافي بالوفيات ٥: ١١٧، ١١٨، أعيان الشيعة ١٠: ٩٦ - ٩٧، مع اختلاف في نسبتها.
 (٣) البقرة: ١٨٧.

أولاً: العقبات المادية

وذلك بأن يضع الآباء شروطاً تعجيزية أمام زواج بناتهم، كأن يفرضوا مهوراً عالية وتشريفات وممارسات لا وجه لها سوى أن فلاناً قد فعل لابنته كذا وكذا، مع أن وضع مثل هذه العقبة وهذه التشريفات غير المعقولة وغير المشروعة لا يقبل بها الشرع الإلهي الذي يقول بأن المهر يكفي فيه أن يكون مما يصح أن يتموّل به ولو كان كفاً من برّ، ولا العقل الذي يقول: إن هذا الأمر لا يقرب سعادة ولا يبعد ألماً أو شقاءً أبداً؛ فقد يجد الإنسان كوخاً يتفجر سعادة ويفيض ألفة وحباً ومودّة، وفي المقابل تجد قصراً مليئاً بما تشتتهي الأنفس، لكنه تعوزه السعادة ويعيش حالة من الألم والحزن. ثم إن السعادة إحساس داخلي يتجلّى عند الإنسان فيشعر به؛ ولذا فإن البعض لا يشعر بالسعادة ولو أغرق بالمال، بل ولو أعطيته الدنيا كلّها مهراً فلن يشعر بذلك.

ومع أن المال مطلوب وجوده في الحياة، كي ينهض الإنسان بنفسه من هاوية الفقر ويرتفع بها عن حافة الحاجة، لكن ينبغي ألا يجعل هدفاً، فيكون بالتالي عقبة كبيرة قابضة في طريق الزواج.

ثانياً: العقبات العرقية

وهذه العقبة تعد عنصراً معوّفاً متغلغلاً في النفوس، كما أنها عامل مرهق؛ لأنها عادة تكون مستحكمة تصعب إزالتها من النفوس أو تنحيها عن فكر المجتمع. وتتمثل هذه العقبة بالاعتقاد السائد عند البعض - وهو اعتقاد منخطوء وليس له أي أساس من الصحة - من أن دماءهم لا شبيه لها ولا مثيل ولا كفاء عند كل بني البشر الآخرين، فهم لا ثاني لهم في

الوجود، وبالتالي لا يصحّ أن يتجرّأ من هو من غير دمهم على طلب يد ابنة أحدهم. وهذه الظاهرة لا يختصّ بها العرب فقط، بل إنها موجودة عند الشعوب الأخرى؛ فكل شعب يظن أن دمه فوق دماء الآخرين، وأنه أفضل منهم. فظاهرة العرقية منتشرة عند كلّ الشعوب.

وهذا الذي يدّعي أنه ينتمي إلى فصيلة دم أعلى وأشرف من غيرها لا يملك أدنى مبرّر على دعواه هذه سوى أن البعض يفتقر إلى جملة من الصفات المؤهّلة، وهي تتماهى وتتلاشى عند من يتّصف بها حينما يكون ذا رصيد عامر. وهذه الفوارق غير حقيقية ولا واقعية، ولا أثر لها أو قيمة، ف«إن الناس من آدم وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم»^(١).

إن من أكبر الأخطاء التي ترتكب بحقّ الفتاة وأفدحها ما يقع فيه بعض الآباء من فخّ امتلاك العريس أموالاً طائلة، حيث يغضّون النظر حينها عن كل عيب آخر، وكأنّ المال حسنة لا سيئة معها، إن مثل هؤلاء الآباء لا يهتمّهم مصدر ثروة هذا، ولا أين يقضي ليله ولا كيف يقضي نهاره، فالمهم من وجهة نظرهم هو امتلاكه كنوز المال، واحتلاله مركزاً اجتماعياً أهله له هذا المال. وهذان الأمران هما غاية ما يسألون عنهما مع أنّهما لا يحققان السعادة الحقيقية، ولذا فإننا نجد أن السنة النبويّة تحثّ على تجاوز كلّ الاعتبارات الجاهليّة، والتأكيد على الاعتبارات الشرعية التي وضعها الله سبحانه وتعالى: «من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزوّجوه، إلاّ تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»^(٢).

(١) الفقيه ٤: ٣٦٣ / ٥٧٦٢، تحف العقول: ٣٤، مسند أحمد ٢: ٣٦١.

(٢) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١-٣، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

تحديد مفهوم الكفاءة في الزواج

إذن في واقع الأمر إن هذا العرف المخطوء هو عقبة نحن نصنعه ونضعه أمام أبنائنا في زواجهم، بحجة أن هذا لا يناسب هذه أو بالعكس؛ لأن دم أحدهما أعلى وأشرف من دم الآخر. وقد وصل الأمر بأحد رؤساء العرب أنه لم يكن يجالس الناس ولم يتخذ صديقاً أو نديماً، ف قيل له: لماذا لا تتخذ ندماء وأصدقاء؟ قال: ومن يصلح لمنادمتي؟ إنما ينادمني الفرقدان^(١). وهكذا فإن الطبقة الاجتماعية أصبحت عقدة عند الناس، وعقبة من العقبات التي لا يمكن تجاوزها ولا يصح من وجهة نظر هؤلاء. ونحن حينما نطرح هذا الطرح فإننا لا نتكلم عن العامة، بل إننا نتكلم عن الطبقة التي تمثل الشرع.. طبقة الفقهاء، وهذا هو البلاء طبعاً، فهذا المنحى الاجتماعي موجود عند المذاهب الإسلامية من غيرنا، فيعتبرون أن الطبقة تتدخل في تحديد الكفاءة؛ فإن صاحب المهنة المتواضعة لا يصلح أن يتقدم لطلب ابنة صاحب المهنة الشريفة. فهؤلاء الفقهاء يتوسعون في مفهوم الكفاءة؛ فيدخلون فيها حتى المهنة؛ لأنها - الكفاءة - في منظارهم مفهوم عرفي لم يحدده الشارع المقدس، ونحن نسأل العرف حول هذا المفهوم لنعرف مصاديقه وما ينطبق عليه، والعرف يرى هذا الفارق أمراً أساسياً في مصلحة الزوجين واستمرار الزواج لما يترتب عليه من إمكانية حصول التفاهم والتوافق بين الزوج والزوجة.

لكن يرد على هذا أننا لو حكّمنا العرف دائماً فسوف لن نصل إلى نتيجة

(١) هو جذيمة الأبرش، انظر المستطرف في كل فنّ مستطرف ١: ٢٨٥.

واحدة أو مشتركة؛ لأن العرف يتعدّد بتعدّد الرقعة الجغرافية وطبائع الناس وأخلاقهم وعاداتهم. فالعرف لا يصيب الحكم الواقعي أو الحقّ دائماً، ولذا فإنه لا يحكّم في كل الحالات والمجالات التي أقرّ الشارع بعض متبنيّات العرف فيها، فيعطي العرف على ضوئها صفة المشروعية. أمّا أن يصبح البناء الفقهي قائماً على أساس اتّباع العرف في كلّ شيء، ويصل الأمر إلى حدّ الهوس، فهذا أمر مرفوض؛ لأنه سوف لن يؤدّي إلى نتيجة.

سلبية الوقوف بوجه الزواج

إذن فهذه من العقبات التي توضع أمام الشباب في طريق الزواج، وهي عقبات أمر الشارع المقدّس بإلغائها وعدم الوقوف في طريق هذا المسار الطبيعي، وفي وجهه؛ لأن الله تعالى خلق الزوجين، وأمر بالزواج لأجل النسل، وما كان كذلك فمن الخطأ الوقوف ضدّه؛ لأننا حينئذٍ نقف في طريق إمداد الإنسانية بالأجيال التي تعدّ امتداداً للنوع واستمراراً للحياة على هذا الكوكب. فالزواج حصانة ضدّ الكثير من الانحرافات. روي أن أمير المؤمنين عليه السلام كان جالساً في أصحابه، فمرّت بهم امرأة جميلة، فرمقوها بأبصارهم، فقال عليه السلام: «إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هبابها. فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله؛ فإنما هي امرأة كامرأة». فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه! فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام: «رويداً إنّما هو سبّ بسبّ أو عفو عن ذنب»^(١).

فهذا الحل الذي يطرحه أمير المؤمنين عليه السلام هو حلّ نابع فيما لو تركنا

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٤٢٠.

الأُمور تسير على طبيعتها، أمّا إذا وقفنا بوجه هذا الحل الطبيعي والشرعي فأين يمكن أن يتّجه هذا المتطلّع بعينه، والذي يمدّها إلى ما متّع الله تعالى به غيره من أزواج؟

إننا نعيش هذه المأساة بكامل أبعادها، ومن هذه الأبعاد ما تروّج له الكثير من القنوات الفضائية من عرض الأجساد العارية ووسائل الإغراء والهلوه، ومنها ما نشاهده من مظاهر غير إسلامية في الشارع والمدرسة والمؤسّسة وأماكن العمل والأسواق وغيرها. وفوق هذا كلّه تجد الكتب والمجّلات مليئة بالأفكار العارية والأجساد العارية. فهذا الشاب الذي لا يستطيع أن يتزوّج لما وضع في طريق زواجه من عقبات، ثم يتعرّض لمثل هذه المؤثّرات مع ما هو عليه من عدم توفّر المناعة والحصانة ضدها عنده، أو لم يكن عنده مستوى من التربية يؤهّله لأن يحصّن نفسه ضدّ الوقوع في الفاحشة حتماً سينهار أمام هذه الإغراءات والمؤثّرات الغريزية.

والأنكى من كلّ هذا أن المناهج الدراسية تركّز اهتمامها على الدروس العلمية والأدبية دون أن يحظى الجانب الأخلاقي بمثل هذا الاهتمام أو حتى بجزء منه، بل نجد أن هناك إهمالاً واضحاً وبيّناً لهذا الأمر، عملاً بمقولة أن مثل هذه الأمور منوط أمرها بالمسجد. لكن لو عدنا إلى الواقع فإننا لن نجد هذا الدور للمسجد في غالب الأحيان، فهو في الكثير من الأماكن والموارد لا يعلم الأخلاق والآداب، بل يعلم هذه المتصاعدات والمنتازلات ممّا لا يهتمّ الشباب في شيء، بل يذكي عنده كره الآخرين والحقد عليهم. إن الجميع مسؤولون عن هذا الجيل، وعليهم أن يتنبّهوا لتربيتهم، فهم جيل يائس حقاً إذا كانوا تحت تأثير كلّ هذه العوامل

الأنفة؛ سواء ما كان منها في المسجد ممّا يَعْلَمُه لهم من الحقد على الغير، أو في الشارع ومحطّات التلفزة أو غيرهما. وعليه فيلزم توجيه هؤلاء الشباب ضمن نطاق الأسرة بأخلاق الإسلام وأخلاق رسول الله ﷺ وآله عليه السلام، وعدم تركهم ليشرقوا أو يغربوا في انتزاع أخلاقهم وآدابهم وعاداتهم.

إذن فالزواج حصانة ضدّ كل مرض أخلاقي أو آفة أدبية^(١)، أمّا المتبقي من الآداب والأخلاق فإنه مسؤولية الأسرة والتربية التي ينبغي أن تكون سليمة طيبة. ولذا فإننا نجد أن الفقهاء يفتنون بوجوب الزواج فيما لو كان الشاب يتوق توقاً كبيراً إليه، ويجد في نفسه رغبة كبيرة إلى قضاء حاجة هذه الغريزة بحيث إن الأمر يصل به إلى حدّ لا يتمكن معه من الصبر عنه وكان قادراً على الزواج مادياً، أما إذا تمكّن من الصبر عنه فإنه حينئذ يصبح مستحباً. لكن لو أنه بتزوّجه من امرأة يعرضها إلى الضياع؛ لأنه لا يستطيع أن يتكفّل بنفسه فكيف بزوجة وأطفال ومتطلبات أسرة فإن الشارع حينئذ يأمر بالصبر والتحلي بالأخلاق^(٢) حتى يتمكن من أن يهيئ نفسه له.

وعليه فقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ﴾ بمعنى قدر، وهذا يعني أنه تعالى هو الذي يتحكّم بجنس الجنين، وسائر صفاته. فالله تعالى وحده هو المقدر دون غيره، فلا المرأة لها دخل في تحديد جنسه ولا غيرها، بل هو الله تعالى الذي ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِئَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

(١) ولذا فإنه يعدّ بنصف الدين كما عن رسول الله ﷺ حيث قال: «من تزوج أحرز نصف دينه، فليتق الله في النصف الآخر». الكافي ٥: ٣٢٩، الفقيه ٣: ٣٨٣، كشف الخفاء ٢:

(٢) ٢٣٩ / ٢٤٣٢. ومن ذلك استحباب الصوم له.

الدُّكُورُ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿١﴾ . فكل هذا بيد السماء؛ لأن هذه البويضة غير الملقحة فيها اثنان وعشرون صبغياً جسمياً وصبغياً^(٢) واحد جنسي، وهو ما يرمز له بالرمز (X) كما يعبر عنه علماء الطب. ومن أراد أن يطلع أكثر على هذه المعلومة فليرجع إلى كتب الطب المختصة بهذا المجال.

إذن فالذي يتحكّم بجنس الجنين هو نطفة الرجل^(٣)؛ حسب نوع الصبغي الجنسي المختص به. فالرجل يكون صبغياً عادة إما بالرمز (x) أو برمز (y)، وحينها يتعيّن جنس الجنين^(٤).

وإذا كان الأمر كذلك فما ذنب هذه المرأة التي تحمل تبعة هذا الأمر مع أنها لا دخل لها فيه أبداً؟ والمشكلة أن هذا الأمر ظاهرة اجتماعية وورثتها، والميراث الاجتماعي عسير رفضه والتخلّص منه، وهو ميراث يُغلغل في رأس العربي فكرة أن الأنثى إذا جاءت فلا مكان لها إلا القبر، يقول شاعرهم:

القبر أخفى ستره للبنات ودفنها يُروى من المكرمات
ألم ترَ الرحمن عزّ اسمه قد وضع النعش بجانب البنات^(٥)

وهو هنا يشير إلى المجموعة النجمية المسمّاة «بنات نعش»، أي أن البنت حينما تولد لا بدّ أن يكون النعش قريبها؛ فهو لازم لها ما، إن تولد

(١) الشورى: ٤٩ - ٥٠ .

(٢) هو الكروموسوم .

(٣) لا الرجل نفسه وإرادته .

(٤) فإن لقحت البويضة بكروموسوم (x) كان الجنين أنثى، وإن لقحت بكروموسوم (y) كان الجنين ذكراً.

(٥) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٥٥٥، كشف الخفاء ١: ٤٠٧ / ١٣٠٨ .

حتى تدفع فيه وتدفن. إنها فلسفة حياة جائرة تفرّق بين الذكر والأنثى؛ فمن أين جاءت هذه الفوارق؟ وما هو منشؤها؟ مع أن الفتاة ربما كان عندها من المزايا ما لم يكن عند الولد؛ فهي عادة أكثر مودّة وإخلاصاً في عملها وفي بيتها. ولو أن من يذهب هذا المذهب يطّلع على الروايات الواردة في مجال تربية البنت ورعايتها لما لبث على فكره هذا، ومن هذه الروايات قول رسول الله ﷺ: «من عال ثلاث بنات أو ثلاث أخوات وجبت له الجنة». فقيل: يا رسول الله، واثنين؟ فقال ﷺ: «واثنين». فقيل: يا رسول الله، وواحدة؟ فقال ﷺ: «وواحدة» (١).

والروايات بهذا الصدد عن الرسول الأكرم ﷺ وأهل بيته عليهم السلام كثيرة، دخل على الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه، وكان عابساً، فسأله عن شأنه، فقال له أحد الجالسين: يا بن رسول الله، لقد رزقه الله بنتاً. فقال عليه السلام: «أتريد أن تغيّر خلق الله؟».

فمن قال: إن البنت ليس فيها عطاء لأهلها أكثر من العطاء الذي يكون من الولد؟ إن الله تعالى يثيب الرجل على تربية ابنته أضعافاً. ثم إنه تعالى هو الذي اختار أن يكون المولود أنثى، ومن يعترض على هذا فإنما يخالف ما اختاره له الله تعالى؛ لأنه جلّ وعلا هو الذي يهب ويعطي.

إذن فـ ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذُّؤَجِينَ﴾ يعني أن المعادلة بيد الله تعالى، هو الذي يخلق الإناث وهو الذي يخلق الذكور وفق ما تقتضيه المصلحة المتعلقة بكل فرد على حدة. وهكذا فإن على الفرد المسلم أن يدعّن إذعناً كاملاً لإرادة الله جلّ وعلا، لا أن يقترح عليه تعالى.

(١) الكافي ٦: ٦ / ١٠، مسند أحمد ٢: ٣٣٥.

نعم له أن يدعو الله تعالى بما يريد، لكن لا يفرض من خلال دعائه شيئاً على إرادة الله جلّ وعلا، ثم إن الدعاء يجب أن يكون في حدود الواقع، فالإمام عليه السلام يقول في دعائه: «ولعل الذي أبطأ عني هو خير لي؛ لعلمك بعاقبة الأمور»^(١). ولهذا فإن الاتقياء حينما يسألون عما سيختارون فإنهم يجيبون بأنهم يختارون ما يختاره الله تعالى لهم، وأنهم لا يقترحون عليه تعالى شيئاً.

فالله تعالى هو الذي يخلق الذكر والأنثى، وكل منهما له مجال تحركه الطبيعي.

أثر العامل النفسي للمفسّر على النص

وهنا نقطة هامّة يثيرها بعض المفسّرين، وهي ناشئة عن تمرير النص القرآني من خلال مرشّح ميراثنا الاجتماعي، وحينها لا يكون التفسير سليماً صحيحاً، وإنما هو انعكاس بحث لنفسية المفسّر وعقليته وتفكيره، وهذا مثله مثل ضوء الشمس فإنه عندما يأتينا مباشرة فإننا نراه على حقيقته وصورته الطبيعية، لكنه حينما يمرّ من خلال مرشّح كالزجاج الأخضر أو الأحمر، فإننا حينئذٍ نراه على غير صورته الحقيقية، بل سنراه بلون الزجاجه نفسها. وهذا الأمر هو عملية إسقاط لمشاعر المفسّر أو آرائه الشخصية وقناعاته وموارثه الاجتماعية على النص القرآني أو النبوي. وبهذا فإننا لا نقرأ ما يريد الله تعالى أو الرسول صلى الله عليه وآله، بل ما يريد المفسّر الذي يلوّنه بلون فكره عينه، ويضفي عليه رواسته الفكرية ويطبّعه بطابعه. ومن هذا ما يذكره بعض المفسّرين حول هذه

(١) مصباح المتهجّد: ٥٦٤ / ٦٦٤.

الآية حيث يرى هؤلاء في قوله تعالى: ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ أن الذكر أفضل من الأنثى؛ لأنه مقدم عليها فيه.

ونقول: إن في الظرف الطبيعي - أي لو فرضنا أنه ليس من أحد مفضلاً على أحد - لو أردنا أن نذكرهما فلا بدّ من تقديم أحدهما على الآخر، ولو قدّمت الأنثى لحصل الإشكال نفسه، فلا بدّ حينئذٍ من تقديم واحد. وهذا التقديم لأي كان ليس للتفاضل والتفضيل، وإنما هو لضرورة الكلام والترتيب. فهذه من الرواسب الاجتماعية، وإلا فإن التقديم هنا لا يقتضي التفضيل بقدر ما هو سياق للقول.

ونحن نعلم أن بعض الإناث لو عدل بهن مدينة من الذكور لما عادلوهن، ولكن أفضل منهم. وفي تاريخنا الإسلامي المشرق نمط فريد ومشرق من النساء اللواتي لا يقاس بهن أقوام، و:

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمع العالم في واحدٍ (١)

ويقول الرسول الأكرم ﷺ: «حسبك من نساء العالمين أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد سيّدة نساء العالمين، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم». وهذا يعني أن المرأة أحياناً قد تعادل دنيا بحالها.

قانون زوجية المشاكلة

وقد ذكرنا في صدر البحث أن الزوجية تقتضي المشاكلة، وهذا يعني أنها غير الزوجية الجنسية. وقد خلق الله تعالى الكون كلّه خاضعاً لزوجية المشاكلة، وقانون زوجية المشاكلة قانون عام يحكم الدنيا كلها، وهو أدلّ

(١) البيت لأبي نؤاس. تاريخ بغداد ٤: ٣٦٧، شرح نهج البلاغة ٧: ٢٠٣، مختصر المعاني:

دليل على وحدانية الله تعالى ، وعلى أن القرآن الكريم منه ، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١) ، وهو قانون لم يهتد إليه العلم إلا مؤخراً. وإذا كان الأمر كذلك فمن أين جاء النبي ﷺ بهذه المعلومات لولا أن تكون من السماء؟

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يريد أن يثبت للناس أنه كتاب الله تعالى ، وأن النبي ﷺ سفير السماء وحامل وحيها ، وبهذا سيؤمن الناس بنبوة رسولنا العظيم .

ثم إن ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ يعني أن هناك قانوناً تكوينياً وآخر تشريعياً. فالقانون التكويني هو أن المرأة خلقت للرجل وأن الرجل خلق للمرأة أينما كانا وكيفما كانا. وهذا يسمى قانون التزاوج التكويني ، أما القانون التشريعي فهو العقد الشرعي الذي يطهر بموجبه المولد وتطيب النطفة ، وهو المسمى بقانون التزاوج التشريعي . وهو تشريع له ضوابطه وقوانينه ، ومباحاته ومحظوراته . فالله تعالى يمنع من الزواج إذا كان هناك اختلاف في الدين ، لكن لا على نحو الإطلاق ، بل إن المشرك هو الذي لا يجوز تزويجه من مسلمة ، والمسلم أيضاً لا يجوز له الزواج من مشركة . لكن أن يمنع مسلم من الزواج من مسلمة لأن أهلها لا يرتضون مذهبه ، والرسول ﷺ يقول : «من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزوجه ، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»^(٢) ، فهذا من أعجب العجب ؛ فهل إن من يتبع جعفرراً الصادق عليه السلام أو محمداً الباقر عليه السلام ويقدم سلفاً ومن خلف منهما - هذه النجوم المتلألئة في سماء الإسلام ، والشموع

(١) يس : ٣٦ .

(٢) الكافي ٥ : ٢٤٧ / ١ - ٣ ، الفقيه ٣ : ٣٩٣ / ٤٣٨١ ، كنز العمال ٦ : ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧ .

المضيئة في دنيا العلوم، والمصايح التي هي ألق كلّها، وجميعها سموّ: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهليّة بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهّمات ثيابها»^(١) - يعدّ مارقأعن الدين، مع أن المسلم هو من يقول: «أشهد ألاّ إله إلاّ الله، وأشهد أن محمّداً رسول الله»، ويتوجّه إلى القبلة المشرفة؟ والغريب أن هؤلاء يريدون من الآخرين أن يعدّوهم مسلمين مع أنهم يقدّسون مروان وأمثاله من حثالات الدهر ووصمات العار في تاريخ الإسلام. وهل من موازنة بين من يأخذ من ينبوع صافٍ.. عن امتداد النبوة ومن اشترط فيه الطهارة والعصمة والبعد عن المحرمات، وبين من يأخذ من مروان وأمثاله؟ هذا مع أن الطريق إلى ذلك الامتداد الحقيقي للنبوة طريق معقّد وغير معبّد؛ فنحن لا نأخذ بالرواية على عواهنها، بل إنما نفعل ذلك بعد أن نخضعها لعملية تدقيق وتمحيص بالغة الدقّة والعناية؛ فنخضعها لدراسة السند، حيث إننا نشترط فيه ألا يكون مخدوشاً بوهن أحد رواته أو بضعفه أو بأنه مقدوح فيه، ثم بعد ذلك نعمد إلى مدلولها، فنناقشه حتى نستخلص الحكم ونصل إليه، في حين أن الآخر يرى عدالة ووثاقة من لا عدالة له وليس هو بثقة، فينقل عنه مروياته ويأخذ عن طريقه أحكامه.

وهذا مقياس مخطوء؛ ف«المؤمنون تكافأ دماءهم، ويسعى بذمتهم أدناهم»^(٢). وهذه الكفاءة شرعية، أي أن المسلم له أن يتزوج من مسلمة مهما كان مذهبها، كما أن المشرك ليس له أن يتزوج منها. وهذا سببه

(١) مصباح المتهجّد: ٧٢١.

(٢) دعائم الإسلام ٢: ٤٠٤ / ١٤١٥، الخصال: ١٤٩ / ١٨٢، مسند أحمد ٢: ٢١٥، سنن ابن ماجه ٢: ٨٩٥ / ٢٦٨٣ - ٢٦٨٥، سنن أبي داود ١: ٦٢٥ / ٢٧٥١.

اختلاف القيم والعقائد والأخلاق: «من زوّج ابنته شارب الخمر فكأنما قادها إلى الزنا، ومن زوّج ابنته مخالفاً له على دينه فقد قطع رحمها»^(١). أي على الأب ألا يتعجّل الأمور، وهو مقبل على أمر جليل كهذا، فهو أمر يستحق التأني والتروي قبل الولوج فيه. ومن يفعل هذا فإنه ليس على خلق الإسلام في شيء، والإسلام ليس من أخلاقه أن ذا المركز الاجتماعي والرصيد المالي يقدر، أمّا المؤمن الملتزم بسلوك الرسول ﷺ والذي يتبع دينه فلا يزوّج بحجة أنه من المذهب الفلاني، أو بحجة أنه من البيوتات الخاملة. إن هذا هو الظلم بعينه؛ فهذا الفقير المؤمن يحتمل كثيراً أنه هو الذي يحقق للفتاة السعادة ورخاء الحياة، ويعرقها في جوّ من المودة والاحترام، وكذلك هو الحال مع الفتاة الفقيرة ذات الدين، فمحتمل جداً، بل إنه أمر يقيني أنها تحفظ له نفسه وشرفه وبيته، وبالتالي سعادته: «اظفر بذات الدين تربت يداك»^(٢)؛ ذلك أن المرأة المؤمنة الملتزمة التي تطبّق أوامر الله تعالى وتنتهي عن نواهيها تمتاز بكونها تمتلك كل المقومات السليمة والصحيحة لبناء لبنة صالحة، وبالتالي بناء مجتمع صالح سليم، وكذلك إن كان الزوج مؤمناً؛ لأنه إن أحبّها أعطاهما فوق ما تستحق وإن لم يحبّها لم يظلمها، بل يعطيها حقّها. إذن فمسألة الاختيار المبنية على حسن السلوك واستقامة الأخلاق وسلامة الدين هي الأساس، أما الاختيار القائم على أساس الرصيد المالي والجاه الاجتماعي فليس من الإسلام في شيء، ومقياسنا هو ﴿إِنَّ أُكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ﴾^(٣).

(٢) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

(١) الفقيه ٤: ٥٨ / ٥٠٩١.

(٣) الحجرات: ١٣.

لولا علي عليه السلام لم يكن لفاطمة عليها السلام كفاء

ومن باب أن (الشيء بالشيء يذكر) أجد أن من المناسب هنا ذكر حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «لولا علي لم يكن لفاطمة كفاء»^(١). وهي رواية تستحق التوقف عندها، إذ ربما يقول قائل: إن كانت الكفاءة من جهة الإسلام فالمسلم كفاء المسلم كما هو المعروف، فما هي هذه الكفاءة إذن؟ وهل يراد بها جانب آخر؟ نعم، يراد بالكفاءة هنا جانب آخر غير الإسلام، فالزهراء عليها السلام قد اعتبرت سيدة نساء العالمين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبقوله: «فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها»^(٢)، وكذلك أمير المؤمنين عليه السلام الذي خاطبه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «أنت مني وأنا منك»^(٣)، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كما ترويه عائشة - حيث كان صلى الله عليه وآله وسلم قد مر بأمرير المؤمنين والزهراء والحسينين عليهم السلام فقال لهم: «أنا حرب لمن حاربكم سلم لمن سالمكم»^(٤).

فإذا كانت الزهراء عليها السلام جزءاً من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان علي عليه السلام نفسه الشريفة بنص القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ

(١) كشف الغمّة ٢: ١٠٠، بحار الأنوار ٤٣: ١٤١ / ٣٧، ٤٣: ١٤٥ / ٤٩.

(٢) الشفا (القاضي عياض) ٢: ٢٣٠، أمالي أبي نعيم: ٤٥، ينابيع المودّة ٢: ٤٧٨ / ٣٤٠.

(٣) مسند أحمد ١: ١٠٨، ٤: ١٦٤ - ١٦٥، ٥: ٣٥٦، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٢٩٦ - ٢٩٧، المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٣٣. وبقوله صلى الله عليه وآله وسلم كما روت عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ادعوا لي سيّد العرب». فقلت: يا رسول الله، ألسنت سيّد العرب؟ فقال: «أنا سيّد ولد آدم، وعلي سيّد العرب». المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٢٤، مطالب السؤل في مناقب آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (محمد بن طلحة الشافعي): ٢٦.

(٤) المعجم الأوسط ٣: ١٧٩، المعجم الصغير ٢: ٣، أسد الغابة ٣: ١١، سير أعلام النبلاء ٢: ١٢٢ - ١٢٣، ٣: ٢٥٧ - ٢٥٨ / ٩٩.

وَيَسَاءَنَا وَيَسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهُلُ فَنجعل لعنة الله على الكاذبين»^(١)،
ومن رسول الله ﷺ كما مرّ، فلا بد إذن أن يأخذ التكافؤ معنى آخر مبتنياً
على كون أن النبي ﷺ سيّد الموجودات، وهذان العظيمان كلاهما
ينتميان إلى هذه الحقيقة نفسها، ومن كانا كذلك فلا بد من أن تؤخذ في
أمر الكفاءة حيالهما جوانب أخرى غير تلك المعروفة لعامة الناس.

هذا فضلاً عن النواحي الأخرى التي عرفنا (صلوات الله وسلامه على
رسوله وعليهما وأهلها) بها ممّا تفيض به الصحف، وتستوفى به
الموازنين؛ فهما عليهما رابعا الليل، فالزهراء عليها السلام كانت تظلّ في مخدعها
قائمة وقاعدة، وراكعة وساجدة طيلة الليل حتى الصباح، وعلي بن أبي
طالب عليها السلام هو السيف والساعد المجاهدان في سبيل الله تعالى، والذابان
دون رسول الله ﷺ، فهو عليهما المجاهد في ساحتي الحرب والمجتمع،
وهي عليهما المجاهدة في ساحة المجتمع، فهي التي حملت أخلاق
أبيها ﷺ وأشبهته في كل شيء. يروي شرحبيل عن أمّ سلمة (رضوان الله
تعالى عليها) كما نقله صاحب (كشف الغمّة)^(٢) وغيره^(٣) من أنه لما كان
صبيحة عرس الزهراء عليها السلام جاء النبي ﷺ بعسّ فيه لبن، فقال لفاطمة:
«اشربي فداك أبوك». وقال لعلي: «اشرب فداك ابن عمك».

ولا يخفى أن النبي ﷺ هو أشرف الموجودات وأعلاها، وهذا من
خلقه الكريم ونبله العظيم وتواضعه الكبير، لكنه في المقابل يريد أن
يعطي هاتين النسمتين الإلهيتين ما تستحقّانه من تكريم. ومثل هذا ما

(١) آل عمران: ٦١.

(٢) كشف الغمّة ١: ٣٧٨، ٢: ١٠١.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٣٢.

ترويه أم المؤمنين أم سلمة حيث قال لها: « يا أم سلمة ، هلمّي فاطمة ». فأنت بها ، فلما وقفت بين يديه كشف الرداء عن وجهها حتى رآها علي عليه السلام ، ثم أخذ يدها فوضعها في يد علي عليه السلام وقال : « بارك الله لك في ابنة رسول الله . يا علي ، نعم الزوجة فاطمة ، ويا فاطمة ، نعم البعل علي . انطلقا إلى منزلكما ولا تحدثا أمراً حتى آتيكما » .

ثم جاء رسول الله ﷺ فدخل وأجلس فاطمة عليه السلام من جانبه وعلياً عليه السلام من جانبه ، ثم قال : « يا فاطمة ، اثتيني بماء » . فقامت إلى قعب في البيت ، فمأثته ماء ، ثم أتته به ، فأخذ منه جرعة فتمضمض بها ، ثم مجّها في القعب ، ثم صبّ منها على رأسها ، ثم قال : « أقبلي » . فلما أقبلت نضح منه بين صدرها ونحرها ، ثم قال : « ادبري » . فلما أدبرت نضح منه بين كتفيها ، وفعل مثل ذلك بأُمير المؤمنين عليه السلام ، ثم قال : « اللهم هذه ابنتي وأحبّ الخلق إلي ، اللهم وهذا أخي وأحبّ الخلق إلي ، اللهم لك ولياً وبك حفيماً ، وبارك في أهله ، وبارك في ذريتهما ، واجعل عليهما منك حافظاً ، وإني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم . اللهم إنك باركت على آل عمران ، فبارك على آل محمّد » ، ثم خرج (١) .

فيا رسول الله (صلى الله عليك وعلى آلك وسلم) ، ليتك ترى هذه النسمة الطاهرة يوم جلست على قبرك الشريف يعتصرها الألم ويضمّخها الشجا والأسى ، وهي تستعبر باكية وتتمثل بأبيات هند بنت أثاة قائلة :

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها واختل قومك فاشهدهم فقد شغبوا

(١) الأُمالي (الطوسي) : ٤٣ - ٤٢ ، مناقب آل أبي طالب ٣ : ١٣١ .

قد كنت بدرأً ونوراً يستضاء به عليك تنزل من ذي العزة الكتبُ
وكان جبريل بالآيات يحضرنا فغاب عنا وكل الغيب محتجبُ
فقد رزئت أباً سهلاً خليقته محض الضريبة والأعراق والنسبُ^(١)

ولنا أن نتساءل: ما الذي تشتكيه فاطمة الزهراء عليها السلام؟ لقد وقفت أمام القبر لتريه جوانب من جسدها الطاهر ممّا فعله بها حقد القوم. يقول الباقر عليه السلام: «ما رؤيت فاطمة ضاحكة قط منذ قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى قبضت»^(٢).

تقول أسماء: قالت لي الزهراء عليها السلام ليلة حضرتها الوفاة وقد اشتدت عليها العلة: «يا أسماء، أنا ذاهبة إلى حجرتي أضطجع، وبعد ساعة ناديني، فإن أجبته وإلا فاعلمي أنني لحقت بأبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. يا أسماء، إذا جاء الحسنان فضعي لهما الطعام، وإن سألا عني فقولي: إن أمكما نائمة بالحجرة. وتعالى إلى هنا فاسكبي لي الماء».

تقول: فسكبت لها ماء، فلبست ملابسها وذهبت إلى الحجرة، وبعد ساعة ناديت: يا بنت رسول الله، فلم تجبني. فقلت: يا بنت من صلى بملائكة السماء مثني مثني، فلم تجبني. فقلت: يا بنت من حمل الركن بأطراف الرداء، فلم تجبني. فدنوت إليها فكشفت الرداء عن وجهها فإذا بها ميتة، فجلست عندها أبكي، ثم جاء الحسن عليه السلام إليها فكشف الرداء عنها، ثم صاح: «أخي حسين هلم إلي، إن أمنا فاطمة قد فارقت روحها الدنيا»^(٣).

(١) شرح الأخبار ٣: ٣٩، الطبقات الكبرى ٢: ٣٣٢، شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٥١.

(٢) السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام (محمد بيومي): ١٣٢.

(٣) قريب منه ما في بحار الأنوار ٤٣: ١٧٤ - ١٨٠ / ١٥، عن فضة خادمة الزهراء عليها السلام.

كما أوصت (سلام الله عليها) أمير المؤمنين عليه السلام فقالت له: «في صدري وصايا تختلج، وأريد أن أوصيك بها». قال عليه السلام: «بلى، عزّ والله عليّ فراقك يا بنت رسول الله». قالت: «يا أبا الحسن، إن أنا قضيت نحبي فغسلني بثيابي ولا تكشف عني فإني طاهرة مطهّرة. يا علي، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوَّج بعدي فعليك بابنة أختي أمّامة فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسنين يوماً وليلة، ولا تصح في وجهيهما، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين، بالأمس فقدما جدّهما واليوم يفقدان أمّهما». ثم قالت: «فادفني ليلاً إذا نامت العيون وهدأت الأصوات»^(١).

ففعّل عليه السلام كما أوصته، ولمّا أنزلها إلى قبرها، جلس عندها على شفير القبر، وراح يستعبر ويقول:

أرى علل الدنيا علي كثيرة	وصاحبها حتى الممات عليّ
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد	دليل علي ألا يدوم خليل ^(٢)



(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.

(٢) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٨٧.

نظام تعدد الزوجات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ
النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ
فَتَذَرُوهُنَّ كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ
اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: في أن أحكام الشرع بعضها ثابت وبعضها متغير
سبق أن نوهت في معرض كلامي إلى أن الفقه الشريف ينضوي تحته
قسمان من الأحكام بلحاظ سياليتها:

القسم الأول: الأحكام الثابتة (الفقه غير المتحرك)

وهو ما يسمى بالأحكام الجامدة، وهي الأحكام التي تعمل في
حالات معينة خصّها الشارع المقدّس بها في وقت معين، ومثالها أن
يحتفر رجل بئراً في بيته، فما هي المسافة التي يجب أن يراعيها جاره

(١) النساء: ١٢٩.

حتى يتمكن من أن يحفر بئراً له في بيته؟ أي ما هي المسافة بين بئره وبئر جاره، بحيث لا يؤثر معها بئره على بئر جاره؟ فهذه المسألة لها حكم عند الشارع، لكنها اليوم ليست محل ابتلاء لتوفر شبكات الإسالة التي توصل الماء إلى البيوت، وهو ما جعل موضوع البئر موضوعاً ثانوياً جداً بل لا يكاد يعرّج عليه إلا في بعض الأصقاع البعيدة عن الحضارة والتمدن، والتي لا زالت تستخدم البئر في حياتها اليومية. وهؤلاء قلّة قياساً إلى الحالة العامّة للعالم كله.

وهذا يدخل ضمن الأحكام التي ذهبت موضوعاتها بحكم التطور الحاصل في الحياة، والذي نعيشه اليوم، لكن الحكم باقي بحيث إنه لو حصل موضوعه لوجب تطبيق ذلك الحكم الشرعي.

القسم الثاني: الأحكام المتحرّكة (الفقه المتحرك)

وهذا القسم ينضوي تحته الأعم الأغلب من أحكامنا الشرعيّة، وهو القسم الذي تتفاعل معه يومياً من خلال تعاملنا مع المجتمع أو الحياة أو النفس أو الخالق جلّ وعلا. ومن ضمن هذه الأحكام موضوع محاضرتنا هذه الذي سيمرّ بنا.

المبحث الثاني: في أن نظام التعدد ميراث إنساني

وهذه القضية التي ستكون محور محاضرتنا هي قضية هامّة وحساسة، وهي محلّ ابتلاء كبير يكاد يدخل في حياة أكثر الناس بل في المجتمع ككل. وهي قضية تعدّد الزوجات التي سنذكر موقف الإسلام منها ورأيه فيها. والحقيقة أنّ هذه المسألة جاءتنا كميراث إنساني وليست ميراثاً وضعياً، وهو ما دعانا إلى القول بأنها تكاد تدخل في حياة المجتمع ككل، أي كل الشعوب والقبائل والأمم. فهذه الظاهرة موجودة عند

جميع الفئات الاجتماعية التي ذكرنا بشكل أو بآخر، وفق تعدّد الشرائع والموروثات الاجتماعيّة.

أشكال التعدد عند المجتمعات

وهذا معناه أن هناك صوراً مشروعة للتعدد وصوراً غير مشروعة له. فمثال الصور المشروعة الزيجات الشرعية (الدائمة والمنقطعة) والإماء وغيرهما، ومثال الصور غير المشروعة الزواج العرفي الذي تشتهر به حتى بعض البلاد الإسلامية؛ فهي لا تمرّ عن طريق الشرع أو القانون المعتمد في تلك البلاد، وهذا من قبيل اتخاذ الخليلات. كما أن هناك حضارات وقبائل لازالت تعتمد نظام تعدد الأزواج للزوجة الواحدة ولا تعدّ ذلك عاراً أو خطأً. ولو قرّبنا الطريق وعرّجنا إلى البلاد المتقدّمة أو المتطورة كأوروبا مثلاً، ونظرنا إلى الكيفية التي يتم الزواج فيها لوجدنا أن الزواج المشروع قليل جداً، وأن الزواج الغالب هو الذي لا يأخذ الصفة الشرعية، (نسأل الله تعالى ألا يوصلنا إلى هذا المستوى من السقوط، وأن يحفظ لنا أسرنا). فالأسرة التي رسمها الإسلام الحنيف لنا يجب مراعاتها؛ لأنها هي الأسرة التي تتناغم مع الفطرة. وأحبّ أن أوكد على أن الفطرة الإنسانية في أمس الحاجة للإشباع المباشر، ونظام الأسرة الأمثل هو أن يعيش الرجل مع زوجته وأطفاله تحت سقف واحد. فهذه هي الحياة الكريمة التي نأمل من الله تعالى أن يبقيها لنا، وألا يحرمنا منها.

المبحث الثالث: أسباب التعدّد وحلول الإسلام

إذن نحن ورثنا نظام التعدّد، وهو ميراث إنساني اجتماعي، لكن ما هي

الأسباب التي تدعو إلى التعدد؟ وكيف عالج الإسلام هذه المسألة ووضع لها الحلول المناسبة؟ هناك عدّة أسباب وعدّة حلول تذكر في المقام، منها:

السبب الأول: العامل الاقتصادي

وهو أن يطمح الرجل من وراء تعدد الزوجات إلى الحصول على أكبر عدد ممكن من الأولاد؛ كي يستثمر طاقاتهم ومهاراتهم في العمل الصناعي أو الزراعي؛ مما يزيد في آلية الإنتاج والربح، فهو يريد منهم مثلاً أن يقفوا إلى جانبه في كفاحه اليومي مع الحياة وفي صراعه معها. وهناك جانب آخر (أو وجه آخر) للعامل الاقتصادي، وهو ما تلجأ إليه بعض الشعوب الأفريقية خاصة والشعوب الفقيرة عامّة، حيث يقومون ببيع أبنائهم للعائلات الغنية سيّما تلك التي لم ترزق بولد. وهذا السبب لازال يستعمر عقول البعض إلى يومنا هذا.

السبب الثاني: العامل الاجتماعي

والمراد به: العزّة والمنعة؛ لأنهم يعتقدون أن الذي عنده أولاد أكثر يكون أعزّ وأمنع؛ ولذلك كانت البيوت تفتخر بكونها تحوي عدداً أكبر من الأولاد وتعدّ نفسها ذات منعة ومهابة الجانب لا يدنوها أحد. دخل عامر بن أحيمر على النعمان فسأله النعمان: من أنت؟ قال: أنا من بيت هم أشعر العرب وأوفى العرب. فأخرج النعمان من لباسه بردين وقال: ليقيم أعزّ العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أحيمر فأخذهما فائتزر بواحدة وارتدى بالأخرى، فقال له عمرو بن المنذر: أنت أعزّ العرب قبيلة؟ قال: نعم؛ لأن العزّ كلّ في معدّ، والعدد في معدّ ثم في نزار ثم في

مضر ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب، فمن أنكر ذلك فليناظرني . فسكت الناس ، فقال عمرو بن المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم ، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعمّ عشرة ، وخال عشرة ، وها أنا في نفسي وشاهد العزّ شاهدي . ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مئة من الإبل . فلم يقم إليه أحد ، فخرج بالبردين ، وضرب المثل بعزّه وببرديه^(١) .

وموضع الشاهد هنا أن هؤلاء كانوا يتغنون بالقوة ، وهو أمر نابع من تأثير مجتمعهم الذي كان لا يعترف إلا بالقوة وسيلةً للتعامل مع الآخرين دون أن يكون هنالك أي وجود للقانون . فالمجتمع ليس مجتمع قانون بل مجتمع قوة نابعة من مظاهر البداوة وضرورتها .

ومن هذه المظاهر أن البدوي حينما تكون عنده خصومة مع أحد فإنه يأنف أن يشتكي خصمه في دور القضاء ؛ لأنه يُعدّ ذلك جبناً ، فالحق عنده أن يؤخذ بالقوة وييده هو ، فهو يرى أن ذلك هو الحق . وهذه روح بدوية لا تخضع لضوابط القانون .

والإسلام الحنيف بذل جهداً كبيراً لعلاج هذه الرواسب كي يتمكن من جعل هؤلاء البداوة يتقبلون هذه الوسائل الحضارية التي تخرجهم من عهود الوحشية إلى عهود الاستئناس . وقد وصل الأمر بهؤلاء إلى أنهم

(١) خزائن الأدب ١: ٤١٢ . وروي أنه لما قتل جساس بن مرة كليب بن ربيعة تشمّر أخوه مهلهل واستعد لحرب بكر ، وجمع إليه قومه فأرسل رجالاً منهم إلى بني شيبان ، فأتوا مرة بن ذهل أبا جساس وهو في نادي قومه ، فقالوا له: نحن نعرض عليكم خلافاً أربعاً لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع . وذكروا منها أن يدفع مرة إليهم هماماً لأنه كفء لكليب ، فقال لهم مرة: أما همام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة كلهم فرسان قومهم فلن يسلموه لي فأدفعه إليكم يقتل بجريرة غيره . جمهرة خطب العرب ١: ٤١ .

رفضوا الدخول في الإسلام؛ لأنه يأمرهم بالصلاة المشتملة على السجود، وهم يرفضون السجود خشية أن يعلوا رأس أحدهم استه. فكيف يمكن أن يكون التعامل مع هذا اللون من العقليات؟

فهؤلاء إذن كانوا يتغنون بالمجد، ويتصوّرون أنه لا يمكن الوصول إليه إلا عن طريق المنعة. وأحد أسباب المنعة الأولاد الذين سيشاركون القبيلة في غزوها وحربها، ذلك أنهم كانوا لا يستذوقون الحياة إلا مع السيف والسنان، بل حتى لقمة العيش كانوا لا يستمرئونها إلا إذا كانت قد اكتسبت عن طريق السيف، بل وأكثر من ذلك أنهم كانوا يحتقرون المهن ويعتبرون أنها من سمات الضعيف.

مغالطات المستشرقين

ولهذا فإن المستشرقين حينما درسوا هذه الظاهرة وأرادوا الإساءة إلى الرسول الأكرم ﷺ حاولوا جاهدين أن يسحبوا هذه الظاهرة عليه فقالوا: كان نبي المسلمين رجلاً يعيش على السلب والنهب. وهؤلاء في الحقيقة بعيدون عن فهم الإسلام وفهم نبي الإسلام ﷺ.

السبب الثالث: العامل النفسي

ويعني هذا العامل أن الإنسان يحب الحياة، وأحد مظاهر حب الحياة عنده هو الإنجاب. يقول العلماء: إن حب الحياة عند الإنسان يدل على وجود يوم القيامة؛ حيث إن الله لم يخلق شيئاً عبثاً. فانظر إلى أعضاء جسمك فسترى أن لها وظائف تختص بها، وكذلك أمورك النفسية كلها لها وظائف، فلا يوجد جزء مخلوق عند الإنسان بحيث لا توجد هنالك حكمة وراء خلقه. فالله تعالى خلق عندنا حب الحياة، وإلا فمن منا

يستهي الموت؟ فلا يوجد أحد يحب الموت مطلقاً حتى أولئك الذين يعانون في هذه الحياة من مشاكل كثيرة لا يودّون مفارقتها. يقول أبو الطيب المتنبي:

ولذيذ الحياة أوقع بالذنف سس وأشهى من أن تُملَّ وأحلى
وإذا الشيخُ قال أفّ فما مـ لـ حياةً لكنما الضعفُ ملاً^(١)

حبّ الحياة دليل على وجود يوم القيامة

إذن حبّ الحياة غريزة أودعها الله فينا، وهو يدلّ على وجود عالم آخر. أما كيف يدلّ على ذلك، فهذا ما يتّضح بأمرين:

الأول: أننا نعرف أنّ هناك عالماً آخر سننتقل إليه بعد الموت، فكما خرج الإنسان من عالم التراب إلى عالم الأضلاب إلى عالم الأرحام إلى عالم الدنيا، وبعد ذلك إلى عالم التراب (القبر)، فإنه سيخرج بعد ذلك إلى عالم الآخرة^(٢).

الثاني: أن الإنسان بطبعه لا يحبّ أن يخرج من الحياة إلا بعد أن يوجد امتداده الطبيعي فيها، وهذا الامتداد هو الولد؛ ولذلك فإن الإنسان إذا مات وترك ذريةً صالححة قال الناس عنه: إن فلاناً لم يمت، وإنه باقٍ ومتجسّد بأولاده. فالإنسان إذن يريد امتداده الطبيعي؛ ولذلك كان العرب يُعيّرون من ليس له ولد ذكر، ويُعبّرون عنه بأنه أبتري؛ لأن الأُنثى عندهم ليست امتداداً طبيعياً للرجل، بل كانوا يحتقرونها كونها لا تخلد أباهما. مع العلم أنه لا فرق بين البنت والولد إذا كانا صالحين، بل كلاهما

(١) ديوان المتنبي ٢: ٤٠٥.

(٢) بمعنى أن حبّ الحياة عنده يجعله يذعن بأنه وإن مات فإنه سيلج بعد موته حياة جديدة.

يخلد أباه.

إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكُوْثَرَ

ولذا فإن القاسم والطاهر وإبراهيم وأولاد الرسول ﷺ حينما قبضوا أخذ المشركون يعيرون الرسول ﷺ بأنه أبتري - أي ليس له عقب - فنزلت سورة الكوثر: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أُعْطِينَاكَ الْكُوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(١). فالله تعالى يقول له ﷺ: أنت لست الأبتري، بل إن الأبتري هو عدوك، وإن الله تعالى حينما حرمك من الأولاد فإنه من جانب آخر جعل ذريتك عن طريق ابنتك فاطمة الزهراء عليها السلام. ولذا كان ﷺ يقول: «الحسن والحسين ولداي»^(٢)، ويقول «أحب الله من أحب حسينا»^(٣)، ويقول: «كل بني أم يتمون إلى عصبتهم إلا بني فاطمة فإنني أنا أبوهم»^(٤)؛

(١) الكوثر: ١ - ٣.

(٢) تحفة الأحوذى ١٠: ١٨٧، المصنف (ابن أبي شيبه) ٧: ٥١٢ / ٢٢، خصائص أمير المؤمنين (النسائي): ١٢٣، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٣، المعجم الصغير ١: ٢٠٠، كنز العمال ١٣: ٦٧١ / ٣٧٧١١، تاريخ مدينة دمشق ١٣: ٢٥، ٢٦، ١٩٩، ١٤: ١٥١، ١٥٥، تهذيب الكمال ٦: ٥٥، وغيرها كثير.

(٣) الأدب المفرد: ٨٥، مسند أحمد ٤: ١٧٢، سنن ابن ماجه ١: ٥١، سنن الترمذي ٥: ٣٢٤، المصنف (ابن أبي شيبه) ٧: ٥١٥، خصائص أمير المؤمنين عليها السلام (النسائي): ١٠٣، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ١٣٦ / ٨٤٨٥، صحيح ابن حبان ١٥: ٤٢٨، المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٧٧.

(٤) مجمع الزوائد ٤: ٩٩، المعجم الكبير ٣: ٤٤ / ٢٦٣٢، تهذيب الكمال ١٩: ٤٨٣، ٤٨٤، وغيرها كثير.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله لم يبعث نبياً إلا جعل ذريته من صلبه غيري؛ فإن الله جعل ذريتي من صلب علي». انظر: كشف القناع (البهوتي) ٥: ٣٢، الفقيه ٤: ٣٦٥، وقال: «لكل بني أب عصة ينتمون إليه إلا ولد فاطمة أنا عصبتهم». نيل الأوطار ٦: ١٣٩، كنز العمال ١٢: ٩٨ / ٣٤١٦٨، تاريخ مدينة دمشق ٣٦: ٣١٣.

حيث إنه ﷺ كان يرى فيها امتداده الطبيعي . وهذا هو السبب الذي من أجله كان الصحابة والتابعون وغيرهم من المسلمين ينادونهما بعبارة «ابن رسول الله» .

فالإنسان يرغب بأن يترك خلفه من يحيي ذكره ويمدّد وجوده في الدنيا قبل أن يموت، فإذا كانت المرأة غير قادرة على الإنجاب فإن الرجل سيكون مضطراً إلى الزواج من أخرى؛ كي يوجد ذلك الامتداد له من بعده .

السبب الرابع: العامل الطبيعي

وهو ناشئ من كون عدد الذكور أقل من عدد الإناث؛ وذلك بسبب الحروب الطاحنة التي أكلت الأخضر واليابس على مرّ التاريخ . فمعلوم أن الرجال هم وقود هذه الحروب؛ إذ أن الرجل هو الذي كان يجنّد في الحروب، وحتى في الجيوش الحديثة التي تجنّد المرأة فإنها لا تعطى مهامّ قتالية أو أعمالاً حربية مباشرة، بل كل ما تُعطاه هو أعمال ثانوية بعيدة عن القتال غالباً، كالأعمال الإدارية أو التبعية، أما مباشرة الحرب والقتال فلا، بل توكل هذه المهمة كما قلنا للرجل . ولذلك فإن عدد القتلى يكون في الرجال أكبر؛ مما يؤدي إلى تضخّم في أعداد النساء . وهذا الأمر غير مختصّ بمكان ما أو زمان ما، فقد كانت الدنيا ومازالت قائمة على الحروب الطاحنة والمنازعات والمخاصمات .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الله عزّ وجلّ أعطى المرأة مناعة ضد الأمراض أضعاف ما أعطى الرجل؛ لأن المرأة تمرّ بمشاكل كثيرة - وإن كان الرجل كذلك - من قبيل الحمل والنفاس وتربية الطفل وشؤون

البيت؛ فهي أكثر عرضة لأسباب المرض من الرجل، ولذا أعطاه الله تعالى خواصَّ جسدية ونفسية لتحمل المرض ومقاومته والمناعة ضده. ومن الخواصَّ الجسدية وجود طبقة شحمية تحت الجلد تحميها وتمنع عنها عوارض الحرّ والبرد، ومن الخواصَّ النفسية زيادة كمية الحنان والحب للطفل الرضيع، وهو أثر لهرمون كيميائي يسمى هرمون الأمومة الذي يجعل منها كائناً ثرياً بهذه المشاعر والأحاسيس، وهو ما ليس موجوداً عند الرجل الذي يتعرّض للأمراض بحكم عمله مما جعله عرضة للموت.

علاج حالات نقص الذكور

وبهذا يكون عدد الرجال أقل من عدد النساء، ويمكن تلافى هذه الظاهرة وتحقيق التوازن فيه بأحد طريقتين:

الطريق الأول: الزواج غير المشروع

وهو الطريق المعتمد عند الغالبية في أوروبا وغيرها، وذلك أن يتخذ الرجل أكثر من خليلية؛ فيكثر النسل، لكنه يبقى نسلاً غير شرعي.

الطريق الثاني: الزواج المشروع

وهو نظام تعدد الزوجات الذي أقرّه الإسلام، لأنه يريد أن يخلق جيلاً نظيف المشاعر، ذا حياة نقيّة طاهرة بعيدة عن العلاقات الإباحية في الجنس، وبعيدة عن العهر والفجور. فقضية إباحة التعدد قضية يهدف الإسلام من ورائها إلى وضع حلول مناسبة لمسألة خطيرة تواجهها البشرية جمعاء؛ سواء كانت هذه المسألة متعلقة بإيجاد معادلة بين الذكور والإناث أو بإشباع الغريزة البشرية إشباعاً مشروعاً.

السبب الخامس: عامل الفقر

وهذا العامل وإن كان داخلاً ضمن العامل الاقتصادي لكنه الآن يتعلّق بالمرأة وليس بالرجل؛ فبعض النساء فقيرات لا يملكن شيئاً، ولا يتمكنّ من العيش بالشكل الذي يردنه؛ وهذا يضطرهنّ إلى القبول بالزواج من رجل متزوّج كي يسدّدن هذه الحاجة المعيشيّة، ويبعدن عن أنفسهنّ شبح العوز الذي قد يفقدن كرامتهنّ بسببه، وذلك فيما إذا وقعن تحت برائته. وهذا ما يحدث بالفعل، فقد وقع الكثير من النساء في هوة الانحراف والفجور، لا لحبّ في الانحراف والفجور لذاتهما، بل للهروب من واقع اجتماعي أو اقتصادي؛ فهنّ مضطرات إلى ذلك.

لكن هذا لا يصحّح الوسيلة، ولا يبرّر الخطيئة؛ فالنتيجة واحدة، وهي الوقوع في الحرام الذي لا يمكن أن يعدّ أي أمر - مهما بلغ - مسوّغاً للوقوع فيه. فهو معصية مهما كانت الأسباب؛ لأنه طريق إلى هدم عفاف الأسرة والمجتمع وتضييعهما. فالطريق الشرعي إذن هو الطريق الوحيد الذي يحفظ كلّ ذلك للأسرة وللمجتمع؛ فالأولاد معترف بهم، وكرامة المرأة محفوظة. نعم، قد تتعرّض بذلك لبعض المضايقات، لكن ذلك أهون الشرّين؛ إذ أن هذه الحلول لا بدّ منها.

إذن لا بدّ للطريق الصحيح والعلاج المشروع من العقود في قضايا النكاح.

شرائط التعدد ومسوّغاته

ونرجع إلى موضوعنا فنقول: ذكرنا أن هناك أحكاماً مفتوحة يترك تقديرها إلى المكلف نفسه، فمثلاً حينما يسلم الله مكلفاً على ملكيته

الخاصة فهذا لا يعني أن تسليطه هذا يصل حد الانحراف في الإنفاق، فيسرف فيه بالشكل الذي يستنكره العرف ولا يقره الشرع. وكذلك الأمور الأخرى التي ترك الله سبحانه وتعالى لنا فيها مساحة مفتوحة. وعلاقة هذا بموضوعنا أنه تعالى حينما أباح مسألة تعدد الزوجات، وأعطى الإنسان الحق في ذلك فإنه قننه وربطه بأسبابه الداعية إليه، فإذا كانت الزوجة جميلة ومخلصة وولودة فما الداعي لأن يبحث الرجل عن أخرى؟ لكن الذي يحصل في مجتمعاتنا أن الرجل بمجرد أن يملك زيادة من المال يسارع إلى الزواج من ثانية وثالثة ورابعة، متدراً بأن الله تعالى قد أباح له هذا الأمر.

أسباب حظر التعدد

السبب الأول: التمكن من الإعالة والتربية

والذي أود أن أثبته هنا هو صحيح أن الله تعالى قد أباح التعدد، لكن يجب على الرجل أن يفكر قبل الإقدام على الولوج في هذا المباح، ويسأل نفسه: هل أستطيع تربية الأطفال الذين سيولدون لي من هؤلاء الزوجات، وأوفر لهم الجو الروحي والتربوي؟ وهل أستطيع إعالتهم وتوفير المناخ الاقتصادي لهم بحيث إنهم لا يذوقون العوز، ولا تلسعهم شوكته فينحرفون عن الطريق؟ وهل سينسجم هؤلاء الأبناء.. أبناء العلات مع بعضهم بعد نضجهم واصطدامهم بالحياة؟

كل هذا يجب على الرجل أن يراعيه وينظر إليه بمنظار الواقع قبل أن يقدم عليه؛ لأنه بذلك سيحافظ على سلامة أسرته من التفكك، أما إذا لم يراعه فإنه إنما يدفع بأسرته نحو التفكك، ويعجل بها نحو الانهيار.

وأروي لك هنا حادثة أريد من ورائها الإيقاع بين محمد بن الحنفية عليه السلام والحسنين عليهما السلام، ذلك أن بعض ذوي النفوس الضعيفة جاؤوا إلى محمد وقالوا له: لماذا يقدّمك أبوك إلى الحرب ويمنع الحسن والحسين عن أن يقتحماها؟ فقال عليه السلام: الحسنان عينا أبي وأنا يده، والإنسان يذبّ بيده عن عينيه ^(١).

وهذا أنموذج ريادي يجب أن يحدو حدوه كلّ الأبناء، وهو ما على الرجل أن يفكر به قبل إقدامه على الزواج ثانية؛ من حيث تآلف أبنائه وعدم تآلفهم بعد ذلك. وهذا الأمر ليس متعلقاً بطبيعة الأولاد فقط، بل إن له تعلقاً بتربية الآباء وإحسانهم تلك التربية، فهل يستطيع هذا الأب أن يخصّص وقتاً لرعاية أبنائه بعد أن أضاف عبئاً جديداً على نفسه بالزواج والأولاد، وهو ما سيضطرّه إلى العمل أكثر، وقضاء وقت أطول وأكبر خارج البيت؟ مع العلم أن الوقت يجب أن يكون أكبر مما كان عليه قبل زواجه الثاني أو الثالث لزيادة عدد الأولاد. فإن كان ذلك بالمقدور فلا بأس، وإلا فلا.

إذن فإن الله تعالى حينما أباح لنا التعدّد فإنما أباحه وفق شرائط معيّنة.

السبب الثاني: عدم العدل بين النساء

فألله تعالى حينما يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، فإنما يعني المودّة لا النفقة وغير ذلك من الأمور الماديّة. فالإنسان بطبعه يميل إلى الجمال، وحتماً سيميل إلى الزوجة الثانية

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٢٤٣.

الجميلة. ثم إن علاقة الرجل بالمرأة تكون على نحوين: مادية ومعنوية؛ فالعلائق المادية هي أن يوفر لها السكن والملبس والمأكل، والعلائق المعنوية هي أن يحبها ويحترمها ولا يعرضها إلى كراهة. وهذا مما يدخل في آية العدل بين النساء. أما المودّة فهي مما لا يمكن أن يقع فيه العدل؛ لأن هذا خارج عن إرادة الإنسان؛ إذ أن إحداهن قد تكون متميّزة بالجمال أو الأخلاق، وغيرها من الفوارق التي تجعله يميل إليها أكثر من غيرها. فهذا مما لا ضير فيه وإن لم يعدل، أمّا النفقة فلا بدّ من العدل فيها، فإن عدل فيها ونعمت، وإلا فلا يتزوّج، وهو معنى قول الرسول الأكرم ﷺ: «اللهم هذا ما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك»^(١) من الميول النفسية والقلبية، أما في النفقة فكان ﷺ مثال العدل، ولذلك كان حبّ خديجة ؓ قد استأثر بقلبه، حتى بعد وفاتها، فكان (صلوات الله وسلامه عليه وآله) إذا ذكرها اهتزّ من قرن إلى قدم.

ومما ينقل في هذا المجال أن إحدى نساءه ﷺ قالت له: ما هي إلا امرأة عجوز حمراء الشدقين، وقد أبدلك الله خيراً منها. فقال ﷺ: «كلاً، ما أبدلني الله بخير منها؛ إنها آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، ورزقني الله منها ولداً إذ حرمني من أولاد سائر النساء. وقد هبط علي جبرئيل وقال لي: بشّرنا بأن لها بيتاً في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»^(٢).

(١) مسند ابن راهويه ٢: ٢٣، صحيح ابن حبان ١٠: ٥، فتح القدير ١: ٥٢١، الديباج على مسلم ٤: ٧٩.

(٢) الذرية الطاهرة النبوية (الدولابي): ٣٢، المعجم الكبير ٢٣: ١٣، كنز العمال ١٢: ١٣٢ / ٣٤٣٤٨ - ٣٤٣٤٩، البداية والنهاية ٣: ١٥٨.

تقول عائشة: كان النبي ﷺ لا يذهب لإحدى زوجاته في ليلتها حتى يستأذنها فإذا أذنت له ذهب، وإلا فلا.

وكان ﷺ حتى في أيام مرضه يطبّق العدل بين نسائه، فكان ينقل على محفّة المرض كل ليلة إلى غرفة من غرف أزواجه التي لها الحق ليلتها تلك.

السبب الثالث: القدرة على الوطاء

وهو أمر هامّ في حياة المرأة، فقد يكون عند الرجل قدرة ماليّة لكنه لا يمتلك القدرة الجسديّة على إشباع غريزة المرأة، وهذا يجب عليه ألاّ يتزوّد من أخرى مادام كذلك؛ ولذلك كان الإمام الصادق عليه السلام يقول: «من جمع من النساء مالا يسع فزنين، فالإثم عليه»^(١)؛ لأنه لم يستطع أن يلبي حاجاتهن، وهن كما يجنحن إلى إشباع غريزة الجوع فكذلك يجنحن إلى إشباع غريزة المضاجعة. فإن لم تجد قدرة عند زوجها على إشباع هذه الرغبة، فربما تضطر إلى الخطيئة، وهنا يكون هذا الزوج العاجز هو الجاني والآثم حسب التعبير المعصومي.

فكيف إذن بالمتوكّل الذي كان عنده أربعة آلاف سُريّة ويسمى محيي السنة ومميت البدعة^(٢)؟

ملاك الزواج الدائم

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يحلّ لماء الرجل أن يجري في أكثر من أربعة

(١) الكافي ٥: ٥٦٦ / ٤٢، دعائم الإسلام ٢: ١٩٣ / ٧٠٠.

(٢) ورد ذلك في أرجوزة نقلها ابن كثير في البداية والنهاية ١٣: ٢٣٩.

أرحام»^(١). ونحن ليس عندنا نظرية تقول بجواز الزواج من أكثر من أربع نساء جمعاً، لكنه عند غيرنا كذلك. وقد تطرقت لهذا الأمر مفصلاً في كتاب (فقه الجنس)^(٢).

وقد بلغ الحد عند بعض من غيرنا أن أجاز الزواج من النساء بلا حد^(٣)، وعند بعض أنه يجوز من تسع، وعند بعض آخر منهم أنه يجوز الزواج من ثماني عشرة امرأة^(٤). ثم يأتي بعضهم ويرمي بنا به، فهم على

(١) مجمع البيان ٦: ٢، وسائل الشيعة ٢٠: ٥١٨ / ٢٦٢٣٩.

(٢) فقه الجنس: ٨١ - ٩٥.

(٣) قاله المفسر النيسابوري في تفسير قوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾، فقد قال: ذهب جماعة إلى أنه يجوز التزوّج بأي عدد أريد؛ لأن قوله: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾ إطلاق في جميع الأعداد، لصحة استثناء كلّ عدد منه، وقوله: ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ لا يصلح مخصّصاً لذلك العموم؛ لأن تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينافي ثبوت الحكم في الباقي، بل نقول: ذكرها يدلّ على نفي الحرج والحجر مطلقاً؛ فإن من قال لولده: افعّل ما شئت؛ اذهب إلى السوق وإلى المدرسة وإلى البستان، كان تصريحاً في أن زمام الاختيار بيده ولا يكون تخصيصاً. وأيضاً ذكر جميع الأعداد متعذّر، فذكر بعضها تنبيه على حصول الإذن في جميعها. ولئن سلّمنا لكن الواو للجمع المطلق، فيفيد الإذن في جميع.

وأما السنة فلما ثبت بالتواتر أنه صلى الله عليه وآله مات عن تسع، وقد أمرنا باتّباعه في قوله: ﴿فاتبعوه»^(١)، وأقلّ مراتب الأمر الإباحة، وقد قال صلى الله عليه وآله: «فمن رغب عن سنتي فليس مني». غرائب القرآن ٤: ١٧٢.

(١) الأنعام: ١٥٣، وهي هنا حول الشريعة، ١٥٥، وهنا حول القرآن الكريم.

(٤) انظر: تبیین الحقائق ٢: ١١٢، رمز الحقائق ١: ١٤٣، نبيل الأوطار ٦: ٢٨٩، المجموع شرح المهذب ١٢: ٩، ١٦: ٢٤٤، غرائب القرآن ٤: ١٧٢، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧. وقد مرّ ما في هذا الهامش والهامش الذي قبله مفصلاً في ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠ / الهامش: ٣، من كتابنا هذا.

حالهم وعاداتهم: رمتني بدائها وانسلت^(١).

إذن فالله تعالى يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، أي كما يقول الفقهاء والمفسرون: ليس لكم حق المساواة^(٢)؛ وذلك أن العدل كما يعرفونه وكما يعرفه فقهاء القانون هو وضع الشيء في موضعه^(٣)، والمساواة ليست كذلك دائماً، أي أن المساواة في كل شيء لا تحقّق العدل بل إنها تحقّق الظلم في بعض الموارد. فلو ساوينا بين الذكيّ والغبيّ فإننا نكون قد ظلمنا الذكيّ وقلبنا الموازين.

وقد يقول قائل: إن بعض المسلمين عندهم هذا النوع من المساواة غير العادلة، فمثلاً هم يقولون عن الصحابة وتابعيهم كلّهم: (رضي الله عنهم أجمعين)، فيقصّدون المغيرة وغيره من النماذج التي على شاكلته، ويقصدون أيضاً الصحابة الأخيار والتابعين لهم بإحسان.

ونقول: هذه مقاييس فاسدة ولا يمكن أن نقبل بها؛ لذلك فإن الله تعالى أعطى كلّ فرد ما يستحقّ من قدره، فلا بدّ من الرجوع إلى المعاملة الفردية؛ لأنها هي التي تحقّق العدل الذي هو وضع الشيء موضعه كما قلنا. يقول تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٤)، ويقول عزّ من قائل: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾^(٥)، يقول أيضاً: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(٦).

(١) مثل يضرب لمن يعيب غيره يعيب فيه هو. الصحاح ٥: ١٧٣١ - سل، لسان العرب ٤: ٤١ -

بحر، ١١: ٣٣٨ - سلل. (٢) زبدة البيان: ٥٣٧، البحر الرائق ٣: ٣٧٩.

(٣) انظر: العدة في أصول الفقه ١: ٣١ (حجري)، التبيان في تفسير القرآن ١: ١٥٨، مجمع

البيان ١: ١٦٦، الرسالة (الشافعي): ٢٥، شرح نهج البلاغة ٢٠: ٨٥.

(٤) الحشر: ٢٠. (٥) فاطر: ١٩، غافر: ٥٨.

(٦) القلم: ٣٥ - ٣٦.

فكل هذه مقاييس وضعها الله لنا، ويجب ألا نتخطأها في تعاملاتنا؛ فتختلط الأوراق.

إذن فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ فإنما يعني أنه ليس لكم حق المساواة، فإذا كان للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة فليس للمرأة ذلك بحجة المطالبة بالمساواة؛ لاقتضاء ذلك أثراً فاسدة من ضياع نسب الولد وبالتالي ضياع الأسرة من حيث إنه لم يُعرف له حينها والد معين.

اختيار الزوجة

ثم إن من العدل ملاحظة الرجل عائلة المرأة التي سيتزوجها، ومعرفة نمط حياتها الذي كانت عليه، فإذا كانت تعيش نمطاً من الحياة مرفهاً وحياتها ذات مستوى رفيع فهل يصح أن تضعها في المستوى نفسه الذي تضع به الزوجة الأولى التي كانت تعيش مستوى حياة أدنى من الزوجة الثانية؟ طبعاً لا؛ فالفقهاء يقولون: إن هذا ليس عدلاً، بل العدل هو المفاضلة هنا وذلك بإعطاء كل امرأة ما يكفيها من حيث تناسبه مع حالتها المعيشية التي كانت قد اعتادت عليها.

بل وحتى في المهر، فإذا تزوج من امرأة ولم يعين لها مهراً كان لها مهر المثل كما يقول الفقهاء^(١)، أي تأخذ المهر الذي تأخذه عادة بنات طبقتها. وهذا هو الصحيح، وهو تشريع ليس فيه أي تفرقة، بل فيه مراعاة للحق الذي هو حال المرأة قبل الزواج.

(١) انظر: رسائل المرتضى ١: ٢٣١، المراسم العلوية: ١٥٤، النهاية (الطوسي): ٤٧٠، فتح العزيز ٨: ٢٨٢، المجموع شرح المذهب ٩: ٢٩١، وغيرها.

دعوى التناقض في قضية العدل في القرآن

وقد حاول البعض ممن لا خبرة له ولا علم أن يثبت وجود تناقض بين آيات القرآن الكريم، ومن ذلك ما ادّعوه في قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾^(١)، وقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾^(٢).

والجواب: أن هذا ليس تناقضاً؛ لأن متعلّق العدل مختلف، فالقرآن الكريم يقول: إن استطعت أن تعدل بالنفقة بحيث تكون عندك قدرة مالية وجسدية فخدم من النساء مثنى وثلاث ورباع، أما إذا لم تستطع أن تعدل بحيث يكون في التعدّد جور وظلم فلا. أمّا في الآية الأخرى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، فذلك في المودّة؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يعدل فيها؛ إذ لا بدّ أن تكون لإحداهن ميزة تفضّلها على الأخرى. بل حتى لو لم يكن ذلك فإن مطلق الميل النفسي - أي حتى مع عدم البرّر - يجعل الإنسان يميل من جانب إلى آخر.

فالقرآن الكريم يريد أن يجرّ أيدينا إلى الواقع، وأن يبين لنا أن الرغبات النفسية مما لا يمكن التحكم فيه، فلا تناقض في الأمر؛ لأن متعلّق العدل هنا هو المودّة، ومتعلّقه هناك هو المال.

الافتراءات على الشيعة

جاء في سؤال من أحد الناس يقول فيه: أنتم الشيعة عندكم أن المرأة لا ترث، فكيف تطالبون بميراث الزهراء؟

(١) النساء: ١٢٩.

(٢) النساء: ٣، مع أن تمام الآية - وهو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ - يؤكّد الآية السابقة.

والجواب على هذا التساؤل يكون من جهتين :

الجهة الأولى: حول فرية الميراث

وهذا من غرائب الأمور، وافتراء على طائفة بحالها؛ ذلك أنه من قال: إن المرأة عندنا لا تترث؟ أما الزوجة فترث من كل شيء عدا الأرض، فترث من البناء والأوتاد وغيرها. وإنما منعت الميراث من الأرض؛ لأن مسألة الأرض مسألة حساسة جداً؛ فهي وسيلة الإنتاج الأولى عند أغلب المجتمعات، فالذي يملك قطعة أرض لا يمكن له أن ينساها؛ ولذلك عندما سئل الإمام عليه السلام: لماذا لا تأخذ المرأة من رقبه الأرض؟ قال عليه السلام: «لئلا يتزوجن فتدخل»^(١) عليهم من يفسد موارثهم»^(٢).

فإذا توفي الرجل وبقيت زوجته بعده وورثته، ثم تزوجت بآخر، فإنه حتماً سيأخذها سواءً بآرث أو بكونها ملك زوجته، وهو أجنبي عن أبناء زوجها الأول صاحب الأرض؛ فمن الممكن جداً حينها أن تحدث بينهم الكثير من المنازعات.

وقد يسأل سائل فيقول: إن البنت إذا أخذت الأرض فكذلك ستتزوج وتذهب الأرض، فلم لم تُحرم كالزوجة؟

فنقول له: إن المسألة هنا تختلف؛ فإن البنت من صلبتي؛ فهي بالتالي دمي ولحمي، ولذا فإنه حينما كتب محمد بن سنان جملة مسائل للإمام الرضا عليه السلام حول هذا كتب عليه السلام له: «علّة المرأة أنها لا تترث من العقار شيئاً إلا قيمة الطوب والنقض؛ لأن العقار لا يمكن تغييره وقلبه، والمرأة يجوز أن ينقطع ما بينها وبينه من العصمة، ويجوز تغييرها وتبديلها، وليس الولد والوالد كذلك؛ لأنه لا

(١) كذا، والظاهر أنها: فيدخلن.

(٢) الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٤.

يمكن التفصّي بينهما، والمرأة يمكن الاستبدال بها. فما يجوز أن يجيء ويذهب كان ميراثه فيما يجوز تغييره وتبديله إذا أشبههما، وكان الثابت المقيم على حاله كمن كان مثله في الثبات والقيام»^(١).

فالمشرّع الإسلامي عندما منع ميراث الزوجة من الأرض فإنما منعها حتى لا تحصل مشاحنات ومنازعات ومشاكل، ومن جعلتها أن العلاقات تتعقّدين المجتمع، والله يريد أن تكون علاقات منسجمة وطبيعية، فهو لم يحرمها وإنما أراد أن ينظّم العلاقات ويعطيها الحق الذي يتناسب مع تنظيم هذه العلاقات.

أما البنت فترث من كل شيء وفق ضابطة ﴿لِلذَكَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٢). فلماذا هذا الافتراء على طائفة بأكملها؟ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾^(٣).

الجهة الثانية: دعوى الزهراء عليها السلام

ونحن نقول بهذا الصدد: إن نظرية فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) لا تعدو نظرية القرآن الكريم في شأن الميراث، فهي عليها السلام جاءت لتطالب بميراثها من أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكان رفض الخليفة الأول مبنياً على رواية مؤدّاه أن الأنبياء لا يورثون إلا العلم، وهذا صحيح لكن إذا عرفنا أن من سمات الأنبياء عليهم السلام أنهم لا يملكون إلا القليل لعرفنا هذا، فنحن نعلم أنهم عليهم السلام غالباً لا يملكون شيئاً سوى علمهم، غير أنه إذا وجد القليل من المتاع كان داخلاً في الميراث العام. هذا بناء على صحّة رواية «نحن

(١) الاستبصار ٤: ١٥٣ / ٥٧٩.

(٢) النساء: ١١.

(٣) الزمر: ٦٠.

معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»^(١)، فهذا الإشكال بهذا الحديث هو عين إشكال من يشكل على القرآن بوقوع التناقض فيه بين قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَسْتَبِيْعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾^(٢)؛ فكما اختلف المتعلق هنا - وهو الميل في الآية الأولى، والنفقة في الآية الثانية - فكذلك اختلف المتعلق هناك.

المبحث الرابع: معنى ﴿فَلَا تَمِيلُوا﴾

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾، ومعنى هذا أن الرجل حتى لو كره المرأة وتزوج عليها فإن المفروض به أن دينه يجب أن يمنعه من أن يعاملها بشكل غير لائق، بل يحتم عليه أن يحترمها ويعاملها بالحسنى^(٣). فالمرأة التي تقع بينها وبين زوجها نفرة وحاجز نفسي يمنعها من الحياة الزوجية بشكل طبيعي معه فإن على زوجها أن يقرر أحد أمرين: إما أن يسرحها سراحاً حسناً، أو أن يعاملها بالحسنى والنبيل؛ فلا يتركها معلقة؛ ذلك أن قانون النبيل يقتضي المساواة ما بين النساء.

وقد كان الساسانيون يعددون، فإذا أحب أحدهم إحدى نساته اعترف بها زوجة رسمية وترك الباقيات بمصاف الخدم، يعاملن كجوار، أما الأولاد فيعترف بالذكور ولا يعترف بالإناث. فالكثير من حضارات العالم

(١) انظر: مسند أحمد ١: ٤٧، ٤٨، السنن الكبرى (النسائي) ٤: ٦٤ / ٦٣٠٨، وغيرها كثير. المسترشد: ٥٠٧ / ١٧٠، بحار الأنوار ٢٩: ١٣٤، مسند أحمد ٦: ١٤٥، صحيح البخاري ٨: ٣، ٥، وغيرها (٢) النساء: ٣.

(٣) قال رسول الله ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقاً رضي آخر». مسند أحمد ٢: ٣٢٩، صحيح مسلم ٤: ١٧٨. والفرك: البغض والكره. صحيح مسلم بشرح النووي ١٠: ٥٨، وفيه ذكر أن المقصود بالمؤمنة: الزوجة، لسان العرب ١٠: ٤٧٤ - فرك.

القديم والكثير من الشعوب القديمة والحديثة تظلم المرأة وتعاملها معاملة الرق، في حين أن الإسلام كرم المرأة؛ لأنها أدعى إلى العطف والمودّة. وقد أكّد الرسول ﷺ على ذلك بقوله: «من دخل السوق فاشترى تحفة إلى عياله، كان كحامل صدقة إلى قوم محاويج، وليبدأ بالإناث قبل الذكور»^(١).

لأن الأنتى في مجتمعنا ومجتمعات أخرى مظلومة دائماً، ولا تأخذ حقّها من العطف والمودّة، بل ينزلون بها عن مستوى الذكر. فالرسول ﷺ يأمر بهذا؛ لكي ينشأ عندها شعور بأنها غير مزدراة، وأنها ذات قيمة، ولها مكانة في قلب أبيها ومجتمعها، وإلا فإن معاملة المرأة بالشكل الذي عليه البعض هو الذي يوّلّد عندها الشعور بأنها مخلوق مزدري وغير محترم.

وعليه فالواجب مراعاة حقّ المرأة كما قرّر الإسلام، وألا ينصاع الأب للبواعث الاجتماعية المحيطة به وتقاليد الموروث الاجتماعي فيزدري ابنته، مع أن قلبه يحمل لها حبّاً أكبر وأكثر، ولا يترك مجالاً لتلك البواعث والموروثات الاجتماعية أن تحول دون إظهاره حبّه لابنته، أو تغلبه فيتخلّى عن العطف عليها.

ولنأخذ أنموذجاً حياً على هذا وهو أمر فاطمة «العليلة» بنت الإمام الحسين عليه السلام، فقد رسم لنا التاريخ من مصيبتها صوراً تبعث على الأسى

(١) ثواب الأعمال: ٢٠١. وهكذا فإنه ﷺ أراد أن يُحدِثَ التوازن في ذلك المجتمع ويُعدّله في تلك الأجواء التي كانت تعتبر المرأة عاراً، وهذا ما صرّح به شاعرهم حيث يقول:

إذا المرثيَّ شبَّ له بنات عصين برأسه إية وعارا

العين ٨: ٤٢٠ - أبو، الصحاح ١: ٢٣٠ - وأب، والمرثي في الأصل: امرئي، نسبة إلى امرئ القيس، ثم قالوا مرثي، فكانهم جعلوها منسوبة إلى (مرء) مطلقاً. والإية: الخزي.

واللوعة ، فعندما أراد الحسين عليه السلام أن يخرج من المدينة كانت هذه الصبيّة عليّة ، فتمسّكت بثياب أبيها عليه السلام وقالت له : أبا عبد الله خذني معكم . فقال عليه السلام لها : «بنية أنت عليّة لا طاقة بك على الحركة» .

يقول المؤرّخون : فحملت الطفل الرضيع عبد الله وجاءت به إلى أبيها وقالت له : أبي ، دع لي هذا الطفل الرضيع لأسلو به بعدكم . فقال عليه السلام : «بنية إنه صغير ولا يستغني عن ثدي أمّه» . ثمّ سلّاها وودّعها وتركها في بيت أم سلمة (رضي الله عنها) . فبقيت تنتظر وتتسمّع الأخبار إلى أن جاء الناعي ينعي الحسين عليه السلام ، فخرجت من الدار واستوقفته وقالت له : يا هذا أنت الناعي ريحانة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قال : بلى . قالت : بالله عليك أخبرني بالذي جرى . يقول بشر : وبعد أن أخبرتها رجعت صارخة ومولولة ، ودخلت دار أبيها واللوعة تملؤها :

يا دار ناغيني وناغيچ چانت بدور وتزهر عليچ

والسا غراب البين ناغيچ

* * *

بالأمس كانوا معي واليوم قد رحلوا^(١)



(١) شجرة طوبى ١ : ٩١ .

الفصل الرابع الأسرة

البناء الأسري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً
وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: طبيعة الأسرة وكيفية بنائها

كل أسرة تعتبر لبنة أساسية من لبنات المجتمع، ولا نستطيع أن نبني مجتمعاً سليماً دون العناية بالأسرة. والآية الكريمة تذكر بنعم الله تعالى على عباده بقولها: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؛ بتقرير أن المرء لا يعيش بدون الزوجة، والزوجة لا تعيش بدون الزوج. فالرجل يكمل نفسه بالمرأة وبالعكس.

تفاصيل علاقة الرجل بالمرأة

إن تفاصيل هذه العلاقة الحيوية بين الرجل والمرأة كانت مادة دسمة

(١) النحل: ٧٢.

للفلاسفة، ومادّة لعلماء الاجتماع والتاريخ والأخلاق؛ لأن هذه العلاقة هي الركيزة الأساس التي يقوم عليها المجتمع، فتناولوها من عدّة جوانب؛ من حيث نمط العلاقة ومن حيث العدد الذي يحق للإنسان أن يتزوَّج منه، وكذلك هل يمكن أن يجمع بين اثنتين وثلاث وأربع، وما هو نمط الزواج؛ هل هو زوج لزوجات أو زوج لأزواج أو أزواج لزوجات على نحو الإشاعة. وكل ذلك تناوله علماء الاجتماع، فانتهوا إلى نتيجة هي أن أسلم طريقة للزواج لكي تحفظ كرامة الإنسان (الرجل والمرأة) على حدّ سواء، هو الصيغة الاعتبارية: زوج لزوجة.

خلق حواء

والآن لنرّ خطوات الشارع المقدس في هذا الميدان من أجل إسعاد المجتمع، تقول الآية: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، ويخصّص هذا المقطع نجد أن هناك إصراراً عند أكثر المفسرين على أن فيه إشارة إلى أن الله جلّ وعلا خلق لآدم ﷺ زوجة بعد أن استلب ضلعاً من أضلاعه؛ فلذلك سميت حواء لأنها خلقت من ضلع حي؛ فحينما نام آدم ﷺ أخذ الله ضلعاً من أضلاعه فخلقها منه. لكنهم لا يعلّلون ذلك، ولست أدري لماذا؟ فهل إن الله تعالى لا يستطيع أن يخلق إلا باستلاب ضلع من آدم ﷺ؟ حاشاه ذلك، فإن الله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١)؛ حيث إنه جلّ وعلا يأخذ التراب ويصدر إليه أمره بأن يكون، فيكون.

هذا بناء على عقيدتنا القائمة على أساس أن الله خالق ومبدع، وأن

(١) يس: ٨٢.

القدرة لا تتعلّق بممتنع، وإنما هي متعلّقة بالممكن الذي إذا توجّهت له القدرة أبدعته. وعليه فلا حاجة حينئذٍ لأخذ ضلع من آدم عليه السلام كي تخلق حواء منه.

إن سلب آدم عليه السلام أحد أضلاعه تترتب عليه في الواقع لوازم فاسدة كثيرة، وهذه النظرية من الإسرائيليات، والهدف منها هو تذويب معنى الحرمة في نفوس الناس، فمحارم الإنسان يتميّزون بأن لهم حرمة وقداسة في نفسه؛ فلا يقرب منهم محرماً ولا يأتيه. ومن يقع على محارمه فحكمه القتل؛ سواء كانوا سببيين^(١) أو سببيين^(٢). وهذه القدسية موجودة بين الرجل ومحارمه؛ ولذا فإنهم يرومون تذويب هذا المعنى عندهم؛ فنسمع أحدهم يخاطب ابنته:

فلا تمنعي نفسك المعرسين	من الأقربين إلى الأجنبي
لماذا حلت لك الغريب	وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربّه	ونفاه في الزمن المجدي ^(٣)

فتأمّل هذا اللون من الانحدار والخسّة، وهذه لها مدرسة، وغالباً تمتدّ جذورها إلى النظريات اليهودية. ونلفت النظر إلى أن نظرية فرويد تهدف إلى نفس الهدف، حيث يصبغ كل أنواع السلوك بالصيغة الجنسية. وهذا يعتبر إهانة للإنسان واعتداءً على كرامته وعقله وتطلّعاته نحو الأسمى، حيث يريد تصوير الإنسان كحيوان جنسي مع أن الإنسان فيه الروح والعقل والتطلّع إلى الأعلى، وفيه القابلية لأن يصير أسمى من الملك،

(١) ما كانوا عن طريق الدم.

(٢) ما كانوا عن طريق المصاهرة.

(٣) من أشعار أحد زعماء القرامطة.

ويستطيع أن يصل إلى درجة من الخسة بحيث تعتبر الحيوانات أنبل منه . فالإنسان الذي له هذه القابلية ثم يأتي البعض ويحاول أن يصهره في بوتقة الجنس ، لهو أمر يعتبر في غاية الإساءة للإنسان ، والحال أن الله تعالى كرم الإنسان^(١) ، وجعل عنده القابلية ، وأودع عنده الاستعداد للسمو ؛ حيث الخلق والكرم والنبيل . في حين أن هذا الذي ذكرناه يريد أن يحصره في نطاق الغريزة الجنسية ، ويصهره في بوتقتها .

نعود للموضوع فنقول: إننا إذا راجعنا هذه النظريات فسنجد أن جذورها يهودية ، والمشكلة أن المفسرين أخذوا هذه النظريات من كعب الأخبار ووهب بن منبه مقاتل بن سليمان ، ونحن لا نقبل بنظرياتهم ولو كانت في أي كتاب ؛ حيث إننا لا نستطيع أن نصدق أي شخص يهودي يأتي فيقول: إن عزرائيل نزل ليقبض روح نبي الله موسى عليه السلام فقال له: « جئتني زائراً أم قابضاً؟ » . قال: « جئتك قابضاً » . قال: « أتقبض روعي؟ » . ثم ضربه على وجهه ، فلطم عينه ، فرجع عزرائيل إلى ربه بعين واحدة^(٢) . فهل نقبل بهذا ، ونقوم بتلوين عقلية أجيال الإسلام بأمثال هذه الروايات؟ إننا نضرب بهذه الرواية وأمثالها عرض الحائط ، وكيف نستطيع أن نؤمن ونصدق بأن نبياً من الأنبياء ومن أولي العزم يفعل فعل الأشقياء؟ وعليه فإننا لا نقبلها بأي حال من الأحوال .

فالشيء الذي ينبغي أن يكون هو أننا عندما نقرأ رواية من هذا النوع فيجب أن نسأل أنفسنا: ما الذي يُلجئنا لأن نأخذ بها؟

(١) قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ ﴾ . الاسراء: ٧٠ .

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٠٠ .

فإنَّ الله تعالى هو الخالق المبدع المصور القادر الذي يقول للشيء: كن فيكون، فلماذا يُنمى آدم ﷺ، ثم يأخذ ضلعاً من أضلاعه فيخلق منه حواء، مع أنه كان قد خلق آدم من التراب، ويستطيع ويتمكن من أن يخلق من التراب امرأة لآدم ﷺ وتنتهي المشكلة؟

المبحث الثاني: نوع الجعل في الآية

إذن ما معنى ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾؟ وما المراد بالجعل هنا؟ هناك رأيان في المسألة:

الرأي الأول: أنه طرد وهم إمكانية الزواج من الجنّ

فالآية الكريمة تطرد وهماً من الأوهام التي كانت سائدة عند العرب وغيرهم، وهو أن بعض الناس كان يعتقد بأنه يستطيع أن يتزوج من الجنّ، وأن الجنية يمكن أن تلد منه. وكانت العرب تعتقد وتروي مثلاً أن فلاناً قد تزوج من الجنّ، وأن زوجته الجنية قد أنجبت له أولاداً منهم، كعمر بن يربوع، حيث يروون أنه تزوج جنية، وكان يسترها عن البرق؛ لأنها كانت تخاف منه وتهرب. وقد وُلد له منها أولاد يسميهم العرب: أولاد السعلاة، يقول شاعرهم:

يا قبح الله بني السعلاة عمرو بن يربوع شرار النات (١)

ويشير إلى هذا المعنى أبو العلاء المعري في إحدى قصائده حيث يقول:

كأنني بعمر والسعالي مطية

(١) الكنز اللغوي: ٤٢ - باب السين والناء، لسان العرب ٢: ١٠١ - نوت. والنات: لغة في (الناس) لبعض العرب.

إلى آخر أبياته التي يصوّر فيها هذا الوهم السائد بين الناس .
 فبعض المفسرين يقولون^(١): إن الآية جاءت لتطرد هذا الوهم .
 والحقيقة أن هذا الوهم يعيش حتى عند بعض الفقهاء الذين ينتمون
 لبعض المذاهب الإسلامية حيث إنهم يقولون: إن من الممكن الزواج من
 الجنّ، ويذكر أن جماعة تزوجوا وأنجبوا. وأدبنا العلمي يمنعنا من أن
 نحمل عليهم؛ حيث إننا نحملهم على البساطة، وإلا فالحقيقة أن هذا
 الكلام لا يمكن قبوله؛ لأن الله جعل الجنّ صنفاً يتزاوجون فيما بينهم،
 وجعل الإنس صنفاً يتزاوجون فيما بينهم، فالجنّ للجنّ والإنس للإنس .
 ثم إن الزواج من الجنّ - حسبما قالوا - تترتب عليه أمور فاسدة، حيث
 إنه سوف تكون ثمرته أولاد إنسية وأولاد جنّية؛ فتخلق بهذا طبقات
 مختلفة الأصل والمنشأ والخلقة بين الناس . هذا فضلاً عن أن رسول
 الله ﷺ يقول: «كلّكم لآدم وآدم من تراب»^(٢).

ثم إن هناك جماعة يقسمون الناس إلى جماعة سام، وجماعة حام
 الذين أصبحوا ذوي لون أسود، والسبب كما يوردونه أن النبي نوحاً عليه السلام
 حينما ركب السفينة هوّمت عيناه، فكشف الهواء عن عورته، فلما رآها
 حام ضحك، فبادر إخوته فستروها، فاستيقظ نوح عليه السلام من نومه ورآه
 يضحك، فسألهم عن سبب ضحكهم، فقالوا: إنه رأى عورتك فضحك .
 فقال عليه السلام: «اللهم اجعل ولد هذا عبيداً لولد هؤلاء»^(٣)، وهكذا أصبح أولاده
 عبيداً لأولاد إخوته .

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٠: ١٤٢ .

(٢) تحف العقول: ٢٤، كنز العمال ١٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧ .

(٣) انظر: علل الشرائع ١: ١/٣٢، تاريخ الطبري ١: ١٣٩، أخبار الزمان: ١٠٧ .

وهذا الكلام لا يعدو أن يكون خرافات، وإلا فما ذنب هؤلاء الذين خلقوا سوداً حتى يكونوا عبيداً لغيرهم بسبب ذنب أذنبه أبوهم، فدعا عليه أبوه؟ ثم إن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١)، فإن الذي يخطئ يأخذ جزاء خطئه. ولذا فإن هذه المسألة لا علاقة لهذا بذلك، بل هي مسألة تتحدّد علاقتها بالمناخ؛ فليس كل أسود عبداً. إذن اختلاف اللون لا دخل له بالعبودية، فالعبد يمكن أن يكون رومياً أو من جنسيات أخرى، وكل ما في الأمر أنه إذا أخذ أسير حرب أو في غارة فإنه يستعبد.

هذا وينبغي ألا ننسى أن الله جل وعلا خلق الناس كلهم أحراراً. والباحث حول هذه النظريات يجد من خلفها أصابع مشبوهة تحاول أن تضع الكثير من العقبات في طريق الإسلام. وما أكثر ما زرعه المستشرقون وغيرهم من هذا القبيل في طريق نمو الإسلام وانتشاره.

الرأي الثاني: أنه جعل تكويني

وهو ما يقابل الجعل التشريعي. فمعلوم أن الجعل قسمان: تكويني وتشريعي. والجعل التكويني فهو الخلق والإيجاد.

الرأي الثالث: أنه جعل تشريعي

والجعل التشريعي فهو مادّة قانونية. وهذا الرأي هو الأقرب إلى الصواب؛ حيث إن الرجل تملك منه زوجته ما لا يملك منه أحد غيرها، وكذلك الرجل فإنه يملك من زوجته ما لا يملكه منها أحد غيره. فالزوجة بالنسبة للرجل أو الزوج ستر، وهو كذلك لها. وهو ما عبّر عنه

(١) الإسراء: ١٥.

القران الكريم بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾^(١).

فألزوجة يمكن أن تحول جو البيت إلى جنّة وسعادة، ويمكن أن تحوّل إلى نار، وهي ترى من الرجل ما لا يراه غيرها، وهو كذلك. فهناك امتنان. فالقرآن يمتنّ علينا ويقول: إن من نعم الله عليكم أنه أكمل نصفكم بكلمة بهذا الجعل التشريعي. ومعلوم إن الفرق بين الحلال والحرام هو كلمة في العقد الشرعي، أي «زوجتك»، أو «أنحككتك»، أو «متعتك». وهذه الكلمات هي المتداولة في العقد الشرعي الذي يدلّ أي عقبة أمام الإنسان. وهكذا تكون الآية في معرض الامتنان علينا؛ فإنها توطئ الطريق وتدلّل، الصعوبات، وتجعل المرأة ملكاً للرجل والرجل ملكاً للمرأة.

هذا مع الأخذ بالاعتبار أن الملكية هنا ملكية اعتبارية، فالرجل والمرأة ينفصلان عن أحضان أهلهم فيستقرّان ويلجئان إلى بعضهما. وهذا إنما يتمّ بهذه الكلمة المجعولة شرعاً، وهي الكلمة التي ربطت الأسر مع بعضها البعض، واستحلّت وأحلتّ الفروج لذويها؛ لأنها كلمة تترتب عليها آثار التزامية؛ فهي كلمة الله.

الجعل مركّب وبسيط

ثم إن هذه اللفظة معربة عن الإرادة، والإرادة هي بناء الأسرة؛ إذ معنى ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أن الجعل هنا جعل تصييري، ومعلوم أن الجعل منه مركّب أو تصييري، ومنه بسيط: فالجعل البسيط أن تقول: جعلت التراب، أي خلقتة. والمركب أن تقول: جعلت التراب إبريقاً، أي صيرته

(١) البقرة: ١٨٧.

كذلك . أما موضوع المقام فهو جعل تصييري أي بعد أن يتمّ العقد بين الزوجين ، فإن الزوجة تتحوّل إلى جزء من نفس الزوج وهو يتحوّل إلى جزء من نفسها . فكأن القرآن يريد أن يجعل جوّ الأسرة مملوءاً بالودّ والحنان والشفقة والرقة والرحمة ؛ لأن الأسرة هي العشّ الذي تدور حوله مجموعة الأخلاق، فإذا لم يكن فيها انسجام وأخلاق فإن المجتمع ستصيبه كارثة .

المبحث الثالث: عقبات في طريق الزواج

الأولى: عقبة التكافؤ

نرجع إلى نقطة هامة هي أنه إذا كان الإسلام يركّز على جانب الأسرة، فلماذا نحول الأسرة إلى تجارة حيث إننا نجد العقبات الكثيرة التي يخلقها الآباء ويضعونها في طريق الزواج، مع أن ضابطة الزواج الشرعية هي التكافؤ بين الزوجين؟

تحديد مفهوم التكافؤ في الزواج

إن الإسلام يعتبر الكفاءة قائمة على أساس الدين: «إذا جاءكم من ترضون دينه فوزجوه»^(١)، فالدين هو الذي يحدّد الكفاءة وهذه المسألة قد حوّلت إلى عقدة عند البعض حيث يقول: لا أرضى بهذا الشخص؛ لأنه من المذهب الفلاني، مع أن الرواية تقول: «ترضون دينه»، ونحن جعلناها: «مذهبه».

فالإسلام جاء ليذلل هذه العقبة، وكلّ ما علينا هو مراعاة المقومات الأخرى؛ فالبنت ابنتك، فلا تجعل أمام سعادتها وفي طريقها عقبة

(١) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢-٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

موهومة . إن القرآن الكريم يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ ﴾^(١) ، فأزال كل العقبات الموجودة في الطريق والتي يمكن أن تعترض الزوجين .
ويلاحظ أن هناك في مسألة التكافؤ أموراً عجيبة منها عدم تزويج المتمذهب بمذهب من متمذبة بمذهب آخر، وعدم جواز زواج هذا الجنس كالرومي مثلاً من ذلك الجنس بحجة وذريعة أن هذا الجنس لا يكافئه ذلك الجنس . وهذه عقبات ما أنزل الله بهما من سلطان، بل إن بعضهم لا يقبل شهادة أحد الصناعات حيث يقول: إنه يعمل في العمل الفلاني فلا تقبل شهادته، وهذا غريب من المسلمين الذي يجب عليهم أن يتعبدوا بالنص الشرعي ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَاكُمْ﴾ .

الثانية: عقبة المادة

حيث إن أهل الفتاة ينظرون قبل كل شيء إلى رصيد الفتى، وما الذي يستطيع أن يدفعه ثمناً من وجهة نظرهم - لابنتهم، فينظرون فيما إذا كان يملك مالاً ويملك سيارة أم لا . مع أن عليهم أن ينظروا قبل ذلك إلى رصيده الأخلاقي، فما قيمة المال الذي يملكه إن كان منحلاً خلقياً؟ وما الذي يفيد المال هنا حينما يرجع مترشحاً من السكر أو المخدرات؟ فهذا إذا كان يملك - وليكن مال قارون - فما الذي تنتفع به الزوجة منه؟ وأي سعادة تدخل هذا البيت الذي تخيم عليه أشباح الفساد والانحلال؟ نعم لك الحق في ألا تزوج ابنتك لشارب الخمر، فالحديث يقول: «ابنتك كريمتك فانظر لمن ترقها» . حيث إنه قد يُطلقها أثناء شربه الخمر أو قد

(١) الحجرات: ١٣ .

يسمعا كلمة نابية. فمن عقوق الأبناء تزويجهم من مثل هذا الإنسان، لكن الناس للأسف لا يهتمهم ذلك. وهذا الذي يذهبون إليه بعيد عن جو الإسلام، وجو الأسرة الصحيحة الذي تتوفر فيه الكرامة للطرفين. وهناك نقطة هامة وهي أنه بعد الهجرة للدول الأجنبية فقد بعض الشباب أصالتهم متصورين أن المدنية تقتضي أن تكون زوجته سافرة. ونحن نقول له: إنك مسلم، وإن هذا العمل يعد عيباً وعاراً، فهلا أخذت من الغرب النظام وروح الانسجام والنبوغ العلمي قبل أن تأخذ الانحلال والفساد الخلقي! فلماذا تعيش عائلاً على أفكار الآخرين؟ ولماذا تأخذ القضايا المنحطة منهم؟ إن عليك أن تتمسك بأدابك وقيمك وأخلاقك، فإن قيم الإسلام لا ترتبط ببيئة معينة بل هي تشمل كل البيئات، فإن الستر واجب في أي مكان تعيش فيه، فيجب عليك أن تكون أخلاقك الكريمة معك في كل بلد تحل فيه.

المغيرة والانغماس في رذيلة الزنا

ثم إن الزواج أنواع، فإذا كان الرجل غير ملتزم أو المرأة غير ملتزمة فهنا يحق لنا ألا نزوج هذا من تلك، أو هذه من ذلك، أما إذا كانت المرأة فقيرة أو كان الرجل فقيراً ليس لهما رصيد مالي، فليس هذا عيباً فيهما. وللشاهد التاريخي نذكر أنه يروى أن المغيرة بن شعبة كان والياً على الكوفة، وكان منحللاً متساهلاً في أمور الدين، ومن باب الشيء بالشيء يذكر أن أحدهم وقف على قبره بعد دفنه فقال:

أمن رسم دار للمغيرة تعرف عليها زواني الجن والإنس تعزف

فإن كنت قد لاقيت هاما بعدنا وفرعون فاعلم أن ذا العرش منصفٌ (١)

النساء أربع

وكان المغيرة قد خرج في يوم من الأيام يتمشى بين الكوفة والنجف، فرأى أعرابياً فطلب من غلامه إحضاره، فلما أحضره سأله المغيرة: من أين أقبلت. قال: من السماوة - والمقصود بها بلدة بين العراق والشام في الهضبة، وليست هذه المدينة المعروفة حالياً - فقال له: كيف خلفت الأرض خلفك؟ قال: عريضة أريضة. قال: كيف خلفت المطر؟ قال: ملأ الحفر وعقّى الأثر. قال: عندي سؤال، أريدك أن تخبرني عن أصناف النساء. فقال: النساء أربع: جميع مُجمع، وربيع مُربع، وغلّ لا يُنزع، وشيطان سمعمع. فقال له: فسّر لي، فأنا لا أفهم ذلك. فقال الأعرابي: أما الجميع المُجمع، فهي المرأة التي تتزوّجها من أجل حسبها ونسبها. وهذا زواج مصلحة، فأنت تنظر إليها لأنها ابنة فلان، فتجمع نسبك إلى نسبها.

وأما الربيع المُربع، فهي المرأة التي إن دخلت البيت ضحكت في وجهك، وإن خرجت حمدتك في عقبك، وكلّ أمورك موفّرة عندها، وكلّ حاجاتك مقضية منها. تقوم لك مقام الربيع، فالأرض تهتزّ بالنبات في الربيع.

وأما الغلّ الذي لا يُنزع، فهي ابنة عمك، وأنت لا تشتهيها وهي كذلك لا تشتهيك، لكن التقاليد تحكم بذلك. وطبعاً إن هذا الإجماع خطأ لأن العقد لا ينعقد هنا؛ إذ أن من شروط صحّته الرضا، فإذا تخلف هذا الشرط

(١) مروج الذهب ٣: ٣٥، وفيه: دويّ، بدل: زواني، شرح نهج البلاغة ٤: ٧١.

تخلف المشروط؛ لقاعدة أن المشروط عدم عند عدم شرطه^(١)، فعليه يكون أولادهما أولاد زنا.

وأما الشيطان السمعمع، فهي المرأة التي إن دخلت كلحت بوجهك، وإن خرجت ولولت بدبرك، وحوائجك غير موفّرة عندها وأمورك غير مقضية منها. تأكل زادك وتنمك لجيرانك.

قال المغيرة: نعم ما تقول، لكن عندي سؤال آخر. قال: نعم. قال: أتعرف عامل المدرة؟ والمدرة منطقة. قال: لا أعرفه، لكنني سمعت عنه. قال: ما سمعت عنه؟ قال: أعور زانٍ. فقال له غلام المغيرة: ما صنعت؟ إنه العامل. فقال الأعرابي: قُل الحق ولو على نفسك. وركب جواده وذهب^(٢).

فموضع الشاهد أن النساء أربع، فهناك زواج من هذا اللون وهو أن هذه ابنة فلان وهذا الزوج لا يناسبها، مع عدم ملاحظة واقع الانسجام والتقارب والأخلاق والقيم التي يجب أن تخيم على الأسرة بعيداً عن الأنساب وبعيداً عن الألقاب. فعامل الأخلاق هو الذي يجب أن يكون عقبة لا عامل المادة والمال؛ لأن القرآن يقول: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣). فمن الذي دخل الدنيا وهو مكلّل بالذهب؟ ومن الذي خرج منها وهو مكلّل به؟ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾^(٤)، فمن دخل الدنيا دخلها عُرياناً وهو

(١) انظر: مبادئ الوصول: ٩٨، المجموع شرح المهذب ٤: ٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٤، وليس فيه: عامل المدرة، بل إن هذه العبارة وردت في قصة ملاقات المغيرة مع هند بنت النعمان بن المنذر بعد أن ترهّبت. انظر مروج الذهب ٣: ٣٥.

(٣) النور: ٣٢. (٤) الأنعام: ٩٤.

كذلك سيخرج عُرياناً وبنام على التراب:

فكم كومة للتراب من بعد كومة معلمة هذا الزعيم وذو الهادي
فدو الزهو خلى الزهو عنه وقد مضى وظلت على الغبرا سيادة أسياد
أعقابك يا دنيا قميض وطمرة بصفرة أرض من خرابات زهاد

فالعقبة الأساس هي عدم الخلق وعدم الدين، أما عقبة المال فليست عقبة حقيقية، وكذلك عقبة النسب فهي ليست عقبة حقيقية أيضاً: «كلكم لآدم وآدم من تراب»^(١).

إن الإسلام لا يعتبر المهر ركناً في العقد حيث يستطيع الإنسان أن يعقد على المرأة بدون ذكر المهر، ثم ينصرف المهر إلى مهر المثل، ويصبح المهر ما كان متعارفاً ولو كان كفاً من بُرّ. فالآية الكريمة تقول: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾.

المبحث الرابع: الحفدة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، وهنا يطرح سؤال نفسه، وهو: لماذا قال القرآن: ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾، مع أن المعلوم أن الولد يتكوّن من التقاء الزوجين كليهما؟

والجواب أن هذا فيه إشارة إلى أهمية الأم ودورها، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن الأب ألقاها نطفة لا قيمة لها، ولذا فإن الرجل إذا عزل نطفته عن المرأة فإن ديتة عشرة دنانير؛ فليس لها قيمة فهي كالنواة ترمى في الأرض فتتحول إلى شجرة، وهي تتبع صاحب الأرض، وكذلك النطفة تنفصل من الرجل لا قيمة لها، وإنما تكون ذات قيمة عند تحولها

(١) تحف العقول: ٢٤، كنز العمال ١٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

إلى رحم المرأة وتتغذى فيه وتنمو وتكبر حتى تصبح طفلاً كاملاً. والمرأة إضافة إلى ذلك تتحمل مشاكل الحمل ثم آلام الولادة. وقوله تعالى: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ موضع امتنان الباري جلّ وعلا؛ لأن البنين من نعم الله على العبد، فالشكل الطبيعي للحياة أن يكون لكل إنسان امتداد طبيعي. وهكذا يكون الولد نعمة سواء كان ذكراً أو أنثى، فالذين يتصورون أن الولد فقط هو الذي يكون نعمة، أما الفتاة فهي نعمة، فهم مخطئون في تصوراتهم؛ لأن هناك الكثير من النساء اللاتي يعدلن الكثير الكثير من الذكور، قال أحد الأدباء:

فلو كان النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيتُ لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال^(١)

فالولد الصالح سواء كان ذكراً أو أنثى هو من نعم الله تعالى على العبد، فالباري جلّ وعلا يذكّرنا بهذه النعمة.

أقسام الحفدة

الحفدة هنا لفظ مختلف فيه، فللمفسرين واللغويين فيه ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنهم الأحفاد

أي أولاد الأولاد، والشارع يمتنّ عليك بهم. وقد كان العرب يتمدحون من كان عنده أولاد كثر، يقول الشاعر:

لعلك يوماً أن تراني كأنما بني حوالي الأسود اللوابدُ
فإن تميمًا قبل أن تلد الحصى أقام زماناً وهو في الناس واحدٌ^(٢)

(١) شجرة طوبى ١: ٢٤٩.

(٢) ديوان الفرزدق: ١٤٦.

لأمها، كما لا يصح أن يتزوج ابنة ابنه؛ فابنة الابنة بنت صليبة. وعليه فالحفدة هم أبناء الأصهار الذين يحفدونك ويرعونك، ويكونون لك رداءً ودرعاً وعوناً.

الرأي الثالث: أنهم الخدم

ويستدل فقهاء المالكية منها على أن على المرأة أن تقوم بخدمات بيتية. ففي الشريعة الإسلامية أن المرأة لا يملك منها الرجل إلا العلاقة الجنسية؛ وإلا فإن غسل الملابس وطبخ الطعام أمران خارجان عن العقد، وليس للزوج مطالبة زوجته بهما، لكنها عادات اعتاد عليها الناس وسار عليها العرف. وفقهاء المالكية وحتى فقهاء غير المالكية يقولون: إنها تتبع عادة أمثالها أي حسب طبقتها، فمثلاً لو أنها من طبقة عادة المرأة فيها أن تغسل الثياب وتطبخ الطعام وتنظف البيت والزوج عليه واجبات إزاء الزوجة فيجب عليها هنا - إن كانت من هذه الطبقة - أن تقوم بهذه الواجبات إذا تزوجت، أما إذا كانت بنات طبقتها لا يؤدين هذه الأعمال، فليس للزوج أن يجبرها أو يطالبها بذلك.

المبحث الخامس: شبهة زواج القاسم

وننتقل إلى القاسم في هذه الليلة حيث تنقل شبهة مبتنية على رواية مفادها أن القاسم قد تزوج فيها، فالحسين عليه السلام زوج القاسم مقتدياً بعمل آبائه؛ فأبو طالب عليه السلام زوج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زوج الإمام علياً عليه السلام، والإمام علي عليه السلام زوج الكثير من أبناء الأسرة، والحسن كذلك. فالإمام الحسين عليه السلام قد عزّ عليه أن يكون في بيته ابن أخيه، وهو وديعة عنده، مضافاً إلى ذلك رغبة كانت عند الإمام الحسن عليه السلام بأن يتزوج القاسم

من ابنته، فلذا رأى عليه السلام أن عليه أن يلبي هذه الرغبة وأن يزوج القاسم من إحدى بناته .

لكن حقيقة هذا الزواج غير ثابتة، فهناك روايات مرسلة غير معتمدة تشير إليه، فتقول: إنه عقد على إحدى بنات الإمام الحسين عليه السلام. أما أن تذكر رواية أن القاسم تزوج فعلاً من سكينه عليه السلام فهي رواية غير صحيحة حتماً؛ لأنها كانت متزوجة يوم الطّف، وعندها طفل على بعض الروايات .

هذا من ناحية ومن ناحية ثانية أن القاسم لم يكن مؤهلاً للزواج؛ لأن عمره كان آنذاك ستّ سنين، فليس هناك زواج ولا عرس، لكن هذه الرغبة كانت موجودة عند الحسين عليه السلام الذي يعتبر القاسم كأولاده، وأنه آخر نبلة في كنانة الحسن عليه السلام حيث خلفه أبوه، ولذلك فإن الإمام الحسن عليه السلام عند احتضاره دفع القاسم عليه السلام إلى الإمام الحسين عليه السلام الذي وضعه في حجره ثم قال له: «هذه وديعتي عندك». وهكذا رُبي القاسم في حجر عمه الحسين عليه السلام.

فكانت لدى الحسين عليه السلام هذه الرغبة فعقد له على إحدى بناته، وهذا بناء على ما في هذه الروايات المرسلة .

وكان القاسم شجاعاً بحيث إنه كان يندفع اندفاعاً غير محدود للقتال، فنزل إلى المعركة، لكن الحسين عليه السلام جذبته من يده، وبيّن له بأنه وديعة عنده من أخيه الحسن عليه السلام، وإنه لا يريد أن يفرض بهذه الوديعة، ثم قال: «إن القوم يطلبونني ولو ظفروا بي لذهلوا عن طلب سواي»^(١). فهو عليه السلام يقول له: تستطيع

(١) روضة الواعظين: ١٨٣، الإرشاد ٢: ٩٢، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، الدمعة السابكة ٤: ٢٧٢، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (المقرّم): ٢٦٢ - ٢٦٥، تاريخ الطبري ٤: ٣١٨، البداية

أن تأخذ بيد أخيك وتذهبا وأنتما في حلّ من بيعتي. فقام أولاد الحسن عليه السلام وأولاد إخوته وبنو عمّه وقالوا: قَبِّحَ اللهُ العيش بعدك يا أبا عبد الله.

وهكذا ألحّ هذا الصبي على عمّه لينزل إلى الساحة حيث قال: لقد ضاق صدري وسئمت الحياة؛ فائذن لي حتى أطلب بثأري من هؤلاء القوم. وهو آخر مقاتل يقتل من أصحاب الإمام (سلام الله عليه)؛ حيث إنه (سلام الله عليه) نظر إلى الخيام ولم يرَ أحداً بل رأى إخوته وأبناء أخته وأنصاره صرعى، فأذن له بعد أن قال له: «أمهلني قليلاً». ثمّ دخل إلى الخيمة فأخرج عمامة الإمام الحسن عليه السلام فلفها على رأسه، وأخرج له رداء ألبسه إياه، ثمّ أخرج سيف أبيه الحسن عليه السلام وقلده إياه ثمّ أمسكه من يده ورمق السماء بطرفه وقال: «اللهم اشدد وطأتك على هؤلاء القوم؛ إنهم دعونا لينصرونا، فوثبوا علينا فقاتلونا»^(١). فنزل القاسم عليه السلام وهو يرتجز:

إن تنكروني فأنا نجلّ الحسن سبط النبي المصطفى والمؤمن
هذا حسين كالأسير المرتهن بين أناسٍ لا سقوا صوب المزن^(٢)

وأخذ يفري الرجال بسيفه فرباً إلى أن توسط الساحة فانقطع شراك نعله، فانحنى ليربطه وإذا بالسيف على رأسه، وسقط على الأرض منادياً:

والنهاية ٨: ١٩١.

(١) انظر: الإرشاد ٢: ١١١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، وفيهما أنه عليه السلام قالها حين نزل علي الأكبر عليه السلام إلى المعركة، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٣، ٣٤٥، تهذيب التهذيب ٢: ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩، وفيها وفي غيرها أنه عليه السلام قالها حين قتل صبي له، باختلاف في اللفظ في الجميع.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخورزمي) ٢: ٢٩.

أدركني يا عماه . فأقبل إليه الحسين عليه السلام كالصقر الذي ينقض على فريسته، وذاد عنه الخيل يميناً وشمالاً وجلس عند مصرعه وأخذ رأسه وراح يمسح الدم والتراب عن وجهه، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^(١) ثم قال: «قتل الله قوماً قتلوك»^(٢)، ثم أخذ رأسه ووضع في حجره ثم أقبل يحمله إلى المخيم واضعاً صدره على صدره ورجلاه تخطان الأرض، وبعد أن وضعه مع القتلى خرج من الخيمة ليفسح المجال لأمه وعمته وباقي النساء، فدخلت أمه رملة ووضعت رأسه في حجرها:

فجعني الدهر يوليدي وخيب صنوة سنيني



(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) لم نعر عليه في القاسم، وإنما هو في علي الأكبر. انظر: الإرشاد ٢: ١٠٦، مقاتل الطالبين: ٧٦.

قانون الأسرة في التشريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُفْسِدُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْ

النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ

أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (٢).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الأسرة والمؤسسات الدينية

ترتبط هذه الآية الكريمة بتكوين الأسرة ونظام تأسيسها وإنشائها، وموضوع الأسرة الإسلامية ربما يكون قد عولج نظرياً، بمعنى أن الكتاب المسلمين قد عالجه من الجانب النظري، لكن مؤسساتنا الدينية والحضارية - للأسف الشديد - قد أهملت هذا الجانب وقصرت في معالجته ومراقبة تقنيته. وهذا الموضوع أساسي جداً؛ لأنه لا يمكن أن

(٢) النساء: ٣.

(١) الفرقان: ٧٤.

نحصل على مجتمع واع ومنظم وسليم ما لم تنظم الأسرة، وما لم يكن الأفراد سليمين صالحين؛ فإذا كانت الأسرة منخورة كان المجتمع منخوراً. ولعل هذا الأمر هو السمة الغالبة لمعظم الأسر العصرية؛ فنادراً ما يكون الأبوان منسجمين، وهو ما ينعكس على الأولاد بصورة سلبية وقاتلة.

مشروع الزواج في الإسلام

ونحن اعتدنا في ليلة القاسم بن الحسن عليه السلام أن نتعرض إلى موضوع الزواج، وهو موضوع يتسم بالكثير من الحساسية، ويتوفر على جوانب متعددة يجب مراعاتها بدقة. والإنسان لا يستطيع أن يلم بكل هذه الجوانب في موضوع واحد، لكن لا يترك الميسور بالمعسور؛ ولذا فإننا سنتناول أهم هذه الجوانب. وموضوع الزواج تناوله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنِّىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، وهو من أكثر المواضيع التصاقاً بواقعنا القائم على الكثير من المغالطات التي ينبغي أن تعالج.

النظم بين اليتامى وتعدد الزوجات في الآية

إنَّ أوَّل ما يتبادر إلى الأذهان هو تساؤل حول وجه العلاقة بين اليتامى وإباحة تعدد الزوجات حتى تربط بينهما الآية الكريمة. وهذا المتسائل يجد جواب تساؤله هذا من خلال فهم الجوّ العام لليتامى، وتحقيق معنى اليتيم. إن اليتيم من الحيوانات هو الحيوان الذي فقد أمه لأنها هي التي تقوم برعاية صغارها وتنشئتهم وحمايتهم حتى يكبروا دون الأب، وهو خلاف ما عند بني الإنسان حيث إنَّ اليتيم هو من يفقد أباه وليس أمه؛ لأنَّ

الأب هو المسؤول عن رعاية الأطفال وتربيتهم وتنشئتهم، وصيانة الأسرة والقوامة عليها، وتوفير المأكل والمشرب والملبس، فإذا ذهب الأب فقد الأطفال كل هذا.

سبب نزول الآية

فالآية الكريمة تخاطب المسلمين الذين كانوا يكفلون اليتامى من أبناء إخوانهم في الدين بصفقتهم أولياء لهم بعد فقد أوليائهم، وكان من جملة اليتامى بنات، وهذا الولي ربما كان يسكنهن معه في بيته، أو في بيت آخر لكن يحتاج إلى أن يدخله متى شاء حسبما تقتضيه مصلحتهن، وهنا يرى الفتاة وتراه وهي محرمة عليه، ومن الممكن أن يعجب بها ويرغب في الزواج منها، لكن يخاف أن يمدّ يده لمالها أو ألا يعدل معها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١)، فكانوا يتورعون خائفين. فجاءت الآية الأخرى تخاطبهم وتقول لهم: إن كنتم خائفين من أن تقعوا في هذا المحذور فهناك نساء آخر فتزوجوا منهن كيلا تقعوا فيه. وهذا الأمر بين.

فمسألة اليتيم ليست سهلة البتة، فإذا أسيئت معاملته اهتزّ العرش^(٢).

فكرة الزواج تحقيق للنظام التكويني للإنسان

إن فكرة الزواج تعيش عند الإنسان بفطرته وتتملكه، وهي تمثل أحد جوانب النظام التكويني الذي أودعه الله عنده. بمعنى أن الإنسان - ذكراً

(١) النساء: ١٠.

(٢) ورد في الحديث الشريف عن رسولنا الأكرم ﷺ: «إذا بكى اليتيم اهتزّ له العرش». الفقيه ١: ١٨٨ / ٥٧٣، ثواب الأعمال: ٢٠٠، الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام: ١٧٢.

كان أو أنثى - حينما يولد تولد معه في ذهنه ومخيّلته فكرة الزواج، وهو ما يعبر عنه الفقهاء بقولهم: كل فرد هو زوج للآخر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١). فكل واحد من الذكر والأنثى لا ينفك عنه صفة الزوجية، وهذه الثنائية تحكمهما كما أنها تحكم الكون كله^(٢). ولعل من أهم مظاهر هذه الثنائية التي تحكم كل شيء هو إثبات وحدانية الخالق جلّ وعلا، فهو تعالى الواحد الفرد الصمد^(٣).

مواصفات الأسرة السليمة

إذن فالإنسان عندما يولد تولد معه فكرة الزواج، فهذه الحاجة تخلق معه في قرارة نفسه؛ ولذا فإنه لا يمكن أن يسمى مخلوقاً كاملاً أو إنساناً كاملاً، بل هو نصف فقط، ويكمله نصفه الثاني^(٤) الذي هو المرأة التي خلقها من نفسه^(٥) وجنسه ومشاعره. والزوجان حينما يقدمان على

(١) يس: ٣٦.

(٢) إن فكرة الزوجية والثنائية موجودة في الكون كله، وتحكمه بأجمعه بلا استثناء؛ فقد أثبت العلم الحديث أنّ لكل جسيم جسيماً يصاده ويقابله، فالمادة المنظورة تقابلها المادة المظلمة، والإلكترون يقابله البوزيترون، وهكذا.

(٣) قال الشاعر:

لم يــــتخذ ولداً إلا مــــبالغة في صدق توحيد من لم يتخذ ولداً

البيت لأبي محمد الخازن. الدرجات الرفيعة: ٤٨٣، يتيمة الدهر ٣: ٢٧٨.

(٤) الذي عبّر الرسول الأكرم ﷺ عن لازمه بأنه نصف الدين بقوله: «من تزوج أحرز نصف دينه، فليتق الله في النصف الآخر». الكافي ٥: ٣٢٩، الفقيه ٣: ٣٨٣، كشف الخفاء ٢: ٢٣٩ / ٢٤٣٢.

(٥) وقد عبّر الله تعالى عن هذا في مواضع عدّة من كتابه العزيز، فقال عزّ من قائل: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ النحل: ٧٢. وقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم:

الزواج فإنما يقدمان على تكوين أسرة ونواة للمجتمع، وهما بهذا يجب أن يعرفا أن لهذه الأسرة مجموعة ضوابط ومواصفات منها:

الأولى: أن المرأة صانعة جيل وليست وعاء غريزة

فعلى الزوجين أن يؤمنا بضرورة الدور الذي سيقومان به معاً، وهو تهيئة نواة جديدة تصب في بناء المجتمع وتكوينه، وأن المرأة لها دور كبير في هذا المجال، وهو دور حساس وخطير وخطر في آن؛ لأنها هي التي ستبني الجيل بحكم أن الرجل سيتفرغ لإدارة أعماله وكفالة الأسرة من الناحية المالية وتوفير وسائل الحياة لها. فالمرأة هي التي تبني الجيل^(١) وليست مجرد وعاء لغريزة الرجل يشبعه وقت يشاء. وهذا التفكير يتوقر على كبير ظلم للمرأة، وإرخاص لقيمتها التي منحها الله إياها^(٢). فالمرأة هي التي تنشئ أجيال المستقبل بما تملك من إمكانيات تكوينية مودعة فيها لا يملكها الرجل البتة؛ فهي تغذي الوليد مع اللبن

٢١. وقال: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ الشورى: ١١.
 (١) وقد جعله رسولنا الأكرم ﷺ بمنزلة الجهاد في سبيل الله، فقال: «جهاد المرأة حسن التبعل». الكافي ٥: ٩ / ١، كنز العمال ١٦: ١٤١ / ٤٤١٧٣، ٤٤١ / ٢٤١ / ٤٤٣٠٨.
 وقال ﷺ لشخص كان قد سأله: «ألا أخبرك بخير ما يكتز به المرء؟». قال: ما هو؟ قال: «المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرته، وإذا أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته». جوامع الجامع ١: ٣٩٦، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧٠، مسند أبي داود الطيالسي: ٣٠٦.
 وفي حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية مع النبي ﷺ حيث سألته عن الجهاد، فقال لها: «انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله». الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٥٠، أسد الغابة ٥: ٣٩٨، الدر المنثور ٢: ١٥٣.
 (٢) حيث جعل الجنة تحت أقدامها. مستدرک وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، كنز العمال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩.

المشاعر والرأفة والحنان والعطف والتناغم والمحبة، وكل هذه الأمور يرتضعها الوليد من ثدي أمه فهي موجودة فيه .
 هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن الولد حينما يرى أمه كئيبة حزينة تسود الدنيا في عينيه، وهو ما لا يحصل له مع أبيه . وهو دليل على ارتباط الطفل بأمه وتأثره بها وبحالتها النفسية؛ فالأم هي الثغر الضاحك لأبنائها، والذي يضيء لهم سبل الحياة، والأم هي عباءة الدفء التي تبعث في نفوس أطفالها الحنان والرفقة والمحبة . ولذا فإن الأم حينما تذهب يفقد الولد من العطف ما لا حدود له، يقول أحد الأدباء مخاطباً زوجته التي توفيت وتركت أولادها:

في ذمة الله ما ألقى وما أجدُ أهذه صخرة أم هذه كبدُ
 غطى جناحك أولادي فكنت لهم ثغراً إذا استيقظوا عينا إذا رقدوا

وفعلاً هي العين الساهرة التي يجافئها لذيد الرقاد وهي إلى جانب سرير ولدها، في وقت يغط الأب في عميق نومه .
 إذن فالمرأة هي التي تعدّ الجيل؛ لأن الأب في موضوع الزواج ينتهي دوره بعد أن ينتهي من حماية غريزته وإشباعها، فإن تكوّن ولد من ذلك فإنه سيكون من مسؤولية الأم من لحظة علوقه وحتى كبره وتمكّنه من الاعتماد على نفسه، مع أنه يجب أن يمارس دوره كأب في توجيه ولده وتربيته وملاحظة سلوكه وتصرفاته .

الثانية: أنها تتحمل العبء الأكبر في عملية التربية

إذن فالمرأة يقع عليها العبء الأكبر والجانب الأضخم في عملية التربية والتهيئة والتنشئة، ومن هنا جاءت توصية الإسلام بها؛ فيقول

الرسول الأكرم ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عندكم عوان»^(١). ويقول: «إنهن عوارٍ عندكم»^(٢).

فالزوجة مكرّمة؛ فقد كرّمها الإسلام على لسان نبيّه الكريم محمد ﷺ؛ ولذا فإنّه ليس من الرجولة ولا من الإنسانية ولا من الأخلاق أن يرمي الرجل جام غضبه على زوجته لأنّقه الأسباب، بل ليس له ذلك وإن عظم السبب إلاّ فيما يخرج عن الحشمة والدين. فالإسلام يعبر عن رجل كهذا بأنه لئيم، جاء في الحديث الشريف: «ما أكرمهن إلاّ كريم ولا أهانهن إلاّ لئيم»^(٣).

لأنّ المرأة مشدودة عاطفياً إلى زوجها، وهي تنتظر منه المعاملة الحسنة والاحترام والرقة، كما أنّها مشدودة إلى أطفالها، وأيّ إساءة لها سوف تصيبها بخيبة عظيمة وطاغية للأمل الكبير الذي تعيش فيه وله. ومن هنا فإن الرسول الأكرم ﷺ يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(٤).

وهذا واقع فعلاً فنحن نعرف مدى تحمّل النبي ﷺ لنسائه، ولو امعنا النظر فيه لعرفنا العظمة في نمط السلوك الذي كان ﷺ عليه، بل لا حدّ لعظمته. ولك أن تتصوّر كم هو سلوك عالٍ وراقٍ، وكم هو تصرّف سامٍ. وقد ورد في الروايات أنّ أكثر عذاب القبر يوم يموت الإنسان هو من سوء الخلق مع العيال^(٥).

(١) عوالي اللآلي ١: ٢٥٥ / ١٦، سنن ابن ماجة ١: ٥٩٤ / ١٨٥١.

(٢) إيضاح الفوائد ٣: ٢٦٧، فتح القدير ١: ٤٦٢.

(٣) الجامع الصغير ١: ٦٣٢ / ٤١٠٢، كنز العمال ١٦: ٣٧١ / ٤٤٩٤٤.

(٤) الفقيه ٣: ٥٥٥ / ٤٩٠٨، سنن ابن ماجة ١: ٦٣٦ / ١٩٧٧.

(٥) انظر الاعتقادات: ٥٩.

دخل رجل على النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، أخطب المرأة الجميلة أو ذات الدين أو ذات المال؟ فقال ﷺ: «اظفر بذات الدين تربت يداك»^(١). كما أنّ الشرع المقدّس في الوقت نفسه يوصي المرأة بأن ترتبط بذوي الدين؛ لأنّه إن رغب عنها لم يظلمها. وذو الدين هو صاحب الخلق والالتزام، والذي يحمل الإنسانية بين جنبات نفسه.. الإنسانية التي أراد ديننا الحنيف أن يغرسها في نفوسنا. فمثل هذا إن أحبّها رفع قدرها وإن كرهها لم يظلمها^(٢)، فمثل هذا هو الذي يملك وعياً بالأهداف الدينية وبأهداف بناء الأسرة والمجتمع.

والزوج إذا كان يعرف من نفسه أن سوف لن يحقّق العدل مع زوجته وليس من حقّه أن يتزوّج؛ لأنّ العدل واجب والزواج بهذه الصورة تضييع لهذا الواجب؛ إذ أنّ الزوجة في الأصل كيان أجنبي عن الزوج غير أنّ الله تعالى ربطه بكيانه بالعقد، فهي لها حقوقها ومجال حرّيتها التي ضمنها لها ديننا الحنيف، ولذا يجب مراعاة الأدب معها واحترامها. وكل مسلم مسؤول عن أن يعرف طبيعة التعاليم الإسلامية بهذا الخصوص (حقوق الزوجة وواجباتها) في حياتنا، وهذه رسائل علمائنا ملأى ببيان هذه الأمور، فهي تتكفّل بتعليم الناس هذا الجانب الحيوي والمهم عند بني الإنسان، وبتربية الزوج على السلوك الصحيح الذي ينبغي أن يسلكه إزاء زوجته. فهذه الرسائل تبين لنا حقوق الأسرة وحقوق الزوجة وحقوق الرجل، وكيف يجب أن يتصرّفا حيال بعضهما.

(١) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

(٢) يقول النبي ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقاً رضي آخر». مسند أحمد

٢: ٣٢٩، صحيح مسلم ٤: ١٧٨.

المبحث الثاني: افتقار المجتمع الإسلامي إلى مؤسسات تربوية

إذن نحن بحاجة إلى تنظيم أسروي تطبيقي، وهو تنظيم يحتاج إلى مؤسسات، لكننا - ببالغ الأسف - لا نملك مثل هذه المؤسسات التربوية والتنظيمية لرعاية الأسر، وتنظيم هذا الزواج. ولتدعيم هذا سوف أضرب بعض الأمثلة:

أولاً: اختيار شريك الحياة المناسب

ففي أوروبا مثلاً هناك مؤسسات مختصة بشؤون الزواج، حيث يأتي كل من الشاب والفتاة إليها، فيعطيان معلومات شخصية عن حالتهما ونفسيهما تسمى «case study» أي «دراسة حال». ويشترط في هذه الدراسة أن تكون شمولية لمراحل حياة المتقدم كافة؛ من طفولته وحتى ساعته تلك. ثم يتولى جملة من الاختصاصيين دراسة هذه المعلومات لإيجاد نقاط التقارب بين اثنين من المتقدمين في الميول والأخلاق، ولمعرفة الموانع الصحية أو الاجتماعية، ثم يعطون نسبة النجاح لكل زوجة محتملة. وتعاليم ديننا الحنيف لا تمنع من وجود مثل هذه المؤسسات، بل إنها تحث على توفر عامل الوئام الذي هو نوع من أنواع البرّ التي يأمر بها القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (١).

ثانياً: تقنين الزيجات

فلو أراد أحد أن يتزوج من زوجة ثانية لسبب من الأسباب المشروعة - وإن كانت أغلب الزيجات التالية في مجتمعاتنا بعيدة عن الأسباب

(١) المائدة: ٢.

المشروعة؛ لأن البعض بمجرد أن يمتلئ جيبه يسارع إلى الزواج دون معرفة بعواقبه - فمن المستحسن أن تكون هناك مؤسسات مختصة تشرف على هذه الزيجات ومعرفة الأسباب والمسوغات وهل هي كافية أم لا ليرجع إليها؛ حتى تكون عملية الزواج هذه خاضعة لقوانين تنظيم الأسرة. ومع أن الشرع لا يمنع من التعدد، لكنه أباحه بشرط وجود داعٍ أو علة مسوغة. وقد ترك الله لنا تقدير هذه العلة. لأن هذه الزيجات قد تؤدي إلى ارتكاب حرام كما هو ملاحظ في كثير من البيوت التي تتصف بوجود تعدد زيجات منها؛ حيث إنها تتصف بعدم توافر العدل بين الزوجات، وبضعف العلاقات بين الإخوة أبناء العلات، وانعدام الانسجام بينهم؛ فكل واحد من هؤلاء ينظر إلى أخيه على أنه ابن ضرّة، فلا تجد بينهم ذلك الاندماج الروحي الواجب توفره بين الإخوة.

إن الحياة مهما طالت ما هي إلا أيام قلائل يقضيها الإنسان، ثم يودع الأهل والأبناء والإخوة ويرحل إلى مقره الأخير، فهل يصح له أن يقضيها بهذا الشكل من النكد؟ إن المفروض بكل أسرة أن تعيش حالة الوئام والهدوء؛ لأن الإنسان أكبر من الغريزة، والمؤمن الذي له حرمة عند الله أعظم من حرمة الكعبة^(١) يجب ألا ينزل بنفسه إلى مستوى الغريزة، وأن

(١) عن رسولنا الأكرم ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس، أي يوم هذا؟». قالوا: يوم حرام. ثم قال: «يا أيها الناس، فأى شهر هذا؟». قالوا: شهر حرام. قال: «أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن الله عز وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه». الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢.

وقيل لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: حديث يروى عنك؟ قال: «وما هو؟». قيل: «إن حرمة

يربأ بها عن ذلك. ونحن لا ننكر أن الإنسان يحتاج إلى الغريزة، لكن يجب أن يمارسها بالأسلوب المهذب، وألا يكون مسيراً لها فتتحكم في تصرفاته، بل عليه أن يهذبها وأن يخضعها لقواعد العقل وضوابط الدين عبر ركوب الطريق الصحيح الذي رسمته الشريعة.

وعليه فلا مانع من أن إيجاد مؤسسات تحدّد مدى الحاجة إلى التعداد ومستواها. وفكرة المؤسسات سواء كانت أخلاقية أو مالية أو اجتماعية تقوم أساساً على التعاون والتكاتف لبناء أسرة سليمة.

من المسؤول عن قيام هذه المنظومة المؤسّساتية؟

إنّ هذه المؤسسات يجب أن ترعاها وتشرف عليها جهة معيّنة، وتقوم بمراقبة أعمالها وأنشطتها، وكونها خاضعة للقواعد المرسومة أم لا. وهناك جهتان يمكن أن تكونا الطرف المسؤول عن مثل هذه المؤسسات:

الجهة الأولى: المجتمع

إنّ المجتمع كلّه يعدّ مسؤولاً أمام كل فرد عن قيام مثل هذه المجمعّ المؤسّساتي، وعن عمله ومراقبة نشاطه. والمجتمع يتمثل بالناس على اختلاف طبقاتهم وتعليمهم وأعرافهم؛ لأنّها قضية وطنية تهّم الجميع؛ كونها ترتبط ببناء الأسرة التي سيمزق المجتمع إهمالها وعدم تنظيمها.

الجهة الثانية: الدولة

كما أن الدولة يجب أن تشترك بما تملك من إمكانيات وطاقت وأموال في تنظم هذه المسألة؛ لأنّ الجميع يجب أن يتعاون في بناء

المؤمن أعظم من حرمة هذه البنيّة». قال: «قلت ذلك، إن المؤمن لو قال لهذه الجبال: أقبلني، أقبلت». الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

الأسرة واستقرارها. فالدولة مطالبة أمام الرأي العام بهذا الأمر، بما تتوفر عليه من الإمكانيات المادية وموارد الطاقة كافة، مما يمكن أن تستخدمها وتسخرها لخدمة هذا الغرض.

الأمن الأسروي

فالدولة كما أنها مطالبة ببناء المؤسسات التعليمية والصحية فهي كذلك مطالبة ببناء مؤسسات اجتماعية ذات طابع أمني اجتماعي؛ لأن هذا الجانب يمثل «أمن أسرة»، والأمن الأسروي مطلوب تحققه وواجب تحقيقه؛ لأن الأسرة التي فيها مربّ أمين لا تنتج جاسوساً أو مخرباً أو عميلاً أو إنساناً منحطاً الأخلاق، فالأسرة تبني الإنسان وتغرس فيه روح المواطنة الطيبة، وتشده إلى التربية الإسلامية والقيم الأخلاقية فيما لو كانت مبنية على أساس صلب وبصورة سليمة، وهذه العملية حتماً سيكون لمثل هذه المؤسسات التوجيهية والتربوية، الأثر الأكبر فيها. وعليه فترتيب الأسرة وبنائها هما من صلب الروح التي يهدف الإسلام إلى تعميمها في الجسد الإسلامي الواحد.

المبحث الثالث: دلالة ﴿مَا﴾ في الآية

تقول الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾، وللمفسرين في معنى ﴿مَا﴾ الموصولية في قوله تعالى: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾، وفي دلالتها رأيان:

الأول: أنها لغير العاقل

وهذا الرأي لا يعدّ تفسيراً للنصّ القرآني، بل هو إعراب عمّا في مخّ المفسّر ونفسيته؛ لأنّ مثل هذا المفسّر في عمله هذا ليس أكثر من أن

يكون قد خلع مزاجه على النصّ، فهو لا يفسّر النصوص القرآنية وإنما يفسر ما هو موجود في ذهنه ويصبغه بصبغة التفسير.

وهؤلاء المفسّرون يقولون: بما أن ﴿مَا﴾ موضوعة لغير العاقل، وبما أنّ المراد بها هنا: المرأة، فنستطيع أن نخرج بنتيجة مفادها أنّ المرأة كائن غير عاقل، وأن حكمها حكم من لا يعقل؛ لأنه تعالى استخدم ﴿مَا﴾ ولم يستخدم «من» الموضوع لجماعة العقلاء.

وهذا الرأي غريب، ولو أنّه صدر عن إنسان عاميٍّ لأمكن التجاوز عنه والتدرّع له بأنّه لا يفهم معارض الكلام؛ لأنّ البعض من الناس إذا تكلم عن المرأة، قال: «أجلّ الله السامع»، وكأنّ المرأة شيء يستحقّ ويستقبح ذكره وينفر منه، فلماذا؟ أليست المرأة هي أمّ الأنبياء والأوصياء ﷺ؟ أليست هي التي ولدت العظماء؟

فمن أين جاء البعض بمثل هذه التعبيرات المجحفة؟ ولماذا لا نستطيع أن نتخلص من ميراثنا الاجتماعي الجاهلي؟ إن مثل هذه النظرة كانت ذات يوم من الأيام ميراثاً جاهلياً أقرته عاداتهم وأعرافهم، فلماذا لا يزال هذا الميراث ملتصقاً بنا، ولا نزال نتمسك به حتى الآن؟ ولماذا لا نستطيع التخلص منه؟

إذن فحينما يكون هذا الكلام صادراً من إنسان عاميٍّ لأمكن التجاوز عنه، أمّا حينما يكون هذا الكلام صادراً عن عالم أو مفسّر فإننا يحقّ لنا أن نرسم علامات الدهشة والاستغراب على وجوهنا.

وليس هذا بأوّل ما ابتدع في هذا الباب، فهناك من يفسّر ﴿السُّفَهَاء﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾

وَآكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا^(١) بالنساء^(٢). وهذا في واقع الأمر ظلم كبير وعظيم للمرأة التي تمثل نصف المجتمع، بل إنه أكثر من الظلم، فهو تعدُّ على الآخرين وعلى حقوقهم، ونستطيع أن نسميه انحرافاً عن جادة الصواب.

الثاني: في مقدار العدد الشرعي للزواج

ويذهب البعض إلى أن للإنسان أن يتزوج أي عدد شاء من النساء؛ لأنَّ ﴿مَا﴾ الموصولة هنا مطلقة شاملة لأي عدد. وهذه النظرية موجودة في كتب المذاهب الأربعة^(٣)، وقد بحثتها في كتاب (فقه الجنس)^(٤)، ومن أراد فليرجع إليه.

ويذهب البعض إلى العدد الأقصى المسموح به هو ثمانية عشر^(٥)؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿مَثْنَى﴾ معدول عن اثنين واثنين، و﴿ثَلَاثٌ﴾ معدول عن ثلاث وثلاث، و﴿رُبَاعٌ﴾ عن أربع وأربع؛ فيكون المجموع ثماني عشرة

(١) النساء: ٥.

(٢) التبيان: ١: ٧٧، ونسبه لعامة أهل التأويل، تفسير القرآن العظيم ١: ٥٣.

(٣) تبيين الحقائق ٢: ١١٢، رمز الحقائق ١: ١٤٣، نيل الأوطار ٦: ٢٨٩، المجموع شرح المذهب ١٦: ٢٤٤، غرائب القرآن ٤: ١٧٢، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧.

(٤) فقه الجنس: ٨١ - ٩٥.

(٥) غرائب القرآن ٤: ١٧٢، وفيه: «ذهب جماعة إلى أنه يجوز التزوج بأي عدد أريد؛ لأنَّ قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ إطلاق في جميع الأعداد؛ لصحة استثناء كلِّ عدد منه، وقوله: ﴿مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ لا يصلح مخصصاً لذلك العموم؛ لأنَّ تخصيص بعض الأعداد بالذكر لا ينافي ثبوت الحكم في الباقي، بل نقول: ذكرها يدلُّ على نفي الحرج والحجر مطلقاً؛ فإن من قال لولده: افعَل ما شئت؛ اذهب إلى السوق وإلى المدرسة وإلى البستان، كان تصريحاً في أن زمام الاختيار بيده ولا يكون تخصيصاً. وأيضاً ذكر جميع الأعداد متعذراً؛ فذكر بعضها تنبيه على حصول الإذن في جميعها».

زوجة، مستدلاً بأن رسول الله ﷺ قد تزوج أكثر من تسع نساء، وهو ﷺ قد ندبنا لأن نتبع سنته. ونقول لهذا: أمّا هذا الفعل فهو من خصوصيات النبي ﷺ، وأمّا الإطلاق الذي تتكلم عنه فهو مقيد بالإجماع وبالروايات؛ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يحلّ لماء رجل أن يجري في أكثر من أربعة أرحام من الحرائر»^(١). وهذه الأربعة شرّعت للحالات الاضطرارية وليست على نحو الإطلاق.

وهذا المذهب فاجعة، غير أنّ الفاجعة الأكبر أن من يقول بجواز الزواج من أكثر من أربع يتهم الشيعة بأنهم يجيزون ذلك. ومن هؤلاء الذين ينسبون ذلك لنا الشاطبي حيث يقول: إنّ الشيعة يجيزون الزواج من تسع في آن واحد، أي يجمعون بين تسع. على أية حال إن هذه ليست المصيبة الأولى في تاريخنا، فإن هذا التاريخ مليء بالمصائب من أمثال هذه، بل بما هو أشدّ وأنكى. ولذا فإني أنصح أي شخص يمرّ بتاريخنا ألا يأخذه أخذ الحقائق المسلمة، لأنّه ليس كل ما فيه مسلماً؛ فقد لعبت به مؤثرات كثيرة، ومن يرّ فيه رأياً أو واقعة فليثبت منه قبل أن يعتنقه ويأخذ بالتقول به ونقله؛ فسمعة المسلمين أهم بكثير من أشياء أخرى تنبع من دوافع نفسية.

مناقشة

وعليه فهذان الرأيان غير صائبين، لأن الثاني قد ذكرنا أن السنة والا جماع لا يعضدانه، والأوّل يمكن أن يردّ عليه بأن (ما) يمكن أن تستعمل

(١) فقه القرآن ٢: ٩٩.

للعاقل، وهذا ما ينصّ عليه علماء النحو^(١) واللغة^(٢)، وغيرهم^(٣). ثم إنَّ الكثير ممَّن يكتب لا يستطيع أن يتخلَّص من دائرتي الإفراط والتفريط، فمن ذلك ما رأيناه هنا من التصريح بعطف المرأة على غير العاقل، وفي مقابل ذلك نجد من يقول: إن المرأة عندها استعداد لأن تكون نبياً لأُمَّة، بل يصرِّح بأن هناك نساء نبيّات، وهذا ما يذهب إليه جملة من الفقهاء والمفسرين.

وهذان الرأيان فيهما جنوح واضح نحو الإفراط والتفريط، فليس هناك ميل لحلّ وسط أو رأي وسط. ومن يذهب الى وجود نساء نبيّات يذكر أن منهن آسية بنت مزاحم ومريم بنت عمران وأمّ النبي موسى ﷺ. بل يذهب البعض إلى حصول ذلك عند بعض النساء المتأخّرات؛ بدعوى أنّ الملائكة قد حدّثتهن، والملائكة لا تحدّث إلا الأنبياء.

تقليد المرأة

وأدلة هؤلاء غير ناهضة، لكن ما هو صالح للتوقّف عنده في هذا المجال - وهو من المسائل الحيوية اليوم، وقد عالجها فقهاؤنا - هو: هل يصحّ أن تكون المرأة فقيهة مجتهدة مفتية، أم لا؟ رأي بعض المحقّقين أن ذلك جائز؛ لأنّ الاجتهاد يقوم أساساً على حصول ملكتين: ملكة الاستنباط، وملكة العدالة؛ فإن حصلتا جاز تقليد صاحبهما. ومن هؤلاء المحقّقين السيد الحكيم (تغمده الله برحمته)، وهذا هو الأصل.

(١) انظر: شرح ابن عقيل ١: ١٤٧، مغني اللبيب ١: ٢٩٧.

(٢) لسان العرب ١٥: ٤٧٣ - ما.

(٣) البحر المحيط ٣: ٥٤٦، البرهان (الزركشي) ٤: ٣٩٩، أضواء البيان ٨: ٤.

فالمراة تتوفّر على القابلية عينها التي يتوفّر عليها الرجل ، فهي خدينة الرجل إذا رقت إلى المراتب عينها التي يرقى إليها. يقول الحديث الشريف: «النساء شقائق الرجال»^(١)، فلماذا نهبط بهن بسبب ميراثنا الاجتماعي ومتراكمات تقاليدنا عن مكانتهن التي وضعهن الله تعالى فيها إلى مستوى يجعلهن كائناً منحطاً؟ ولماذا نصعد بهن فوق منزلتهن الإنسانية لنعطينهن من الوصف فوق ما أعطاهن الله تعالى فنجعلهن نبيات؟ إن الصحيح هو أن نعطينهن حقهن من التقدير والرعاية والإكرام والمصاحبة بالإحسان؛ كي يتسنى للأسرة أن تقوم على الاستقرار الذي أرادته الله عز وجل لها أن تقوم عليه؛ لينشأ الطفل وترعرع في جو سليم.

المبحث الرابع: في معنى ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾

إن المذهب الصحيح في قوله تعالى: ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾ رأيان هما:

الأول: الزواج من غير المحارم

فالمراد هنا هو عدم الإقدام على الزواج من ذات محرم كالأم وإن علت والأخت وإن نزلت، وبنات الأخ والأخت، والخالة والعممة. فهؤلاء كما هو معلوم شرعاً وضرورة لا يجوز الزواج منهن أو العقد عليهن. لكن هناك من يتزوج من المحارم، وهو أمر موجود عند بعض من ينتسب للأديان السماوية. وقد نسب^(٢) للخوارج أنهم يجيزون زواج الرجل من بنت أخته. وللحقيقة أقول: إنني لم أتبع هذا الرأي عند فقهاءهم، لكن أحب

(١) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٥٩ / ٢٣٦.

(٢) انظر: نيل الأوطار ٧: ٣٤١، فتح الباري ١٢: ٢٥٢، عمدة القاري ٢٤: ٨٥، الأنساب ٥:

٤٣٨، اللباب في تهذيب الأنساب ٣: ٢٨٥.

أن أشير إلى أنّ الخوارج هم من الثوار، والثوار غالباً تلصق بهم الكثير من المعائب والتهم زوراً لإسقاطهم من نظر الناس، ولطردهم عن الساحة، فيجب التروّي قبل إصاق هذا بهم ونسبته إليهم. وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «لا تقتلوا الخوارج بعدي؛ فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه»^(١).

فما أعظم هذا الرجل! واللّه، إنّ كل من يتأمل في شخصية أمير المؤمنين عليه السلام وفي أخلاقه ومزاياه ولو بأدنى درجات التأمل فسيجد شخصاً عظيماً، وسيتلمّس مدى عظمته وكبر نفسه. يقول أحد الأدباء يخاطبه:

كلما مرّ في سماك طماحي ضاع في زحمة النجوم جماحي
غمرك النجوم بالضوء حتى ضاع درب السنا على اللماحي

فهو يوصي بالخوارج خيراً في الوقت الذي فعلوا به ما فعلوا حتى إنهم قتلوه.

الثاني: الحجر النظيف من الدنس

ويذهب البعض إلى أن المقصود بـ «مَا طَابَ لَكُمْ» هو الحجر النظيف الذي لم تدنسه أرجاس المجتمع والعلاقات المحرّمة التي يعبر عنها الحديث الشريف بقوله: «إياكم وخضراء الدمن»^(٢)، أي المرأة الحسناء في

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٦١.

(٢) تهذيب الأحكام ٧: ٤٠٣ / ١٦٠٨، وسائل الشيعة ٢٠: ٣٥ / ٢٤٩٦٣، كنز العمال ١٦: ٤٤٥٨٧ / ٣٠٠.

منبت السوء، و«تخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ»^(١). إنَّ من الناس من يجنح إلى الزواج من امرأة لمجرد جمالها دون أن يعير أي اهتمام للاعتبارات الأخرى؛ فلم ينظر إلى أسرتها وحالتها، بل إنَّه يكتفي بمجرد كونها جميلة، مع أن عليه أن يأخذ مفهوم الآية بنظر الاعتبار؛ لأنَّ الحجر الطيب هو الذي سيبني الأسرة الصالحة الطيبة المستقيمة التي تصلح أن تكون نواة إيجابية وفعالة في بناء مجتمع سليم.

المبحث الخامس: في موانع التعدد

ثم قالت الآية الكريمة: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً»، وهنا يركِّز المفسِّرون على لفظة «خِفْتُمْ» في الآية الكريمة، وهم إزاءها على رأيين:

الأول: أنَّه مطلق الخوف

فأصحاب هذا الرأي يقولون: إنَّ مجرد الخوف ومطلقه كافيان في منع التعدد. وهذا الرأي معناه ألاَّ يقدم إنسان على الزواج من ثانية؛ لأنَّ كل إنسان لا بدَّ أنَّه يخاف من ألاَّ يعدل؛ فالخوف حاصل بالتأكيد؛ ولذا فإنَّ باب التعدد مسدود عنده. وهذا واقع فعلاً؛ لأنَّ بعض النساء حتماً سيتميِّزن عن غيرهن بالسلوك أو الأخلاق أو الشكل أو بالتزامهن بواجباتهن البيئية، فإنَّ تميّزت إحداهن بهذا كان الزوج إليها أميل، فيقع في دائرة عدم العدل.

الثاني: أنَّه الخوف من عدم العدل في النفقة

ويذهب أتباع هذا الرأي - وهم الأغلب - إلى أنَّ المقصود بالخوف في الآية الكريمة هو الخوف من عدم العدل في النفقة؛ فيجب على من يتزوَّج

(١) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن ابن ماجه ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.

من أكثر من واحدة أن ينفق بالعدل على زوجاته دون أن ينقص إحداهن شيئاً أعطاه لغيرها.

مراعاة بيئة المرأة في النفقة

ويستثنى من هذا الأمر الحالة الاجتماعية أو المعاشية التي كانت عليها الزوجة قبل زواج الرجل منها، فلو أنه تزوج من امرأة من الطبقة الوسطى وأخرى من الطبقة الراقية؛ فإن العدل الذي هو وضع الشيء موضعاً يحتم عليه هنا أن ينفق على هذه بما يناسب حالتها المعيشية والاجتماعية قبل الزواج منه، ولا يكون غير عادل حينها إن فعل هذا. فهذه الحالة مستثناة من قاعدة العدل بين الزوجات؛ لأنها حينئذٍ لا تدخل ضمن نطاق التمييز بين الزوجات اللاتي من حقهن أن تأخذ كل واحدة حقها بما يناسبها منزلةً ورتبةً إلى غير ذلك. بل إنه إن ساوى هذه بتلك فربما يكون قد ظلمها؛ لأنه حينئذٍ يكون قد أنزلها عن حالها الذي كانت عليه في بيت أبيها.

فالإسلام يراعي هذا الجانب، ولا يعدّ الميل فيه ظلماً وعدم عدلٍ مطلقاً، بل إنه يراعي كلّ الجوانب الحياتية في هذه المسألة؛ لما لها من أهمية وأثر كبيرين في حياة الإنسان. فهو لا يعدّه ظلماً أبداً، بل إنه هو العدل في منظاره؛ لأنه وضع الشيء في موضعه. وكمثال تقريبي على هذا حينما يستأجر الإنسان عاملاً لعمل ما يريده ولم يتفق معه على أجره، فإنه يجب عليه أن يعطيه أجره المثل، وأجرة المثل هذه تناسب وضع العامل نفسه فإن كان فنياً أعطاه أجره العامل الفني ولا يكون قد ظلم العامل غير الفني حينما يعطيه ما يناسبه بدعوى أنه لم يعدل ولم

يساو بينهما؛ بل إنه يكون قد طبّق قواعد العدل هنا؛ لأنه لم يبخس ذا الحق حقه؛ فأعطى لكل من يستحق حقه الذي ينبغي له. فإن كان الإنسان يخاف ألا يعدل هنا فيجب عليه أن يغلق باب التعدّد ولا يوقع نفسه في المحذور والمحظور أبداً؛ لأنّ المسألة ليست مسألة رغبة عابرة فقط، بل لابدّ أن يكون هناك تحقيق لضوابط التعدّد وتطبيق لها.

أسباب التعدّد

ثم إنّ على الإنسان أن يراعي موجبات التعدّد، ولا يجعلها خاضعة لهذه الرغبة العابرة، إذ أنّ خلف ذلك حياة جديدة ومسؤوليات كبيرة تجاه تطبيق شرع الله تعالى وقوانينه في مسألة التعدّد؛ فهناك زوجة أولى يجب مراعاة حَقّها، وهناك أطفال يجب وضع حساب لهم وزمن كافٍ لمتابعتهم ورصد قابلية وقدرة على تربيتهم وجعلهم منسجمين مع بعض كونهم أبناء علات، وما إلى ذلك من أمور تتبعها كالإنفاق والفراش وغيرها.

مشكلة العزوف عن الزواج عند البعض وحلولها

وعليه فمسألة مراعاة موجب التعدّد مسألة ضرورية جداً، لأنها داخلة في صميم ترتيب الأسرة وبنائها. وهذه المشكلة تعيشها أغلب البلدان الإسلاميّة؛ وعليه فلا بدّ من معالجتها بوضوح وشفافية بعيداً عن الضبابية وتعويم المفاهيم والقوانين. ونحن نعرف مثلاً أنّ هناك عدداً من العوانس في جميع البلاد الإسلاميّة، وربما يتدرّج الشاب بأنّه غير مؤهل بعد للحياة الأسرية؛ إذ أنّ الزواج سيربطه بأسرة وأطفال، وبالتالي البحث

عن ساعات عمل إضافية ومجال عمل أكبر كي يتمكن من أن يسدّ حاجات أسرته، ويلبّي جميع متطلّباتها.

وعليه فهو يقول: لا داعي لأن أقيد نفسي، بهذا الأمر مع أنني أستطيع أن أوفّر دواعي اللذة متى أردتها، فهي مبذولة في الشارع؟ وهذا ليس أمراً طوباوياً فهناك جملة من الشباب يخضعون لهذا النمط من التصوّر عن الحياة الزوجية، ولهذا اللون من التفكير بشأنها، فيعزفون عن الزواج والاستقرار الحياتي.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن بعض الشباب يلجؤون إلى الزواج من بنات البلاد الأخرى سعياً وراء الجمال الصارخ المبهرج، ويترك بنت بلده التي هي ربما كانت بنت عمه أو غيرها. وقد يتذرّع البعض للزواج من الأجنبية بحجة الثقافة العالية وليس الجمال، فهو يتزوّج من هذه الأجنبية؛ لأنه يريد أن يتزوّج امرأة تحمل ثقافة عالية ومؤهلاً علمياً كبيراً، وهذه قد وجدها في زميلته في الدراسة هناك، فيعقد عليها ويتزوّجها.

الحل القائم على اساس المجتمع

وبهذا يكون هؤلاء قد هيئوا الظروف لأن تكون هناك حالات عنوسة في بلداننا، وأنا لا أريد أن أقول: إن هذا محرّم أو غير جائز، لكن أودّ أن أنبّه الى أن هناك شيئاً هاماً اسمه «مروءة»، فالدين مروءة، وهذا العدد الفاضل من النساء في بلدان المسلمين يرسم في آفاقنا الأسرية مشاكل ينبغي إيجاد حلول لها، وهذه الحلول لا بدّ أن تكون بشكل عملي وتطبيقي، فمثلاً على صعيد امتناع البعض من الشباب من الزواج بذريعة

الفقر أو عدم التمكن من إيجاد ساعات عمل إضافية لتلبية متطلبات الأسرة، فهؤلاء يمكن أن يُحل جزء من مشاكلهم عبر توفير دورسكن لهم .

ونحن نلاحظ أنّ بعض أهل البرّ والإحسان حينما يريدوا أن يعملوا عملاً خيرياً يلجؤوا إلى بناء مسجد ولو أنه سيظلّ فارغاً دون أن يشغله المصلّون، في حين أنهم يمكن أن يضعوا برّهم في توفير مساكن لهؤلاء الشباب كي يرغّبوهم في الزواج ولو بحلّ جزئي لمشكلتهم، وبالتالي يبعدونهم عن طريق الخطيئة والرذيلة، حتى يوسّع الله عليهم فيتركوا هذه المساكن لغيرهم ممّن يعيش المشكلة التي كانوا يعيشونها ويعانون منها عينها. وهذا العمل الخيري يشمل الكثير من أعمال البرّ والخير ويتوفّر عليها؛ لأنه سيكون فيه ستر لأعراض المسلمين وعوراتهم وحفظ لهم وصيانة عن الوقوع في الحرام، وإضافة إلى ذلك فيه سدّ لحاجاتهم وحلّ لمشكلة اجتماعية أن تقع، تعد كارثة إن هي وقعت .

لقد أوحى الله تعالى إلى نبيه إبراهيم عليه السلام فيما أوحى: «ابن لي بيتاً في الأرض أعبد فيه». فبنى بيتاً، ثم أوحى إليه ثانية: «ابن لي بيتاً في الأرض أعبد فيه». فبنى بيتاً ثانياً، ثم أوحى إليه في الثالثة: «ابن لي بيتاً في الأرض أعبد فيه». فبنى بيتاً ثالثاً، وقال: «يا ربّ، لقد بنيت ثلاثة بيوت». فقال تعالى: «هل أشبعت جائعاً؟ هل كسوت عرياناً؟ ابن لي بيتاً في قلوب الناس» .

ذلك أن الإنسان أهم شيء في الوجود؛ فيجب أن يتوجّه كل عمل برّ إلى صيانتها وصيانة الموارد الحيوية التي تمسّه عبر بناء مجتمع إنساني صالح .

الحل القائم على أساس الدولة

هذا هو العلاج القائم على أساس التكامل الاجتماعي بين أبناء المجتمع نفسه، أمّا العلاج الثاني فهو العلاج المبني على تدخّل الدولة المباشر، والتي يجب أن تقوم ببناء المؤسسات الاجتماعية ورعايتها وتوفير كامل مستلزماتها كما ذكرنا. لكننا على مستوى التطبيق والواقع لا نجد لهذا الالتزام وجوداً أبداً، وماذا ستكون النتيجة؟ إن هذه العانس إما أن تكون نجبية شريفة وحينها ستظل تعاني من الكبت والألم مما يسبّب لها في النهاية عقدة نفسية أو مرضاً، وإما أن تكون غير ملتزمة، وسيتهيء بها الأمر إلى الانحلال والانحراف، وكذلك الأمر مع الشاب.

حلول الإسلام لمشكلة الزواج

وهذا هو ما يحاول الإسلام أن يضع له حلاً مناسباً تكون نواة لعلاج جذري لمشكلة العنوسة. ومن ذلك ما نجده في كتبنا الحديثية من قول الرسول الأكرم ﷺ: «من خطب إليكم فرضيتم دينه وأمانته فزوّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»^(١).

وهو فتنة فعلاً يجب وضع حلول له. وليعلم بأن حل هذه المشكلة يتوفّر على عدّة جوانب تصبّ في المنبع الإسلامي؛ ففيها جانب مواطنة، وفيها جانب إنساني، وفيها جانب أخلاقي، وفيها جانب التقرب إلى الله تعالى بفعل الخير. وكلّ هذه الأشياء سيسألنا الله تعالى عنها غداً. ومع أنّ هذه المسألة بمتعلقاتها لا تصل حدّ الوجوب إلا إنّ الإسلام كما ذكرنا هو المروءة، ومن المروءة أن ينظر الإنسان لأخيه الإنسان والآل

(١) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١ - ٣، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

يهمل مشاكله، ولا يتركه وحيداً أمام أزمات حياته.

المبحث السادس: مسألة الإماء

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، وهي هنا تحث على الاكتفاء بزوجة واحدة فيما لو لم يتمكن من العدل بين الزوجات في النفقة والعطاء. وتقدير هذا الأمر متروك للإنسان الذي يجب أن يشعر بالمسؤولية الكاملة تجاه أسرته وقدرته على تربية أطفاله وإعالتهم، كما أن عليه أن يقدر حالة الضرورة التي تلجئه إلى التعدد.

وهنا نقطة هامة أودّ أن أشير إليها هي أن الإنسان يولد حراً لا عبداً؛ فإن كان التعبير القرآني في الآية يشير إلى هذا، فليس لأنه يجيز استعباد الإنسان مطلقاً بل إنه يقرّر حالة واقعة يعيشها المجتمع ينبغي أن توضع لها التشريعات الخاصة بها. فالمرأة تمر بظروف تؤول بها إلى الاسترقاق، كما لو أن مجتمعاً غير إسلامي شكل عنصر خطر على المسلمين ويشنّ عليهم الحروب، فإن من حقّ المجتمع الإسلامي حينئذٍ الردّ عليهم، فإن سبى منهم نساء كنّ رقيقات.

وليس معنى هذا أن الإسلام ينزل بالسيّئة التي ربما كانت من أمة متحضّرة أو امرأة ذات ثقافة عن مستواها، بل إنه يرفعها، كما لو أن المسلم تزوّجها فإن ملكيتها تصبح متزلزلة فلا يستطيع بيعها، فإن رزق منها بولد أعتقت من حصّة ولدها. أما بالنسبة لولدها فإنه يتبع أشرف الأبوين، والأب حرّ، فهو حرّ أيضاً.

ثم إنه من قال: إن الإسلام يفرّق بين الأمة والحرّة؟ فكل ما يريد الإسلام أن يقوله هنا: إن مهر الأمة أقل لتذليل العقبات أمام الزواج؟ فالبعض

يضع عقبات وهمية في طريق زواج الشباب، فنجده يدقق في حسب الشخص ونسبه، لكنه إن وجدته مغطى بالذهب فإن الذهب حينئذٍ سيمحو كل العيوب التي يمكن أن تكون عنده سواء في نسبه أو في حسبه.

ونحن لا ننكر أن المسلمين كانوا يحتقرون ابن الأمة^(١)، وأنهم كانوا يقولون: كنا نحقر أبناء الإمام حتى ولد ثلاثة أبناء منهم هم: زين العابدين عليه السلام، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب^(٢). فعندها تغيرت النظرة إليهم.

وعليه فإن الأمة ربما كانت من وسط متحصّر، فتربي أبناءها تربية علمية وتغذيتهم بالثقافة. وربما كان هذا هو السبب الكامن وراء زواج أغلب الأئمة من أهل البيت عليهم السلام من الإمام، كالإمام موسى الكاظم عليه السلام؛ فقد كان ابن أمة، وهي حميدة بنت صاعد. وهذا هو الذي حدا بأحداهم ممن كان لا يودّ الإمام عليه السلام عندما يمرّ بداره أن يقول عنه: ابن البربرية. على أية حال هذا هو البلاء، المجتمع لا يخلو من أمثال هذه النماذج، وهذا لا يغيّر شيئاً من واقع الأئمة عليهم السلام ولا من رتبهم ومنازلهم التي رتبها الله لهم

(١) يقول أحد القرشيين: جلست إلى سعيد بن المسيّب يوماً أتدارس معه، فسألني: من أخوالك؟ قلت: إن أمي فتاة. أي جارية، فلما قلت له ذلك كأنما صغرت في عينه. وفي هذه الأثناء دخل زين العابدين عليه السلام، فانتفض له سعيد بن المسيّب قائماً وجلس بين يديه، وأقبل بنصت إليه ويستمع، فلما قام الإمام زين العابدين عليه السلام قلت لسعيد: من هذا؟ قال: هذا أعظم الناس، الذي لا يسع مسلماً أن يجهله. قلت: من؟ قال: علي بن الحسين. قلت: من أمّه؟ قال: أمّه جارية. قلت: رأيتك صغرت في عينك لما قلت لك: إن أمي فتاة، أفما لي في هؤلاء أسوة؟ قال: فجللت في عينه جداً. المجدي في أنساب الطالبين: ٢٤٩، وفيات الأعيان ٣: ٢٦٩.

(٢) وفيات الأعيان ٣: ٢٦٩.

وأنزلهم فيها. إذن فالقمم عندنا في تاريخنا العلمي أمهاتهم إماء. وهكذا نرى أن الإسلام الحنيف لا يفرق بين الحرّة والأمة، لكنّه يلاحظ جانب المهر؛ لأنّه يريد أن يزيل العقبات أمام الشباب التي وضعها المجتمع في طريق زواجهم، فالإسلام ينشد ستر الإنسان وحفظ شرفه وعرضه عن أن يدنّس، ويروم له أن يسان من الخطيئة.

المبحث السابع: في معنى ﴿تَعُولُوا﴾

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ أَذْنَىٰ الْأَتْعُولُوا﴾، وفي معنى ﴿تَعُولُوا﴾ عند المفسرين رأيان هما:

الأول: الفقر

أي لكيلا تقعوا في مشكلة زيادة العائلة والأطفال، فتعيشوا بالتالي حالة من الفقر، حيث لا يتمكّن أحدكم من أن يعيل هذا الكم من الأطفال والعيال.

الثاني: مشاكل الأسرة

وهذا الرأي هو الأهم، ويذهب إليه جملة من المحققين، منهم محمد رشيد رضا في (المنار)، ويقول هؤلاء المحققون حول هذا المطلب: إنّ المقصود بـ﴿تَعُولُوا﴾ هنا هو أن تكثر عيالكم فتكثر بذلك مشاكلكم. فالرجل ربما يكون قادراً من ناحية مادية على جمع الأموال وتوفيرها وبالتالي الزواج من أكثر من واحدة وتوفير متطلبات حياتهن ولوازم أبنائهن، لكنه من ناحية أخرى ربما يكون غير قادر على توفير الجوّ الروحي المناسب لحصول حياة منسجمة ووادعة وهانئة بين العائلة، وذلك بسبب افتقاره إلى معرفة مقومات العملية التربويّة السليمة، وإلى

كيفية تطبيقها.

وهذا الجهل والقصور في تطبيق الممارسة التربوية السليمة والصحيحة سيؤدّي حتماً إلى حصول نوع من التفكك الأسري، وعدم انسجام الأبناء مع بعضهم، وربما نشوء لون من العداة بينهم. ثم إنّ هذه العملية التربوية ليست سهلة مطلقاً، بل إنّها تعدّ من أصعب الأمور التي يمكن أن يصطدم بها الإنسان في حياته العملية؛ لأنّها جانب حيوي هام ويجب أن يوليه المرّبي إمكاناته العلمية والتربوية كافة. فالآية هنا على هذا الرأي لها دور وقائي، وهو منع التعدّد عند خشية الوقوع في هذه المشكلة الاجتماعية. ونحن نجدّد الدعوة لمؤسّساتنا الإسلامية لرعاية الأسرة في مجتمعنا الإسلامي التي تتسم غالباً بضعف علاقات أبنائها مع بعضهم أو الآباء مع أبنائهم أو الزوجات مع أزواجهم. والخلاصة أن الأسرة الإسلامية تمر بمرحلة حرجة تحتاج فيها إلى الرعاية الخاصّة والتوجيه الدائب المستمرّ، وإلا آلت إلى التفكك سيماً فيما يخصّ علاقة الزوجة بالزوج.

وهناك البعض من الأزواج يعيشون علاقات سيئة جداً، أو أنّ الأزواج يتصرّفون بشكل سيئ جداً مع أهلهم وأبنائهم، وهؤلاء حتماً سيواجهون عذاب القبر وسيتعرّضون لغضب الله تعالى وسخطه، فضلاً عن أنّ مثل هؤلاء الأزواج سيرمون بعدم تقوى الله تعالى وبعدم طاعته وطاعة الرسول ﷺ.

وعليه فلا بد للمجتمع أن تتضافر جهوده بما فيه من مؤسّسات تربوية لتوجيه أرباب الأسر خاصة والأسر عامّة إلى أسلوب التعامل الصحيح مع الأسرة وأفرادها كلاً حسب خصوصيته ومع المجتمع، وإرشادهم إلى

ضرورة التكاتف والانسجام، وإلى خطر التفكك ونتائجه السلبية على الأسرة والمجتمع.

المبحث الثامن: في زواج القاسم بن الحسن عليه السلام

وتواجهنا هنا رواية لعلها توحى بأهمية الزواج كمؤسسة اجتماعية - على فرض صحة هذه الرواية - وهي رواية زواج القاسم من إحدى بنات الإمام الحسين عليه السلام. وهذا الموضوع أمر به كل عام وأؤكد على طرحه لا لأجل شيء سوى بيان أنني لا أريد لنا أن نكون محطة سخيرية للآخرين، وإلا فإن الجوّ الذي كان يعيشه الحسين عليه السلام وأهل بيته وصحبه ليس جوّ زواج، مضافاً إلى ذلك أن القاسم لم يكن يتجاوز التسع سنوات، كما أن المرأة التي تنصّ عليها هذه الروايات على أنها زوجة القاسم - وهي سكيّنة - كانت تكبره في السن، فضلاً عن أنها كانت متزوجة يوم الطف؛ وقد كان الإمام الحسين عليه السلام يناديها حينها بقوله: «يا خيرة النسوان»^(١).

وعليه فإن هذه الرواية ضعيفة، لكن يمكن أن يقال: إن الحسين عليه السلام أراد أن يحقق لأم القاسم، أو لأخيه الإمام الحسن عليه السلام - وخصوصاً لأمّه - رغبة كامنة في نفسيهما، وهي رغبة تعتري الأمهات كافة ألا وهي رؤية أولادهن متزوجين، فقد كانت هذه الفكرة تلحّ على أم القاسم لأنه لم يبلغ سن الزواج وسيستشهد، وبالتالي فإنها لن ترى ولدها متزوجاً أبداً،

(١) من ثلاثة أبيات قالها عليه السلام، وهو يودعها وقد عزم على الخروج للقتال، وهي:

سيطول بعدي يا سكيّنة فاعلمي	منك البكاء إذا الحمام دهاني
لا تحرقني قلبي بدمعك حسرة	ما دام مني الروح في جثمانني
وإذا قتلت فأنت أولى بالذي	تأتينه يا خيرة النسوان

مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٧، ينابيع المودة ٣: ٧٩ - ٨٠.

فأحبت أن تقدّم الأمر ولو كان ابنها لم يبلغ الحلم. وهذا ما يذهب إليه أحد المؤرخين، وبالتالي فإنه يصبح منشأ لهذه الرواية، كما أن هذا هو المتصوّر الأسلم في زواج القاسم.

على أية حال سمع القاسم عمّه الحسين منادياً يوم العاشر من المحرم وقد وقف منادياً أمام أشلاء أهل بيته: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟»^(١).

فخرج وكان عمره بين التاسعة والحادية عشرة كما تقول الروايات، فتعلّق بأذيال عمّه عليه السلام، وطلب منه أن يأذن له بالخروج إلى القتال، فأرجعه الإمام عليه السلام إلى الخيمة، وقال له: «بني، ارجع إلى الخيمة؛ لعل أمك تأنس بك». ثم سمع نداء عمّه ثانية، فجاء إليه وقال له: يا عم لا أقدر أن أسمعك تنادي: «أما من مغيث يغيثنا؟ أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله؟»، وأنا قابع في أعماق المخيم، فائذن لي حتى أقاتل بين يديك. فاستدناه الإمام الحسين عليه السلام، وتأمل في وجهه وقال: «يا آل محمد بعداً لقوم يكون جدّكم خصمهم يوم القيامة، يعرضونكم للقتل وأنتم ريحانة رسول الله». وكانت المسألة مسألة دفاع وليست مسألة جهاد؛ وهذا هو الذي جعلها تنسحب حتى على الصبي، ولذا فإنه حينما ألحّ على عمّه في الثالثة قال له: «بني أو عزمت؟». قال: بلى. قال: «بني ادن مني حتى أودّعك». فلمّا دنا منه قبله، ثمّ دخل الخيمة وأخرج له رداء كان لأخيه الإمام الحسن عليه السلام وألبسه إيّاه، وأخرج له سيفاً من الخيمة وأعطاه إيّاه، ثمّ أمسك به من كتفيه وهزّه وقال: «اللهم اشدد وطأتك على هؤلاء القوم؛ فإنهم

(١) كشف الغمّة ٢: ٢٦١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٦١، بحار الأنوار ٤٥: ١٢.

دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقتلوننا». ثم قال له: «ابرز بني». فنزل القاسم عليه السلام إلى الساحة وهو يرتجز ويقول:

إن تنكروني فأنا نجلُ الحسنُ سبطُ النبيِّ المصطفىِّ والمؤتمنُ
هذا حسينٌ كالأسيرِ المرتهنُ بين أناسٍ لا سُقوا صوبَ المزنِ^(١)

وأخذ يقاتل قتال الأبطال إلى أن توسّط ساحة الحرب، يقول حميد بن مسلم: مرّ بي عمر الأسدي، فقال لي: أما ترى ما يفعله هذا الغلام؟ والله لأتكلن به أمّه. فقلت له: ويلك أتمدّ يدك إلى هذا الصبي؟ والله لو ضربني لما مددت إليه يدي. وبينانحن كذلك إذ انقطع شراك نعله فانحنى ليشده، فأقبل إليه الأسدي من خلفه، وإذا بالسيف يهوي على رأسه؛ فسقط على الأرض منادياً: أدركني يا عماء. فأقبل إليه الإمام الحسين عليه السلام وذاد الخيل عنه يميناً وشمالاً، وجلس عند مصرعه وأخذ رأسه ووضعها في حجره، ثم راح يمسح الدم والتراب عن وجهه، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^(٢).

ثم قال عليه السلام: «قتل الله قوماً قتلوك»^(٣). ثم أخذ رأسه وأقبل به إلى المخيم ووضعها بين القتلى، ثم خرج من الخيمة ليفسح المجال لأمه وعمّاته وباقي النساء، فدخلت أمّه رملة وجلست عند رأسه، ثم وضعت رأسه في حجرها:

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٥، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (الخوارزمي) ٢: ٢٩.

(٢) الأحزاب: ٢٣.

(٣) لم نعثر عليه في القاسم، وإنما هو في علي الأكبر. انظر: الإرشاد ٢: ١٠٦، مقاتل الطالبين: ٧٦.

تلك الوجوه المشرقات كأنها الـ
 خضبوا وما شابوا وكان خضابهم
 أقمار تسبح في غدير دماءٍ
 بدم من الأوداج لا الحنأءِ
 ومغسلين ولا مياه لهم سوى
 عذراتٍ تكلى حَرَرةَ الأحشاءِ
 أصواتها بُحَّتْ فهن نوائح
 يندبن قتلاهن بالإيماءِ^(١)



(١) ديوان الشيخ صالح الكواز / العلويات / القصيدة الأولى في رثاء الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه ، ومنها:

رقدوا وما مرّت بهم بسنة الكرى
 متوسّدين من الصعيدِ صخوره
 وغفت جفونهم بلا إغفاءٍ
 متمهّدين خشونةَ الحصاءِ
 مدّثرين بكربلا سلب القنا
 مَرّملين على الرّبي بدماءِ
 أطفالهم بلغوا الحلومَ بقربهم
 شوقاً إلى الهيجاءِ لا الحسناءِ

نظام الأسرة في الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ *
إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَأِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ
ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (١).

مباحث النص الشريف

المبحث الأول: الأسرة في القرآن الكريم

هذه السلسلة من الآيات المباركة تعتبر من معطيات النظام التشريعي لفقهاء الأسرة، أو الفقه الاجتماعي. وقد عالج الإسلام في هذه الآيات الكريمة مسألة تعدد من أخطر المسائل الاجتماعية؛ فنحن نعرف أن المجتمع بناء والبناء يتكوّن من لبنات، والأسرة هي اللبنة الأولى في البناء الاجتماعي. ومن البديهي أن من يرد أن يبني بناءً متيناً فلا بدّ من أن يختار اللبنة السليمة المتماسكة التي تصمد أمام الضغوط والعوامل

(١) المؤمنون: ٥ - ٧.

الأخرى. وكذلك هو حال الأسرة؛ لأن من يرد أن يبني مجتمعاً صالحاً ويؤسس لنظام اجتماعي متين فلا بد له من مراعاة لبناته التي هي الأسر. وعليه فيجب في هذه الأسر أن تكون قوياً متماسكة أمام الظروف الحياتية وغيرها؛ كي يبني هذا المجتمع الصالح، وإلا فإن هذه اللبنة إن كانت خاوية فإن المجتمع نفسه سينهار بها؛ لأنه حينئذٍ سيصبح خاوياً مثلها.

إذن الأسرة معيار المجتمع بصلاحتها يصلح وبفسادها يفسد؛ لأنها العنق الذي يوفر الحنان والعطف لأفرادها، فيخرجون إلى الحياة أصحاء سليمين من العقد النفسية.

طرق إشباع الغريزة

وبالنتيجة فإنها المصنع الذي يورّد للمجتمع عناصره الصالحة، وأفراده الذين يمكن أن يتحملوا عبء مسؤولية حفظ هذا المجتمع. كما أنها المصنع الذي يفرز منظومة القيم والأخلاق التي تغذي المجتمع فيما لو كانت صالحة؛ لأن الأسرة هي التي تباشر ممارسة عملية التربية في المجتمع، وهذه الممارسة تتم من طريقتين:

الأول: الإشباع المباشر

وهو الإشباع الذي يكون بمستوى الحواس الظاهرة كاللمس، أو عند مقابلة شخص لشخص.

الثاني: الإشباع غير المباشر

وهو نوع الإشباع الذي يتم عبر وسائل الاتصال؛ سواء منها الكلاسيك كالرسائل أو الحديثة كاستعمال الهاتف وما مثله؛ لتوعية الفرد؛ لأن

الأسرة ترى أن أي فرد من أفرادها مسؤول منها وإن كان بعيداً عنها. فالإنسان إذا ترعرع داخل أسرته حظي بوسيلة الإشباع المباشر، وهو اللون الذي له التأثير الأكبر على الأفراد في عملية التربية، فيكون تأثير الأسرة به أبلغ وأكد من أي تأثير لمؤثر آخر من المؤثرات الأخرى للمحيط، كالمدرسة والشارع وغيرهما من وجوه المحيط الأخرى. فالمدرسة مع ما لها من تأثير هام، وما تلعبه من دور أهم على الأفراد في تربيتهم وتغذيتهم وتنشئتهم، لكنها لا يمكن أن تبلغ الدور والأثر اللذين تلعبهما الأسرة.

فالمجتمع إذن يقع تحت تأثير كبير للأسرة، وبالتالي فإن تفاعل الأفراد معها يختلف عن تفاعلهم مع غيرها من الوجوه الأخرى للمحيط. ولكل هذا فإن القرآن الكريم يؤكد على بناء الأسرة بناءً سليماً، فعمد إلى وضع قوانين خاصة لحمايتها وحماية أفرادها من كل ما يمكن أن يחדش وجودها أو يغيّر مسيرتها وتركيبتها اللتين أكد عليهما وعني بهما. فالقرآن الكريم يريد من الأسرة أن تكون بناءً نظيفاً يجعل مشاعر أفرادها نظيفة نقيّة طاهرة؛ لأن المشاعر النظيفة تقود إلى خلق إنسان نظيف وتجعل منه عنصراً يتفاعل تفاعلاً سليماً مع مجتمعه وما حوله.

الغريزة والإسلام

وجاء علاج القرآن الكريم بهذا اللون من التأكيد على نظافة وطهارة المجتمع فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾. إننا نعرف أن الإسلام لم يجرد الإنسان من وسائل التعامل من غريزته، بل إنه وضع الغريزة عنده لحفظ بقائه واستمرار نوعه، ثم أمره

بالتعامل معها بلون مخصّص من ألوان التعامل بعد أن شرع له القوانين التي تحكم عمليّة التعامل هذه. فالإنسان تتملّكه غريزة الكرامة؛ لأن الإنسان من غير كرامة كائن لا قيمة له، ولا يستطيع أن يعيش أو يحيا حياة مستقرّة ثابتة؛ ولهذا فإن الإنسان دائماً وأبداً يبحث لنفسه عن كلّ ما من شأنه أن يكرمها.

عوامل هدم الأسرة

إن عمليّة الهدم الأسري هذه تتمثّل بأحد عاملين خطرين، أي أنها تنشأ من منشأين هما:

الأول: تقديم تسهيلات بديلة عن الزواج

وهذه التسهيلات عبارة عن جوانب أخرى من وجوه تفعيل الغريزة عبر استغلال ثورتها، كأماكن الاختلاط والعري المنتشرة في كلّ مكان؛ ممّا يؤدّي إلى سقوط الشباب في هاوية الانحراف والخطيئة والإثم والفساد المروّع، وإلى مأسّ ضخمة لا يمكن التعامل مع نتائجها أو معالجة إفرازاتها ومضاعفاتها.

الثاني: وضع العقبات أمام المتزوّجين

وكما اتّضح فإن هذا الإنسان تتملّكه غريزة الجنس التي تعدّ الغريزة الأولى في الحفاظ على النوع الذي لا يمكن أن يستمرّ لو لا عملية التزاوج الخاضعة لهذه الغريزة. ولذا فإننا نقول: إن الأسرة هي المصنّع الذي يمدّ النوع بالأجيال التي تكفل له الاستمرار والدوام. فإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أن تكون منبعاً صافياً نظيفاً نقيّاً من الأكدار والشوائب الأخلاقيّة، وبخلاف هذا فإن الأجيال ستتعرّض جميعها إلى التسمّم

والضياع.

الإسلام يذلل عقبات الزواج

فالإسلام جاء لتهديب الغريزة كيلا تتسمم الأجيال؛ ولذا فإنه هنا يأمر بحفظ الفروج؛ لأن الجملة الإنشائية جاءت بصيغة الخبر، وهو باب معروف في علم الأصول، فالله تعالى إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، فهو إنما يأمر بحفظ الفروج وصيانتها عن الوقوع في الخطيئة، ويحفظ هذا الجهاز وعدم استعماله إلا في مكانه النظيف. والمسرب الصحيح لهذا الجهاز هو الزواج الشرعي، لكن هل أمر الإسلام بالزواج الشرعي ووقف مكتوف اليدين متخذاً موقف المتفرج ومكتفياً به دون تدخل منه في تذليل العوائق أمام هذه المهمة الشريفة؟ طبعاً لا؛ لأنه وضع الكثير من النظم والقوانين لتسهل عملية الزواج، ولتذليل الصعاب والعقبات التي تقع أمامها، ومن هذه العقبات:

الأولى: عقبة المهور

إن أمر الزواج ليس سهلاً سيّما في أيّامنا هذه؛ حيث إنه قد تحوّل إلى مشكلة تجارية تترصد الوافدين إلى هذا الطريق، وأصبح عقدة قاتلة تمثل أمام أعين الشباب المتطلّعين إليه. فإعداد البيت المطلوب من الزوج، وتأثيثه وتهيئته مستلزماته إجراءات تتطلّب وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً؛ لأنه يمثل بيت المستقبل، فلا مستقبل ما لم يكن هناك بيت يضمّ الزوجين. لكن هذا البيت أصبح عقدة كأداء في طريق الزواج الآن لما توضع له وإزاءه من شروط، حتى تحوّل الأمر إلى مساومة ومبالغة في طلب المهر ولوازم العرس، بل وإلى مفاخرة الناس. فالذي أصبح في

منظور الناس هو كم كان مهر فلانة؟ وما هي مواصفات البيت الذي سيسكنها فيه زوجها؟ دون أن تكون هناك حصّة في هذا المنظور لسعادة الزوجين الحقيقية، أو للهدف الأسمى من هذا الزواج.

وهكذا ينشغل الناس في مثل هذه الأمور التافهة دون الولوج إلى جوهر الزواج، وإلى الهدف الحقيقي الذي يريده الله تعالى من ورائه، وهذه الأمور التافهة من شأنها أن تهدم هذه العملية وأن تقوم بتدميرها وتقويضها.

وهذا الموضوع لا يمكن لأحد أن يوفيه حقّه في مثل هذه العجالة، فهو موضوع ذو مساحة واسعة عريضة، ويحتاج إلى مناقشة أوسع ومعالجة أكبر، لكن ما أودّ أن طرحه هنا هو أنّ الإسلام قد ذلّل أهمّ العقبات المزروعة في طريق الزواج، وهي عقبة المهر، فاعتبر مقداره أمراً لا قيمة له، ولم يعره أي أهمية؛ ولذا فإن ذكر المهر ليس شرطاً في العقد؛ لأنه ليس ركناً من أركانه، غاية ما في الأمر أنه إذا لم يذكر المهر فإن للزوجة مهر المثل، أي مثل مهر بنات طبقتها ومستواها.

ما يصح منه المهر

والمهر يصحّ أن يكون من كلّ ما يصحّ أن يتموّل به، والتموّل هو ما له علاقة بالتموّل، وهو كلّ ما له مالية، ويكفي فيه أن يكون كفاً من بُرّ أو شعير، أو تعليم بضعة آيات من القرآن الكريم، يروى أنه جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فعرضت نفسها عليه، فقال لها: «اجلسي بارك الله فيك، أما نحن فلا حاجة لنا فيك، ولكن تملّكينا أمرك؟». قالت: نعم. فنظر رسول الله ﷺ في وجوه القوم، فدعا رجلاً منهم فقال لها: «إني أريد أن أزوّجك

هذا إن رضيت». فقالت: ما رضيت لي يا رسول الله فقد رضيت.
ثم قال ﷺ للرجل: «هل عندك من شيء؟». قال: لا والله يا رسول الله.
قال ﷺ: «ما تحفظ من القرآن؟». قال: سورة البقرة والتي تليها. قال ﷺ:
«قم فعلمها عشرين آية وهي امرأتك»^(١).

إذن فالمهر يمكن أن يكون من كل ما له ثمن وإن قل.
وليعلم بأن المهر الكبير لا يمكن أن يخلق سعادة أو يطرد تعاسة،
فالبيت الذي يخلو من السعادة لا تعوضه عنها الأموال والرياش ولو
حشي بالذهب؛ لأن السعادة لا تنبع من المال، بل من أصحاب البيت
أنفسهم، فما لم تنبع منهم فلن يحسوا بها أبداً.
فلا البيت ولا المال يمكن أن يخلقا عند الإنسان الاستقرار والهدوء
النفسيين اللذين يمكن أن يوفّرهما عش صغير يعيش أفراداً الوئام
والحب، ولا المهر يمكن أن يخلق مجتمعاً فاضلاً حينما يجعل منه
البعض عقبه في طريق الأزواج بأن يفرض مهوراً عالية؛ مما يؤدي إلى
التمزق، أو إلى حصول تكّثل من العوانس والعازبين؛ ممّا يؤدي إلى
حصول مفاسد لا حدود لها.

الثانية: عقبة الكفاءة

إن مفهوم الكفاءة قد حدّده الإسلام على لسان نبيّه الكريم ﷺ بقوله:
«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة»^(٢). فالمسلم
كفاء المسلم، أمّا الاعتبارات الأخرى فالإسلام يلغيها تماماً.

(١) المجموع شرح المهذب ١٥: ٢٧، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٢٤٢، تلخيص الحبير
١٢: ٣١١، تنوير الحوالك: ٤٢٩ - ٤٢٧ / ١١٠١.

(٢) الكافي ٥: ٢٤٧ / ١ - ٣، الفقيه ٣: ٣٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

وتشريع الكفاءة بهذا المفهوم المحدد لم يضعه الرسول الكريم ﷺ على مستوى نظري فقط، بل إنه شغل حيزاً عملياً واضحاً في مساحة تشريعاته، فخطا خطوات في سبيل تطبيق هذا التشريع وتحقيقه؛ فزوّج بنت سيّد البطحاء (ابنة عمّته) من زيد، وهو مملوك، ف«المسلم كفء المسلم»، ولذا فإنه ﷺ تزوّج صفيّة بنت حبي بن أخطب، وهي ابنة يهودي، وتزوّج ماريّة القبطيّة. وبهذا عالج هذه المشكلة ومحا هذه الروح الجاهلية من أذهان الناس.

وهكذا نجد أن الإسلام حاول إزالة جميع العقبات التي واجهت الزواج، وأكّد على بناء البيت الأسروي القائم على الحبّ والحنان والعاطفة والوئام، والذي يحقّق الروح الإسلاميّة لحياة الزوجين.

الثالثة: عقبة الفقر

ومن العقبات التي تقف في وجه الزواج الفقير، وقد عالجه الإسلام بأن شرع وجوب إعطاء كلّ من لم يتمكّن من دفع المهر ما يكفيه من بيت المال؛ دفعاً للمفسدة المحتملة، ومساهمة في حل هذه المشكلة؛ لأن بيت المال إنما أنشئ لحلّ هذه المشاكل ومعالجتها. وهذا الحلّ يعني توفير القنوات النظيفة والمجرى الطاهر لاحتضان هذه العملية السامية التي يهدف من ورائها إلى بناء المجتمع المسلم كذلك.

ونحن لا نستطيع أن نخلق القنوات النظيفة بالوعظ والتنظير، بل لابدّ من تطبيق ذلك فعلاً، وإلا فإذا كان الواقع العملي مرّاً أسود، وبعيداً عن روح التنظير الإسلامي فإن هذا المشروع الإلهي سيفشل حتماً، وحينها لن تجدي الموعظة ولا الإرشاد نفعاً أو ثمرة؛ لأن القول ما لم يدعّم

بالعمل فإنه سيبتخر بعد فترة وجيزة من الوعظ به .

وعليه فإن المفروض بأولياء الفتيان والفتيات أن يضعوا أيسر الوسائل العملية التي تسهل أمر الزواج، فهو المشروع السماوي الذي يزرع البذرة الطاهرة ويحقق القناة الطاهرة والنواة الطاهرة؛ كي يكون بناء المجتمع بناء طاهراً. إن الوعظ والإرشاد هما آخر حلقتين في سلسلة الحلول التي يضعها الإسلام لمشاكلنا؛ لأنه يخلق الأطر العامة لحل كل مشكلة، وهي بدورها تخلق الجوّ النظيف والعلاقات النظيفة التي لا تتحكم فيها الغريزة. وإنما قلنا: إن الغريزة لا تتحكم بها؛ لأن الإسلام يسعى إلى تحديدها عبر إشباعها بالطرق المشروعة، فما لم يكن هناك طريق مشروع لإشباعها، ثم تأججت عند الإنسان ولم يتمكن من أن يتحكم فيها فإنها ستدفعه إلى فعل الحرام .

وبهذا فالإسلام بهذه الأطر يحلّ مشكلة الغرائز، وبالتالي مشكلة الوقوع في الحرام. ولتقريب المعنى نضرب مثلاً بالرجل المعدم الجائع الذي يرى أكداًس الأطعمة قربه، ثم يأتي من يحذّره من أن يمدّ يده إليها؛ فإن غريزته حينئذٍ تحثّه على الوثوب إليها وتدفعه إلى تناولها. فنداء الغريزة سيظلّ يلحّ عليه، وما السرقات التي نراها اليوم هنا في بريطانيا إلا مثال واضح على نداء الغريزة حيث إن معظم هذه السرقات يقوم بها الجياع والفقراء. ومثل هذا فإن الحلّ الجذري لمشكلته هو توفير جوّ عمل له، وليس توفير الموعظة أو النصح والإرشاد إلى ترك السرقة وبيان حرمتها.

ولذا فإن أوّل ضمان يقدمه الله تعالى لأصحاب الجنة هو إشباع

حاجاتهم الأساسية^(١). وبالمستوى نفسه خلق الجوّ العملي الميسّر للزواج، ثم بعد ذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾. فتهيئة الجوّ العملي المناسب للزواج المشروع هو من أول أولويات الإسلام، ثم بعد ذلك يجيء دور الأمر بحفظ النفس وصيانتها عن الوقوع في الخطأ.

لماذا القسوة في عقوبة الزنا؟

وربما يعترض معترض فيقول: لماذا كلّ هذه القسوة في القانون الإسلامي تجاه مرتكب مخالفة الزنا، فيجلد أو يرحم حسب وضعه وحالته الاجتماعية؟

إن الجواب على مثل هذه التساؤل هو أنه لما كان الإسلام قد وفرّ المتنفس الشرعي لإشباع هذه الغريزة، ثم هيأ لها أسبابها وذلل العقبات التي توضع أمامها، فإنه حتماً سيعاقب من يخالف هذا القانون؛ لأنه حينئذٍ لا ضرورة للمخالفة والجنوح إلى الخطيئة مع ما تنطوي عليه من مضاعفات اجتماعية خطيرة وربما قاتلة؛ من اعتداء على أعراض الناس وحقوقهم الشخصية وانتهاك حرمان النواميس البشرية. فهذا الاعتداء على الآخرين يحوّل صاحبه إلى أداة مفسدة في المجتمع يجب علاجها أو قطعها.

وعليه فإن هذه العقوبة ليس فيها أي قسوة مطلقاً، بل إنها وسيلة للحفاظ على المجتمع من الانهيار والضياع والتشردم.

فتعريض مجتمع كامل للفساد وجعله عرضة للهويّ في منحدر الرذيلة من أجل الحفاظ على حياة فرد واحد مفسد لهو أمر يرفضه العقل

(١) قد مرّ هذا المبحث مفصلاً في محاضرة (معالم التربية الإسلامية) في ج ٧ من كتابنا هذا.

والعقلاء، ولا يقرّه من له أدنى معرفة. فالإسلام يضحّي بالفرد المفسد من أجل الحفاظ على وحدة المجتمع وكيانه ووجوده.

إن من يحاول أن يطبق أحكام الإسلام في المجتمع دون أن يهيئ السبل التي أمر الله تعالى بالعمل بها في سبيل تيسير الزواج لهو بعيد جداً عن روح الإسلام. فعلى الإنسان أن يطبق كلّ ما أمر الله تعالى به؛ سواء كان في مضممار الأحكام والقوانين الرادعة، أو في مضممار تهيئة سبل الزواج وغيره من إشباع حاجات الأفراد الأساسية وتيسيرها، وإلا فإنّ من يسع إلى تطبيقها بهذا الشكل وبهذه الصورة القائمة يكن حاله كحال من يستيقظ في رمضان وقت السحر وهو لا يصوم بدعوى أنه ليس بكافر؛ فإذا كان لا يمتثل أمر الصوم فإنه يمتثل الأمر بالسحور؛ لأنه ليس كافراً؛ ولذا فهو يريد أن يمتثل هذا الأمر الوارد عن رسول الإسلام ﷺ بخصوص عدم ترك السحور.

وبالفعل فإن هناك من يطبق الإسلام بهذه الصورة العوراء، مع أنّ الإسلام يأمر بتهيئة الأطر والحلول أولاً ثم العرض على السوط أو السيف ثانياً.

فإنّ الله سبحانه وتعالى إنما ينزل هذا العقاب الرادع لحماية المجتمع وحفظه. وعليه فالواجب سدّ كفايته ومراعاة احتياجاته قبل تعريضه للعقوبة. فإذا فعل كلّ ذلك له فحينها يمكن عدّ المخالف مجرمًا أو عنصراً خطراً على المجتمع يجب أن يقام عليه الحدّ أو يجتث.

المبحث الثاني: قضية الرق في الإسلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، ومسألة الإماء وملك اليمين وجدها المستشرقون وأعداء الإسلام لقمة سائغة فراحوا يستغلونها ضدّ الإسلام أسوأ استغلال، فاتهموه بأنّه

يذهب بعيداً في تربية هذا السعار الجنسي في نفوس أتباعه ؛ لأن ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ يعني مطلق الرقم الذي يستطيع الإنسان شراءه منهم ، مهما كان ، ومن ثم مقاربتهم . فلماذا كل هذا الإغراق والإفراط في استعمال الغريزة الجنسيّة ؟ ولماذا هذا الإطلاق المفرط لها من عقالها بتغذيتها بهذا السعار ؟ إن من يتفوّه بمثل هذا الكلام إمّا أن يكون مغرضاً كما هو الحال عند هؤلاء ، وإمّا أن يكون جاهلاً بحقيقة حال الحكم في الإسلام .

الرقيق وإدارة مواقع الاقتصاد

إن الإسلام أراد أن يعالج مشكلة اجتماعيّة كانت قائمة آنذاك ، وهي مشكلة وجود العبيد ، وهؤلاء لم يكن وجودهم لترفٍ أو نحوه ، بل إنهم كانوا يشكلون إحدى ركائز الاقتصاد في المجتمعات كافة آنذاك ، فنظام الإجارة لم يكن معروفاً آنذاك بعد ، وملامح النظام الاقتصادي المبني عليها لم تكن متميّزة واضحة . فجميع مواطن العمل لم تكن تدار بنظام الإجارة أو العمالة المعروف حالياً ، وإنما كانت تدار بنظام الرقّ ؛ فكلّ الخدمات الاجتماعية والاقتصاديّة كان الرقيق يديرونها .

فالإسلام حينما جاء وجد هذا النظام (نظام الرقّ) سائداً ، فهو لم يوجده ولم يخلقه ، بل إنه عالجه وقتنه . ولم يكن هذا حال العرب فقط ، بل إنه حال جميع الأمم التي كانت سائدة آنذاك كالفرس والروم وغيرهم . فهذه المسألة حينما جاء الإسلام وجدها مغروسة في المجتمع راسخة جذورها في أرضه .

لماذا لم يحرم الإسلام الرقّ؟

وربما يسأل سائل فيقول : لماذا لم يحرم الإسلام الرقّ؟

ويمكن الإجابة على هذا السؤال بأن الإسلام لا يخطو خطوة دون دراسة أو حساب لنتائجها، فالتشريعات الإلهية لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون آتية نتيجة تسرع فيها، أو أن تكون غير مدروسة. وهذا التسرع في الأحكام يمكن أن يمثل له بمن يأمر بإيقاف جميع المصانع والمعامل التي في البلد دون سبب وجيه أو علة مقبولة. إن معنى هذا توقّف الحياة كاملة عن الحركة. وعليه فإنّ تحريم الرقّ بشكل مفاجئ معناه تعطيل المرافق الحيويّة والحياتيّة كافة.

ومعلوم أن تعطيل هذه المرافق معناه تعطيل الحياة نفسها، فالعبيد كانوا بمثابة المحرّكات التي تدير الآلات؛ ولذا فإنّ الإسلام عمد إلى علاج مسألة الرقّ علاجاً تدريجياً بشكل لن يتوقّف معه النشاط الحيوي أو الاقتصادي للناس، ولا يخلق أي مشكلة في المجتمع، ولا سوء علاقة بين العبيد وأسيادهم.

فالإسلام عالج الرقّ علاجاً على مراحل عدّة وبأنماط مثلها، ومن جملة هذه الأنماط ملك اليمين، حيث إنّ الجارية أو المملوكة بمجرد أن تحمل من سيدها فإن ملكيتها تصبح منزللة فلا تباع ولا تشتري، وبمجرد أن تلد تحسب من حصّة ولدها، ثم تنعتق منها بعد موت سيدها.

مناشئ الرقّ المشروعة

هناك أكثر من منشأ ومصدر للرق، لكن الإسلام لا يعتبر منها منشأ شرعياً سوى اثنين هما:

الأول: سبي الحرب المشروعة

فكلّ حرب تقع بين المسلمين من جهة بأمر الرسول ﷺ أو الإمام عليّ عليه السلام وبين الكافرين من جهة أخرى، ثم يغلب فيها المسلمون ويأسرون فيها من أهل تلك البلاد، كان هذا الأسير رقيقاً لهم.

الثاني: أولاد الجوارى

وكذلك كلّ جارية تلد بزواج من رقيق مثلها يعدّ أبنائها رقيقاً مثلها، فهم يتبعونها في حكم الرقّ.

فالمرأة حبّيب للرجال أمرها، ولذا فإن الإسلام استغلّ هذه الغريزة كوسيلة لعلاج قضية الرقّ، فأمر بنكاح الإماء لتحقيق هذا الهدف. وهو لون من ألوان استغلال الغريزة من أجل تحقيق أهداف مشروعة. ومعنى هذا أن الإسلام أوّل من حاول القضاء على الرقّ عبر هذه الغريزة الملحّة وهذبها. فالمرأة مصدر من مصادر الرقّ كما ذكرنا، وتحرير الرقّ تخليص للإنسان من ذلّ العبوديّة التي هي خلاف الفطرة؛ فالله تعالى خلق الناس أحراراً ولم يخلقهم عبيداً ولم يصرّح باستعبادهم.

ومسألة الرقّ بحثها العلماء والفقهاء والمفسّرون المسلمون بإفاضة، ولو أن أحداً قرأ الشروط التي يضعها المشرّع على من يملك رقيقاً لوجد خلالها أن هذا العبد سيّداً من سادات البيت، وليس مملوكاً رقيقاً؛ ففي هذه الشروط والإلزامات أن الغلام يأكل ويشرب مع سيّده^(١) ويلبسه مما

(١) فالإمام الرضا عليه السلام كان يحمل قربة الماء ويسقي غلمانه، وقد قال له أحدهم مرّة: ما تصنع يا ابن رسول الله؟ مرنا ونحن بخدمتك. فقال: «الأب واحد وهو آدم، والأم واحدة وهي حواء، ويجمعنا دين الإسلام». الكافي ٨: ٢٣٠ / ٢٩٦.

يلبس^(١)، ويجب أن يعامله كما يعامل نظيره لا أن يعامله على أنه خادم له، فلا يناديه بـ«يا غلام» أو «أيها العبد»، بل يجب أن يناديه بـ«يا فتى» و«يا فتاة»^(٢).

وسائل الإسلام للقضاء على الرقّ

وكذلك حارب حالة العنف التي يمارسها بعض الأسياد ضدّ ممالئهم، وجعل إزاءها أحكاماً مختصّة، فمثلاً جعل على من يضرب عبده فتحدث عنده عاهة بذلك أن يعتقه.

وبهذا نجد أن الإسلام فتح أبواباً كثيرة لتحقيق جانب العتق وإثباته وترسيخه في المجتمع، فيتقرّب إلى الله تعالى بهذا. فهذا الجانب الأخلاقي ويضاف إليه أمر الإسلام بالمعاملة الحسنة والرفيقة، بل بمعاملتهم معاملة الأخ لأخيه دليل واضح على رغبة الإسلام الأكيدة في تخليص الرقّ من عبوديتهم.

إثارتان حول الآية الكريمة

وهنا نقطتان أودّ أن أذكرهما وأعالجهما حول هذا المقطع الشريف، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، وهما:

الأولى: حصر وسائل الاتصال الجنسي بالزوجة وملك اليمين

فربما يقول قائل: إن الآية الكريمة حصرت سبيل الاتصال الجنسي

(١) بل أفضل ممّا يلبس، كما كان يفعل أمير المؤمنين عليه السلام مع غلامه قنبر، انظر روضة الواعظين: ١٠٧.

(٢) يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، ولكن ليقول: فتاي وفتاتي». مسند أحمد ٢: ٣١٦.

بطريقتين اثنتين هما: الزواج الدائم وملك اليمين، فمن أين جاءت الطرق الأخرى التي يقول بها البعض كالمتعة عند الشيعة مثلاً؟ وللإجابة على هذا الاعتراض أودّ أن أمهد له فأقول: إن هذا الموضوع واسع جداً وبعيد الغور لا تتسع له هذه العجالة، وقد كتب حوله الكثيرون. ثم إن هذا المكان ليس مجال بحثه، بل إنه يجب أن يبحث بين العلماء؛ لأنهم أهل الدليل، والأقرب في الوصول إليه، وأهل الفهم فيه. ذلك أنه موضوع معقّد؛ ولذا فإنني سلبين هنا رؤوس مطالب حوله.

مشروعية المتعة

إن هذه المسألة ليست مسألة مزاج يذهب بصاحبه في اتجاه معيّن دون إعارة الدليل أية أهميّة، فنحن نتفق مع المسلمين جميعاً^(١) - أي أن الأمر إجماعي - حول مشروعية هذا النكاح في الإسلام، فالكلّ يتفق ويعترف بأن الله تعالى قد شرعه وأجازه بقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢)، وشرعه رسول الله ﷺ حيث إنه ﷺ أمر مناديه فننادى بالإذن للناس فيها، وظلّوا يعملون بها في زمن النبي الأكرم ﷺ، والخليفة الأوّل، وفي شطرمن زمن الخليفة الثاني الذي حرّمها بعد ذلك بقوله: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما^(٣). فهو ينسب التحريم إلى نفسه.

(١) التفسير الكبير ١٠ : ٤٩، قال: «واتفقوا على أنها كانت مباحة».

(٢) النساء: ٢٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢ : ١٣٣ / ٥، المبسوط ٤ : ٢٧، المغني ٧ : ٥٧٢.

فمسألة مشروعية هذا النكاح مما لا شك فيه، وهو موضع اتفاق بين المسلمين، لكننا نسمع بعد ذلك من يقول: إن هذا الحكم قد نُسخ^(١)، مع أن موضوع النسخ هذا فيه كلام ونقاش^(٢). وقال آخرون: إن الخليفة الثاني إنما حرّمها لمصلحة؛ أو أنها قد أُسيء استعمالها، وبعضهم يقول: إنها رخصة في السفر والشدة فقط، كما لو أن هناك جيشاً يريد أن يخرج للقتال؛ فعوض أن يقع المحارب في الحرام شرع الله تعالى له هذا الحكم ليقية من المعصية والوقوع في الخطيئة.

وكل هذه التعليقات والتأويلات يناقشها العلماء، ولا أودّ أن أدخل فيها، مع أن كل هذه التعليقات التي قدّمت لتبرير التحريم واهية غير ناهضة؛ أما نسبة التحريم إلى النبي ﷺ فأوهى من بيت العنكبوت،

سأل يحيى بن أكرم رجلاً بصرياً فقال له: بمن اقتديت في تحليل المتعة؟ قال: بعمر بن الخطاب. قال: كيف ذلك؟ قال: حيث قال: متعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ، وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما. فقبلنا شهادته ولم نقبل تحريمه.

الصراف المستقيم ٣: ٢٧٦ - ٢٧٧، محاضرات الأدباء ٣: ٢١٤.

(١) تحفة الفقهاء ٢: ١١٩، بدائع الصنائع ٢: ٢٧٣، البحر الرائق ٢: ٥٨٦، ٣: ١٩٠، نيل الأوطار ٦: ٢٧١.

(٢) روى الطبري عن شعبة عن الحكم قال: سألت عن هذه الآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُجِّلْ لَكُمْ مَا وَّرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ أمنسوخة هي؟ قال: لا. ثم قال الحكم: قال علي ﷺ: «لولا أن عمر ﷺ نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي».

جامع البيان ٥: ١٩، تفسير الثعلبي ٣: ٢٨٦.

وعن أبي نضرة قال: سألت ابن عباس ﷺ عن المتعة فقال: أما تقرأ سورة النساء؟ قلت: بلى. قال: فما تقرأ؟ (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى؟). قلت: لا أقرأها هكذا. قال ابن عباس: والله لهكذا أنزلها الله، ثلاث مرات. وكذلك قرأها طلحة بن مصرف وسعيد بن جبيرة. المصدر نفسه.

فهو ﷺ لم يحرمها مطلقاً. وأهل البيت عليه السلام كانوا على هذا. إن عقد المتعة عقد كامل، وعلاقته علاقة شرعية صحيحة، وهو زواج صحيح باستثناء بعض الفوارق الأدبية كاستثناء الطلاق؛ لأنها تنفصل عنه بمجرد انتهاء المدّة المقررة في العقد، وانتفاء الإرث إلا أن تشترط عليه في صلب العقد، وكذلك مسألة النفقة. وفيما عدا هذا فإنها تشارك الزوجة في مثل حقوقها.

ردّ دعوى بطلان المتعة

يمكن ردّ دعوى بطلان المتعة بأمر منها:

الأولى: بطلان الإجماع

ودعوى الإجماع على تحريم المتعة دعوى باطلة؛ لأن هناك ثلّة من الصحابة كانوا عليها مثل أبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمرو وآخرين.

الثاني: أن من الزوجة الدائمة من لا ترث ولا نفقة لها

ثم إن الزوجة الدائمة نفسها لا تعدّ في حالات معينة زوجة، كما لو كانت في حالة نشوز، فالناشز كالمتمتع بها لا نفقة لها، وكما لو أن امرأة قتلت زوجها فإنها في مثل هذا الحال لا تخرج عن نطاق الزوجية، لكنها مع ذلك لا ترث، فهي تشارك المتمتع بها في هذه الحالة؛ إذ تتخلف عن الحصول على بعض المزايا المترتبة على الزوجية مع أن هذه المتخلفة عن هذه المزايا زوجة، وداخلة في عموم الآية الكريمة.

الثالث: أنه رخصة

والمسألة هنا هي رخصة من الله تعالى لعباده^(١)، وليست عزيمة، أي

(١) مغني المحتاج ٢: ١٤٢.

أنها ليست حكماً تكليفيّاً وجوبيّاً، فإذا أراد أحد أن يتوقّف عنها فلا شيء عليه، لكن هذا لا ينفي مشروعيتها، وأدلتها من الكتاب السنة مستوفاة بصورة كاملة .

ولو رجعنا إلى المذاهب الإسلاميّة لوجدنا أنها تطرح آراء غريبة في بابها، لكننا لا نريد أن نمسّ أبناء هذه المذاهب. كما أننا لا ندعي عليهم زوراً أو تهريجاً، بل سأنقل لك آراءهم من كتبهم، فمثلاً الإمام أبو حنيفة يرى أنه لو أن شخصاً عقد على امرأة في مجلس وطلّقها في المجلس نفسه قبل غيبته عنهم، ثم ولدت هذه المرأة بعد ستة أشهر، فإن الولد ابن له شرعاً^(١). فهل عمدنا نحن إلى التهريج عليه في كتبنا أو في خطبنا؟ وهل قلنا: إن هذا زنا؟

كما أن بعض المذاهب الإسلاميّة ترى أن الرجل إذا وطئ امرأته ثم توفّي عنها، فإنها حتى إذا ولدت بعد أربع سنوات فإن هذا يعدّ ولداً شرعياً للمتوفّي^(٢)؛ فيرثه .

فهل سُمع أحد منا يشتم أو يستخدم ألفاظاً نابية ضدّ من يدّعي أن الحمل يمكن أن يبقى في بطن أمّه أربع سنوات، وقلنا: إن هذا يصطدم بالعلم؟ إننا نعدّ صاحب هذا الرأي عالماً مسلماً، وأقصى ما يمكن توجيهه إليه أننا ننقل رأيه ونخطئه على ضوء الدليل والمنهج العلمي الثابت، أما السبّ والشتم فلا؛ لأنه ليس من شيم العالم الورع. ومن ذلك أيضاً أن الإمام الشافعي^(٣) والمالكي^(٤) يريان أن الرجل

(١) المجموع شرح المهذب ١٧: ٤٠٤، المغني ٩: ٥٤ .

(٢) المغني ٩: ١١٧ .

(٣) انظر: المجموع شرح المهذب ١٦: ٢٢٢، ٢١٩، المبسوط (السرخسي) ٤: ٢٠٦، المغني (ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣، مواهب الجليل ٥: ١٠٩، الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٦٠ .

(٤) المغني (ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣ .

يجوز له التزوّج من المتولّدة من الزنا إذا كانت من صلبه؛ لأنها لا تعدّ بنتاً شرعيّة، ومن لم تكن ابنة شرعية فحكمها حكم الأجنبية في جواز الزواج منها.

وهي مسألة يخالفه فيها أبناء المذاهب الإسلاميّة الأخرى؛ لأنهم يعتبرونها ابنة وإن كانت بنت زنا. ومع هذا فإننا لم نقدح بشخصيّة هذا الرجل العلميّة: ولم نقل: إن الإمام الشافعي يفتي بصحّة الزواج من البنت (معاذ الله)؛ لأن هذا ليس من شأننا ولا من أخلاقنا، بل إن غاية ما يمكن أن نقوله هنا هو أن هناك خطأ في التطبيق أدّى إلى حصول مثل هذا. أي أننا نناقش دليله نقاشاً موضوعياً لا مسحة فيه للتهريج على الآخرين.

الأحناف يفتون بالمتعة

إن عند الأحناف رأياً مفاده أن من يعقد على امرأة وهو ناوٍ تطليقها بعد مدّة من الزمن لكنه لم يصرّح به بلسانه، وكانت الزوجة تعلم بهذا والولي يعلمه والعاقد كذلك، فإن الزواج يعتبر شرعياً وصحيحاً^(١). وهنانود أن نسأل: ما هي المتعة؟ وهل هذا النكاح إلا صورة أخرى لهل؟ وليس

(١) قال الحصكفي: «وبطل نكاح متعة وموقت وإن جهلت المدّة أو طالت في الأصحّ، وليس منه ما لو نكحها على أن يطلقها بعد شهر، أو نوى مكثه معها مدّة معيّنة».

الدر المختار ٣: ٥٦ - ٥٧.

بل حتى أبناء المذهب الحنبلي، قال عبد الله بن قدامة: «وإن تزوّجها بغير شرط إلا أن في نيّته طلاقها بعد شهر، أو إذا انقضت حاجته في هذا البلد - الذي سافر إليه - فالنكاح صحيح في قول عامّة أهل العلم إلا الأوزاعي قال: هو نكاح متعة. والصحيح أنه لا بأس به، ولا تضرّ نيّته، وليس على الرجل أن ينوي حبس امرأته، وحسبه إن وافقته وإلا طلقها».

المغني ٧: ٥٧٣، وبمعناه في الاستذكار ٥: ٥٠٨.

من فرق بينهما سوى أن الزوج هنا لا يظهر المدّة على لسانه ولا يشترطها، وفي المتعة يشترطها، ويظهرها عليه ويصرّح بها. ومع ذلك فإننا لم نتعرّض بألسنتنا وأقلامنا لهم، بل إننا نتعامل بالخلق العلمي. إن هذا الأمر (التعرّض للمذاهب الأخرى) ليس نزاعاً فقهياً فقط، ولم يعد كذلك، بل إنه أصبح يمسّ وحدة المسلمين ووجودهم وتآصرهم، ولذا فإن الخوض فيه يعدّ هدماً لوحدة المسلمين. فالذي ينبغي بمن يملك أدنى حسّ إسلامي وشعور بالمسؤوليّة ألاّ يثير مثل هذه التشنّجات في وقت المسلمين أحوج إلى الوحدة من غيره. فإذا أراد عالم ما أن يناقش دليلاً ليثبتته أو ليفنّده، فيجب أن يكون في هذا الأمر خدمة للمسلمين لا هدم لهم أو تمزيق لصقّهم، وجعلهم يضرب بعضهم بعضاً. إن هذا التصرف خلق مشين لا ينبغي أن يكون عليه المسلم.. المسلم الذي يأخذ دليل الآخرين ويخضعه للنقاش الموضوعي ليخدم به الدين، وليقدّم به غذاء للأجيال التي ستخلفه، وزاداً له بين يدي الله جلّ وعلا؛ لأنه يعلم أن الله تعالى سيسأله غدّاً عن كلّ كلمة ينطق بها ويقولها، ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١).

التلقيح الصناعي

وهنا تطفو على السطح أمام العلماء في هذا المجال مشكلة هي تدخّل الطبّ لإجراء عملية تلقيح صناعي داخل المختبر، وهو إجراء تعالج به بعض السيّدات ممّن يتّصفن بأن عندهن تشوّهات خلقية تمنع من حدوث

(١) ق: ١٨.

الحمل، وربما تكون العاهة عند الرجل نفسه، فيعجز عن إجراء الاتصال الجنسي. وبهذه الطريقة يعاد للمرأة شعورها بالأمومة. وهذا التلقيح يتصوّر على نحوين:

الأول: أنه تلقيح لبويضة المرأة بماء رجل أجنبي.

الثاني: أنه تلقيح لها بماء زوجها الشرعي نفسه.

أي أن الطبّ يقوم بدور الرجل، فبدلاً من أن يوصل الزوج النطفة بنفسه عبر الفراش إلى الزوجة، يقوم الطبّ عنه بذلك، فيأخذ منه حيمناً ليلقح به بويضة زوجته. وهذا يعني أنه تلقيح من الرجل نفسه لكن بصورة غير مباشرة، حيث إن هذه البويضة الملقحة تزقّ بعد ذلك (إكمال عمليّة التخصيب) في رحم المرأة؛ لتنمو بشكل طبيعي.

إن موقف الفقه الحديث من هذه المسألة واضح وجليّ، وهو أن هذه العمليّة لا إشكال فيها مادامت النطفة والبويضة لزوجين شرعيّين، وبه فإن الولد الذي سيتولّد من عملية التلقيح هذه ولد شرعي لا شائبة في صحّة نسبته لصاحب النطفة؛ لأنه زوج شرعي أمام الدين والقانون والعرف. أمّا إذا كان صاحب النطفة أجنبياً عن المرأة فإن هذا قطعاً يعدّ زناً واضحاً، وهو حرام بالنتيجة، ولا يلحق الولد بصاحب النطفة.

وكدليل على هذا أن الإمام الحسن بن علي عليه السلام كان في مجلس أمير المؤمنين عليه السلام إذ أقبل قوم فقالوا: يا أبا محمّد، أردنا أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «وما حاجتكم؟». قالوا: أردنا أن نسأله عن مسألة. قال: «وما هي؟ أخبرونا بها». فقالوا: امرأة جامعها زوجها، فلما قام عنها، قامت بحموتها فوقعت على جارية بكر فساحتها، فألقت النطفة فيها فحملت، فما تقول في هذا؟ فقال عليه السلام: «معضلة وأبو الحسن لها، وأقول فإن أصبت فمن الله ثم من أمير

المؤمنين ﷺ، وإن أخطأت فمن نفسي، فأرجو ألا أخطئ إن شاء الله؛ يعمد إلى المرأة فيؤخذ منها مهر الجارية البكر في أول وهلة؛ لأن الولد لا يخرج منها حتى تشق فتذهب عذرتها، ثم ترحم المرأة؛ لأنها محصنة، ثم ينتظر بالجارية حتى تضع ما في بطنها، ويرد الولد إلى أبيه صاحب النطفة، ثم تجلد الجارية الحدَّ». فانصرف القوم من عند الحسن ﷺ، فلقوا أمير المؤمنين ﷺ فقال لهم: «ما قلت لأبي محمد؟ وما قال لكم؟». فأخبروه، فقال: «لو أنني المسؤول، ما كان عندي فيها أكثر مما قال ابني»^(١).

وفي هذه الرواية أربعة أحكام^(٢) هي محل نقاش بين علماء المسلمين وفقهائهم، ولذا فإن بعضهم يأخذ بها جملةً، وبعضهم يناقشها ويعد بعضها غير ناهض فلا يأخذ به.

وهنا في مسألة التلقيح الصناعي فإن الولد حينما يتكوّن من نطفة الأجنبي فإن عليه دفع دية للمرأة إن كانت عذراء؛ لأنها حينما تلد فسوف تفقد عذريتها. والدية عبارة عن مهر المثل. ويبقى الأمر خارج النطاق الشرعي، فلا يلحق الولد به.

وعليه فإن مجمل العملية هذه (التلقيح الصناعي) محرّمة؛ لأن الرجل ليس بزواج.

وهذه المسألة داخلة تحت قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾.

(١) الكافي ٧: ٢٠٢ - ٢٠٣ / ١.

(٢) هي: أخذ مهر الجارية البكر من الزوجة، ورجم المرأة، وإلحاق الولد بأبيه صاحب النطفة، وجلد الجارية الحدَّ.

المبحث الثالث: الهدف الأخلاقي في الآية الكريمة

إنَّ المشرعَ الإسلاميَّ يهدف من جملة ما يهدف إليه في هذه الآية الكريمة إلى خلق المناعة الأخلاقية في جوِّ الأسرة والمجتمع؛ لأنه يريد لهذا الجوِّ أن يكون نظيفاً طاهراً. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الإنسان إنما تُخلق عنده المناعة بعد أن تيسر له سبيل الزواج، فهذا هو الأمر الأساس في توفير المناعة الأخلاقية في المجتمع، وليس الخطب والواعظ والإرشادات التي يجب أن تأتي بعد ذلك؛ كي يمكن لها أن تحدث تأثيرها.

أي أنها لا يكون لها ذلك التأثير الواضح والملموس ما لم تمهّد لها الطريق بشكل عملي، وهذا التمهيد العملي هو عبارة عن إجراء عملي أيضاً تقوم به المؤسسات الاجتماعية المختصة؛ سواء كانت تابعة للدولة أو لم تكن كذلك، فتدللّ عقبات الزواج وتيسر أمره لطالبيه. فهذه الطرق العملية هي التي تركّز جانب العفة في المجتمع، وفي أخلاقيات الأفراد، وترسخها عندهم.

كما أن تيسير الزواج ليس فقط بإزالة بعض عقباته كارتفاع المهور، وتحديد مفهوم الكفاءة إسلامياً وليس على أساس عرفي أو طبقي، بل إنه يتمّ عن طرق سدّ الذرائع الموصلة إلى التحلّل الخلقي عند الشباب، وغلق بابها في وجوههم. ونقصد بهذه الذرائع ما أشرنا إليه في أول المحاضرة، وهو الوجه البديل للزواج بما ينتشر من دور للدعارة والتفسخ، أو عدم التزام المرأة بالحجاب الإسلامي، فتسير في مكان وظيفتها أو في الشارع وهي نصف عارية أمام أنظار طامحة لا تستطيع إلى الزواج سبيلاً، ثم يأتي دور التلفزة ووسائل الإعلام المكتوبة الأخرى

يجد فيها الإنسان كل ما يمكن أن يثير له غريزته .
إن هذا الشاب بطبيعة الحال حينما لا يمتلك القدرة على الزواج ، ثم يرى كل هذه المغريات أمامه فإنه حتماً سيندفع نحو الرذيلة ، وسيسعى إلى الوقوع فيها لإشباع هذه الغريزة الجامحة .

وأنا أقولها بملء فمي : إن الشاب المسلم الذي يصبر عن الوقوع في الرذيلة ، ويعف نفسه وجوارحه ، فإن له أجر الشهيد ؛ لأنه حينئذ يكون قد تخلق بأخلاق القرآن الكريم وتأدب بأدابه . هذا مع وجوب الاعتراف بأن المسألة ليست سهلة أبداً ، ووضع حل لها وعلاج كذلك ليس بالأمر السهل إطلاقاً ؛ لأنها مسألة مستحكمة و متمكنة ؛ ولذا فإن العلاج يجب أن يكون جذرياً . فالإكثار من المواعظ والخطب مع وجود المحفّزات الكثيرة سوف لن يكون له أدنى تأثير أبداً ، يقول أبو الطيّب المتنبي :

هيهات لا تتكلفن لي الهوى فضح التطبّع شيمة المطبوع^(١)

فهذه الغريزة أمر مطبوع عليه كل إنسان ، أمّا التعليم والإرشاد فهو تطبّع ، أو تكيف مع الظرف بالتطبّع ، وهناك فرق كبير وبون شاسع بين الغريزة والتكيف بالتطبّع .

لكن هنا نقطة لا ينبغي إغفالها ، وهي أن الإنسان إذا وقف نفسه على أجواء القرآن الكريم والخلق القويم ، فإنه يستطيع أن يعصم نفسه ولو إلى حدّ ما عن الوقوع في شرك الخطيئة والرذيلة . لكن أين يمكن أن نحصل على من يأتي ويجلس ليستمع في مجالس الذكر ؟ إن من حسن حظنا أن تكون هناك ثلّة تقصد هذه المجالس لتستمع إلى الذكر والتذكير بالله

(١) الوافي بالوفيات ٧ : ٢٧٨ .

والآخرة؛ لأن الوسائل المضادة أقوى منّا؛ ولذا فإنها تجذب الشباب إليها بقوة.

إن علينا أن نحتفي بهذا الذي يبحث عن الكلمة الواعية الهادفة التي تربيّه وتهذبّه، ويجب أن نكرمه؛ لأن هناك في الطرف المقابل وسائل تتعامل مع الغريزة عند الإنسان؛ فتجرّه إليها عن طريق تحفيزها وإثارتها. وهي وسائل أقلّ ما يمكن أن يقال في نعتها: إنها مجرمة؛ لأنها تمارس الجريمة ضد الأخلاق، فتحاول أن تفسد قدر ما تستطيع، فلا تترك وسيلة من وسائل الانحطاط وجرّ الشباب إلى الرذيلة دون أن تفعلها معه؛ كي توقعه في مستنقع الخطيئة وشراكها، فهي توصل إلى الشباب كلّ لوازم الفساد تحت مختلف المسميات.

وهذا الأمر في الحقيقة عبارة عن جريمة منظّمة ترتكب بحقّ الأخلاق تقبع وراءها أصابع خفيّة تعمل على القضاء على عنصر الأخلاق في المجتمعات ودثره. وهي جريمة تتعامل مع الأخلاق والغريزة بنمطين من التعامل؛ فهي تستثير الغرائز وتقتل الأخلاق؛ تستثير الغرائز بما تحاول نشره بين الناس من مسببات الانحراف، وتقتل الأخلاق؛ لأنها ترى أن الإنسان ما دام متمسكاً بأخلاقه وقيمه ودينه، وما زال يتوقّف على جوانب من المناعة الخلقية، فإن هذا سوف يقف عقبة كأداء في طريقها. ولذا فإننا مثلاً نرى أن من جملة وسائلها التي تعتمد إلى التعامل بها مع الشباب أن تلفت نظره بأسماء وأديولوجيات مختلفة، كأن ترفع يافطة عريضة كبيرة يكتب عليها «دارالفن»، وليست دارالفن هذه سوى وكر مخزٍ للأجساد العارية، ومحطّة لاستتارة الشهوات والغرائز المنحطّة. ولست أدري ما علاقة هذا بالفن الذي يعني جمال الروح وجمال

النفس. إن مثل هذه الدور لا عمل لها سوى أن تعزّي الإنسان من أخلاقه، لكن أن تغذّيه بالخلق أو الكرامة أو حبّ الوطن فلا؛ لأن هذه المفاهيم غير مأخوذة بنظر اعتبارها، وكأنها ترى أن هذه المسميات هي الوجه المظلم في الحياة، وأن الوجه المضيء فيها هو إشباع رغبات الغريزة فقط.

إن هؤلاء يتسترون خلف هذه اليافطات العريضة ليمسخوا أخلاق الشباب، وليعرّوهم من ثقافتهم الدينيّة، وليجرّدوهم عن مناعتهم الأخلاقيّة. وما هذه العناوين (رقيّ، تطوّر، حضارة، مدنيّة) إلّا واجهة تختفي خلفها النوايا الحقيقيّة لهذه الوسائل الهدّامة، وكأنها لا تعرف من الحضارة والرّقيّ إلّا جانب العري. ومثل هؤلاء كمثل من يترك الصلاة مدّعياً أن الله تعالى نهاه عنها بقوله: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ﴾، فلمّا قيل له: ولكن لها تتمّة هي ﴿وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾^(١)، قال: أنا لا حاجة لي بتتمّة هذه الآية، وكلّ ما أريده هو طرفها.

فالواقع أن هؤلاء حالهم مع التطوّر وفهمه كحال هذا التارك صلّاته، فهم لا يأخذون من التطوّر سوى العري والفساد والانحلال، ولا يرون من الفن سوى الجسد العاري والانحطاط والإفساد.. الجسد العاري الذي يستلّ من نفسه ونفوس قاصديه الكرامة والشعور بالمناعة. في حين أن الفن بمعناه الصحيح هو جمال للروح وتربية للنفس على الملكات الطيّبة والأخلاق السامية، وشحذ القرائح للرقيّ بالإنسان وجعله يعيش أسمى حالات الإنسانيّة فينتج ويبدع ويخدم نفسه ومجتمعه بفكرة ما أو معنى

(١) النساء: ٤٣.

من المعاني السامية لتقوية جانب النفس الأخلاقي والأمانة والخصال الحميدة.

الأصابع اليهودية في نشر الرذيلة

أمّا تربية الناس على شرب الخمرة والتهتك والتحلل فلا يمكن أن يكون فناً أبداً، بل هو هدم للتربية السليمة، وجرّ للناس إلى هاوية الانحدار والرذيلة. ولو أننا استقصينا الأمر لوجدنا أن خلف كلّ هذه المحاولات المجرمة يداً يهودية تدفع بها وتحثّها على السير دون توانٍ أو توقّف؛ لأنّ كلّ النظريّات التي قلبت العالم رأساً على عقب هي نظريّات يهودية، واليهود هم وراء كلّ فساد وإفساد في الدنيا. وهامهم يصلون في الساحة لوحدهم ويددون من يريدون تهديده دون أن يكون لهم أي رادع منّا، أو أي موقف لنا أو تأثير في هذا العالم، بل إن شأننا هو الاستيراد والتلقّي.

إن هؤلاء اليهود أصبحوا قوّة كبيرة، وأصبحت يدهم تظال أي مكان تريده، وأصبحت أسلحتهم وصواريخهم جاهزة لتدمير أي بلد إسلامي يحسّون أنه يشكل خطراً على وجودهم وكيانهم، والمسلمون غافلون عن كلّ هذا، فأصبحوا مصداقاً لقول الشاعر:

نستر الجبن عند مؤتمرات	فلنا عند مجلس الأمن سائح
ونسوي من الهزيمة نصراً	والجلايبب ضجّة وصياح
ويحنا لو على الجراح انطوينا	وسكتنا حتى تقول الجراح ^(١)

وهذا هو الواقع، فالمسلمون أصبحوا مثار سخيرية الآخرين، وقد

(١) ديوان المحاضر ١: ٧٢.

سحقت كرامتهم هذه الثلثة الضائعة (اليهود)، هؤلاء الذين كانوا يدفعون الجزية لنا أصبحوا هم السادة وأصبح المسلمون هم العبيد. وهكذا نشطوا وأصبحوا وراء كل فساد وإفساد في الأرض.. وراء قتلنا المادّي والمعنوي؛ فقد رسموا الطرق ووضعوا الخطط الكفيلة بالقضاء علينا وبإبادتنا. مع أن الإسلام لم يعادِ قوماً لأجل أن عندهم ديناً أو عقيدة، بل إنه كرم الأديان السماوية الأخرى وأتباعها، لكن اليهود في المدينة لما راحوا يحوكون المؤامرات ضدّ الإسلام ورسول الإسلام ﷺ، وضدّ المسلمين اضطرّ الرسول الأكرم ﷺ إلى إخراجهم منها؛ لأنهم أصبحوا يشكّلون عنصر خطر على وجود الإسلام، أو لا أقل من أن لهم تأثيراً سلبياً عليه. فقد كانت أصابعهم وراء كل فاجعة أصابت المسلمين.

يزيد يستشير مسيحياً في استعمال والٍ على الكوفة

ولم يكن اليهود وحدهم في هذه المؤامرة العظمى على التاريخ، بل هناك من حدا حذوهم من المسيحيين الذين رأوا في هذا الدين عنصر خطر عليهم، فراحوا يعملون معاولهم فيه، ومن هذا أن يزيد بن معاوية لما أراد أن يبعث إلى الكوفة والياً عليها بعد خروج الإمام الحسين عليه السلام استشار أحد المسيحيين في الأمر حيث إنه دعا سرجون مولى معاوية فقال له: ما رأيك؟ إن حسيناً قد وجّه إلى الكوفة مسلم بن عقيل يبايع له، وقد بلغني أن النعمان ضعيف، فمن ترى أن أستعمل على الكوفة؟ وكان يزيد عاتباً على عبيد الله بن زياد، فقال له سرجون: أرايت لو أن معاوية نشر لك، أكنت آخذاً برأيه؟ قال: نعم. فأخرج سرجون عهد عبيد الله

على الكوفة وقال: هذا رأى معاوية، فوّل عليها عبيد الله بن زياد، فهو الذي سيقف في وجه الحسين^(١).

فانظر إلى هذه المشورة اللئيمة، وما الذي فعلته بعد ذلك، وما هو الأثر الذي ترتّب عليها، إنه إصبع لئيم وخبيث وراء أعظم نكبة أصابت الإسلام والنبي ﷺ نفسه، والمسلمين كذلك.

وفعلاً جاء عبيد الله بن زياد ودخل الكوفة وصعد المنبر وخطب الناس قائلاً: « أمّا بعد: فإن أمير المؤمنين ولأني مصركم وثوركم وفيئكم، وأمرني بإنصاف مظلومكم وإعطاء محرومكم، والإحسان إلى سامعكم ومطيعكم كالوالد البرّ، وسوطي وسيفي على من ترك أمري وخالف عهدي، فليبق امرؤ على نفسه:

الصدق ينبي عنك لا الوعيد

ثم نزل فأخذ العرفاء والناس أخذاً شديداً»^(٢).

ثمّ حشد الناس وأخرجهم إلى حرب الإمام الحسين عليه السلام.. نعم لقد خرجوا لكنهم خرجوا لحرّق خباء أظلمهم عن نار الكفر، وخرجوا لتقطيع أعضاء خلصتهم من ضلال الشرك وعبودية الوثنيّة، خرجوا لإراقة دم الرسول الأكرم محمد بن عبد الله ﷺ الذي جمع كلمتهم بعد تشتت وتفرق، ولمّ شملهم بعد تجزؤ وتمزق، وبنى هذه الدولة العظيمة المترامية الأطراف، والتي ينعم بها يزيد وأمثاله، وراحوا يعيشون فيها

(١) روضة الواعظين: ١٧٣ - ١٧٤، الإرشاد ٢: ٤٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٦٥، الكامل في التاريخ ٤: ٢٢ - ٢٣.

(٢) الإرشاد ٢: ٤٤، الكامل في التاريخ ٤: ٢٣ - ٢٤، مقاتل الطالبين: ٦٤.

فساداً.

ولذا فإن الإمام الحسين عليه السلام خاطبهم يوم العاشر من المحرم وأنبهم على خذلانهم إياه مع أنه ابن من رفع أساس هذا الدين، وابن من أراق دمه في سبيل هذا الدين، وأنهم به وبجدّه وأبيه اجتمعت كلمتهم وعزّوا بعد أن كانوا أذلةً، وأنهم بهم نالوا عروش قيصر وكسرى، فأصبحت النعم تغدق عليهم آناء الليل وأطراف النهار. فهل من كان مثله وهذه سابقته يستحقّ أن يكون جزاؤه منهم أنهم يحشدون الجيوش لقتاله وقتل أطفاله وعائلته؟

وفعلاً خرج الحسين عليه السلام بطفل عمره ستة أشهر ليطلب له الماء؛ لأنه ليس من الرجولة منع الماء عن طفل رضيع، وقال لهم: «إن كنتم منعم الماء عن الكبار، فما ذنب هذا الطفل الرضيع؟ فاسقوه شربة من ماء فقد جفّ حليب أمّه». فنادى منادٍ: اقتلوه، ولا تبقوا لأهل هذا البيت باقية. فرماه حرمله بن كامل بسهم فوق في نحره وهو في يد أبيه فقطعه من الوريد إلى الوريد^(١)، فاضطرب كما اضطرب السمكة في الماء. ثم رجع به الحسين عليه السلام ووضعوه في حجر أمّه، وقال: «اللهم لا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح».

فأخذته أمّه، ووضعته في مهده فامتلاً من دمه، فلم يحتمل الإمام عليه السلام هذا المنظر، فاحتفر له بجفن سيفه، وواراه التراب:

ولو تـرـاه حـاملاً طـفـله رأيت بـدرأ يـحمل الفـرقدا

(١) الاختصاص ١: ٥٧٨.

مُخَضَّباً مَنْ فَيْضِ أَوْجَاهِهِ أَلْبَسَهُ سَهْمَ الرِّدَى مَجْسِداً^(١)

* * *

يَا رَجَوَايَ عَگْبِكَ مَا بَعْدَ لَوْلِيَّتِ أَخْلَافَ حُسَيْنٍ عَيْبِ أَكْعَدَ تَحْتَ ظِلِّ بَيْتِ

يَبْنِي الْكَرْبَلَا يَبْنِي عَسَى لَا جَيْتِ يَبْنِي أْتَمَدَّتْ يَمِّي وَلَا شَرِبْتَ الْمَائِ



(١) المجسد: الثوب الملامس للجسد، يريد: أن السهم ألبسه ثوباً من دم. انظر المعجم الوسيط: ١٢٢ - جسد.

الإخاء ودوره في بناء الأسرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ
قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا
لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

قد يُتصوّر أن الإخاء النسبي محصور بثلاثة أقسام: الأخوة لأب وأمّ، والأخوة لأمّ فقط، والأخوة لأب فقط. وهذه الآية تبحث في مجموعة من المضامين لا بدّ من تغطيتها، حيث سنتناول كلّ مضمون في مبحث مستقل:

المبحث الأول: أقسام العلاقات بين الأخوة

أول ما يمكن ملاحظته في المجتمع أن العلاقات بين الإخوة من أب وأمّ، هي غير تلك التي تكون ما بين الإخوة من أب فقط. وقد سُئل أحد

(١) يوسف: ٧٧.

العلماء يوماً: لماذا نرى أن الصحابة كأنهم أبناء لأمّ واحدة، وعلي بينهم كأنه ابن علة؟ قال: ولم لا يكون كذلك وقد سبقهم سلماً، وتقدّمهم علماً، وفاقهم حلماً، وبزّهم شجاعة؟ والجنس لجنسه أميل^(١).

ومن هذا نفهم أن الإنسان يميل عادة إلى أبناء مستوياته القريبة منه، أما علي عليه السلام فإن ما عنده أوجب أن يُحسد عليه.

وموضع الشاهد هنا أن ابن العلة يختلف عن غيره من الإخوة؛ مما يدل على أن هذه الظاهرة كانت معروفة من بدء التاريخ. فما السبب في وجودها؟ نحن نلاحظ أن الأواصر التي تكون بين الإخوة من أبوين، أقوى منها بين الإخوة الذين يكونون من أب فقط. فهل هذا آتٍ من كون رحم الأم أكثر تأثيراً من صلب الأب؟

هل تدخل طاعة الوالدين في باب التضاحم؟

ويعالج الفقهاء هذه المسألة في باب التضاحم، فالله أمرنا بإطاعة الوالدين، بشرط ألا تسبب معصية لله، فلو فرضنا أن طاعة الأبوين لا يمكن اجتماعها، كأن يقول لي أبي: ادرس في هذه المدرسة، وتقول أمي: لا. فهنا لا يمكن أن أجمع بين الأمرين، ويحصل التكاذب في أصل الجعل على حدّ تعبير الفقهاء - أي أن الدليل الذي يأمرني بطاعة الأبوين يحصل فيه التكاذب - فكيف يقول لي الله: أطعهما، ثم لا يمكن أن تجتمع طاعتهما؟

في مثل هذه الحالة يقول الفقهاء: إن كان هناك مُرَجِّح قَدِّمناه، فتصبح

(١) الأماشي (الطوسي): ٦٠٨ - ٦٠٩ / ١٢٥٦، بحار الأنوار ٢٩: ٤٨١ / ٣، والمسؤول هو الخليل ابن أحمد الفراهيدي.

المسألة من باب التزاحم، وللتزاحم شروط لا مجال لذكرها الآن. ومن الأمثلة على التزاحم والترجيح أنني مثلاً أكون مأموراً بصلاة واجبة وأخرى استحبابية في وقت واحد، وكان وقت الواجبة مضيّقاً، ووقت الاستحبابية موسّعاً، واجتمعت الصلاتان في وقت لا يمكنني فيه أن أجمع بينهما، فعندئذ أقدم الصلاة الواجبة، لأهمّيتها. وهنا يتّضح عندنا معنى المرجّح.

وفي مسألة الأمّ والأب يقول الفقهاء: عند عدم وجود المرجّح فرأي الأمّ أهمّ، وأمرها مقدّم على أمر الأب. وهذا عين الحقيقة، لأنك تلمس بصمات الأمّ واضحة على أي جيل من الأجيال. ويقسم علماء الاجتماع المجتمع إلى قسمين: مجتمع ينسب إلى الأمّ ومجتمع ينسب إلى الأب، ففي بعض المجتمعات يطغى الأب على الأسرة وفي بعضها تطغى الأمّ، وفي بعضها يحصل توازن بين الطرفين. فالمشرع الإسلامي يعطي الأهمّية للأمّ حسب القاعدة التي تقول: العنم بالغرم^(١). فمن يخسر أكثر يأخذ مقابل خسارته، والأمّ هي التي تخسر أكثر. فالأب يحمل ابنه خفيفاً ولا يشعر به، والأمّ تحمله ثقيلاً وكأنها تحمل جبلاً^(٢) خصوصاً

(١) وقد يعبر عنها بقاعدة «التلازم بين النماء والدرك»، أو قاعدة «الخراج بالضمان». انظر: القواعد الفقهية ٦: ٣٠٨، مئة قاعدة فقهية: ٢٨٤، المبسوط (السرخسي) ٨: ٨١، ٢٥: ٤٣، القاموس الفقهي: ٢٧٨، المعجم القانوني ٢: ٥٧٦. ومعنى القاعدة هو التلازم بين الخسارة والفائدة؛ فكل من له فائدة المال شرعاً عند الربح كان عليه خسارة ذلك المال أيضاً.

(٢) تنازع رجل يقال له قابس وامرأته هزيلة بنت جديسيان في مولود لهما أراد أبوه أخذه فأبت أمّه، فارتفعا إلى الملك عمليق، فقالت المرأة: أيها الملك، هذا ابني حملته تسعاً ووضعته رفعاً وأرضعته شبعاً ولم أنل منه نفعاً، حتى إذا تمت أو صاله واستوفى فضاله أراد بعلي أن يأخذه كرهاً ويتركني ولهي. فقال الرجل: أيها الملك أعطيتها المهر كاملاً ولم أصب منها طائلاً إلا ولداً خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً، على أنني حملته قبل أن تحمله، وكفلت أمّه

من تصل منهن إلى عشرة أشهر. وناهيك عن ساعة الوضع والولادة. يقول الإمام مالك في رأي يتفرد به عن المذاهب الإسلامية الأخرى كلها: إذا بلغت الأم ستة أشهر في الحمل لا تنفذ تصرفاتها المالية. والسبب في ذلك أنها أشبه بالمريض مرض الموت الذي لا يُعطى الحق في التصرف بأمواله؛ لأن ملكيته أصبحت متزلزلة فتنتقل لأولاده. وعندما تصل الأم إلى هذا الشهر من الحمل تصبح معرضة للموت: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾^(١).

وليس الحمل فحسب، وإنما تأتي الولادة والحضانة والرعاية. فيأخذ الولد من أبعاد الأم النفسية والجسدية؛ فيكون بهذا أُلصق بأمه؛ فلذا يُقدم قولها في حالة التضاحم. فالإخوة لأم يكون بينهم التصاق أكبر عادةً.

منشأ المعرفة عند الإنسان بين العلم والدين

وهنا يرد هذا السؤال: لماذا هذا الالتصاق؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال نستعرض رأي علماء الاجتماع في الطفل المولود حديثاً. فهم فيه قسمان:

قسم يقول: إنه يخرج من بطن أمه وليس عنده أية مسبقات ذهنية مخزنة، وكل ما يحصل عنده بعد ذلك فإنما يتعلمه من التجربة أو من محيطه.

قبل أن تكفله. فقالت: أيها الملك، حمله خفياً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعه كرهاً. فلما رأى عمليق متانة حجتهما، تحير فلم يدري بم يحكم. معجم البلدان ٥: ٤٤٢. وقد أورد ابن عساكر هذه القصة بمرافعة أبي الأسود الدؤلي وزوجته لمعاوية. تاريخ مدينة دمشق ٥٢: ٢٠٢، ٧٠: ٢٦٩، وفيهما: حمله خفياً وحملته ثقلاً، ووضعه شهوة ووضعه كرهاً، لم أحمله في غير، ولم أرضعه غيلاً، فبطني له وعاء وحجري له وقاء. (١) الأحقاف: ١٥.

وقسم يقول: إنه ليس كذلك، وإنما تكون عنده مسبقات ذهنية مختزنة أخذها بالوراثة.

ونظرية الإسلام في الموضوع واضحة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١). فالمولود يولد وهو خالي الذهن من أية معلومات، ويأخذ كل شيء من المجتمع بواسطة المتلقيات، وهي السمع والبصر والفؤاد وغيرها. ولكن هذا في الأمور العلمية، أما الغرائزيات فهي مولودة مع الإنسان.

يقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٢): إن النجدين هما الثديان^(٣)، والنجد هو المرتفع^(٤). والطفل أول ولادته يلتقم الثدي، وكأنه مدرّب سابقاً على الرضاعة، فتراه يحرك فمه حركة رحوية ويمتص اللبن. فمن أين أخذ هذه الدربة والمهارة؟ إنها غريزة توجد وتولد معه. وهناك جملة من الأشياء تولد مع الإنسان، ولها ارتباط بالغرائز والوراثة، ولا علاقة لها بالبيئة.

والأمر المتعلق بسؤالنا الذي أثرناه حول العلاقة بين الإخوة الأشقاء وغير الأشقاء هو أننا نريد أن نسلط الضوء على إخوة الإمام الحسين عليه السلام الذين خرجوا معه إلى الطّف، فلم يخرج معه أخ شقيق، إنما كانوا كلّهم إخوة لأب. وبالنتيجة فنحن لا نريد أن نقول: إن هذه الظاهرة من العلاقات

(١) النحل: ٧٨. (٢) البلد: ١٠.

(٣) انظر: التبيان ١٠: ٣٢٥، مجمع البيان ١٠: ٣٦٣، جامع البيان، المجلد: ١٥، ج ٣٠: ٢٥٢ /

٢٨٩٠١ - ٢٨٩٠٢، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٦٥.

(٤) خصائص الوحي: ٥١، فتح القدير ٥: ٤٤٤.

المتوترة بين الإخوة من أب، أو العلاقات الوطيدة بين الأشقاء، وهي قاعدة حتمية لا يمكن أن تنخرم، بل الذي نريد قوله: إن الغالب فيها كذلك.

علاقات الأشقاء من وجهة نظر علم الاجتماع

فهل هذه العلاقة آتية من الرحم لأنه مصدر الرحمة باعتبار الدفء العاطفي الذي يسكبه على الأولاد؟ إنها ظاهرة موجودة في المجتمع على كل حال، ولعلماء الاجتماع فيها رأيان: فبعضهم يقول: إنه أمر متأثر إلى حد ما بالوراثة.

والبعض الآخر يقول: إن علاقة ذلك بالبيئة لا بالوراثة؛ لأن الطفل أول ما يولد في الأسرة تقوم الأسرة بغلغلة هذا الشعور عنده. ويأتي هذا الشعور من تراحم النساء على رجل واحد، وهذا يخلق لونا من التوتر العاطفي الذي ينعكس بعد ذلك على الأبناء. ولذا نرى أن المشرع الإسلامي لما أباح تعدد الزوجات إلى أربع^(١) ترك لنا نحن تقدير الموقف.

المبحث الثاني: آراء المفسرين في سرقة يوسف عليه السلام

تقول الآية: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، فما هي السرقة المزعومة التي ارتكبها النبي يوسف عليه السلام؟ إن القرآن الكريم عندما يشرح لنا قصة النبي يوسف عليه السلام يريد منا أن نأخذ العظة والعبرة، ونتأدب بها ونتربى عليها، لا أن نتسلى بالقصة فقط.

إن إخوة النبي يوسف عليه السلام قالوا في بنيامين أخيه عليه السلام: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ

(١) في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾. النساء: ٣.

أَخُّ لَهُ مِنْ قَبْلُ»، وذلك لما أراد يوسف عليه السلام أن يأخذ أخاه بنيامين إلى جانبه، فافتعل هذه المسألة بأن وضع الصاع في رحل أخيه.

أما عن سرقة يوسف المنسوبة له من إخوته فإن للمفسرين آراء متشعبة فيها، وعادة ما تظهر مذاهب المفسرين في الأمور غير المحددة. ففي القرآن الكريم أشياء محددة معينة لا يستطيع المفسر أن يتلاعب بها أو يخضعها لرأيه، أما مثل هذه الأمور القابلة للاجتهاد فإن المفسر يغدق عليها من آرائه وألوانه.

الرأي الأول: أنه عليه السلام سرق لجائع بيضة من بيت أهله

يقول أحد المفسرين: إن يوسف عليه السلام في صغره رأى جائعاً يبكي، فسرق له بيضة من بيت أهله وأطعمه إيّاها.

الرأي الثاني: أنه عليه السلام سرق له دجاجة من بيت أهله

ويقول مفسر آخر: إن المسروق لم يكن بيضة، وإنما كان دجاجة سرقها لذلك الجائع وأطعمه إيّاها.

الرأي الثالث: أنه عليه السلام سرق منطقة جدّه لأُمّه

وهناك مفسر ثالث يقول: إن يوسف عليه السلام في صغره سرق منطقة جدّه لأُمّه، والمنطقة هي الحزام.

وهذه الروايات الثلاثة كلّها لا تشكل عنوان سرقة.

الرأي الرابع: أنه عليه السلام سرق المودة من قلب أبيه عليه السلام

وقد رأيت من المفسرين من يحمل عليه مع أنه رأى وجيه قريب. وهذا من تفسير الإشارة عند الصوفيين، وهذه المدرسة الصوفية في التفسير فيها جذبات روحية.

وهنا قد يسأل سائل: لم سرق يوسف عليه السلام المودّة من قلب أبيه؟ وما السبب الذي جعل يعقوب يميل إلى يوسف عليه السلام أكثر من باقي إخوته ممّا سبب أنهم حقدوا عليه؟ وهذا الحقد واضح من تعبير الآية الكريمة، والحاقد يلجأ إلى الاتهام والافتراء والادّعاءات غير الموضوعيّة؛ لأنه ينطلق من عاطفة لا يمكن له أن يتحكّم بها.

والسبب في ذلك أن يوسف عليه السلام وأخاه بنيامين كانا يتيمين، وقد توفّيت أمهما «راحيل» وهي في شبابها، ومن المعروف أن اليتيم يستدرّ العطف أكثر من غيره؛ لأنه بحاجة إلى تعويض اليتيم الذي يعانیه. وهذا ما حدث ليعقوب عليه السلام الذي كان يرى يوسف عليه السلام وأخاه بلأم، فأراد أن يعوّضهما فقد أمهما. وإلا فإنه عليه السلام كان يعرف خطورة تمييز أحد الأولاد على الباقين، فذلك يخلق الهزّة في المجتمع.

قال النعمان بن بشير: سألت أمّي أبي بعض الموهبة لي من ماله، ثم بدا له فوهبها لي، فقالت: لا أرضى حتى تشهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فأخذ بيدي وأنا غلام فأتى بي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: إن أمّه بنت رواحة سألتني بعض الموهبة لهذا. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألك ولد سواه؟». قال: نعم. قال: «لا تشهدني على جور». وفي رواية: «ألك بنون سواه؟». قال: نعم. قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فكلهم أعطيت مثل هذا؟». قال: لا. قال: «فلا أشهد على جور»^(١).

ولو كان هناك مبرّر لهذا التمييز لما اعترض النبي صلى الله عليه وآله وسلم لكنه لمّا لم ير مبرّراً لذلك اعترض. ثم إنه لو كان عنده مبرّر شرعي لما احتاج إلى شهادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) جامع المقاصد ٩: ١٧١، مسند أحمد ٤: ٢٦٨، صحيح البخاري ٣: ١٥١، صحيح مسلم ٥: ٦٦.

والمبرر الصحيح كأن يكون أحد الأولاد أكثر حزمًا من إخوته بأن يدير العمل والبيت والأسرة، أو أن يكون متّزناً شاطرًا ذكيًا ذا جوانب علمية، ومستقيمًا صائمًا مصلياً، وصادقاً في معاملته مع الناس، مسالماً؛ فيفضّله الأب في حياته لهذه الصفات الحميدة. وهذا مبرّر معقول، أمّا المبرّر غير المعقول فكأن تكون أمّه جميلة مثلاً أو شابة. فهذا التمييز يسبب الحقد، وسوف ينسف بناء الأسرة.

وهذه من النظريات التي جاءت قبل (١٤٠٠) سنة، ولم يتوصّل إليها علم النفس والاجتماع إلا في زمن قريب في القرن العشرين، فمن أين جاء النبي ﷺ بهذه المعلومات قبل (١٤٠٠) عاماً وهو يعيش في تلك الصحراء؟ لا شك أن ذلك تسديد السماء وتوجيهها.

فالسبب الذي جعل يعقوب عليه السلام يحنو على يوسف عليه السلام وأخيه أنهما يتيمان، ولذا قال إخوة يوسف: ﴿لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْبَانًا مِّنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

الرأي الخامس: أنه عليه السلام سرق صنماً لجده لأمه عليه السلام

ومن الآراء التي يوردها المفسّرون في سرقة يوسف عليه السلام المزعومة أنه سرق صنماً لجده لأمه، وكان وثنيًا.

وكل همّ المفسّرين أن يحقّقوا معنى السرقة الواردة في الآية. وكل هذه المعاني ليست متّسقة وصائبة.

الرأي السادس: أن عمته ادّعت أنه سرق منطقة جده لتحتفظ به

والرأي الأكثر صواباً أن عمته التي كانت تحضنه وأخاه بعد وفاة

أمهما، اعتزّت به أكثر من أخيه، ولم تعد تستطيع مفارقتة، فكان لها بمثابة الابن، فهي لم يكن لها ولد. فلما أراد يعقوب عليه السلام أخذه منها، ابتدعت طريقة لبقائه عندها، فادّعت أنه سرق منطقة جدّه. وكانت عقوبة السرقة ذلك الزمان نوعين:

العقوبة المدنية عند الفراعنة، وهي السجن لسنوات محدّدة.

والعقوبة الشرعية في شريعة يعقوب عليه السلام، وهي أن من يسرق يُستعبد: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾^(١). وإذا ثبت ذلك ليوסף فعقوبته أن يبقى مستعبداً عند عمّته.

المبحث الثالث: ثوابت الشريعة ومتغيّراتها

وألفت النظر هنا إلى أن الفقه الجنائي وكذلك الاقتصادي والاجتماعي يتطوّر بتطوّر المجتمع، فهناك في الشريعة ما ندعوه بالثوابت وهناك ما ندعوه بالمتطوّرات أو المتغيّرات التي تتغيّر بتطوّر الزمن. وقد يقال: لماذا تشدّ ونا إلى شريعة مضى عليها أكثر من (١٤٠٠) سنة، وقد تغيّر في الدنيا كلّ شيء حتى تصميم الدور ووسائل النقل والأفكار وكل شيء؟

فيجاب بأن باب الاجتهاد مفتوح في الشريعة، فلا يمكن أن نعتبر عمر الشريعة (١٤٠٠) سنة؛ ذلك أنها متطوّرة متحرّكة مع الزمن. وذلك التطوّر يكون بأراء الفقهاء؛ لأن الفقيه يأخذ النصّ القابل للتطوير فيطوره، فمثلاً يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٢)، فيرى الفقيه أرضاً عند شعب من الشعوب تعدل قارة كاملة، فلا يرى مانعاً من أن يعطيها لمن

(١) يوسف: ٧٥.

(٢) النحل: ٨٨.

يستثمرها. لكنه إذا رأى أن هناك كثافة سكانية ضخمة، والناس يحتاجون للسكن، فلا يمكنه أن يعطي آلاف الأفدنة للزراع. مع أنه في الحالين ينشد العدل.

فالعدل إذن عنوان متطور تختلف تطبيقاته باختلاف الموضوعات. وهكذا كل مبدأ في القرآن الكريم يمكن أن ينطبق على الحياة المتطورة، حيث يطوره الفقيه وفق المطلوب. فهناك أمور أصولية عقلية وشرعية نرجع إليها في كل ذلك، كالبراءة العقلية والبراءة الشرعية وغيرهما.

أنواع الإكراه

ومن هنا نرى أن الشرائع السابقة تختلف في كثير من أحكامها عن الشريعة الإسلامية، ففي السرقة تدرس الشريعة ظروف الجريمة ودوافعها؛ فهل إن السارق مكره، أو غير مكره؟ والإكراه نوعان: مباشر، وغير مباشر. فغير المباشر أن يكون السارق ضحية تربية سيئة، كأن يولد ولا يجد في الشوارع إلا العصابات التي تلتقطه فتحتضنه وتدرّبه على الجريمة. أما الإكراه المباشر فكالجوع مثلاً، وذلك بأن يصل الإنسان إلى مرحلة لا يجد قوت نفسه أو عياله، أو أن تحدث مجاعة في البلد. ولذلك لم يقطع عمر بن الخطاب الأيدي في عام المجاعة^(١).

مقدار القطع في يد السارق

فإذا درست ظروف الجريمة وتقرر القطع، تقطع اليد؛ قال

(١) انظر: الخلاف ٥: ٤٣٢ / المسألة: ٢٧، المجموع شرح المذهب ٢٠٠: ٩٥، وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «لا قطع في عام مجاعة»، الخلاف ٥: ٤٣٢ / المسألة: ٢٧، وعن الصادق عليه السلام أنه قال: «لا يقطع السارق في عام سنة» أي مجاعة. الكافي ٧: ٢٣١ / ٢.

تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾^(١)، وهنا يختلف الفقهاء في القطع: فمنهم من يقول: إنه من الكتف؛ لأن لفظ اليد ينطبق على ذلك. ومنهم من يقول: من أصل الكف. ومنهم من يقول: أطراف الأصابع؛ لأنها تسمى يداً، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾^(٢).

المبحث الرابع: إشكالية اتهام يوسف عليه السلام إخوته بالسرقة

وبالعودة إلى الآية نستعرض قصة النبي يوسف عليه السلام مع أخيه، حيث دعا إخوته إلى وليمة، وجعل كل اثنين منهم في حجرة؛ ليبقى أخوه بنيامين وحده؛ كي يضمه فيما بعد إليه. وهذا عين ما صنعه النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث آخى بين الصحابة وتركه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فأقبلت إليه وعيناي تفيضان، قلت: يا رسول الله، أراك آخيت بين أصحابك وتركنتني؟ فقال: إنما ادّخرتك لنفسي، أنت أخي في الدنيا والآخرة»^(٣).

(١) المائدة: ٣٨. (٢) البقرة: ٧٩.

(٣) ورد هذا الحديث بطرق كثيرة وصيغ مثلها، انظر: الطبقات الكبرى ٣: ٢٢، المعجم الكبير ١١: ٦٣، تاريخ مدينة دمشق ٤٣: ٨، كنز العمال ١١: ٥٩٨ / ٣٢٨٧٩، ٦٠٨ / ٣٢٩٣٩، ٦١٠ / ٣٢٩٥٥، ١٣: ١٤٠ / ٣٦٤٤٠.

قال السيد محمد الهندي:

لو رأى مثله النبي

لَا خَـ _____ ه وإلا فأخطأ الانتقاد

الأنوار العلوية: ٣٤٠. وقال عبد الباقي العمري:

يا أبا الأوصياء أنت لطفه صهره وابن عمه وأخوه

إن لله في معانك سرّاً أكثر العالمين ما عرفوه

أنت ثاني الآباء في منتهى الدو ر وآبائه تُعدّ بنوه

خلق الله آدمًا من تراب فهو ابن له وأنت أبوه

الغدِير ٦: ٣٣٨.

ودخل بنيامين على أخيه وهو في حجرته ، فقال له: «هل تحب أن أكون أخاك؟». قال: وأين أجد أخاً مثلك؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل . فاعتنقه عليه السلام وقال: «أنا أخوك يوسف»^(١) . فاحتضنه بنيامين .

ولما أراد يوسف أن يبقيه عنده ، بعث أحد الخدم ليضع الصواع (المكيال) في رحل بنيامين ، ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ مُوَدَّنَ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنِّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾^(٢) .

وهنا يرد هذا السؤال: ما المبرر لهذا العمل؟ وهل هو عمل مشروع؟ إن وضع المكيال في أوعيتهم لا يحرم حلالاً ، ولا يحلل حراماً ، وليس فيه مشكلة ، لكن المشكلة في النداء: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنِّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾^(٣) ، فكيف ساغ له عليه السلام أن يتهمهم بالسرقة؟

بناء على الرأي القائل في سرقة يوسف عليه السلام أنه سرق ودّ أبيه عليه السلام منهم ، فإن هذه السرقة التي اتهمهم بها هي سرقة السعادة من قلب يعقوب عليه السلام . وقد سرقوها فعلاً ، فكان يعقوب عليه السلام ينوح من الصباح إلى المساء ، ويمرّ به ملك الموت فيسأله: «هل مرت بك روح يوسف؟» . ويسأل عنه الركبان ، حتى وصفه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٤) ، أي أصابه العمى . فكان الاتهام صادقاً ، وليس ادعاءً باطلاً ؛ لأنهم سرقوا السعادة فعلاً من قلب يعقوب عليه السلام .

المبحث الخامس: أسباب زجّ الحسين عليه السلام إخوته في المعركة

دعونا الآن نعيش شيئاً من أجواء واقعة الطفّ ، فقد أخرج الحسين عليه السلام إخوته ، ولم يكن فيهم شقيق له أبداً ، وكانوا تسعة كلهم لأبيه ، وقتلوا كلهم

(١) بحار الأنوار ١٢: ٢٩٠ / ٧١ . (٢) يوسف: ٧٠ .

(٣) يوسف: ٧٠ . (٤) يوسف: ٨٤ .

معه.

والسؤال هنا: ما هذا الإصرار من الحسين عليه السلام على إخراج هذه المجاميع من أهله مع علمه بأنهم سوف يقتلون، وقد أخبره النبي صلى الله عليه وآله بذلك؟ وهل إن هذا انتحار جماعي؟ إنه عليه السلام يعلم أن هؤلاء لن يغيروا في المعادلة شيئاً؛ لأن عدد الجيش في الطف كان ثلاثين ألفاً على أقل الروايات، وإلا فهناك روايات تقول: إنه كان سبعين ألفاً أو مئة ألف أو أكثر. فما هي دوافع الحسين عليه السلام لهذا الإصرار على أن يُقتل أهل بيته عن بكرة أبيهم؟ هناك عدّة أسباب منها:

السبب الأول: أنه عليه السلام أراد لجدوة التضحية الهاشمية ألا تنطفئ

فالمعروف أن أكثر الأسر تضحية لهذه الرسالة هم الهاشميون، وقد حمل التيار الهاشمي عبء الدعوة، وقدم لها القرابين والتضحيات. وقد أراد الحسين عليه السلام أن يبقى رافد التضحية فيهم مستمراً: « والحمل الثقيل أهله أحقّ بحمله ». كما أنه عليه السلام أراد لهذه الجدوة التي أشعلها النبي صلى الله عليه وآله ألا تنطفئ.

وقد لمحت لهذا المعنى في قصيدتي التي قتلها في رثاء ضحايا مدينة قانا التي حدثت فيها مجزرة على يد اليهود. ونحن نعرف أن في مدينة قانا أولاد أبي ذرّ الغفاري، وهو يشكّل رافداً من تيار علي بن أبي طالب عليه السلام، حيث قلت:

يا بنتَ جندبٍ يا أعناقُ ما برحت	مع المُدى منذ ألف وهي تنتصبُ
تنشأت في وعاء داف تربته	أبو ترابٍ الذي للصاعدات أبُ
توشحت بالإباء المرّ واعتجرت	بالحقّ واعتقدت هذا هو الغلبُ

كم سامها الضغط والإغراء لَوْح بالـ ننعى فما لان يوماً عودها الصلْبُ
سجّية من فرات الطفّ يحملها الـ —ثوار فهي على أخلافهم لقبُ

إنه تيار التضحية والعطاء الذي تركه رسول الله ﷺ وأهل بيته ﷺ، وأراد الحسين ﷺ أن يقول لغيره: لا تقولوا إن الحسين نحى أولاده وأهل بيته عن الخطر والقتل وقدم غيرهم. إنني سوف أقدم أهلي قبل غيرهم. وهذا عين ما لاحظناه في المباهلة؛ حيث أخرج النبي ﷺ أعلى ما عنده من أهل بيته، وهم علي وفاطمة والحسنان ﷺ، فإن وقع مكروه وقع على هؤلاء.

السبب الثاني: تضييق هذه الجذوة بخصائص أهل البيت ﷺ

فالحسين ﷺ أراد أن يقدم في التضحية نماذج فيها خصائص أهل البيت ﷺ. ونحن نعرف أن هناك من يقاتل بدافع الحمية - كأن يكون في موقف يستحي فيه أن يتراجع - فيموت، وهناك من يقاتل بظروف خارجية مفروضة عليه، أما أهل بيت النبي ﷺ فهم مندفعون بذاتهم، يقول العباس:

والله إن قطعتم يميني إنني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين نجل الإمام الطاهر الأمين^(١)

إنه ﷺ يدافع عن دينه وعقيدته وفكرة الإمامة المتجسدة في هذا الشخص الشريف. فأراد الحسين ﷺ أن يقدم نموذجاً واضحاً يمثل خصائص الرسالة التي بُعث بها النبي ﷺ في دفع الظالم ومقاومة

(١) شرح الأخبار ٣: ١٩٢، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٦، ينابيع المودة ٣: ٦٨.

العدوان .

السبب الثالث: البرهنة على أن الإيمان يقهر الطبع والتطبع

فالحال السائد في مجتمعاتنا أن الأبناء غير الأشقاء يكونون عادة غير منسجمين بشكل كامل مع بعضهم ، أما الحسين عليه السلام فأراد بذلك أن يضرب هذه القاعدة التي اعتدنا عليها؛ ويوضح لنا أن هؤلاء إن تربوا على الإيمان، واشتركوا في حمل الرسالة، وانخرطوا في تيار موحد، فإن كل العقبات ستتلاشى .

وقد بلغت المودة والتلاحم بين أهل البيت عليهم السلام في الطف أشدها، وهذا دليل على أن الإيمان يمكن أن يسيطر على التربية والغرائز والأساسيات كلها .

لقد أخرج الحسين عليه السلام يوم الطف تسعة من إخوته كلهم لعلي: أربعة لأم البنين (رضي الله عنها)، وهم العباس وجعفر وعبد الله وأبو بكر .

وعمر الأطراف وأمه الصهباء التغلبية، الذي تقول جملة من الروايات عنه: إنه قتل يوم الطف .
ومحمد الأصغر وأخوه، وأمهما ليلى بنت مسعود الدارمية النهشلية التميمية .

والثامن عون، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية .
والتاسع محمد الأوسط، وأمه أمامة بنت أبي العاص بن الربيع التي تزوجها أمير المؤمنين بعد وفاة الزهراء عليها السلام مباشرة بوصية منها (سلام الله عليها)، فقد قالت له: «يا علي، لا بد للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوج بعدي فعليك بابنة أختي أمامة؛ فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل

لها يوماً وليلة وللحسين يوماً وليلة ، ولا تصح في وجهيهما ، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين ، بالأمس فقدما جدهما واليوم يفقدان أمهما»^(١).
وتزوَّجها فعلاً فولدت له محمداً الأوسط الذي قتل مع الحسين عليه السلام.

فهؤلاء تسعة من ولد علي عليه السلام قتلوا مع الحسين عليه السلام يوم الطفّ .
لكن هؤلاء لم يأخذ مصرعهم أثراً منه يوم الطفّ كما أخذ العباس عليه السلام ذلك الأثر منه في مصرعه ، يقول المؤرّخون: لما سقط العباس بان الانكسار في وجه الحسين عليه السلام^(٢).

ولما سقط صريعاً وقف عليه الحسين عليه السلام ، ولم يكن العباس يرى ؛ لأن إحدى عينيه جمد عليها الدم ، والأخرى نبت بها السهم ، ولا يدّ عنده فيمسح بها الدم عن وجهه ، فأحسّ بحركة رجل عنده وهو في لحظاته الأخيرة ، فقال: من هذا الجالس ؟ قال الحسين: «لماذا؟». قال: يا هذا أقسم عليك بمن تعبد أن تمهلني فوق ناقة . قال: «ما تصنع بها؟». قال: حتى يأتي إليّ أخي وابن والدي أودّعه ويودّعني ، وأشمّه ويشمّني . فقال الحسين عليه السلام: «أنا أخوك». قال: إذن ادنُ مني أقبلك وأشمّك . فوضع فمه على فمه وراح يقبله إلى أن فاضت روحه الطاهرة ، ورحم الله السيد جعفرأ إذ يقول:

قد رام يلثمه فلم يرَ موضعاً لم يدمه حرّ السلاح فيلثمُ
أخي يهنيك النعيمُ ولم أخل ترضى بأن أشقى وأنت منعّم

ولما لفظ أنفاسه الطاهرة ، قام عنه وهو يمسح دموعه بمنديله . ولم

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١ ، السقيفة وفدك: ١٤٧ ، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢ .

(٢) شجرة طوبى ٢: ٢٩٩ ، فقال عليه السلام: «الآن انكسر ظهري» .

يتفق مرّة أن عاد إلى الخيمة وليس معه العباس عليه السلام إلا هذه المرّة، فاستقبلته الحوراء بباب الخيمة، قالت: أبا عبد الله، أراك رجعت وحدك؟ فاختنق عليه السلام بعبرته وقال: «أخية، عظم الله لك الأجر بأبي الفضل؛ لقد خلّفته على المشرعة دامي الوريدين». فوضعت يدها على صدرها وصاحت: وا أخاه.. وا عباساه.

وأرادت أن تخرج من الخيمة، فأرجعها الحسين عليه السلام إليها وقال: «أخية، تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان ولا تُشمتي بنا الأعداء»^(١). وبقيت في نفسها لوعة، فخرجت إليه بعد، حتّى وصلت إلى نهر العلقمي:

إلي مناشده وياك واعتاب يمينوخ الهودج على الباب
اسبغطش يبرون له احساب أشوف الرجا وذاك الأمل خاب

* * *

أحمى الضائعات بعدك ضعنا^(٢)



(١) الأمالي (الصدوق): ٢٢١، الإرشاد ٢: ٩١، روضة الواعظين: ١٨٣، الخرائج والجرائح ١: ٢٥٤، اللهوف في قتلى الطفوف: ٨٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣٩١، تاريخ الطبري ٤: ٣١٤، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، البداية والنهاية ٨: ١٩٠، تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٤٤، مقتل الحسين (الخوارزمي) ١: ٣٤٩، وقد مرّ مفصلاً في ج ٢ ص ٩١ من كتابنا هذا.

(٢) صدر بيت وتمامه: في يد النائبات حسرى بواد.

انظر: وفيات الأئمة عليهم السلام: ١٦٢.

بِرِّ الْوَالِدِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ
 وَهُنَّ عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنُ
 اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: رعاية الأسرة في القرآن

إن المساحة التي يعطيها القرآن الكريم لرعاية الأسرة مساحة كبيرة، حيث إن الأسرة هي العنق الذي تنشأ فيه الأخلاق، وهي الخلية في بناء المجتمع؛ فإذا فسدت فسدت المجتمع، وإذا صلحت صلح. فالشريعة تهتم اهتماماً واسعاً وكبيراً بالأسرة خصوصاً فيما يتعلق بتنظيم أمورها والعلاقات بين أفرادها، كعلاقة الزوج بالزوجة، والأب بأولاده، والأولاد بأبويهما. ومن جملة الآيات التي عنيت بهذا الجانب هي هذه الآية. ومجتمعاتنا الإسلامية بحاجة ماسة إلى تربية الأسرة، فهي

(١) لقمان: ١٤.

مجتمعات قائمة على أساس عدم الثقة فيما بينها، والتوثب للانتفاض على بعضها:

ألا يجلهن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا^(١)

فهذا يا للأسف أصبح شعار الكثير من المسلمين، وهكذا فإنهم ينشغلون بأمور جانبية، فإن أُقيمت شعائر لآل محمد ﷺ انقلبت الدنيا. ولست أدري لم يثير هذا حساسية كثير من الناس؛ مع أن الحسين عليه السلام مصباح الهدى، والفعاليات التي تقام لأجله ينبغي أن تكون بمستواه وبما يناسب منزلته.

المبحث الثاني: دور الوالدين وأثرهما في الابن

تقول الآية الكريمة: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾، الوصية هنا بمعنى الأمر، مثل ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾^(٢)، فالله تعالى يأمر الإنسان ببرِّ والديه والإحسان إليهما. والمتعلق^(٣) لم يذكر هنا؛ ولذا فإنه يفيد العموم، فتكون الوصية بما يحقق معنى الأبوة والبنوة. قد يسأل سائل: إن الولادة إنما نتعلّقها من طرف الأم؛ فهي التي تلد، فلماذا نسمي الأب والدًا؟ فإنه لم يلد وإنما تخرج منه النطفة في أحسن لذاته. فالولادة الحقيقية تقع على الأم، فلماذا يعبر القرآن الكريم عنها وعن الأب بقوله: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾؟

والجواب: أن هذا في الحقيقة من باب التغليب أو المقابلة، مثل

(١) شرح المعلقات السبع: ١١١-١٢٧. (٢) النساء: ١٠.

(٣) أي الشيء الذي تكون فيه الوصية وتكون هي مورده، أي أنه يريد التوصية بهما بكل موارد البرِّ والإحسان التي يقرّها الشرع والعقل.

(القمران) للشمس والقمر، وإلا فإنّ التي تلد هي الأم دون الأب؛ فهي التي تتحمل الأعباء من حمل وطلق وولادة وتعب، أما الأب فعليه أعباء من نوع آخر، حيث إنه يتحمل هموم التربية ومسؤوليّتها، إذ يقع عليه عبء إخراجه إلى المجتمع، وعليه حينها أن يراقبه بحذر أن يضلّ وبيته في دهاليزه المظلمة، وأن يحميه من الخرافات والوسائل المتطرفة، ومن الانحدار الخلقي. كما عليه أن يحاول تغذية تطلّعاته وتوفير جوّ من الرعاية والتعليم والتربية الكافية له، وألاّ يحمله على العقوق.

وهذه مسؤولية الأب الواعي، حيث إن الأب هو سبب وجوده، فهو الذي أخرجته إلى الدنيا وإلى الوجود، فلا بد من أن يحميه ويهيئ له الأجواء الصحيحة والصحيّة المناسبة لتربيته.

وقد منح القرآن الكريم الأم المزيد من العناية؛ حيث قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾، فالحمل حينما يأخذ بالتقدّم في النموّ فإنه يصبح على ظهر الأم أثقل من حمل البعير، والحمل هو الذي في البطن. ﴿حَمَلَتْهُ﴾ هنا يعني في البطن ﴿وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي أدوار الحمل التي تمرّ بها المرأة. وتبدأ معاناتها من مرحلة العلوق، حيث تمرّ عليها أيام الوحام وهي في غاية الشدّة، ثم ثقل الحمل والتعرّض إلى مضاعفاته؛ بحيث إنه يمنعها من الراحة والنوم والطعام. لكن هذا يقابله لذّة الشعور بامتداد الذات؛ حيث ستؤدّي وظيفتها بالأمومة، وهي تشعر بأنها ستكون أمّاً، وسيكون لها غبطة. لكن مع هذا الإحساس العالي تبقى أعراض الحمل ومتاعبه؛ حيث تزداد ضعفاً ومشقةً.

فالقرآن الكريم يريد أن يصوّر للولد معاناة الأمّ في حملها به، ويعمّقها في نفسه، فكم تتعب وتعاني! فلا تنس كل شيء. ثم إن البعض

من الأبناء بمجرد أن يتعرّضوا إلى مشكلة، أو أن يصطدموا بأية عقبة في الحياة، فإنهم سرعان ما يجزعون ويفقدون الصبر، ويرفعون أصواتهم: لماذا وُلدنا؟ ولماذا جاء بنا أبوانا إلى هذه الدنيا حيث البلايا والمصائب والمتاعب؟ فيبدؤون بالتذمّر وتحميل آبائهم مسؤولية ذلك:

ماخِرونِي يَوْمَ جِئْتُ الوجودَ ولم أُخَيَّرْ بَعْدَهَا إِذْ أعُوذُ
وسوف أمضي وأنا جاهلٌ نهائتي فيم وممّ الوردُ

مع أن هذا من غير الصحيح قوله، فنحن لسنا جاهلين بالواقع، فقد خلقنا الله تعالى لعلّة ولحكمة، فإنّ «الدنيا مزرعة الآخرة».

المبحث الثالث: الفصال والآثار الوضعية للرضاعة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ الفصال: الفطام من الرضاع، أي أي أن الطفل يُرضع سنتين، وأمّا ما زاد عليهما فهو يخضع لأحكام سنذكرها بعد قليل إن شاء الله. غير أنه لا يجب على الأم أن ترضع طفلها أكثر من سنتين لو أراد الزوج ذلك، ويجوز لها ذلك إن هي أرادت. والقرآن الكريم يوكد هنا على رضاعة الأم ابنها، لكن الذي نراه الآن والذي يحصل غالباً أن الأمهات إمّا أن يدفعن أطفالهن إلى المربيات ليرضعنه، أو أنهن يعوّدنه على اللبن الصناعي؛ بدعوى أنهن يرمين من وراء ذلك إلى المحافظة على رشاقتهن.

آثار الرضاعة الوضعية على الوليد

إن لبن الأم ضروري جداً للأطفال؛ حيث إنه يتوفّر على كلّ المواد الأساسية (الدهنية والنشوية والأملاح والمعادن والبروتينات والزيلايات) الضرورية لصحة الأطفال، خصوصاً في الأيام الأولى من

حياتهم؛ حيث إن المادة التي يفرزها الثدي تعتبر عاملاً مطهراً لمعدته، وتعطيه مناعة ضد مجموعة من الأمراض.

ومن حكمة الله تعالى أن لبن الأم يتناسب وحاجة الطفل، فالطفل الذي عمره شهر يمتاز لبنه بأن له كثافة معينة تختلف عن كثافة ذلك الذي عمره شهران. ثم إن الثدي يعطي الطفل حسب اشتهاؤه، ولا يعطيه أكثر من حاجته. كما أن لبن الأم يعطي الطفل الأمان من النزلات المعويّة والأمراض والمشاكل. فلبن الأم مصنع ومنظّم في غاية الدقة والإتقان.

وهي إلى ذلك تغذو وليدها مع اللبن العطف والحنان والرحمة والحبّ.

آثار الرضاعة الوضعيّة على الأم

أما بالنسبة للأم فإن عملية الرضاعة الطبيعيّة تؤدي فيها إلى امتصاص مضاعفات الحمل منها وإلى إعادة الرحم لحجمه الطبيعي، ومنع حدوث سرطان الرحم وسرطان الثدي. وهذا يحصل كلّه بعملية الرضاعة الطبيعيّة.

ثم إن عملية الرضاعة هذه هي التي تنشر الحرمة التي يقول فقهاء الإماميّة بأنها تنشأ من اللبن الذي يتناوله الطفل عبر التقام الثدي وامتصاصه. ولذا فإن الشريعة المقدّسة تؤكد على الأم ألا تهمل هذا الواجب.

أهداف تحديد الرضاعة بالعامين

وهنا أمر ينبغي الإلماح إليه، وهو أن قول الآية الكريمة: ﴿وَفَصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ لا يعني أنها لا يجوز لها أن ترضعه أكثر من سنتين فلو أرادت ذلك

جاز؛ إذ لا مانع منه. لكن القرآن نصّ على العامين لأهداف، منها:

الأول: عدم استحقاق الأجرة بعدهما

فالمرأة لا تستحق أجراً على الرضاعة لو طالبت به إذا كانت الرضاعة واقعة بعد تجاوز الرضيع العامين، بل لها أن تأخذ الأجر على الرضاعة خلال الستين فقط.

الثاني: درء النزاع فيما لو طالب الزوج بالرضاعة أكثر

أي لو اختلف الأب والأم وتنازعا حول الفترة التي يجب أن ترضع الأم فيها وليدها؛ فقال الأب: أرضعيه حتى بعد الستين. وقالت الأم: لا أرضعه بعدهما. فهنا يُرجع إلى الآية الكريمة: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾. أي أن المدّة هنا محدّدة ولا داعي معها إلى النزاع.

الثالث: بيان أجل نشر الحرمة

فإن الطفل الذي يرضع لمدة ستين من ثدي أمّه، ثم يُنقل إلى مرضعة لجفاف ثديها، وكان عند المرضعة بنت، فإن اللبن لا ينشر الحرمة هنا؛ لأن الرضاعة وقعت بعد الستين؛ وعليه فإن البنت التي رضعت معه لا تصبح أختاً، وبالتالي يجوز له أن يتزوج منها.

هذا على رأينا نحن الإماميّة، أمّا عند غيرنا فإنّ أبا حنيفة يقول: إن نشر الحرمة يستمرّ إلى الشهر الثلاثين، أي في مدّة ستين ونصف^(١).

أما البعض فيقول: إنه ينشر الحرمة من المرأة ولو كان عمر المرتضع (٢٠) سنة. وهذا رأي عائشة وعطاء والليث، مع أن أم سلمة وسائر نساء النبي ﷺ قد خالفنهم في الرأي، وأبين أن يدخل عليهن أحد بتلك

(١) الدر المختار ٣: ٢٢٩، المجموع شرح المهذب ١٨: ٢١٢.

الرضاعة حتى يكون قد رضع في المهد، وكذلك خالف عائشة جملة من الصحابة. ومستندهم في ذلك ما روي من أن سهلة بنت سهيل قالت: يا رسول الله، إنا كنا نرى سالمًا ولدًا فكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويرانني، وقد أنزل الله فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النبي ﷺ: «أرضعيه». فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها؛ فبذلك كانت عائشة تأخذ بنات أخواتها وبنات إخوانها يرضعن من أحبّت عائشة أن يراها ويدخل عليها^(١).

وهذه أحكام غير ناهضة ولا تقبلها بحال، والرواية معارضة بما هو أمتن سنداً وأقوى دلالة.

المبحث الرابع: متعلّق الشكر في ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾، فما هو المقصود بالشكر هنا؟ يقول المفسّرون: إن الشكر هنا يتوجّه إلى النعمة السببية، فمثلاً يتوجّه بالعبادة إلى نعمة الخلق. فهو هنا يتوجّه إلى النعمة السببية، حيث إن الإنسان يشكر الله تعالى؛ لأنه خالق، لكن لماذا نشكر الأبوين؟ وما هو شكرهما؟ وكيف يكون؟ فهنا أمران:

الأول: سبب شكر الأبوين

إن الله تعالى إنما أوجب علينا شكر الأبوين لأنهما السبب في وجودنا وحياتنا وبقائنا في هذه الحياة؛ حيث إنهما تحملا آلام الحمل والوضع والتربية والرعاية والإعالة كالأمن وظيفته. فيتعين إذن على الولد شكرهما.

(١) المغني ٩: ٢٠١، المجموع شرح المهذب ١٨: ٢١٢.

الثاني: كيفية شكرهما وماهيته

إن الشكر له مراحل، فهناك الشكر القولي، أي أن يقول الولد لأبويه مثلاً: جزا كما لله خيراً، فقد تعبتما وصبرتما وتحملتما الآلام من أجلي^(١). وهناك مرحلة عملية من الشكر، وهي التأدب بحضورهما، وألا يحدّ الابن النظر إليهما^(٢)، أو يفعل ما يسيئهما^(٣)، وألا ينظر إليهما بعين الغضب، وألا تبدر منه كلمة نابية إزاءهما^(٤). ولذلك أصبح عقوق الوالدين من الكبائر التي يؤخذ بها صاحبها؛ لأنه خلاف ما أمر به القرآن الكريم؛ حيث إنه أمر بشكرهما: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾. وهكذا فقد جعل الله شكرهما بعد شكره^(٥)، أي أنه يتوجه الشكر للوالدين مع شكره تعالى. فصحيح أن الله هو الذي خلق، لكن الوالدان هما السبب الطبيعي للخلق.

ولذا فإنه تعالى أعقب ذلك بقوله: ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾، وهو تعقيب بكلام فيه

(١) وكالدعاء لهما بما ورد عن الرسول ﷺ وآله الأطهار عليهم السلام، كدعاء الإمام السجادة عليه السلام

لأبويه، انظر الصحيفة السجادية الكاملة: ١٢٧ - ١٣٣ / ٢٤.

(٢) قال الصادق عليه السلام: «ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه يحدّ النظر إليهما». مشكاة الأنوار: ٢٨٤.

(٣) وقد سبقت الإشارة إلى أن الإمام السجادة عليه السلام كان يحترم أمه ويكرّمها غاية الإكرام، وكان يجلس معها على مائدة الطعام ويؤاكلها ويؤانسها، ولا يمدّ يده إلى الطعام معها، ولما سئل عن ذلك قال: «إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه فأكون قد عققتها». الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

(٤) قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ الإسراء: ٢٣.

(٥) كما قرن رضاه برضاهما، قال رسول الله ﷺ: «رضا الله كلّه في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما». شجرة طوبى ٢: ٣٧٤، الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٨٣، الدر المنثور ٤: ١٧٢، كشف الخفاء ١: ٤٣١ / ١٣٩٠.

جوّ من التهذيب، أي أنك أيها الإنسان راجع إلى الله الذي يعرف كيف كنت تعامل أبويك فيما إذا كانت معاملة حسنة أو معاملة سيئة، وسوف يجازيك ويكافئك على ذلك. فإذا لم ترع الوالدين ولم ترع أمرهما فمصيرك بيده، وهو الذي يتولى أمرك وحسابك.

المبحث الخامس: الإطلاق في الوصية بالوالدين

هذا هو الجوّ العام الآية، لكن نودّ أن نسأل سؤالاً آخر هو: لماذا يطلق القرآن في وصيته الولد بوالديه؟ أي أن القرآن الكريم عندما نصّ على توصية الولد بوالديه فإنما نص على الوالدين مطلقاً، مع أن هناك آباء وأمّهات ليسوا على المستوى المطلوب أحياناً، أي أن وظيفتهما حينئذٍ لم تكن أكثر من إخراج الولد الدنيا، ثم يكلونه إليها دون أن يكون لهما دور إيجابي في تربيته. ثم لماذا لم يوص في المقابل الوالدين اللذين يتصفان بما ذكرنا بولدهما؟

ونقول: إن القرآن الكريم لا يحتاج لأن يوصي الوالدين بالولد؛ لأن الشفقة على الولد تجري من الوالدين مجرى الدم من العروق، فإذا مرّت نائبة على الولد فإنها تصيب الأب والأمّ قبل أن تصيب ولدهما، وهذا المعنى مجبول عليه حتى الحيوان، وليس الإنسان فقط.

وفي تشريعنا الإسلامي في آداب الذبابة - حيث أبيحت لنا لحوم الحيوانات - أن هذه الحيوانات يكره أن تذبح أمام أبويها، ويروي المؤرّخون أكثر من حادثة في هذا الخصوص لحيوان يذبح ولده أمامه فيؤثر ذلك فيه، حيث يروى أن ناقة ذبح طفلها أمامها ثم ذبحوها فوجدوا صدعاً في كبدها من الأثر الذي أحدثه حزنها وألمها عليه. فالحيوان - كما الإنسان - يحسّ ويشعر؛ ولذا فإنه يستشعر الألم الذي يعتصره، كما

أن عنده شفقة على طفله. ويمكن مراجعة الكتب التي تعنى بالسلوك الحيواني لكل الحيوانات على اختلاف مستويات إدراكاتها. وهناك مسألة يثيرها الفسيولوجيون، وهي: هل إن إحساس الحيوان ناتج من الغريزة، أم لكمية محدودة من العقل؟ فنحن نرى حيواناً يقفز حفرة، فهل هذا التصرف ينبع من غريزته أم أن عنده نسبة من الإدراك؟ يميل العلم إلى أن له نسبة من الإدراك، وهذا ما أثبتته العلماء. وهذه النسبة من الإدراك هي التي تجعله يتألم ويشعر بطفله؛ لذلك فإن القرآن الكريم لا يحتاج لأن يوصي الوالدين بالولد؛ فالأبوان يعتزان بالولد غاية الاعتزاز؛ فهو روحهما التي بين جنبيهما؛ وهو الرباط الذي يربط بين القلبين المتنافرين.

وهذا الأمر يتضح أكثر من خلال الرجوع إلى المحاكم لمعرفة نسبة الطلاق التي تقع بين من لم ينجبوا أطفالاً بعد، حيث نجدها النسبة الأعلى بين المطلقين؛ لأن الأبوين إذا رزقا بطفل انخفضت نسبة الطلاق بينهما؛ لأنهما سيفكران - إن كانا واعيين - في أن الطفل سيضيع إن وقع الطلاق بينهما.

والولد ثمرة الفؤاد والريحانة، وخصوصاً الأب؛ فإنه إذا كان عنده أولاد فإنه سيعتز بهم ويفاخر، يروى أنه كان عمرو بن المنذر بن ماء السماء يسمى من شدة بأسه محرّقاً، وقد اجتمعت الوفود عنده مرة، فأخرج من لباسه بردين وقال: ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أحيمر فأخذهما فائتزر بواحدة وارتدى الأخرى، فقال له عمرو بن المنذر: أنت أعز العرب قبيلة؟ قال: نعم؛ لأن العز كله في معد، والعدد في معد ثم في نزار ثم في مضر ثم في تميم ثم في سعد ثم في كعب، فمن

أنكر ذلك فليناظرني .

فسكت الناس ، فقال عمرو بن المنذر: هذه عشيرتك كما تزعم ، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وعمّ عشرة ، وخال عشرة ، وها أنا في نفسي وشاهد العزّ شاهدي . ثم وضع قدمه على الأرض وقال: من أزالها من مكانها فله مئة من الإبل . فلم يقم إليه أحد ، فخرج بالبردين ، وضرب المثل بعزّه وببرديه^(١) .

فعامر بن أحيمر هذا يعتزّ بأولاده ويفتخر بهم أمام الملوك ، بل ويفاخرهم بهم . وهذا ليس عند العرب فقط ، بل هو موجود حتى عند أبناء الحضارات الأخرى كالحضارة الأوروبيّة ، حيث كان الأوروبيون يفتخرون بذلك .

مشروع الأسرة بين الإسلام والغرب

هذا مع أنه ربما يعترض أحد بأن هناك تحديداً للنسل فرضه العامل الاقتصادي ، وفي أوروبا نجد أن هناك عوامل أخرى غير العامل الاقتصادي أوجبت عليهم أن يقتصروا في الإنجاب على ولد واحد . ومن جملة هذه الأمور الحماية ، حيث إن النظام الحاكم فيها يوفر الحماية لكل أفراد الشعب ، فلا يحتاج الإنسان حينئذٍ لعشيرة تحميه ، أو لأولاد يدافعون عنه . فالنظام يوفر لمواطنيه كلّ أسباب الحماية ، في حين أننا نجد أن مسألة الحماية في بلادنا العربيّة وفي حضارتنا العربيّة الممتدة إلى الآن قد تكون غير موجودة ؛ حيث إن الحكّام يريدون المواطنين حماية لهم دون العكس .

(١) خزائن الأدب ١: ٤١٢ ، وقد مرّ نظيره في محاضرة (نظام تعدد الزوجات في الإسلام) .

فمسألة الاعتزاز بالأولاد كانت موجودة عند العرب منذ القدم، وموضع الشاهد في قصة عامر بن أحيمر أن الآباء يعتزّون بأولادهم ويفاخرون بهم. وهذا الأمر يجري حتى مع الأم أيضاً، فهناك مثلاً قصة تروى عن امرأة تعيش في مكان دُعي بعدُ باسم وادي السباع، وهو موضع بين البصرة والكويت قتل فيه الزبير، وقد سمي وادي السباع؛ لأن هذه المرأة كانت ضاربة خبائها فيها، فجاءها رجل يروم الاعتداء عليها، فكان أن نادى: يا ذئب يا فهد يا كلب يا نمرة، وكان هؤلاء أبناءها، وكان عددهم سبعة أسمتهم كلهم على أسماء السباع، فجأؤها يتراكون، فهرب ذلك الرجل منهم. فسمي الوادي بوادي السباع من حينها لذلك.

فالأبناء إذن موضع اعتزاز من الأبوين وإن اعتزاز الأب بهم أكثر. وهذا ما انعكسه حضارتنا، حيث إن الولد يُدعى باسم أبيه، فيقال: (فلان بن فلان)، أما إذا أرادوا احتقار أحد فإنهم ينسبونه لأمه، كقولهم: (يابن الزرقاء). والغريب أن أحد المفسرين حينما يفسر الآية الكريمة: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾^(١) يقول: إن الله تعالى يأمرنا أن ندعو الأبناء لأبائهم لكن نبي الله عيسى عليه السلام ليس له أب؛ ولذلك فإنّ الناس يدعون يوم القيامة لأُمَّهاتهم لأجل النبي عيسى عليه السلام، ويدعى الحسن والحسين باسم أمّهما فاطمة تشريفاً لهما.

والذي يذكره هذا المفسر غير مقبول، بل الصحيح خلافه وأنه ليس كذلك؛ فإن فاطمة عليها السلام وإن كانت ابنة رسول الله ﷺ لكن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أشرف الناس وأفضلهم بعد رسول الله ﷺ، وذلك

(١) الأحزاب: ٥.

بنصّ رسول الله ﷺ عليه حيث قال لفاطمة عليها السلام: «زوّجتك خير الناس من بعدي». والإمام الحسين عليه السلام نفسه يرتجز ويفتخر بكونه ابن الإمام علي عليه السلام (١).

لماذا أوصى الله الأبناء بالآباء وليس العكس؟

ونرجع للموضوع فإنّ الآباء يعتزّون بالأولاد؛ إذ أن هناك ترابطاً قهرياً بينهم وبين أبنائهم. ونسأل سؤالاً ثالثاً هو: لماذا يوصي الله تعالى الأبناء بآبائهم ويشدّد في ذلك دون العكس؟ ونقول: إنّ الأمّ والأب يحنون على الولد لرعايته وتربيته، أما الولد فليس عنده ذلك الحسّ؛ ولذلك فإن الله تعالى يوصيه بأبويه، ويذكره بأنه إذا عقّهما فإنه سيقع في فعل الكبيرة، وسيكون جزاؤه غضب الله. ثم إن الهدف من التوصية هو حماية الأسرة وخلق نوع من الترابط والموادّة والرحمة فيها. ولذلك تجد أن الولد الذي ينشأ في أسرة متوازنة ومنظمة يكون قرّة عين لأهله ويصبح ريحانة لهم.

(١) فهو عليه السلام القائل:

أنا الحسين بن علي أحمي عيالات أبي
آليتُ ألا أنسنتني أمضي على دين النبي
مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٥٨، بحار الأنوار ٤٥: ٤٩، مقتل الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٩٧.
والقائل:

أنا الحسين بن علي بن أبي طالب البدر بأرضي العرب
ألم تروا وتعلموا أن أبي قاتل عمرو ومبير مرحب
ولم يزل قبل كشوف الكرب مجلياً ذلك عن وجه النبي
أليس من أعجب عجّب العجب أن يطلب الأبعد ميرات النبي
والله قد أوصى بحفظ الأقرب

بحار الأنوار ٧٥: ١٢٤.

ونحن الليلة إذ نمرّ بذكرى برعم من براعم الهاشميين وهو علي الأكبر ابن الإمام الحسين عليه السلام، فلنتعرّف على مزاياه، إن هذا الشاب نشأ ورُبي في أجواء النبوة، وقد تأثر الإمام الحسين عليه السلام عليه تأثراً بالغاً حينما برز للقتال؛ ولذا فإنه عليه السلام قال: «اللهم اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إلى وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قدداً، ولا ترضِ الولاة عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقتلوننا»^(١).

ودعاؤه عليه السلام هذا في حقيقته تعامل مع الله وليس مع قضية عاطفية، فهو بدافع موضوعي بحت؛ فلقد كان كرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فإنه (صلوات الله تعالى عليه وعلى آله) كان دمث الأخلاق، ولا وصف فوق وصفه تعالى له^(٢)، وكان علي الأكبر عليه السلام كذلك، فقد تميّز بمزايا كانت على جانب كبير من حيث الآداب والحياء والكرم والشجاعة.. كان عليه السلام يحمل هذه الخواصّ وذلك الوجه المشرق الطافح بالرحمة والدعة والموودة، فإذا تكلم فكأنما يفرغ عن منطق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو يتفجّر بذلك الإيمان بالله.. رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الذي يقول لعمّه أبي طالب عليه السلام: «والله ياعم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت»^(٣). وقف الإمام الحسين عليه السلام وهو في طريقه من المدينة إلى كربلاء في أحد

(١) الإرشاد ٢: ١١١، بحار الأنوار ٤٥: ٤٢، تاريخ الطبري ٤: ٢٩٣، ٣٤٥، تهذيب التهذيب

٢: ٣٠٤، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٩،

(٢) قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ القلم: ٤.

(٣) بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، وقريب منه ما في تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

الأماكن، فهوّمت عيناه، ثم انتبه وهو يقول: « لا حول ولا قوة إلا بالله، إنّ الله وإنا إليه راجعون ». فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي، لماذا استرجعت؟ قال: « يا بني رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسرون والمنايا تسير بهم. فعلمت أنها أنفسنا نعتت إلينا ». فقال الأكبر عليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: « بلى والذي إليه مرجع العباد ». قال: إذن لا نبالي أن نموت محقّقين. فاحتضنه الحسين عليه السلام وقال: « جزاك الله من ولد خيراً ». ثم أخذ يقبله ويلثمه (١).

وهكذا كان علي الأكبر عليه السلام أنموذجاً سامياً، وعلى جانب رفيع من التربية التي أرادها رسول الله ﷺ لأهله وحباهم بها. وكان هذا سبباً في أن يأخذ مصرع علي الأكبر من الإمام الحسين عليه السلام مأخذاً عظيماً لم يأخذه منه مصرع قطّ، فقد أثر مصرعه عليه تأثيراً بالغاً، حيث إنه عليه السلام كان واقفاً يرقب المعركة، وكان كلما سقط أحد أصحابه حمله وأبّنه ودعاه خيراً، لكن لم يذكر لنا التاريخ أنه عليه السلام في مصرع من المصارع نزل من علي فرسه وتمدّد في ساحة الحرب مع الصريع إلا في مصرع ولده علي الأكبر. وهذه مكانة الولد التي لا تعدلها مكانة أو حالة.

وكان الأمر أنه لما أراد الأكبر النزول إلى الساحة أقبل وتعلّق بثوب الحسين عليه السلام وقال: أبا عبد الله، أراك تطلب الناصر، أفتأذن لي يابن رسول الله بأن أنزل إلى القتال؟ فنظر إليه الحسين عليه السلام طويلاً ثم قال: « ادن مني نور عيني ». فلمّا دنا منه قال له: « هل أنت مصرّ على النزول ». قال: بلى. فشدّ عليه سيفه ورداءه، ومدّ يديه، يقول بعض المؤرخين: « اعتنقه حتى سقطا إلى الأرض ». وهي عبارة تنبئ عن عظيم تأثيره عليه السلام، وهو أمر في

(١) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

غاية الإيلام أن يشدَّ الإمام الحسين عليه السلام ابنه إليه من عنقه ويودَّعه ثم يقول: «ابرز بني، بارك الله فيك». فبرز وعينا أبيه الإمام الحسين عليه السلام لا تفارقانه، وراح يسمعه وهو يرتجز:

أنا عليُّ بنُ الحسينِ بنِ عليٍّ نحن وبِيتِ اللَّهِ أولى بالنبِيِّ
من شبتِ ذاكِ ومن شمرِ الدنِيِّ أضربُكم بالسيفِ حتى يرتوي
ضربَ غلامٍ هاشميٍّ علويٍّ ولا أزالُ اليومَ أحمي عن أبي
والله لا يحكمُ فينا ابنُ الدعيِّ ^(١)

وكانت ليلتي في المخيم (على الرواية التي تشير إلى أنها كانت موجودة في واقعة الطف مع الإمام الحسين عليه السلام)، وتتحسَّس مايجري على ماولداه من خلال تعابير وجه الإمام الحسين عليه السلام، وفجأة رأته وجهه قد تغير، وكان قد برز إليه بكر، فقالت: أبا عبد الله، إني أرى وجهك قد تغير، هل أصيب ولدي بشيء؟ قال: «لا، ولكن برز إليه من يخاف منه عليه، ادعي لولدك». فرجعت إلى المخيم وجرّدت خمارها ورفعت إلى السماء رأسها وقالت: إلهي بصبر أبي عبد الله، إلهي بغربة أبي عبد الله، ياراد يوسف على يعقوب اردد عليّ ولدي:

طبّت الخيمة الغريبه تبجي وعلى ابنيها بريبه
وتوسلت لله بحبيبه بالحسين وشمابه مصيبه
ياراد يوسف من مغيبه ليعكوب ومسجن نحيبه
أريدك علي سالم تجيبه

(١) الأماي (الصدوق): ٢٢٦، شرح الأخبار ٣: ١٥٣، الإرشاد ٢، ١٠٦، مقاتل الطالبين: ٧٦، سير أعلام النبلاء ٣: ٣٠٢، ينابيع المودة ٣: ٧٨.

ثم رجع إلى أبيه عليه السلام حاملاً رأس بكر، وقد أصابته جراحات كثيرة، فقال: يا أبة العطش قد قتلني، وثقل الحديد أجهدني، فهل إلى شربة ماء من سبيل أتقوى بها على الأعداء؟ فبكى الإمام الحسين عليه السلام وقال: «يا بني يعزّ علي محمد صلى الله عليه وآله وعلي بن أبي طالب عليه السلام وعليّ أن تدعوهم فلا يجيبوك، وتستغيث بهم فلا يغيثوك. يا بني هات لسانك». فأخذ لسانه ووضعته على لسان أبيه فإذا هو كالخشبة.

ثم أمره عليه السلام بالتعجيل إلى أمّه، وكانني به عليه السلام يقول له: يا بني لا سبيل إلى شكوى العطش، فهناك شيء أهمّ من العطش، بادر إلى الخيمة.. إلى أمك قبل أن تموت. فبادر إلى أمّه وأخذ برأسها ووضعها في حجره.. نضحها بدموع عينه، ففتحت عينيها واعتنقته، لكنه خرج مرّة أخرى وعينا الإمام الحسين عليه السلام تلاحقانه، ودعاؤه له يرافقه: «ارجع إلى قتال عدوك، فإني أرجو أنك لا تمسي حتى يسقيك جدك بكأسه الأوفى شربة لا تظمأ بعدها أبداً». فنزل إلى الساحة وهو يرتجز:

الحربُ قد بانَتْ لها الحقائقُ وظهرت من بعدها مصادقُ
والله ربُّ العرشِ لا نفارقُ جموعكم أو تغمدَ البوارقُ^(١)

وراح يزود الخيل ويصدّ بصدره كتائب القوم إلى أن سقط على الأرض، ففوجئ الإمام الحسين عليه السلام بالصوت: عليك مني السلام أبا عبد الله. أقبل إليه إلى أن وصل إلى مصرعه.. ألقى بنفسه عليه وأخذ برأسه ووضعها في حجره:

(١) العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ٢٨٦.

فجثا وأقنع للسماء بشيية مغمورة بمدامعٍ ودماءٍ
يا عدلُ قد قتلوا شبيهه محمد أنزلُ بساحتهم عظيمَ بلاءٍ

حاول الإمام الحسين عليه السلام أن يحمله - وهو أول قتيل من الهاشميين - فلم يستطع، فالتفت إلى فتيلانه من الهاشميين وأمرهم بحمله قائلاً: «احملوا أخاكم والله لا طاقة لي على حمله». فحملوه إلى المخيم، ورجلاه تخطان الأرض والإمام الحسين عليه السلام وراءهم، حتى وضعوه بين يدي الفسطاط الذي كانوا يقاتلون أمامه^(١). فلما وصل إلى الخيمة جلس عنده، وجاءت أمه فوقعت عليه تحتضنه:

بنيّ اقتطعتك من مهجتي علام اقتطعت جميل الوصال

* * *

وما أمّ خشفٍ أدركته على ظما وخوف حبالات نأت بالفلا دُعرا
بأوجد منها حين للسبب عاينت ومنه أديم الوجه حزناً قد اصفرّاً



(١) انظر: الإرشاد ٢: ١٠٦، تاريخ الطبري ٤: ٣٤٠.

﴿١٧﴾

التكافل الأسري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا
حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ
وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الشريعة الإسلامية ونظام التكافل

تكفلت الشريعة الإسلامية بإيجاد كل أنماط التكافل وأقسامه في محيط الأسرة لتوفير ما يمكن أن تفنقر إليه، فالأسرة هي اللبنة الأولى والأساس في بناء المجتمع؛ لأنه - كما هو معروف - عبارة عن مجموعة من الأسر. ونظام الأسرة هو النظام الطبيعي الفطري.

وقد حدثت محاولات عدّة للقضاء على نظام الأسرة، فقد دعا أفلاطون في جمهوريته إلى الزواج المُشاع، وأن يصبح المجتمع إباحياً، وكذلك دعا لينين في تشريعه إلى إشاعة الأسرة. لكن الدعوتين - وغيرهما

(١) الأحقاف: ١٥.

مما سبقهما أو جاء بعدهما من الدعوات - لم تنجح في ذلك؛ لأن نظام الأسرة نظام فطري كما قلنا.

وقد استعرضتُ قبل حوالي سنتين أو ثلاث سنوات، أقسام الزواج السائدة في العالم، وذكرت رأي المشرع الإسلامي في نظام الأسرة، وأنه يعتبر أمثل النظم عند دراسته دراسة موضوعية بغض النظر عن كوننا مسلمين. وأنا الآن أغتتم فرصة العلاقة بين علي الأكبر وأبيه الحسين عليه السلام لأدرس بعض ملامح الأسرة الإسلامية، فنطلع على الأجواء القرآنية التي عاش فيها أئمة أهل البيت عليهم السلام، وكيف أن هذه الأجواء القرآنية ترسم لنا نظام الأسرة المستقرة القائمة على أسس التعامل الصحيح بين أبنائها. فالأسرة إذن كيان فطري طبيعي لا يستغني عنه المجتمع، ولا يمكن أن نعوض عنها بأية مؤسسة من المؤسسات.

وقد يتصور البعض أن دور الحضانة يمكن أن تحل المشكلة، فلن نعود محتاجين إلى إشغال المرأة بتربية الطفل في البيت، فكل خمسين طفلاً في دار الحضانة مثلاً تُشرف على تربيتهم امرأة واحدة.

وهذا كلام بعيد عن الواقع، بل فيه الكثير من التّجني على الحقيقة؛ لأن دور الحضانة لا يمكن أن توفر العناية اللازمة للطفل كما توفرها الأم؛ ذلك أن الأم الوالدة نفسها قد لا تستطيع أن توفر ما يلزم لابنها الوحيد، فكيف بامرأة أجنبية تشرف على تربية مجموعة من الأطفال؟ وهل تحنو هذه المرأة على الطفل كما يحنو عليه قلب الأم؟ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المرأة في دور الحضانة لو فرضنا أنها استطاعت أن توفر للطفل حاجاته الجسدية، فهل يمكن أن توفر له الحاجة النفسية؟ كلا، لا يستطيع ذلك أحد غير الأم، والصحة النفسية للطفل تتوقف على راحة

الأم .

وقد ثبت علمياً أن مداعبة الأم للطفل ، وتقبيّلها إياه ، وما شابه ذلك هو الذي يوفّر له الصحّة النفسيّة ، وبدون ذلك ينشأ الطفل ناقصاً من هذه الناحية .

المبحث الثاني: مفهوم التكافل وأقسامه

إذن فالتشريع الإسلامي يحاول أن يحفظ التكافل في محيط الأسرة . فما هي أقسام التكافل التي حرص الإسلام على توفيرها في هذا المحيط ؟ هناك ثلاثة أقسام روعيت في هذا الباب ، هي :

١ - التكافل المادّي .

٢ - التكافل الأخلاقي .

٣ - التكافل الاجتماعي .

وهذه الأقسام الثلاثة يحرص المشرّع الإسلامي على توفيرها في جوّ الأسرة ، والآية الكريمة تنظر إلى ذلك حينما تقول: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ ؛ إذ يرد هنا سؤال هو: ما نوع الألف واللام في كلمة ﴿الْإِنْسَانَ﴾؟ هل هي للعهد أو للجنس أو للطبيعة؟ ذلك أن الألف واللام لها في اللغة العربية هذه المعاني الثلاثة ، فأيهما الذي يتناسب مع جوّ الآية؟ والداعي لهذا السؤال هو أن البعض قال: إنها للعهد ، والإنسان المعني في الآية إما أن يكون الحسين عليه السلام أو الخليفة الأول . ولكن جوّ الآية جوّ عام ، والألف واللام لاستغراق الجنس ، أي جنس الإنسان . ونفهم من هذا أن العلاقات الأسرية ليس من الضروري أن ترتبط بعقيدة وإن كان الإسلام قد عالجهما عن طريق الشريعة . فهي علاقة إنسانية قبل أن تكون علاقة يُحتمّها

الشرع، فلو كان لأحد الناس أم مشركة، أو أب مشرك، فيجب عليه برّهما والإحسان إليهما^(١).

يقول الأصوليون: كل حكم يتعلّق على وصف يصبح الوصف علة له، أي لذلك الحكم. فمثلاً عندما أقول: أكرم العلماء، فالحكم مرتبط بقيد العلم الذي وصفتهم به، فيصبح العلم علة للإكرام. وهنا في الآية تكون الوالدية علة للمعاملة بالإحسان، بغض النظر عن كون الأبوين مسلمين أو مشركين أو ملحدين أو يهوديين، أو غير ذلك. والمناطق في ذلك أنها مسألة إنسانية لها علاقة ببناء وربط أسرة، والأسرة ليست لبنة إسلامية فقط وإنما هي لبنة إنسانية.

والمشرّع الإسلامي ما جاء ليحتكر الحياة والمجتمعات لنفسه، وإنما جاء باباً لتنظيمهما، وأحبّ أن يدخل الناس إلى المجتمع عن طريق هذا الباب، وإلا فالإسلام ليس عنده تأزم أو نظرة ضيقة. ولذلك نلاحظ أن الإسلام لا يقف في تشريعاته من العقائد الأخرى موقفاً سلبياً إلا من المشركين؛ لأن المشرك لا يلتزم بقيم أو مبادئ أبداً.

إذن بدأت الآية بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾، وهذه اللفظة تفيد الحكم الوجوبي الذي لا اختيار فيه، أي أمرنا الإنسان بالإحسان إلى الوالدين.

(١) قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي سِمَانٍ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ لقمان: ١٤ - ١٥.

وقال الإمام الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ - الرحمن: ٦٠ - إنها «جرت في الكافر والمؤمن والبرّ والفاجر». تفسير نور الثقلين ٥: ١٩٩ / ٥٨. فهي مع الأبوين من باب أولى.

حقوق الولد في الإسلام

ويفترض المشرع الإسلامي حقوقاً للولد قبل هذا الواجب، فيقول: «يلزم الوالدين من العقوق لولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما»^(١)، فكيف نتصور أن الولد يُعقَّ؟ إن هذا الأمر يتعلق بمعرفة الحقوق المترتبة للولد، والتي منها:

- ١- اختيار الرحم الطاهر. فأول ما يُعقَّ به الولد اختيار الأم غير الطيبة، فينبغي أن نختار له الحجر النظيف الطاهر؛ لكي ينشأ نظيفاً طاهراً.
- ٢- اختيار الاسم الحسن. فللولد أن تحسن تسميته^(٢).
- ٣- أن تحسن تربيته. وتبدو الصعوبة هنا أكثر، فمسألة التربية هامة، فالأب اليوم يخرج من الصباح ولا يعود حتى المساء، فلا يتسع وقته لتربية الولد. ولكن علينا على الأقل أن نأتي من هذا الأمر ما نستطيعه؛ عملاً بقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بشيء، فأتوا منه ما استطعتم»^(٣).

مراحل تربية الولد

وهناك مراحل حددها الإسلام لتربية الولد، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «احمل صبيك حتى يأتي عليه ست سنين، ثم أدبه في الكتاب ست سنين، ثم

(١) الكافي ٦: ٤٨/٥، الفقيه ٣: ٤٨٣/٤٧٠٥، ٤: ٣٧٢/٥٧٦٢، تهذيب الأحكام ٨:

٣٨٦/١١٢، كنز العمال ١٦: ٤٤٤/٤٥٣٤٤.

(٢) قال ﷺ: «سموا أولادكم أسماء الأنبياء، وأحسن الأسماء عبد الله وعبد الرحمن».

وقال ﷺ: «من حق الولد على والده ثلاثة: يحسن اسمه، ويعلمه الكتابة، ويزوجه إذا

بلغ». انظر مكارم الأخلاق: ٢٢٠.

(٣) رسائل الشريف المرتضى ٢: ٢٤٤، بحار الأنوار ٢٢: ٣١، مسند أحمد ٢: ٢٤٧، ٢٨٥،

٤٢٨، ٥٠٨، صحيح البخاري ٨: ١٤٢.

ضمّه إليك سبع سنين فأدبّه بأدبك، فإن قبل وصلح، وإلا فخلّ عنه»^(١).

وهذه النظرية هي الأقرب لأحدث النظريات العلمية.

إن وجوه المحيط اليوم هي التي تربّي الولد، وأول هذه الوجوه الأبوان، ثمّ المدرسة، فهي تنشئ أخلاقه وتبني صفاته ومعارفه ومعلوماته، ثم المجتمع الذي يعيش به الولد، ثم وسائل الإعلام التي يعيش معها كالتلفزيون والراديو والكتاب. وكلّها تغذّيه، وتغلغل عنده ألواناً من المعارف والمهارات والأفكار، فيصبح موقف الأب موقفاً بسيطاً جداً، خصوصاً الأب والأم المشغولين دائماً. فالمسؤولية هذه الأيام تتّجه بالدرجة الأولى للدولة، ولا قيمة لكلامنا ولو ملأنا الدنيا به، فالناس يلقّونها العمل آباءً وأمّهاتٍ، وليس للولد من يقوم على تربيته.

والمشكلة الكبرى أن المعارف الإسلامية قد أصبحت اليوم في كثير من البلدان الإسلامية نمطاً غير مرغوب فيه، أو معاقباً عليه، وكأن القرآن الكريم لم ينزل بين أظهرنا. هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية فالمصيبة أعظم، فالأحكام الإسلامية غريبة في بلدان المسلمين؛ فالإقتصاد الإسلامي يسير وفق النمط الأوروبي، والعلاقات الاجتماعية تسير على أنماط مستوردة. فأصبح الإسلام غريباً كما عبر عنه النبي ﷺ بهذه الجملة الموجزة: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً»^(٢).

أقسام التكافل في الإسلام

نعود الآن إلى أقسام التكافل التي ضمنها الإسلام: وهي:

(١) مكارم الأخلاق: ٢٢٢، بحار الأنوار ١٠١: ٩٥ / ٤١.

(٢) المجازات النبوية: ٣٢ / ١٣، مسند أحمد ٤: ١٧٣، صحيح مسلم ١: ٩٠.

الأول: التكافل المادي

فإن كان الأب والأم لا يملكان شيئاً والابن يملك فإن نفقتهما تتعين عليه. وانظر إلى تعبير القرآن الكريم حيث استخدم لفظة الإحسان الذي يتعدى الكفاية في النفقة، فالابن الذي يلبس اللباس الفاخر عليه أن يراعي ما يلبس أبواه.

كانت أم الإمام السجاد عليه السلام قد توفيت في نفاسها به، فرثته جارية للحسين عليه السلام، فكان يجلس معها على مائدة الطعام فلا يمدّ يده إلى الطعام وهي تأكل، وكان يسأل: أليس من البر أن تؤاكلها؟ فيقول: «إني أكره أن تسبق يدي إلى ما سبقت عينها إليه، فأكون قد عقتها»^(١).
فالإحسان إذن هو النفقة الحسنة.

وإن كان الابن لا يملك والأبوان يملكان، فهما مسؤولان أيضاً عن النفقة عليه. فالإسلام رسم للتكافل المادي في نطاق الأسرة حدوده، وضع له قوانينه ونظمه وضوابطه.

الثاني: التكافل الأخلاقي

ونظمه في محيط الأسرة يبينها قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا﴾^(٢).

حبس الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي وأباه خالد بن يحيى في وقت الشتاء البارد، ووضعهما في مطبق^(٣) مظلم بارد، وكان خالد كبيراً في السن، ويحتاج إلى الماء الساخن للوضوء، ولم يكن عنده في السجن

(١) الخصال: ٥١٨ / ٤، مكارم الأخلاق: ٢٢١، مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٠٠.

(٢) الإسراء: ٢٤. (٣) سجن مظلم، أو زنزانة.

سوى قمقم من نحاس فيه ماء للشرب، فكان ابنه الفضل يضع هذا القمقم على ضوء الشمعة من أول الليل حتى الصباح ليتوضأ به أبوه. وهذا الفعل يعدّ من الصور المشرفة في الإحسان والبر.

أما الأمّ فمهما حاول الإنسان أن يقابلها خلقياً فلن يتمكن من أن يقابل لحظة من اللحظات التي بعثت فيها في نفسه الشعور بالبرقة والعطف، وملاؤها محبة ومودة، يقول أحدهم:

أُمِّي تَجْعَدُ وَجْهِي وَانْقَضَى الْعُمْرُ	وَلَمْ يَزَلْ مِلاءَ أَنْفِي جَيْبُكَ الْعَطْرُ
عَلَيْهِ مِنْ لَبَنِ الثَّدْيَيْنِ بَاقِيَةٌ	وَمِنْ شِفَاهِي وَمِنْ أَقْدَانِهَا أَثْرُ
أُمَاهُ إِنْ كَانَتْ الْجَنَاتُ مَصْدَرَهَا	مِنْ تَحْتِ رِجْلِكَ فِيمَا يَذْكُرُ الْخَبْرُ
فَمَا بِمِصْدَرِكَ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ	يُظَلُّ أَكْبَرَ مِمَّا تَحْدِسُ الْفِكْرُ ^(١)

إذن مهما يعمل الإنسان مع الأم لتجسيد التكافل الخُلقي فلن يستطيع أن يؤدّي ذلك اللون من العطف والحنان. فلا تتصوّر أن القرآن الكريم يكلفنا بما لا يطاق عندما يقول لنا: «وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ»^(٢)، فحينما يكلفنا بأن نُبدي نوعاً من الآداب ونحن نجلس بين يديهما؛ فلأن هذا المعنى يغدّي عند الإنسان نوعاً من الكرامة، وسوف يغدّيها هو لأولاده أيضاً.

ومن التكافل الخُلقي ألاّ يحدّ النظر إليهما^(٣)، وأن يكون رقيقاً في عباراته معهما بأن يستخدم العبارات التي تتسم بالذوق والأدب والخلق.

(١) ديوان المحاضر ٢: ٦٦. (٢) الإسراء: ٢٤.

(٣) قال الصادق عليه السلام: «ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه يحدّ النظر إليهما». مشكاة الأنوار: ٢٨٤.

والإسلام يحرص على التكافل الخلفي من الطرفين، يقول النبي ﷺ: «أحبوا الصبيان وارحموهم، وإذا وعدتموهم شيئاً ففوا لهم؛ فإنهم لا يدرون إلا أنكم ترزقونهم»^(١).

ورأى ﷺ شخصاً يقبل أحد أولاده فيما ترك الآخر وهو ينظر إليه، فقال له ﷺ: «فهلأ ساويت بينهما»^(٢).

وجاء أحد الأشخاص إلى النبي ﷺ يحمل وصيته وقد أوصى لأولاده ولم يساو بينهم، فنبذ له النبي ﷺ وصيته وقال: «خذها، ولا تُشهدني على جور»^(٣).

فالتكافل الخلفي ينبغي أن يكون سائداً في الأسرة، وإلا فإن الأسرة إذا لم يكن فيها تبادل في العامل الخلفي فإنها ستتحول إلى جحيم، خصوصاً إذا استخدمت فيها العبارات النابية من الأب أو الأم أو الأبناء. ولذلك يحرص القرآن الكريم على تأكيد جانب البرّ والرعاية للوالدين. والروايات في هذا المورد لا حدود لها، حتى إن بعضها يقول حكاية عن الحديث القدسي: «مَنْ بَرَّ وَالديه وَعَقَنِي كَتَبْتَهُ بَارًّا»^(٤).

فالجانب الخلفي إذن فوق الحدود الدنيا للتعامل، وهو أن تُشعر الأب

(١) الكافي ٦: ٤٩ / ٤، الفقيه ٣: ٤٨٣ / ٤٧٠٢، تهذيب الأحكام ٨: ١١٣ / ٣٨٩.

(٢) مكارم الأخلاق: ٢٢٠، وقال ﷺ: «قبلوا أولادكم؛ فإنه لكم بكل قبلة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين خمسمئة عام». وقبل ﷺ الحسين عليه السلام، فقال الأقرع بن حابس: إن لي عشرة من الأولاد ما قبلت واحداً منهم. فقال له ﷺ: «ما عليّ إن نزع الله الرحمة منك!». انظر مكارم الأخلاق: ٢٢٠.

(٣) مرّ أنه بشير أبو النعمان بن بشير، انظر: ج ١ ص ١٥٩ - ١٦٠، ج ٢ ص ٣٠٠ من كتابنا هذا.

(٤) لم نثر عليه، لكن وردت أحاديث كثيرة في الحث على برّ الوالدين، منها قوله ﷺ: «من برّ والده زاد الله في عمره». روضة الواعظين: ٣٦٨، مستدرک وسائل الشيعة ١٥: ٦٩ / ١٧٩٢٥، الأدب المفرد: ١٦، المستدرک على الصحيحين ٤: ١٥٤.

بأبوتّه، وأن يخرج من الدنيا وهو يشعر أنه قرير العين، وأنه لم يمت؛ إذ بقي في الدنيا امتداده الطبيعي، وهو الولد البارّ.

الثالث: التكافل الاجتماعي

ثم يأتي بعد ذلك التكافل الاجتماعي، وهو النصرة والرعاية، والصلة والعيادة عند المرض، وأنماط السلوك الاجتماعي كافة التي يفترض الإسلام أن تتوفر داخل الأسرة. وهي كثيرة إلى حدّ أنها تستطيع أن تخلق مجتمعاً متوازناً قائماً على أساس التوادّ والتعاطف والتراحم^(١).

المبحث الثالث: في أحوال وآلام الحمل والوضع ومدّتهما

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾، وقد يسأل سائل فيقول: كيف حملته أمّه كرهاً، ونحن نعرف أن الولد يتكوّن والأبوان في أحسن ساعاتهما؟ يقول المفسرون: إن هذا من باب تسمية الشيء باسم صيرورته، أي ما يؤول إليه. فمن أقسام الحركة الحركة من القوّة للفعل، فمن يملك بيضة ملقحة يستطع أن يقول: إنني أملك فرخ دجاج؛ لأن هذه البيضة ستؤول إلى ذلك وتصير إليه.

وهذا أشبه بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾^(٢)، ونحن نعلم أن الصور لم ينفخ فيه بعد لكنه تعالى أنزل المضارع بمنزلة الماضي لأنه متحقق الوقوع، أي أن الصيرورة ستنتهي إلى أن الصور في ذلك اليوم سوف

(١) قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنین فیما بینهم کمثل البنیان یمسک بعضه بعضاً ویشدّ بعضه بعضاً». عوالي اللآلی: ١/ ٣٧٧ / ١٠٧.

وقال ﷺ: «مثل المؤمنین فی توادّهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». مسند أحمد ٤: ٢٧٠.

(٢) الكهف: ٩٩، يس: ٥١، الزمر: ٦٨، ق: ٢٠.

ينفخ فيه دون إخلاف .

وكذلك في قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا﴾ فإن الأمر سيتهي إلى أن تحمله أمه كرهاً، وأنه سوف يحرمها في يوم من الأيام من الاستقرار والنوم والراحة والهدوء، وسوف تعثرها ألوان من مشاكل الحمل وآلامه. دخل أحدهم يوماً على النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله إن أمي كانت سيئة الخلق. فتأذى النبي ﷺ منه وغضب، وقال: «أكانت سيئة الخلق حين حملتك؟ أكانت سيئة الخلق حين أرضعتك حولين؟» إلى أن قال الرجل: أرأيت لو حملتها على عاتقي وحججت بها، أكنت قاضياً حقها؟ فقال ﷺ: «لا، ولا تطلقه»^(١).

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، أي ولدته. وليس يخفى عليك ما لساعة الولادة من ألم، حتى إن بعض الفقهاء يذكر أن لها أجر الشهيدة إن ماتت ساعة الوضع^(٢)، أي ثوابه وليس حكمه؛ لأن الشهيد يقاتل في ساحة الحرب دفاعاً عن المجتمع وهذه تجاهد في ساحة أخرى دفاعاً عن المجتمع، فهي تدخل للمجتمع امتداداً النوع، وترؤده بمن سيحمل السلاح ويدافع عنه وربما يستشهد دونه. ولذلك أراد الإسلام من الولد أن تشكل هذه اللحظات العصبية مساحة من حساباته، ويحاول أن يذكره بما مرّ على الأم من ساعات الحمل والوضع.

المبحث الرابع: نظرية تأثر الولد بأمه

ثم قال تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، وهذه هي سنوات

(١) المبسوط (السرخسي) ١٠: ١٥٠ - ١٥١.

(٢) انظر صراط النجاة ٢: ٦٠ - ٦١ / السؤال: ١٧٢.

الرضاعة التي يبقى فيها الطفل ملتصقاً بصدر أمه تغذوه وترضعه وتغدق عليه من عطفها وحنانها. وعندما جاء الإسلام يحمل هذه النظرية فإنه قد صدم بها موروثات العرب؛ فقد كانوا يتصوّرون أن المرأة ليس لها أثر في عملية تكوّن الجنين، وإنما هي كالصندوق، تحمل الطفل وتضعه فقط، والولد ابن أبيه^(١). فجاء القرآن الكريم وصحّح هذه النظريات المخطوءة. دخل الحجّاج يوماً إلى بيته فسمع هنداً إحدى نساءه تقول:

وما هندُ إلا مُهرةٌ عربيّةٌ سليلةٌ أفراسٍ تحلّ لها بغلٌ
فإن ولدتُ مُهراً فللّه دُرّها وإن جاء إقراًفاً فما أنجب الفحلُ^(٢)

ويقول المأمون:

لا تزدريّن فتىً من أن تكون له أمٌ من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمّهاتُ الناس أوعيةٌ مُستودعاتٌ ولأنساب آباء^(٣)

وهذا التصوّر عن المرأة غير صحيح تماماً؛ لأنه يلغي دورها في عملية تكوين الجنين، فهي عندهم وعاء مستودع لا أكثر، والحال أن الأمر بالعكس، فالولد يأخذ من أمه أكثر ممّا يأخذ من أبيه، والآية تشير إلى هذا الجانب، فقالت أولاً: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ على الإجمال، ثم

(١) وقد تنبّهت أعرابية لهذا المعنى، فكانت ترقص ولدها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظلّ بالبيت الذي يلينا
غضباناً ألا نلدّ البنينا وإنما نأخذ ما أعطينا
ونحن كالأرض لزارعينا نُعطيهم ما بذروه فينا

الجامع لأحكام القرآن ١٦: ٧٠.

(٢) انظر: كمال الدين: ٢٤٩، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ١٠٩.

(٣) السير الكبير (الشيباني) ١: ٣٢٧ / ٤٦٦.

فصّلت قائلة: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ﴾، فأشارت بهذا إلى أهميّة الأم.

وهذه المسألة يبحثها الفقهاء في باب تزاحم المهم والأهم، فلو فرضنا أن الأب أمر بشيء والأم نهت عنه، وكان ذلك في حدود المشروع - وإلا فإنه إن كان حراماً أو واجباً لم يجز هذا التزاحم هنا؛ لأن الحرمة والوجوب خارجان عن سلطة الأبوين، وعلى الابن أن يتبع التكليف الشرعي - وفي المباحات، فإن أكثر الفقهاء يقول: إن حقّ الأمّ أهمّ من حق الأب. ومن جملة أدلتهم هذه الآية.

فالقرآن الكريم أعطاهما هذه المنزلة، والروايات أعطتها هذه المنزلة: «لَأُمُّكَ ثَلَاثَةٌ أَرْبَاعُ الْحَقِّ فِيكَ»؛ لأنها تتحمّل في تربية الولد من الآلام ما لا يتحمّله الأب، والغنم بالغرم.

أهل البيت عليهم السلام وتجسيد أجواء القرآن الكريم

وأول من يجسّد هذا الجوّ الذي يرسمه القرآن الكريم للأسرة هم حملة الشريعة، فمما يذكر هنا أن الشريف الرضي رحمته الله الذي كان نقيب الطالبين في أيامه كان إذا جيء إليه بأحد العلويين قد ارتكب ذنباً فإنه يُضاعف له العقوبة؛ فإن كان يستحقّ عشرين سوطاً ضربه أربعين، ولمّا سُئل عن ذلك قال: إن هذا العلوي ابن من حمل الشريعة، وهو أولى الناس بصيانتها وحمايتها، والتأدّب بأدابها.

فأول من يطبق الشريعة إذن بيوت آل محمد عليهم السلام، تلك البيوت التي نزل فيها الإسلام، والتي قال عنها الإمام الحسن عليه السلام لما لقيه أحد الشاميين فشتم أمير المؤمنين عليه السلام: «على رسلك يا هذا، لو أخذت بيدك إلى بيتنا لأريتك

زغب جناح جبرئيل»^(١). يقول أحد الشعراء:

وعفرتُ خدِّي في ثرى مسِّ عفره لجبريلٍ من جنحيه ريشٌ مزغبٌ
وفيه مـحاربٌ لآل محمدٍ بهنَّ ضراعاتٌ إلى الله تُنصبُ
وآثارُ أقدامٍ صغارٍ ومهجعٌ إلى الحسنينِ الزاكينِ ومـلعبُ
وصوتُ رَحَى الزهراءِ تطحنُ قوتها إلى جلدِ كبشٍ حيثُ تجلسُ زينبُ
رؤىٌ سوف يبقى الدهرُ يروي جلالها وتبقى على رَغمِ البساطةِ تأشبُ^(٢)

فهذا البيت هو مهبط جبرئيل عليه السلام وموضع تعاليم السماء المقدسة، وليس كثيراً عليه أن نرى فيه إنساناً مثل علي الأكبر عليه السلام الذي يقول عنه المؤرخون: إنه لم يقل للحسين عليه السلام: «يا أبا» منذ ولادته حتى استشهد إلا مرة واحدة، وهي عندما هوى من على ظهر جواده صريعاً، فقد كان يقول له: يا بن رسول الله، أو يا بن أمير المؤمنين أو يا بن فاطمة. ومن ذلك أن الحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء لما هومت عيناه ونام، جلس وهو يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون». فجاءه الأكبر وهو يقول: فداك نفسي يا بن رسول الله، لماذا استرجعت؟ قال: «يا بني رأيت في منامي قائلاً يقول: القوم يسرون والمنايا تسير بهم، فعلمت أنها أنفسنا نعت إلينا». فقال الأكبر عليه السلام: ألسنا على الحق؟ قال: «بلى والذي إليه مرجع العباد». قال: إذن لا نبالي أن نموت محققين.

فاحتضنه الحسين عليه السلام وقال: «جزاك الله من ولد خيراً». ثم أخذ يقبله

(١) ورد أن للحسن والحسين عليهما السلام تعويذين حشوهما من زغب جناح جبرئيل. انظر مناقب آل أبي طالب ٣: ١٦٢، بحار الأنوار ٤٣: ٢٦٣ / ٩، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١١٣، ١١٤، ترجمة الإمام الحسين عليه السلام (ابن عساكر): ١٩٢.

(٢) ديوان المحاضر ١: ١٥، وتأشب: تجتمع. لسان العرب ١: ٢١٤ - أشب.

ويلثمه^(١).

وقد كانت له عليه السلام بهذا الشاب علاقة لا حدود لها، ونستطيع أن نفهم طبيعة هذه العلاقة أكثر من تصرّف الحسين عليه السلام معه عندما أراد علي الأكبر أن ينزل إلى ساحة القتال، يقول المؤرّخون: إنه عندما أراد أن يبرز إلى القتال احتضنه الإمام الحسين عليه السلام وشخص ببصره إلى السماء. الحسين عليه السلام ذلك الإنسان الصلب الذي لا تهزّه المواقف مهما بلغت أخذ منه التأثير لبروز الأكبر للقتال أكبر مأخذ، وهو الذي يصفه عبد الله بن عمار بقوله: والله لقد رأيت الحسين عليه السلام فما رأيت مكثوراً قطّ أربط جأشاً منه، وقد كانت الخيل والرجال يشدّون عليه فيشدّ عليهم، فينهزمون بين يديه انهزام المعزى إذا شدّ فيها الذئب، ويرجع إلى مركزه فيتكئ على قائم سيفه ويكثر من قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

وكان عليه السلام قد قال يوم برز الأكبر للقتال: «اللهم اشهد على هؤلاء القوم، فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خلقاً وخلقاً ومنطقاً برسولك، وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إلى وجهه. اللهم امنعهم بركات الأرض، وفرّقهم تفريقاً ومزّقهم تمزيقاً، واجعلهم طرائق قديداً، ولا ترضِ الولاية عنهم أبداً؛ فإنهم دعونا لينصرونا ثم عدوا علينا يقتلوننا»^(٣).

فصوته وخلقه صوت النبي صلى الله عليه وآله وخلقه، وكذا في كلّ صفاته صلى الله عليه وآله؛ وهذا هو الذي زاد من مأساة الإمام الحسين عليه السلام وآلمه أشدّ الألم وأخذ منه مأخذاً عظيماً، وذلك حينما برز للقتال.

(١) الإرشاد ٢: ٨٢، روضة الواعظين: ١٨٠.

(٢) مثير الأحزان: ٥٤، البداية والنهاية ٨: ٢٠٤.

(٣) بحار الأنوار ٤٥: ٤٢.

ثم قال له: « بني ادنُ إليّ حتى أودّعك ». فجمع يديه فوق عنقه، واستدناه إليه يقبله ويشمّه إلى أن سقطا إلى الأرض معاً، ثم قال له: « ابرز بني ». فبرز علي الأكبر عليه السلام وعينا الإمام (صلوات الله وسلامه عليه) تلاحقانه ولا يكاد يرفع بصره عنه، وفجأة مرّت كتيبة واعصوبت عليه، ثم برز إليه بكر بن غانم، فتغيّر وجه الحسين عليه السلام، فهرولت إليه ليلى قائلة: أبا عبد الله أرى وجهك قد تغيّر، فهل أصيب ولدي بشيء؟ وهذا على رواية أنها كانت موجودة في الطفّ، فقال عليه السلام: « لا، ولكن برز إليه من يخاف منه عليه، ادعي لولدك »:

ردّت الخيمتها الغريبه	تبجي وعلى ابنيها بريبه
اتوسلت لله بحبيبه	بالحسين وشما بيه مصيبه
ياراد يوسف من مغيبه	ليعكوب ومسجن نحيبه

أريدك علي سالم تجيبه

ويرجع علي الأكبر يحمل رأس بكر، فيقول له الحسين عليه السلام: « بني بادر إلى أمك قبل أن تموت ». فأقبل إليها فأخذ رأسها، ونضحها بدموع عينيه، ففتحت عينيها واحتضنته وصاحت: بني علي! وآبت معه إلى الخيمة. ولكنه لما سقط في المرة الثانية ما استطاعت أن تصل إليه، فقد منعها الحسين عليه السلام هي وعمته زينب عليهما السلام، وراح بنفسه إلى علي الأكبر وأقبل به إلى الخباء، فطرحه ما بين النساء، وجلسن عند رأسه:

شالفايده وياك يبني	أنا الوالده وهين تذبني
--------------------	------------------------

ردتك عليه البيت تبني

يبني علي يا فتشة العين	يبني صواب الضاهدك وين
------------------------	-----------------------

يا ثمر كلبى ويا ضيا العين

عمود الوسط يالشاييل البيت أنه بيش اجيت وبيش رديت

يا واحدي عندي شخليت

* * *

ومحا الردى يا قاتل الله الردى منه هلال دجى وغرة فرقد

يا نجعة الحيين هاشم والندى وحمى الذمارين العُلا والسؤد



اقتصاد الأسرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

مقدمة في أقسام العلاقات الأسرية

تعتبر هذه الآية الشريفة من آيات الأحكام، أي الآيات التي تشتمل على التكاليف الشرعية. وهي تصنف من ضمن آيات الفقه الاقتصادي للأسرة.

إن الزوج بطبيعة الحال هو المسؤول عن عملية الإنفاق في الأسرة، كما أن الروابط الأسرية تكون على قسمين: فهي إما أن تكون عبر العلاقة الزوجية، أو عبر علاقة القرابة التي تربط بين الابن والابن والابن وغيرهم. والآية الكريمة تتعلق بخصوص العلاقة الزوجية. ثم إن العلاقة الزوجية تتناول نوعين من عناصر الأسرة المنضوية تحت

(١) الطلاق: ٧.

هذا القسم:

الأول: المرأة الفعلية أي الزوجة الموجودة فعلاً في عصمة الرجل .
الثاني: المرأة المطلقة طلاقاً رجعيّاً، وهي لا تزال في عدّتها، فهي شرعاً تعتبر في عصمته، لأنه قد يرجع إليها؛ إذ أن له ذلك متى شاء مادامت في العدة.
 فالآية تأمر الزوج بالإنفاق عليهما.

المبحث الأول: الإنفاق وآثاره الوضعية

تقول الآية الكريمة: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾، المعروف أن غرض الإنسان من جمع الثروة أنها لإعالة أسرته، فإن الله تعالى يأمر الإنسان بالتوسعة على عياله ما دام الله قد وسّع عليه رزقه من الطعام وغيره. وللإنفاق آثار إيجابية كثيرة نذكر منها:

الأول: أنه حصن من الانحراف

إن على الأب الموسر ألا يقتر على عياله؛ لأن التقدير عليهم ربما يقودهم أحياناً إلى الانحراف. فمثلاً في هذا العصر قد استجدت فيه كماليات متنوّعة، فإذا تخلف الأب عن توفيرها لعائلته أو أبنائه، فإن ذلك قد يوردهم مورد الانحراف؛ لأنهم يرون أترابهم وأقرانهم يحصلون على كلّ ذلك دونهم. فالأب في بعض الحالات يساعد على الانحراف فيما إذا قتر على أهله وعياله. إذن فالإنفاق حصن يمنع الأبناء من الانحراف.

الثاني: أنه مجلبة للرزق

وليعلم الآباء أن في التوسعة على العيال مجلبة للرزق وأنها موجبة له، تقول الرواية الشريفة: «تنزل المعونة على قدر المؤونة»^(١) فالله ينزل الرزق

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٩.

على الإنسان بقدر إنفاقه على أهله و عياله.

الثالث: أنه يدفع عذاب القبر

إن الإنفاق على العيال -بالإضافة إلى كل ما مرّ- يعتبر من أبرز مصاديق التوسعة عليهم. والتوسعة هنا داخلية في إطار المعاملة الحسنة مع الأسرة، وهي المعاملة التي أمرنا بها، ذلك أن هذه المعاملة الحسنة تدفع عذاب القبر، تقول الرواية الشريفة: «أكثر عذاب القبر من سوء الخلق مع العيال»^(١).

على أية حال فإن الآية الكريمة تأمر بالتوسعة على العيال، والإنسان لو أنه يعي حقيقة أنه إذا حلّ به الموت فإن ملكيته ستصبح متزلزلة، وأن وصيته لا يؤخذ بها إلا بمقدار الثلث، ولا يصبح ما زاد عليه نافذاً إلا بإجازة الورثة الذين ربما تنازعوا على أمواله وهو لا يزال في النزاع وليس بعد موته، فإنه سيلتفت إلى أنه يجب أن يجعل تعبه لنفسه ولعياله؛ بأداء ما عليه، وبالتوسعة عليهم. إذن فجميع ما عند الإنسان يعود بالنتيجة إلى عياله، ومع وعي المرء هذه الحقيقة فإنه سوف لن يبخل عليهم بشيء من ماله، ولن يبخل في أمر التوسعة عليهم. وعلى هذا تفسّر الرواية الشريفة الواردة: «لعن الله والدًا حمل ولده على العقوق»^(٢).

تربية الأبناء بين الإفراط والتفريط

لكن ينبغي التنويه إلى أنه ليس معنى ذلك أن نلبّي كلّ رغبات الصبي

(١) قريب منه في الاعتقادات: ٥٩.

(٢) لم نعثر عليه بهذه الصياغة والذي عثرنا عليه هو: «رحم الله والدًا أعان ولده على برّه». انظر: الأمالي (الصدوق): ٣٦٣، المصنّف (ابن أبي شيبة) ٦: ١٠١.

أو الصبيّة ومطالبهما، بل إن بعض المطالب التي يستجاب فيها للطفل تُفسده. وهذا ما يطلق عليه الإنكليزيون لفظ « Spoil »، أي التدليل الذي يترتب عليه فساد الطفل، فهم يذهبون إلى أن أعظم أنواع الفساد هو هذا. فالتدليل ما لم يكن على أصوله يعطي نتيجة سلبية؛ لأنه يجعل الولد يعيش أجواء غير طبيعية، ويرتاد أماكن غير طبيعية، ويلهو ويلعب كما يحلو له، وكلّ هذا يؤدّي إلى الفساد.

فالدين الحنيف لا يسمح بهذ اللون من التربية أو التعامل، لكن هناك مطالب مشروعة للولد يجب ألا تترك بذريعة حالة الـ « Spoil ». فمن مطالبه المشروعة أن يكون لباسه محترماً، وكذا طعامه وحاجاته المعقولة، فكلّ هذه يجب أن تلبّى له. والأسرة من وظيفتها معرفة هذه الخطوط العامّة الصحيحة وتحديدّها، فهي التي تصدّي لذلك وتلبيتها وفق المنظور القرآني: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ﴾.

فما دام المرء في سعة من المال والرزق الحلال، فعليه أن ينفق منها قبل أن تخرج من يديه؛ لأن هذا من مسببات حسن الخلق مع الأولاد، فهم إذا شعروا بأن نتيجة كدّ الأب وتعبه يوجّه لرعايتهم فسوف يستشعرون الاهتمام والرعاية اللتين يوليانهم إياهما أهلهم.

المبحث الثاني: نظام النفقة وحدوده في الإسلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَنْ قَدِرْ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾، إن الأحكام تتغيّر بتغيّر موضوعاتها كما تنصّ عليه عبارة فقهاء الشريعة، فالحكم يأخذ صفة التحرك تبعاً للموضوع، لأنه وإن كان ثابتاً بالعنوان الأولي لكنه يتغيّر حسب الموضوع له. إن مظاهر الحياة في تغيّر مستمرّ،

والحكم يتغير تبعاً لها، ومن هذه المظاهر الإنفاق، فإذا كان الرجل غنياً فالآية تقول له: «أنفق من سعتك»، أما إذا كان رزقه محدوداً، فالآية تقول له: «أنفق بقدر استطاعتك، ولا تعتمد إلى الاستدانة؛ لأجل أن تظهر للآخرين أنك في وضع مالي جيد؛ لأن الدين ذلّ بالنهار وهم بالليل، يقول النبي الأكرم ﷺ: «إياكم والدين؛ فإنه ذلّ بالنهار، ومهمّة بالليل»^(١).

فالإنسان تذله الحاجة، وهو هم بالليل لأن الإنسان إذا أوى إلى فراشه بدأ بالتفكير بما عليه من ديون، وبالكيفية التي سيسدّها بها. فالإنسان مرتهن بدينه، كان نبينا الأكرم ﷺ لا يصلّي على أحد عليه دين؛ لأنه مرتهن بدينه، إلى أن يأتي من يكفله ويحمل عنه دينه، فعند ذلك يصلّي عليه، جيء له ﷺ بميت ليصلّي عليه فسأل أهله: «هل على صاحبكم دين؟». قالوا: نعم، عليه ديناران. فتنحى عنه وقال: «صلّوا على صاحبكم». فقال أحد الأصحاب: أنا أقضيها عنه يا رسول الله. فقال ﷺ: «أما الآن فنعم»^(٢).

فالآية تقول لهذا المعسر: لا تخرج عن الحدود الطبيعية للإنفاق عندما تريد أن تنفق على أحد؛ سواء كان واجب النفقة أو مستحبها، وتحذره بأنه إن استدان لأجل ذلك فسوف يُذل، ويجعل نفسه عرضة للحاجة للآخرين.

(١) الكافي ٥: ٩٥ / ١١، وتاممه فيه: وقضاء في الدنيا وقضاء في الآخرة، مسند الشهاب ٢: ٩٦ / ٩٥٨.

(٢) الكافي ٥: ٩٢ / ٢، مسند أحمد ٣: ٢٩٦، وفيه بعد ذكر الحديث: فلما فتح الله تعالى على رسوله ﷺ قال: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه؛ فمن ترك ديناً فعليّ، ومن ترك مالا فلورثته».

الإنفاق على الزوجة

إن في الإنفاق على الزوجة آراء متقابلة، بمعنى أن الزوج المسؤول عن الإنفاق هل ينفق عليها بما يناسب مكانتها، أو ما يناسب حالته الماديّة. وهذا يبتلى به من يتزوج من طبقة اجتماعيّة رفيعة على المستوى المالي، كأن تكون زوجته بنت تاجر أو رجل أعمال كبير، وهؤلاء تكون نفقاتهم عادة ضخمة قياساً إلى غيرهم، كما أن بناتهم قد اعتدن على الترف وكثرة الإنفاق على الملابس والمشتريات، فكيف يتعامل الزوج في مثل هذه الحالات مع موضوع الإنفاق على الزوجة؟ هل ينفق بما يناسب حالها التي كانت عليها عند أبيها، أم بما يناسب حاله هو؟ إن آراء الفقهاء في هذه المسألة تتوزع على قسمين:

الأول: ويذهب أصحابه والقائلون به إلى أن الآية الكريمة صريحة في تحديد أن النفقة تكون على قدر استطاعة الزوج، ﴿مَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾.

الثاني: ويذهب أصحابه والقائلون به إلى أن هذا خلاف العدل؛ لأن العدل يعرفه العلماء على أنه وضع الشيء موضعه^(١)، فهذه الزوجة لما كانت ابنة رجل أعمال ثري وموسر، وكانت مرفهة عنده، فالعدل يقضي بأن عليه أن يسد حاجتها بما يناسب حالتها التي كانت عليها، فإذا استطاع ذلك فلا مشكلة في البين، وإن لم يستطع فلينفق من عنده، والمتبقي يظل ديناً في رقبته؛ لأن نفقة الزوجة لا تسقط بالإعسار، بخلاف نفقة الأقارب فإنها تسقط.

(١) شرح أصول الكافي (المازندراني) ٩: ١٤٩، الملل والنحل ١: ٤٢.

وهذا الأمر ناشئ من كون المرأة أجنبيّة عن الزوج في الأصل ، وعلى الزوج أن يكرمها مثلما أكرمه أهلها بالموافقة على الزواج منها، كما أنها ليست سلعة أو غريزة، وإنما هي الحصن الذي يحصّن الزوج عن الوقوع في الخطيئة، والذي يربّي الأبناء، والواجب أن يكون هذا الحصن على درجة من الاستقامة والاحترام والعناية.

السيدة فاطمة الزهراء مثل أعلى

وفي المقابل يجب أن يكون موقف الزوجة متسامحاً، فهي إذا رأت التوقير والاحترام من زوجها تجاهها، فالواجب عليها أن تكون بالمستوى المطلوب منها، فلا تكلف الرجل بما هو فوق طاقته؛ كي تتمكن من أن تتعايش مع زوجها وبيتها، ومع الحالة التي هي فيها. لقد مرّت على أمير المؤمنين عليه السلام فترات لم يكن يجد فيها طعاماً يرجع به إلى بيته، وحينما يدخل بيته لا يجد عنده ما يغتذي به أطفاله.

وكان هذا حال الأعم الأغلب من المسلمين؛ فقد كانوا كلهم يعيشون في حالة ضيق، سيّما في أول سنوات الهجرة الشريفة؛ فقد كان الحصار مفروضاً على المسلمين عامّة.

وقد رجع أمير المؤمنين عليه السلام مرّة إلى بيته دون أن يحمل معه طعاماً، فشعرت الزهراء عليها السلام بذلك، فقرّرت أن تطرق باب النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وتجلب منه الطعام لها ولبعليها وبنيتها، وكان في البيت أمّ المؤمنين أمّ أيمن (رضي الله تعالى عنها) فقالت للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: هذه طرقة فاطمة، فما الذي جاء بها؟ ففتحت الباب، ودخلت فاطمة وسلّمت على أبيها صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «ما وراءك يا فاطمة؟ لقد جئتنا في وقت ما كنت تأتينا في مثله». قالت: «يارسول الله، روحى فداك، ما طعام الملائكة عند ربنا؟». فقال صلى الله عليه وآله وسلم:

«التحميد؟». فقالت عليها السلام: «ما طعامنا؟». قال: «والذي نفسي بيده ما اقتبس في آل محمد شهراً ناراً».

أي أنهم لم يطبخوا منذ (٣٠) يوماً، وكانوا يقتاتون على التمر والماء، ثم قال عليها السلام لها: «اليوم وصل لي قطيع من الأعنز، فإن أحببت أعطيتك منها خمساً، أو أعلمك خمس كلمات علمنيها جبرئيل آنفاً». قالت: «لا والله يا رسول الله، أحب إلي أن تعلمني هذه الكلمات الخمس». قال عليها السلام: «قولي: اللهم يا أوّل الأوّلين، ويا آخر الآخرين، ويا ذا القوّة المتين، ويا راحم المساكين، ويا أرحم الراحمين، أسألك رحمتك». فخرجت ووجهها يتهلّل بشراً، فلما أبصرها أمير المؤمنين عليه السلام: «بأبي أنت وأمي، ما وراءك يا فاطمة؟». قالت: «ذهبت للدنيا وجئت للآخرة». فقال عليه السلام: «خير أمامك، خير أمامك»^(١).

فالزوجة يجب أن تكون عوناً لزوجها على شدائد الدهر ومصائبه، وفي نوازلها، وعليها ألاّ تكلف زوجها ما لا يستطيع، فالحياة تعاون، وعليها أن تؤدّي الواجب المناط بها تجاه الزوج، كما أن على الزوج أن يؤدي الواجب المناط به تجاه زوجته.

إذن فوفق الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ أن الزوج مأمور بالاقتصاد في النفقة دون أن يرهق نفسه سيمّا إذا حاولت المرأة استنزاف قدراته وكرامته بكثرة الطلبات. والمرأة التي لا تقدّر حالة البيت ليس لها أي خطر في الدنيا، تقول الرواية: «ليس لامرأة خطر»، أي قيمة، «لا لصالحتهن ولا لطالحتهن؛ أمّا صالحتهن فليس لها خطر الذهب ولا الفضة»، أي إن كانت صالححة فإن قيمتها أكبر من الدنيا، «وأما طالحتهن فليس

(١) كتاب الدعاء (الطبراني) ٣١٩ / ١٠٤٨، وقريب منه في الدعوات (الراوندي): ٤٨، بحار الأنوار ٤٣: ١٥٣ / ١٠، ٩٠: ٢٧٢ / ٣.

لها خطر التراب، والتراب خير منها»^(١). وهذا ممّا حرص عليه الإسلام أشدّ الحرص.

دور المرأة في بناء الأسرة

فالمرأة إذا كانت منسجمة مع الزوج والأولاد داخل الأسرة فإنها حينئذٍ تلعب دوراً لا حدود له، ولإثبات هذا نضرب مثلين:

الأول: زوجة صخر بن عمرو

وصخر هذا هو أخو الخنساء، وقد طعنه في إحدى المعارك ربيعة بن ثور الأسدي، فأدخل بعض حلقات الدرع في جنبه، فامتدّ به المرض مدة حول، وكانت أمّه وزوجته تمرّضانه، ولم تكن زوجته بالتّي تقدّر المسؤولية، أو أن تتكيف مع الوضع الجديد من أمر مراعاته؛ كونها زوجة. وحدث أن مرّت بها امرأة فسألته: كيف أصبح صخر؟ قالت: لاهو حي فيرجى ولا هو ميّت فيبكي. وقد مللنا منه. فسمعها صخر وشعر أنها تتألم من تمرّضه، فاختنق وأنشد أبياته الشهيرة:

أرى أم صخر لاتملّ عيادتي	وملّت سُليمي مضجعي ومكاني
وما كنت أخشى أن أكون جنازة	عليك ومن يغترّ بالحدثان
لعمري لقد نجهت من كان نائماً	وأسمعت من كانت له أذنان
وأي امرئ ساوى بأمّ حليّة	فلا عاش إلا في شقا وهوان
أهمّ بأمر الحزم لا استطيعه	وقد حيل بين العير والنزوان

إلى أن يقول:

(١) دعائم الإسلام ٢: ١٩٥ / ٧٠٧.

أرى الموت خيراً من حياة كأنها معزّس يعسوب برأس سنان^(١)

واليعسوب: ذكر النحل، وضرب به المثل؛ لأنه يبني عشّه في الأماكن العالية، فتسقطه الريح ولو كانت ضعيفة. فهو يصوّر الحال التي وصل إليها على أنها مثل حال اليعسوب الواقف على طرف الرمح ويرى أن الموت خير له من الحياة. وهذا أنموذج من الأسرة المنهدمة.

الثاني: غزاة زوجة شبيب

لقد كانت غزاة موصوفة بالشجاعة والإقدام، وهي زوجة شبيب الشيباني الخارجي الذي ظهر على الحجّاج في الموصل، وهو من الخوارج المعروفين بالصلابة، وكان قد خرج على جيش عبد الملك بن مروان فهزّمه، ووصل إلى الحجّاج في الكوفة، وقاتله وهزم جيشه، وفرّ الحجّاج منه واختبأ في قصر الإمارة، فضرب شبيب القصر بعمد كان في يده، فتقب الباب وبقي الثقب إلى أن انهدم قصر الإمارة.

وفي أحد الأيام جاء الحجّاج بأحد عبيده وألبسه ملابس ودرعه وقلده سيفه وأخرجه، فلما رآه شبيب ظن أنه الحجّاج، فقال: سأقتله وسأريح المسلمين منه. ثم انقضّ عليه وضربه ضربة، فسمعه يصرخ بكلمة: «آخ»، وهذه الكلمة لا تقولها العرب، فعرف أنه ليس عربياً، وإنما

هو غلام، فقال: قاتل الله ابن أم الحجّاج، أيفرّ من الموت بالعبيد؟

وغزاة هذه كانت تشدّ أزر زوجها، وكانت معه في كل حالاته، وكان الحجّاج يخاف منها أشدّ خوف^(٢)، حتى قال فيه عمران بن حطّان:

(١) وفيات الأعيان ٢: ٨٤، الوافي بالوفيات ١٠: ٢٤١، خزنة الأدب ١: ٤١٦.

(٢) البداية والنهاية ٩: ٢٦.

أسد عليّ وفي الحروب نعامة
فدخاء تفزع من صغير الصافر
هلاً برزت إلى غزالة بالوغى
بل كان قلبك في جناحي طائر^(١)

وكانت قد نذرت إن هي ظفرت بالكوفة وبالحجاج أن تصلي ركعتين،
تقرأ في إحداهما سورة (البقرة) وفي الثانية سورة (آل عمران)، فلمّا
انتصرت وفّت بنذرهما^(٢)، كما ينقله لنا التاريخ^(٣). فكانت مثال الزوجة
التي وقفت إلى جانب الزوج.

موقف أمير المؤمنين عليه السلام من الخوارج

وكان الخوارج على درجة كبيرة من العبادة، بل على عبادة لا حدود
لها، ولكن للأسف كانوا على ضلال؛ ولذا فإن الإمام علياً عليه السلام أوصى بهم
قائلاً: « لا تقتلوا الخوارج بعدي؛ فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل
فأدركه »^(٤). أي لا تقاتلوهم من بعدي فإنهم يبحثون عن الحق وإن أخطؤوا
السبيل إليه.

إذن فقولته تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ يعني أن
الإنسان إذا كان معسراً تماماً فإن النفقة تسقط عنه، أما إذا كان الإعسار
نسبياً فإنه ينفق بقدر ما عنده، وما تبقى يظل ديناً عليه، ولا يكلفه الله أن

(١) المعارف: ٤١١، بلاغات النساء: ١٢٩، كتاب المتوارين: ٧٣، وفيات الأعيان ٢: ٤٥٥،
تاريخ الإسلام ٥: ٤١٧، الوافي بالوفيات ١٦: ٦٠، البداية والنهاية ٩: ٢٦.

(٢) فقيها: ٢٦٦.

وفت الغزالة نذرهما يارب لا تغفر لها

وفيات الأعيان ٢: ٤٥٤.

(٣) تاريخ الطبري ٥: ٩٧، شرح نهج البلاغة ٤: ٢٦٩، الكامل في التاريخ ٤: ٤٢٩، وفيات
الأعيان ٢: ٤٥٤، الوافي بالوفيات ١٦: ٦٠، تاريخ ابن خلدون ٣: ١٥٨، الفتوح ٧: ٦٠.

(٤) نهج البلاغة / الكلام: ٦١.

يستدين.

المبحث الثالث: متعلق «يُكَلِّفُ» في الآية

ثم انتقلت الآية الكريمة، فقالت: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا»، وهذا المقطع الشريف من الآية لا يقتصر على الجانب المادي فقط، بحيث إنه إذا كان عند المرء مال فإن الله يكلفه بالإنفاق، وإن لم يكن عنده فلا يكلفه، أبداً إنه ليس مختصاً بالأموال فقط، بل هناك أمور أخرى معنوية يتناولها. ومن هذه الأمور الجاه، فإن من يملك جاهاً فإن الله تعالى يكلفه بدفع ضريبة على جاهه، ومن يملك علماً فإن الله تعالى يكلفه كذلك بدفع ضريبة على علمه أو على أخلاقه؛ لأن الرزق لا يقتصر على الأموال فقط، فقد يرزق شخص خلقاً حسناً، وهو في حقيقة الحال أفضل من الأموال. يروى أن أوساً - وكان أحد الصحابة الأثرياء، وكانت أسرته من الأسر المحترمة، - كان يتحرى المكان الأقرب من المكان الذي يجلس فيه النبي الأكرم ﷺ حتى يجلس قربه ويسمع منه. وفي أحد الأيام سبقه أحد فقراء الصحابة - وكان أصم - وجلس قرب الرسول الأكرم ﷺ، فلما حضر أوس مجلس الرسول الأكرم ﷺ، وراه جالساً مكانه جاء حتى وقف على رأسه ظاناً أنه سيقوم ويتزحزح له عن مكانه عندما يراه، فلما رأى أنه لم يقم له ولم يتحرك له عن مكانه، قال له: يا بن فلانة، أقف على رأسك ولا تقوم.

فصكت هذه الكلمة «ابن فلانة» سمع النبي الكريم ﷺ، وهي كلمة يعدّ التفوه بها خلاف الآداب والأخلاق، فالتفت إليه النبي ﷺ، وقال له: «انظر، ماذا ترى في المجلس؟». وكان فيه أجناس متنوعة، فقال: أرى الأحمر والأبيض والأسود. قال النبي ﷺ: «إنك لا تفضل على أحد منهم إلا

بالتقوى والعمل الصالح».

ذلك أن الناس كلهم «لآدم، وآدم من تراب»^(١)، وهم «سواسية كأسنان المشط»^(٢)، فعلى الإنسان ألا يظن من نفسه أنها أفضل من غيره بفضل ما يملكه من أموال، فهذه الكلمة نابية، وهي ليست من أخلاق المسلمين. فانكسر الرجل وتخاذل، وقال: يا رسول الله، إن الذي دفعني إلى هذا حبّ الجلوس قربك، وألا أحرم من الجلوس إلى جانبك. وإنني قد أخطأت، وسأعطيه نصف أموالي إن رضي عني.

فنادى النبي ﷺ الرجل الأول وقال له: «سمعت ما قال أخوك، هل ترضى عنه ويعطيك نصف أمواله؟». فرفض عرضه قائلاً: روعي فداك، بل أرضى عنه من غير هذا. فقال النبي ﷺ: «لماذا؟». قال: أخشى أن يدخلني ما دخله. أي أن يتغير نحو الأسوأ. وهكذا أثبت هذا الصحابي الفقير أن عنده رزقاً من الخلق والإنسانية، فبارك له الرسول الأكرم ﷺ هذا التوجه^(٣).

إذن فقولته تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ - وما أتى الله تعالى الإنسان شيء كثير - ليس هو المال فقط، بل ينضوي تحتها العلم والأخلاق والمحبة في قلوب الناس، والعقل. وهنا ينبغي التأكيد على أن الله تعالى لا يحاسب الناس إلا على قدر ما آتاهم من عقل، فمن يملك عقلية جبارة فإن الله يحاسبه بموجب عقله، أما إذا كان عقله محدوداً فإنه تعالى سيحاسبه كذلك لكن على قدر طاقته العقلية. تقول الرواية

(١) تحف العقول: ٢٤، شرح نهج البلاغة ١: ١٢٨، الدر المنثور ٦: ٩٨.

(٢) تحف العقول: ٢٦٨.

(٣) الكافي ٢: ٢٦٢ / ١١، بحار الأنوار ٢٢: ١٣١ / ١٠٨.

الشريفة: «كان النبي موسى بن عمران عليه السلام يرى رجلاً من بني إسرائيل يطول سجوده ويطول سكوته، وكان ظاهره يدلّ على أنه ذو وقار وهيبة، وكان مظهره الخارجي يوحي بذلك، فكان عليه السلام لا يكاد يذهب إلى موضع إلا وهو معه».

إن الساكت قد ستر الله تعالى عليه حقيقته؛ لأن الكلام يفضح صاحبه، فهو وسيلة معبرة عمّا في داخل الإنسان؛ ولذلك فإن الإنسان لا يقدم على السكوت دائماً، بل إنه يفضل الكلام.

ثم تتابع الرواية الشريفة: «وبينما كان عليه السلام يوماً في بعض حوائجه إذ مرّ على أرض معشبة تزهو وتهتزّ، فتأوّه الرجل، فقال له النبي موسى عليه السلام: على ماذا تأوّهت؟ قال: تمنيت أن يكون لربي حمار أرحاه ها هنا. فأكبّ النبي موسى عليه السلام طويلاً يبصره إلى الأرض اغتماماً بما سمع منه، فانحطّ عليه الوحي، فقال له: ما الذي أكبرت من مقالة عبدي؟ أنا أوأخذ عبادي على قدر ما أعطيتهم من العقل» (١).

وكذلك كان حال أمير المؤمنين عليه السلام فإنه قد عاش مع أمثال هذا.. مع ذوي أفهام محدودة، وقد آذوه وأبلغوا. وقد استغلّ الدجالون على مرّ التاريخ هؤلاء البسطاء بسبب محدودية أفهامهم وقلة عقولهم. إذن فإن الله تعالى يكلف الإنسان ويحاسبه بقدر ما آتاه من عقل، كما أن الحساب يقع على الإنسان وفق ما عنده من عقل ومال وجاه.

المبحث الرابع: الإنسان ومعطيات العسر واليسر في الحياة

ثم قالت الآية: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، وفي هذا طمأنة للأسرة بأنها سوف لن تبقى على حال واحدة من الفقر؛ فالدنيا فيها شدة ثم رخاء، وفيها حالة فرح وحالة حزن، وعلى الإنسان أن يتكيف مع هذه

(١) المحاسن ١: ١٩٣ / ١٠، شرح نهج البلاغة ١٨: ١٨٧.

المعطيات التي تشكّل مسيرة حياته. إن الإنسان لا يستطيع أن يغيّر من الحياة شيئاً؛ لأنها أمر خارج عن إرادته، ولو أن الإنسان يُخَيّر لحظة تكوينه وولادته لما اختار المجيء إلى الدنيا، لكن لله حكمة في إخراجه إليها. فالدنيا وعاء يحمل للإنسان المآسي الكثيرة، والمشاكل المتعدّدة، وهي دار فقد الأحيّة، يقول أبو فراس الحمداني:

المرء رهن مصائب لا تنقضي حتى يوارى جسمه في رمسه
فمؤجل يلقي الردى في أهله ومعجل يلقي الردى في نفسه^(١)

فالحياة فيها الخير وفيها الشرّ، وفيها الراحة وفيها الألم، ونحن ملزمون بالتكيف معها؛ كي نتمكن من أن نمضي فيها إلى ما يختاره عملنا لنا، كما أن علينا التسليم لقضاء الله تعالى وقدره، والايمان بحكمته. فالإنسان يتألم ويستشعر الأذى بين طيات هذه الحياة، فقد كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يشكو علل الدنيا، وذلك عندما يخرج إلى البقيع حيث قبر السيّدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وبيت آلامه وحزنه عند قبرها، فيقرأ القرآن، ثم يتذكّر الفترة التي عاشها معها، في كنف الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، والفترة التي أعقبت التحاقه صلى الله عليه وآله بالرفيق الأعلى، لقد كانت فترة قصيرة جداً لا تتجاوز التسع سنوات، فكان عليه السلام يقف عند قبرها ويستعبر ثم ينشد:

أرى علل الدنيا عليّ كثيرة وصاحبها حتى الممات عليّ
وإن افتقادي فاطماً بعد أحمد دليل عليّ ألا يدوم خليل^(٢)

(١) يتيمة الدهر ١: ٨٤، تاريخ الإسلام ٢٦: ٣٠٥، وفيات الأعيان ٢: ٦٣، الوافي بالوفيات

١١: ٢٠٢. (٢) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٨٧.

وهذا الأسلوب عينه استعملته الرباب زوجة الإمام الحسين عليه السلام عندما قامت على قبره الشريف، حيث أنشأت خبائها سنة كاملة تندب الإمام عليه السلام آناء الليل وأطراف النهار، فقد أرسلت إلى البنّاء وأمرته بأن يقلع سقف البيت، وقالت: واللّه لا يظّلني سقف بيت بعد أبي عبد الله عليه السلام ^(١). وأخذت تجول في الدار وهي تقول:

بِكَرْبَلَاءَ قَتِيلٍ غَيْرِ مَدْفُونِ	إِنَّ الَّذِي كَانَ نُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ
عَنَا وَجُنُبَتْ حُسْرَانَ الْمَوَازِينِ	سَبَطَ النَّبِيُّ جَزَاكَ اللَّهُ صَالِحَةً
حَتَّى أُغَيَّبَ بَيْنَ الرَّمْلِ وَالطِّينِ ^(٢)	وَاللَّهِ لَا أَبْتَغِي صِهْرًا لِيَصْبِرَ كُمْ



(٢) أعلام النساء ١ : ٣٧٨.

(١) الكامل في التاريخ ٣ : ٤١٤.

الأسرة الأنموذجية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ
النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: محرّمات الزواج

إن إصلاح المجتمع في واقع الأمر يتطلب أن يبتدئ به المعنيون من الأسرة؛ لأن الأسرة هي المنطلق الحقيقي للمجتمع، وهي الأسس والنواة له؛ ذلك أن المجتمع عبارة عن مجموعة من الوحدات الصغيرة المتمثلة بالأسر. والأسرة يمكن إصلاحها عن طريق أمرين: التلقين، والاهتمام بالنظام الأسري والتركيبية الأسروية. أي أن يركز على التركيبة الاجتماعية للأسرة ونظامها الأسروي وحيروته داخل المجتمع. وموضوع محرّمات الزواج موضوع ذو صلة وثيقة ببناء المجتمع

(١) النساء: ٢٢.

وقيامه ؛ ولذا فإننا نجد له في التشريع الإسلامي وزناً واهتماماً خاصين . ومحرمات الزواج تكون على نحوين : محرمات نسبية ، ومحرمات سببية ، وبالرجوع إلى الجو العام للآية ومكان نزولها ومورده سوف نستكشف منهما طبيعة التشريع الإسلامي هذا .

فهذه الآية الكريمة نزلت لتعالج بعضاً من القضايا الاجتماعية التي تعتبر من رواسب التراث أو الموروث الاجتماعي ، ذلك أن العرب كانوا إذا مات أحدهم وكان له أبناء وزوجة غير أمهم فإن للولد الأكبر الحق في أن يرث زوجة أبيه هذه ؛ وله الحق في أن يتزوجها أو يزوجه من غيره ويأخذ مهرها . وعلامة ذلك أنه يأتي بردائه ، فيلقيه عليها ويعضلها ، بمعنى أن هذه المرأة لا يحق لها أن تتزوج إلا منه أو بإذنه .

وهذا المعنى في واقع الأمر يبتعد ابتعاداً كبيراً عن جانب تكريم الأسرة وبنائها بناء هادفاً ، وهما الأمران اللذان يحث الإسلام الكريم على انتهاجهما . فهذا اللون من العلاقات الجاهلية كانت تبتعد جوهرراً ومظهرراً عن الصورة التي رسمها الإسلام للأسرة الإسلامية ، وعلى ضوء هذه الصورة ينبغي أن تكون علاقة الأب بابنه أو علاقة الابن بأبيه علاقة قداسة لا علاقة بهيمية .

نظر الإسلام إلى الزواج والجنبة العبادية فيه

وأود أن ألفت النظر هنا إلى أن عقد الزواج في التشريع الإسلامي يختلف تماماً عن العقود الأخرى ، ففي التشريع الإسلامي نجد أن القرآن الكريم يقرر هذا الأمر مستخدماً في تحقيقه عبارات تدل على ثقل هذا الأمر عنده وعلى أهميته ، فيقول جلّ من قائل : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْكُمْ مِيثَاقًا

غَلِيظًا ﴿١﴾ .

وكلمة ميثاق لا يستعملها القرآن الكريم إلا في القضايا المهمة، كتلك القضايا التي تدور حول العلاقة بين الإنسان وربه في مقام التوحيد والعبودية، أو أن يستعملها في القضايا التي تدور حول العلاقات بين دولة وأخرى. بمعنى أن هذه الكلمة تستخدم في المجالات التي تشغل الجانب المهم والضروري والحساس في حياة الإنسان. وإذا كان الأمر كذلك، فنجد أن الله جل وعلا قد استخدمها في مسألة العقديين الرجل والمرأة، ويعبر عن ذلك العقد بأنه ميثاق، ثم يؤكد هذا الميثاق، ويصفه بأنه غليظ - أي شديد - فإن هذا يوحي بأن عقد الزواج قد منح معنى العبادة.

وأكثر الفقهاء يقولون: إن عقد الزواج ليس عقداً معاملياً، بمعنى أن عملية الزواج ليست معاوضة جسدية. ونعني بالمعاوضة الجسدية أن الرجل يدفع المال والمرأة تدفع الجسد مقابله؛ فهذه معاوضة خسيصة وبخسة يرفع الله المؤمنين عنها وقد كرمهم وفضلهم على غيرهم. فالواقع أن هذه المعاوضة هي معاوضة روحية أو على حد تعبير بعض الفقهاء بأنها تعبير معاوضة روح بروح. وبهذا الشكل فإن هؤلاء الفقهاء أو الإسلام الحنيف يعطي هذه العلاقة الزوجية معنى من معاني القداسة ولوناً من ألوان التفخيم. وبناءً على هذا فإن العلاقة بين الزوج والزوجة تأخذ هذا الطابع وهذا البعد.

كما أنني أود أن ألفت النظر هنا كذلك إلى أن العقود التي تجرى في

(١) النساء: ٢١.

معاملاتنا هي غالباً عقود معاوضية . والعقود هي إما أن تكون عقوداً لفظية أو عقوداً معاطاتية ، بمعنى أنه قبض وإقباض أو تسلم وتسليم للبضاعة والثلث ، إلا الزواج فإنه لا يتم إلا بعقد معين وإلا بلفظ معين افترضه الشارع المقدس علينا ؛ كي تصحّ عملية الزواج هذه ؛ ذلك أن المشرع الإسلامي يعتبر هذا العقد التزاماً ضخماً ومقدساً ؛ ولذلك فإن موضوع العلاقة الزوجية يأخذ حيزاً واسعاً من القداسة التي يوليها الإسلام لمثل هذه الأشياء .

وبهذا فإن زوجة الأب في واقع الأمر هي مثل الأم ، وتقديم فروض الاحترام لها هو فرع من تقديم فروض الاحترام والطاعة للأب ، وكذلك من فروض الطاعة والاحترام للأم ؛ ولذا فإن على الإنسان أن يتعدن هذه العلاقة ؛ لأنها علاقة مدنسة لا تصلح أن تكون مصدراً لبناء مجتمع سليم أو بناء أسرة صحيحة قائمة على أسس الإسلام وتعاليمه . ونعني بهذه العلاقة هي ما كان عليه المشركون في الجاهلية من تزوج الابن زوجة أبيه بعد وفاته .

إذن فعلاقة بهذا الشكل فيها جميع أنواع الانحطاط الخلقي ، والقضاء على مصادر العفة اللازمة في بناء المجتمع والانحدار به إلى هاوية الرذيلة ولذلك فإن الله جل وعلا أولى هذه المسألة أهمية خاصة .

المبحث الثاني: المقصود بـ ﴿مَا﴾ في هذه الآية

تقول الآية الكريمة : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ ، إن المفسرين يختلفون في معنى ما الواردة في الآية الشريفة ؛ فمنهم من يذهب إلى أنها موصولية ، ومنهم من يذهب إلى أنها مصدرية . وبناء على كل من هذين

الرأيين يكون لها معنى مختلف في كل مرة.

اختلاف العلماء

وهذا الاختلاف بين الفقهاء والمفسرين هو حتماً اختلاف آتٍ من اختلافهم في فهم الدليل، فكلّ منهم حينما يفهم من الدليل شيئاً معيناً يؤسس عليه حكماً يصدره، ويفتي به بناءً على ما توصل إليه من فهمه لذلك الدليل.

وهذا أمر لا شائبة فيه؛ لأننا لا يمكننا أن نحجر على عقول الفقهاء، فكل فقيه له الحق في أن ينتهج الطريق أو المنهج الذي يوصله إلى الحكم الشرعي ما دام ضمن نطاق الخطوط العامة والعريضة للتشريع الإسلامي التي وضعها الله جل وعلا، أو وضعها الرسول الأكرم ﷺ. وإذا رجعنا إلى الاختلاف في المسائل الفقهية بين المسلمين لوجدنا أن معظمه من هذا النوع.

الهدف من التركيز على هذا الموضوع

وأنا أركز دائماً كلما سنحت لي الفرصة على هذا الموضوع لأنني أريد أن أرفع رسالة إلى الذين يصرون إصراراً واضحاً وكبيراً على تمزيق وحدة المسلمين وتفتيت جمعهم وفت عضدهم وهو إصرار يكمن وراءه اندفاع ونوايا.. ونود أن تتضمن الرسالة توجيهاً واحداً هو أنه إذا كانوا غائبين عن الحقيقة ولم يكونوا عامدين على فعل هذا فإن عليهم أن يبحثوا وأن يدققوا أكثر في هذه المسألة.. يجب عليهم أن يبحثوا عن الحق والحقيقة وأن يفتحوا أعينهم إلى ما يراد بهم وبغيرهم من المسلمين من التفريق والتمزيق. وإن لم يكونوا كذلك، فإنهم لا يعدون أن يكونوا لوصفاً

يريدون تمزيق وحدة المسلمين وكلمتهم واجتماع صفهم .
فهم لصوص بلحاظ أنهم يريدون أن يسرقوا من المسلمين وحدتهم
وأتحادهم ، ومثل هذه السرقة عظيمة عند الله جل وعلا؛ لأن الله سبحانه
وتعالى في واقع الأمر لم ينزل الأديان لتمزق وحدة العباد واتفاقهم
واجتماعهم ، بل إن الأديان نزلت أساساً لتوحيدهم في كل حيثيات
وجودهم وكيانهم . توحيدهم في العبادة وتوحيدهم في الاتجاه إلى
خالق واحد وتوحيدهم في الالتفاف حول نبي واحد وكتاب واحد وما
إلى ذلك من دواعي الاجتماع والاتحاد .

نماذج من الاختلاف بين الفقهاء

إن عندنا من الأحاديث النبوية الشريفة - كما هو شأن الآيات القرآنية
الكريمة المختصة بالجانب التشريعي هذا - ما يعتبر أحاديث أحكام ؛
لأنها تترتب عليها أو يستنبط منها أحكام شرعية . وقد وقع بين الفقهاء
فيها نزاع واختلاف بسبب اختلاف فهمهم وأفهامهم لها ، ومنها :

الأول: الاختلاف في حلية الضبع وحرمتها

قوله ﷺ : «كل ذي ناب من السباع فأكله حرام»^(١) ، وحينما نأخذ الضبع
كمثال فإننا نجد أن لها ناباً تنهش به ، والفقهاء حيال هذا الأمر ينقسمون
على أنفسهم إلى قسمين ؛ فقسم منهم يرى أن الضبع حرام أكلها ؛ لأنها
تملك ناباً ، وبالنتيجة فهي حرام ؛ لأنها بالإضافة إلى كونها ذات ناب فهي
من السباع .

أما القسم الآخر منهم ، فلا يقول بحرمتها ؛ لأنه يرى أن هذا الناب

(١) الكافي ٦ : ٢٤٤ - ٢٤٥ / ٢ ، مسند أحمد ٢ : ٢٣٦ .

الموجود عندها لا تستعمله دائماً في عملية النهش، وإنما هو يُستخدم في حالات قليلة معينة، فهي تتغذى على الرمم^(١) وتتقوّت غالباً عليها، ولا تستخدم نابها إلا في حالات معينة، ولا تستخدم مخلبها كذلك لأجل القوت إلا في حالات نادرة كما ذكرنا.

وبهذا اللحاظ والاختلاف في فهم الدليل وجدنا أن أثر ذلك قد خلّص إلى مرحلة الفتوى، فمن حلّل حكم عملية التحليل في اللفظ، ومن حرّم اقتصر على ظاهر اللفظ. وممن يقول بحرمتها المذهب الإمامي، أما المذاهب الإسلامية الأخرى فيعتبرونها من الطعام الحل وليست من المجموعات المحرمة.

وكان العرب يكتونها بعامر، وكانوا يتمدحون بها ويرون أن الإنسان حينما يموت فمن العار عليه أن يدفن فيما إذا مات على فراشه، ويذهبون إلى ما هو أبعد من هذا فيرون دفن الميت عيباً، ولذا فإنهم يتركونه لتأكل من لحمه العقبان والطيور والسباع وما إلى ذلك، يقول شاعرهم:

فلا تدفنوني إن دفني محرم عليكم ولكن خامري أم عامر^(٢)

وكان العرب يستخدمون عبارة «خامري أم عامر» لإخراج الضبع من وجارها؛ حتى يتمكنوا من اصطياها وأكلها، فهذا الشاعر يطلب من ذويه أنه إذا مات فعليهم ألا يقبروه بل أن عليهم أن يتركوه على الأرض، وأن ينادوا على أم عامر بهذه الكلمة كي تخرج وتأكله.

(١) ولذا فإنها تسمى الحيوانات الرميّة.

(٢) البيت لتأبط شراً، ويروى للشنفرى. الأمالي (السيد المرتضى) ٣: ١٥٨ - ١٥٩، شرح نهج البلاغة ١: ٢٢٤ - ٢٢٥.

وفوق هذا نجد أنهم كانوا يعتبرون الإقامة بالحضر ذلاً وعاراً، يقول شاعرهم:

الموقدون بنجد نار أودية لا يحضرون وفقد العزّ في الحضر^(١)

فكانت هذه النزعة وهذا اللون من التفكير موجودين عندهم، وهي نزعة مرتبطة بالصحراء وبخصائصها وأثرها. يروي المؤرخون أن قوماً خرجوا لصيد، فطردوا ضبعة حتى ألجئوها إلى خباء أعرابي، فأجارها وجعل يطعمها ويسقيها، فبينما هو نائم ذات يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت، فجاء ابن عمّه يطلبه، فوجده مقتولاً ملقى، فعرف أنها الضبع فتبعها حتى وجدها فأوتر قوسه وقتلها وأنشد يقول:

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاق الذي لا قى مجيرام عامر
أعدّ لها لما استجارت بيئته أحاليب البان اللقاح الدوائر
وأسمنها حتى إذا ما تمكنت فرته بأنياب لها وأظافر
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من يوجد بمعروف على غير شاكر^(٢)

على أية حال، فالفقهاء اختلفوا في حرمة الضبع وإن كانت ذات ناب؛ لأنها عند محلي أكلها لا تستخدم نابها للنهش إلا في حالات نادرة. وكما ذكرنا فإن المحرمون يقولون بأنها ذات ناب وهذا هو الظاهر من الحديث، أمّا المحلّون فيبنون الحكم على قاعدة هي أنه ليس المقصود بهذا الحديث الشريف كل ذي ناب من السباع، أي ليس المقصود وجود الناب عنده، بل لا بدّ أن يستخدم الناب في عملية التقوّت، بمعنى أن

(١) تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات، شرح شواهد الكشّاف: ٤٦٠.

(٢) المستطرف من كلّ فنّ مستطرف ١: ٤٥٢.

ينهش به ، وما لم ينهش به فإنه لا يكون محرماً.

دليل السنة الفعلية

وهؤلاء يستدلون كذلك على صحة رأيهم بالحلية بالسنة الفعلية؛ لأنهم يروون أن النبي ﷺ كان يأكله . وهؤلاء لهم دليلهم ، وهو عليهم حجة .

ونحن هنا لسنا بصدد مناقشة الدليل حتى نثبت أنه دليل صحيح أو مخطوء ، وأن صاحبه على صواب أو على خطأ ، لكن الذي نريد أن نبينه هنا هو أن أحد مناشئ اختلاف الفقهاء هو فهم النص ؛ فكل يفسر النص وفق فهمه ؛ وبالنتيجة فإنه يترتب عليه الاختلاف على صعيد الإفتاء .

الثاني: ميراث البنت وحدها

وكمثال آخر على هذا الاختلاف ما لو أن إنساناً مات وترك ابنة واحدة فإنها ترث ثروته كاملة ؛ نصفها بالفرض ونصفها بالرد الذي هو فرض أيضاً ؛ بدليل قوله تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾^(١) ، وهذه ابنته ، وهي أقرب الناس إليه ، فهي تتقرب إليه مباشرة دون واسطة ، كما هو الحال عند ابنة الأخ مثلاً فإنها تتقرب إلى عمها بواسطة هو أبوها .

هذا ما عند الإمامية حول هذه المسألة وأما ما عند غيرهم من أبناء المذاهب الإسلامية الأخرى فإنهم يستدلون بحديث طاووس : «ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي فهو لأولى رجل ذكر»^(٢) .

(١) الأنفال : ٧٥ .

(٢) مسند أحمد : ١ : ٢٩٢ ، ٣٢٥ ، سنن الدارمي : ٢ : ٣٦٨ - ٣٦٩ ، صحيح البخاري : ٨ : ٥ ،

نقد الرواية

وهذا الحديث يرويه طاووس هذا عن النبي ﷺ، ويعني أن البنت لها حصتها الشرعية من الميراث، وما تبقى فلا يرد عليها وإنما يعطى لعصبة أبيها.

نظرة حول الروايات

إننا لا نتعامل مع الروايات الواردة إلينا عن النبي ﷺ عن طريق الصحابة ومن تبعهم نظرة عشوائية، بل إننا ندقق في الرواية على صعيدين: على صعيد السند، وعلى صعيد الدلالة. ومعنى هذا أنه يجب أن تكون الرواية صحيحة أو موثقة أو حسنة حتى يمكن العمل بها^(١)، وأن تتوفر فيها الشروط المتكاملة لكي يمكن أخذ الحكم الشرعي منها، والأثر الشريف يقول: «أخوك دينك، فاحتظ لدينك»^(٢).

طاووس راوٍ مجروح

وطاووس نحن لا نثق به ولا بروايته؛ لأنه من نمط الشعبي وأمثاله^(٣) الذين كانوا يعيشون ضمن فلك الحكام، كما أنه (طاووس) معروف عنه أنه كان يجامل هؤلاء الحكام ويدهنهم؛ ولهذا فإنه لا يعترف له بالوثاقة

٦ - ٧ - ٨.

(١) فعلى صعيد دلالة الرواية نجد أن هناك بعض الروايات تكون تماميتها غير متحصلة في بعض الموارد التي يستدلّ بهذه الرواية لها، وحيثنذ فإن الرواية ربما تكون صحيحة سنداً لكنها لعدم تمامية دلالتها لا يصح الاستدلال بها في هذا الباب.

(٢) الأمالي (المفيد): ٢٨٣، الأمالي (الطوسي): ١١٠ / ١٦٨، بحار الأنوار ٢: ٢٥٨ / ٤.

(٣) كابن عمه، وقد مرّ الكلام عنه في ج ٣ / محاضرة (التوكل الواعي) من كتابنا هذا، وكعكرمة الذي مرّ الحديث وتحقيق حاله عنه كذلك في ج ٣ / محاضرة (الإمامة في القرآن) من كتابنا هذا.

فأحكام الله جل وعلا لا يمكن أن تؤخذ من طريق مشكوك في ناقله .
ثم إن هذه المسألة مسألة نظر فنحن نعتمد على رواية في هذا الباب
والآخرون يعتمدون على رواية أخرى غيرها، فینشأ بهذا الاختلاف بين
الفقهاء على صعيد الفتوى - أي أن الاختلاف في السند ورجاله من حيث
الوثاقة وعدمها - أحد مناشئ الاختلاف بين الفقهاء على صعيد مرحلة
الإفتاء؛ فمن يعتمد على رواية طاووس فإنه يعطي نصف تركة الميت
للبنات ويعطي النصف الآخر لعصبته - وهم أعمام البنات وأقاربها
الآخرون حسب الطبقات - استناداً إلى هذه الرواية؛ أما نحن فاستناداً إلى
الآية فإننا نعطيها النصف بالفرض والنصف الثاني بالرد، فالقرآن الكريم
يقول: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(١).

وبهذا فإننا نجد أن هناك ألواناً - كثيرة من الاختلاف من هذا النوع بين
الفقهاء . وباختصار فإن الاختلاف إما أن يكون بسبب فهم الدليل، أو
الاختلاف في فهم النص، أو الاختلاف في وثاقة الراوي أو عدمها، أو
الاعتماد على معنى ظاهر من النص الشريف دون النظر إلى المعاني
الأخرى التي يحتملها، في حين أن الآخر يأخذ بمعنى آخر غيره.

الثالث: رؤية الله تعالى

وكذلك من موارد الاختلاف رؤية الله جل وعلا يوم القيامة، فحين نقرأ
قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ نَاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾^(٢)، فإن بعض المسلمين
يقولون بأن هذه الآية تعني أن الله جل وعلا يمكن أن يرى يوم القيامة، أما
نحن فنقول لا يمكن ذلك، ونحن مضطرون إلى أن نأول هذه الآية إلى

(٢) القيامة: ٢٢ - ٢٣.

(١) الأنفال: ٧٥، الأحزاب: ٦.

معنى آخر غير الذي يوحي به ظاهرها؛ ذلك أن الله جل وعلا لو كان بالإمكان أن يرى فهذا يعني أنه سبحانه وتعالى جسم، وإذا كان جسماً فهذا يعني أن له أبعاداً، وإذا كان له أبعاداً فهذا يعني أنه صار محدوداً.

اتساع الكون

وهنا بيت القصيد؛ ذلك أنه تعالى إذا كان محدوداً فإنه لا يمكن أن يحيط بالسموات والأرض^(١)، أي أنه تعالى إذا محدوداً فكيف يمكنه أن يحيط بهذه السموات والأرض، وبهذا الكون كله، والذي أثبت العلم الحديث أنه يتسع في كل ثانية، بل يزداد اتساعاً هائلاً، وقد عبّر هو جلّ وعلا عن هذه الإحاطة بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾^(٢).

كما أن العلم قد اكتشف أن هناك مجرات تبعد عنا مليارات السنين الضوئية، وبيتعد بعضها عن البعض بسرعات عالية.

وبناءً على نظرية الانفجار الكبير «Big Bang» فإن الكون في توسع مستمر، وهذا يعني أن الله جل وعلا لا بد أن يكون قادراً محيطاً غير محدود حتى يتمكن من التصرف في هذا الكون كله^(٣).

ونظرية اتساع الكون تؤكدها الآية القرآنية الشريفة التي تقول: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(٤).

فإذا كان الله جل وعلا محدوداً فكيف يمكنه أن يحيط بهذا الكون

(١) ففاقد الشيء لا يعطيه.

(٢) النساء: ١٢٦. وبقوله: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ فصلت: ٥٤.

(٣) هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنه جلّ وعلا إذا كان جسماً وكان محدوداً فهذا يعني أنه فقير محتاج وليس بعني، أي أنه محتاج في وجوده إلى غيره، وهذا كفر صريح والعباد بالله؛ لأنه خلاف صريح القرآن الكريم والسنة الشريفة، ومسلمات العقائد الحقّة.

(٤) الذاريات: ٤٧.

كله؟ وكيف يمكن السماوات والأرض أن تكون جميعاً في قبضته وفي يمينه؟ ولذا فإننا نقول: إننا مضطرون إلى تأويل هذه الآية الشريفة وإلى رفض الأخذ بظاهرها والقول بأنه تعالى يمكن أن يرى.

وليس الإمامية وحدهم هم من يرون هذا الرأي، وإنما هناك غيرهم من أبناء المذاهب الإسلامية فعائشة زوجة الرسول الأكرم ﷺ ترى مثل هذا^(١)، وابن القيم الجوزية تلميذ ابن تيمية يذهب إلى هذا الرأي أيضاً، وهناك جماعة أخرى غيرهم من المحققين يذهبون إلى أن الله جل وعلا لا يمكن أن يرى في الدنيا ولا في الآخرة.

إذن فالرؤية هنا إما أن تؤول بأنها رؤية عقلية^(٢)، أو أن تكون على تعبيرنا العامي رؤية نعيم الله جل وعلا ورؤية عطائه سبحانه وتعالى، بمعنى أن هؤلاء ينتظرون عطاء الله ورحمته ومنتظرون رأفته. فهذا هو المقصود من الآية الكريمة.

رجع

إذن فالمفسرون - كما ذكرنا - اختلفوا في معنى ﴿مَا﴾ المذكورة في الآية الكريمة وهل إنها مصدرية أو إنها موصولية. وهكذا فنحن إزاء هذه الآية على رأيين للفقهاء:

الرأي الأول: أنها مصدرية

وبناءً على هذا فإن معنى الآية الكريمة حينئذٍ يصبح: ولا تستعملوا أساليب الزواج التي كان يستعملها أبائكم من قبل. ومن هذه الأساليب

(١) جامع البيان ٧: ٣٩٢/١٠٦٧١.

(٢) وتسمى الرؤية القلبية، كقول القائل: رأيت الله كبيراً.

التي كانت سائدة آنذاك :

الأول: زواج المقت

وهو زواج معروف مشهور معمول به في الجاهلية. وهو أن يتزوج الابن زوجة أبيه كما كان يعمل به في الجاهلية، منه فعل أمية جد أبي سفيان حيث إنه طلق زوجته وزوجها من ابنه.

وهذه الأمور بطبيعة الحال لا نقاش فيها ولا أثر لها؛ لأن الإسلام يجب ما قبله كما هو وارد عن الرسول الأكرم ﷺ^(١)، ولولا ذلك لوقع الكثير من المسلمين في مشكلة أدبية أو مشكلة التزامية فقهية؛ ذلك أن معظم الذين عاصروا النبي ﷺ كان زواج أمهاتهم قائماً على هذه الطريقة، بل إنه في بعض الأحيان لم يكن هناك عقديين المتزوجين، فكان الرجل إذا نوى الزواج فإنه بمجرد أن يضع باب خبائه قبال باب خبائه المرأة فإن هذا يعتبر عقداً وتعتبر المرأة زوجة له. وبناءً على هذا فإننا نقول: «لكل قوم نكاح»^(٢)، وهذا يعني أن الإسلام يجب ما قبله.

إذن فالآية الكريمة تخاطب المسلمين وتأمروهم بأن يتعدوا عن النهج الذي كان يسلكه أبائهم فيما إذا أرادوا الزواج؛ لأن زواج آبائهم لم يكن زواجاً شرعياً، وليس هو بالزواج الذي يليق بمكانة الإنسان التي وضعه الله فيها. وهذا يعني أن الطريقة التي كان آباء المسلمين يستخدمونها لا سبيل إلى تطبيقها في عهد الإسلام الجديد، بل إن عليهم أن يتزوجوا وفق التشريع الإلهي الجديد الذي يتعامل مع المرأة على أنها كيان محترم

(١) المجازات النبوية : ٥٤ / ٣٢، تخريج الأحاديث والآثار : ٢ : ٢٧.

(٢) تهذيب الأحكام : ٧ : ٤٧٢ / ١٨٩١، المهذب (ابن براج) : ٢٥٥.

وليس كياناً بهيمياً أو سلعةً تورث وتزوج كيف يشاء الوارث.

الثاني: زواج الشغار

وهو أن من لا يملك مهراً يتزوج به فإنه يُزوّج أخته من شخص مقابل أن يزوجه ذلك الشخص أخته. وهذا النوع من الزواج باطلٌ وإن كان ما زال موجوداً إلى يومنا هذا في بعض البلاد الإسلامية، ويسمى عند البعض (بالتحجير)، يعني أن المرأة لا يسمح لها أن تتزوج إلى أن يحصل أخوها على زوجة يبادلها بها ويتزوجها إزاءها.

سلبيات زواج الشغار

وفي هذا الزواج جهات سلبية كثيرة، نذكر منها:

الأول: سلب الفتاة حقّ الذمة المالي

فهذا الزواج يسلب المرأة حقّها من الزواج، وهو المهر. فالمهر لها وليس لأخيها، لكنه مع ذلك - وفق هذا الزواج - يأخذه ليتزوج به أخت الذي يتزوج أخته، وهي سرقة كما هو واضح. إن الاستيلاء عليه وإن كان - المهر - شيئاً بسيطاً يعدّ لصوحيّة.

الثاني: سلب الفتاة إرادتها

كما أن هذا الزواج يلغي إرادة المرأة إلغاءً كاملاً، ويعطيها إلى أخيها الذي ليس له الحق في أن يزوجه دون رضاها. وهذا هو الظلم بعينه، بل إنه الجريمة بعينها؛ لأن المرأة إذا ألغيت إرادتها كان العقد فاسداً، ومعنى كون العقد فاسداً أن هذا ليس بزواج، بل هو زنا، وأن المتولّد من مائه ليس ابناً شرعياً. فالعقود يجب أن تنبعث من الرضا، ويجب أن يضمن الطرفان رضا بعضهما وهما العاقدان.

إذن فالمشروع الإسلامي يراعي هذه الجنبه ويأمر بوجوب إعطاء المهر للمرأة وإن لم يكن مالاً؛ لأنه (المشروع الإسلامي) لا يشترط في المهر أن يكون مالاً، بل إنه يعتبر كل ما له مالية جائزاً العقد فيه كمهر، ومن ذلك تعليم آية من القرآن أو غير ذلك. بمعنى أن كل ما يمكن أن يؤول إلى مائيّة فإنه يصحّ جعله مهراً للمرأة.

وليس التعليم هنا مختصراً على تعليم القرآن الكريم، بل إنه يشمل حتى تعليم القراءة والكتابة، أو يعلمها نظريّة علميّة معيّنة ذات فائدة للمرأة فيعلمها إيّاها، ويجعلها مهراً لها في زواجه منها.

إكراه بعض الفتيات على الزواج من أقربائهن

إذن فزواج الشغار زواج باطل من هذه الجهة. وتأسيساً على هذا فإننا نخرج على مسألة أخرى هي مسألة إجبار بعض النساء على الزواج من أقاربهن. وهي مسألة - كما قلنا - فيها جريمة لأن العقد يكون حينئذٍ باطلاً، ويحصل إشكالٌ في هذا الوطاء، وفي الأولاد المتولدين منه. كما أنها تنطوي على ضرر نفسي وضرر اجتماعي وضرر صحي أيضاً؛ فالانغلاق على الأسرة نفسها وعدم السماح للفتاة بأن تتزوج من أسرة أخرى يؤدي إلى مضاعفات اجتماعية، منها أن هذه الأسر تتحول إلى طوائف اجتماعية تترتب عليها آثارٌ مرعبة. فضلاً عن الأضرار الصحية التي تترتب على زواج الأقارب كما أثبتته العلم الحديث.

فهذه الأساليب إذن كانت متبعة عندهم في الجاهلية، وهي أنكحة باطلة؛ ولذا فإن القرآن الكريم هنا ينبّه المسلمين إلى هذه الحقيقة، ويحذرهم من الولوج فيها، ويقول لهم بأن آباءكم إنما كانوا يستعملون

نكاحاً غير مشروع وغير صحيح، ولا يمكنكم أن تستعملوا مثل هذه الأنكحة الآن.

أنواع الحرمة في الزواج

ثم إن النكاح تارة يكون حراماً حرمة مؤبدة، وتارة يكون حراماً حرمة مؤقتة. فالتحريم المؤبد من قبيل حرمة الأخت أو الأم أو البنت أو أخت الزوجة ما دامت الأخت في عصمة زوجها إلا في الإماء كما هو مروى عن سفيان حيث إنه كان يرى جواز الجمع بين الأختين الأمتين^(١).

وهذا الرأي يخالف المسلمين بصورة عامة لأن الآية الكريمة فيها عموم، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٢)، فيحرم الجمع بين الأختين مطلقاً؛ لأنه يؤدي إلى العقوق والى قطع الأرحام؛ لما في هذا الأمر من غيرة من المرأة. فالمرأة حينما يتزوج زوجها عليها فإنها تأكلها الغيرة، وهذا الأمر يتفاقم أكثر حينما تكون الزوجة الثانية أخت الزوجة الأولى ذلك أنها سوف تحتل منها في نفسها وسوف تكرهها وتحقد عليها، وبالتالي فإن هذا يؤدي إلى حدوث القطيعة والعقوق بينهما.

إذن فالإسلام ينبه إلى أن تلك الأساليب التي كانت سائدة في الجاهلية توضع وتطبق بغير ضوابط عقلية أو ضوابط شرعية، فكان للشخص في

(١) روى عبد الرحمن بن قدامة عن ابن منصور عن أحمد وسأله عن الجمع بين الأختين المملوكتين أحرام هو؟ قال: لا أقول: حرام، ولكن نهى عنه. ثم قال ابن قدامة: وظاهر هذا أنه مكروه غير محرم. الشرح الكبير ٧: ٤٩٠، المغني ٧: ٤٩٣.

وقال السرخسي: وكان عثمان يقول: أحلتها آية وحرمتها آية، فكان يتوقف في ذلك، ولكننا نقول: عند التعارض يترجح جانب الحرمة. المبسوط ٤: ٢٠١.

(٢) النساء: ٢٣.

الجاهلية الحق في أن يتزوج بأي عدد شاء من النساء بمجرد أن يملك المال. وقد كان بعض العرب تحته عشر من النساء، وكان بعضهم تحته أكثر من ذلك، وكانوا على هذه الحال حتى بعد دخولهم في الإسلام فبعث النبي ﷺ خلفهم وأمرهم بأن يختاروا أربعاً منهن وأن يطلقوا الباقي.

وأود أن أذكر هنا أنه قد وردتني بعض الرسائل التي تدور حول قضية العنوسة، وفيها تساؤلات حول عدم التشجيع على تعدد الزوجات لحل مشكلة العنوسة وللقضاء على العدد الكبير من العوانس، وهو عدد يتزايد هذه الأيام. وفي واقع الأمر أن تعدد الزوجات وُضع لحل مشكلة اجتماعية أو غيرها، أما الزواج بهذه الطريقة التي يدعو لها أصحاب هذه الرسائل التي وردتني فربما تخلق مشكلة؛ أعني بها المشاكل الاقتصادية وغيرها، في حين أن هناك أساليب أخرى يمكن عبرها أن نتخلص من هذا الفائض. أما التعدد بدون سبب فهو مشكلة في الواقع؛ لأن الله جل وعلا حينما أعطى هذه الرخصة فإنما أعطها لحكمة يراها لا لمجرد التشهي. وقد تطرقنا إلى هذا في محاضرات أخرى.

الرأي الثاني: أنها موصولة

وبناءً على هذا الرأي أو هذا الفهم للآية فإن معناها يصبح: ولا تتزوجوا الزوجات اللواتي تزوجهنّ أبواؤكم، أو اللواتي كنّ زوجات لهم. وبهذا المعنى فإن زوجة الأب يحرم على الابن أن يتزوجها لأنها تعد بمنزلة الأم.

حول حرمة الزواج من زوجة الجد

وتأسيساً على هذا الرأي فإنه يمكن أن يرد سؤال في البين هو: هل إن

الزواج من زوجة الجد حرام أم لا؟ إن القرآن الكريم قد استعمل لفظة الجد بمعنى الأب؛ سواء كان جداً للأُم أو جداً للأب. وهذه النقطة مثلت دوراً ضخماً في تاريخنا؛ لأنه إذا اعتبرنا أن الجد للأُم أب، فإن ذلك يعني أن سيدي شباب أهل الجنة عليه السلام أو أولاد رسول الله ﷺ. وهذا الأمر يعد مصيبة ومشكلة بالنسبة إلى السلطات الحاكمة آنذاك؛ ولذا فإننا حينما نرجع إلى التاريخ نجد أن هذه المشكلة قد أثرت في تلك الأيام؛ لأنها قد خلقت مشكلة داخل البلاط الأموي والبلاط العباسي.

وهذا هو الذي دفع بأصحاب هذه البلاطات إلى أن يحشدوا طاقات كبيرة لإبعاد الحسن والحسين عليهما السلام عن رسول الله ﷺ، وقد جندوا شعراءهم وأدباءهم لخدمة هذا الغرض، ودفَعوا بكل طاقاتهم نحوه، وجندوا أيضاً حتى من ينتمي إلى الشريعة، وهم وعاظ السلاطين، فسخرّوهم لخدمة هذا الهدف ولتحقيقه، يقول أحد الشعراء:

لكم رحمٌ يا بني بنته	ولكن بنو العم أولى بها
قتلنا أُمّيةً في غابها	فنحن أحقُّ بأسلابها
ونحن ورثنا ثياب النبي	فكم تجذبون بأهدابها ^(١)

والعرب كما هو معروف لا يعرفون نظرية الانتخاب، وإنما درجوا وعاشوا على نظرية الميراث، حيث يموت الأب فيأتي الابن ليرث ملكه وسلطانه. وهذه النظرية كانت متجذّرة عندهم آنذاك؛ ولذا فإن عبد الله بن المعتز صاحب هذا الشعر يقول: صحيح أن الحسن والحسين أولاد بنت النبي ﷺ لكن هذا الأمر لا يعدو أن يكون أوهاماً، أي أمر كونهم أبناء

(١) ديوان ابن المعتز: ٢٩، الغدير ٦: ٥٢.

لرسول الله ، وأنهما إمامان وأن لهما الخلافة من بعده . فهو يقر بأنهما سبطان وليسا ولدين . وهذا الاعتقاد وهذا التوجيه وهذا التضليل والتهريج هو خلاف ما درج عليه النبي الأكرم ﷺ ؛ لأنه (صلوات الله عليه) لما عرف أن هذا سوف يحدث من بعده ، وأن ممّن يدّعي أنه من أمّته سوف يقول بهذا ، وضع لهذا الأمر أساساً ، فكان يعبر عن الحسن والحسين ﷺ بقوله : «الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا»^(١) ، وعن الإمام الحسن ﷺ بقوله : «إن ابني هذا سيد»^(٢) ، وعن الإمام الحسين ﷺ بقوله : «أتاني جبرائيل فأخبرني أن أمّتي ستقتل ابني هذا»^(٣) إلى آخره من الأخبار والروايات الدالة على هذا المعنى .

فالنبي الأكرم ﷺ وضع لنا الأسس التي يجب أن نتبعها ؛ لأنها صادرة عن قناة التشريع الإلهية .

إذن فالفقهاء يعتبرون الجدّ للأب أباً ، والجد للاب أباً أيضاً . ومعنى ذلك أنه حتى على نظرية الميراث فإن الحسن والحسين ﷺ هم أولاد ، والأولاد حكمهم أن يرثوا كما لو كانوا أولاداً مباشرة . وهذا هو الذي يقع فعلاً في كل زمان ، فمن ناحية الزواج لا يمكن الرجل أن يتزوج زوجة جدّه لأُمّه أو جدّه لأبيه ؛ لأنهما محرمتان عليه . ومع كل هذا فإن هذه القضية ظلت تمثل دوراً ضخماً في تاريخ المسلمين - كما ذكرنا - لأنها تمسّ قضية يؤمن بها الشيعة ، ولأنها تمسّ خلافة أمير المؤمنين ﷺ ،

(١) دعائم الإسلام ١ : ٣٧ ، علل الشرائع ١ : ٢١١ ، الإرشاد ٢ : ٣٠ .

(٢) مسند أحمد ٥ : ٣٧ ، ٤٤ ، ٤٩ ، ٥١ ، صحيح البخاري ٣ : ١٦٩ ، ١٧٠ ، ٤ : ١٨٤ ، ٢١٦ ، ٨ :

٩٩ ، سنن أبي داود ٢ : ٣١١ / ٤٢٩٠ ، ٤٠٥ / ٤٦٦١ ، وغيرها كثير .

(٣) المستدرک علی الصحیحین ٣ : ١٧٦ - ١٧٧ ، قال : «وهذا حديث صحيح على شرط

الشيخين» .

وخلافة الحسن والحسين عليهما السلام.

ثم إن الشيعة قد أعطوا وقدموا تضحيات كثيرة من أجل هذا الاعتقاد، وكانوا صامدين على هذه النظرية وعلى القول بها مع أنها قد كلفتهم كثيراً أو كلفتهم الكثير الكثير من الأموال، والأرواح، والتهجير، وسلب الحقوق والمعاش، وما إلى ذلك. لقد وطّئوا أنفسهم على هذا الأمر، وعلى القول بهذه النظرية مع علمهم بأنها ستكلفهم دماءهم ورقابهم ولا أقل من أموالهم وأرزاقهم، فصمدوا ولم يتراجعوا ولم يهنوا أبداً. إذن فزوجة الجد هي زوجة أب؛ سواء كان الجد للأب أو للأم؛ وبهذا فإن العقد يحرم عليها.

هل إن النهي يتناول الوطاء أم العقد فقط؟

إن الزواج أو النكاح الذي أشارت إليه الآية الكريمة، والذي نهت عنه قد ذكر فيه رأيان للمفسرين هما.

الأول: أنه يشمل الوطاء.

الثاني: أنه يقتصر على العقد.

وهذا يعني أنه لو أن أحداً عقد على امرأة ولم يدخل بها ثم توفي، فهل هذه المرأة مشمولة بهذا الحكم أم لا؟

وللجواب عن هذا لابد من الرجوع إلى نظرة الفقهاء إلى النكاح، فمن يقل منهم: إن النكاح أساسه العقد فإنه يرى هذه الحرمة ثابتة هنا، أي لمجرد العقد، أما الذي يرى غير ذلك، فيعتبر أن النكاح لا يكون إلا بالوطء، وأن أساسه الوطاء فإنه يعتبرها غير محرمة؛ لأنها حينئذ ليست بزوجة ولا مدخول بها.

والذي عليه أغلب الفقهاء هو الحرمة حتى لمجرد العقد؛ لأن الوطاء يشتمل على العقد ضمناً؛ لأنها امرأة سواء كانت معقوداً عليها فقط أو مدخولاً بها، فإنها تحرم على ابن الزوج أو ابن ابنه أو ما إلى ذلك .
وعليه فالآية الكريمة تنبّه إلى هذا المعنى، وتنهى المسلمين عن الولوج والتوغّل فيه؛ لأنه نكاح باطل بأي صورة كان؛ سواء كان بالعقد فقط، أو بانضمام الوطاء معه .

المبحث الثالث: في أن الإسلام يجب ما قبله

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿الْأَمَّا قَدْ سَلَفَ﴾، أي أن ما حدث قد رفع الله تبعته؛ لأن بعض الناس ينظرون إلى الأمور بهذا الشكل، فيتهم أحدهم الآخر بأن أباه كان متزوجاً على هذه الطريقة من النكاح الباطل. فالآية تريد أن تقول لهؤلاء بأن ما سلف قد سلف، وقد عفا الله عنه ورفع تبعته .

اتهام الشيعة بأن آباءهم مجوس

ومن هذا أن البعض يتهم طائفة من المسلمين بأن آباءهم كانوا مجوساً، وهذا أمر عجيب؛ لأن هذا المتهم غيره بأن أباه كان مجوسياً لم يكن أبوه في الجاهلية إلا وثنيّاً، فلماذا يعدّ هذا الأمر منقصة وعيباً عند البعض ولا ينظر إليه في نفسه على أنه كذلك؟ إن الإنسان يجب أن يتحلّى بالواقعية، وأن يصطبغ بصبغة الموضوعية في اتهاماته وفي انتقاداته وفي تلميحاته ومناقشاته، فيرى العيب في نفسه قبل أن يرى العيب في غيره^(١).

(١) ورد في الأثر الشريف عن رسول الله ﷺ أو عن أمير المؤمنين عليّ أنهما قالا: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس». نهج البلاغة / الخطبة: ١٧٦، مسند الشهاب: ١: ٣٥٨.

لقد جاء الإسلام وخلصنا من مجتمع الجاهلية، فجبّ ما قبله؛ حتى يرفع تبعته، وحتى ينبّه المسلمين إلى أنهم غير مسؤولين عمّا كان يفعل أبائهم، لكن عليهم ألاّ ينتهجوا طريقتهم في الأنكحة الفاسدة وفي غيرها.

المبحث الرابع: في معنى الفاحشة

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿إِنَّهٗ كَانَ فَاحِشَةً﴾، والفاحشة هي الأمر القبيح قبحاً شديداً، فالقرآن الكريم والروايات النبوية الشريفة تعبّر عن كل ما هو قبيح قبحاً شديداً بأنه فاحشة؛ لأنه يترتب عليه عدة أمور:

الأول: اصطدامه بالطباع

ذلك أنه أمر غريب عن المألوف عن العادات، عن الطبيعة البشرية، ويصدم بها.

الثاني: أنه ينشر العهر والرذيلة داخل الأسرة

إننا إننا نأخذ من حضن الأم الدفء العاطفي، والترقية السليمة، والقداسة في العلاقة؛ لأن الأم وهي في طور التربية وفي طور التنشئة تنشئة وتربيةً صحيحتين وسليمتين ينظر لها نظرة قداسة. يروى أن شاباً كان مع إخوان له، فقال لهم: أريد أن أدخل إلى الدار ثم أعود إليكم، فلما دخل فيها تأخر فترة ثم خرج، فلما سألوه عن سبب تأخره قال: كنت واضعاً خدي على تراب الجنة. فقالوا له: أنت في الدنيا، فما لك والجنة؟ قال: نعم، أنا في الدنيا، لكن رسول الله ﷺ قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات»^(١)، فأنا كنت أقبل موضع قدم أمي.

(١) مستدرك وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، عن لب الباب للقطب الراوندي، مسند

وفعلاً فإن حُضن الأم لا يجاريه شيء طهارةً - أو قداسةً .. الحجر الذي وضع الله عز وجل فيه الحنان والدفء العاطفيين اللذين تغدقهما الأم على ولدها كي تنشئه تنشئة سليمة، فيخرج إلى الحياة سليماً معافياً، كما أنه مدرسة يغتذي عليها الولد، يقول الشاعر:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق (١)

فهذا الحجر يجب أن نكرمه، وألاً نحوّله إلى غريزة؛ ولذا فقد عبر القرآن الكريم عن هذه الحالة (تحويل هذا الحجر إلى غريزة) بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاجِحَةً﴾، فاعتبرها فاحشة، والفاحشة مما ينبغي اجتنابها والابتعاد عنها، وعدم سلوك سبيلها.

المبحث الخامس: في معنى المقت

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَمَقْتًا﴾، إن بعض المتأثرين بالغرب من المسلمين ومن غيره يشكل على التشريع الإسلامي في هذا الخصوص فيقول: لماذا يحق للرجل أن يتزوج أكثر من امرأة ولا يحق للمرأة أن تتزوج بأكثر من رجل؟ وكأننا هؤلاء المعترضون يطالبون بالمساواة بين الرجل والمرأة في هذا المجال، والحال أن المساواة لا تتحقق في كل شيء بل إن تطبيقها في كل شيء لا يحقق العدل بل يحقق الظلم، فمن العدل ألا تكون هناك مساواة.

الشهاب ١: ١٠٢/١١٨، كنز العمال ١٦: ٤٦١/٤٥٤٣٩.

(١) وتامها:

بالريّ أورك أيما إيراقي
شغلت مآثرهم مدى الآفاق

الأمّ روض إن تعاهده الحيا
الأمّ أستاذة الأساتذة الألى

الأسرار الفاطميّة: ٥٢٥.

فالمجرم مثلاً لا يمكن أن يُعامل معاملة الإنسان التقوي أو الإنسان المستقيم الصالح في حقوقه كافة؛ لأن ذلك مجرم متمرس على الإجرام محترف له شغله الشاغل الاعتداء على الآخرين واستلاب حقوقهم والسيطرة على مقدراتهم وحقوقهم، أما هذا الإنسان الصالح فإن شغله الشاغل هو خدمة الآخرين وتوفير الأجواء المناسبة داخل المجتمع ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً وطبيعياً. وحينئذٍ فإن معاملة هذين على حد سواء يكون فيه ظلمٌ لهذا الإنسان، بل وظلمٌ للمجرم لأن هذا فيه مساعدة له وتشجيع له على الجريمة والإجرام.

وعليه فهذا خلاف العدل وكذلك الأمر هنا فإن العدل لا يمكن أن يتحقق بالمساواة بين الرجل والمرأة في هذا الباب؛ لأن الرجل إذا كان قد أبيض له أن يعدد أو أن يتزوج بأكثر من امرأة فإن الماء حينئذٍ سوف لن يختلط وسوف يبقى نسب المتكونين من هذا الوطاء معروفاً فأمهااتهم معروفة وأبوهم معروف، أما المرأة فإذا عددت فإن ذلك يستلزم أمرين:

الأول: اختلاف الأنساب لأن هذا المتولد من هذا الوطاء سوف لن يعرف أبوه فيما إذا كان هو الواطئ الأول أو الثاني أو الثالث وما إلى ذلك.

الثاني: أن ذلك يورث الحقد والعداوة والبغضاء؛ لأن الإنسان بطبعه يحب أن يستأثر بزوجه وبالجنين الذي في بطنها، فحينما تحصل حالة التعدد هذه سوف تتشاح المسألة وتنتشرُ وسينتشرُ الحقد بينهم؛ لأنهم حينئذٍ كلٌّ يريد أن يدعي أو يريد أن يضم هذه الزوجة تحت جناحه وأن يأخذ الجنين الذي في بطنها إليه مع أنه ربما لا يكون ابناً له ولم يكن قد انعقد من نطفته. ولهذا فإن في بعض المجتمعات نجد أن المرأة إذا انحرفت فإن أيسر ما يكون عند زوجها هو قتلها؛ لأن الحقد يربو في هذه

المسألة ويتصاعد ويأخذ بخناق الزوج حتى يقوده إلى هذه الجريمة. فهذه المسألة إذن مما يتصل بالغريزة والطباع. والواقع أن هذه الخصلة هي خصلة محببة للمرأة، بل وتعتز بها لأنها تحب أن يغار عليها زوجها وأن يندفع للدفاع عنها بكل ما أوتي من قوة وطاقة؛ لأنها حينئذ سوف تستشعر شدة حبه لها، فإذا صار البناء أن يكون حجر المرأة مؤهلاً لأكثر من رجل فإن هذا يعني أننا قد لوثنا الأسرة بجرائم أخلاقية تؤدي إلى إفسادها وإفساد المجتمع في النتيجة، كما أننا نكون قد خلقنا المقت وهو البغض والعداوة والشنآن داخل الأسرة وداخل المجتمع.

المبحث السادس: ضرورة النسب الطاهر

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾، وهذا المقطع من الآية الكريمة هنا يقرر أن هذا الطريق الذي سلكه آباؤهم هو من أسوأ الطرق؛ لأنه طريق غير نظيف ولا يؤدي إلى مسارٍ نظيف أبداً. فزوجة الأب هي أم ثانية وبعض زوجات الأب ربما تعطي من وقتها ومن نفسها ومن حبها وحنانها وعاطفتها لأبناء زوجها أكثر مما تعطيه الأم نفسها، فكثير من زوجات الآباء كان لهنّ أدوارٌ كبيرة وضحمة في حياة أبناء أزواجهن بما مثلنه من دور هو تمام دور الأم ويحوي جميع خواصه.

كان عقيل بن أبي طالب صاحب طنفسة تفرش له في المسجد فيفتي الناس بعلم الأنساب، فإذا ما أراد أحد أن يتزوج أو يصاهر فإنه يلجأ إليه فيخبره بخواص القبيلة التي تنتمي إليها المعنية أو الأصهار المعنيون. يروى أن أحد الأثرياء في ذلك الزمان سئل عن ابنه فقال: والله لهو نعم

الولد عقلاً وتربية. فقيل له: فكم تعطيه في الشهر مصروفاً؟ قال: ديناراً واحداً. فقيل له: إن ثلاثين ديناراً لا تفي باحتياجاته، فكيف بدينار واحد؟ فقال: إن ثلاثين ديناراً أسرع في نقص الثروة من السوس في الخشب.

والشاهد هنا هو قولهم له: نشهد أنك من بني فلان، فبعض القبائل معروفة مثلاً بالبخل وبعضها بالكرم وبعضها بالشجاعة وما إلى ذلك، وكان العرب يتسابقون للزواج من القبائل المعروفة بالصفات الحسنة كالصولة والشجاعة والكرم والمجد؛ ولهذا فإن أمير المؤمنين عليه السلام حينما أراد أن يتزوج بعد وفاة الزهراء عليها السلام استدعى أخاه عقيلاً وقال له: «انظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب؛ لأتزوجها فتلد لي غلاماً فارساً، يكون ناصراً وعضداً لولدي الحسين بطف كربلاء». فقال له عقيل: عليك بفاطمة بنت حزام الكلابية؛ فليس في العرب من هو أفرس وأفتى من أهلها؛ فإن من قومها مُلاعب الأسنّة، ومهلهاً، وعامراً الذي يقال عنه: لو سقط نجم من السماء لالتقطه برمحه ^(١).

وأهلها هم الذين افتخر بهم لبيد الشاعر في مجلس النعمان بقوله:

نحن بنو أم البنين الأربعة ونحن خيرُ عامرِ بنِ صعصعة
الضاربون الهامَ وسطَ الخيضة والمطعمون الجفنة المددعة ^(٢)

فخطبها أمير المؤمنين عليه السلام وتزوجها وكانت كالأم فقد رعت الحسين عليه السلام رعاية ليس بعدها رعاية، وحينما توفي أمير المؤمنين عليه السلام كان حبها

(١) انظر: عمدة الطالب: ٣٥٧، بطل العلقمي ١: ٩٧، وليس فيه: «يكون ناصراً...».

(٢) ديوان لبيد بن ربيعة (ضمن ديوان الفروسيّة): ١٦٨.

للحسنين عليهما السلام أشد وأكبر حتى إن بعض المؤرخين يروي فيقول: إنها كانت تقول لأمير المؤمنين عليه السلام: لا تنادني بفاطمة، بل نادني بكنتي؛ كيلا يسمع الحسنان اسم فاطمة ويتذكرا أمهما عليهما السلام مما يسبب لهما الألم. فكانت تحذب على خدمة سيدي شباب أهل الجنة خدمة منقطعة لا نظير لها، وأبرز مواقفها يوم أن رجع ناعي الطفّ ينعى الحسين عليه السلام، يقول بشر بن حذلم: أمرني الإمام السجاد عليه السلام بأن أدخل المدينة قبلهم وأنعى الحسين عليه السلام ولو ببيتين من الشعر، فدخلت ووقفت على مرتفع وصرخت:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها قتل الحسين فأدمعي مدارئ
الجسم منه بكربلاء مضرج والرأس منه على القنّاة يدارئ

يقول: فقلبت المدينة رأساً على عقب وخرج الرجال والصبيان، وخرجت من بينهم امرأة تشق طريقها إلي وكانت تذود الناس إلى أن قربت مني فوقفت وقالت: يا هذا أنت الناعي ريحانة رسول الله! قلت: بلى قالت: بالله عليك، أخبرني عن الحسين هل هو حي أم ميت؟ قلت: عظم الله لك الأجر بأبي عبد الله. يقول بشر: نظرت إليها وكان على كتفها طفل، فلما نعت لها الحسين انهدل كتفها وسقط الطفل من على كتفها إلى الأرض فصاحت: ويحك لقد قطعت نياط قلبي ^(١).

فكان الناس يسمعون بعد ذلك ندبتها بعد أن تخرج إلى البقيع لتندب أولادها وتندب الإمام الحسين عليه السلام فقد كانت تخرج من دارها تحمل طفل أبي الفضل العباس وتقف خارج المدينة، وتندبهم بأشجى ندبة:

لا تدعوتني ويك أم البنين تذكريني بليون العرين

(١) مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ٢٣٩، اللهوف في قتلى الطفوف: ١١٥.

كانت بنون لي أدعى بهم واليوم أصبحت ولا من بنين
 أربعة مثل نسور الربى قد عالجوا الموت بقطع الوتين
 يا ليت شعري أكما أخبروا بأن عباساً قطيع اليمين^(١)

ومن جملة من سمع ندبتها وبكى لها مع الباكين مروان بن الحكم.

لگعد على درب الظعون أسايل اليرحون ويجون
 كلمن إله غياب يلفون ونه غايبي باللحد مدفون

* * *

بعد هيهات دهري بيكم ايعود اردن اشيل راسي بيكم اردود

* * *

أحبتنا من للظعائن بعدكم فليت فداكم يا كرام الظعائن



(١) شرح الأخبار ٣: ١٨٧، مقتل الإمام الحسين عليه السلام (أبو مخنف): ١٨١.

﴿٢٠﴾

فقه الأسرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ *
إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ
فَأِنَّهُمْ غَيْرُ مَسْلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ
ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: بناء الأسرة النظيفة

إن هذه السلسلة الشريفة، والعالية المضامين من الآيات الكريمة تعتبر من الآيات التي تدور في فلك فقه الأسرة؛ لأنها تعالج موضوعاً من أخطر المواضيع وأهمها؛ لما لها من مدخلية في تحقيق الاستقرار الأسري والأمن الأسري داخل المجتمع، بناء على الرغبة الأكيدة والجهود الحثيثة التي يبذلها الإسلام من أجل بناء الأسرة بناءً قوياً متيناً. إننا نعرف أن الأسرة الكريمة النظيفة التي يريدها الإسلام هي دون غيرها اللبنة

(١) المؤمنون: ٥ - ٧.

القوية والأساس في بناء المجتمع؛ لأنه ليس من المعقول أن يعتمد إنسان يريد أن يبني بيتاً إلى وضع طابوق منحور أو متحات في أساس البيت هذا؛ لأن هذا يعني أن البيت كله سيتهاوى وسينهار دون أن يصمد أمام ثقله، وأمام تقلبات الزمن.

فالمجتمع هو البيت، وكل شخص من أفراده لبنة تمده بطاقته التي تحافظ على وجوده؛ فإن كانت اللبنة صالحة كان المجتمع صالحاً والعكس صحيح كذلك.

وموضوع الأسرة يعد موضوعاً خطراً، وهذا الجانب الذي تكلمنا عنه أنفاً هو أخطر جوانبه، وهو الجانب الذي يتعلق وجوده بوجود الزواج، أو ما يسمى بالعلاقات الجنسية بين الأفراد داخل المجتمع. إن هناك جوانب مهمة في الأسرة التي ربما يصيبها الفقر أو ربما يصيبها المرض أو يصيبها أحد عوارض الدنيا، لكن ليس في كل هذا عيب؛ ذلك أن الله جلّ وعلا لعله يحدث بعد ذلك أمراً، فيغير الحال التي كانت عليها هذه الأسرة إلى حال أفضل، وإلى مستوى معيشي أرقى وأسلم^(١).

إذن فالفقر يمكن أن يزول، والمرض لا يمكن أن يستمر إلى نهاية الحياة إلا ما شاء الله تعالى، فكل عوارض الدنيا لا يمكن أن تبقى إلى نهاية الحياة. بل حتى تلك المصائب المتمثلة بفقد عزيز فإنها يمكن أن تنسى مع مرور الزمن؛ فالوقت كفيل أن يمحو آثار تلك المصيبة وأن يحدث أموراً أخرى عند الإنسان تسليه وتنسيه وتصرف تفكيره إلى الأمور الأخرى في حياته، أو إلى أمور غير تلك التي سببت له تلك المصيبة أو

(١) قال تعالى: ﴿لَعَلَّ اللَّهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ الطلاق: ١.

هذا الحزن، وما إلى ذلك. لكن المصيبة والكارثة التي يمكن أن تلحق المجتمع، والمرض الذي لا يمكن أن يكون له علاج، والعيب الذي لا يمكن أن يسدّه شيء هو الخلل الذي يلحق العلاقات الجنسية التي تربط بين أفراد المجتمع؛ فإنها إذا انحرفت انهدمت الأسرة؛ وحينئذٍ سينهدم كلّ شيء، وستتلاشى كلّ القيم والاعتبارات الأخلاقية، وكل المفاهيم السماوية البناءة والضرورية لقيام المجتمع الصالح الذي ينشده الإسلام. ولذا فإننا حينما نلتفت إلى التعبير القرآني الذي يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ﴾، فإننا نلاحظ أن العقاب مشدّد وكبير. وهناك فرق كبير بين فقهاء الشريعة وفقهاء القانون في معالجة هذه القضية، ذلك أن معالجة فقهاء القانون لها يمكن أن نسميها معالجة منحلة.. معالجة تسبب الكثير من المآسي والكوارث؛ لأن الفقه القانوني يقرر أنه إذا ارتكب أحد الزوجين خطيئة برضا الطرف الثاني فإنها حينئذٍ لا تعتبر جريمة إلا إذا حدثت من غير رضا أحد الطرفين المذكورين، ومن غير اختياره وعلمه؛ لأنه حينئذٍ يطلق عليها لفظة خيانة، أما إذا كان هناك علم من أحد الزوجين، واختيار منه، فإن الفقه القانوني الوضعي ينزلها منزلة الفعل غير القبيح، ولا يتعامل معها على أنها جريمة، أو فاحشة. وبطبيعة الحال فإن مثل هذه الأفكار أو النظريات الهدامة لا يمكن أن تستكثر على تلك القوانين التي تضيف صفة المشروعية على العلاقة بين الجنسين المتماثلين، كالعلاقات القائمة بين ذكر وذكر^(١). وهؤلاء الذين

(١) سبق أن نوّهنا إلى أن الدانمارك تعدّ أول بلد في العالم يعترف بزواج المثليين، وذلك عام (١٩٨٩)م، كما أن البرلمان الأوروبي دعا في (٨ / ٢ / ١٩٩٥م) إلى منحهم الحقوق والواجبات التي يتمتع بها الأزواج العاديون. الإسلام والغرب: ٥٨.

يقبعون خلف رغباتهم، ويصلون إلى درجة الانحلال بهذا المستوى من التشريع لا يمكن لنا أن نسميهم بشراً.

ونحن إذ نقرر هذا لا ننكر أن عندهم حضارة مادية، بل إن هذا التقرير لا يتنافى ووجود تلك الحضارة، لكن الإنسان الذي يصل إلى هذه الدرجة من الانحطاط لا يمكن أن يعتبر بشراً أو إنساناً؛ لأنه يعتنق فكراً هداماً للأخلاق، ويمارس علاقة موبوءة لا يمكن أن يمارسها أو أن ينزل إلى مستواها حتى الحيوانات التي تعد أدنى رتبة من الإنسان، في حين أن الإنسان يصل به الأمر إلى هذا المستوى المتسافل والواطئ من العلاقة التي تؤدي في نهاية الأمر إلى بناء مجتمع متهالك منحور.

ونحن طبعاً لا يهمنا هنا رأي الفقه القانوني؛ لأنه فقه يتوفر على الكثير من الثغرات الأخلاقية، والثغرات التي تتعلق بالحقوق وإغماطها وبالجنون البعيدة عن النزعة البشرية؛ لأنه قانون من وضع الإنسان ومن صنعه. ومن هو الإنسان؟ الإنسان هو ذلك الكيان المملوء حسداً وحقداً وبغضاء وأخطاء.. الإنسان الذي قد يصبح ملكاً وقد يصبح أخس من الحيوان^(١).

وما دام الإنسان بهذه المكانة وبهذه النمطية، فكيف يمكن إذن أن نعطي تشريعاته قداسةً أو أهميةً أو اعتباراً؟ إن الحق هو أنه يجب ألا يلتفت إلى تلك التشريعات أبداً^(٢).

(١) فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله ركب في الملك عقلاً بلا شهوة، وركب في البهائم شهوة بلا عقل، وركب في بني آدم كليهما؛ فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم». علل الشرائع ١: ٤ - ٥ / ب ٦ ح ١.

(٢) وقد تكلمنا عن أثر العامل الذاتي في عملية التشريع في الجزأين السابقين، انظر: ج ١٠ / محاضرة (مبدأ توظيف الأموال في الإسلام)، ج ١١ / محاضرة (أهداف البيعة في

وأنا أو كدمن هنا أن جميع التشريعات الإنسانية عبارة عن نقص، أي أنها ليست ناقصة فقط بل إنها هي النقص عينه، أما الله جل وعلا فهو رب الكمال واللطف والبراءة والنظافة؛ وحينما يكون جل وعلا كذلك فإن التشريعات السماوية قطعاً ستكون تشريعات ليس لها من مهمة إلا أن تصوغ لنا المجتمع النظيف القائم على الأخلاق. ومن الواضح الذي لا يقبل جدالاً أو أخذاً ورداً فيه أن المجتمع إذا جُرد من الأخلاق لم يعد مجتمعاً بل إنه سوف يتحول إلى حظيرة للحيوانات، بل إن حظيرة الحيوانات تكون أفضل منه بكثير، كما نوهنا^(١)؛ ولذلك جاء العقاب في هذه الحالة صارماً جداً.

وفي نظر الفقه التشريعي الإلهي أن الإنسان إذا ارتكب هذه الخطيئة سواء كان بعلم الطرف الثاني أو بغير علمه فإنه يعدّ خاطئاً ومجرماً، ومتعدّياً على حدود الله جل وعلا التي نهى عن اقتحامها^(٢)، وعلى حدود الإنسانية؛ ولذا فإن العقاب جاء شديداً جداً إلى درجة أنه يصل إلى

(الإسلام).

(١) قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩، وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان: ٤٤.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحد لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلفوها». سنن الدار قطني ٤: ٢٩٨، وفي كنز العمال ١: ٣٨١ / ١٦٥٦ نحوه.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيّعوها، وحد لكم حدوداً فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت لكم عن أشياء ولم يدعها نسياناً، فلا تتكلفوها». نهج البلاغة / الحكمة: ١٠٥.

ورواه الصدوق عليه السلام وزاد عليه: ثم قال عليه السلام: «حلال بين، وحرام بين، وشبهات بين ذلك، فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان أترك. والمعاصي حمت الله عز وجل، فمن يرتع حولها يوشك أن يدخلها». الفقيه ٤: ٥٣ / ١٩٣.

القتل مع المحصن، وإلى الجلد مع غير المحصن لملاحظة هذه الخصوصية (الإحصان وعدمه).

وهذا العقاب يعتبر عقاب رادعاً؛ لأنه سوف يوقف هذه الحالات المرضية التي إن تركت فسوف تستشري داخل المجتمع وتتفشى فيه حتى تحيله إلى كتلة موبوءة، وإلى بؤرة من الانحطاط والانهيار.

وبهذا الاعتبار فإن الله جلّ وعلا أمر بالزواج وبإحصان الفرج، فمن يتزوج - سواءً كان رجلاً أو امرأة - فإن الله جل وعلا يحصن فرجه بهذا الأمر وبهذا التشريع الذي وضعته السماء للحفاظ على الحياة. وعندما ينحرف أحد الطرفين فيعتدي على أعراض الآخرين، أو يسمح للآخرين بأن يعتدوا عليه، فإن هذا حتماً سيكون مكانه القبر وفقاً للتشريع الإلهي، فيرجم ويدفن لأنه عار يجب أن يتخلص المجتمع السليم منه، ولا يمكن أن نحافظ على سلامة العضو الذي أصابه داء السرطان، أو التسمم إلاّ بقطع ذلك المقدار منه؛ كيلا يتسرب الورم الخبيث إلى باقي أجزاء العضو. وهذا ما يفعله العقاب الإلهي الذي يأمر بقطع دابر هذا المتمرد على الأحكام والقوانين السماوية والإنسانية، فيعمد إلى الاعتداء على أعراض الآخرين وهتكها، وحينئذٍ - إذ يقتل ويقبر - فإن المجتمع سوف يتخلص من هذا الوباء الذي يمكن أن يستشري داخله.

الآثار الوضعية للزنا

ثم إن الإنسان متى ما أشاع الفاحشة، فإنه سوف يتسبب في أمور كثيرة منها:

الأول: إضاعة الأنساب.

الثاني: زرع الشك في نفوس المجتمع كله حول أحقيّة أيهم بهذا المولود.

الثالث: تحويل المجتمع إلى مؤسسة موبوءة أو مصدرية للوباء، تنعدم فيها القيم والأخلاق. وهذا بخلاف المفروض، وهو أن المجتمع يجب أن تحكمه الضوابط السماوية والأخلاقية.

إذن فإذا بدأ الإنسان بالتفكير بأن يعتدي على أعراض الناس ثم راح ينفذ هذا العزم ويفعل فعل الحيوان، فما الفرق بينه وبين الحيوان حينئذٍ؟ فالإنسان حينما أباح الله تعالى له التصرف بالحيوانات عامة والاستفادة منها بشتى أنواع الاستفادة؛ فتارة من لحمها، وتارة من أصوافها، وتارة من ألبانها، وتارة من ظهورها، وتارة من حراستها، وما إلى ذلك فلأنه سيد الموجودات وأشرفها، لكن إذا وصل سيد الموجودات إلى هذه الحالة من التسافل والتداني والانحدار في مهاوي الرذيلة والخطيئة، فهل حينئذٍ يمكن أن نعتبره إنساناً؟ والجواب حتماً: أنه لا يمكن أن يعد كذلك؛ لأنه حينئذٍ سيكون أسوأ حالاً من الحيوان.

ومن هنا فإنني أؤكد على أنه حتى لو لم ينزل تشريع من السماء بتحريم هذه الأمور، فإن العقل يحكم بقبحها وحرمتها، سئل أحد الأعراب عن استجابته للإيمان بالدين بسرعة دون تروٍّ أو تفكير، فقيل له: لقد آمنت بالدين وقبلته بمجرد أن عرض عليك دون تروٍّ، فما هو سبب ذلك؟ قال: لأن هذا الدين الذي جاء به النبي محمد ﷺ يتلاءم مع العقل والفطرة.

المبحث الثاني: معنى حفظ الفروج

تقول الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾، ويراد بهذا ألا يعتدي أحد سواء كان ذكراً أو أنثى على الحدود التي حرم الله تعالى على

الناس وعلى أعراضهم؛ مما يؤدي بالنتيجة إلى سلوك الطريق غير النظيف.

إذن على الإنسان أن يسلك الطريق النظيف، وأن يرتاد الأسلوب الطاهر العفيف الذي شرعه الله جل وعلا؛ كي نصل إلى هدف السماء المنشود، وهو بناء المجتمع الصالح.

دور الآباء في تحقيق هدف السماء

وإننا إذ نقول هذا، فإنه لا يعني أننا نخلي طرف الآباء من مسؤولية تحقيق هذا الهدف الذي ندبت إليه السماء؛ لأنهم (الآباء) جزء هامّ وضروري جداً من المعادلة التي تحقّق هذا الهدف. ودور الآباء يتمثّل بتسهيل الوصول إلى طرق العلاقات المشروعة، وعدم خلق العقبات والعثرات في طريق ذلك. فالمجتمع نفسه قادر على أن يقضي على أسباب الفساد الخلقي والانحراف في العلاقات الجنسية عن طريق مؤسسات ينشئها لتتعامل مع هذه المشكلة، ولتضع لها الحلول على ضوء القوانين والأسس والتشريعات السماوية التي أقرتها الأديان والتي جاء بها الأنبياء ﷺ مثلاً.

الإسلام يشجّع على تذليل العقبات

لقد شجّع الإسلام على ضرورة تذليل العقبات التي تعترض مسيرة الزواج كمشروع إلهي عبر عدّة طرق منها:

الأول: إقحام المؤسسات في بناء العملية التربويّة

ومن الأدوار التي يجب أن تقوم بها هذه المؤسسات مثلاً: أن تعتمد إلى مساعدة من ليس له مهر يدفعه إلى زوجته، أو تهيئة وحدات سكنية يلجأ

إليها الشباب الممتنع عن الزواج نتيجة العقبة المالية. وليس في هذا من عيب مطلقاً؛ إذ أن المجتمع مثل الأسرة الصغيرة فكما أنه لا عيب في أن يمدّ الولد يده إلى أبيه لو احتاج إلى شيء، أو أن يمدّ الأب يده إلى ولده إن كان مسناً لا يقوى على الكدح، فكذلك لا عيب في أن يمدّ أبناء المجتمع أيديهم إلى بعضهم البعض عندما يحتاج أحدهم وفيهم الغني الموسر الذي يتمكن من مساعدة الآخرين. فالناس جميعاً أسرة واحدة يجمعهم دين واحد، ورب واحد، وكتاب واحد، وتشريع واحد. وبهذا فإنهم ينضون داخل أسرة واحدة كبيرة يساعد غنيها فقيرها، ويعول موسرها عائلها، ويعين ذو المال فيها المحتاج منهم.

وهذه المؤسسات وإن كانت تعتمد إلى مساعدة هؤلاء وتوفير الأجواء المناسبة للزواج إلا إنها يجب أن تلتفت إلى أن مهمتها خطيرة وخطيرة جداً؛ لأنها مهمة تستوعب مفهوم نشر الأخلاق داخل المجتمع، وتؤدي وظائف عملية تقوم على أساس جوانب عدة تحتوي على كثير من المفاهيم والموارد التي تصب بالنتيجة في قناة مساعدة المحتاجين من شرائح المجتمع كافة، سيما أولئك الذين يعرضون عن الزواج نتيجة للحاجة والفاقة.

ولا يلزم في تلك المؤسسات أن تقدم منحاً أو هدايا، بل إن على المجتمع أن ينشئ مثل هذه المؤسسات حتى لو كانت بعنوان تقديم قروض مسترجعة على شكل أقساط مريحة لا تضرّ بالشخص المقترض، ولا تشكّل عامل ضغط مالي عليه، ولا تؤثر على مستوى حياته. فهي بالنتيجة تساعد المجتمع وتساهم في حلّ هذه المشكلة المعضلة، وهي مشكلة الامتناع عن الزواج التي ربما تؤدي إلى ولوج

طريق الخطيئة والانحراف، وبالتالي تلوث المجتمع بداء الرذيلة. فمثل هذه القروض سوف تساهم حتماً في عملية دفع الشباب إلى ولوج الطريق المشروع، على ألا تتبّع طرقاً تضيق عليهم في عملية استرجاع هذه المبالغ، بل إن عليها أن تتركها عندهم لحين قدرتهم على الوفاء بها، أو أن تسترجعها على شكل أقساط مريحة كما ذكرنا. ومن لم يستطع أن يحقق أحد هذين الأمرين فإن على هذه المؤسسات أن تعفي هذا الشخص من سداد هذه الديون أو هذه المبالغ؛ لأنه حينئذٍ يدخل في دائرة المحتاج الذي يجب أن يعطى من الحقوق التي فرضها الله جل وعلا له ولأمثاله في أموال الأغنياء، أو أن تحاول إعادة جدولتها على أقل التقادير.

الثاني: تذويب العقبات المصطنعة

وكذلك يمكن للمجتمع أن يساهم في حل هذه المشاكل عن طريق إيجاد غرفة عمليات إرشادية يكون دورها الأساس والرئيس تذويب العقبات وتذليل الصعوبات التي يصطنعها المجتمع عامة والآباء خاصة، والتي تحول بالنتيجة دون اقتراب الشباب من الخط الأحمر لمشروع الزواج. فأى عمل اجتماعي مهمته تذويب الفوارق وتسهيل العلاقات المشروعة يعتبر من أقرب القربات إلى الله عز وجل.

إنني أقرأ أحياناً في بعض الصحف بعض ما يكتبه العقلاء فيشرحون مآسي بلدانهم وما فيها من مشاكل ومعوقات تحول دون مسيرتها نحو التقدم والازدهار وبناء المجتمع السليم، فأستشعر الألم يقض مضجعي ويعتصر ما بين أضلاعي؛ لأن المجتمع اليوم قد أصبح مليئاً بوسائل

الاحتكاك كافة، وإلى جانب هذا نجد هنالك في الطرف الآخر من المعادلة الحاجة الجسدية الملحة عند الإنسان، فإذا لم نضع قواعد تمنع الانحراف فإن المجتمع سوف يتردّى وينحدر. وهنا أود أن ألفت نظر المتلقي إلى أن البعض قد يقول: إن تطبيق أحكام الشريعة يتعدّد وجوده في هذه الأزمان، وإن القانون الوضعي هو الذي يطبق. والحقيقة أن الدنيا كلها ما هي إلا أيام معدودة^(١)، ولذا فإنه ينبغي على العاقل استثمارها في فعل الخير، وطلب مرضاة الله تبارك وتعالى.

ونحن حينما نتنقل إلى الحياة الأبدية فإنما نقبل على حياة هي دار الحساب والعقاب فإذا كانت الحياة الأبدية كذلك فإننا يجب ألا ننسى أن البارئ جلّ وعلا يقول: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^(٢). وبهذا اللحظ فإننا نجد أن الله تبارك وتعالى قد شرع القصاص لتأديب من يخرج على طاعته ومن يعصي أوامره ومن يتجرأ على تعدّي حدوده. والقصاص غير العقاب؛ فالقصاص في الحياة الدنيا، أما العقاب فهو في الحياة الآخرة، وهي الحياة الأبدية.. الحياة التي سيجد الزاني فيها طفلاً يتعلّق بأذياله وهو يقول له: لماذا جعلتني سخرية في المجتمع؟ ولماذا تركتني من غير أب في مجتمع يناديني: ابن زنا؟ أو أن تتعلّق بأذياله نطفة تقول له: لقد وضعت فيك لتضعني في الطريق الحلال المشروع، فلماذا وضعتني في مجرى غير نظيف ومسلّك غير طاهر؟

(١) فهي القائلة على لسان أبي الفرج الساوي:

هي الدنيا تقول بملء فيها
فلا يغركم حسن ابتسامي
حذارِ حذارٍ من بطشي وفتكي
فقلولي مضحك والفعل مبكي

بتيمة الدهر ٣: ٤٥٨ / ٣٢، مختصر المعاني: ٣١٦، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣٥.

(٢) الإسراء: ٣٢.

إذن فعقاب الله جل وعلا من وراء الإنسان ، والمسألة ليست هينةً أبداً ؛ ذلك أن عقاب الله شديد لا يقوى على احتماله أحد ؛ فعلى الإنسان أن يتعظ ويرتدع ، وأن يرجع إلى الله تعالى .

المبحث الثالث: المورد المشروع للزواج

ثم انتقلت الآية الكريمة وقالت : ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ، وهنا يقول الفقهاء: إن الإنسان لا يحق له أن يقارب أحداً من النساء إلا زوجته أو ملك يمينه كأن تكون سبية يحصل عليهما من حرب ، ثم يطأها بملك اليمين .

إشكال حول المتعة

ومن هنا فإن البعض يقول: إن الله جلّ وعلا قد حصر تحليل الوطاء بما ذكره هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة . وعليه فإن كل عقد أو كل وطاء سواه باطل ، وبهذا فإن عقد المتعة الذي تنادون به أنتم الشيعة لا صحّة له ؛ لأنه ليس بعقد للزواج المعروف ، وليس هو بملك اليمين . وهذا يدل على أنه نكاح باطل ، والمتولّد منه ابن ليس شرعياً . فالمتمتع بها ليست زوجةً معروفة ، وليست موطوءة بملك يمين حتى يقال: إن هذا النكاح صحيح وجائز شرعاً ، أو أن يقال: إن المتولد منه ابن شرعي .

حلّ الإشكال

والجواب هو أن نقول: إن لنا أن نسأل هنا سؤالاً هو: لماذا لا تعدّ المتمتع بها زوجة؟ إنها زوجة شرعية ؛ لأنها جاءت بعقد قد توفر على أركانه من الصيغة وذكر المهر بزيادة لفظ المدّة . وهذا الأمر قد يستهجنه البعض لكن هذا الزواج يبقى عقداً شرعياً ؛ لأنه جاء عن طريق تشريع السماء .

وأحب أن أنوّه إلى أنني أدافع عنه نظرياً لأنه عقد مشروع أمامنا الناحية التطبيقية فإنني لا أحبّ هذا النكاح؛ بناء على ما ورد في بعض روايات أهل بيت العصمة عليهم السلام، سيما إذا جاءت عناوين ثانوية حاكمة عليه كحصول الضرر، أو وصول الأمر معه إلى إراقة الدم كما هو الحال مع بعض المجتمعات القائمة على طابع قبلي، وغيرها ممن يحذو حذوها، فإنه بهذا العنوان يأخذ نطاقاً آخر ويأخذ حكماً آخر.

المتعة عند المذاهب الإسلامية

وهذا النكاح موجود حتى عند المذاهب الإسلامية الأخرى، لكنهم يعطونه اسماً آخر، ويتعاملون به على نحو الصحة، ويطلقون عليه لفظ المتعة أو قريباً منها^(١)، أو العقد المؤقت أو ما يقرب من هذا الاسم. وقد ناقشت هذا الموضوع مفصلاً في كتاب (من فقه الجنس في قنواته المذهبية)^(٢)، وأثبت فيه آراء المذاهب الإسلامية جميعها حول نكاح

(١) قال الباقي الأندلسي - وهو من فقهاء المالكية - في كتابه (المنتقى): «من تزوج امرأة لا يريد إمساكها، وإنما يريد أن يستمتع بها مدّة ثم يفارقها، فقد روى محمد عن الإمام مالك أن ذلك جائز وإن لم يكن من الجميل». ويقول ابن حبيب - وهو من أئمة المالكية أيضاً - معقّباً على ذلك: «إن النكاح وقع على وجهه؛ لعدم اشتراط شيء في العقد، وإنما نكاح المتعة ما شرطت فيه الفرقة بعد انقضاء المدّة». انظر فقه الجنس: ١٦٨ عن كتاب مع القرآن (الباقوري أحمد): ١٧٦ / ط مصر - ١٩٧٠ م. وكذا ما ذكرنا مثله في ج ٩ من كتابنا هذا / محاضرة (نظام الأسرة في الإسلام).

(٢) قال المحاضر: «إن من له أدنى إمام بالفقه الإسلامي يعلم أن المشرّع يربط العقود بالقصود، ومن شروط العقد أن يشتمل على مقتضاه، وإلا كان باطلاً إذا كان المقتضي ركناً، أو إذا لم يكن ركناً واشتمل على محرّم أو غرر. فالذي يعقد عقداً لا بدّ أن يتوجّه قصده إلى مضمونه على رأي المحقّقين. وكذلك فإن الرضا المأخوذ في العقد الذي يشترط فيه الرضا لا يتحقّق بدون القصد، فإذا أجرى الإنسان صيغة عقد يفيد الدوام فلا بدّ من الالتزام بمضمونه، أما إذا نوى عدم الالتزام بقصد المضمون وأوقع العقد على خلاف المقتضي، فإن

المتعة، وذكرت القائلين بجوازه منهم. وإذا كان البعض يعقد عقداً دائماً لكنه ينوي ألا يديم هذا العقد بل يقطعه بعد فترة معينة كالشهر أو الأسبوع وما إلى ذلك. وبناء عليه فما هو الفرق حينئذٍ بين هذا النكاح، وبين نكاح المتعة؟

ما وقع لم يقصد، وما قصد لم يقع .
ثم إن محققي أهل السنة يذهبون إلى أن الشرط المتقدم على العقد كالشرط المقارن له، فإذا اتفقا على شيء وعقدا العقد بعد ذلك فهو مصروف إلى المعروف بينهما. وهذا مذهب أهل المدينة ومذهب فقهاء الحديث، وهو قول في مذهب الشافعي. يقول ابن تيمية: المشهور في نصوص أحمد - بن حنبل - وأصوله وما عليه قدماء أصحابه: أن الشرط المتقدم كالشرط المقارن [القواعد النورانية ١: ٢٢١]. وهذا بناء على قاعدة اعتبار المقاصد في التصرفات كما سبق أن ذكرناه.

ويقول ابن قيم الجوزية: لا فرق بين الشرط المتقدم والمقارن، إذ مفسدة الشرط المقارن لم تنزل بتقدمه وإسلافه، بل مفسدته مقارناً كمفسدته متقدماً، وأي مفسدة زالت بتقدم الشرط إذا كانا قد علما، وعلم الله والحاضرون أنهما إنما عقدا على ذلك الشرط الباطل والمحرم وأظهر صورة العقد مطلقاً. وهو مقيد في نفس الأمر بذلك الشرط المتقدم، فإذا اشترط قبل العقد أن العقد نكاح تحليل أو متعة أو شغار، وتعاهدا على ذلك وتواطأ عليه، ثم عقدا على ما اتفقا عليه وسكتا عن إعادة الشرط في صلب العقد اعتماداً على ما تقدم ذكره، لم يخرج العقد بذلك عن كونه عقد تحليل أو متعة أو شغار حقيقية. وكيف يعجز المتعاقدان اللذان يريدان عقداً قد حرّمه الله تعالى ورسوله ﷺ بوصف أن يشترطاً قبل العقد إرادة ذلك الوصف، وأنه هو المقصود، ثم يسكتا عن ذكره في صلب العقد، وأنه هو المقصود؛ ليستم غرضهما؟ وهل إتمام غرضهما إلا عين تفويت مقصود الشارع؟ وهل هذه إلا فتح لباب الحيل، بل هي أصل الحيل وأساسها؟ [عنه في أعلام الموقعين ٣: ١١٨ مطبعة المنيرية مصر].

وبعد هذا الذي ذكرناه من وجوب اشتغال العقد على مقتضاه وإلا بطل، ومن كون الشرط المتقدم، والاتفاق السابق عند محققي أهل السنة كالشرط المقارن. دعني أذكر بعض الآراء عند شريحة من فقهاء أهل السنة في العقد المؤقت الذي هو المتعة بعينها. ثم ذكر ثلاثة نصوص الفقهاء من أهل السنة في صحة العقد المؤقت، والتي أشرنا إليها في الهامش السابق. فقه الجنس: ١٦٥ - ١٦٦.

أدلة زوجية المتمتع بها

ويدل على أن المرأة المتمتع بها زوجة شرعية أمور عدة، منها:

الأول: وجوب العدة عليها

أي أن عليها أن تعتد منه (من الزوج) فيما لو مات عنها أو انقضت مدة نكاحها سوى أن العدة هنا فيما لو انقضى أجلها قرءان (مثنى قرء)، أو حيضتان .

الثاني: أن لها حق الإرث عند اشتراطه

أي أنها إذا اشترطت الميراث أو النفقة فإن على الزوج أن يورثها أو ينفق عليها.

الثالث: لحوق الولد بالأب

فالزوج إذا ولد له ولد من هذه المتمتع بها، فإنه يلحق به شرعاً، وهما حينئذ يتوارثان .

وبهذا فإننا نرى أن هذا النكاح المنقطع لا يفرق عن النكاح الدائم إلا من بعض الأمور الثانوية أو غير الأساسية المأخوذة في عمليّة الزواج، وهذه الفوارق لا تعدو كونها فوارق أدبية.

نعم، قد يساء استغلال هذا النوع من النكاح، وقد ذكرت قبل قليل بأنني لا أحبّذه؛ لما يترتب عليه من آثار وضعيّة؛ ومضاعفات بعضها اجتماعي، وبعضها أخلاقي ربما تؤدي إلى إراقة الدم عند البعض من المجتمعات. وإلا فإنني لا أكره حكم الله (وأعوذ بالله من هذا) لكنني أكره تطبيقاتنا نحن لحكم الله جل وعلا، ذلك أن الكثير منا يسيء استخدام كل رخصة يعطينا إياها الشارع المقدّس، فلا نستعملها كما أمرنا أن

نستعملها وأن نستغلها، بل إننا نعلم في بعض الأحيان إلى تسفيه الأحكام وتحويل بعض منها إلى رذيلة.

إن الله جل وعلا لم يشرع ما شرع عبثاً، بل شرع كل حكم لمصلحة ارتأتها حكمته وعلمه السابق جل وعلا، ومنه المتعة التي شرعها ليصون الإنسان عن أن يقع في الخطيئة أو أن ينزلق في مهاوي الزنا. لكننا كما ذكرت لانهن استعملها، بل نناق وراءها انسياقاً تاماً نصل به إلى حد أننا نجعلها الجانب الغالب على حياتنا وإشباع غرائزنا دون النظر إلى العواقب التي يمكن أن تترتب على بعض من هذا. دخل رجل على الإمام الكاظم عليه السلام ليسأله عن زواج المتعة، وقال له: جعلت فداك، إني أريد أن أعقد على امرأة عقد متعة، فما تقول؟ فقال عليه السلام له: «وما أنت وذاك؟ فقد أغناك الله عنها»^(١).

بل إنه ورد في بعض الروايات أن من دنا إلى امرأة زانية ليعقد عليها عقداً مؤقتاً فهو زان^(٢).

شبهات حول زوجية المتمتع بها

إذن فمن يقل بأن هذه المتمتع بها ليست بزوجة نقل له: إنها زوجة؛ لأن

(١) الكافي ٥: ٤٥٢ - ٤٥٣ / ١، باب أنه يجب أن يكف عنها من كان مستغنياً. ومن أحاديث هذا الباب ما رواه عن الصادق عليه السلام: «دعوها، أما يستحي أحدكم أن يرى في موضع العورة؛ فيحمل ذلك على صالحه إخوانه وأصحابه؟». الكافي ٥: ٤٥٣ / ٤.

(٢) لم نعثر عليها بهذا النص، وفي بعض الروايات أنه سأل رجل الإمام الرضا عليه السلام عن رجل يتزوج امرأة متعة، ويشترط عليها ألا يطلب ولدها، فتأتي بعد ذلك بولد. فشدد عليه السلام في إنكار الولد، وقال: «أيجده إعظماً لذلك؟». فقال الرجل: فإن اتهمها؟ فقال عليه السلام: «لا ينبغي لك أن تتزوج إلا مؤمنة أو مسلمة؛ فإن الله عز وجل يقول: ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين﴾ النور: ٣».

الزوجة هي ما يستحلها الرجل بعقد ومهر ولا شيء غير هذا، ولذا فإن هؤلاء القائلين بحرمة المتعة يذكرون في الباب شبهات عدة منها:

الأولى: عدم ميراث المتمتع بها

ولو قال قائل: إن هذه المرأة لا تترث كما في كتبكم، وما دامت كذلك فهي ليست بزوجة؛ لأن الزوجة الدائمة تترث حتماً.
لقلنا: إن هذا ليس بدليل؛ فإن هناك من النساء الزوجات الدائمات ممن لا يرثن، كمن تقتل زوجها فإنها حينئذ لا ترثه، لكن عدم ميراثها هذا لا ينفي عنها صفة الزوجية كما هو ثابت.

الثانية: عدم ثبوت النفقة لها

وربما يعترض هذا المعترض أيضاً بأن يقول: إن المتمتع بها لا نفقة لها كما هو ثابت عندكم.

ونقول: إن هذا ليس مطرداً في الزوجة الدائمة كذلك، ومن هذا أن الزوجة الدائمة التي تنشزعن زوجها ولا تطيعه فإنها حينئذ لا نفقة لها، علماً أن سقوط النفقة لا ينفي عن الزوجة صفة الزوجية.

المبحث الرابع: في موارد النكاح المحرم

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ هو كل ما حرم الله جل وعلا على الإنسان من محارم بخصوص مسألة النكاح. لكن هناك مسألة ينبغي أن يشار إليها، وقد شغلت حيزاً كبيراً من ساحة البحث والنقاش والأخذ والرد والنقض والإبرام بين فقهاء المسلمين، وهي مسألة وطء الشبهة. والمراد بوطء الشبهة هو الوطاء الذي يقع من الرجل مع امرأة يظن أنها زوجته أو

مملوكته ، فيطؤها مع أنها ليست بزوجة له .

أقسام الشبهة ومنشؤها

والشبهة تكون على ثلاثة أقسام

الأول: ما كان منشأ الشبهة فيه الفاعل

أي أن منشأها الرجل فهذا الرجل مثلاً قد اعتاد على أن تكون زوجته بجانبه على الفراش دائماً ، وحصل أن وجد امرأة على فراشه ، فظن أنها زوجته ، فوطئها بناء على ظنه أنها حليلته دون أن يقصد فعل الحرام ، ثم تبين له بعد ذلك أنها ليست بزوجه . فهذا وطء شبهة . وهو وطء منشؤه الزوج ؛ لأنه هو من وقع في هذا الاشتباه .

الثاني: الشبهة الناشئة عن العقد وأقسامها

وهذه الشبهة تكون في حالتين :

الأولى: ظن صحة العقد

أي أن الرجل يظن أن هذا العقد الذي دخل به على المرأة وبه أصبحت زوجته له بحيث يحل له أن يقاربه هو عقد صحيح ، في حين أن العقد لم يستوفِ شروطه كاملة ، وبالتالي فهو عقد باطل دون أن يعلم الرجل بذلك الشرط المفقود ، ودون أن يكون قاصداً للحرام . ففي مثل هذه الحال حينما يوطئ زوجته ، فإنه يوطئها ظاناً أن وطئها حلالاً له ، وهو في واقع الأمر حرام ، لكنه لا يحكم بالحرمة بالنسبة له ؛ لأنه يسمى حينئذٍ وطء شبهة كذلك .

الثانية: نكاح البنت من الزنا

وهناك حالة أخرى من مصاديق وطء الشبهة الذي يكون منشؤه العقد ،

فيبيح له هذا الوطاء، وهو وطء البنت المتولدة من ماء الزنا، فهذه البنت من الناحية الشرعية لا تلحق نسباً بصاحب الماء؛ لأنها لم تأت عن عقد شرعي، وما دامت ليست بنتاً فهل يحق للرجل بأن يتزوجها؟ لقد وقع نقاش طويل بين الفقهاء من مختلف المذاهب الإسلامية في هذه المسألة؛ لأن هذه البنت تعتبر أجنبية عن أبيها كما قلنا، وما دامت أجنبية فهي لا تعامل معاملة البنت. ولذا فإنه الشوافع والمالك يقولون: إن هذه البنت أجنبية عن الرجل الذي تولدت من مائه؛ لأن «الولد للفراش، وللعاهر الحجر»^(١)، وهذه لم تولد على فراش وبالنتيجة فإنها لا تلحق به، وإذا لم تولد على فراش - أي ليس هناك من عقد شرعي - و«الولد للفراش»، كما هو نص الحديث الشريف، فهذه ليست ابنة لصاحب الماء، بل هي بنت أجنبية عنه، وحكمها حكمها؛ مما يعني أنه يجوز له وطؤها^(٢)، أي أن يعقد عليها ويتزوجها.

أما المذاهب الإسلامية الأخرى فيقولون: إن هذه البنت هي بنت حقيقية وإن لم تكن بنتاً شرعية، وقاعدة «الولد للفراش» لا تنفي الولد إذا كان لغير فراش بمعنى أن الأبوة الحقيقية موجودة وإن لم يعتبرها الشارع المقدس أبوة. وبعبارة أخرى فإنه ليس كل من يولد على فراش شرعي هو ولد، ومن يولد على فراش غير شرعي ليس بولد.

إذن فرواية «الولد للفراش» جاءت لتصحيح ما هو واقع في مقام الشك

(١) الكافي ٥: ٤٩١ / ٤٩٢، ٧: ١٦٣، كتاب المسند (الشافعي): ١٨٨، مسند أحمد ١: ٢٥، وغيرها.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣: ٦٠، مواهب الجليل ٥: ١٠٩، المجموع شرح المذهب ١٦: ٢١٩، ٢٢٢، المبسوط (السرخسي) ٤: ٢٠٦، المغني (ابن قدامة) ٧: ٤٨٥، الشرح الكبير (ابن قدامة) ٧: ٤٨٣، مواهب الجليل ٥: ١٠٩.

في هذا المجال، بمعنى أن الرجل الذي يعقد على امرأة ثم يجيء منها ولد، وشك في أن هذا الولد ابنه أم لا، فإنه يبني على أنه ولده؛ لأنه يجب أن يلتزم بمقتضى قاعدة «الولد للفراش». هذا مورد القاعدة، أي إذا حدث شك في نسبة الولد، فالولد حينما يولد على فراش شرعي فإنه يلحق بصاحب الفراش، أما أن يعتبر كل من يولد على فراش غير شرعي ليس ابناً فلا يمكن قبوله على الإطلاق؛ لأن هؤلاء يعتبرون أن هذا المتولد هو ابن له متولد من مائه، فهذا ولده وهذه بنته، وإذا كانت ابنته فهي تحرم عليه. وغاية ما في الأمر أنها نشأت من الزنا وليست من العقد الصحيح. وفي مثل هذه الحال فإن العقد على هذه الفتاة المتولدة من هذا الماء حينئذٍ يعتبر وطء شبهة؛ لأنه ليس قاطعاً بحرمته بناء على فتوى المجيزين له، وليس قاطعاً بحليته بناء على فتوى غير المجيزين له؛ بحيث إنه يبقى متردداً بين أن يرتب عليه آثار الزوجية أو لا يرتب عليه تلك الآثار من جهة صحة النسب وعدمها، وتوريث المتولد وعدمه وما إلى ذلك. فمثل هذا المتولد من وطء الشبهة يحكم بأنه ابن، والأب يجب عليه المهر. ويترتب عليه أيضاً سقوط العقاب للجاهل؛ لأن الله جلّ وعلا لا يعاقب الإنسان إلا بعد التبليغ، والجاهل لم يصله تبليغ. إذن فهناك آثار كثيرة تترتب على هذا الزواج، لكنه لا يشمل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾.

الثالث: الشبهة التي يكون منشؤها القابل وأقسامها

وهو النكاح الذي يكون مصدر الشبهة فيه المرأة، ونجد ذلك في عدة أمور، منها:

الأول: الأمة المملوكة مناصفة

أي أنه لو أن هناك أمة واحدة يملكها اثنان، ثم أجاز أحدهما لشريكه وطأها، فهل إن له حينئذٍ أن يطأها؟ وهل هو حلال له؟ إن هذا إن وطئها جاهلاً فإن وطأها لها حينئذٍ يكون وطء شبهة^(١).

الثاني: مملوكة المكاتب

ومن موارد وطء شبهة الناشئ عن القابل ما لو أن إنساناً يملك عبداً ثم طلب هذا العبد من مالكة أن يكاتبه، بمعنى أن يعمل له مقابل أن يعتقه بما يستطيع من عمل، فيقسط ثمنه على مولاه، أي أن يذهب إلى العمل في مكان معين ليكسب أموالاً يعطيها لسيدته على أن يعتقه بعد إكمال ثمنه أو قيمته. فهذا يسمى العبد المكاتب، والفقهاء هنا يقولون: إنه بمجرد أن يدفع قسطاً، فإنه ينعق منه بمقدار نسبة ذلك القسط إلى قيمته الحقيقية.

حكم المكاتب

أمّا حكم المكاتب، فالأغلب من الفقهاء يقولون: إن المستحب أن يكاتبه سيده، لكن الظاهرية - وهم جماعة داود الظاهري - والخليفة عمر بن الخطاب يقولون: إنه يجب على سيده أن يكاتبه؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾^(٢).

وعلى أية حال فهذا العبد المكاتب حينما يكون قد ملك جارية مثلاً،

(١) لأنها حلت له بسببين: الأول: ملك اليمين، والثاني: إجازة الشريك له. ولعدم صحّة توارده أمرين على شيء واحد ولأنه مجهول، فإن هذا النكاح يصبح وطء شبهة.

(٢) النور: ٣٣.

وقد كاتب سيده ودفع جملة من الأقساط من ثمنه، فهل يحق للسيد أن يطأ هذه الجارية بقاعدة «إن العبد وما ملك لمولاه»، أم لا يحق له ذلك باعتبار أن العبد قد أصبح جزء منه حرّاً؟ إن السيد إذا عمد إلى وطء هذه الجارية فإنه يكون قد وطئها وطء شبهة، لأنه لم يعد يملك المملوك كاملاً، كما أن المملوك ليس بحرّاً كاملاً، فهنا تكون الشبهة من جهة القابل وهو المرأة.

وبناء على كل هذا فإننا نخلص إلى نتيجة هي أن الآية الكريمة أباحت ملك اليمين، وأباحت الزواج الشرعي بقسميه: الدائم والمنقطع.

المبحث الخامس: أهداف الزواج الشرعي

إن الآية الكريمة تحرص بالدرجة الأولى على صياغة الأسرة صياغةً قويةً متينةً مبتنيةً على أسس تربية إلهية؛ لئلا يتسرّب إليها الشك، وبالتالي تتحوّل الأسرة إلى لبنة منخورة لا تقوى على بناء المجتمع، ولا تصمد أمام عواصف الأوبئة الأخلاقية. ثم إن الله عز وجل يريد للأعراض أن تصان وأن تظلّ طاهرة نظيفة.

الهدف من الأديان

وهذا ما يقرّره العلماء حيث يقولون: إن الأهداف التي جاءت من أجلها الأديان السماوية خمسة هي:

الأول: حماية النفوس بالقصاص

فالله جل وعلا حينما شرع القصاص فإنما شرعه ليحمي النفوس عن أن تنساق وراء الخطيئة، أو عن أن تهوي في هاوية الحضيض؛ ولذا فإنه

تعالى يقول: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١)، وبخلافه فإن المجتمع سوف يصبح عرضةً للتأكل وللتهاوي؛ لأنه سوف يصبح مجتمعاً خاضعاً لحالة من حالات شريعة الغاب، فيعتدي كل فرد فيه على الآخر، فيقتله ويسلب حقوقه، وبالتالي فإنه يتحول إلى غابة من الوحوش.

الثاني: حماية العقول

إن الله جلّ وعلا حمى العقول بتحريم المسكرات؛ لأن المسكرات تقوم بتغييب العقل عن أن يمارس وظيفته التي رسمها الله له. ثم إن الله تبارك وتعالى حينما أمرنا بحفظ العقول فقد أمرنا بأن نهَيِّئ المقدمات لذلك.

الثالث: حماية النشء الجديد

بمعنى أنه يجب على كل شخص أن يراقب نفسه، وأن يراقب ابنه، وأن يراقب أخاه، وأن يراقب كل مسلم تجب عليه نصيحته له. ولا بد هنا من التأكيد على الأولاد؛ لما ورد في الحديث الشريف: «اتقوا الله تعالى في أولادكم»^(٢)، والحديث الشريف الآخر الذي يقول: «لعن الله والدًا حمل ولده على العقوق»^(٣)؛ لأن الأب إذا أهمل ابنه فإنه يكون قد حوله إلى

(١) البقرة: ١٧٩.

(٢) لم نثر عليه بهذه الصورة، وما هو في كتب الفقه والحديث ممّا هو قريب منه قوله ﷺ: «اتقوا الله في الضعيفين» يعني بذلك اليتيم والنساء. الكافي ٥: ٥١١ / ٣، الخصال: ٣٦ - ٣٧ / ١٢.

وقوله ﷺ: «اتقوا الله تعالى واعدلوا بين أولادكم». تذكرة الفقهاء ٢: ٤٢٤ (حجري)، صحيح مسلم ٥: ٦٦.

(٣) لم نثر عليه بهذه الصياغة، والذي عثرنا عليه هو: «رحم الله والدًا أعان ولده على برّه».

مشروع هدام في المجتمع لا يتقيد بقيم ولا بأخلاق ولا بأداب أو التزامات شرعية، وبالتالي فإنه سوف يعقّه ويعقّ المجتمع بأجمعه.

الرابع: حماية الأموال

ولذا فإن الشارع المقدس هنا قد أمر بقطع كفّ السارق التي تعتدي على المجتمع وتسلبه حقوقه وما متعه الله به، وهذا مع توفر شروط القطع قطعاً.

الخامس: حماية الدين من الشبهة

إن الأديان غالباً ما تتعرض على لسان الكثير من الملحدين والزنادقة إلى كثير من الشبه الموجهة إليها وإلى العقائد الحقّة لغرض فرض العقائد الفاسدة محلها. وهذا هو الهدف الأساس الذي أنزلت من أجله الأديان. إذن فالله جلّ وعلا إنما حرّم الزنا وعاقب عليه وأوجب عليه الجلد والرجم؛ لأنه يريد أن يحمي الإنسان من أن ينزلق في طريق الرذيلة، ويريد للأسرة أن تبنى بناءً متيناً شامخاً لا يزحزحه وباء من أوبئة الأخلاق التي يحاول المنحلون أن ينشروها بين المجتمعات الإنسانية. وعليه فحماية الأسرة من أول الأهداف ذات الأولوية التي تستهدفها الشريعة الإسلامية وتضعها نصب عينيها؛ ولذا فإن القرآن الكريم أمر بزرع المودّة في الأسرة وتكريم أفرادها سيما مع الأبوين اللذين لا يمكن أن يكافأ على ما يفعلانه تجاه أبنائهما.

ثم إنه تعالى أعطى كل شخص وظيفته ومسؤولياته في حفظ هذه الأسرة وصيانتها من توارد الأمراض والأوبئة الأخلاقية عليها؛ ولذا فإنه

فرض على المرأة أن تحفظ الرجل في غيبته، فتحفظ عرضه، وتحفظ بيته، وتحفظ شرفه؛ لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِنُهْنَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾^(١).

وهذا تعبير مهذب لحالة اللقاء بين الرجل والمرأة والتقارب بينهما؛ لأنه لا يريد أن يחדش حياء الرجل ولا حياء المرأة.

وفي الوقت نفسه أمر بحفظ الولد، وحفظه يمر بسلسلة تتكون من عدة حلقات تمثل كل حلقة منها دوراً مهماً في تحقيق الأمر بذلك الحفظ وتطبيقه، فقد أمر تعالى بأن يتقى الله بحفظ هذا الولد عبر حفظ الماء، واختيار القناة المناسبة النظيفة له، وأن يتقى الله جلّ وعلا في حفظ الزوجة واختيارها مؤمنةً صالحهً عفيفة، وأن يرحم مجتمعه بأن يبتعد عن الانحراف، ثم أمر بوجوب تحقيق وتطبيق علائق المودة بين المجتمع. هذه المودة التي تنطلق من أول جنين يرزق الله به الزوجين، فيأخذا من حضن أمه وحجر أبيه، وبها تكون الرابطة بين الأبوين. ولذا فإننا حينما ننظر إلى القرآن الكريم نجد فيه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾^(٢).

إذن فالطفل رابطة قويّة وأصرة محكمة تربط ما بين الأبوين، وهو مصبّ العواطف التي تحكم العلاقة بين الأبوين، كما أنه السعادة التي تدرج في البيت فتتمو وتكبر ويكبر معها الحب الأسروي؛ ولذا فإن فقدته

(١) الممتحنة: ١٢.

(٢) الإسراء: ٢٣ - ٢٤.

كان نكبة، لا تعدلها نكبة ولا يمكن أن يعوضه شيء؛ لأن فقده يمثل للأيوين عامة وللأم خاصة فقد الدنيا بحالها فضلاً عن السعادة فيها، وسوف لن نبالغ إذا قلنا: إن الحياة سوف تتحول إلى جحيم بعينهما. وبهذا فإننا نقرأ في كتب التاريخ أن أحد الأعراب يقول: مررت على حيّ تتجاوب جدرانها بالأئين والبكاء اللذين يدميان القلب، فسألت عنه قيل لي: هذا حي بني هاشم. وسمعت أنين امرأة سمرّ قدمي إلى الأرض، فلمّا سألت عنها وعن الدار، فقالوا: هذه دار الحسين بن علي عليه السلام، وهذه الباكية هي ليلي أمّ علي الأكبر.

لقد كانت ليلي إذا جنها الليل لا تهدأ ولا تسكن عن النوح، فكانت تأتي إلى مضجع ولدها.. المكان الذي كان ينام فيه، فتطيل النظر إليه ودموعها جارية على خديها، وهي تتذكر تلك الأيام التي كان بيتها عامراً بولدها فيها.

ومع هذا فإننا نقول: إن هذه اللوعة التي استولت على قلب ليلي مهما بلغت فلا نظنها تبلغ مرتبة تلك اللوعة التي استولت على قلب الإمام الحسين عليه السلام حينما قصد ولده بعد أن سقط على أرض المعركة صريعاً؛ فقد بدرت منه بادرة لفتت نظر الناس والمؤرخين فيما بعد، ذلك أنه عليه السلام نزل من على ظهر جواده عندما سقط الأكبر على أرض المعركة صريعاً يخور بدمه، ورمى بنفسه الشريفة من على ظهر جواده، وامتدّ بجانبه، وأخذ يحتضنه ويعتنقه، ثم وضع خده على خده فرأى أنه قد أسلم الروح، فصاح عليه السلام بأعلى صوته: «بني علي، على الدنيا بعدك العفا، أما أنت فقد استرحت من همّ الدنيا وغمّها، وأبقيت أباك لهمّها وغمّها. وما أسرع اللحاق

بك!»^(١). ثم جلس عنده يطيل النظر إليه :

جاورت أعدائي وجاور ربُّهُ شتان بين جواره وجواري
يا كوكباً ما كان أقصر عمره وكذا تكون كواكب الأسحارِ

وبعد ذلك انحنى عليه يشبعه لثماً وتقبيلاً، ثم قام يكفكف دموعه،
وحينما أراد أن يحمله وجد أنه لا يقوى على ذلك؛ لما أنقض ظهره من
هذه الفاجعة، ولشدة تأثره بها، فقال لأبناء عمومته من الهاشميين:
«احملوا أحاكم، فوالله لا طاقة لي على حمله». فحملوه إلى المخيم ورجلاه
تخطان الأرض، وطرحوه إلى جانب النساء، فوقعت عليه أمه تحتضنه:

شـالـفايـده وياك يـبـني أنا الوالده وهـيـن تـذـبـني
ردتك عليه البيت تبني

يـبـني عـلي يا فـتـشـة العـين يـبـني صـواب الضـاهـدك وـيـن

* * *

يا عـلي يـبـني النـوب ذلـيت للـمـوت يـولـيـدي تـمـنـيت

عـمـود الوـسـط يا شـايـل البـيت آـنـه بـيـش اجـيت وبـيـش رـديـت

يا واحـدي عـني شـخـلـيت

* * *

فـجـثا وأقـنـع للـسـماء بـشـيـبة مـغـمـورة بـمـدـامـعٍ ودمـاءٍ

يا عـدـلٌ قـد قـتـلـوا شـبـيـه مـحـمـد أنـزـلُ بـسـاحـتـهـم عـظـيـمَ بـلاءٍ



(١) الدمعة الساكبة ٤: ٣٣١.

من مسائل فقه الأسرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَسْكِتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَتْتُمْ مِنْ
وُجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ
وَإِنْ كُنَّ أَوْلَاتٍ حَمَلٌ فَانْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى
يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ
أُجُورَهُنَّ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

مقدمة في أقسام الابتلاءات الشرعية

هذا المقطع من الآية الكريمة يدخل في مجال آيات الأحكام، وهذا اللون من الفقه يُعبّر عنه بالفقه المتحرّك، وهو يقابل قسماً آخر منه يسمى الفقه الساكن أو الميّت، وهو الذي لا يُبتلى به إلا في حالات طارئة. وعليه فنحن أمام نوعين من هذه الابتلاءات ونوعين من أنواع الفقه التي تعالج هذه الابتلاءات:

(١) الطلاق: ٦.

النوع الأول: الابتلاءات الطارئة

وذلك من قبيل البئر الذي تقع فيه فأرة، فهنا يتدخل الفقه لبيّن عدد الدلاء التي ينبغي أن تنزح منها، والكيفية التي يتمّ بها ذلك، ومتى تحصل طهارتها. وهذا من مواضع الابتلاءات السابقة، وقد انتفت الآن بانتفاء موضوعها (سالبة بانتفاء موضوعها)؛ فلم يعد هناك أبار كثيرة مبتلى بها الآن، وأصبحت المسألة نادرة. لكن يبقى هذا اللون من الفقه رصيلاً فقهياً للإنسانية تلجأ إليه في حالات معينة.

النوع الثاني: الابتلاءات المستمرة

ويمكن تقسيم هذا النوع من الابتلاءات إلى قسمين، بلحاظ الزمان الذي يتلى به المكلف بها:

القسم الأول: الابتلاءات المحددة بزمن ما

وهي لون من الابتلاءات الفقهية التي تحصل للمكلف كل سنة مرة واحدة، من قبيل أحكام الفطرة في آخر رمضان.

القسم الثاني: الابتلاءات غير المحددة بزمن ما

وهي لون من الابتلاءات الفقهية التي تصاحب المكلف على امتداد حياته، ويمكن أن يتلى بها صباح مساء، ومنه فقه الأسرة. فالابتلاءات في الزواج والطلاق، وذيول الطلاق أمور تتكرر كل حين في جو الأسرة ومحيطها، سيما موضوع الطلاق، وهو ما تبنته الآية الكريمة؛ ولذا فإننا سنتناوله في بحثنا هذا إن شاء الله تعالى.

المبحث الأول: الطلاق وأقسامه وآثاره

إن موضوع الطلاق وإن كان الكثير من الناس يستهين به، لكنه في نظر

الشارع المقدّس من الأمور الخطرة جداً؛ فهو عامل كبير في هدم المجتمعات، يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «أوصاني جبرئيل ﷺ بالمرأة حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشة مبيّنة»^(١).

ورباط المرأة في جوّ الأسرة هو الذي يسيطر على الحياة، فالمرأة صانعة الأطفال ومرّيتهم، وهي التي تحوّل جو البيت إلى جحيم أو إلى نعيم؛ فهي تتحكّم بالأسرة وتربية الأطفال، وإسعاد الزوج وإضفاء لمسات رائعة من الحبّ والحنان على البيت، وما إلى ذلك. فهي ليست طرفاً في تبادل اللذة بينها وبين الزوج فقط، وإنما هي طرف مساهم في بناء المجتمع، وعاطفة وكرامة وأسرة. بلغ النبي ﷺ يوماً أن أبا أيوب ﷺ أراد أن يطلق زوجته أم أيوب، فقال ﷺ له: «يا أبا أيوب، إن طلاق أم أيوب لَحوب»^(٢). والْحوب: الخطأ والإثم^(٣).

فالطلاق وإن كان مباحاً لكنّه يشرّع عند الضرورة، وهي فيما إذا تعذّرت العشرة مع الزوجة، وإلا فإنه لا يشرع لمجرّد أن الرجل مثلاً تعرّضت كرامته للخدش قليلاً، أو أنه سمع من زوجته كلمة نابية. فهنا يتزاحم المهمّ والأهمّ؛ فصحيح أن الرجل يريد الحفاظ على كرامته، لكن ينبغي كذلك أن يحافظ على كرامتها هي، فيخلق جوّاً من التفاهم؛ ليحصل بينهما الاحترام المتبادل، فإن الاحترام المتبادل إن حصل فلن يحدث في البيت شيء من الاختلال. وما نراه من الاختلال داخل الكثير

(١) الكافي ٥: ٥١٢ / ٦، الفقيه ٣: ٤٤٠ / ٤٥٢٥.

(٢) الكافي ٦: ٥٥ / ٥، المعجم الكبير ١٢: ١٥١.

(٣) العين ٣: ٣١٠ - حوب، النهاية في غريب الحديث والأثر ١: ٤٣٨ - حوب، لسان العرب

١: ٣٣٨ - حوب.

من الأسر سببه فقدان الاحترام المتبادل خصوصاً في أجوائنا التي تصوّر المرأة على أنها كيان منحطّ عن كيان الرجل، حتى إن العرب مثلاً كانوا يخرجونها من البيت في حال حدوث الدورة الشهرية عندها، يقول أحد شعرائهم:

إِذَا الْمَرْثِي شَبَّ لَهُ بِنَاتٌ عَصَبُنْ بِرَأْسِهِ إِبْنَةٌ وَعَارًا^(١)

فالمراة عندما تشعر بلون من الاحتقار يحدث عندها شيء من رد الفعل، فتحاول ردّ اعتبارها وإثبات ذاتها، فيتحوّل سلوكها إلى سلوك مضطرب، وكثيراً ما يحصل هذا في مجتمعاتنا. مرّر رسول الله ﷺ برجل فقال: «ما فعلت امرأتك؟». قال: طلقته يا رسول الله. قال ﷺ: «من غير سوء؟». قال: من غير سوء. ثم تزوّج ثانية، فمرّ به النبي ﷺ فقال: «تزوجت؟». قال: نعم. ثم قال ﷺ له بعد ذلك: «ما فعلت امرأتك؟». قال: طلقته. قال ﷺ: «من غير سوء؟». قال: من غير سوء. ثم تزوج ثالثة، فمرّ به النبي ﷺ فقال له: «تزوجت؟». فقال: نعم. ثم قال ﷺ له بعد ذلك: «ما فعلت امرأتك؟». قال: طلقته. فقال ﷺ: «من غير سوء؟». قال: من غير سوء. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يبغض كلّ ذوّاق من الرجال، وكلّ ذوّاقه من النساء»^(٢).

إن الله مكّننا من أن نستبيح من المرأة ما أحلّ لنا، وأن نرى منها وترى

(١) العين ٨ : ٤٢٠ - أبو، الصحاح ١ : ٢٣٠ - وأب، والمرثي في الأصل: امرئي، نسبة إلى

امرئ القيس، ثم قالوا مرثي، فكأنهم جعلوها منسوبة إلى (مرء) مطلقاً. والإبنة: الخزي.

(٢) الكافي ٦ : ٥٤ / ١، عوالي اللآلي ٣ : ٣٧٢. ٦. وقال ﷺ: «لا تطلقوا النساء إلا من ربيّة؛

فإن الله لا يحبّ الذوّاقين ولا الذوّاقات». عوالي اللآلي ٢ : ١٣٩ / ٣٨٩، المعجم الأوسط

٨ : ٢٤، الجامع الصغير ١ : ٢٧٩ / ١٨٢٠.

منّا ما لا يراه أحد، فيفترض أن يكون التكريم والعواطف متبادلة بينهما. أما الطلاق فهو أمر يؤثر على النفوس والمشاعر، وإذا وقع فإنه ستكون له عواقب سوداء؛ ولذلك تجد أن الروايات تشدّد على ترك الطلاق تشديداً كبيراً، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «تزوَّجوا ولا تطلقوا؛ فإن الطلاق يهتزل له العرش»^(١). فالطلاق

أمر في غاية الصعوبة، وقد شدّد الإسلام على عدمه، وجعل له مقدمات مشدّدة للابتعاد عنه من قبيل إرسال حكم من أهله وحكم من أهلها^(٢)، خصوصاً فيما إذا كانت هناك علاقة وثيقة وميثاق غليظ بينهما، وهو الطفل الذي إذا وقع الطلاق حكم عليه بالانحراف والتحوّل إلى مشروع جريمة.

وهناك معالجات كثيرة وضعها الإسلام للإصلاح بدلاً عن الطلاق، كالمفارقة بالمضجع، والإعراض، والتأديب الخفيف^(٣)، فإن لم تنفع هذه الوسائل كلها، وأصبح الطلاق أمراً ضرورياً، فعند ذلك يصبح ممّا لا بدّ منه. فهو أشبه بالعملية الجراحية التي يلجأ إليها الإنسان عند الضرورة القصوى.

ذيول الطلاق والمشاكل المترتبة عليه

وهذه الآية الكريمة جاءت لمعالجة أحد ذيول الطلاق، فقالت:

(١) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨-٩ / ٢٧٨٨٠.
 (٢) قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء: ٣٥.
 (٣) قال تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء: ٣٤.

﴿أَسْكِنُوهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾، فالسكن من الحاجات الأساسية للإنسان، فلا يستطيع الإنسان أن يعيش ويتحرك بحرية إلا إذا كان له سكن. وقد ضمن الله تعالى هذه الحاجة في الجنة إشعاراً لنا بأنه من الحاجات الضرورية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ الْأَتَّجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنْتَ لَا تَطْمَأُّ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾^(١)؛ ولذلك فإنه تعالى يقول لموسى عليه السلام: ﴿أَنْ تَبَوَّأَ لِقَوْمِكُمْ مِمَّا بِيَمِينِكَ مَسْكِنًا﴾^(٢). فالمسكن يحفظ للإنسان خصوصياته وممتلكاته، ويكف عنه نظر المتطفلين.

وإنما سُمي السكن بذلك؛ لأنه يوفر للإنسان الطمأنينة وسكون النفس؛ ولذا نجد أن الإسلام قد وضع أحكاماً كثيرة للسكن، كعدم الدخول إلى دار إلا بإذن صاحبها^(٣)، وغير ذلك من أحكام الجوار.

المطلقة وموضوع السكن في الفقه الإسلامي

ولما كان السكن بهذه الأهمية، فإن موضوع المرأة المطلقة يحظى بمساحة كبيرة في الفقه الإسلامي، فالمرأة عندما تطلق تخرج من بيت الزوج، ولا بد لها حينئذ من سكن تأوي إليه.

أقسام المطلقات

وهذا الموضوع يحدده نوع الطلاق الواقع على المرأة؛ إذ أن لكل نوع

(١) طه: ١١٨ - ١١٩، والاستشهاد هنا باللازم؛ فهذا الذي ذكرته الآيتان الكريمتان لا يكون إلا مع وجود السكن، وإلا فإن الإنسان لا يهنأ بذلك كله ما لم يكن له سكن يؤويه، وكذلك فإن الله تعالى لا يمكن أن يوفر للإنسان ذلك قبل توفير السكن.

(٢) يونس: ٨٧.

(٣) قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اذْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ النور: ٢٧ - ٢٨.

من أنواع الطلاق أحكاماً مترتبة عليه، يحددها المشرع الإسلامي المقدس:

القسم الأول: المطلقة الرجعية

وهي المطلقة التي منحها الشارع المقدس حق السكن والنفقة ما دامت في العدة.

القسم الثاني: المطلقة البائنة

وهي المطلقة التي تبين من زوجها فلا يجوز له الزواج منها ثانية. ويختلف فقهاء المسلمين في أمرها على عدة آراء، وحسب وضعها حال الطلاق من كونها حاملاً مثلاً أم لا:

أولاً: المرأة غير الحامل

وللفقهاء فيها إزاء نفقتها وسكناها ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أن لها حق السكن والنفقة

وهذا أيضاً رأي جماعة من الفقهاء والصحابة، ومنهم عمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود وجماعة^(١).

الرأي الثاني: أنها لا تستحق السكن والنفقة

وهذا الرأي يتبناه معظم الفقهاء تقريباً^(٢)، ويستدلون بحادثة وقعت لفاطمة بنت قيس المخزومي، وكانت قد دخلت على النبي ﷺ فأخبرته أنها مطلقة بائنة، وقد منع عنها أهل زوجها النفقة والسكن. فأسكنها

(١) الأم ٧: ١٦٧، وانظر المجموع شرح المهذب ١٨: ١٦٦.

(٢) انظر: الخلاف ٥: ٦٩ / المسألة: ٢٢، شرائع الإسلام ٣: ٦٠٦: واشترط في الصفحة نفسها أيضاً ذلك بآلاً تكون حاملاً.

النبي ﷺ عند ابن أم مكتوم الأعمى، وبقيت حتى انتهت عدتها فزوّجها من أسامة بن زيد^(١)، وكان من الموالي وهي من الأشراف، وغرضه ﷺ من ذلك كسر نطاق العصبية^(٢).

الرأي الثالث: أنها تستحق السكن دون النفقة

وهناك رأي ثالث يفصل في المسألة؛ فيعطي المطلقة حق السكنى دون حق الكسوة والنفقة^(٣). وهو رأي مبني على كون السكن أمراً ضرورياً أكثر من النفقة، وأهم منها؛ فالنفقة يمكن تجاوزها أما السكنى فلا.

ثانياً: المرأة الحامل

هذا في المرأة غير الحامل، أما في الحامل فتصبح المسؤولية مزدوجة؛ حيث إن الأمر سيتعلق حينئذٍ بالمرأة والجنين، فلا بد لها من السكنى والنفقة معاً؛ لأن الأمر يكون حينها رعاية لها ولجنينها الذي هو نواة الإنسان، والذي يعيد الثقة بالإنسانية كلها. وكان النبي ﷺ إذا أتى بطفل حديث الولادة يقول: «هذا حديث عهد بربّه». فالطفل يمثل براءة الإنسانية، وهو صفحة بيضاء طاهرة. يقول تعالى: ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾^(٤).

(١) نصب الراية ٣: ٥٦٧.

(٢) فإسكان الرسول ﷺ لها دليل عدم وجوبه على الزوج.

(٣) مواهب الجليل ٥: ٢٧٠، المحلى ١٠: ٢٨٥، وحكم به في البحر الرائق ٤: ٢٥٨ على النصراني إذا طلق النصرانية، وكذلك حكم به ابن عابدين في (تنوير الأبصار) فيما نص عليها، وأيده الشارح، انظر الدر المختار شرح تنوير الأبصار ٣: ٤٩٦.

(٤) الكهف: ٤٦.

فهذا الطفل الذي سيقع ضحية الطلاق لا يعلم إلا الله تعالى ماذا سيكون شأنه في المستقبل إذا كبر؛ فهل سيكون صالحاً، أم أنه ستتلاقفه مافيات المخدرات والانحراف؟ الله تعالى أعلم. فهناك مسؤولية كبيرة تقع على عاتق الآباء والمدرسة في حفظ الجيل الجديد من الأبناء.

وهكذا فإن المرأة إن كانت ذات حمل، فإن القرآن الكريم يضع أمامنا الحل لمشكلتها، فيقول: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾؛ لأنها إذا وضعت الحمل انتهت عدتها، والصبي بعد الولادة ينفق عليه من ماله إن كان له مال، وإلا فينفق عليه من مال أبيه الموسر.

والآية الكريمة لم تترك المسألة دون تفصيل، فهي تقول: ﴿مِنْ وَجِبَتِكُمْ﴾، أي بحسب حالكم؛ فإن كان الأب موسراً، فعليه أن يوفر لها ما يناسب يساره^(١)، وإلا فـ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢). دخل يوماً عقيل بن ربيعة على معاوية فقال له: أريد أن تعينني على بناء داري باثني عشر ألف جذع. فقال معاوية: وأين دارك؟ قال: في البصرة. قال: ما سعتها؟ قال: مئة وعشرون ألف ذراع في مئة وعشرين ألف ذراع. فقال له معاوية: هل بنيت دارك في البصرة، أم بنيت البصرة في دارك؟^(٣)

ومعاوية هذا الذي يُشكل على عقيل بن ربيعة في هذه الدار بنى داراً تدعى الخضراء كلفت بيت المال حمل ثمانية عشر بغيراً من الذهب والفضة^(٤).

(١) المدونة الكبرى ٣: ١١٩.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) تاريخ الطبري ٤: ٢٤٦، وفيه: أكثر من فرسخين في فرسخين. والفرسخ: ثلاثة أميال،

العين ٤: ٣٣٢ - فرسخ، أو هو مقدار خمس وعشرين غلوة سهم، العين ٤: ٤٤٦ - غلو.

(٤) قال ابن عساكر: لما استخلف عبد الملك بن مروان طلب من خالد بن يزيد بن معاوية شري الخضراء بدمشق، فابتاعها منه بأربعين ألف دينار وأربع ضياع بأربعة أجناد الشام

ولكن لم تستطع هذه الدار بما حشد لها من وسائل الترفيه والعظمة أن تحقق له لحظة من لحظات الخلود والعظمة. أما الكوخ الذي سكن فيه علي عليه السلام - وكان إذا قام ضرب سقف الكوخ برأسه - فقد حقق له عليه السلام خلوداً لا يضاويه خلود، يقول أحد الأدباء:

إِنَّ كَوْخًا أَضْلَعُهُ مِنْ جَرِيدِ النَّدَى	خَلِّ وَالسَّقْفُ وَالْفِرَاشُ حَصِيرٌ
سَجَدَ النَّجْمُ عِنْدَ رَمْلَتِهِ السَّمِّ	سَرَاءٍ وَاسْتَوَهَبَتْ عُلاهُ الْعَصُورُ
مُنْذُ أَلْفٍ وَنِصْفٍ مَرَّتْ وَوَلَا	نَ وَأَطْيَافُهُ الشُّذَى وَالنُّورُ
عَامِرٌ بِالْأَنْغَامِ مِنْ نَعْمِ الْقُرَى	أَنْ يَتَلَوَّهُ رَاهِبٌ مَسْحُورٌ
وَسَيَبْقَى بُكْلٌ حَبَّةِ رَمْلِ	مِنْ بَقَايَا أَبِي تُرَابٍ عَبِيرٌ

نعم كان ذلك الكوخ الذي يضم علياً عليه السلام قناة متصلة بالله آناء الليل وأطراف النهار، فإذا جن عليه الليل رمق السماء بطرفه وقال: «يا من قصده الضالون فأصابوه مُرْشِدًا، وأمَّ إليه الخائفون فرأوه مَوْئِلًا، ولجأ إليه العائذون فرأوه مَعْقِلًا، متى يستريح من نصب لغيرك نفسه. أولج قلبي بميدان المُطيعين لك، وَضَمَّنَهُ فَرَحَ الْإِقْبَالِ عَلَيْكَ»^(١).

هذا الصوت الذي في كل نبرة من نبراته خشوع ضارع بين يدي ربه قد خلّده الله تعالى مع الدهر. فالبيت مهما كان واسعاً وضخماً إذا لم تُعمر

اختارهن؛ فاختار من فلسطين عمواس؛ ومن الأردن قصر خالد، ومن دمشق أندر، ومن حمص دير زكي.

وقال: بنى معاوية الخضراء بدمشق وهي دار الإمارة بالطوب، فلما فرغ منها قدم عليه رسول ملك الروم، فنظر إليها فقال له معاوية: كيف ترى هذا البنيان؟ قال: أمّا أعلاه فللعصافير، وأمّا أسفله فللغار. قال: فنقضها معاوية وبنها بالحجارة. تاريخ مدينة دمشق ٢:

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٨٤.

جنباته بما يرضي الله فلا معنى له. وهذا المعنى في سعة الدار قد يتعدى حاله من الدنيا إلى الآخرة، فمن العجيب أن بعض الروايات تقول: «يعطى المؤمن يوم القيامة مئة وسبعين ألف دار في كل دار مئة وسبعين ألف قصر، في كل قصر مئة وسبعين ألف غرفة»^(١) إلى آخره. وكل هذا لا معنى له، فالنبي ﷺ يقول: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»^(٢). فالعبرة برضوان الله في الجنة لا في نوع وحجم البيوت والقصور، وعلى الإنسان أن يضع أمامه صورة واحدة فقط من الجنة هي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(٣)، أما هذه التفاصيل التي يرويها «أبو فلان» فلا داعي للخوض فيها.

مفهوم الإسراف

فالدار قد تكون بهذا اللون من البذخ والكبر الذي يصفه هذا القدام على معاوية، وهي بهذا تخرج إلى حد الإسراف المحرم. والإسراف ليس له حد معين، فهو مسألة يحددها العرف ويتحكم بها حس الجماعة؛ فما قال عنه المجتمع: إنه إسراف، فهو إسراف. فهناك حالتان تراعى فيهما هذه المسألة، وهما اللتان تحدّدان ما إذا كان الأمر إسرافاً أم لا، فلو كان الناس مكثفين فلا مانع من اقتناء الدار الفارهة، أما إذا كان الناس في عوز

(١) مصباح المتهجد: ٢٥٣، ميزان الاعتدال ٣: ٥٦٦ / ٧٦٠٥، وقد وهّنه، الدر المنثور ٣: ٢٥٧.

(٢) مسند أحمد ٣: ٤٣٣ - ٤٣٤، صحيح البخاري ٤: ٨٧، ٧: ١٧٠.

(٣) فصلت: ٣١، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ الزخرف: ٧١.

وضيق، ويوجد هناك من يتخذ الدار الفارهة فهذا هو الإسراف بعينه. فالآية الكريمة أول ما أمرت به هو السكنى؛ لأن الإنسان لا بد له منه، وهو قبل الطعام والشراب واللباس.

المبحث الثاني: المضارّة من وجهة نظر الإسلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾، فإن البعض إذا أراد الانفصال عن زوجته تحوّل الحب عنده إلى بغضاء، فيقول: إن الإسلام فرض عليّ أن أوفر لها السكن، فلأعذبها بهذا السكن، بأن أعطيها بيتاً ضيقاً غير مريح، وأضيق عليها. وهذا لا يصح ولا يجوز، والتضييق عليها لؤم، فلا بد أن يكون البيت إلى حدّ ما مريحاً.

جهات التضييق

والتضييق عادة يكون من جهتين:

الأولى: التضييق بالتنكّر للعلاقة العاطفية القائمة بينهما.

الثانية: التنكّر للبنوة. فهذه المطلقة أم، ولديها أطفال - والأمومة جديرة بأن تكرم، وقد وضع الله تعالى الجنة تحت أقدامها^(١) - فيترك الرجل أبناءه دون رعاية أو اهتمام أو متابعة تربوية، ودون أن ينفق عليهم. ومع الأسف الشديد نجد في تاريخنا ما يبعث على الأسى عندما يتناول هذا الجانب الحساس في حياة الإنسان، فقد وجدت لأحد المفسرين رأياً يقول فيه: الأنثى أحسّ الموجودات في الدنيا. وهذا غريب جداً عن روح الإسلام، فكيف يجعل الله تعالى الجنة تحت أقدامها، وهي أحسّ الموجودات؟ ثم ما الدليل على هذا الكلام؟

(١) مرّ مخترجاً في كثير من المواضع من كتابنا هذا.

المبحث الثالث: طلاق الحامل

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، والرضاعة بالنسبة للطفل أمر مهم جداً وضروري، وللأسف الشديد إن مجتمعاتنا جعلت الطفل يعيش بعيداً عن ثدي أمه، ولم تعطِ الطفل حقه الطبيعي من الرضاع. فالرضاع حق طبيعي من حقوق الطفل، والأم التي لا ترضع طفلها تكون قد اعتدت على الإنسانية. فلا يمكن للطفل أن يحصل على الغذاء الكريم الخالي من الشوائب إلا من ثدي الأم.

والطفل لا يأخذ من ثدي أمه اللبن فقط، وإنما يأخذ معه الحنان والعطف، فهذا الطفل الذي يرتضع تجده غارزاً أصابعه في ثدي الأم، فيشعر بلذة لا حدود لها؛ ولذا فإن فقهاءنا يقولون: إن الرضاع الذي ينشر الحرمة هو الرضاع المباشر من الثدي، لا أن يؤخذ اللبن من ثدي الأم ويعطى إلى الطفل، فهذا الرضاع لا ينشر الحرمة^(١). فالطفل إذن إنما يرتضع الحنان والموودة من الثدي، ويشعر أثناءها بسعادة لا حدود لها. وهناك رأي للإمام مالك يرى فيه أن المرأة إذا كان من شأنها أن ترضع فهي تُجبر على إرضاع الولد^(٢)، أما باقي الفقهاء فيقولون: إنها تُخَيَّر. ورأي مالك جدير بالاحترام؛ لأنه ناظر إلى ما يأخذه الطفل من الحنان، يقول أحد الأدباء:

أُمِّي لِحَجْرِكَ عِنْدِي أَلْفُ سَابِغَةٍ هِيَهَاتَ يَغْرِبُ مَعْنَاهَا وَيَنْدَثُرُ

(١) الخلاف ٥: ١٠١ / المسألة: ٨ - ١٠.

(٢) عنه في جواهر العقود ٢: ١٧٤، وانظر: المجموع شرح المهذب ٨: ٣١٣، فتح الباري ٩: ٤١٧.

غداة يجمعني زندا ويلحفني صدر وبينهما أطوى وأنتشبر
النجم مل وما ملت شفاهك من تلك المواويل حتى يطلع السحر
أمي إذا كانت الجنات مصدرها من تحت رجليك فيما يذكر الخبر
فما بصدرك من خير ومن كرم يظل أكبر مما تحدثس الفكر^(١)

ولكن الرضاع المذكور في الآية هو ما يكون في دور الرضاعة أي في السنتين الأوليين من عمر الرضيع، قال تعالى: ﴿وَحَلْهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٢). فالرضاع أقله واحد وعشرون شهراً، وأكثره أربعة وعشرون شهراً. فإن أرضعته أكثر من ذلك فلا بأس، لكنه حينئذ لا ينشر الحرمة؛ إذ أن الرضاع الذي ينشر الحرمة هو ما كان خلال السنتين الأوليين فقط. ومن الغريب أن تجد آراء لبعض فقهاء المسلمين في رضاع الكبير، فلو أن شاباً عمره عشرون سنة يرتضع من امرأة فقد انتشرت الحرمة بينه وبين تلك المرأة. ولذلك يروون أن عائشة كانت تأمر بنات أخواتها وبنات إخوانها فيرضعن من أحببت عائشة أن يراها ويدخل عليها^(٣). وأحب أن أقول: إن هذا الرأي لو كان عندنا لانقلبت السماوات علينا، فهل نحن الذين نسيء إلى زوجات النبي ﷺ مع أننا لا نعترف بهذا الذي يروى من رضاع الكبير؟

(١) ديوان المحاضر ٢: ٦٦. (٢) الأحقاف: ١٥.

(٣) المغني ٩: ٢٠١، المجموع شرح المهذب ١٨: ٢١٢. والأغرب من هذا أن ابن الزبير وابن عمر، وسعيد بن المسيب وسليمان بن يسار، وربيع بن أبي عبد الرحمن أستاذ مالك وحماد ابن أبي سليمان أستاذ أبي حنيفة والأصم وابن علية أستاذه وداود الظاهري ذهبوا إلى أن لبن الفحل لا ينشر الحرمة، ولا يكون من الرضاع أب ولا عم ولا عمّة ولا جدّ أبوأب ولا أخ لأب، وأن لهذا الفحل أن يتزوج التي أرضعتها زوجته. انظر: المحلى ١٠: ٣ - ٦، بداية المجتهد ٢: ٣١، المجموع شرح المهذب ٢: ٣٨.

ويروون مثلاً أن سهلة بنت سهيل قالت: يا رسول الله، إنا كنا نرى سالماً ولداً فكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد ويرانني، وقد أنزل الله فيهم ما قد علمت، فكيف ترى فيه؟ فقال لها النبي ﷺ: «أرضعيه». فأرضعته خمس رضعات، فكان بمنزلة ولدها^(١).

وهذه ثغرة خطيرة لا ينبغي أن تكون في تاريخنا وصحاحنا. إضافة إلى ذلك فإن هذا الحديث مخدوش من حيث السند والدلالة، ومعارض بغيره، ولا يمكن الأخذ به.

إذن الرضاع مهم جداً للطفل، وهو حقّه الطبيعي، وفي الوقت نفسه هو سعادة للمرأة، فهي تغرس العطف والمودة عن طريقه في نفس الطفل. وهناك ما يلفت النظر في القرآن الكريم، وله علاقة بموضوعنا، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرُؤُنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾^(٢)، والمرضعة في اللغة^(٣) هي المباشرة للرضاعة، فلا يقال للمرأة: مرضعة إلا وهي في حال الإرضاع. أما المرضع فهي التي من شأنها الإرضاع، أي من كان في تديها لبن وتستطيع الإرضاع.

وكان العرب يقولون في أمثالهم: تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها^(٤). أي أنها لا تستأجر نفسها للإرضاع وإن مسّها الجوع والحاجة؛ فاللبن لا يقدر بثمن. وكان العرب يأنفون من بيعه ويعتبرونه عاراً، أما أن تتطوّع المرأة للإرضاع دون أجر، أو أن يكرمها الأب بشيء من المال فلا يرون به بأساً. فالآية الكريمة بدأت بالسكن، وليس الغرض من السكن أن يحمي

(١) المغني ٩: ٢٠١، المجموع شرح المهذب ١٨: ٢١٢.

(٢) الحجّ: ٢. (٣) مختار الصحاح: ١٣٤ - رضع.

(٤) بلاغات النساء: ٩٦.

الإنسان من الحرّ والبرد، وإنما هو ما ينمو مع جدران البيت من الذكريات والمشاعر والعطف والود؛ فهنا مكان لعب الطفل، وهناك مكان جلوس الزوج، وهنا ذكريات وهناك ذكريات؛ فيأخذ هذا البيت من مشاعر المرأة ما لا يمكن معه أن تتخلى عنه وتتركه؛ إذ أنه ليس أمراً سهلاً، فهي إذا تخلت عنه فإنما تتخلى عن ذكرياتها وعواطفها ومشاعرها وأحاسيسها. تقول «سماريو» - وهي من عالمات النفس البارزات - : إن العلاقة بين الأم والرضيع ليست علاقة ثنائية، وإنما هي علاقة ثلاثية، فالطفل يرتضع لبن الأم وحنانها، ومشاعر الأب أيضاً؛ لأن الأم إذا كانت سعيدة مع الأب فإن ذلك ينعكس على لبنها وعلاقتها ودفئها ومشاعرها، وإذا كانت غير سعيدة انعكس سلباً على ذلك أيضاً، وهو بالتالي في كلتا الحالتين ينعكس على الطفل إيجاباً وسلباً.

ولذا فإن الخروج من البيت ليس سهلاً عند المرأة؛ إذ أن لها فيه مشاعر وعواطف وذكريات، ولهذا يقف العرب على الأطلال وآثار الديار ليستعيدوا عندها ذكرياتهم، يقول الشريف الرضي :

وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى رُبُوعِهِمْ وَطُلُوْهَا بِيَدِ الْبَيْتِ نَهْبُ
فَبَكَيْتُ حَتَّى ضَجَّ مِنْ لَعْبٍ نَضْوِي وَلَجَّ بِعَذْلِي الرِّكْبُ
وَتَلَفَّتْ عَيْنِي فَمُدَّ حَفِيَّتْ عَنِّي الطَّلُوبُ تَلَفَّتْ الْقَلْبُ^(١)

ومن هنا فإن عائلة الحسين عليه السلام كانت لها مواقف عجيبة مع داره عليه السلام في المدينة خصوصاً من زينب عليها السلام والرباب حينما رجعتا إليها. يقول المؤرّخون: أرسلت الرباب إلى البناء وقالت له: اقلع سقف البيت، فوالله

(١) ديوان الشريف الرضي ١: ١٨١.

لا يظنني سقف بيت بعد أبي عبد الله عليه السلام^(١). وأخذت تجول في الدار وهي تقول:

إِنَّ الَّذِي كَانَ نُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ بِكَرْبَلَاءَ قَتِيلٌ غَيْرَ مَدْفُونٍ
سَبَطَ النَّبِيُّ جَزَاكَ اللَّهُ صَالِحَةً عَنَا وَجُنَّبَتْ حُسْرَانَ الْمَوَازِينِ
وَاللَّهِ لَا أَبْتَغِي صِهْرًا لِيَصْهَرِكُمْ حَتَّى أُغَيَّبَ بَيْنَ الرَّمْلِ وَالطَّيْنِ^(٢)

أما زينب عليها السلام فكانت تجول وسط الدار:

وحشه الدار يبن امي بعد ما ظل لي بيها احباب
من اطب الداركم يجري على عتبتها الدمع سجاب
ألم ايتاكم بيها واراملكم واسد الباب



(٢) أعلام النساء ١: ٣٧٨.

(١) الكامل في التاريخ ٣: ٤١٤.

الفصل الخامس
الفقه الديني

﴿٢٢﴾

الزينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

يعدّ الفقهاء هذه الآية الكريمة من آيات الأحكام، أي الآيات التي فيها تكاليف للعباد. وبهذا تنطوي على عدّة مباحث اجتماعيّة سوف نتعرض لها تباعاً إن شاء الله:

المبحث الأول: في تكليف الكافر بالفروع

هل أن الكافر مكلف بالفروع؟ فالآية الكريمة تخاطب المسلمين أن يصلّوا بساتر؛ لأنه شرط في صحّة الصلاة، فلماذا يكون لسان الآية والخطاب لبني آدم، وهو خطاب يشمل غير المسلم، مع أنّ الصلاة للمسلمين؟

(١) الأعراف: ٣١.

نقول: هذه من المسائل المختلف فيها عند المسلمين، فالإمامية يقولون بتكليف الكافر بالفروع^(١)، وغيرهم يقول بعدم تكليفه بها إلا بعد الإسلام^(٢).

فلسفة التكليف بالفروع

وفلسفة الإمامية في ذلك أنّ التكليف بالفرع هو تكليف بالأصل، وهو اعتناق الإسلام؛ ولذلك فإن الآية إنما كان خطابها لبني آدم لأن الإسلام يريد أن يعطي الصلاة بعداً عاماً، وأن يجعلها وسيلة تهذيبية فرضها الله سبحانه لتهديب العباد وتربيتهم؛ فإننا إذا أردنا أن نبني مجتمعاً، يجب علينا أن ننطلق من تربية الفرد. وما نراه من دعوى البعض أن الفرد لا يمكن أن يُصلح وذلك لفساد المجتمع وانحطاطه، وهذا فرد منه، فهو شعار خاطئ ومحاولة خادعة، حيث إنّ المجتمع إنما يتكوّن من أفراد، فإذا أصلحنا الفرد استطعنا أن نصلح المجتمع، وهذا ما تدعو له الآية الكريمة.

فإذن الصلاة وسيلة لبناء الفرد، فإن الفرد إذا لم يعبأ عقائدياً فإنه يبقى هيكلاً فارغاً ليس له أي قيمة، وكما أنه إذا لم تقم بتعبئته اقتصادياً فإنه لا يمكن أن يكون منتجاً، فكذلك إذا لم تقم بتعبئته أخلاقياً، فإنه يفقد القيم والأخلاق.

فإذا طلبنا منه أن يحمل قيماً ببناءة وألا يفسد مجتمعه، وأن يكون حاملاً للقيم الإنسانية فعلياً أن نحثّه نحو الصلاة، كما تدعو إليه الآية

(١) تذكرة الفقهاء ٤: ٣٩ / المسألة: ٣٩٤، ٥: ٤٠ / المسألة: ٢٦، المذهب البارع ٤: ٢٩٧،

جامع المقاصد ١: ٢٦٣، ٢: ٤١٦، مجمع الفائدة والبرهان ٣: ٢٠٢، ٥: ٢٥٣، ٢٥٨.

(٢) انظر البحر الرائق ١: ١٢٠، ٢: ٣٥٤، ٣: ٢٧٠، حاشية رد المحتار ٤: ٥.

الكريمة، حيث إنها تقرّر أن الصلاة تحمل بعداً إنسانياً، فكلّ فرد إنما تبنيه الصلاة الصحيحة.

وإنما نقول: الصلاة الصحيحة؛ لأن الصلاة التي لا تكون عن عقيدة، بل يؤدّيها المرء كما يدفع الضريبة التي هو غير مقتنع بها، فلا شك أنّ مثل هذه الصلاة ليس لها أي قيمة. أمّا الصلاة التي يؤدّيها الإنسان وهو يعتقد أنّها تربّيه وتهذّبه وتحسن أخلاقه، وتجعله مسلماً يسلم الناس من يده ولسانه؛ لأن «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(١)، فهي الصلاة المقصودة بالآية.

المبحث الثاني: هل أن ولد الولد ولد على الحقيقة؟

أن الخطاب لبني آدم، وبيننا وبين آدم ﷺ آلاف الآباء، والآية تخاطبنا بذلك، فهذا دليل على أننا أبناء لآدم، وأن إطلاق التسمية صحيح لا إشكال فيه؛ إذ أبناء الولد وأبناء البنت وإن نزلوا يُسمون أبناء.

بنوّة الحسنين ﷺ

وهذه المسألة تثبت صحّة التسمية للحسنين ﷺ أنهما ابنا رسول الله ﷺ، حيث إن ابن البنت ابن، وإن من يدعي غير ذلك فهو إنسان لا يعرف حضارته ولا لغته؛ ومن هنا لا يمكن للإنسان أن يتزوج بنت ابنته. وكثيراً ما يخاطب القرآن الإنسان بابن آدم، مع الفاصل الكبير بيننا وبينه.

ولكي نوضّح الأمر فإننا عندما نقول بنوّة الحسنين ﷺ، فإننا لا نقول

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٧، المحاسن ١: ٢٨٥ / ٤٢٦، الكافي ٢: ٢٣٤ / ١٢، مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٦٣، وغيرها كثير، صحيح البخاري ١: ٨، وغيرها كثير، صحيح مسلم ١: ٤٨، وغيرها كثير.

بذلك طمعاً في النسبة الدمويّة، فهناك الكثير ممّن حاول أن ينسب نفسه لرسول الله ﷺ، وإنما نحن نريد بذلك: الأنموذج الحي الذي يمثّل النبي ﷺ بكلّ خصائصه الفكريّة والأخلاقيّة، وجميع مقوماته الشخصيّة.

المبحث الثالث: فلسفة التعرّي

أن العرب كانوا يحجّون للكعبة ويطوفون بها عراً.

إن أهميّة العقيدة تكمن في أنها تعتبر البنية التي تصوغ الإنسان وتحافظ عليه من جميع جوانب حياته، فإذا خلا الإنسان من العقيدة الصحيحة، أصبح عرضةً للخرافات، كتلك الشعوب التي سيطر عليها الدجالون والمشعوذون. وهنا حالتان عند العرب:

الأولى: التعرّي. فالعرب قبل الإسلام كانوا إذا أرادوا الطواف حول الكعبة التي هي بيت الله المقدّس، لجؤوا إلى التعرّي من ثيابهم؛ لأنهم كانوا يرون أن هذه الثياب التي يرتدونها إنما كانت عليهم حين ارتكابهم المعاصي، أي هي ملوثة بالذنوب، فللتخلّص من هذه الحالة عليهم التجرد منها، لكي لا يواجهوا الله بثوب ارتكبت فيه المعصية.

وعندما جاء الإسلام اعتبر هذه الفلسفة خاطئة، ذلك أن الإنسان يعصي بجسده أيضاً لا بثوبه فقط، ولا يمكن التخلّص من الجسد، مع أن المناسب - من وجهة نظر تلك الفلسفة - أن يتخلّصوا من ذلك الجسد، أو من تلك الأعضاء التي عصوا الله بها، فيجب عليهم أن يتخلّصوا من ألسنتهم التي كذبوا بها، وأعينهم التي نظروا بها إلى المحارم، وهكذا. والحقيقة أن الإسلام وضع قوانين خاصة بذلك، منها أنه لا تجوز الصلاة بالثوب المغصوب، ولا بالثوب النجس، ولا بثوب الميتة، ولا بثوب به عرق الجنابة من الحرام، وهكذا، فإن مثل هذا لا يجوز الطواف

والصلاة فيه.

الثانية: الطعام والشراب الطيبان. فالعرب كانوا يمتنعون عن الطعام والشراب الطيبين؛ لأنهم يرون منافاتهما للعبادة، حيث إنهما تقوم بتطهير النفس وتهذيبها، وتطهيرها إنما يحتاج إلى لون من الخشونة والضغط والتعذيب. والإسلام منع من هذه الظاهرة، وعدّها ممّا لا أساس له من الصحّة، وأن الاعتقاد بهذا المفهوم هو اعتقاد خاطئ من وجهين:

الأول: أن الإنسان ليس له حقّ التشريع لنفسه، كما يحبّ في الأمور العباديّة، حيث إنها من الأمور التوقيفيّة، أمرها يرجع إلى الله سبحانه، لا بتصوّر الإنسان وتفكيره، وإنما هو من حقّ خالق الإنسان، الذي يعرف قدراته وقابلياته.

الثاني: أن الإسلام أعدّ منظومة لتطهير النفس وإصلاحها وتهذيبها، وشرع للإنسان ما يحتاجه في هذا الأمر حيث عالجه من جذوره، ووفّر له التعاليم الخاصّة الاحتياطيّة التي ما إن يلتزم بها حتى يتخلّص من تلويث النفس بالمعصية.

فالعرب عندما كان في معتقداتهم هذان الأمران جاءت الآية ومنعت المسلمين منهما، خاصّة أنهم وجدوا أنفسهم أولى بالتحلّي بحسن العبادة وتطهير النفس من غيرهم، فأوضحت لهم الآية عدة تعاليم:

أولاً: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، وعليه أوجب الفقهاء اتّخاذ الستر للمصلّي رجلاً كان أو امرأة، وبيّنوا حدوداً وأحكاماً معيّنة للستر في الصلاة، وفي غيرها.

حجاب المرأة

إننا نسمع شعار تحرير المرأة يتردّد على الأفواه بين أونة وأخرى،

وهو شعار برأي مطلقه يعني التقدّم والتطوّر. ولا شك أنّ هذه محاولة مكشوفة ومشبوهة، حيث إن المرأة زينتها سترها وعفافها، لا بإبرازها على أنها وسيلة لتفريغ الشهوات، ثم ترمى كسقط المتاع. وقد روي أنه سأل الرسول ﷺ فاطمة عليها السلام: «ما هو خير للمرأة؟». فقالت: «ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل»^(١).

وهذا لا يعني التحجّر، وإنما يعني المحافظة على المرأة، لئلا تتكشف على الرجال، وتجعل نفسها معرضاً لهم، فترمي بكرامتها وحجابها. فالستر في الصلاة مطلوب من المرأة، وعليها أن تستر جميع جسدها في الصلاة ماعدا الوجه والكفين، كما ينبغي أن تتوفر عدّة شروط في لباسها، كما ذكرها الفقهاء^(٢).

المبحث الرابع: الآراء في الزينة

هناك ثلاثة آراء في الزينة، هي:

- ١- أنها وجوب الستر عند إرادة الصلاة.
- ٢- أنها لبس أجمل الثياب وأنظفها عند إرادة الوقوف أمام الخالق سبحانه. وهذا يعني الاعتناء بالمسجد والمحافظة عليه، وألا يدخله الإنسان المنقّر للمصلين، كأكل الثوم، أو من يقوم بتوسيع المسجد، أو يرمي فضلاته في جوانب المسجد، وقد روي أن الرسول ﷺ رأى رجلاً رمى بنخامته في المسجد، فقال: «إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١١٩.

(٢) انظر: المعتمر ٢: ١٠٣، ١٠٦، الجامع للشرائع: ٦٥، فتح القدير ٤: ٩٢، ٩٦، ١٠٢، المجموع ٢: ٧٩.

الجلدة من النار»^(١)، أي عندما تنكمش من الحرارة.
وقد كان الرسول ﷺ يتطيّب إذا أراد الذهاب للمسجد، كما ورد^(٢).
وهناك أحاديث واردة في هذا المعنى في آداب أهل البيت^(٣).
كما أنّ من العناية بالمسجد عدم اللغو في الحديث، فحتى لو كان ذلك
الإنسان مخالفاً لكيفية العبادة، فعلياً ألا نكفّره ولا نوذيه، فـ:

اختلاف الرأي لا يفسد في الود قضية

وكما أن المطلوب هو الاعتناء بالمظهر الخارجي، فكذلك مطلوب
الاعتناء بداخل الإنسان، وعدم جرح مشاعره.
٣- أنها تعني إظهار النعمة، كما يقول الرسول ﷺ «إن الله يحب إذا أنعم
على عبد أن يرى أثر نعمته عليه»^(٤)، أي في اللباس والطعام والمنزل
الحسن، والتوسعة على العيال، وهكذا.

الإمام الرضا والمتصوّف

وقد كان الرضا^(٥) يلبس اللباس الحسن، فانتقده أحد الصوفيّة قائلاً: إن
أباك كان يلبس الخشن، ويأكل الجشب، ويركب الحمار، ويعود
المريض، وأنت تلبس هكذا؟ وكان الإمام متكئاً، فاستوى جالساً، فقال له:
«أما علمت أن يوسف^(٦) نبي ابن نبي كان يلبس أقبية الديباج مزرورة بالذهب
ويجلس في مجالس آل فرعون يحكم، فلم يحتج الناس إلى لباسه وإنما احتاجوا

(١) وسائل الشيعة ٥: ٢٤٤ / ٦٢٩٥، المصنف (ابن أبي شيبة) ٢: ٢٦٠ / ٩.

(٢) انظر تاريخ يعقوبي ٢: ٨٨.

(٣) انظر وسائل الشيعة ٢: ١٠٧ / ١٦٣٠، ١٤١ - ١٥٢ / ب ٨٩، ٩١، ٩٥ - ٩٨، ٤: ٤٣٤ -

٤٣٥ / ب ٤٣، ٥: ٢٢٨ - ٢٢٩ / ب ٢٣.

(٤) تحف العقول: ٥٦، بحار الأنوار ٧٤: ١٥٩ / ١٥٨.

إلى قسطه. وإنما يُحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا حكم عدل، إن الله لا يحرم طعاماً ولا شراباً من حلال وإنما حرّم الحرام قلّ أو أكثر، وقد قال الله عزوجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (١) (٢).

نعم، ينبغي ألا يصل الأمر بنا إلى حدّ السرف، وأن نجعل سيرة الأئمة عليهم السلام المتكاملة نصب أعيننا، وأن نكون كما كانوا لا كما كان يعمل الخلفاء العباسيون والأمويون، حيث يطلب أحدهم عند موته تابوتاً من العقيق يكلف مائة وثمانين ألف دينار، أو يلبس اللباس الذي يكلف آلاف الدنانير أو الدراهم (٣).

والإمام عليه السلام يقول: «وإنما يُحتاج من الإمام في أن إذا قال صدق، وإذا وعد أنجز، وإذا حكم عدل»، وليس ممنوعاً عليه أن يظهر نعمة الله المشروعة. ثانياً: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، فالبعض كان إذا دخل مكة يحرم على نفسه الطعام والشراب، ويرى أن ذلك أفضل للعبادة، فأوضح الإسلام أن الأكل حسن، وأن الممنوع هو الإسراف، حيث إن الإنسان لا يعيش ليأكل وإنما يأكل ليعيش.

الطبيب المسيحي

كان عند العباسيين ومن قبلهم من الأمويين الكثير من المسيحيين في بلاطهم، وقد أنفق هؤلاء المسيحيون الكثير من الأموال لاختراق الخلافة

(١) الأعراف: ٣٢. (٢) الكافي ٦: ٤٥٤.

(٣) نقل الميانجي في مواقف الشيعة ٣: ٢١٣ أن الوليد بن زيد دخل على هشام بن عبد الملك، وعلى الوليد عمامة فقال له: بكم أخذت عمامتك؟ قال: بألف درهم. فقال هشام: عمامة بألف! يستكثر ذلك. فقال له الوليد: إنها لأكرم أطرافي، وقد اشتريت جارية بعشرة آلاف دينار لأخس أطرافك.

الإسلامية منذ عهد معاوية، مثل جون الذي كان في بلاطه. ومن مؤرخي السريانيين (ابن بنكات)، وكان يعيش في بلاط معاوية، وكان من أعظم أنصار البلاط الأموي وخصوصاً معاوية، وكانت لهم يد غريبة في الأحداث التي جرت في التاريخ.

وكان عند الرشيد طبيب يقال له (ابن بختيشوع) فتفوه مرة بكلام ضد الإسلام، وقال مخاطباً الرشيد: ليس في دينكم من العلم شيء؛ لأن العلم علم أديان وعلم أبدان، وليس عندكم منه شيئاً. فقال له الرشيد: تكلم القرآن عن ذلك حيث قال في علم الأبدان: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، وقال الرسول: «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء، وأعط كل بدن ما عود به»^(١)، فقال له مجاملاً: نعم، ما ترك قرآنكم لـ (جالينوس) شيئاً من الطب. إذن فالروايات عن الطب في الإسلام كثيرة، وقد أسس الرسول ﷺ ذلك، وحث على علم الطب، حيث قال: «إذا مرضتم فتداووا، إن الله ما خلق داءً إلا وجعل له دواء». والجزئيات نراها كثيراً في تراث المسلمين.

إذن الآية تعلمنا كيف ينبغي أن نذهب إلى المسجد، فعلى الإنسان أن يعي ويتدبر معنى هذا المكان، وما هو معنى الحجر الأسود عندما نصافحه، وأنه يشهد عند الله بذلك^(٢)، وينبغي أن يأخذ الدروس من المساجد والمشاهد المقدسة إذا ذهب لزيارتها، ويتساءل عن توضيحات الأئمة وعن سببها.



(١) عوالي اللآلي ٢: ٧٢/٣٠، طب الأئمة (ابن سابور الزيات): ٦، بحار الأنوار ٥٨: ١٧/٣٠٧.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٦٨ - ٦٩/ ١٢٣، نيل الأوطار ٥: ١١٣، كنز العمال ١٢: ٢١٥/ ٣٤٧٢٨.

مشاكل الزواج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا
وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: معنى النسب في الآية

من العبادات التي كانت في الجزيرة قبل الإسلام أنهم كانوا يعبدون البشر أو الحيوانات، وحتى أصنامهم التي صنعوها كان فيها الذكر والأنثى مثل أساف ونائلة^(٢). فكانت عبادتهم إمّا لأشخاص أو كائنات حيّة حيوانيّة أو نباتيّة، وهم يرون أمام أعينهم أن الإنسان أو الحيوان

(١) الصافات: ١٥٨ - ١٥٩.

(٢) عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن أساف ونائلة وعبادة قريش لهما، فقال: كانا شابين صبيحين، وكان بأحدهما تأنيث، وكانا يطوفان بالبيت، فصادفا من البيت خلوة، فأراد أحدهما صاحبه ففعل، فمسخهما الله، فقالت قريش: لولا أن الله رضي أن يعبد هذان معه لما حوّلتهما عن حالهما». الكافي ٤: ٥٢٦ / ٢٩، وسائل الشيعة ١٣: ١٧٦٤٥ / ٢٤٠.

يحتاج إلى التزاوج، فهو صنفان ذكر واثني. وقد أدركوا قانون الزوجية العام بالفطرة دون أن يدركوا تفاصيله، أما القانون بتفاصيله الدقيقة فلم يتنبه له العلم إلا مؤخراً، لكن القرآن يضع لنا هذه المعلومة ويؤشر لها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١). والقرآن تتضح فيه مرونة القاعدة التي يضعها، بحيث تتسع لكل اكتشاف في المستقبل.

ولما أدرك العرب ذلك بالفطرة تصوّروا أن الله عزّ وجل مثلهم، فقاسوه بأنفسهم، فهو يحتاج إلى الشريك وهذا ما يعبر عنه في الوقت الحاضر بـ«الإسقاط»، أي أن يسقط ما في نفسه على الموجودات الخارجية، أو ما يسميه علماء الاجتماع بـ«الاستبطان الذاتي»، أي أنه يستبطن ما في نفسه ويطبّقه على الآخرين.

ولتقريب المعنى نضرب هذا المثل: لو أن أحداً يرى طفلاً مؤذياً مشاغباً، ويحاول أن يضربه فإنه قد يمتنع، ويخطر في باله ساعتها ابنه، ويقول في نفسه: لو كان هذا ابني، فهل أرضى لأحد أن يضربه؟ فيخلع ما في نفسه على هذا. وهذا هو معنى الاستبطان، فكان أولئك الجاهليون يخلعون ما في أنفسهم على معبودهم.

تقول الآية: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا﴾، فما المقصود بهذا المعنى؟ هنا ثلاثة آراء:

الأول: أن إبليس شريك الله في الخلق، فهو أخوه

فهؤلاء كانوا يقولون: إن إبليس اشترك مع الله في خلق العالم؛ فهو أخ له.

(١) يس: ٣٦.

وهذا كلام الزنادقة؛ فقد قالوا: إن المخلوقات صنفان: صنف منها مميّز ومنه غير مميّز، كالإنسان مثلاً فمنه جميل الصورة والشكل قويّ البدن، ومنه من هو ليس كذلك، وكذلك الحيوان ففيه مثل الطاووس وهو مميّز، وفيه مثل القرد. فالخلق ليس على وتيرة واحدة وإنما فيه تنوع، فالأشياء الجميلة حسب زعمهم هي من خلق الله، والقبيحة من خلق الشيطان؛ فإبليس شريك لله^(١). وهذه النظرية تلتقي مع نظرية المجوس بأن العالم يحكمه اثنان: يزدان وأهرمن، أحدهما للخير والآخر للشر، أو أحدهما للظلام والآخر للنور^(٢). فمن كان وجهه جميلاً مشرقاً فهو من خلق الله وإلا فهو من خلق الجن أو الشيطان.

ومن الطريف ذكره أننا حتى مع غير هذه النظرية نئنُ من وطأة التفرقة العنصرية، فهذا ينتمي إلى حام وهذا إلى سام، فكيف بنا لو أخذنا بهذه النظرية؟ إنها نظريات لا تصمد أمام العلم والنقد، وهي آتية من الفراغ ولا تستند إلى قاعدة، ولا تركز على علم أبداً. لكن هؤلاء جعلوا بين الله والشيطان نسباً، فكان هؤلاء الزنادقة يرون أن في العالم إلهين: أحدهما للخير والآخر للشر.. أحدهما للجمال والآخر للقبح.. أحدهما للظلمة والآخر للنور.

الثاني: أن الملائكة بنات الله

فالأية تشير إلى ما يقول به العرب من أن الملائكة بنات الله. وقد تناولهم الله بالنقد في القرآن: ﴿الْكُفَّ الدَّكْرُ وَلَهُ الأُنثَى * تِلْكَ إِذْأ قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾^(٣)، فهم كانوا إذا جاءت أحدهم البنت حزن وتغيّرت كلُّ

(١) شرح المواقف: ٤٣ (حجري). (٢) شرح المواقف: ٤٤، ٦٣ (حجري).

(٣) النجم: ٢١ - ٢٢.

أوضاعه^(١)، أما إذا جاءه ولد فإنه يفرح، فكيف ينسبون البنات اللواتي يحزنون منهن إلى الله؟ أليس هذا يعني أنهم أكمل حالاً من الله؟ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(٢). فهذا المعنى نقدهم به القرآن ونبّههم عليه، فهم يعتبرون الملائكة بنات الله، والملائكة مستجنون عن الأنظار ولا يمكن رؤيتهم، وكل مستجنّ يسمى جنّاً^(٣). والمشكلة أنك إن ترجع إلى تاريخنا فستجد فيه محاولات لإظهار غير الواقع، وتعليقه على عاتق غير المنظور، فمثلاً، إذا أردت أن أداوي مريضاً وأنا لا أعرف ما هو مرضه فأقول: إن هذا أصابته الجن، ولا يمكن أن يشفى إلا إذا أخرجنا منه الجن. وكيف يخرج؟ نعم يخرج - حسب زعم الدجالين - إذا أعطي الدجال مالا كثيراً. وهذا المعنى موجود في الحقل السياسي والاجتماعي وكلّ الحقول، فسعد ابن عبادة كان قد امتنع عن مبايعة الخليفة الأول وذهب إلى الشام، وبعد أيام قتل، وظهر في الساحة السياسية شعر:

قَدْ قَتَلْنَا سَيِّدَ الْخَزْ رَجِ سَعْدَ بْنَ عَبَادَةَ
وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمِيهِ نِ فَلَمْ نُخْطِ فَوَادَةَ^(٤)

ف قيل: إن الجن قتلته في الليل؛ لأنهم وجدوه يبول واقفاً، ونسبوا هذا للجن. ويقف أحد الشعراء وقفة ساخرة فيقول:

يَقُولُونَ سَعْدَ شَكَّتْ الْجِنُّ قَلْبَهُ أَلَا رَبِّمَا صَحَّحْتَ دِينَكَ بِالْغَدْرِ
وَمَا ذَنْبُ سَعْدٍ أَنَّهُ بِالْكَافِرِ قَائِمًا وَلَكِنَّ سَعْدًا لَمْ يَبَايِعْ أَبَا بَكْرٍ

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ النحل: ٥٨.

(٢) النحل: ٥٧. (٣) الصحاح ٥: ٢٠٩٣ - جن.

(٤) الطبقات الكبرى ٣: ٤٦٣ / ٢٦٠.

وقد صبرت عن لذة العيش أنفُسُ وما صبرت عن لذة النهي والأمر^(١)

وحتى في عهد المتوكل ظهر هذا الاتهام للجن، فكان يقال: إن هؤلاء الذين يأتون لتخريب قبر الحسين عليه السلام ترميهم الجن. والحقيقة أن الشيعة كانوا يتصدون لهم ويرمونهم^(٢).

فعلى هذا الرأي إن الملائكة بنات الله وقد استترت واستجنت فهي جن، وبينها وبين الله نسب.

الثالث: أن الله تعالى صاهر الجن

وهو رأي يذهب إليه كنانة وخزاعة، حيث كانوا يعتقدون أن الله خطب إلى الجن من سراتهم، أي من البيوت المحترمة منهم، فالسري هو الشريف المحترم^(٣)، فالله خطب إلى سراة الجن، ومنهم صار له أولاد وبنات.

وموضوع إمكانية زواج البشر من الجن موضوع بحاجة إلى وقفة، وهناك فتاوى في هذا الموضوع حول من يتزوج من الجن، وهي فتاوى لا سبيل إلى الأخذ بها؛ فهي فتاوى غير معتبرة لا تصمد أمام النقد؛ فالله تعالى يقول: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٤) فالإنسان يتزوج من جنسه. ونحن ليس عندنا نقص في جانب النساء حتى نسعى وراء الجنيات. ولينا نضع مشاريع للزواج لحل هذه المشكلة، ونهيب بأهل الخير أن يقوموا بواجبهم في هذا المجال، كأن يهيئوا بيوتاً أو مساعدات للمتزوجين بقدر

(١) الأبيات لحسان بن ثابت الأنصاري. انظر: شرح نهج البلاغة ١٠: ١١١.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٣٢٦ / ٦٥٣، مقاتل الطالبين: ٣٩٥.

(٣) لسان العرب ١٤: ٣٧٧، ٣٧٨ - سرو. (٤) النحل: ٧٢، الشورى: ١١.

الإمكان، فنستر هذه العوائل. وليكن عندنا تفكير شامل بأن بنت فلان هي مثل ابنتي، وبنت الآخر هي مثل ابنتي، فكما أنني أحب أن يستر الله عرضي فلا بد أن أحب أن يستر عرض الآخرين. «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»^(١).

فنظرية التزوج من الجن هي نظرية خرافية لا تُقبل بأي حال من الأحوال، سواء فيما هو متعلق بالله أو بالإنسان.

المبحث الثاني: امتيازات الأنساب عند الخلفاء

ثم قالت الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾، فالجن لو كانوا أنساباً لله عز وجل، لكان لهم امتياز في المعاملة حسب القاعدة التي درج عليها الناس؛ لأن الأنساب مميّزون في الدنيا. فالقرآن يريد أن يبين لنا أن هؤلاء ليس لهم امتياز خاص، وإنما سوف يُحضرون ويحاسبون مثل باقي الخلق، وليس كما هو عندكم في الدنيا من وجود امتياز خاص للنسب.

من مساوي مروان

لقد كان مروان بن الحكم متزوجاً من بنت الخليفة الثالث، فأخذ نمطاً من الامتيازات أوغرت صدور المسلمين، ولم يتحملها الصحابة؛ لأن مروان وأباه طريدا رسول الله ﷺ^(٢)، وقد خلق للمسلمين ألف مشكلة،

(١) الكافي ٢: ١٦٣ / ١، ٤ - ٥، وسائل الشيعة ١٥: ٤١١ / ٢٠١٦٩، ١٦: ٣٣٦ / ٢١٧٠٠ - ٢١٧٠١.

(٢) حيث كان ﷺ قد طرد الحكم أبا مروان إلى الطائف، انظر: الإحكام في أصول الأحكام (ابن حزم) ٢: ٢٠٣، مجمع الزوائد ٨: ٤٣، قال الهيثمي فيه: وفيه - سند الحديث - عبد الملك ولم أعرفه وبقيه رجاله ثقات، المعجم الكبير ١٢: ١١٥، شرح نهج البلاغة ١: ٣٣٥، ٣: ١٤٩، ٦: ٣٠.

فعلى أية قاعدة يبنى له بيت في البقيع مثلاً، يكلف بيت المال خمسين ألف دينار؟ وقد كانت الخمسين ألف دينار من الذهب ميزانية دولة. ولماذا يعطى خمس أفريقيا له، يُخرج من بيت المال إلى بيت مروان^(١)؟ ووقف الشاعر ابن حنبل يخاطب الخليفة الثالث قائلاً:

وأقسم بالله رب العبا د ما خلق الله شيئاً سدى
ولكن خلقت لنا فتنة لكي نبتلي بك أو نبتلى

إلى أن يقول:

وأعطيت مروان نصف البلا د خمساً له ومنعت الحمى^(٢)

فهذا اللون من المعاملة أو جد عند الناس مشكلة كبيرة، خصوصاً أنهم على تماس مع مروان، ويعرفون ماذا يصنع، فهو المدير الفعلي للوضع، فكان يأخذ خاتم الخلافة ويوقع الرسائل دون علم الخليفة. وهذا ما حدث مع المصريين الذين قدم وفد منهم لمفاوضة الخليفة الثالث، وقالوا: إن هناك مخالفات صريحة للإسلام، فنطلب منك أن تصححها. فوعدهم خيراً، وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم. فلما خرجوا أمسكوا رجلاً في الطريق يحمل رسالة من عثمان إلى الوالي على مصر أن إذا جاءك فلان وفلان فاضرب أعناقهم. فأمسكوا الرسالة والرجل ورجعوا بهما إلى المدينة، فأخبروا عثمان. فقال: لا أدري. فلما بحثوا عن الكاتب

(١) انظر: مناقب أهل البيت عليهم السلام: ٣٦٢، الإمامة والسياسة ١: ٣٥، شرح نهج البلاغة ٣: ٣٣، ٣٧.

(٢) الإصابة ٤: ٢٥٢ / ٥١٢٢، تاريخ مدينة دمشق ٣٤: ٣٢١ / ٣٧٩٧، ما روته العامة من مناقب أهل البيت: ٣٥٩.

وجدوه مروان^(١).

وأسرة مروان جميعاً بمن فيهم أبوه لهم مواقف من الرسول ﷺ غير مشرفة؛ ولذا لعنهم النبي ﷺ. ولما حدثت مشادة بين مروان وبين عائشة بسبب عبد الرحمن بن أبي بكر أخي عائشة، حيث قال له مروان: أنت الذي قال الله فيك: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِيَا وَيْلَيْهِ أَفْ لَكُمْ﴾^(٢)، قالت عائشة: ليس كذلك، إنما أنا أشهد أن رسول الله ﷺ لعنك وأنت في صلب أبيك^(٣).

المأمون ومظاهر بذخه

ومما يستدلّ منه تاريخياً على هذا الموضوع أن بوران بنت الحسن بن سهل كانت زوجة المأمون، وكان الحسن وزير المأمون، وكانت ابنته هذه معروفة بالجمال والثقافة، فتزوجها المأمون. لكن ما الذي فعله ليلة العرس؟ أمر بغرفة الدخول، فأخذوا أبعادهما من العرض والطول، ونسجوا عليها حصيراً من الذهب، وبعثوا إلى أمهات المدن الإسلامية فجمعوا كل حبة لؤلؤ كبيرة أو حجر كريم كبير، إلى أن جمعوا منه سلاسل، فلما دخل المأمون وقف على حصير الذهب، وألقيت سلال

(١) وفيها قال عثمان لمروان: أنت كتبت هذا الكتاب؟ قال: نعم. قال: ومن كان معك؟ قال: كان معي نفر تفرّقوا فرقاً منك. قال: من هم؟ قال: لا أخبرك بهم. قال: فلم اجترأت عليّ من بينهم؟ فما كان من مروان إلا أن قال: يا أمير المؤمنين إن هذا العبد الأسود - يعني عماراً - قد جرّأ عليك الناس، وإنك إن قتلتته نكّلت به من وراءه. فقال عثمان: اضربوه. فضربوه وضربه عثمان معهم حتى فتقوا بطنه، فغشي عليه. الإمامة والسياسة ١: ٣٥. وهكذا حوّل مروان الجرم والعقوبة - ولم يكن بالذي يعاقب - عنه إلى غيره.

(٢) الأحقاف: ١٧.

(٣) السنن الكبرى (النسائي) ٦: ٤٥٩ / ١١٤٩١، الفائق في غريب الحديث ٣: ٣٩٨ - هرقل، الجامع لأحكام القرآن ١٦: ١٩٧، تفسير القرآن العظيم ٤: ١٧١ - ١٧٢، أسد الغاية ٣: ٣٠٦، الإصابة ٤: ٢٧٥.

اللؤلؤ والأحجار الكريمة على رأسه، فأخذت تتساقط على الحصير، فتذكر قصيدة لأبي نؤاس يقول فيها:

كأن صغرى وكبرى من فواقها حصباء درّ على أرض من الذهب

ومن بعد أن خرج من غرفة الدخول رأى والد البنت، فقال له: حاجتك؟ قال: حاجتي أن تحفظ لي قلبك من السرقة؛ لأن صاحب السلطان كراكب الأسد. قال: لا، بل لك خمس أفريقيا^(١). ودفع له ذلك، وليس ذلك إلا لأنه صهره.

خطبة علي لفاطمة عليها السلام

وفي مقابل ذلك نجد صورة أخرى وهي صورة إسلامية، لا كتلك التي عليها اسم الإسلام فقط دون سماته، يقول السيد ابن طاووس: كان أمير المؤمنين عليه السلام في بستان له - فقد كان ولعاً بإحياء الأرض وزرع النخيل واستنباط الماء، وكان يبيع ذلك فيشتري بثمنه عبيداً يعتقهم لوجه الله، حتى أعتق ألف مملوك من كدّ يده^(٢) - يتركل على مسحة له ويقراً:

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ١٤٣، تاريخ بغداد ٧: ٣٣١، تاريخ يعقوبي ٢: ٤٠٩.
(٢) الكافي ٥: ٧٤ / ٤، الأمالي (الصدوق): ٣٥٦ / ٤٣٧، مجمع البيان ٩: ١٤٧، شرح نهج البلاغة ٤: ١١٠، ينابيع المودة ١: ٤٤٦. وقد وقف عليه السلام على الحجّاج مئة عين استنبطها في ينبع كما في مناقب آل أبي طالب ٢: ١٢٣، ومع أن أمواله عليه السلام قد بلغت في السنة أربعين ألف دينار كما في مسند أحمد ١: ١٥٩، أسد الغابة ٤: ٢٣، تاريخ الإسلام ٢: ١٩٩، ينابيع المودة: ٣٧٢. وغيرها فإنه عليه السلام لم يلبس ثوباً جديداً، ولم يتخذ ضيعة، ولم يعقد على مال إلا ما كان يبيع والبغيغة ممّا يتصدّق به. كما أنه لم يترك حين وفاته سوى سبعمئة درهم أراد أن يشتري بها خادماً لأهله كما في الإمامة والسياسة ١: ١٦٢، الفتوح (ابن أعمش) ٤: ١٤٦، الاستيعاب (هامش الإصابة) ٣: ٤٨، تاريخ الإسلام ٢: ٢٠٧. وقد أمر برّد هذا المبلغ إلى بيت المال بعد وفاته كما ذكره الإمام الحسن عليه السلام في خطبته. الفتوح (ابن أعمش) ٤: ١٤٦.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(١)، ودموعه جارية، فدخل عليه الخديفتان أبو بكر وعمر، فسَلَّمَا ثم قالَا: يا علي، ما يمنعك من ذكر فاطمة؟ نحن خطبناها إلى النبي ﷺ فلم يعطينا، وخطب إليه عبد الرحمن بن عوف وجماعة فلم يعطيهم، وصار إذا جاءه الخاطب يدير وجهه عنه. حتى قال: «إن جاءني أحدهم خاطباً فاطمة أشكُّه إلى الله». فما يمنعك من

وقد عاش ﷺ ومات وما بنى لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، كما في تهذيب الأسماء ٢: ٣٤٦، أسد الغابة ٤: ٢٤، مناقب أمير المؤمنين (الخوازمي): ٧٠، البداية والنهاية ٨: ٥٥. وقد باع ﷺ سيفه وقال: «لو كان عندي ثمن عشاء ما بعته». كشف المحجّة: ١٢٤. وحينما قال محقن الضبي لمعاوية: جئتك من عند أبخل الناس - يعني أمير المؤمنين ﷺ - قال له معاوية: والله، لو كان له بيتان: بيت تبن وبيت تبر لأنفد تبره قبل تبنه. ترجمة الإمام علي (ابن عساكر) ٣: ٥٨، ٦٠. وكان مصير كل تلك الأملاك أن تصدق ﷺ بها ووقفها على المسلمين، ولم يُبق منها شيئاً حين وفاته كما هو صريح خطبة ولده السبط ﷺ حين توفي والده. الفتوح (ابن أعثم) ٤: ١٤٦، ترجمة الإمام علي (ابن عساكر) ٣: ٥٨، ٦٠. وقد قال ﷺ: «أنا الذي أهنت الدنيا». ترجمة الإمام علي (ابن عساكر) ٣: ٢٠٢، البداية والنهاية ٨: ٥.

وقصته مع أخيه عقيل أشهر من نار على علم، فلم يعطه زيادة على عطائه مع أنه أخوه، كما فعل غيره ومرت الإشارة إليه في محاضرة (أمية الرسول ﷺ) عن تاريخ ابن خلدون ١: ٢٠٤ - ٢٠٥، وكذلك بشهادة عثمان نفسه كما في جواهر المطالب (ابن الدمشقي) ٢: ١٧٥ حيث قال له عبد الرحمن بن عوف: إني إنما قدّمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فقد خالفتهما. قال عثمان: كان عمر يقطع قرابته وأنا أصل قرابتي في الله. فقال له: إني لا أكلمك أبداً. فمات وهو لا يكلمه. مع أن عمر نفسه لم يسلم من هذا، فقد أصدق إحدى زوجاته أربعين ألف دينار أو درهم كما في الفتوح الإسلامية ٢: ٥٥، البحر الزخار ٤: ١٠٠، وأعطى صهراً له قدم عليه من مكّة عشرة آلاف درهم من صلب ماله كما في الطبقات الكبرى ٣: ٢١٩، كنز العمال ٢: ٣١٧. كما أن ابناً لعمر باع ميراثه بمئة ألف درهم كما في جامع بيان العلم (ابن عبد البر) ٢: ١٧، وفي نص آخر أن ثلث مال عمر أربعون ألفاً كان قد أوصى بها. المصدر نفسه. (١) الحاقّة: ١٨.

خطبتها؟ قال: «يمنعني قلّة ذات اليد». فقالوا له: إنك تعلم أن الدنيا لا تساوي عند الله ورسوله جناح بعوضة، ولا عليك. فوضع رداءه على ظهره وأقبل معهما، يقول أمير المؤمنين: «لما دخلت على النبي ﷺ وصرت أمامه أحسست أن رجلي لا تحملاني حياء منه، فجلست بين يديه ورحت أذكر له موافقي وجهادي في سبيل الله ودفاعي عن حمى المسلمين. فقال لي: يا علي، أنت في نظري أكبر من ذلك، ارفع رأسك وقل لي عما جئت به. قلت: الحياء يمنعني. قال: لعلك جئت خاطباً فاطمة؟ قلت: إي والله. فقال: الله أكبر، الآن خرج من عندي جبرئيل، وقد أمرني أن أزوّج النور من النور، فقلت: من ممّن؟ قال: زوج علياً من فاطمة. وأنا زوّجتك ابنتي».

وهذا يسمى بلغة الفقهاء^(١) «تفويض البضع» وهو ما لا يسمى فيه المهر، فالمهر ليس ركناً حتى يذكر في صلب العقد، فينصرف إلى مهر المثل.

ثم قال: «يا علي ما عندك تسوقه لأهلك؟ فقلت: الله ورسوله أعلم بحالي، ليس لي نقد، وليس عندي إلا الدرع والناضح».

والناضح البعير المخصّص للسقي^(٢)، والعرب تسمي البعير بأسماء مختلفة بحسب وظائفه وعمله، فما كان منه في البستان يسمى ناضحاً، وما كان منه هدياً للكعبة يسمى بدنة^(٣) وإذا كان للركوب يسمى راحلة^(٤).

(١) شرائع الإسلام ٢: ٥٤٧، قواعد الأحكام ٣: ٧٩، المجموع شرح المهذب ١٦: ٣٧١ -

٣٧٢. (٢) لسان العرب ١٤: ١٧٤ - نضح.

(٣) لسان العرب ١: ٣٤٦ - بدن، وإنما سميت بدنة؛ لأنها تبتدئ، أي تسمن.

(٤) لسان العرب ٥: ١٧٠ - رحل.

وعادة يكون الناضح عند الفلاحين، ولهذا لما جاء معاوية إلى الحجّ، أخرج الوالي الناس لاستقباله، وانتهى الأمر إلى قيس بن سعد بن عبادة، فأبى أن يخرج، فأجبر على ذلك فخرج، فاستقبله معاوية، وكان عمرو بن العاص واقفاً إلى جنب معاوية، فرأى معاوية قيساً وقد أتى وحده، فقال له: مالي لا أرى الأنصار؟ قال: ما عندهم رواحل، قال معاوية: فأين ذهبت نواضحكم؟ (يعني أنهم فلاحون)، قال: أفينناها يوم بدر، يوم ضربناك وأباك على الإسلام حتى أدخلناك فيه كرهاً. فأراد معاوية أن يجيبه، فسحب عمرو بن العاص رداءه وقال له: على رسلك، إن أجبتة بواحدة أجابك بأربعة. فسكت^(١).

فعلي عليه السلام لم يكن عنده سوى الناضح ودرعه وسيفه. وفي سيرة هذا الرجل نفحات تهزك من الأعماق، فهو يتحدث عن سيرته الذاتية فيقول: «ولقد رقت مدرعتي حتى استحييت من راقعها، وحتى قال لي قائل: ألا تنبذها عنك؟ فقلت اعزب عني، فعند الصباح يحمد القوم السرى»^(٢). وكان عليه السلام يقول: «ما لعلي ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى؟»^(٣). ولئن كنت يا علي لا تملك إلا المدرعة، فقد كسك الدهر حمداً وثناء لا ينقطع إلى أن تقوم الساعة.

إذا الملاً الأعلى تحذر بالثنا عليك فما شأنني وشأن ثنائيا

ثم قال عليه السلام: «فقال لي رسول الله ﷺ: اذهب فقد زوجتك ابنتي بالدرع».

(١) قريب منه في مناقب آل أبي طالب ١: ٩٦، الفائق في غريب الحديث ٢: ٣٢٣ - نضح،

شرح نهج البلاغة ١٣: ٢٩٦ - ٢٩٧، الجامع لأحكام القرآن ٤: ٣٥.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٦٠، عيون المواعظ والحكم: ٤٠٥.

(٣) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢٤.

فرسول الله ﷺ يطالبه بالمهر، لا كأولئك الذين يميّزون أنسابهم. نعم، فيبيع علي بن أبي طالب الدرع بأربعمئة وثمانين درهماً، ويأتي بها فيسكبها بين يدي النبي ﷺ، يقول: «فلا هو سألني عن عددها ولا أنا أخبرته بالعدد، فأخذ قبضة بكلتا يديه دفعها إلى بلال، قال: ابتع بها لابنتي طيباً. وقبض قبضات دفعها إلى أبي بكر وقال له: اذهب أنت وعمار وجمع من الصحابة فاشتروا لابنتي أثاث البيت وما يصلحها. ففعلوا».

نعم، اشتروا قميصاً بأربعة دراهم، وخماراً بأربعة دراهم، وسريراً مزماًلاً بشرائط النخل وحصيراً، وقعباً للبن، وفخاراً للماء، وأنية نحاسية، فوضعه بين يدي النبي فراح يقلبه ويقول: «بأبي وأمي قوم جل إنائهم الخزف»^(١).

هذه هي الصورة الإسلامية الناصعة، وإلا فإن النبي ﷺ كان بإمكانه أن يسوق لها أعظم المهور.

فالقرآن يريد تبين هذه اللمحة النفسية - معاملة الأصهار معاملة خاصة - بأنه لو كان الجنُّ أصهاره لكان تعالى على نمطكم في المعاملة، فادّعواكم هذا باطل.

المبحث الثالث: تكريم الزوجة في الإسلام

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي لا تسقطوا ما في أنفسكم على الآخرين، ولا تتصوّروا أن الله مثلكم يحتاج إلى الشريكة، إن الله فرد صمد لم يلد ولم يولد، ولم يكن له صاحبة ولا ولد، بعكس ما أنتم

(١) لم تتوفر لدينا كتب السيد، قريب منه في دلائل الإمامة: ٨٧، بحار الأنوار ١٠١: ٨٨ / ٥٣ عن مسند فاطمة.

عليه. فالإنسان بأمس الحاجة إلى شريكة الحياة، فجعل الله المرأة سكناً للرجل والرجل غطاء وستراً لها. ولذلك نلاحظ أن الإسلام ذلّل كلّ العقبات كيلا تكون عائقاً أمام الزواج، فجاء إلى أهم العقبات وهي المهر، فلم يعتبره إلا نحلة وعطيّة للمرأة كي يطيب قلبها، وليس هو ثمناً.

وأستغرب من عبارة بعض الفقهاء حيث يقول: المهر عوض البضع^(١). والحال أن المهر ليس كذلك؛ فما تعطيه المرأة من الحنان لا يقيّم أو يثمن بالنقد، وما يعطيه الرجل كذلك. والعلاقة التي يريدتها الإسلام ليست مادّيّة غليظة فيها بداوة، وإنما يريدتها علاقة تقوم على الروح: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(٢)، ويقول النبي ﷺ: «النساء شقائق الرجال»^(٣). ومعنى ذلك أن المرأة كالأخ الشقيق، فهناك شراكة تقوم على مواجهة مشاكل الحياة، وعلى السراء والضراء، فلا يكون المهر ثمناً للبضع، وإنما هو وسيلة لقضاء وإنجاز ما يحتاجه الإنسان من حاجات تتوقّف عليها أمور معاشه.

وهذه الأعراف من البذخ عندنا لا علاقة لها بالحياة الزوجيّة إطلاقاً كالإطعام في مكان معيّن، والحفلات في مكان معيّن، والنفقات التي لا موجب لها، بل هي مظاهر تعقّد الحياة وتضع عقبات بين الرجل والمرأة. ولا تتصوّر أن هذه الحفلة الضخمة أو الأثاث الضخم يستطيع أن يخلق سعادة إذالم تكن السعادة داخل النفس، فقد تجد كوخاً يطفح بالسعادة، وقد تجد قصرًا فخماً هو أشبه بالمقبرة.

(١) إيضاح الفوائد ٣: ١٩٠، جامع المقاصد ١٣: ١٤٣، البحر الرائق ٤: ٣١٦، حاشية ردّ

المحتار ٣: ١١٦. (٢) الروم: ٢١.

(٣) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٥٩ / ٢٣٦.

نعم، يقول النبي ﷺ: «النساء شقائق الرجال»، فالرجل إذا فقد شقّه لا يمكنه أن يحتمل ذلك، والمرأة الصالحة لا يمكن أن يعدلها شيء، دخل أحد الصحابة على النبي ﷺ يسأله عن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾^(١)، فقال له النبي ﷺ: «ألا أخبرك بخير ما يكنزه المرء؟». قال: ما هو؟ قال: «المرأة الصالحة إذا نظر إليها سرّته، وإذا أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته»^(٢).

نعم، تحتاج الحياة إلى ما يحرك نبض الإنسان، ولا يحركه شيء أكثر من الحبّ وتبادل المودّة والعطف. والمرأة كنز لا يعدله كنز، يقول أحد الشعراء راثياً شقيقة روحه:

شقيقةٌ روعي كيف يغمرك الثرى	وشخصك في أعماق روعي يُرسمُ
مشيت معي والعيش بؤس وكلحة	ووجه الليالي عابس متجهّم
فلما استراش الفرخ وامتدّ عودُه	وراح القبيحُ الجذبُ وانزاح علقمُ
ضحكت وفي الحاليين كنتِ رضيةً	وثغفرك بالشكران لله مفعمُ

فالمرأة تسير معه في السراء والضراء، يقول النبي ﷺ: «لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن سخط منها خلقاً رضي آخر»^(٣).
والفرك: البغض والكره^(٤). والعرب يقسمون النساء قسمين: الفُروك

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥: ١٧٠، وقريب منه في جوامع الجامع ١: ٣٩٦، مسند أبي داود الطيالسي: ٣٠٦.

(٣) مسند أحمد ٢: ٣٢٩، صحيح مسلم ٤: ١٧٨.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠: ٥٨، وفيه ذكر أن المقصود بالمؤمنة: الزوجة، لسان العرب ١٠: ٤٧٤ - فرك.

والعروب؛ فالعروب المتودّدة لزوجها المقبلة عليه^(١)، والفروك المعرضة عنه. فالنبي ﷺ يقول: المؤمن لا يكره زوجته، خصوصاً إذا توطّدت العلاقة بوجود طفل بينهما، فهذا الطفل له حقّ وعليهما ألاّ يضيّعا. فلا ينبغي لهما أن يتشاجرا أمامه فيدمراه. وقد ثبت بالإحصاءات أن البيوت المحطّمة تأتي من الشجار بين الأبوين.

وقد كانت فاطمة الزهراء عليها السلام، عزيزة رسول الله ﷺ، النموذج المثالي في العلاقة بين الزوجين، هذه النسمة التي كان رسول الله ﷺ يتنشّقها، فكان إذا مرّ على باب دارها يقف ويصيح: «يا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة»^(٢) وكان ﷺ يقول: «أتأذنون لمحمد بالدخول». فتقول له: «البيت بيتك، والحرّة ابنتك»^(٣). فيضع رأسه على رأسها، ويشبع رأسها لثماً وتقبيلاً، ويقول: «أشمّ منها رائحة الجنّة»^(٤).

هذه المرأة عاشت مع أمير المؤمنين عليه السلام تلك الفترة، وكان البيت ينبض بالسعادة مع ما مرّ به من آلام وضيق ومشقة، لكن المهم أن هناك نهريّن من المودّة يجريان معاً ضمن هذا البيت الذي كان يحوي هذين الزوجين وهما يريان الحسن والحسين عليهما السلام، وزينب وأم كلثوم يدرجون فيه. وكان عليها السلام إذا دخل البيت امتلأت روحه عطفاً ورضاً وأنساً وحناناً من هذه النسمة التي تعكس له روح النبوة. بالإضافة إلى ما كانت تغدقه من حنان

(١) لسان العرب ١: ٥٩١ - عرب.

(٢) تفسير فرات الكوفي: ٣٣٩ / ٤٦٣، بحار الأنوار ٣٥: ٢١٥ - ٢١٦ / ٢٠.

(٣) ورد أن الزهراء عليها السلام لما مرضت أراد أبو بكر وعمر أن يزوراها، فاستأذن لهما الإمام علي عليه السلام منها فقالت له: «البيت بيتك والحرّة زوجتك». كتاب سليم بن قيس: ٣٩١، بحار الأنوار ٢٨: ٣٠٣، ٤٣: ١٩٨.

(٤) علل الشرائع ١: ١٨٣ / ١، بحار الأنوار ٤٣: ٤٣ / ٥.

على بيته وعلى أولادها.

لقد مرت على علي عليه السلام لحظات وهو يودّعها في لحظاتها الأخيرة، وهي عليها السلام تقول له: «في صدري وصايا تختلج، وأريد أن أوصيك بها». قال عليه السلام: «بلى، عزّ والله عليّ فراقك يا بنت رسول الله». قالت: «يا أبا الحسن، إن أنا قضيت نحبي فغسلني بثيابي ولا تكشف عني فإني طاهرة مطهّرة. يا علي، لا بدّ للرجال من النساء، فإن أردت أن تتزوّج بعدي فعليك بابنة أختي أمّامة فإنها تكون لولدي مثلي، ومع ذلك اجعل لها يوماً وليلة وللحسين يوماً وليلة، ولا تصح في وجههما، ولا تنهرهما فإنهما يصبحان يتيمين منكسرين، بالأمس فقدما جدّهما واليوم يفقدان أمّهما». إلى آخر وصيّتها. ثم قالت: «فادفني ليلاً إذا نامت العيون وهدأت الأصوات»^(١).

فكان أمير المؤمنين عليه السلام إلى جانبها وقد وضع رأسها في حجره وهي ترفع وصاياها إليه. إلى أن فاضت روحها الطاهرة. فسجّأها وأسبل عليها الإزار والتفت إلى أبي ذرّ قائلاً: «يا أبا ذر، أعني على حملها»^(٢).

هذا علي الذي اقتلع باب خيبر، تلك الباب الضخمة بيد واحدة، يعجز عن نقل فاطمة وهي برعم صغير؟ نعم، لقد هدّه المصاب فلم يمكنه أن يتحرّك. حمل طرفاً من الفراش، وحمل أبو ذر الطرف الآخر، واستقبل أمير المؤمنين عليه السلام قبر النبي صلى الله عليه وآله فقال: «السلام عليك يا رسول الله، عني وعن ابنتك النازلة بجوارك والمختار لها الله سرعة اللحاق بك»^(٣)، ثم أخّر إخراج الجنازة إلى ما بعد منتصف الليل، فأخرجها مع المشييعين فوضعها على

(١) معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٤٩٢.

(٢) انظر: معاني الأخبار: ٣٥٦ / ١، السقيفة وفدك: ١٤٧، شرح الأخبار ٢: ١٦٠ / ٩٢، بحار

الأنوار ٤٣: ١٥٩. (٣) نهج البلاغة / الكلام: ٢٠٢.

حافة القبر:

شيعها الكبرها بليل	حنى عليها وبجه بهداي
يكلها يا وليف الروح	عكجج من يظل وياي
چنتي صحوة ايامي	وعكجج غيمت دنياي
وشريچ الروح لو سافر	ما ندري الوجه لا وين

أوصلها إلى القبر ثم التفت إلى المشيعين وكانوا ثمانية هم: أبو ذر وعمار والمقداد وآخرون، فقال لهم: «ارجعوا لا حاجة لي ببقائكم». ثم التفت إلى أبي ذر وقال: «خذ بيد الحسنين إلى البيت». ثم جلس هو على شفير القبر يخطّ الأرض بأنامله:

ما لي وقفت على القبور مسلماً	قبر الحبيب فلم يردّ جوابي
أحبيب مالك لا تردّ جوابنا	أنسيت بعدي خلّة الأحباب ^(١)



(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ٤٠، بحار الأنوار ٤٣: ٢١٧.

أبغض الحلال إلى الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ
فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا
اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا
يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ (١).

المباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: الآثار السلبية للطلاق

لقد عالج الإسلام موضوع الطلاق باعتباره إيّاه حالة من الحالات التي يلجأ إليها الإنسان عند الضرورة، بمعنى أن الإنسان أحياناً قد يلجأ إلى عملية من العمليات التي يجريها لبدنه، ولا يقوم بهذه العملية إلا عند الاضطرار. وموضوع الطلاق موضوع خطر؛ ولذلك يعتبره المشرع الإسلامي مثل موضوع إجراء العملية الجراحية. ولهذا فإننا نسمع الحديث الشريف الذي يقول: «تزوجوا ولا تطلقوا؛ فإن الطلاق يهتز له

(١) الطلاق: ١.

العرش»^(١)، وهو «أبغض الحلال عند الله»^(٢).

والملاحظ لأمر الروايات يجد أنها تهوّل أمر الطلاق، بما تعبّر عنه من تعبير مرعب؛ فمن هذه الروايات: «أئماً امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة»^(٣).

ومنها: «ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق»^(٤).

فالروايات ذات العلاقة بموضوع الطلاق فيها جوّ من التحذير والتخويف والترهيب. والسبب فيه هو ذلك الجيل الضحيّة من الأبناء الذي سيفتح عينيه على الدنيا ولا يجد أسرته حوله، فمن النادر أن تجد امرأة تطلق وليس عندها طفل، وهذا الطفل هو الذي سيكون الضحيّة الأولى والأخيرة في المجتمع، ومن بعده تكون المرأة هي الضحيّة، فهي ستحرم من فرصة الزواج ثانية، وسيُنظر إليها نظرة غير مريحة، فتؤدّي إلى انعكاسات اجتماعيّة سيّئة.

والذي يعنينا بالدرجة الأولى الأولاد، فهناك طرق إحصائية تنتهجها بعض المؤسسات الاجتماعية والدراسات ذات العلاقة، التي تتخذ مجتمعاً ما ميداناً لدراساتها. وهذه الدراسات حينما تتناول مجتمع الجزيرة العربيّة مثلاً، فإنها تحدّد بوضوح مقدار ارتباط الجريمة بموضوع الطلاق، وتقرّر أن نسبة الجريمة فيه تخضع لهذا المعيار، وذلك بدراسة أحوال المجرمين وأوضاعهم؛ لتحديد نسبة أولاد

(١) مكارم الأخلاق: ١٩٧، وسائل الشيعة ٢٢: ٨-٩ / ٢٧٨٨٠.

(٢) سنن ابن ماجة ١: ٦٥٠ / ٢٠١٨، سنن أبي داود ١: ٤٨٤ / ٢١٧٨.

(٣) روضة الواعظين: ٣٧٦، مسند أحمد ٥: ٢٧٧، ٢٨٣.

(٤) عوالي اللآلي ٢: ١٣٩ / ٣٩٠، الجامع الصغير ٢: ٤٩٤ / ٧٨٩٤.

المطلقات بينهم. وبهذا نعرف هل أن هناك ارتباطاً بين الجريمة وبين هؤلاء، أم لا.

وقد يسأل سائل: ما العلاقة بين هؤلاء وبين الجريمة؟ إن العلاقة تتمحور حول مبدأ هو أن الطفل عندما يولد ويتربى في البيت فإنه تكون عنده نزعة حب الاستطلاع، فهو يريد أن يرى ماهية هؤلاء الناس الذين يعيش معهم، وهل هم طيبون عطوفون ذوو أخلاق، أم لا؟ فالوسيلة التي يتعرف بها الطفل على المجتمع هي الأبوان. وذلك كصاحب البصر الضعيف الذي يستعمل نظارة يرى فيها الحروف، فيتمكن من القراءة من خلالها. وكذلك الطفل حيث إنه يتعرف على المجتمع من خلال الأبوين، فيأخذ صورة عن المجتمع من خلالهما؛ فإن كان الأبوان ملتزمين ومنسجمين فإنه سيشعر بالرحمة والحنان والجو الطبيعي في البيت ويحصل عنده الاطمئنان النفسي، أما إذا رأى أبويه غير منسجمين، فإنه سيضيع.

وزيادة على ذلك سيخيّم على الأسرة شبح الطلاق، فإن حصلت حالة الطلاق هذه فالوالد حتماً سيتزوج، وكذلك الأم، فيضيع الطفل بينهما؛ فهو إن تبع أمّه عاش في بيت زوجها الجديد الذي قد يسأّمه، ويحسّ بأنه يقيد حريته، وإن تبع الأب لاقى من زوجة أبيه ما كان من الممكن أن يلاقه من زوج أمّه. فيبدأ الطفل يشعر بأن جو البيت تسوده الكراهية، فيخرج باحثاً عن الحب والحنان والعطف في الشارع. فإن صار إلى الشارع تلاقفته أيدي المجرمين المتسيّبين فتتمحق أخلاقه. وما إن ينشأ وترعرع ويكبر على هذا الحال حتى ينتقم من مجتمعه هذا انتقاماً مرعباً؛ إذ أنه يعتبر أن المجتمع الذي لم يوفر له المحبة والأمان والعطف

والحياة الكريمة مجتمع ذئاب يستحق الانتقام.
ولهذا يقول أحد علماء الاجتماع: اليتيم مشروع جريمة. أي أن له استعداداً للوقوع في الجريمة، وكذلك ابن المطلقة. ومن النادر أن تجد ابن مطلقة يتوفر له مجتمع ينجيه من هذه المشكلة، وإلا فغالباً ما يكون هناك ارتباط بين هؤلاء والجريمة.
إذا عرفت هذا فلا تستكثر على لسان الرواية قوله: « لا تطلقوا؛ فإن الطلاق يهتز منه العرش ».

فالمشروع الإسلامي اعتبر الطلاق حالة ضرورية، وهي فيما إذا تعذرت الحياة وأصبحت جحيماً، فلا انسجام بين الزوجين، وأصبح البيت لا ينطوي إلا على جو من الشجار والكراهية، فبدلاً من هذا ﴿فَسَوْفَ يُعْزِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١)، فهذه إلى طريقها وهذا إلى طريقه. وإذا أراد الله أن يرحم أحداً في مثل هذه الحالة لم يرزقه أطفالاً، وإلا فإذا كان له طفل فإنه سيقع في المحذور؛ لأن الطفل هو الضحية الأولى والأخيرة في المجتمع.

وفي الوقت نفسه فإن الزوج والزوجة إن كانا لا يزالان في ريعان الشباب فإنهما لا يقدران فظاعة هذا الموقف، ذلك أن الزوج يتصور أن الموضوع سهل، وبما أنه يمتلك الأموال فيمكن أن يطلق ثم يتزوج. وهذا من الجهل وانعدام الثقافة الأسرية؛ حيث إنه يتصور أن موضوع الانتقال إلى أسرة جديدة هو عملية بسيطة، أو أن موضوع الأطفال أمر هين. في حين أنها عملية مرعبة؛ ولذا فإن الحديث الشريف يقرّر أن هذه

(١) التوبة: ٢٨.

المرأة التي تسأل من زوجها الطلاق من غير بأس تحرم عليها رائحة الجنة. وقد وضع المشرع الإسلامي قيوداً مشددة على الطلاق؛ ليبعد هذا الشبح المرعب عن البيت.

لماذا لم تعط المرأة حق التطلاق؟

وهناك سؤال يتردد بكثرة، هو: لماذا لا يعطي الله المرأة حق التطلاق كما أعطى الرجل ذلك الحق؟ أليس الرجل والمرأة متساويين في الإسلام؟
والجواب هو أن الله تعالى ساوى بين الرجل والمرأة فيما لا يتسبب بالفساد، وليس في كل الأشياء. فهناك أشياء تتعلق بتكوين الرجل، وأخرى تتعلق بتكوين المرأة، فمثلاً المرأة هي التي تحمل الولد، فإذا أردنا أن نقول بالمساواة بين الرجل والمرأة، فهل يمكن أن نسمح للمرأة أن تنزّج من اثنين أو أكثر؟ بالتأكيد لا؛ لأن الطفل سوف يضيع باختلاط ماء أزواجها فلا يعرف من هو أبوه.

هذان ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ولاء الطفل سيتوزع، والأسرة ستتمزق. فلا يمكن إذن أن تكون المساواة في كل شيء.
كما أنه لا يمكن أن يتحقق أمر المساواة دائماً، وكمثال على ذلك لو أننا نتعامل مع شخصين؛ أحدهما متدين من أهل العلم والأخلاق والفضل، والآخر فاسق، فهل نتعامل معهما على قدم المساواة؟ إن العقل بالتأكيد يأمر بالتعامل مع الفاسق بحذر؛ لأنه لا يؤمن جانبه من أن يسرق من أحسن إليه، أما المؤمن فلا؛ لأن المحسن إليه يبيت آمناً منه، ولا يخشى بواده؛ ذلك أنه صاحب دين وأخلاق وقيم. فلا يمكن إذن أن يساوى بينهما بالمعاملة البتة. فليست التسوية هي ما يحقق العدل دائماً.

وهؤلاء الذين ينادون بالمساواة ويظنون أن العدل هو التسوية بين الشئيين هم واهمون. فالعدل هو وضع الشيء في موضعه. وكذلك الحال في الرجل والمرأة، فهما لا يمكن أن يُساوى بينهما في كل شيء بأن نعطي حق الطلاق للمرأة مثلاً، فهذا ليس من العدالة. ويمكن تقريب ذلك بما لو أنك مثلاً حنوت على ابنك، وغذوته من الحبّ والعطف والحدب عليه أربعاً وعشرين ساعة يومياً فإنك لن تستطيع أن تعطيه في كل تلك الساعات بقدر ما تعطيه الأمّ له في ربع ساعة.

والسرفي ذلك هو أن الله تعالى خلق الولد مرتبطاً بالأم أكثر، فهو أولاً يترعرع في بطنها تسعة أشهر، ثم تحضنه سنتين. وبالإضافة إلى ذلك فهو مشدود إليها شدةً عنيفاً، فأكثر جسمه يتكون منها، وغذاؤه من دمها ولبنها، ويمتد به دور الحضانة فيأخذ من حنانها وعطفها. وهناك نظرية عند بعض فقهاء المسلمين تقول: إن دور الحضانة يمتد إلى (١٨) سنة حتى يبلغ الولد ويتزوج^(١)، فهو ينتقل مباشرة إلى الزواج من حضن أمّه؛ لأنه لا ينفصل عنها عاطفياً.

وهذه نظرية ضخمة، يبرهن عليها العلم الآن. فالولد مشدود إلى أمّه أكثر؛ فإذا حملت المرأة فهناك غدد في جسمها تفرز موادّ معينة، ومن هذه الغدد غدة « البرولاكتين » التي تفرز ما يسمى بهرمون الأمومة. فبمجرد أن تفرز هذه المادة يبدأ الثدي بالتضخم إلى أن تضع فيدرّ لبناً. وهذه الغدة ترفع عند الأم نسبة الحنان والموودة إلى ١٠٠٪؛ دون أن

(١) انظر: إرشاد الأذهان ٢: ٤٠، رسائل الكركي ٣: ٩٦ / المسألة: ٣٣، مغني المحتاج ٣: ٤٥٢، مواهب الجليل ٥: ٥٩٤.

يكون شيء من ذلك للأب، فإن كان له منه شيء فهو ضئيل لا يكاد يذكر قياساً بتلك النسبة التي رأيناها عند الأم.

ومن هنا نجد أن الأب إذا أزعجه ولده الرضيع بصراخه في بعض اللحظات التي تمرّ عليه ربما صاح في وجهه، أمّا الأمّ فلا؛ إذ لديها من الصبر والطاقة والاحتمال ما يثير الاستغراب معه؛ فهي تسهر معه حتى الصباح ملتذّة بمناغاته، وتداعبه بحب وعاطفة كبيرين. والسبب في ذلك كما قلنا هو ذلك التغيّر الجسدي والنفسي الذي يحصل لها، واختلاف تركيبتها الفسيولوجية.

فالأب تكون عنده نسبة العقل أكبر من نسبة العاطفة؛ لأنه لم يخلق للبيت، وإنما خلق للعمل ومصارعة الحياة والجديّة فيها، وذلك يحتاج إلى نسبة عقلية أكبر. ومن هنا تكون المرأة أغزر عاطفة، وعاطفتها بنسبة كيانها العقلي، فالعقل والعاطفة عندها على حدّ سواء، فهي مخلوقة للأسرة، والأسرة تحتاج إلى نسبة عاطفيّة أكثر من النسبة العقليّة، فهي تحتاج إلى جوّ ناعم يسيطر عليه الحنان والدفء والعاطفة والمودّة والشفقة على الأطفال؛ ولذا خلقت المرأة أغزر عاطفة. ولما كانت المرأة كذلك - أي أنها تتأثر عاطفيّاً أكثر من الرجل - فإنها لو وضع الطلاق بيدها فربما هدمت الأسرة في لحظة من لحظات الانفعال العاطفي.

وقد يسأل سائل: إن بعض الرجال ضعيف وعاطفي هكذا.

فأقول: هذا من جهله، وهو شاذّ، ونحن نتكلّم عن القاعدة، وهي أن الرجل يتعامل مع الواقع في السوق وغيره، ويتفاعل مع دنيا خشنة، ومع مختلف الطبقات من المجتمع، فتكون نسبته الإراديّة أكبر من المرأة. وهذه الجنبه هي التي لحظها الشارع المقدّس، فوضع الطلاق بيد

الرجل، لا أنه أراد تفضيل الرجل على المرأة. فكل ما في الأمر أن الرجل يدرك أخطار الطلاق أكثر، فلا يقدم عليه. وهذا أشبه بما لو كان لديك أخوان أحدهما أكثر نضجاً من الثاني، فأنت تسلّم المسؤولية للناضج أكثر. وهذا ليس تفضيلاً له على الثاني، وإنما هو تصنيف طبيعي.

ومع ذلك فإن المرأة إذا اشترطت في صلب العقد أن تكون العصمة بيدها، ووافق الزوج فإن الشرط يلزم. ولكن ليس هناك زوج يحترم رجولته فيسمح أن يكون الطلاق بيد المرأة، فتصبح الأسرة ريشة في مهب الريح. هذا لا يكون إلا عند من لا يحترم نفسه.

المبحث الثاني: الالتفات في الخطاب القرآني

تقول الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾. وقد يسأل سائل: إن الآية تخاطب النبي ﷺ، ثم تنتقل بالخطاب من الحضور إلى الغيبة ومن الأفراد إلى الجمع فتقول: ﴿طَلَّقْتُمْ﴾، فما سر ذلك؟

السياق في آية التطهير وحجّيته

الجواب: أن أسلوب القرآن هكذا، فقد يأتي بحكمين في الآية الواحدة. وأرجو أن تنتبه لذلك، فإن عرفته فعد إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾^(١)، فقد انتقل من خطاب أزواج النبي إلى الأئمة عليهم السلام في آية التطهير هذه. وهذا أسلوب القرآن الكريم، وذكّرنا هذا كيلا يقول أحد: إن السياق لا يساعد على أن آية التطهير نازلة في أهل البيت عليهم السلام؛ لأن ما قبلها يتحدّث عن أزواج النبي. إن هذه الآية منصوص

(١) الأحزاب: ٣٣.

عليها في كتب المذاهب الإسلامية كافة أنها في أهل البيت عليهم السلام ^(١). والسياق هنا ليس بحجة، فقد ينتقل القرآن من الخطاب إلى الغيبة، فيكون في الآية الواحدة حكمان. وهذا من الأساليب البليغة عند العرب. ومنه قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ^(٢).

المبحث الثالث: تعريف الطلاق وأحكامه

فالآية تقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾، والطلاق كما يعبر عنه فقهاء المسلمين هو إزالة قيد النكاح ^(٣). يعني أن هذا الارتباط بالزواج يُفك، ويقع الطلاق بالفاظ وشروط توقيفية معينة.

صيغة الطلاق

إن صيغة الطلاق عند الإمامية هي أن يقع باللفظ المعين ^(٤)، حيث يجب أن تكون الصيغة دالة على الطلاق بالمواطأة. أي أن لفظ الطلاق لا بد أن يكون موضوعاً ١٠٠٪ للطلاق، لا بغيره من الألفاظ. أما عند المذاهب الأخرى فإن الطلاق يقع بكل لفظ، فلو قال: أنت بريّة أو خلية وقع الطلاق ^(٥). أو قال: أنت طلاق، صارت مطلقة ^(٦). حتى إنهم يقولون: لو أنه غلط في كلامه فأراد أن يقول: أنت طاهر فقال: أنت طالق، فقد وقع

(١) انظر: مسند أحمد ١: ٣٣١، ٣: ٢٥٩، ٤: ٢٨٥، ٤: ١٠٧، ٦: ٢٩٢، صحيح مسلم ٧: ١٣٠، جامع البيان، المجلد: ١٢، ج ٢٢: ٤ / ٢١٧١١ وغيرها كثير، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣١ / ٣٢٥٩، معاني القرآن ٥: ٤٨ / ٤٥، وغير ذلك كثير.

(٢) يوسف: ٢٩.

(٣) انظر: تذكرة الفقهاء ٢: ٦٥٧ (حجري)، المهذب البارع ٣: ٤٣٨، المجموع شرح المهذب ١٧: ٣٥١، مغني المحتاج ٣: ٢٧٨. (٤) انظر: شرائع الإسلام ٣: ٥٨٣ - ٥٨٧.

(٥) انظر: الأم ٥: ٢٧٨، رسالة أبي زيد القيرواني: ٤٦٨، المبسوط (السرخسي) ٦: ٨٠.

(٦) انظر: المجموع شرح المهذب ١٧: ١٠٥، ونسبه لمالك وأبي حنيفة.

الطلاق، وغير ذلك^(١).

شروط الطلاق

وشروط الطلاق التي ينصّ عليها فقهاؤنا^(٢) هي أنه لا يجوز أن يقع ويصدر إلا من بالغ عاقل قاصد غير مكره. فهذه شروط أربعة:

الأول: أن يكون بالغاً

ومعنى البلوغ هنا: النضوج، أي البلوغ العقلي، لا البلوغ البيولوجي. فهناك بلوغ بيولوجي، وبلوغ عقلي. فالبلوغ البيولوجي هو القدرة على الإنجاب، أو ما يسمى بالبلوغ الجنسي. وهذا ليس هو المقصود في هذا الشرط، وإنما المقصود هنا هو النضوج العقلي.

الثاني: العقل

أي ألا يكون فاقد العقل مجنوناً، فلو طلق والحال كذلك لم يقع، ويحكم بطلانه.

الثالث: الاختيار

أي ألا يكون مجبراً، كأن تكون أمه قد ألحّت عليه كي يطلق زوجته

(١) كما لو أن رجلاً كانت له امرأتان، فنادى الأولى باسمها ليطلقها فأجابته الثانية: فقال: أنت طالق فإنها تطلق. انظر: المغني ٨: ٢٨١.

وكما لو نوى رجل أن يطلق امرأته فإنها تصبح مطلقة، انظر: الأم ٥: ١٢٩، ٧: ١٦٦، مختصر المزني: ١٩١، روضة الطالبين ٦: ٢٨، فتح المعين ٤: ٢١. وكما لو أن رجلاً قال لزوجته: يدك أو قدمك أو إصبعك طالق، فقد طلقت منه. مواهب الجليل ٥: ٣٤٥.

وقال بعض: لو طلق السكران صح طلاقه ووقع، انظر: مختصر المزني: ١٩٤، عن الشافعي، روضة الطالبين ٦: ٢٣، فتح الوهاب ٢: ١٢٤.

(٢) انظر: شرائع الإسلام ٣: ٥٧٩ - ٥٩٣.

لأنها اختلفت معها. والمأسوف عليه أن بعض الأمهات لا يهتمن بأسر أبنائهن؛ لأنهن يرين أن الابن قد رُبي في أحضانهن، ثم هاهو يفارقهن فجأة ويتزوج امرأة ويبتعد عنهن. فكل واحدة منهن ترى أن هذه المرأة قد أخذت ابنها منها. وعند بعضهن من العقليات ما لا يتعدى عقلية العصفور. فهذا اللون من الإكراه لا يُلتفت إليه. فإنه إن كان مكرهاً لم يقع طلاقه.

وقد حدث ذلك في التاريخ مع الأسف من بعض الصحابة، فقد أمر معاوية عن طريق أحد عماله أحدهم أن يطلق زوجته فامتنع، فضربه وسجنه وأجبره على أن يطلقها، وهذا مانص عليه ابن كثير في تاريخه^(١) فراجع إن شئت. فهذا اللون من الطلاق لا يقع.

الرابع: القصد

أي أن يكون قاصداً للطلاق، لا أنه كان يمزح أو يهزل، أو أنه لم يكن يعني الطلاق. ومنه طلاق السكران، فهل يعدّ السكران قاصداً أم لا؟ فإن شرب الخمرة وبدأت تؤثر على مداركه، وراحت تسلب من ذهنه الشعور المنتظم، فإنه يصبح معدوم القصد وفاقد العقل لا يعي ما يقول، أو على حد تعبير أبي حنيفة: لا يميّز الأرض من السماء، ولا الرجل من المرأة^(٢)، وعند مالك أن السكران هو الذي لا يعقل ما يقول وما يفعل، وعند الشافعي أنه الذي يتكلم ويخبط على غير العادة^(٣). فهل يقع

(١) لم نعر عليه، لكن قريب منه ما فعله مروان مع أحد بني عذرة. انظر: المستجاد من فعلات الأجواد: ٢٤٠، تاريخ مدينة دمشق ٦٨: ١٤٣، ١٤٦. وفيها محاولة معاوية أخذ زوجته منه.

(٢) انظر: البحر الرائق ٣: ٤٣١، ٥: ٤٦، ونسبه في الأخير إلى المذهب، حاشية رد المحتار

٢: ٣٢٢. (٣) انظر: جواهر العقود ٢: ١٠٢.

طلاقه عند فقهاء القانون والشريعة، أم لا؟

وهذا السكران إن كان لا يعرف الأرض من السماء على حد قولهم، فكيف يجيزون طلاقه^(١)؟ وهنا يعللون ذلك بقولهم: إننا إنما أجزنا طلاقه كي يتأدب ولا يكرّر ألفاظ الطلاق دائماً. لكن يرد عليهم أن هذا السكران لا يعي ما يقول، فهو يهدم الأسرة بعمله هذا هدماً، فكيف تؤدبه بهدم أسرة^(٢)؟ إن هذا السكران يصل إلى درجة أنه يصبح مهزلة، وهو أحد أسباب تحريم الخمر؛ فهي تسلب الإنسان أعز ما عنده وهو عقله ومداركه. فكيف نصحح طلاقه، والقصد غير متحقق عنده؟

وهذا السكران مثلاً لو صدم بسيارته شخصاً فلا يؤخذ إلا من جهة أنه يعرف أن شربه الخمر سوف يسبب له الحوادث ومع ذلك شربها؛ فهو لم يتحقق عنده القصد الجنائي إلا من هذه الجهة. وهذا محل تأمل أيضاً، وفيه رأي آخر للفقهاء.

ولذا فإن السكران لا تترتب عليه الآثار كلها، فلا يقبل اعترافه، ولا يعتبر إقراره شرعياً؛ لأنه إنسان لا يعقل ما يقول، ومناط التكليف هو العقل، فالله لا يكلف بالأحكام إلا العاقل. فالعقل هو الذي به يثيب الله وبه يعاقب. دخل إسحاق بن عمار على الإمام الصادق عليه السلام فقال له: جعلت فداك، إن لي جاراً كثير الصلاة، كثير الصدقة، كثير الحج لا بأس به. فقال الإمام عليه السلام: «كيف عقله؟». قال: جعلت فداك، ليس له عقل. فقال عليه السلام: «لا يرتفع ذلك منه»^(٣).

(١) انظر ص ٣٢٠ / الهامش: ١.

(٢) أي أنه تطبيق لمفهوم (الغاية تبرر الوسيلة)، وعلاج للخطأ بما هو أشدّ خطأً منه، وأعظم

عند الله. (٣) الكافي ١: ٢٤ / ١٩.

إذ ربما لا يكون هذا الجار قاصداً ما يفعل، فهو يعطي ويمنع لا بخلاً ولا كرمًا.

وأنا لا أدري لم يُصَحَّح طلاق السكران وهو كما عرفت، ولا أدري لم هذا الحرص على هدم العائلة. فهو إن قال لها: برية أو خلية أو أنت طلاق صارت طالقاً، أو سبق لسانه فبدل أن يقول: « طاهر » قال: طالق، صارت طالقاً. فلم هذا الحرص على هدم العائلة؟

في طلاق الثلاث

هناك نقطة أخرى أيضاً، هي أن الزوج إذا طلق ثلاثاً في مجلس واحد اعتبر طليقة واحدة^(١). وقد أخذ القانون المصري برأي الإمامية في هذا الشأن، فصار يعتبر طلاق الثلاث واحدة. أما المذاهب الأخرى فيعتبرونه ثلاثاً، ولا تحل له من بعد ذلك حتى تنكح زوجاً غيره^(٢). ويتراءى لك من هذا التساهل بموضوع الطلاق أن هذا في غير محله، لأنه يؤدي إلى هدم الأسرة. والغريب أننا عندما نضع في حسابنا أن المذاهب الإسلامية كلها مصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فلماذا لا نأخذ منها بالرأي الذي يتناسب مع حاجة الدنيا؟ لم لا نأخذ برأي عدل الكتاب آل محمد ﷺ الذين لا يضلّ من تمسك بهم؟ كما أننا نشترط الإشهاد على الطلاق، فلا بدّ عندنا من حضور شاهدين عدلين^(٣). والسبب هو عسى أن يأتي هذان الشاهدان فيلطفوا الجوَّ ويصلحا ما بينهما، ويجعلاهما يتجنبان هذه الخطورة، فيحفظا الأسرة.

(١) انظر: الناصريات: ٣٤٨، الخلاف: ٤: ٤٥٦ / المسألة: ٩، جواهر الفقه: ١٧٩ / المسألة:

٦٣٦، شرائع الإسلام ٣: ٥٨٦. (٢) انظر: الأم ٥: ١٩٤، مغني المحتاج ٣: ٢٧٥.

(٣) انظر: المقنع: ٣٤٣، شرائع الإسلام ٣: ٥٨٦، الجامع للشرائع: ٤٦٨.

المبحث الرابع: الزمان الذي يصح وقوع الطلاق فيه

ثم انتقلت الآية فقالت: ﴿فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾، وهذه اللام تسمى «لام التوقيت»، يعني أن الطلاق لا يقع إلا في زمان العدة، وهو الأقراء. وسمي القرء بهذا الاسم لأن الدم يُقرأ فيه أي أنه يجتمع ولا ينزل^(١). ويكون ذلك في الفترة التي تكون فيها المرأة في غير العادة الشهرية. فلا بد أن يقع الطلاق في طهر لم يلاق فيه الإنسان زوجته. أما في الحيض فيكون الطلاق نافذاً عند المذاهب الإسلامية إذا وقع فيه، لكن المطلق يكون عمل محرماً^(٢)؛ لأن النهي عند بعضهم لا يستوجب الفساد^(٣). أما عند الإمامية فيستوجب الفساد، ويعتبر الطلاق باطلاً في الحيض^(٤). ودليلهم على ذلك ما روي في صحيح مسلم^(٥) وغيره^(٦) من أن عبد الله بن عمر طلق زوجته وهي حائض، فجاء أبوه إلى النبي ﷺ فقال له: إن عبد الله طلق زوجته وهي حائض. فقال ﷺ: «مره فليراجعها، ثم ليمسكها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، فإن أراد أن يطلقها فليطلقها».

والمقصود بالمراجعة هنا أن يتمسك بالعقد؛ لأنه لا زال باقياً لفساد الطلاق، لا أن معنى قول النبي ﷺ: «مره فليراجعها»، أن تلك التولية

(١) لسان العرب ١: ١٣١ - قرء.

(٢) المجموع شرح المذهب ٢: ٥١٤، ١٧: ٧٤، ١٨: ١٣٨، الإقناع ٢: ١٠٤.

(٣) انظر: المستصفى في علم الأصول: ٢٢١ - ٢٢٤، المحصول في علم الأصول ٢: ٢٤٨ - ٢٤٩.

(٤) انظر: الذريعة إلى أصول الشريعة ١: ١٧٩ - ١٩٦، مبادئ الوصول: ١١٧.

(٥) صحيح مسلم ٤: ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢.

(٦) انظر: سنن ابن ماجة ١: ٦٥١ / ٢٠١٩، ٢٠٢٣، سنن أبي داود ١: ٤٨٥ / ٢١٧٩، ٢١٨١ -

٢١٨٢، ٢١٨٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٢: ٣٢١، السنن الكبرى (النسائي) ١:

١٣٨، ١٤١، ٢١٣.

كانت صحيحة كما فهمته المذاهب الإسلامية.
ونحن عندما نجد أن للحكم دليلاً ومنشأً فإننا لا نناقش فيه، وإنما نقول: إن هذا فقيه مسلم وقد أخذ هذا المعنى من الآية، وليس لنا أن نحجر على عقله ولا أن يحجر هو على عقولنا. فهذا الفقيه يفهم من قول النبي: «مره فليراجعها» أن الطلاق كان صحيحاً، وبما أنها بالعدة فليراجعها. أما فقهاؤنا، ففهموا من ذلك أن يتمسك ببقاء العقد؛ لأن العقد لا زال باقياً والطلاق فاسد لم ينفذ.

المبحث الخامس: في فترة العدة والحقوق المترتبة فيها

ثم قالت الآية: ﴿وَأَخْضُوا الْعِدَّةَ﴾، أي أن هذه المدّة التي تعتدّ بها المرأة المطلقة - وهي ثلاثة أشهر لغير الحامل، أو أبعد الأجلين من الثلاثة الأشهر أو وضع الحمل إن كانت حاملاً - فيها حقوق للزوج وللزوجة.

حقوق الزوجة خلال العدة

فمن حقوق الزوجة خلال العدة النفقة؛ لأنها لا تزال في حكم زوجته، فعليه أن ينفق عليها فيها كما كان ينفق عليها أيام الزواج. ومن حقوقها السكنى، وعندنا أن المطلقة حتى البائنة غير الرجعية تكون لها النفقة والسكنى إذا كانت حاملاً^(١)، أما إذا كانت حائلاً فلا سكنى ولا نفقة. أما الرجعية فلها السكنى والنفقة في كل حال^(٢).

(١) الخلاف ٥: ٦٩ / المسألة: ٢٢، المهذب (ابن البراج) ٢: ٢٤٨، الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ٢٨٦.

(٢) المهذب (ابن البراج) ٢: ١٣١٨، الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ٢٨٦، المجموع شرح المهذب ١٨: ١٦٤. وسوف يأتي مفصلاً في محاضرة (من مسائل فقه الأسرة) في ج ٦ من كتابنا هذا.

حقوق الزوج خلال العدة

أمّا حق الزوج فإن يمنعها من الزواج خلال فترة العدة، وحتى الخطبة في هذه الفترة لا تصحّ من أي أحد ومهما كانت الظروف. وللزوج حقّ الدخول عليها والخروج. ويستحبّ لها هي إظهار الزينة أمامه؛ لعلّ هذا الجليد المتراكم بينهما يذوب، فتعود الأمور إلى نصابها والمياه إلى مجاريها. وإذا كانت حاملاً، وجاءه ولد في هذه الفترة فإن الولد ينسب له إذا أمكن أن يصحّ ذلك النسب. فمثلاً، إذا طلقها وكانت حاملاً لستة أشهر، وبعد ثلاثة أشهر من الطلاق وضعت، فالولد يمكن أن ينسب له. أما نظريات الحمل من غير هذه ممّا عند المذاهب الإسلامية الأخرى فهي غير معقولة ولا يمكن الأخذ بها، من قبيل ما يقال: إن الجنين يمكن أن يبقى في بطن أمّه خمس سنوات^(١). ولو أن «إحسان إلهي ظهير» الذي جاءنا اليوم بكتاب لا نعرف من وراءه، نظر في مثل هذه النظريات لكان أولى له من أن يتعلّق بروايات ضعيفة يفرّق بها بين المسلمين. فلو قرأت كتاب (المغني) لابن قدامة لوجدت أن هناك نظريات عندهم تقول: إن الجنين يمكن أن يبقى في بطن أمّه ثماني عشرة سنة^(٢). وهذا لا يمكن أن نسميه فقهاً؛ لأنّ الفقيه لا يُعطى الحقّ إلا في الأحكام، أما الموضوعات فليست من شأنه. فمثلاً يقول الفقيه: الكحول حرام لأنه مسكر، ولكن ليس من شأنه أن يقول إن هذا الشراب فيه كحول أو لا، بل إن هذا من اختصاص الكيميائي العامل في هذا المجال. وكذلك هنا، فإنّ الفقيه من حقّه أن يقول: الولد يلحق بالوالد في الظرف الطبيعي الذي

(١) انظر الهامش التالي.

(٢) المغني ٩: ١١٧، وفيه أربع سنين.

يمكن أن تقع فيه الولادة، أما فترة ظرف الولادة فلا شأن له فيها، وليس هذا من تحقيقه، بل نرجع في هذا إلى الطبيب ونسأله عن مقدار تأخر الجنين حتى في الحالات الشاذة، ونطبق الحكم على قوله. إذن في مثل هذا المورد من حق الزوج أن يلحق به الولد إذا كان في هذه المدة بالذات، والتي مما يصح أن ينسب له هذا الحمل فيها؛ ولذلك قال القرآن الكريم: ﴿وَأَحْضُوا الْعِدَّةَ﴾؛ حتى لا يذهب حق المرأة ولا حق الرجل ولا حق الولد.

المبحث السادس: في معنى الإضافة في: ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، ومعنى هذا أن زوج المرأة خلال العدة ليس له الحق في أن يخرجها من بيت السكنى. وهذه الإضافة في قوله تعالى: ﴿بُيُوتِهِنَّ﴾ هي إضافة اختصاص لا إضافة تملك، أي بيوتهن التي يسكن بها لا البيوت التي يملكها. فليس للرجل حق في أن يخرجها من البيت خلال فترة العدة، وليس لها هي الحق في أن تخرج إلا في حالات ضرورية يذكرها الفقهاء^(١)، فيحق لها أن تخرج في الليل شرط أن ترجع قبل انتهائه، وكل ذلك من أجل حفظ حق الزوج كي يطمئن إلى أن زوجته تسير في المسار الصحيح.

احتجاج عثمان على عائشة وحفصة

وهذه المسألة - الملكية - مما يمكن أن يشار إليها في النزاع الذي وقع بينه وبين زوجتي النبي ﷺ عائشة وحفصة. وهذا النزاع يتلخص في

(١) انظر: المقنعة: ٥٣٥، قواعد الأحكام ٣: ١٥٢، المبسوط (السرخسي) ٦: ٣٢.

أنهما دخلتا عليه مطالتين بالميراث من رسول الله ﷺ ، فقال: ما هو ميراثكما؟ قالتا: الحجر التي خلفها النبي ﷺ . فأجابهما بأن سألهما: هل تردن الميراث؟ قالت عائشة: نعم. قال: وهل النبي ﷺ يورث؟ قالت: نعم. وكان متكئاً، فاستوى جالساً وقال: ستعلم فاطمة أي ابن عم أنا لها اليوم. ثم قال: إذا كان يورث فلم تُنعت الزهراء الميراث؟ وإذا كان لا يورث فأبي حقّ جئتما تطالبان به؟ أولست أنت (يعني عائشة) وهذه الجالسة جئتما معكما بأعرابي يتطهر ببوله^(١)، وشهدتم عند أبيك أن النبي ﷺ قال: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»؟ قالت: بلى. قال: فأبي ميراث تطالبان به؟ فإن كنتما شهدتما بحق فقد أجزت شهادتكما علي أنفسكما، وإن كنتما شهدتما بالباطل فعلي من شهد بالباطل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فخرجت ورفعت قميص النبي ﷺ وهي تقول: هذا قميص النبي لم يبل وقد أبلى عثمان سنته^(٢).

وما أردنا ذكره هنا هو أن الإضافة في قوله تعالى ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾^(٣) هي للاختصاص لا للملك^(٤).

واستفحل الأمر وتفاقم إلى أن قتل الخليفة، فلما قتل سألت: من تولّى بعده؟ قالوا: علي بن أبي طالب. فقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد تاب عثمان، ولما تاب قتلوه، والله لقد قتلوه مظلوماً وسأخرج فأطالب

(١) هو أوس بن ملك، وقيل: مالك بن الحويرث.

(٢) انظر: الإيضاح: ٢٥٧ - ٢٦٠، المسترشد في الإمامة: ٥٠٨، بحار الأنوار ٣١: ٢٩٥.

(٣) الأحزاب: ٣٣.

(٤) وقد يرد في هذا الخصوص خروج عائشة وحفصة من بيتهما وهما من أمهات المؤمنين اللاتي أكرمهن الله وأمرن بأن يكنّ جليسات بيوتهن حتى بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ.

بدمه (١).

ثم بعد ذلك خرجت مطالبة بدمه ، فاستقبلها أحد بني أخوالها - وهو ابن أمّ كلاب من بني ليث - فقال لها: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلاً. ثم أنشد:

فَمِنْكَ الْبِدَاءُ وَمِنْكَ الْغَيْرُ	وَمِنْكَ الرِّيحُ وَمِنْكَ الْمَطَرُ
وَأَنْتِ أَمْرَتِ بِقَتْلِ الْإِمَامِ	وَقُلْتِ لَنَا إِنَّهُ قَدْ كَفَرَ
فَهَبْنَا أَطْعَمَكَ فِي قَتْلِهِ	وَقَاتِلَهُ عِنْدَنَا مَنْ أَمَرَ
وَقَدْ بَايَعَ النَّاسُ ذَا تَدْرٍ	يَزِيلُ الشُّبَا وَيَقِيمُ الصَّعْرُ
وَيَلْبَسُ لِلْحَرْبِ أَثْوَابَهَا	وَمَا مِنْ وَفَى مِثْلُ مَنْ قَدْ غَدَرُ (٢)

فكان أن حدثت واقعة الجمل ، تلك الواقعة المرعبة التي أدت إلى مذبحه غريبة . وكانت إحدى النساء قد فقدت أربعة من ولدها في الجمل ، فكانت تقول: لماذا هذه الحرب؟ ولماذا يقتل هؤلاء الناس بعشرات الآلاف؟ هل هو بسبب رغبة في نفس امرأة؟ أم بسبب أناس عقولهم هكذا؟ وراحت تجول على مصرع أولادها وتقول:

شَهِدْتُ الْحُرُوبَ فَشَيَّبَنِي	فَلَمْ أَرْ يَوْمًا كِيَوْمِ الْجَمْلِ
أَضْرَّ عَلَى مَوْمِنٍ فِتْنَةٌ	وَأَقْتَلَهُ لَشَجَاعٍ بَطْلٌ
فَلَيْتَ الظَّعِينَةَ فِي بَيْتِهَا	وَلَيْتَكَ عَسْكَرُ لَمْ تَرْتَحِلْ (٣)

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٧٦ ، الإمامة والسياسة ١: ٥١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) هي امرأة من بني عبد القيس . الجمل (ابن شدقم): ١٤٨ ، مروج الذهب ٢: ٣٦٩ ، ونسبها بعضهم لعثمان بن حنيف ، انظر مناقب آل أبي طالب ٢: ٣٧٤ .

وانتهى الأمر بالمعركة أن أصبحت الأشلاء كالتلول، ووصل الأمر حدّاً نادى معه الإمام عليه السلام: «اعقروه». فجاءه مالك فضربه عدة ضربات فلم يتمكن منه، فجاء إليه الإمام فضربه ضربة عرقب بها يديه ورجليه فسقط، فانهزم الناس.

ولما راح الليل يرخي سدوله وقف أمير المؤمنين، وصاح بمحمد بن أبي بكر فقال له: «اذهب لأختك وتولّ أنت حراستها، ولا تترك أحداً من الأجنب يقرب إلى خباتها؛ لئلا يتسرّب إليها الرعب. وهذه عشرون امرأة معك يتولّين حراستها وخدمتها»^(١). كل هذا، ولمّا جاءها نعي أمير المؤمنين علي عليه السلام قالت:

فإن يك نائياً فلقد نعاه نعيّ ليس في فيه التراب^(٢)

فقد كان العرب يقولون لمن جاء ينعي عزيزاً عليهم: ملاً الله فمك تراباً. وهذه تقول: لا ملاً الله فمك تراباً؛ لأنك نعت علي بن أبي طالب. وهذا هو إناء علي، وهذا معدنه الذي ينبغي أن يكون عليه؛ لأنه سيد النُّبَل، فهو يوعز إلى أخيها محمد بن أبي بكر بأن يتولّى حراستها مع عشرين امرأة يخدمنها كيلا يتسرّب الرعب إليها، وهي تقول لناعيه: لا ملاً الله فمك تراباً.

وليتك يا أمير المؤمنين ترى عائلتك ليلة الحادي عشر من المحرم حينما جن عليها الليل، ليتك يا من أبيت إلا أن يحرس أخ أخته ترى

(١) تاريخ الطبري ٥: ٢٠٤ - ٢٠٥، الفتوح (ابن أعمش) ٢: ٣٤١، الفتنة ووقعة الجمل: ١٨٢.

(٢) الجمل: ٨٤، تاريخ الطبري ٤: ١١٥.

بناتك حينما جن عليهن ذلك الليل مع مجموعة من النساء والأطفال، وقد وقفت ابنتك زينب الكبرى وأوقفت أختها عن يمين الخيمة. قالت: أختي، كل ليلة يحرسنا الأبطال، وهذه الليلة بقينا بلا محام ولا كفيل. أختي، أنت قفي عن يمين الخيمة وأنا أقف عن شمالها. ووقفت ترعى العيال حتى الصباح:

وإن تَنَفَّسَ وجهُ الصُّبْحِ أبدانا	إن عَسَعَسَ الليلُ وارى ذلَّ أوجُهنا
عَهدي تَغَضُّ على الأعداءِ أجفانا	فَمُ يا عَلِيُّ فما هذا القُعودُ وما
تَفُكُّنا وتَوَلَّى دَفنَ قَتلانا	انهُض لعلَّكَ من أسْرٍ ألمَّ بنا

وبقيت على هذه الحالة إلى أن تناصف عليها الليل، فنزلت إلى مصرع أخيها الحسين:

إلك جيت خويه بهدوة الليل أشرب دمع واكبع بالعويل



مسائل في حياة المرأة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ
وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: أساس نظام تقسيم الخلق

تتناول هذه الآية الكريمة جانباً مهماً من جوانب فقه الأسرة، فالأسرة عادة يكون قوامها الأبوين؛ ولذا لا تكون مستقرّة متوازنة ما لم يغمرها الرضا والوئام والحبّ، والشعور بأنها كيان متكافئ. وهذا يعتمد بدرجة أولى على تصوّر النظام الذي يقوم عليه الخلق وتقسيمه إلى ذكر وأنثى؛ ذلك أن بعض الناس يبني تصوّراً مخطوئاً حول هذا الأمر، فيظنّ أن الأساس الذي اعتمد في تقسيم الناس إلى ذكر وأنثى هو التفضيل؛ أي أن الرجل أفضل من المرأة. وهذا مفهوم مخطوئ وتصور غير صحيح كما

(١) البقرة: ٢٨٨.

قلنا، بل الصحيح أن الأساس في التنوع هو التصنيف، لا التفضيل. وهذا هو التفسير الطبيعي لكل أصناف الخلق؛ جمادها ونباتها وحيوانها؛ ولذا لا يمكن القول بأن هذا النبات أفضل من الجبل؛ إذ كل واحد منهما له دوره في هذا الوجود والذي يؤديه ويقوم به، وهو ما خلقه الله له وهيأه لأجله^(١). فالله تعالى قد خلق كل موجود لوظيفة معينة في هذا الوجود، وعليه أن يؤديها على أتم وجه، وكيف كل موجود تبعاً لوظيفته تلك.

هل الحاجة تخلق الوظيفة

وهذا الأمر ينطبق تماماً على المرأة؛ فصحيح أن المرأة عندها فوارق كثيرة تميّزها وتختلف بها عن الرجل، لكن هذا لا يعني أن الرجل لا يتّصف بفوارق تميّزه عنها. وهذه الفوارق لم تخلق عبثاً ولم توضع اعتباطاً، إن نظرية دارون تقول: إن الوظيفة تخلق العضو، والواقع أن الحال عكس ذلك، فالعضو هو الذي يخلق الوظيفة. وبناء على نظرية دارون يكون احتياج الطير إلى الطيران هو الذي يخلق له الجناح، واحتياج السمكة إلى السباحة هو الذي يخلق لها الزعنفة. ومعنى هذا أن شعور الطائر بالطيران وشعور السمكة بالسباحة خلق عندهما تلك الأعضاء المناسبة لتلك الوظائف التي احتاجا إليها، وكذلك الحال في المرأة؛ فإنها عندما احتاجت للحمل خلقت هذه الحاجة عندها الرحم. وهذا إنكار للبدئية؛ فإن الله تعالى قد صمّم كل كائن بدقّة ووفق متطلبات حياته وحاجاته: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٢)؛ فالمرأة مكيّفة

(١) فكلّ مخلوق ميسّر لما خُلِق له. (٢) القمر: ٤٩.

لأداء وظيفتها ومهيئة للقيام بدورها، والرجل كذلك .

المبحث الثاني: حقوق المرأة وواجباتها

تقول الآية الكريمة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾، والمراد بهذا المقطع الشريف من الآية المباركة - كما هو مروى عن مجاهد^(١) وجماعة -: أربعة أمور تخلق لونا من الحساسية عند المرأة، وهي:

الأمر الأول: مسألة الطلاق

فالبعض يتساءل: لماذا لا تعطى المرأة حق الطلاق كما أعطي الرجل ذلك، بحيث إنه بهذا أصبح يتحكم بحياتها ومصيرها؟
والجواب عن هذا بأن يقال: إن الطلاق من المسائل الخطرة في حياة كل أسرة؛ ذلك أنه يهدم الأسرة ويفكك المجتمع؛ ولذا عبّر عنه الحديث النبوي الشريف بأنه يهتز له العرش، قال ﷺ: «تزوجوا ولا تطلقوا؛ فإن الطلاق يهتز له العرش»^(٢)؛ فالأبوان حينما يهدمان الأسرة فإنما يخلقان مشروع جريمة. فمسألة الطلاق مروعة جداً، ولأجل هذا احتاط المشرّع احتياطاً كبيراً بمسألة الزواج، فقد أوصى المسلم بوصايا وطالبه بالألّا يحيد عنها، ومنها ما جاء في صفة الزوجة كقوله ﷺ: «تخيروا لنطفكم»^(٣)، وقوله ﷺ: «اظفر بذات الدين تربت يداك»^(٤)، وغيرها من الأحاديث^(٥).

(١) انظر تفسير الثعالبي ١: ٤٥٧.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٩٧، وسائل الشيعة ٢٢: ٨-٩ / ٢٧٨٨٠.

(٣) دعائم الإسلام ٢: ١٩٩، سنن ابن ماجه ١: ٦٣٣ / ١٩٦٨.

(٤) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

(٥) كقوله ﷺ: «إياكم وخضراء الدمن». تهذيب الأحكام ٧: ٤٠٣ / ١٦٠٨، كنز العمال

فالمتعين التريث في هذه المسألة وعدم الركون إلى العجلة والتسرع في تنفيذ الرغبات؛ لأن المرأة هي التي تصنع الحياة؛ ذلك أن الولد يتعلق أولاً بأمه ثم بأبيه. كما أن انشداده لأمه أكثر من انشداده لأبيه؛ بحكم هذه الأولوية، فإذا طلقت الأم تحوّل إلى كيان تائه مفتقر إلى المودّة والعطف. ومن المقدمات التي ألزمتنا الله تعالى باتباعها هي أن نتعامل مع الأسرة وفق قنوات خاصّة رسمتها لنا السماء، فمثلاً كيف ندخل إلى البيت وكيف نخرج منه، وتحديد مدى الصلاحيات التي يجب أن يكون عليها الإنسان قبل الإقدام على الزواج. فأمر المحافظة على كيان الأسرة قوياً صلباً وعلى سلامة الجيل الجديد هو أمر حيوي جدّاً من وجهة نظر المشرّع.

وفي حال تعذّر إصلاح الزوجين يؤتى بحكم من أهل الزوج وآخر من أهل الزوجة ليحاوّلوا التقريب بين وجهات نظريهما، وليذكّراهما بخطورة الطلاق وآثاره السلبية على الرجل والمرأة والأطفال على حدّ سواء، وليبيّن لهما أن الضحية الأسوأ حظاً من هذه الأسرة هم الأطفال الذين سيضيعون في مسالك الحياة التي ربما قادتهم إلى الجريمة. فإن تعذّر ذلك ﴿يُغْنِ اللَّهُ كَلَّامًا مِنْ سَعْتِهِ﴾^(١)، حيث يؤول الأمر إلى الطلاق.

من غرائب مسائل الطلاق

وهناك نظريات عند المذاهب الإسلامية الأخرى حول الطلاق تعدّ غريبة في بابها، ولا تلتقي مع الخطوط العامّة للإسلام؛ فمثلاً لو أراد أحد أن يقول لزوجته: أنت طاهر، واشتبه فقال: أنت طالق، فإنها تطلق منه.

والمعلوم أن العقود^(١) تقع بالقصود، والقصد هنا غير متحقق؛ فما وقع لم يقصد، وما قصد لم يقع، فكيف يحكم بوقوع الطلاق؟ وكذلك لو قال لها: أنت بتة، فقد طلقت منه^(٢). وعند بعض أنه لو قال لها: أنت طالق، لمرّة واحدة حرمت عليه ولا تحل له بعد حتى تنكح زوجاً غيره. لكن الحق أن بعض الفقهاء عاود النظر في مثل هذه الأحكام. إذن هناك ثغرات واضحة في نظرية الطلاق لا سبيل لقبولها أبداً، فالمرأة إذا طُلقَت هُدمت أسرة بكاملها، ولذا يجب أن تراعى الضوابط الشرعية بدقّة حتى لا نصل بالمجتمع إلى هذا الحدّ.

مشاكل الزواج غير المدروس

كما أن هناك مسألة يجب مراعاتها عند الإقدام على الزواج، وهي اختيار الزوج المناسب والتحقّق من أخلاقه: «ابنتك كريمتك فانظر لمن ترقّها»، فتأكد ممّن ستزوجه منها، واستوثق من أخلاقه وقيمه وعاداته، فلا تنظر للأسرة والمال، بل ليكن مقياسك: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي. ما أكرم النساء إلاّ كريم، ولا أهانهن إلاّ لئيم»^(٣). ففكر بأن تختار لها الزوج الصالح.

وكذلك الأمر باختيار الزوجة فلا تكن الضابطة في اختيارها هي جمالها، فمجرد الجمال لا يكفي هنا، والطلاق له مشاكل عدّة، وأغلبه ما يكون ناشئاً من التسرّع في أمر الزواج وعدم التروّي فيه. فالطلاق غالباً ما يقع حتماً في مثل هذه الحالات. ومن نتائجه:

(١) ليس المقصود به العقد الاصطلاحي، بل العزم، وإلاّ فإن الطلاق إيقاع وليس عقداً.

(٢) الأم ٥: ١٢٤، الشرح الكبير ٢: ٤٠٢، المبسوط (السرخسي) ٦: ٧٩.

(٣) الجامع الصغير ١: ٦٣٢ / ٤١٠٢، كنز العمال ١٦: ٣٧١ / ٤٤٩٤٣.

أولاً: ضياع الأولاد.

ثانياً: خلق حالة من النفرة والتباغض بين أسرتي الزوجين .

ثالثاً: فوات فرصة الزواج ثانية على المرأة. وهذه النظرية هي واقع مجتمعنا؛ حيث إنه ينظر إلى المطلقة على أنها لا يصحّ الزواج منها؛ فيلام كل من أقدم على خطبتها. بل نجد هذا حتى عند المسيحيين؛ ففي إنجيل متّى: «من يتزوج مطلقة فإنه يزني»^(١)، وفي إنجيل مرقس الإصحاح العاشر: «إذا طلقت المرأة ثم تزوجت فقد زنت»^(٢).

مع أن الأمر على عكس ذلك، فإن المرأة إذا تزوجت فقد سُترت، وكلنا يعرف ما يترتب على ذلك من ثواب وأجر عند الله تعالى. ثم إن هذا الأمر بالتالي سيكون سترًا للأسرة وللمجتمع؛ فأسرتنا بلدنا، والمسلمون إخواننا.

فلماذا جعل الطلاق بيد الرجل، وهذا الذي عليها، لكن ما لها مقابل ذلك؟ إن من حقها أنت تشترط العصمة في أصل العقد^(٣).

وفوق ذلك يمكن أن يقال: إن معظم وظيفة المرأة في البيت؛ لأنها هي التي تصنع الأجيال، فهي التي تسكب على الطفل من حنانها ورعايتها ما لا يستطيع الرجل أن يوفّر له عشره. لقد وضع الله تعالى فيها هرموناً يسمى هرمون «البرولاكتين»، وهو المعروف بهرمون الأمومة، وهو

(١) إنجيل متّى / الإصحاح: ٥، الآية: ٣٢.

(٢) إنجيل مرقس / الإصحاح: ١٠، الآية: ١١.

(٣) هذا ما عند المذاهب الأخرى، أما عندنا فلها أن تُعطى حقّ تطليق نفسها بالوكالة على اختلاف بين فقهاءنا^{عليه السلام} فيه؛ فمنهم من ذهب إلى جواز ذلك، ومنهم من منعه، ومنهم من تردّد فيه. انظر: المبسوط ٢: ٣٦٥، مختلف الشيعة ٦: ٢١، السرائر ٢: ٨٧، شرائع الإسلام ٢: ٤٢٢.

هرمون إذا أفرزته غدد خاصّة في جسمها تحوّلت إلى كيان كلّ شفقة، حيث إنها تلتدّد حينذاك بهزّ مهد الطفل ورضاعه ورعايته وتنظيفه، وهو ما لا يوجد عند الرجل؛ لأن هذا من أصل تركيبها كما مرّ.

الأمر الثاني: معنى كونها ناقصة عقل

إن المرأة تحتاج إلى غزارة في العاطفة كي ترسم الهدوء والشفقة في البيت الذي تسكنه، فالبيت الذي ليس فيه امرأة لا تجد فيه لمسات الحنوّ والدعة واللفظ؛ فهي - كما أشرنا - تمتاز بأن لها عاطفة أكثر من الرجل؛ وكذلك تستطيع أن تبقى ساعات وساعات تناغي الطفل وتداعبه. ولذا فهي ليست ناقصة عقل، بل إن عاطفتها تطغى على إرادتها وتفكيرها العقلاني، وهو ما يقابله العكس عند الرجل، حيث إنه ليس عنده عاطفة كبيرة كتلك التي عند المرأة، بل إنه يطغى على إرادته الجانب العقلاني؛ ذلك أنه يفكر أكثر فيما يحتكّ به من مشاكل الحياة ومواطن الصراع معها؛ ونتيجة لهذا فإنه يمتلك غزارة في إرادته. وهذا هو السبب الذي من أجله وضع الله عصمة الطلاق بيده دونها. وربما يقول قائل: إن هناك من الرجال من لا أهميّة له في المجتمع ولا إرادة.

فنقول: هذا صحيح، لكنه نادرة وليس هو القاعدة التي يكون الرجال بمقتضاها ذوي إرادة وقوة.

هذا في المجتمع الإسلامي، أما في المجتمعات الغربيّة فالرجل والمرأة كلاهما معاً في العمل وفي المؤسسات، وكلّ واحد منهما يعول نفسه، فكلّ منهما يصارع الحياة بمفرده. فالمرأة هناك تطالب بالعمل

خارج البيت أما في الإسلام فهي لا تطالب بذلك، بل إن الإسلام يكفل معيشتها ويطلب منها رعاية بيت الرجل وتربية أطفاله وتنشئتهم، وجعل لها حق المطالبة بأجر رضاع ابنها من أبيه.

مسألة الشهادة

ويتفرّع على هذه المسألة مسألة هي الأخرى خطيرة وخطيرة، وهي مسألة الشهادة، فقد أفرد الشارع المقدّس الرجل في بعض الموارد دون الحاجة إلى شاهد ثانٍ، وكذلك جعل شهادة الرجل بشهادة امرأتين، وهذا ما لم يفعله مع المرأة حيث إنه أعطاها حق الشهادة، لكن جعل شهادتها بما يقابل نصف شهادة الرجل: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾. وهذا ربما يثير حفيظة بعض النساء غير العارفات.

غير أن الحق يقال، وهو أن المرأة تمرّ بها أيام صعبة وعصيبة، كأيام الحمل والنفاس والحيض، فتكون عرضة للنسيان أكثر، فلذلك اشترط الشارع تضعيف عدد النساء في الشهادة: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(١).

الأمر الثالث: مسألة الميراث

ومفاد هذه المسألة هو أن الزوجة لا تورّث من الأرض، والابنة لها نصف حصّة الرجل. وهذه المسألة ترتبط بالمؤسّسة الإسلامية المالية، ولا يمكن لأحد أن يرفض هذا النظام أو يحاول تغييره بهذه السهولة التي يتصوّرها هذا المعترض. إن هذا الأمر ممّا يحاول به بعض المغرضين النيل من عدالة الإسلام الحنيف والتشهير به، لكن هؤلاء المشهّرين نسوا

(١) البقرة: ٢٨٢.

أو تناسوا أمراً هاماً جداً وهو أن الإسلام الحنيف لم يكلف المرأة بشيء من الأعمال أو التجارة أبداً، ولم يطالبها بشيء من ذلك، بل إنه كفل لها طعامها وشرابها وملبسها؛ فهي لا تحتاج للمال في شيء، فكل طلباتها مكفولة ومجابهة، بخلاف الرجل فإنه الكادّ الساعي الذي يشقى من أجل إعالة زوجته وأطفاله. فالرجل يأخذ حصّته وينفقها على المرأة، أما المرأة فتأخذ حصّتها وتدّخرها ولا تكلف من قبل الشرع أو العرف في إنفاقها.

فالواقع أن المرأة هي الرابحة لا الرجل بهذا اللحاظ.

الأمر الرابع: مسألة الجهاد

دخلت أسماء بنت يزيد الأنصارية على النبي ﷺ - وهو بين أصحابه - فقالت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، إنى وافدة النساء إليك، واعلم (نفسي لك الفداء) أنه ما من امرأة كائنة فى شرق ولا غرب سمعت بمخرجي هذا إلا وهي على مثل رأيي. إن الله بعثك بالحق إلى الرجال والنساء، فأمنّا بك وبإلهك الذي أرسلك، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات، قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معاشر الرجال فُضّلتم علينا بالجمعة والجماعات، وعبادة المرضى، وشهود الجنائز، والحجّ بعد الحجّ، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله. وإن الرجل منكم إذا خرج حاجاً أو معتمراً أو مرابطاً حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، ورَبّينا لكم أبناءكم، أفما نشارككم فى الأجر يا رسول الله؟

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كلّهُ، ثم قال: «هل سمعتم مقالة

امرأة قطّ أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟». فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا. فالتفت ﷺ إليها ثم قال لها: «انصرفي أيتها المرأة، وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل لإحداكن لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله». فأدبرت المرأة وهي تهلل وتكبر استبشاراً^(١).

وأحبّ أن ألفت النظر إلى أن الجهاد إذا كان دفاعاً عن النفس فإن المرأة تستوي فيه مع الرجل دون فرق يذكر، أما الجهاد الابتدائي - موضوع المقام - فإنه ينفرد فيه الرجال دون النساء.

فهذه المرأة دخلت على النبي ﷺ وطلبت فيه أن يسمح لها وللمن خلفها من النساء بالمشاركة في الجهاد الابتدائي؛ ولذا فإنه ﷺ أعطاهن وظيفة لا تقل أهمية وأجرًا عن وظيفة وأجر المجاهد، فقرّر لها أن جهادها هو حسن تبعلها لزوجها. وأهمية هذا الدور لا تخفى على من له نظر في الأمور؛ ذلك أن المجاهد إذا كان يلعب دوراً كبيراً وهاماً حينما يدفع العدو بسيفه، ويضحي بدمه ونفسه بتعريضها للقتل أو الجرح، فالمرأة تدفع العدو عن البلد بالحياة؛ لأن وظيفتها خلق الولد الصالح وتربيته وتنشئته تربية وتنشئة صالحتين؛ فتخلق ذلك المجاهد.

وهذه هي الحياة الصحيحة التي تكون من اختصاص المرأة فقط، فالرجل يصارع في معترك الحياة، وعلى المرأة أن تقابل هذا بلمسة رقة وحنان ولطف في المنزل، وهو ما يسمى بحسن التبعل المبني على إحسانها لزوجها وخلق وسائل الراحة له في بيته؛ كي يستعيد فيه ما

(١) الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٥٠، أسد الغابة ٥: ٣٩٨، الدر المنثور ٢: ١٥٣.

خسره في صراعه مع الحياة خارجه . يقول الرسول الأكرم ﷺ : « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها » ؛ لأن الرجل قد كرس حياته وكيانه لها ولأطفالها .

فوظيفة المرأة إذن هي حسن التبعل بأن تصنع الحياة السليمة الصحيحة ، وتتضافر جهودها مع جهود الزوج لبناء الجيل الصالح . وهذا لا يكون إلا إذا ساد الحبّ والعواطف المتبادلة حياتهما داخل البيت ، وبخلافه يصبح البيت بؤرة صراع . فالمرأة من هذا المنظار تجاهد مجاهدة الرجل في ساحة المجتمع ، وقد جعل الله تعالى لها على ذلك أكثر من أجر^(١) ؛ ذلك أن الحياة ليست عبارة عن الأكل والشرب فقط ؛ لأن البعض يأكل ويشرب وهو كالأموات : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾^(٢) . قال الشاعر :

ليس من مات واستراح بميتٍ إنما الميتُ ميتُ الأحياء^(٣)

وقال غيره في رثاء أحدهم :

أرى الموت يحييكم وبعض الذي مشوا على الأرض لو فكرت يمشي بهم قبرُ
تشدّ بهم للطين سوءً فعالمهم وتسمو بكم للنور أمثلة غرُ
كرائمُ أعمالٍ وزاد من التقى وفيض من الإصلاح هذا هو العمرُ

بل إن العمر والحياة هما الأخلاق العالية والاستقامة والطيبة ، وهذه يصنعها حجر الأم ؛ ولذلك فإن الله تعالى جعل لها حكم المجاهد

(١) انظر إلى قوله ﷺ لأسماء بنت يزيد الأنصارية: « يعدل ذلك كله » .

(٢) الفرقان: ٤٤ . (٣) مجمع البحرين ٤: ٢٧٤ - موت .

والشهيد وأجرهما، وأن لها بكل طلقة أجر شهيد^(١)؛ لأنها مجاهدة في ساحة المجتمع الداخلي بخلقها مجتمعاً صالحاً وعقيدياً. وقد نصّ رسول الله ﷺ على هذا بقوله: «جهاد المرأة حسن التبعل»^(٢). فالمراد منها هو أن تؤدّي وظيفتها وما افتُرض عليها في بيتها من واجبات إزاء الزوج والأسرة.

حرية المرأة

فالآية الكريمة تريد أن تقول: إن هذه الأمور الأربعة يجب ألا تثير تلك الحساسية عند المرأة، بل حتى لو أثارت نوعاً من الحساسية فإنها يجب ألا تقع تحت تأثيرها، لأن الله قد أعطاها ما يقابل ذلك، لكن بعض الأقلام المأجورة والعفنة تؤدي دوراً سلبياً تحاول من خلاله أن تظهر حقدتها على الإسلام؛ فهي تحاول أن تهدم ما يؤسسّه عبر إثارة مثل هذه المسائل.

وهذه الأقلام الحاقدة كانت وما تزال تثير هذه الأمور الحساسة كي تبعد المرأة عن الإسلام؛ فهي تطرق مواضيع خطيرة وكثيرة من قبيل أن المرأة في الإسلام حبيسة وليس لها أي حق. ونحن نتساءل بدورنا: هل كفلت أوروبا للمرأة حياة حرّة كريمة كالتي كفلها الإسلام لها؟ وهل هيأت لها ذلك الجوّ الإنساني الكريم الذي هيأه لها الإسلام؟ لقد كانت أوروبا قبل قرنين من الزمن تبيع المرأة بشلن واحد في لندن، في حين أن

(١) انظر: مكارم الأخلاق: ٢٣٨، مستدرك وسائل الشيعة ١: ٢١٤ / ١٨٠٣٧ ط.

(٢) مسند الشهاب ١: ٨١ / ٧٩، دلائل النبوة: ٧٥، وانظر: الميزان في تفسير القرآن ٤: ٣٥٠، أسد الغابة ٥: ٣٩٨، الدر المنثور ٢: ١٥٣. وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، كما في نهج البلاغة / الحكمة: ١٣٦، الكافي ٥: ٩ / ١.

الإسلام وضع الجنة تحت أقدامها^(١).

فهؤلاء الكتاب ينادون بتحرير المرأة بشكل يريدونها معه أن تكون تحت متناول أيديهم في كل زمان وكل مكان متى ما تحرّكت رغباتهم تجاهها؛ في الشارع، وفي سوق البغاء، وفي غيرها دون مراعاة أي حرمة وقيمة لها. ونحن الآن بدأنا نأخذ شيئاً فشيئاً بالابتعاد عن روح الإسلام ومبادئه، ولم نعد نعبأ بمفاهيمه وتعاليمه، وإلا برّك قل لي: ما هو النقص الذي يعتري المرأة في المجتمع الإسلامي؟ فإن كان في المجتمع الإسلامي من يعامل المرأة بشكل غير إسلامي فإن الذنب ذنبه وليس ذنب الإسلام؛ لأنه لم يروّض نفسه بتعاليم الإسلام وروحه السمحة.

المبحث الثالث: معنى علو الرجال على النساء درجة

ثم قالت الآية الكريمة: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَى النِّسَاءِ دَرَجَةٌ﴾، الدرجة هي القوامة، وهي عبارة عن إدارة شؤون الأسرة من قبل الرجل، أي توحيد الزعامة داخل الأسرة؛ لأن الزعامة إذا تعددت تمزقت الأسرة وضاعت شخصية الطفل. فالمجتمع إما أن يكون أمومياً أو أبوياً أو متوازناً. والمجتمع المتوازن هو المجتمع الصحيح، وكلا الأبوين يتناوبان على تربية الولد. فالمشرّع وحد القوامة وجعلها بيد الرجل، وذلك تحديداً لتنظيم الأسرة وتوحيدها. وهذه القوامة موجودة في كل أرجاء الكون: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٢)، فلو كان هناك إله ثانٍ لما استقام الكون؛ لما

(١) انظر: مستدرک وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢/١١٨، كنز

(٢) الأنبياء: ٢٢.

العَمَل ١٦: ٤٦١/٤٥٤٣٩.

يترتب على ذلك من تعارض في الإرادات، وهو أمر يؤدي إلى نهاية الكون. ولهذا أعطى الله الإنسان عقلاً واحداً يسيطر على الغرائز في الجسم ويهذبها.

المبحث الرابع: دور المرأة في التاريخ

ونود الآن أن ننتقل من هنا إلى الأدوار التي قامت بها المرأة في التاريخ وإلى نظرة الناس إليها على مر التاريخ الإسلامي؛ سواء في حضارتنا كعرب أو كمسلمين، حيث إن لها أدواراً مهمة وضخمة على الرغم من أن الميراث الاجتماعي ميراث مرّ؛ حيث كانت المرأة محتقرة أشد الاحتقار، فالنظرة السائدة عنها أنها كائن منحط، وأقل مرتبة من الرجل، فجنسها هو الجنس الرديء. وهذه النظرة التي ينظرون بها إلى المرأة لا تخص المرأة فقط، بل إنهم يرون أن كل مؤنث رديء ولو كان مكاناً أو حيواناً، فهم إن أرادوا تحقير أحد لقبوه لقب تأنيث، كقفة وبطة وغيرهما، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(١).

وبعض مجتمعاتنا لازالت تعيش حتى الساعة هذه النظرة. كما أنهم كانوا يعيشون حالة من التناقض؛ ففي الوقت الذي كانوا يأنفون فيه من المرأة، بل ويقومون بوأدها نراهم ينسبون البنات إلى الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(٢)، فهم ينسبون الأنثى إلى الله ويأنفون من نسبتها إليهم.

وقد عبّر عنها تعالى بالإناث (البنات) لدافع اقتصادي كانوا يرونه؛

(١) النحل: ٥٨.

(٢) النحل: ٥٧.

وذلك ليعطف عليها القلوب؛ حيث إن الرجل ينشد للمرأة، وإذا انشد إليها كان الريح أكثر. فالأصنام التي كانوا يعبدونها أسموها بأسماء إناث: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا﴾^(١)، فاللات والعزى ومناة إناث، وكان يستفيدون مما يؤتى من هدايا ونذورات لها، إذ كانوا يأخذون ما يجلب إليها.

فهم يحتقرون المرأة من جانب، ويعتبرونها غريزة ويستغلون اسمها من جانب آخر فيعاملونها كغريزة. والذي ينظر للمرأة كغريزة يكون قد احتقرها وغمطها حقها؛ لأنه يغمض عينيه عن عطاءاتها وإبداعاتها.

المرأة في المجتمع الإسلامي

علماً أن أوروبا تنظر إلى المرأة كغريزة، وذلك يظهر جلياً من خلال تعاملها معها، في حين أن المرأة في تراثنا الإسلامي قد أعطيت دوراً هاماً فلعبته على أتم وجه، فابنتا الفند الزماني مثلاً قادت جيشاً من أضخم الجيوش، وبعد بزوغ شمس الإسلام وسطوع نجمه على أرض المعمورة، استمرت المرأة في عطائها؛ فكان دور الخنساء وخولة بنت الأزور ونسيبة بنت كعب المازنية التي لعبت دوراً لا يُنكر في مجال الحروب وتطبيب الجرحى. وجاء بعد ذلك نساء عالِمات فقيحات مجتهدات، وهذا يدل على أن المرأة في الإسلام ليست كياناً منحطاً عن الرجل كما هو الأمر مع سائر الحضارات، بل هي كيان هام له قيمته ودوره ورسالته، وله وظيفته التي تعد من أخطر الوظائف في المجتمع. وليس هناك مثل أضربه لك من أمثلة النساء المسلمات أوضح من

(١) النساء: ١١٧.

سمية (أم عمار) التي عرّضتها قريش لأشدّ أنواع التعذيب من أجل سلب عقيدتها، فقاومت مستميتة ولم تتخلّ عن عقيدتها ومبدئها الذي هي عليه، وكان أن ربطتها قريش إلى اثنتين من الخيل ومزقتها إرباً بعد أن طعنها أبو جهل بحربة في بطنها. وهي التي قال عنها الرسول الأكرم ﷺ: «صبراً آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة»^(١). وقال ﷺ: «اللهم اغفر لآل ياسر»^(٢).

وهناك الكثير غيرها من الرائدات الأوليات اللاتي كن في منتهى الشدة والصلابة في الحق، فنحن نقرأ بطولات أسماء بنت عميس في هجرتها إلى الحبشة ووقوفها إلى جانب زوجها جعفر ﷺ، وكذلك أسماء بنت أبي بكر حيث قال لها ابنها عبد الله: إني أخشى أن يُمثل بي. فقالت له: هوّن عليك فإن الشاة لا يضيرها السلخ بعد الذبح^(٣).

وأسماء بنت عميس حينما جاؤوها بخبر ابنها محمد بن أبي بكر - حيث كانت قد تزوّجت من أبي بكر بعد استشهاد جعفر ﷺ، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يعدّ محمد بن أبي بكر كولد - فلم يبدُ عليها أي انفعال، وكان موقفها في غاية الصلابة.

دور نساء بيت الوحي في تاريخ الرسالة

لقد أدّت المرأة المحمّدية أدواراً لا يمكن أن توصف بقلم أو لسان في تاريخ الإسلام وقيام دولته واشتداد شوكته، فلم تكن الأدوار النسوية مقتصرة على غيرهن من بيوتات العرب، بل كان لهن قصب السبق فيه،

(١) الاحتجاج ١: ٢٦٦، المستدرک علی الصحیحین ٣: ٣٨٣.

(٢) الاحتجاج ١: ٢٦٦، مسند أحمد ١: ٦٢.

(٣) شجرة طوبى ١: ١٢٤، بلاغات النساء: ١٣٧.

والقدح المعلّى كما سنرى. فلقد فتن كل نساء العالم في كل زمان ومكان في أداء تلك الوظيفة والقيام بذلك الدور على الوجه الأكمل. ولكي نثبت صحّة كلامنا سنضرب مثلين لأنموذجين من المرأة المحمّدية:

الأنموذج الأوّل: خديجة الكبرى عليها السلام

والواقع أن قيام الإسلام على قدميه مدين لهذه المرأة العظيمة؛ فهي المرأة التي تحمّلت كل الأعباء والآلام في سبيل الدعوة والدين، حتى بذلت كل مالها الذي كان يصفه بعض المؤرّخين بأنه لو وقف رجلان ووضعت بينهما أموال خديجة عليها السلام لما رأى أحدهما الآخر لما تشكّله هذه الأموال من تلّ من بدر الدنانير والدرهم^(١). كما ذكروا أنه ما من بيت من بيوت مكّة إلا كان يضارب بأموال خديجة، وكان مجتمع قريش بأجمعه يتاجر بأموالها ويضارب بها^(٢). وقد ساق هذه الأموال كلّها إلى بيت النبي صلّى الله عليه وآله لينفقها في سبيل الدعوة إلى الله.

وكانت (سلام الله عليها) أوّل من استقبل رسول الله لحظة نزول الوحي السماوي المقدّس عليه، إذ كان قد جاء وهو يرتعد من ثقل ما يحمل من أمر الله، فواسته وطمأنته وقالت له: إن الله لا يريد بك إلاّ خيراً، ودثّرتة وأضجعتة. ثمّ بعد ذلك راحت توأسيه وتمسح عنه آلامه وجروحه التي كان يلقاها ويصنعها فيه العناد القرشي ورفض الدعوة الكريمة التي جاء بها. فهو صلّى الله عليه وآله ما إن يدخل بيتها حتى تمسح عنه كل الأعباء والآلام والهموم إلى أن أدّى رسالة ربّه راضياً مرضياً.

(١) قريب من في بحار الأنوار ١٩: ٦٢ ٦٣.

(٢) انظر: مناقب آل أبي طالب ١: ١٢٣، شواهد التنزيل ١: ٤٣٨ - ٤٤٤ / ٤٦٧ - ٤٧٣، ٥٧٠ / ٦٠٨، الدر المثور ٤: ١٧٧.

يقول عفيف الكندي: دخلت مكة فجئت الكعبة لأطوف بها، فنزلت ضيفاً على العباس بن عبد المطلب، فأنا عنده، وأنا أنظر إلى الكعبة، وقد حلقت الشمس فارتفعت، إذ أقبل شاب حتى دنا من الكعبة، فرفع رأسه إلى السماء فنظر، ثم استقبل الكعبة قائماً، وجاء غلام حتى قام عن يمينه، ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما، ثم ركع الشاب فركع الغلام وركعت المرأة، ثم رفع رأسه فرفعا، ثم خرّ ساجداً فسجدا معه.

فقلت للعباس: إني أرى أمراً عظيماً. فقال العباس: هل تدري من هذا الشاب؟ قلت: لا. قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجته، وهذا الغلام علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن أخي أيضاً، وإنه حدثنا أن ربّه ربّ السماوات والأرض أمره بهذا الدين، وهو يزعم أنه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر. والله، ما علمت أن على ظهر الأرض كلّها على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

قال عفيف الكندي - وكان قد أسلم بعد ذلك -: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثانياً مع علي^(١).

فكان مبعثه (صلوات الله وسلامه عليه وآله) يوم الاثنين، وأمنت

(١) روضة الواعظين: ٨٥، شرح الأخبار ١: ١٧٩ / ١٤٢، مسند أحمد ١: ٢٠٨، ميزان الاعتدال ١: ٢٢٤.

وروي عن عمرو بن عبسة السلمي أنه قال: أتيت رسول الله ﷺ أول ما بعث وبلغني أمره، فقلت: صف لي أمرك. فوصف لي أمره وما بعثه الله به، فقلت: هل يتبعك على هذا أحد؟ قال: «نعم، امرأة وصبي وعبد». يريد خديجة بنت خويلد وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة. تاريخ يعقوبي ٢: ٢٣.

هي عليها السلام في اليوم نفسه ، ثم وقفت معه بكل كيانها ووضعت تحت تصرفه ثروتها الضخمة كما أسلفنا ، وسخرت لأجله ولأجل الدين الحنيف كل طاقاتها النفسية والاجتماعية^(١) ؛ ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد أطلق على العام الذي توفي فيه ناصراه خديجة وأبو طالب عليهما السلام اسم عام الحزن . وكذلك فعلت الزهراء (صلوات الله وسلامه عليها) مع خليفة رسول الله وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، حيث وقفت معه في محنته مع القوم بعد وفاة أبيها عليها السلام .

الأنموذج الثاني: زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام

لقد كان الدور الذي قامت به زينب (سلام الله عليها) قبل وقعة الطف وبعدها دوراً عظيماً لا يستطيع أي رجل مهما كانت صلابته أن يحتمل وقعه إلا إذا كان من أهل بيت العصمة عليهم السلام . وكمثال على ذلك فإن الشاعر أبا ذؤيب الهذلي - وهو من الشعراء المعروفين بالصلابة - وقف على ثلاثة من أولاده قد فقدهم في إحدى المعارك ، فقال قصيدته :

أمن المنون وريبه نتوجع	والدهر ليس بمعتبٍ من يجزع
أودئ بني فأعقبوني حسرة	عند الرقاد وعبرة لا تقطع
سبقوا هواي وأعنقوا لهواهم	وتخزموا ولكل جنب مصرع
فالعين بعدهم كأن جفونها	كحلت بشوكٍ فهي عورا تدمع

إلى أن قال :

وتجلدي للشامتين أريهم
أني لريب الدهر لا أتضعع^(٢)

(١) انظر محاضرة (أضواء على خطبة الزهراء عليها السلام) في ج ٢ ص ١٧٧ - ١٩٢ من كتابنا هذا .

(٢) الكنى والألقاب ١ : ٧٦ .

ولكنه في النهاية لم يقوَ على وقع المصيبة فسقط متهاكاً على التراب لا يستطيع الحركة، ثم عمد إلى النياق وذبح فصائلها أمام أعينها، وذبح كل حيوان عنده في الحظيرة، ليوجد مشهداً من الألم، ويتسنى له أن يوجد من يتألم معه في ذلك المشهد. لكن الحسين عليه السلام وقف صبوراً في محنته، ولله درّ السيد حيدر الحلّي إذ يقول:

له الله مفطوراً من الصبر قلبه ولو كان من صمّ الصفا لتفطراً
ومنعطفٍ أهوى لتقبيل طفله فقبل منه قبله السهم منجر (١)

وهكذا فعل هذا الرجل بعد أن صُرع أبناءه، ثم وقفت زينب عليها السلام صلبة قويّة لم تهين ولم تضعف أمام المحنة، بل وزيادة على ذلك فإنها كانت تعلم بما سيؤول إليه أمرها، ومع ذلك فقد أصرت على المضي في هذا الطريق الحاشد بالأشواك؛ كي تؤدّي رسالتها وتدافع عن عقيدة ودين جدها صلى الله عليه وآله وأبيها أمير المؤمنين عليه السلام.

كانت (سلام الله عليها) تحمل بيسراها لواء رعاية الأطفال وبيمنائها لواء ضيافة الرجال. فهكذا أراد لها الحسين عليه السلام أن تكون قبل انطلاقة الثورة، كما أنه عليه السلام رسم لها طريقها ووظيفتها لمرحلة ما بعد انطلاقة الثورة، فكانت عليها السلام تمسح الألم عن نفس أخيها السبط سيد الشهداء عليه السلام بوقوفها إلى جانبه، وبتقديمها الدعم والمساعدة له.

من مظاهر صلابة زينب الكبرى عليها السلام في الطف

وقد تركت (سلام الله عليها) بيتها وسافرت مع الحسين، فلمّا وصلوا إلى كربلاء ونزلوا فيها قالت لأبي عبد الله عليه السلام: «إن قلبي قد استوحش من

(١) ديوان السيد حيدر الحلّي ٧٨.

هذا الوادي». فقال لها: «هوني عليك وتعزي بعزاء الله». فتعزّت وصبرت ووقفت ذلك الموقف، حتى إنها ضحّت بولديها يحيى وعون وإخوتها وأبناء عمومتها، فذهبت كل أسرتها أمام عينيها. وكان من مظاهر صلابتها أن وقفت بوجه يزيد وقالت له: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء؛ فأصبحنا نساق بين يديك كما تُساق الأسارى أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده وجيليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك ونظرت بعطفك جدراناً مسروراً حتى رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً، لا تطش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْفًا نُّفْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُنْفِلِي لَهُم لِيُزِدُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾^(١)؟

أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ سبايا قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن؟^(٢).

إلى آخر خطبتها التي هزّت بها أبعاد المجلس.

ومن مظاهر صلابتها (سلام الله عليها) أيضاً أن كانت تمرّ على جثث الضحايا فتتنظر إلى الأعضاء المقطعة والدماء السائلة، وتستمرّ في طريقها حتى تقف على الأعضاء المتناثرة لأبي عبد الله الحسين عليه السلام، وترمق السماء بطرفها وتقول:

«اللهم تقبل منّا هذا القتل قرباناً لوجهك». وهي صلابة ما بعدها صلابة؛ إذ لم يشهد التاريخ مثلها.

ومن مظاهر صلابتها أن كانت تجمع شتات العيال والأطفال في طريق

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

الأسر، وتحمي العائلة في غياب الكفيل، وترجع إلى المخيم، وتمرّ عليها لحظات الليلة الحادية عشرة من المحرّم:

وسجى الليل والرجال ضحايا	والنساء المخدرات زهولاً
اليتامى تشرد وضياح	والثكالى مدامع وعويل
وعليل عضت عليه قيود	وزنود يفري بها التنكيل
ودم شاطئ الفرات سيبقى الـ	دهر يرويه والربى والنخيل ^(١)

* * *

وحائراتٍ أطارَ القومُ أعينها	رعباً غداةً عليها خدرها هجموا
عجت بهم مُدْ على أبرادها اختلفت	أيدي العدو ولكن من لها بهم
كلُّ تلودٌ بأخرى خوفٍ أسرها	لودُ القطا خوفٍ بأسٍ الباشيقِ الضخم ^(٢)

والمنادي ينادي: أحرقوا بيوت الظالمين. يقول حميد بن مسلم: نظرت إلى امرأة عليّ باب الخباء وقد أوشكت النار أن تأخذها، فدنوت منها وقلت: أمة الله، النار قاربتك. فلم تجبني، فقلت: أمة الله، النار علقت بأطراف ثيابك. فلم تجبني، فقلت في الثالثة بأعلى صوتي: النار أوشكت أن تلتهمك! فأدارت وجهها إليّ قائلة: يا ظالم، أنا أرى النار، ولكن لنا عليل في هذه الخيمة، ثم دخلت عليه فقالت: يابن أخي، ماذا نصنع؟ قال: «فروا على وجوهكم في البيداء». يقول السيد الحلبي:

مشى الدهر يوم الطّف أعمى فلم يدع	عماداً لها إلا وفيه تعذراً
وجشّمها المسرى ببيداء قفرة	ولم تدّر قبل الطّف ما البيدُ والسرى

(١) ديوان المحاضر ١: ٤٠.

(٢) ديوان السيّد حيدر الحلبي ٢: ١٠٣.

ولم ترَ حَتَّى عَيْنُهَا ظِلُّ شَخْصِهَا إِلَى أَنْ بَدَتْ فِي الْغَاضِرِيَّةِ حُسْرًا^(١)

* * *

يَا رَسُولَ الْبَدَارِ إِنْ أَنْتَ سَارِ عُجَّ إِلَى طَيِّبَةٍ بِغَيْرِ اعْتِدَارِ

قَفِّ وَنَادِ بَرْنَةً وَانْكَسَارِ (قَوْضِي يَا خِيَامَ عَلِيَا نِزَارِ

فَلَقَدْ قَوَّضَ الْعِمَادُ الرَّفِيعُ)

* * *

نَايِمِ يَخُو زَيْنَبَ يَوَاعِي مَا هَيَّجَنَكَ هَالنَوَاعِي

* * *

وَإِنْ يَبْكُ الْيَتِيمُ أَبَاهُ شَجْوًا قَرَعَنَ سَيَاطَهُمْ رَأْسَ الْيَتِيمِ



(١) ديوان السيد حيدر الحلبي: ٧٨.

وراثة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ
تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا
بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ
مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١).

مباحث الآية الكريمة

هذا المقطع من الآية يتضمّن مجموعة من المباحث، فالآية تعالج مشكلة من المشاكل التي تمتد مع امتداد الإنسانية.

المبحث الأول: الجانب المدني والحضاري في حياة الإنسان

إن الفترة التي بدأت بنزول القرآن الكريم تعتبر نقطة فاصلة بين حضارتين: حضارة الإسلام، وحضارة الجاهلية، حيث نزل القرآن ليغيّر المجتمع، فجاء بقيم تختلف عن القيم الجاهلية السابقة، ومن الصعب تبديل حضارة بحضارة، مع أن من السهل تغيير المدينة كسكن الإنسان

(١) النساء: ١٩.

حيث يمكن تغييره من الخيمة إلى القصر، وكذلك وسائل النقل، ولكن من الصعب تغيير عادة لإنسان كان قد درج عليها هو وآبؤه وأجداده، فنحن نحتاج إلى زمن طويل لإجراء هذا التغيير؛ ولذا ينشأ التخلف المحضاري. فالشقّ المادي من الحضارة من السهل تغييره لكن الشقّ الفكري يصعب تغييره، ويحتاج إلى فترة طويلة لتحقيقه؛ ومن هنا نشأت صعوبة معالجة القيم البدويّة التي كانت سائدة آنذاك عند نزول القرآن.

النظرة إلى المرأة هي انعكاس عن جملة من الأوضاع

وقيم الجاهليّة ومواريتها لانزال نعيشها إلى الآن، صحيح أننا مسلمون ونصلي ونصوم، ولكن عند الرجوع إلى داخلنا نرى الجاهليّة تعيش في صدورنا، ومن جملة هذه المسائل مسألة (النظرة إلى المرأة)، فنحن نعرف أن المجتمع البدوي ينظر إلى المرأة على أنها كيان ضعيف، لا يصلح أن يكون نداءً للرجل. وهذه النظرة هي انعكاس عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والعقيدية:

الانعكاس عن الأوضاع الاقتصادية

إن الأوضاع الاقتصادية في الجزيرة العربيّة آنذاك كانت تقوم على أساس الابتزاز والسلب والنهب:

بنا وإذا غرنا نغير على وتر	يُغار علينا واترين فيشتفي
فلا ينقضي إلا ونحن على شطر ^(١)	بذلك نقضي الدهر شطرين بيننا

فهذه حضارتهم إمّا أن يَنْهبوا أو يُنهبوا، وهذه هي الصورة السائدة في

(١) بحار الأنوار ٤٢: ١٧٠، مقاتل الطالبين: ٢٠٠، شرح نهج البلاغة ٣: ٣١٠، ٣٠١٦.

المجتمع آنذاك؛ ولذلك نجد آثارهم طافحة بهذا المعنى. وكان لهذا الوضع الاقتصادي انعكاسه البيّن؛ حيث إن الذي يقوم بالسلب والنهب هو الرجل أي - النصف الخشن من المجتمع - أما النصف الآخر فهو ضعيف غير منتج فلا يستحقّ الحياة؛ ولذلك نجد أحد شعرائهم يبرّر دفن البنت بقوله:

القبر أخفى سترة للبنات ودفنها يروى من المكرمات
ألم تر الرحم من عز اسمه قد وضع النعش بجانب البنات^(١)

فهذه المجموعة الكوكبيّة في السماء نسميها بنات نعش، أي إذا وجدت البنت وجد النعش إلى جانبها، أي نقتلها وهي حيّة.

الانعكاس عن الأوضاع الاجتماعيّة

أمّا بخصوص الانعكاس عن الوضع الاجتماعي، فقد حصلت مجموعة من القضايا جعلتهم يعتبرون البنت عاراً؛ فنتيجة الغزوبين القبائل يحصل السبي، والمرأة قد تُسبي؛ وهي حينئذ إمّا أن تتزوّج أو تتعلّق بمن يغزوها، فيقولون: إن هذه المرأة قد أورثت القبيلة عاراً، بوقوعها تحت طائلة السبي؛ ولذا فإن الأفضل لها ولنا أن تموت.

الانعكاس عن الأوضاع العقيدية

أمّا الانعكاس عن الوضع العقيدي فقد جاؤوا بأمر من وضعهم ما أنزل الله بهامن سلطان، منها أن المرأة لاتساوي الرجل بل هي أقلّ منه؛ فلذا كانوا يحتقرونها ويستخدمون أبشع الوسائل في معاملتها. وحتى عندما

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٥٥٥، كشف الخفاء ١: ٤٠٧/ ١٣٠٨، ذيل تاريخ بغداد ٣: ١٩٤.

كانوا يريدون أن يعبروا عنها فإنهم يستخدمون عبارات تناسب كونها منحطة عن الرجل كما هو السائد في نظرهم. وهذا شيء غير طبيعي وغير فطري، ويؤدي إلى تدهور المجتمع بضياع ودمار نصفه حيث إن المرأة تمثل نصف المجتمع، بل المجتمع كله إن تجوزنا؛ لأن ما ينعكس على المرأة ينعكس على الأسرة؛ إذ أنها عماد الأسرة. وكانت هذه عاداتهم الدائبة إلا نادراً.

تقول الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي يامن آمنت برسالة السماء، بعد أن أصبحت مؤمنين لا تظنوا متمسكين بالقيم التي كانت سائدة عندكم في الجاهلية، ولا تبقوا عليها؛ فإنها قد انتهت وينبغي قطع الحبال منها؛ فلا يجتمع الإسلام مع الجاهلية أبداً. غير أن المصيبة أنهم يجمعون بينهما، يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(١)، فمع أنه يشهد الشهادتين تجد محتواه ومضمونه يعيشان قيم الجاهلية بكل أبعادها، فهو يؤمن بالله ويعبد عشرين إلهاً في داخله؛ حيث يعبد إله العصبية^(٢) والهوى^(٣) وإله الميراث الاجتماعي. فينبغي التفريق بين هذا،

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) وقد قال رسول الله ﷺ: «ليس منّا من دعا إلى عصبية». سنن أبي داود ٢: ٥٠٣ / ٥١٢١، الجامع الصغير ٢: ٤٦٦ / ٧٦٤٨، النهاية في غريب الحديث ٣: ٢٤٦ - عصب، كنز العمال ٣: ٧٦٥٧ / ٥١٠.

(٣) وقد قال تعالى: ﴿وَلِكَيْتَهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف: ١٧٦.

وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ الكهف: ٢٨.

وقال: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَزِدْهُ﴾ طه: ١٦.

وقال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ الفرقان: ٤٣.

وذاك وأن يجرد الإنسان نفسه من المحتويات التي تقابل الإسلام وتجعله يتخذ منها نداءً للإسلام.

المبحث الثاني: نظرة الإسلام إلى المرأة

﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ قبل الدخول للمقطع، قد يسأل سائل: أنتم تنتقدون الجاهليين بمعاملتهم المرأة، والحال أن معاملتها عندهم لا تختلف عما في الجاهلية، فأنتم تروون عن الإمام علي عليه السلام «المرأة شرّ كلها، وشرّ ما فيها أنها لا بدّ منها»^(١)، وأنهن نواقص الحظوظ والعقول والإيمان^(٢). وهذه غالباً تثار باعتبار أن الإمام عليه السلام يؤخذ على الإسلام وعلى القرآن. ففي الرواية: «المرأة شرّ» فاللام في «المرأة» إما للجنس - أي

وقال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ القصص: ٥٠.
وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ عَشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الجاثية: ٢٣.
(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٣٨. قال ابن أبي الحديد في شرحه:
الأصل: «المرأة شرّ كلها، وشرّ ما فيها أنه لا بدّ منها».
الشرح: حلف إنسان عند بعض الحكماء أنه ما دخل باب شرّ قط. فقال الحكيم: فمن أين دخلت امرأتك؟
وكان يقال: أسباب فتنة النساء ثلاثة: عين ناظرة، وصورة مستحسنة، وشهوة قادرة. فالحكيم من لا يردّد النظرة حتى يعرف حقائق الصورة. ولو أن رجلاً رأى امرأة فأعجبته ثم طالبها فامتنعت، هل كان إلا تاركها؟ فإن تأبى عقله عليه في مطالبتها كتأبئها عليه في مساعدتها قدع نفسه عن لذّته قدع الغيور إياه عن حرمة مسلم.
وكان يقال: من أتعب نفسه في الحلال من النساء لم يتق إلى الحرام منهن، كالطليح مناه أن يستريح.

قدع نفسه: منعها وحدّ من شهوتها. والطليح: المتعب. شرح نهج البلاغة ١٩: ٦٩.

(٢) انظر: الفقيه ٣: ٣٩ / ٣٤٧١، مسند أحمد ٢: ٦٧، صحيح البخاري ١: ٧٨.

لجنس المرأة - أو للعهد أي لامرأة معهودة معروفة؛ فإذا كانت للجنس فكيف يعقل أن يعبر عليه السلام عن المرأة أن كل جنسها شرٌّ؟ فخديجة امرأة وهي من قام نصف الإسلام على كتفها وبمالها^(١)، وآسية بنت مزاحم امرأة وهي من خيرة المؤمنات، ومريم بنت عمران من خيرة النساء أيضاً، وفاطمة امرأة وهي من خيرة النساء، وكذلك المؤمنات الصالحات ممن نعتز إلى الآن بمواقفهن كخولة بنت الأزور وأمّ عمارة التي لازالت موافقها تهز الأعماق.

فهؤلاء النساء المؤمنات هل يعقل أن يعبر عنهن الإمام عليه السلام بكونهن شرّاً؟ هذا لا يصدر من الإنسان العادي. وعليه فتكون (ال) هنا للعهد، أي أن المقصود بهذا امرأة بعينها معروفة وضعيفة، كما لو كان الإمام عليه السلام جالساً على دكة القضاء واشتكى إليه رجل زوجته، فقال له الإمام عليه السلام: «المرأة شرّ كلّها، وشرّ ما فيها أنه لا بدّ منها». فكأنه عليه السلام يخبره بأن اللابدية من حيث إنه لا يستطيع تركها لأن أطفاله سيضيعون. فهذه حادثة خاصة فلا تنسحب على الجميع.

فالسامع تصوّر أن كل امرأة شرٌّ، فيكون قد أخذ نصف الواقعة وترك النصف الآخر، ومما يروى في هذا المجال كما في مسند أحمد^(٢) وغيره^(٣) أن أبا هريرة دخل على عائشة، فقالت له: «يا أبا هريرة أنت الذي تحدّث أن امرأة عذّبت في هرّة لها ربطتها لم تطعمها ولم تسقيها؟ فقال أبو هريرة: سمعته منه - يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم - فقالت عائشة: أتدري ما كانت

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٤٥، بحار الأنوار ٤١: ٢٥.

(٢) مسند أحمد ٦: ٢٩٩.

(٣) المستدرک علی الصحیحین ٣: ٥١٣، تحفة الأحوذی ١: ٢٦١.

المرأة؟ قال: لا. قالت: إن المرأة مع ما فعلت كانت كافرة، إن المؤمن أكرم على الله من أن يعذبه في هرة، فإذا حدثت عن رسول الله ﷺ فانظر كيف تحدثت».

فهذا قد أخذ نصف الحديث وترك النصف الآخر المهم الذي بسببه عذبت المرأة.

وكثير من النساء قد قمن بدور كبير وفعال في الحركات الإصلاحية لا يقل عن دور مجموعة من الرجال، كما يقول الشاعر:

فلو كان النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال^(١)

فالمشرع الإسلامي أعطى للمرأة دوراً كما للرجل، غاية الأمر أنه يختلف باختلاف الميادين، وفي الحديث الشريف: «النساء شقائق الرجال»^(٢) أي أنهن يمثلن شطر المجتمع، فإذا كان للرجل دور خارج الدار فإن المرأة لها دورها داخل الدار^(٣).

أمّا معنى «ناقصات حظ»، فهو أن البيئة الاقتصادية لاتنيط بالمرأة شيئاً من التكاليف، بل إن الرجل هو المسؤول عن تكاليف الحياة، والمرأة مكفولة؛ ولذلك فإن الإسلام يعطيها نصف الميراث بهذا الاعتبار، في حين أن الرجل ينفق ما يحصل عليه من نصيبه في الميراث.

وأمّا معنى «ناقصات إيمان»، فالصلاة من الإيمان، فأنا حينما أصلي

(١) شجرة طوبى ١: ٢٤٩.

(٢) مسند أحمد ٦: ٢٥٦، سنن أبي داود ١: ٥٩ / ٢٣٦.

(٣) قال أمير المؤمنين عليه السلام: «جهاد المرأة حسن التبعل». الكافي ٥: ٩ / ١، الفقيه ٣:

٣٨٩ / ٤٥١٨، شرح نهج البلاغة ١٨: ٣٣٢، ونسبه في كنز العمال ١٦: ١٤١ / ٤٤١٧٣،

لرسول الله ﷺ.

ركعتين فإن إيماني يزداد، والمرأة تضطرّ في أيام عاداتها الشهرية لأن تترك الصلاة، وكذلك في النفاس؛ فتكون من هذه الجهة أقلّ حظاً في الإيمان من الرجل. لكن هذا لا يعتبر نقصاً، فلو رجعنا للروايات الواردة لرأينا فيها نوعاً من توزيع الأدوار وتحديدها، وليست المسألة مسألة تفضيل ابداً.

ولذلك عالج القرآن هذه المسألة بالنصّ وبسيرة حملة القرآن؛ فهم نوافذ على القرآن؛ ولذلك فإن جملة من المذاهب الإسلامية تعتبر رأي الصحابي مصدراً من مصادر التشريع، وتعتبر رأي الصحابي رأي الإسلام؛ لأنه عاصر الشريعة وعاش مع الرسول ﷺ، ورأى سيرته.

وعليه فالإسلام لا يعاملها معاملة الجاهلية، بل يعتبر الجنة تحت أقدامها^(١)، ويكرّمها غاية التكريم. لكن بعض الناس يقول: ينبغي توفير متطلبات الحياة المعاصرة للمرأة، فالإسلام لا يوفر ذلك لها. فما هي متطلبات الحياة المعاصرة؟ إن متطلبات الحياة المعاصرة حوّلت المرأة إلى غريزة، والإسلام ينشئ المرأة كموقفٍ وليس كغريزة، وهي في ذلك سواء مع الرجل. وهناك فرق بين الموقف والغريزة.

أما الحضارة المعاصرة فالمرأة في نظرها مجرد غريزة، فهي تراها دمية جميلة يتلّهى بها الرجل، ويأخذ منها وطره ثم يرميها. في حين أن الإسلام ينظر إليها نظرة الندّ للندّ مع الرجل، ويتعامل معها بالمعاملة نفسها معه، ويرى أن الغريزة لامتداد النوع لا أكثر. فلا يتصور أنها تمارس حرّيتها في الحضارة المعاصرة، لا بل هي فيها عبارة عن

(١) مستدرک وسائل الشيعة ١٥: ١٨٠ / ١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١: ١٠٢ / ١١٨، ١: ١٠٣ / ١١٩، كنز العمال ١٦: ٤٦١ / ٤٥٤٣٩، ميزان الاعتدال ٤: ٢٢٠.

قطعة تبدل كل حين مع أنها هي الوسيلة لخلق المجتمع الطيب والأولاد الصالحين فيه.

فمعطيات الحضارة المعاصرة لم تكرم المرأة كما كرمها الإسلام، فها نحن نلاحظها تكدح صباحاً ومساءً لغرض الحصول على رغيف الخبز في حين أن الإسلام يعتبرها مكفولة، وينيط الكدح والتعب بالرجل، ويفرغ المرأة لتربية الأسرة والقيام بأعمال لاتنافي فطرتها وأنوثتها ولم يحتقرها. يقول أحد شعراء الإسلام:

نحن كالماء والهواء لحيي بنية الحي ماؤهُ والهواء
إن نأى بعضنا عن البعض فالأر ض على كل ما بها صحراء

فالمراة شقيقة الرجل لتستمر الحياة الكريمة.

المبحث الثالث: معنى وراثة النساء

نرجع للآية، فقولهُ: ﴿لَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾، فهنا صورتان: الصورة الأولى: أن العرب كانوا إذا مات الرجل منهم فإن أولياءه (وهم أخوة الرجل أو أبناء عمه أو أبناؤه من زوجة أخرى) يأخذون ميراثه، ومن جملة الميراث المرأة. ولو كان عنده ابن من زوجة ثانية فإنه يلقي رداءه على المرأة فيمنعها. وهو هنا له معها أحد ثلاثة أمور:

إما أن يتزوجها وهذا ما يعبر عنه بنكاح المقنت الذي ورد فيه النهي: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾^(١). وإنما حرّمه الشارع المقدّس لما يترتب عليه من مفسد كبيرة منها عدم احترام الأب، وتحول الأسرة إلى بؤرة من بؤر الانحلال الخلقي؛ لذلك فإن الإسلام كرم موطوءة الأب بالأل يدنو منها

(١) النساء: ٢٢.

الولد. فكانوا يرثون المرأة وفق هذه الظاهرة كما يرثون المتاع.
وإما أن يزوجهما من يحبّ وإن لم ترغب هي فيه، ويأخذ هو مهرها
المجعول لها مقابل نكاحها، ولا حقّ لأحد غيره فيه.
واما أن يمنعها من الزواج نهائياً.
 فجاء الإسلام وخاطبهم بأنهم أصبحوا مؤمنين؛ فلا يحلّ لهم أن يرثوا
 النساء كرهاً.

الصورة الثانية: لو أن امرأة يموت أبوها ويورثها ميراثاً ضخماً، فإنهم
 يمنعونها من الزواج بحجة أنها لو تزوّجت فستنقل ثروتها إلى زوجها،
 وهذا معناه إخراج الثروه إلى نطاق آخر. فكانوا يحجرون عليها
 ويعضلونها ويمنعونها من الزواج ثم يأخذون أموالها. وهذا كان منتشرأ
 بينهم، فلما جاء الإسلام نهاهم عنه: **﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾**.
 والقرآن الكريم يُشعّ منه جانب خلقي، فإنه يريد أن يقول لهم: إن المرأة
 ليست من جملة الميراث، بل هي آدمي ولا تقيّم بالمال، لا كما يراه بعض
 المذاهب الاجتماعية المعاصرة التي إذا مرت بالإنسان فإنها تعبّر عنه بأنه
 (ثمن + رأس مال). وهذا يعتبر أمراً غليظاً ليس فيه شفافية ولا تكريم
 للإنسان، والله قد كرم بني آدم^(١). والإنسان إذا قتل تؤخذ لوليّه الدية،
 فالدية عملية تأديب وعقاب، وهي ليست تثميناً للإنسان. وهذا هو
 مضمون الوثيقة التي أعلنها النبي ﷺ حول حقوق الإنسان عندما حجّ
 حجة الوداع، حيث قال وهو على المنبر: **«يا أيها الناس، أي يوم هذا؟»**. قالوا:
 يوم حرام. ثم قال: **«يا أيها الناس، فأى شهر هذا؟»**. قالوا: شهر حرام. ثم قال:

(١) قال تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾** الإسراء: ٧٠.

«أيها الناس، أي بلد هذا؟». قالوا: بلد حرام. قال: «فإن الله عز وجل حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه. ألا فليبلغ شاهدكم غائبكم: لا نبيّ بعدي ولا أمة بعدكم»^(١).

وقيل لأبي عبد الله عليه السلام: حديث يروى عنك؟ قال: «وما هو؟». قيل: «إن حرمة المؤمن أعظم من حرمة هذه البنية». قال: «قلت ذلك، إن المؤمن لو قال لهذه الجبال: أقبلني أقبلت»^(٢).

وهكذا نرى أن حرمة المؤمن أعظم من حرمة الكعبة؛ فالإنسان ثمرة الوجود وسيد الكائنات، ولا يُقيّم بالمادّة.

﴿كَرْهًا﴾ أي أن فيه نوعاً من الإكراه والإجبار والابتزاز، من حيث إنهم يعتبرونها كائناً ضعيفاً لا حول له ولا قوة. وفي الحديث الشريف: «ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم»^(٣).

ويقول الإمام علي عليه السلام في وصيته للإمام الحسن عليه السلام: «وظلم الضعيف أفحش الظلم»^(٤).

فأفحش الظلم أن تظلم ضعيفاً. والحال أن المرأة غير ضعيفة، لكنها كان ينظر إليها كذلك.

المبحث الرابع: ما معنى العضل في الآية؟ ومن المخاطب بها؟

ولنا أن نسأل: ما هو المقصود بالعضل في قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَا

(١) الخصال: ٤٨٧، عوالي اللآلي ١: ١٦١ / ١٥١، بحار الأنوار ٢١: ٣٨١، مجمع الزوائد ٣: ٢٠، صحيح ابن خزيمة ٤: ٢٩٩، المنتقى من السنن المسندة (ابن الجارود النيسابوري): ٢١٢.

(٢) انظر: الاختصاص: ٣٢٥، بحار الأنوار ٤٧: ٩٠.

(٣) الجامع الصغير ١: ٦٣٢ / ٤١٠٢، كنز العمال ١٦: ٣٧١ / ٤٤٩٤٤.

(٤) نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

تعضلوهم؟ وهل الخطاب موجّه فيها للأولياء أم للأزواج؟ العضل هو المنع، والمفسرون حول هذا فريقان:

الأول يقول: إن الخطاب للأولياء، حيث إن بعض الأولياء يعضلهم بدون قصد، فمثلاً ينتظر شخصاً يحمل صفة الملائكة من وجهة نظره حتى يزوجه ابنته، بحيث يكون له رصيد مالي وثقافي، ومن أسرة محترمة، إضافة إلى مجموعة كبيرة من المقترحات والامتيازات. صحيح أنه لا بدّ من الرجل المناسب «ابنتك كريمتك» ويجب أن تخطب لها مثلما تخطب لابنتك، لكن مع مراعاة الأصول، وهي أنه إذا توفّرت حدود الكرامة فهي كافية في الموافقة على هذا القادم: «من جاءكم ممن ترضون دينه وزوجوه»^(١). وهذه نقطة الكفاءة، أمّا أن يضع الإنسان شروطاً خيالية فإنه سيؤدّي بذلك إلى فساد المجتمع.

وهذا نوع من أنواع العضل حيث إنك تعضلها أن تتزوج بالكفاءة؛ لأن تصوّرك أن هذا الكفاءة لا يناسبك ولا يصل إلى مستواك هو تصوّر خاطئ، ثم إنه ما مستواك أنت؟ كان مالك بن دينار من الأولياء المعروفين المتديّنين، فرأى شخصاً من أسرة استقرائية محترمة - وهم آل المهلب - يمشي مشية غير طبيعّية، فقال له: لو تركت هذه المشية لكان أليق بك. قال له: أو لست تعرف من أنا؟ قال: بلى. قال: كيف تعرفني؟ قال: أولئك نطفة مذرة، وآخرك جيّفة قذرة، وأنت ما بينها تحمل العذرة^(٢).

(١) الكافي ٥: ٣٤٧ / ٢ - ٣، الفقيه ٣: ٢٩٣ / ٤٣٨١، كنز العمال ٦: ٤٥٩ / ٤٥٤٢٧.

(٢) وهو كلام مقتبس من حكيم أمير المؤمنين عليه السلام، يقول فيه: «ما لابن آدم والعجب؛ وأوله نطفة مذرة، وآخره جيّفة قذرة، وهو بين ذلك يحمل العذرة؟». عيون الحكم والمواعظ (علي بن محمد الليثي الواسطي): ٤٧٩.

فوراءك الموت والقبر، وماذا سيحصل لجثتك بعد ذلك: ﴿الْم نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾^(١)؟

فنهايتك هي القبر، وستذهب المحاسن والعيون، وستعبت بالجسم
ديدان الأرض والهوام، ويحولك التراب إلى نوع مؤلم:

أعفر الثرى يالْف برج مكوكب يضم الوجوه الزهر فضل نقابه

يقول الخيام في إحدى رباعياته ما معناه: إن تجل يد الربيع وكف
السحب خد الأزهار فابتدر للشرب فإنها ستزدهي غداً بالعشب من
جسمك.

فهذه الخضرة التي تجلوها يد الربيع هي عبارة عن أجزاء من جسمك
قد تحوّلت إلى خضرة، فهو حدود وسواعد وعيون، فلماذا هذه الغطسة
والخيلاء؟ فالإنسان أخو الإنسان. فالآية تهيب بالأولياء ألا يكونوا سبباً
في الفساد بحيث يكثر العوانس والعزّاب.

الثاني ويقول: إنه خطاب للأزواج، فالزوج يعضل الزوجة - أي يكرهها -
ويستخدم معها المضارّة، بحيث ينغص لها عيشها؛ فلا يطلقها ولا
يعاملها بإحسان. فهذا نوع من أنواع العضل.

فالقرآن يقول لهم: إن كنتم تؤمنون بالله فإنّ هذا الفعل منكم جاهلي:
﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ﴾ فالبعض عنده زيادة في الخسّة،
فيستخدم هذه القسوة حتى تتخلّى عن المال الذي أعطاه إياها، وتتنازل
له عن حقّها دون أن يعرف أن هذه العلاقة وهذه العشرة يجب أن تنحو
منحى كريماً، وإنما يتصوّر أنها تقوم على النفع المتبادل.

(١) المرسلات: ٢٠.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾، ففي الوقت الذي أكد القرآن على حفظ حقوق المرأة، أراد أن يحفظ المعادلة فقال: إذا جاءت المرأة بفاحشة مبينة فيحق لك أن تعاملها معاملة غير طبيعية.

المبحث الخامس: معنى الفاحشة المبينة

والفاحشة المبينة فيها ثلاثة آراء:

الأول: أنها الزنا^(١)، والحجر الذي ينزل لهذا المستوى حجر غير نظيف. فالمرأة في هذه الحالة تفارق وتطلق ويضيق عليها زوجها حتى يأخذ منها ما أعطاها. ويوجد رأي للإمام مالك بأن يأخذ منها جميع ما عندها^(٢)، ورأي آخر أنه يأخذ منها بعض ما أعطاها^(٣).

الثاني: أنها سوء العشرة^(٤)، أي تنعص عيشه دائماً، فليس عندها أخلاق تجامله بها، ولا تقضي أموره، وتظهر عدم الطاعة. وبهذا تصير جو البيت جحيماً؛ ولذلك شرع الله الطلاق. والطلاق ليس سهلاً فهو يهتزله العرش^(٥)، لكن إذا تعدرت الحياة الكريمة فمن حق الإنسان أن يأخذ بطريق الطلاق^(٦).

الثالث: أنها البذاء^(٧)، أي اللفظة النابية والكلمة التي تجرح الزوج؛ سواء كان بوجهه أو من وراء ظهره. وهذا ليس أفق أسرة محترمة، فالمفروض

(١) الفقيه ٣: ٣٢٢ / ١٠، إكمال الدين: ٢٥٤، صحيح مسلم بشرح النووي ١٠: ١٠٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥: ٩٥، تفسير الثعالبي ٢: ١٩٥، فتح القدير ١: ٤٤١.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١: ٤٧٧.

(٤) التفسير الصافي ١: ٤٢٤، الحقائق الناضرة ٢٥: ٥٢٧.

(٥) مكارم الأخلاق: ١٩٧، مجمع البيان ٥: ٣٠٤، وسائل الشيعة ٢٢: ٨ - ٩ / ٢٧٨٨٠.

(٦) وما حيلة المضطرّ إلا ركوبها. بحار الأنوار ٤٦: ٣٦٩.

(٧) مجمع البيان ١٠: ٣٠٤، الأم ٥: ٢٥٢، المجموع ١٨: ١٧٨.

أن يكون الاحترام متبادلاً بين الزوجين، كي ينشأ الأطفال على الأخلاق الكريمة^(١).

ثم انتقلت الآية ﴿وَعَاثِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، فإذا كانت أجواء الانسجام مخيِّمة على الأسرة فبوسعك أن تعاملها بمعروف، دخل رجل على رسول الله ﷺ فقال له: يارسول الله، أخطب المرأة الجميلة أو ذات الدين أو ذات المال؟ فقال ﷺ: «اظفر بذات الدين تربت يداك»^(٢).

وكذلك بالمقابل علينا بصاحب الدين؛ فإنه إذا أحبَّ المرأة أسعدها، وإذا كرهها لم يظلمها؛ ذلك أن الذي عنده دين سيخضع لضوابطه ويتبناها، ولا يسيء العشرة. فالقرآن الكريم يأمر بالعشرة الكريمة؛ لأنَّ الطفل بحاجة إلى أجواء كريمة ليعيش فيها. هذا مفاد الآية.

المبحث السادس: دور المرأة في واقعة كربلاء، زينب أنموذجاً

إذن أمر القرآن بمعاملة المرأة على أساس المساواة؛ وقد رأينا نمطاً من النساء لعب دوراً مشرفاً في التاريخ، وسوف نعطي لمحات عن أخت الحسين زينب ؑ؛ المرأة التي لعبت دوراً كبيراً في معركة الطف، فإنَّ عائلة الحسين ؑ التي أخرجها معه تبلغ (٢٤٠) نسمة، أوكلت رعايتها إلى أخته العقيلة زينب ؑ.. وهذه المرأة تحمل ميراثاً ضخماً؛ فعندها ميراث للكفاح ولتحمل أعباء الحياة ورثته من جدتها خديجة التي وقفت إلى جانب النبي ﷺ ومسحت ألمه وأفاضت عليه من حنوها، وجنّدت كل طاقتها وما لديها من مال ومكانة اجتماعية في سبيل إنجاح دعوته،

(١) واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله من الزنا والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك.

فهذا رأي رابع. انظر تفسير القرآن العظيم ١: ٤٧٧.

(٢) الكافي ٥: ٣٣٢ / ١، مسند أحمد ٢: ٤٢٨.

فوقفت إلى جانبه إلى أن أدّى رسالة ربّه. وقد عبر النبي ﷺ عن العام الذي الذي فقد فيه زوجته خديجة الكبرى وعمّه أبا طالب (رضي الله عنهما) بعام الحزن^(١)، حيث إنه ﷺ فقد فيه عمادين.

وأمّ زينب فاطمة ؑ التي كافحت عن الفكرة وهي في عمر الورد، ووقفت إلى جانب الإمام علي ؑ. فهذه أسرة زينب التي انبثقت عنها شجاعة وخلقا ومواقف. وهذه المرأة تحمل التضحية في كيانها؛ فقد رُبيت مع الحسين ؑ في بيت واحد، ولم يفصل بينهما إلا سنة في الولادة، وحتى بعد زواجهما من ابن عمّها عبد الله بن جعفر لم تفرق عنه. وكان بيتها من أضخم البيوت، وقد عرضت عن هذه النعمة، وكان معها ولداها محمد وعون في الطّف، وقتلا مع خالهما الحسين ؑ.

ولما انتهت واقعة الطّف وقتل الشائبان، وبلغ عبد الله بن جعفر بن أبي طالب مقتلها مع الحسين ؑ دخل عليه بعض مواليه - والظاهر أنه أبو اللسلاس - والناس يعزّونه فقال: هذا ما لقينا ودخل علينا من الحسين، قتل أبناءنا. فخذفه^(٢) عبد الله بن جعفر بنعله ثم قال: يا بن اللخناء، أللحسين تقول هذا؟ والله لو شهدته لأحببت ألا أفارقه حتى أقتل معه. والله إنه لممّا يسخي بنفسيه عنهما ويهوّن عليّ المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخي وابن عمّي، مواسيين له، صابرين معه. ثم أقبل على جلسائه فقال: الحمد لله عزّ وجلّ على مصرع الحسين إن لا تكن آست حسينا يداي فقد آساه ولداي^(٣).

(١) إعلام الوريّ ١: ٥٣، الدرجات الرفيعة: ٤٠٩، شجرة طوبى ٢: ٢٣٦، لسان العرب ١٣:

١١٢ - حزن. (٢) خذفه: رماه. المعجم الوسيط: ٢٢٢ - خذف.

(٣) شرح الأخبار ٣: ٢٠٣، الإرشاد ٢: ١٢٤، بحار الأنوار ٤٥: ١٢٤، الغارات (الشفقي) ٢:

وهكذا ضحّت زينب عليها السلام ببيتها وأولادها، والتاريخ لم ينقل لنا أنها ذكرت أولادها عندما نزلت للساحة، وإنما نقل لنا أنها كانت تذكر الحسين عليه السلام. وقد مرّت بمواقف تُهدّ منها الجبال، مع أن المرأة رقيقة إذا رأت مصرع أحدهم أهلها فإنها تهّد. فهذه المرأة تقف ما بين تلك المصارع يوم الطّف ولم يبدُ عليها شيء من الانهيار، وكانت غاية في الصلابة. وهذا هو الغرض الذي أراد الحسين عليه السلام إيصاله للذين اعترضوا عليه بالقول: لماذا تُخرج عائلتك. كان يقول لهم: «قد شاء الله أن يراهن سبايا»^(١). ولو لم تقف زينب هذا الموقف لاندثرت واقعة الطّف.

وقد فوجئت عند دخولها لمجلس يزيد حينما رأت أن بعضهم يتصوّر أنهم خوارج، وقد شرحت لهم هذه النقطة، وبينت لهم بأنهم ليسوا بغاة وإنما هم أهل بيت النبي محمد صلى الله عليه وآله، وأنهم حملة الدعوة، والبيت الذي جمع بين زعامة الدين والدنيا؛ ولذلك قالت له: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء؛ فأصبحنا نساق بين يديك كما تُساق الأسارى أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطر عند جليل قدرك لديه، فشمخت بأنفك ونظرت بعطفك جذلاً مسروراً حتى رأيت الدنيا لك مستوسقة، والأمور لك متسقة؟ فمهلاً مهلاً، لاتطش جهلاً، أنسيت قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَخْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمَّا نُمَلِّ لَّهُمْ خَيْرًا لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٢)؟

٦٩٥، تاريخ الطبري ٤: ٣٥٧، عمدة الطالب: ٣٧.

(١) مختصر بصائر الدرجات: ١٣٢، المحتضر: ٤١، اللهوف في قتلى الطفوف: ٤٠، بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٤، ينابيع المودة ٣: ٦٠. (٢) آل عمران: ١٧٨.

أمن العدل يابن الطلقاء تخديرك حرائرك وإماءك، وسوقك بنات
رسول الله ﷺ سبايا قد هُتكت ستورهن وأبديت وجوههن؟^(١) يقول
أحد الأدباء:

ومن هي بالسبئي لكنها	تمرغ من جبهة المستبي
تقول له ادع فمهما دعوت	وبارز بمالك من منصب
ستفني ويفني دوي النفير	وماحتشد الزيف من موكب
وتبقى هنا دور آل النبي	مخضبة بالشذا الأطيب

فهذا الذي حدث، حيث وقفت إلى جانب الحسين عليه السلام، ووقفت في
وسط المجلس تخطب إلى أن أنهت خطبتها. وسمعت زوجة يزيد^(٢)
صوت زينب، وكانت واقفة وراء الستار عندما كانت زينب عليها السلام تخطب،
وكانت تعتقد أن هؤلاء هم حقاً من الخوارج، لكنها أدركت أنها تعرف
صوت هذه المرأة، فهو صوت مألوف لديها وليس صوت أحد من
الخوارج.



(١) الاحتجاج ٢: ٣٥، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٠٦، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٤، ١٥٨.

(٢) وهي هند ابنة عبد الله بن عامر بن حرب، وهي وأبوها عبد الله ممن أقر للإمام علي عليه السلام
بولايته، وقد عاشت هند فترة في بيت أمير المؤمنين عليه السلام حيث استودعها أبوها عنده، وقد
تزوجها يزيد.

الفصل السادس
جهاد المرأة

دور المرأة الصالحة في بناء المجتمع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَخَنْتِ أَنَا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

تتضمن هذه الآية الكريمة مباحث عدة سوف أعرض لها تباعاً إن شاء الله تعالى بعد ذكر مقدمة ممهّدة لذلك.

مقدمة: في ثقل المرأة

ورد في الأثر الشريف: «ليس لامرأة؛ لا لصالحتهن ولا لطالحتهن؛ أمّا صالحتهن فليس لها خطر الذهب ولا الفضة، وأمّا طالحتهن فليس لها خطر التراب، والتراب خير منها» (٢). ومعنى «خطر»، أي قيمة، وأمّا قوله ﷺ: «فليس لها خطر الذهب ولا الفضة»، أي أن قيمتها أكبر من الدنيا؛ فهي لا حدّ يقف عند ثمنها. ونريد بالمرأة الصالحة: المرأة الطيّبة الجامعة للشروط التي

(٢) دعائم الإسلام ٢: ١٩٥ / ٧٠٧.

(١) ص: ٤٤.

رسمها الشارع المقدّس، حيث تصبح حينئذٍ لا حدود إزاء ثمنها. أما الطالحة فلا ثمن لها، وهي لن تعدل شيئاً ذا قيمة وإن صغر أبداً؛ ذلك أنها عادة تكون خارج حدود الشرع ونطاقه وآدابه، فتصبح متعبة لمجتمعها ولزوجها من قبل.

وبهذا الاعتبار فإنها لا تعدل شيئاً إطلاقاً ممّا يمكن أن يكون ذا قيمة وإن صغر. وهذه القصة التي تناولها القرآن الكريم في آية المقام تدور حولها مباحث ترتبط ارتباطاً مباشراً بهذا الموضوع الذي ذكرته لك، وهو موضوع المرأة. وكما هو معلوم وواضح للقارئ فإن الآية الكريمة تدور حول النبي أيوب عليه السلام وقصة ابتلائه ومرضه. وهي قصة أشار إليها القرآن الكريم على نحو الإجمال، لكن كتب التفسير على العادة حينما تناولتها تفسيراً وتاريخاً، فقد أدخلت فيها الغث والسمين في تحديد معالمها وخبوطها. ولهذا فإننا نقول: إن هذه التفاصيل المذكورة في كتب التفسير لا علاقة لنا بها؛ لأنها ليس لها سند أو مدرك يمكن أن تستند إليه. وسوف نتناول هذه الأمور بما يسمح به المقام ويقتضيه في مباحث متعدّدة إن شاء الله تعالى:

المبحث الأول: في مرض النبي أيوب عليه السلام

إن الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم والتي لا يمكن إلا أن تكون كذلك هي أن محنة النبي أيوب عليه السلام قد استمرّت فترة طويلة معه؛ فهي على بعض الروايات قد طالت ثمانين سنة حتى أصبح جسمه كأنه الثوب البالي، إذ أنه كان كتلة من القروح والجروح، وحتى تساقط شعره. وقد جفّت قروح جسمه، فكان عليه السلام لا يقوى على التحرك. كما أنه عليه السلام ابتلي

كذلك بالفقر ابتلاءً شديداً؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى قد سلبه كل ما أنعم عليه به من ضرور وزروع، وهو ما اضطرَّ زوجته «ليا» ابنة يعقوب معه - وكانت من الصالحات - إلى أن تعمل لتأتي بقوتها وقوت زوجها. ولصعوبة الوضع المعيشي آنذاك، وصعوبة حياة العمل والحصول على فرص عمل كانت تحصل على ذلك القوت عن طريقه بعد لأي وشدة، فكانت لا تكاد تحصل على عمل إلا بعد إصرار منها على البحث الدائب عنه؛ كي تعيل زوجها عليه السلام وكي تقوّته.

ومن نتائج هذا الظرف أنها اضطرت في إحدى المرات بعد أن لم تجد عملاً في ذلك اليوم أن تدخل إلى البيت وتقص ضفائرها وتبيعها؛ لتأتي لزوجها بطعامه. لكنه عليه السلام حينما وضعت له الطعام لمحها فلم يرَ شعرها، وحينما سألها عن جلية الأمر أجابته بأنها قد باعته لتحضر له به طعاماً، وهنا أقسم النبي أيوب عليه السلام على أن يجلدّها مئة جلدة. هذا هو ملخّص القصة التي تدور حولها الآية الكريمة.

المبحث الثاني: الملابس التي ترتبط بآية المقام

وبعد أن استعرضنا القصة التي وقعت للنبي أيوب عليه السلام إجمالاً وبشكل موجز كما أشار إليها القرآن الكريم، لا بدّ هنا من أن نمرّ بمجموعة من الملابس التي ترتبط بهذا الموضوع من قريب أو من بعيد؛ وذلك وفق التسلسل التالي:

الملبسة الأولى: هل توحى الآية الكريمة بحيلة شرعية؟

تقول الآية الكريمة: ﴿وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرَبَ بِهِ﴾، والضغث هو عبارة عن عذق التمر، وهذا العذق بطبيعة الحال يحتوي على عيدان قد يصل

عددها إلى أكثر من مئة عود. وهنا في هذه الآية الكريمة إشارة إلى ما ارتأى الفقهاء أن يسموه حيلة شرعية يفتون بموجبها بأن يُضرب من وجب عليه الحدّ مئة جلدة أو أقل من ذلك وكان مريضاً لا يحتمل الضرب بأن يؤخذ مثل هذا الضغث ويضرب به؛ لأن هذه حيلة شرعية قد أقرّها الشارع المقدس عبر هذه الآية الكريمة. والغرض من اللجوء إلى هذه الحيلة هو عدم تعطيل حدود الله سبحانه وتعالى بسبب مرض الشخص المراد حدّه، أو عدم تمكّنه من تحمّل الحد، بحيث إنه يؤدي به إلى الموت؛ لطبيعة جسمه.

الحيل وأقسامها

وما دمنا قد مررنا بهذا الموضوع فإننا نودّ أن نبيّن عرضاً أن الحيل تنقسم إلى قسمين، هما:

الأول: الحيل الشرعية التي يقرّها الشارع المقدّس ويجيز التعامل بها.
الثاني: الحيل غير الشرعية، والتي لا يقرّها الشارع المقدّس ولا يجيز التعامل بها. مع أن هناك بعضاً من الفقهاء يجيز التعامل بالحيل كافة مادامت من الممكن أن تدخل في نطاق الحيل الشرعية ولو مع التعمّل.

نماذج من الحيل غير الشرعية

وهذا الأمر طبعاً لا يمكن قبوله، ولا يجوز استعماله، ومن هذا - الحيل غير المشروعة - أضرب بعض الأمثلة؛ ليتّضح للمتلقّي حقيقة هذه الحيل، وكيف أن فيها استخفافاً بالأحكام الشرعية وبالشارع المقدّس:

الأولى: حيلة التهرب من الحقوق

فبعض الأشخاص مثلاً حينما تقارب الزكاة أن تجب عليه - ومعروف

أن شرطاً من شروط تعلّق الزكاة هو أن يحول عليها الحول كالأنعام والغلات والنقدين - وأراد أن يحتال ليتخلّص من دفع زكاة أمواله فإنه يعمد إلى هبتها إلى شخص قريب منه كابنه أو زوجته مثلاً قبل أن يحول عليها الحول وهي عنده، فإذا ما مرّ الحول وابتدأ حول جديد استعادها منه كيلاً تؤخذ منه الزكاة على تلك الأموال التي كانت عنده.

الثانية: حيلة المرأة المختلعة

ذلك أن بعض النساء يحاولن أن يختلعن من أزواجهن (والاختلاع هو أن تبذل المرأة مالاً لزوجها في سبيل أن يطلقها، فإذا فعل فقد بانت منه)، فإذا أبى أزواجهن أن يخالعهن فلهن حينئذٍ يبقين زوجات مرتبطات بهن. وهنا يتدخّل البعض فيقول: إن هناك حيلة شرعية يمكن لهذه المرأة أن تطلّق من هذا الزوج دون أن تبذل شيئاً من الأموال عبر المخالعة؛ وذلك أنها تعلن ارتدادها عن الإسلام، فإذا ما فعلت ذلك فقد بانت منه بينونة كبرى بشكل تلقائي، ثم بعد ذلك تعود إلى الدين الإسلامي. وبهذا فإنها تحافظ على دينها، وتتخلّص من زوجها الذي يأبى أن يطلقها.

وهذا في واقع الأمر تصرف غريب وشاذ، ولا يمكن القبول به مطلقاً؛ فعلى مستوى المتخلّف عن دفع الحقوق فإننا نقول: إن الإنسان إنما يتعامل مع الله تبارك وتعالى وليس مع إنسان عادي، ومعلوم أنه سبحانه وتعالى لا يمكن أن تغيب عنه هذه الأشياء أو هذه التصرفات، أو طريقة اللجوء إلى هذه الحيل. والإنسان عندما يريد أن يتهرّب من دفع الحقوق الشرعية المفروضة عليه والتي أكّدها الشارع المقدس عبر هذه الطريقة الملتوية فإنه يجب عليه أن يعلم أنه إنما يتعامل مع إله عالم محيط بكلّ

الأشياء التي يفعلها، بل بالوجود بأسره وبالكون كلّ؛ وبهذا فإنه تبارك وتعالى لا يمكن أن تغيب عنه مثل هذه التصرفات، أو مثل هذه الحيل .
وإذا كان الأمر كذلك - وهو أن الهدف منصب على التهرّب من أداء الحقوق - وهذه الحقوق مما يجب دفعه - فإن هذا الإنسان يجب أن يعلم بأنه غداً سوف لن يخلصه شيء من الله عزّ وجلّ إذا ما عُرض على الحساب .

وخلاصة القول هي أن الله تبارك وتعالى يعلم مثل هذه التصرفات، فهي لا يمكن أن تغيب عنه ولو للحظة؛ وعليه فإن هذا التصرف لا يمكن قبوله أبداً .

وأما بالنسبة للمرأة التي تؤمر بالارتداد عن الدين، فإن هذه الوسيلة التي يراد منها تخليص المرأة من الزوج هي وسيلة محرّمة، ومعلوم أن الطريق المحرّم أو المقدمة المحرّمة تؤدي إلى نتيجة محرّمة. وهكذا فإذا كان الارتداد أمراً محرّماً عليها فإن ما تفعله بواسطته هو أمر محرّم ولا يمكن أن يقع .

إذن فهذا اللون من الحيل ياباه الشارع المقدّس؛ لأنه محرّم كما ذكرنا، فاللجوء إلى الارتداد عن الدين عمل باطل لا يقوّه الإسلام بحال من الأحوال، وهو وإن كان حيلة، لكنها ليست شرعية، بل إنها ممّا ياباه الشرع إباء كاملاً. وعليه فالحيل التي تكون من هذا النوع لا تصمد أمام الأدلّة ولا أمام روح التشريع؛ فالتشريع له نصوص وألفاظ وروح، فروح التشريع هي روح الحكم وهي غير التمسك بظواهر الأشياء التي عادة يكون الاهتمام منصباً على غيرها.

وبهذا فإننا نخلص إلى نتيجة هي أن هذا اللون من الحيل أو هذا النمط من التصرفات لا يمكن أن يقبل بحال من الأحوال على مستوى التشريع، يروى عن يحيى بن عباد المكي أنه قال: قال لي سفيان الثوري: إني أرى لك من أبي عبد الله عليه السلام منزلة، فسله عن رجل زنى وهو مريض، إن أقيم عليه الحدّ مات، ما تقول فيه؟ فسأله فقال: «هذه المسألة من تلقاء نفسك أو قال لك إنسان أن تسألني عنها؟». فقلت: سفيان الثوري سألني أن أسألك. فقال عليه السلام: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتني برجل مستسقي البطن، قد بدت عروق فخذه، وقد زنى بامرأة مريضة فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعذق فيه مئة شمراخ، فضرب به الرجل ضربة، وضربت به المرأة ضربة، ثم خلّى سبيلهما، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ﴾... (١).

رأي الفقهاء في المسألة

ومن خلال تتبعي لهذه المسألة وجدت أن الفقهاء يقسمون من يراد إقامة الحدّ عليه إلى قسمين، هما:

الأول: أنه ممن يمكن برؤه وشفأؤه من مرضه، وفي مثل هذه الحال يقول الفقهاء: إن للحاكم أن ينتظره إلى أن يبرأ من مرضه، ثم يقيم الحدّ عليه.

الثاني: من لا يمكن برؤه، بل لا يرجى برؤه وشفأؤه ولا يتوقع منه حصول ذلك، فإنه حينئذٍ يلجأ إلى الطريقة التي ذكرناها وهي أخذ ضغث وجلده به حتى لا تعطل الحدود التي أمر الله تبارك وتعالى بإقامتها، ولا

(١) الكافي ٧: ٢٤٣ - ٢٤٤ / ١، مجمع البيان ٨: ٣٦٥.

تسقط عن شخص قد ارتكب جرماً يوجب عليه قيام ذلك الحدّ.

حقيقة الأمر وجليته

وفي واقع الأمر إن اللجوء إلى مثل هذه الطريقة لا يمكن أن نسميه حيلة؛ ذلك أنه في حقيقته يعتبر مرتبة من مراتب الحكم التي ردّد الشارع بينها وبين الجلد كاملاً في حالي الصحة والمرض، وذلك في تفصيل لا يسعه المقام هنا. فالأمر لم يكن حيلة شرعية أبداً وإنما هو أحد أفراد الحكم الشرعي الذي ردّده الشارع بين أن يكون بالجلد بعضاً واحداً مئة جلدة فيما لو كان من يراد أن يقام عليه الحدّ صحيح الجسم سليماً، وبين أن يلجأ إلى طريقة الضغث في حال كون الشخص المراد إقامة الحد عليه مريضاً. ومع ذلك فإننا نجد أن البعض حينما يمر بهذه الآية الكريمة فكأنما يريد أن يثبت بأن هناك حيلة شرعية يمكن الرجوع إليها.

الأثر السلبي للحيلة الشرعية

ونقول في مقام الرد على هذا الأمر: إن الحيل الشرعية غالباً ملاكها تعطيل ملاك الحلال والحرام اللذين أمر بمراعاتهما الشارع المقدّس، وإذا كان الأمر كذلك فليس من المعقول أن يسمح لنا الشارع بأن نعطل ملاك الحكمة من الأحكام التي شرعها لنا، خاصّة إذا عرفنا أن هذه الأحكام مبتنية أبداً على المصالح والمفاسد. فإذا كان الشارع المقدّس قد أوجب علينا أمراً لمصلحة فيه، أو حرم أمراً لمفسدة فيه، فإن من غير المعقول أن يقبل بأن نلجأ إلى حيلة نبطل بها العمل بهذه المصلحة أو الابتعاد عن هذه المفسدة؛ لأنه حينئذ يكون لوناً من العبثية المنزه عنها المقام الأقدس، وخلاف الحكمة التي أرادها الشارع المقدّس، وهو رب

الحكمة. وعليه فإن الشارع المقدّس إذا ما رأى أن تطبيق هذا الحكم (الحيلة الشرعية) سيفوت هدفه فإنه سوف لن يقبله بحال من الأحوال وإن كانت شكلياته محفوظة.

الملازمة الثانية: التشريع الإيضائي في الإسلام

إن الإسلام قد أمضى الكثير من تشريعات الديانات السابقة، والذي يظهر من الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام والتي يرويها الطبرسي في (مجمع البيان) أن هذا الحكم باقٍ وجائز العمل به في الإسلام وإن كان من تشريعات الديانات السابقة^(١)، وذلك أنه لم يرد فيه ناسخ فينسخه. وإذا كان الأمر كذلك فإن الحكم يبقى مستمرّاً، والعمل به يظل باقياً وجائزاً ما لم يرد فيه ذلك الناسخ الذي أشرنا إليه، وهذا هو الذي عليه الفتوى كما مرّ.

المبحث الثالث: أنه ليس هناك من بديل للضرب

إن الآية الكريمة إذ تقول: ﴿وَحُذِّبِيكَ ضِعْثًا فَاضْرِبْ بِهِ﴾ فإنما تشير إلى أنه ليس هنالك بديل لهذا اليمين الذي حلف به، ولهذا السبب فإن السماء أمرته بأن يلجأ إلى هذا الحكم، وهو أن يأخذ عذق نخلة فيه مئة شمراخ فيضرب به امرأته. وهذا يعني أن الكفارة لم تكن موجودة كبديل للوفاء باليمين آنذاك، ولا أقل من أن هذا هو ما يوحي به جو آية المقام الكريمة. ثم إن امرأة النبي أيوب عليه السلام لم تكن في الواقع ذات هدف سيئ، أو لم تفعل شيئاً سيئاً تهدف إليه من وراء بيع شعرها، وإنما كلّ ما كانت تريده هو أن توفر الطعام لزوجها، ولتخفف من آلامه ومرضه. ولذا فإن الحكم جاء بهذا التخفيف عنها؛ لأنها أساساً لم تكن قد ارتكبت معصية تستحق عليها

(١) مجمع البيان ٨: ٣٦٥.

الجلد.

إذن فالموضوع كـلّه من الأساس موضوع رحمة؛ ولذا فإن السماء قد أمرت النبي أيوب عليه السلام بأن يلجأ إلى هذا اللون من العقاب، وأن يستعمله؛ كيلا يحنث بيمينه، وكيلا يسقط ما توعد به زوجته.

مشروعية ضرب الزوجة

واستناداً إلى هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة، وبناء على ما ورد فيه يذهب البعض من الفقهاء أو المفسرين إلى القول بأنه يجوز للإنسان أحياناً أن يضرب زوجته ضرباً خفيفاً من باب التأديب. وللحقيقة نقول: إن هذه المسألة ترتبط ارتباطاً مباشراً بجو التربية الذي يوفره المجتمع للزوج وللزوجة. وبعبارة أخرى فإننا نقول مثلاً: إن المشرع الإسلامي يضع نمطاً معيناً من التربية للمرأة وللأسرة؛ كي يهتدي على ضوئه من أراد أن يسلك طريق الإسلام في تهيئة المجتمع وإعداده وبنائه. فمن أراد أن يعتمد طريقة الإسلام في تربية ابنه وتوجيه زوجته بل وحتى نفسه فإن عليه أن يخضع لضوابط التربية الإسلامية التي وضعها الشارع المقدس في هذا المجال، والتي يجب أن تكون هي المقياس الأول والأهم في تطبيق بنود هذه التربية.

وعليه فإذا ما توفرت أجواء التربية هذه توفراً كاملاً، وعُمل بها عملاً كاملاً، فإنه حينئذٍ لا يمكن أن يصار إلى القول بجواز ضرب المرأة أبداً، يروي البخاري عن نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «بم يضرب أحدكم امرأته ضرب الفحل، ثم لعلّه يعانقها؟»^(١). ذلك أن هذا ليس جواً أسرياً يريده الإسلام؛

(١) صحيح البخاري ٧: ٨٣، السنن الكبرى (البيهقي ٧: ٣٠٥، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ٣٧١ / ٩١٦٦، تعليق التعليق ٥: ٩٣ / ٦٠٤٢، كنز العمال ١٦: ٣٧٧ / ٤٤٩٨٢.

لأنه غير ممتن على ضوابط التربية الإسلامية. ثم إن المرأة أولاً و آخراً ليست حيواناً حتى يمكن أن يقال بأنها يجب أن تضرب، بل ربما إن الضرب يثمر العكس ممّا يراد به. فإذا ما ضربت فإن هذا يعني أن أسلوب التهديد الذي يلجأ إليه زوجها هو أسلوب غير صحيح وغير كافٍ في تحقيق منهج التربية الإسلامية؛ لأن الضرب لا يؤدي إلا إلى نتائج سلبية، وهو لا يؤدي إلى نتائج إيجابية إلا في حالات معينة.

وهكذا فإن الإنسان إذا أراد أن يحترم زوجته، فعليه ألا يلجأ معها إلى مثل هذا الأسلوب. إن الله تبارك وتعالى قد أعطى الإنسان إمكانيات كثيرة، وجعلها تحت يده وتصرفه، وعليه فبوسعه استخدام هذه الإمكانيات كافة في سبيل تحقيق الهدف التربوي الذي يرمي إليه الإسلام؛ وحينئذٍ سوف لن يكون بحاجة إلى الضرب أبداً؛ لأن الضرب لا يمكن أن يحقق الجوُّ التربوي الكريم الذي ينبغي أن يخيم على الأسرة وأن يخلق فيها الانسجام والوئام والوفاق.

إن المرأة - كما يعبر القرآن الكريم - سكن للرجل، وإذا كانت كذلك فلا بد أن يكون هناك تبادل للعواطف بين الزوجين، وهو تبادل يجب أن يكون قائماً على المودة والألفة والرحمة؛ لأنه مامن زوجين إلا ويخوضان في واقع أمرهما تجربة شراكة؛ وهذه الشراكة هي عبارة عن تربية أطفال وإنشاء نشء سليم وجيل صحيح مهذب يعيش الجوُّ الإسلامي، ويتمتع بذهنية سليمة. أما إذا كان الجو الذي يعيش فيه الأطفال والزوج جواً ملغماً فإنه سوف لن تحصل كل تلك الأمور التي يريدها الإسلام أبداً.

فإن يضرب الإنسان زوجته كما يضرب الحيوان لهو معنى تأباه

الشريعة والتربية الإسلامية والإنسانية. إن المفروض هو أن تخاطب المرأة على أنها شريك في الحياة له دوره وله أثره، فتناقش الأمور معها لتبادل الرأي والمشورة بعد أن ينشئها الرجل ويربيها وفق التربية الإسلامية. إن النبي الأكرم ﷺ كان في بعض الحالات يسمع كلمات من بعض نسائه، لكنه ﷺ كان يعالجها معالجة نفسية غريبة، تدل على أنه عظيم قد أدبته السماء بأحسن الآداب، وخلقته بأجمل الأخلاق.

الضرب الشرعي

إذن ليس من المفروض أن تضرب المرأة، مع أن البعض يقول: إن في حالات معينة ينبغي أن تضرب المرأة على ألا يتعدى الضرب رتبة الأدب، أي أنه ضرب تأديبي رمزي، أما أن يترك الضرب أثراً أو دماً أو عاهة، فهذا طبعاً ما لا يقره الإسلام أو الشارع المقدس بحال من الأحوال أبداً، بل إنه يأباه. كما أن الجوّ الأسري نفسه يأباه تماماً؛ لأنه يؤدي إلى خلق عاهة نفسية أو اجتماعية داخل الأسرة، وهو ما لا يريده المشرع الأقدس؛ ذلك أن الإسلام في تربيته يريد أن تكون المشاعر التي تربط بين الزوجين مشاعر رقيقة مرهفة تتأثر بالكلمة الحسنة تأثيراً إيجابياً كبيراً ينعكس بدوره بشكل إيجابي على مضممار التربية التي يخوض فيها، ممّا يعني أن تصبح تلك المشاعر غاية في الرقة.

وعليه فإن على الإنسان ألا يتحوّل مثلاً إلى جوّ من البداوة أو الغلظة، مع أننا حتى لو رجعنا إلى الأجواء البدوية التي كانت سائدة قبل الإسلام وإلى تاريخ الجزيرة آنذاك فإننا نجد أن من النادر أن يضرب الرجل المرأة؛ سواء كانت زوجته أو غيرها. بل إنهم على العكس من ذلك، فقد

كانوا يعتبرون هذا الأمر معيباً جداً.

وعلى أية حال فإن بعضاً من المفسرين يستفيد من هذه الآية الكريمة جواز تأديب الزوج زوجته بشيء من الضرب الذي لا يتعدى حدود الأدب. لكن في واقع الأمر هذا في النفس منه شيء، أي أنه ليس من المفروض أن تصل الأسرة إلى مستويات الضرب، بل يجب اللجوء إلى معالجة المشاكل عبر النقاش واللسان والتربية والرعاية، وإن فشل كل ذلك فالمقاطعة والهجر. أي أن هناك وسائل أخرى يمكن أن يستعملها الإنسان دون أن تصل المسألة معها إلى حدود الضرب^(١).

المبحث الرابع: في بعض شطحات الصوفية

تقول الآية الكريمة: ﴿ازْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾، وعلى ضوء هذه الآية الكريمة فإن البعض من الصوفيين حينما يمر بقصة النبي أيوب عليه السلام، ويقرأ كيف أن الله تبارك وتعالى أورد أن يبرئه حيث قال له: ﴿ازْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾، فإنهم يذهبون إلى أن معنى ﴿ازْكُضْ﴾: ادفع أو اضرب، أي ادفع برجلك الأرض أو اضرب برجلك الأرض. وفي هذا الأمر دلالة على جواز الإيقاع والرقص^(٢). وأذكر أن أبا الفرج الجوزي عندما يمر

(١) ليس غرض المحاضر عليه السلام هنا هو رفع حكم الضرب الوارد في الآية الكريمة (٣٤) من سورة النساء، والتي تقول: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾، بل إنه يريد أن على الزوج عبر بناء شخصية زوجته بناء إسلامياً صحيحاً ألا يصل معه الأمر في تعامله معها إلى حدود الضرب الذي هو المرتبة الثالثة من مراتب التأديب التي تبيته إليها الآية الكريمة موضع الحكم. وهذا يعني أن على الزوج أن يستعمل الأنموذج الإسلامي في التعامل مع الزوجة، ونهج السماء في تربيتها، فإن كان كذلك لم يكن بحاجة حينها إلى أن ينتقل إلى المرحلة الثالثة من مراتب التأديب التي تقررها الآية الكريمة، وهي مرحلة الضرب.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٥: ٢١٥، المجموع شرح المهذب ١٨: ٨٣.

هنا بهذا الكلام يعبر عنه بالقول: إنه احتجاج بارد^(١). فلو فرضنا أنه ﷺ ضرب الأرض برجله فرحاً فإن من الممكن أن تكون هناك شبهة، لكن الواقع هو أن القرآن الكريم إنما أمره أن يضرب الأرض برجله لكي ينبع منها الماء، فيغتسل ﷺ منه ويشفى. وهي بهذا لا علاقة لها بالفرح وأجوائه، أو السرور وحالاته من قريب أو بعيد، حتى يمكن أن يقال: إن القرآن الكريم إنما قال له: اضرب الأرض برجلك فرحاً؛ كي نستدلّ منها على جواز الإيقاع والرقص.

ضرب الحجر والرقص

ونظير هذا أذكر أنني رأيت أيضاً أن بعضاً من العلماء حينما يتناول قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾^(٢) فإنه يقول: إن هذا يدل على جواز استخدام المحاديل، المسمّاة عند البعض بالكركت. وهكذا نجدهم يحشدون أشياء أخرى من أجل هذا، ويقولون بأن هذا جائز عبر إلصاقها بآيات القرآن الكريم مع أنها بعيدة عنها وبهذا فإنه يستدلّون بهذه الآيات على جواز الرقص والإيقاع من خلال هذه الآيات.

إضافات مفتعلة

مضافاً إلى هذه الآيات الكريمة يروون بعض الحوادث التي تؤيد مذهبهم هذا، حيث إنهم يستدلّون بها على ما يذهبون إليه. ومن هذه الحوادث:

الأولى: حديث المنزلة

فهم حينما يروون مثلاً حديث المنزلة، وهو الحديث الذي يقول: إن

(٢) البقرة: ٦٠.

(١) عنه في المصدر نفسه.

النبي الأكرم ﷺ لما أراد أن يخرج إلى غزوة تبوك أخرج الناس معه وخلف الإمام علي عليه السلام في المدينة نائباً عنه عليها، فجاء أمير المؤمنين عليه السلام إلى رسول الله ﷺ وقال له: «يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟». فقال ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟»^(١).

يروون عليه إضافة فيقولون: لقد حفزت هذه العبارة الإمام عليه السلام حينما سمعها من رسول الله ﷺ، فراح يحجل. ثم يعقفون على ذلك بالقول: وهذا أدل دليل على جواز الرقص في المناسبات المحبوبة.

الثانية: رواية «أشبهت خلقي وخلقي»

يقول الرواة: إن النبي الأكرم ﷺ قال لجعفر بن أبي طالب عليه السلام: «أشبهت خلقي وخلقي». فمرّ يحجل فرحاً^(٢). والإمام عليه السلام وجعفر عليه السلام كلاهما ممن يقتدى بفعله، فهذا دليل على أن هذا اللون من الحركة أو الرقص أو الإيقاع جائز شرعاً ولا بأس فيه.

الثالثة: رواية رقص الأحباش في مسجد النبي ﷺ

ومن ذلك أيضاً ما يروونه عن أنس من أنه قال: كانت الحبشة يرفنون بين يدي رسول الله ﷺ في مسجده، ويرقصون ويقولون: محمد عبد صالح. فقال رسول الله ﷺ: «ما يقولون؟». قالوا: يقولون: محمد عبد صالح.

(١) فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٣ - ١٤، صحيح مسلم ٧: ١٢٠، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٣٠٢ / ٣٨٠٨، ٣٠٤ / ٣٨١٣ - ٣٨١٤، السنن الكبرى (النسائي) ٥: ٤٤ / ٨١٣٨ - ٨١٤٣، فتح الباري ٧: ٦٠، المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٠٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ١: ٢٩ - ٣٠.

وفي رواية عائشة أنها قالت: جاء حبش يزفنون في يوم عيد في المسجد، فدعاني النبي ﷺ حتى وضعت رأسي على منكبه فجعلت أنظر إلى لعبهم، حتى كنت أنا التي انصرفت عن النظر^(١).
 وحينما لم ينههم النبي الأكرم ﷺ، ولم ينه عائشة عن النظر إليهم فإن هذا يدل على جواز هذا الفعل وإتيانه، وعلى جواز الرقص والإيقاع والتواجد. وهذا كما ذكرت لك فإنه من شطحات الصوفية.

مشكلة النقل عن الآخرين والادعاء عليهم

وأنا من باب الحقيقة أقول هنا بصريح العبارة: إن ما ينسب إلى الصوفية لا يمكن التصديق به والأخذ به مسلماً ما لم يكن قد كتبه أبناء الصوفية أنفسهم، وإلا فإن يدعي أحد شيئاً وينسبه إليهم دون أن يذكره هم في كتبهم ومؤلفاتهم فهذا مما لا يمكن تصديقه والأخذ به، أما إذا كتب أحد الصوفيين ذلك فإنه حينئذٍ يمكن أن يستند إلى هذا القول، وأن يقال: إن الصوفية يعتمدون هذا القول، أو يذهبون هذا المذهب ويرون هذا

(١) مسند أحمد ٣: ١٥٢، صحيح مسلم ٣: ٢٢ - ٢٣، المحلى ٤: ٢٤٦ / المسألة: ٥٠٠، ٩: ٦٢. وقال ابن حزم: «والغناء واللعب والزفن في أيام العيدين حسن في المسجد وغيره... عن عائشة قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعات، فاضطجع على الفراش وحول وجهه، فدخل أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند رسول الله ﷺ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «دعها». فلما غفل غمزتهما فخرجتا. وكان يوم عيد، يلعب السودان بالدرق والحراب؛ فأما سألت رسول الله ﷺ، وإما قال: «تشتهين تنظرين؟». فقلت: نعم. فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول: «دونكم يا بني أرفدة». حتى إذا مللت قال: «حسبك؟». قلت: نعم. قال: «فأذهبي». ... وعنهما أيضاً أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتضربان، ورسول الله ﷺ مسجى بثوبه فانتهرها أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ عنه وقال: «دعها يا أبا بكر؛ فإنها أيام عيد». المحلى ٥: ٩٢ - ٩٣ / المسألة: ٥٥٣.

الرأي. والسبب الذي يدعوني إلى قول هذا هو أن هناك أقلاماً أخذنا منها خبرة وعبرة؛ لأننا ببالح الأسف قد تعلّمنا ألا نثق بمثل هذه الأقلام، ولا نصدّق بما ينقل عن طائفة إلا إذا تأكدنا بأنفسنا من ذلك الأمر عن تلك الطائفة من أبنائها أنفسهم أو علمائها أو روادها.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١)

وهذا الأمر قد وقعنا نحن الشيعة فيه كذلك؛ لأننا قد اتهمنا باتّهامات كثيرة، وقد ألصق بنا كل ما هو شائن، وكل ما هو غير سليم وغير صحيح. وحينما يسأل ذلك المفتري علينا أو المدّعي أننا نقول كذا: أتى لك هذا؟ فإنه يردّ بالقول: قد أخذته من كتب علمائنا. ولهذا فإنني أستغرب جداً حينما أرى شخصاً ضخماً مثل القرطبي، أو الفخر الرازي^(٢)، وهما ينسبان إلى الشيعة أنهم يقولون بعد انتهائهم من الصلاة وهم يلتفتون يميناً وشمالاً عبارة «خان الأمين، خان الأمين»؛ لأن جبرائيل عليه السلام كان من المفترض به أن يذهب بالرسالة التي كلفه الله سبحانه وتعالى بها إلى علي عليه السلام، لكنه مع ذلك خان تلك الثقة والأمانة، وذهب بها إلى النبي الأكرم ﷺ.

ونحن من على هذا المنبر نقول لهما: على أي شخص اعتمدتم وأنتم ترويان مثل هذا عنا؟ ومن هو العالم الذي قال به من علمائنا؟ وبعضهم يقول: إن هذا مما ينسب إلى الخطّابية. ونجيبه بالقول: لو أن شخصاً شذّ وافترى وكذب فهل من المفترض أن تتحمل الأمة بكاملها نتيجة شذوذه

(١) الأنعام: ١٦٤.

(٢) لم نعثر عليها إلا عند الأيجي في المواقف ٣: ٦٨٢، ذخائر العقبى: ٩٣.

وافترائه وكذبه؟ إن الثوار الفلسطينيين قد قتلوا حتى هذه الساعة ما يقارب الأربعة آلاف فلسطيني؛ لأنهم تعاونوا مع اليهود، فهل من الممكن أن يقال: إن أهل السنة متعاونون مع اليهود لأن أربعة آلاف منهم قد مالوهم وسالموهم وتعاملوا معهم وتعاونوا؟ إن هذا الكلام لا يستحقّ الوقوف عنده، بل لا يستحقّ صاحبه الاحترام.

وهكذا فعندما يخطئ فرد في هذه الأمة فإن هذا لا يعني أن ينسحب هذا الخطأ على كل أفرادها؛ لأن ذلك الفرد لا يمثل تلك الأمة، ولا يمثل المذهب، ولا يمثل الدين.

إذن الشاهد من هذا هو أنني لا أطمئن إلى أي نقل منسوب إلى جماعة ما لم يكن الذي ينسب ذلك النقل إليها أحد أبناء تلك الجماعة؛ لأننا قد ابتلينا كثيراً بمثل هذه الافتراءات والادّعاءات. فإذا ما رأينا أشياء بأقلام أبناء تلك الطائفة أو الجماعة فإننا نقول حينئذٍ: نعم إن هذا الكلام فعلاً منسوب إليهم، وبخلافه فإنه لا يمكن الركون إلى هذا الكلام أو إلى التصديق به أو إلى التعامل معه على أنه كلام صادر عنهم أو عن علمائهم.

المدينة لا يدخلها الوباء وفقه أبي حنيفة

وبعد هذا التقريب فإنني أقول: إن هذا المعنى الذي يُذكر عن الصوفية لا سبيل إلى قبوله ما لم يشاهد مكتوباً بأقلامهم؛ لأن الكثير من الناس ليس لهم من دأب ولا من شأن إلا أن ينسب إلى الآخرين ما ليس فيهم، وإلا أن ينسب إليهم ما ليس من أفكارهم أو معتقداتهم أو مصنّفاتهم أو مدوّناتهم. وهذا التراشق بين الفرق الإسلامية موجود بشكل كبير وعلى نطاق واسع، وهو أمر يدعو إلى الأسف؛ لأنه تراشق ربما يصل في بعض الأحيان إلى درجة إن فقيهاً يقف ويقول: إن المدينة المنورة قد حفظها

الله من اثنين: الوباء وهو الطاعون، ومن فقه أبي حنيفة^(١). وهذا ليس بأسلوب صحيح ولا هو كلام فقيه، فحتى لو كان عند أبي حنيفة بعض الأحكام التي هي تستحق أن تنقد وأن تعتبر غير ناهضة للدليل، أو هي عن دليل غير صحيح فإنه لا يصح بحال من الأحوال أن يقال عنه بأنه كذلك، أو يعبر عنه بأنه مثل الطاعون.

فالمفروض أن هذا فقيه مسلم، والفقيه المسلم يجب أن تحترم آراؤه بأن تناقش نقاشاً علمياً، وتردّ ردّاً علمياً؛ فإن كان عنده خطأ رُدّ خطؤه عليه عن طريق لغة العلم، وإن لم يكن عنده خطأ أذعن لذلك الرأي؛ لأنه ناشئ عن الدليل الشرعي أو العلمي الصحيح.

شعار «تكفير بغير دليل»

وهذه هي المشكلة فإننا بدلاً من أن نقاش آراء بقية المذاهب الأخرى نقاشاً علمياً أكاديمياً تخرج جماعة فتكفر تلك الطائفة وتسبّ هذه الطائفة، وتعبّر عن أبنائها بتعبيرات غير لائقة وغير سليمة. وهذا يعني أنه ليس عند أولئك على ألسنتهم من الله تبارك وتعالى ولا من الإنسانيّة رقيب، مع أن الذي ينبغي أن يكون هو أن يوجد ذلك الرقيب على ألسنتهم من الله سبحانه وتعالى، فلا ينسبون إلى أحد ما ليس عنده، ولا

(١) لم نعر عليه بهذا النص، وفي بعض المصادر أن حمدويه قال: قلت لمحمد بن مسلمة: ما لرأي النعمان دخل البلدان كلها إلا المدينة. قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخلها الدجال ولا الطاعون». وهو دجال من الدجاجلة. وعنه أنه قال: قال محمد بن مسلمة المدني - وقيل له: ما بال رأي أبي حنيفة دخل هذه الأمصار كلها، ولم يدخل المدينة؟ قال: لأن رسول الله ﷺ قال: «على كل نقب من أنقابها ملك يمنع الدجال من دخولها». وهذا من كلام الدجالين؛ فمن ثم لم يدخلها. تاريخ بغداد ١٣: ٣٩٥ - ٣٩٦ / ٦ - ٧، أخبار القضاة ١: ٢٥٩ - ٢٦٠.

يلصقون به شيئاً لم يكن يقول به، ولا يتحاملون عليه؛ لأن هذا هو أدب الإسلام الحنيف؛ وهذه هي سماحته ورحمته وأخلاقه، وليس الإسلام غير هذا، والله تبارك وتعالى لا يريد منا غير التعامل بهذا النمط من الأخلاق أبداً^(١).

إذن ما ينسب إلى الصوفية من التواجد والرقص وتحريك الرؤوس أو الأبدان بحركات مريبة ربما ينسى أحدهم نفسه معها، ويزدوب في ذلك الموقف الذي هو فيه، كما يصوره البعض حتى ليخيل لمن يراه أو يشاهده بأنه قد فقد وعيه، أو فقد اتزانه لا يمكن أن يقبل بحال، ما لم يثبت عندهم هم أنفسهم بأنهم قد فعلوا ذلك بغض النظر عن دوافعهم وبواعثهم، وفيما إذا كان ذلك مقبولاً أو غير مقبول في حال من الأحوال، وفيما إذا كان باختيار منهم أم بغير اختيار، بل كل ما يجب هو أن تخضع تلك التصرفات - على فرض صحّة ثبوتها عنهم - إلى الشرع الحنيف، وإلى النقاش العلمي، وهل هو صحيح أو غير صحيح دون الحاجة إلى اللجوء إلى التهريج والمهاترات وغيرها.

المبحث الخامس: في بعض فضائل النبي أيوب عليه السلام

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ»، ونحن هنا إزاء فضائل ثلاثة للنبي أيوب عليه السلام قد قررتها آية المقام الكريمة، ينبغي التنبيه إليها؛ لما فيها من مطالب أخلاقية عالية، وهي:

(١) ولذا فإن الرسول الأكرم ﷺ قد حصر الإسلام والدين بأنه حسن المعاملة، كما ورد عنه ﷺ في الأثر: «الدين المعاملة». عجائب الآثار ٣: ١٠٣. وقال ﷺ: «يا أبا ذر، الكلمة الطيبة صدقة». مسند وسائل الشيعة ٥: ٢٣٣ / ٦٤٢١، مسند أحمد ٢: ٣١٦.

الفضيلة الأولى: فضيلة الصبر

تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾. إن الحقيقة التي لا بد من أن يُدْعَن إليها هي أن مرتبة الصبر مرتبة عظيمة جداً، وهو - الصبر - من الأمور العسير على النفس التعامل معها؛ فليس من السهل أن يحصل أي إنسان على هذه المرتبة^(١). ومعنى كلامنا هذا أنه ليس كل أحد يستطيع أن يصمد أما البلاء، فهناك نوع من الناس إذا ما تعرّض إلى قليل من الأذى أو إلى أبسط أنواع الشدة فإنه يفقد اتزانه، ويروح ملوَّحاً بيده إلى السماء جازعاً مبتعداً به عن فضيلة الصبر، فتصدر منه كلمات نابية عجيبة غريبة.

إن هناك القليل من النماذج التي يمكن أن توصف بأنها قد وصلت إلى مرتبة الصبر العظيمة عند الله سبحانه وتعالى، وحازت عليها، كما هو الحال مع أبي ذر الذي يقول: «لو جعلني الله جسراً على جهنم، وعبر علي الأولون والآخرون من الخلائق، ودخلوا الجنة، ثم يلقي بي في النار، ويملأ بي جهنم لأحببت ذلك من حكمه، ورضيت به من قسمه، ولم يختلج ببالي أنه لم كان كذا؟ ولت لم يكن كذا، ولم هذا حظي وذاك حظهم؟»^(٢).

لكن الناس ببالغ الأسف أغلبهم ضعفاء، فإذا ما أصاب أحدهم مرض تدمر وجزع، واشتكى إلى ربّه متسائلاً عن الأسباب التي من أجلها أمرض جسمه. وهذا اللون من الجزع ينم عن نفس ضعيفة تنهار تحت ضغط

(١) ولذا فإن الله تبارك وتعالى جعلها وسيلة إلى الجنة فقال عزّ من قائل: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ فصلت: ٣٥.

(٢) جامع السعادات ٣: ١٦٣، مسكّن الفؤاد: ٨٨، وقد نقلاه عن بعض العارفين.

أبسط المؤثرات؛ ولهذا فنحن نقول: إننا نادراً ما نجد أحداً يصمد ويصبر أمام المصائب والابتلاءات الدنيوية الكثيرة.

متعلقات الصبر

إن الصبر بطبيعة الحال له متعلقات عدة وأقسام عدة، فهناك صبر عند المصيبة، وهناك صبر على الطاعة، وهناك صبر عن المعصية، ونحن سوف نتناول هنا متعلقاً واحداً من هذه المتعلقات الثلاث، وهو ما يرتبط بموضوع بحثنا هذا، أعني الصبر عند المصيبة.

والصبر عند المصيبة هو أن يصبر الإنسان ويتحمل الألم والابتلاءات من مرض أو فقر أو ما شاكل ذلك من عوارض الدنيا، ويسترجع (١) ويقول: إن الله تبارك وتعالى إذا أحبَّ عبداً ابتلاه (٢). فالإنسان سواء صبر أو جزع، وسواء رضي أم لم يرض فإنه لا يستطيع أن يدفع البلاء والابتلاء. صحيح أنه ضعيف، وربما تمرّ به ساعات لا يقوى فيها مع ما يحمله من إيمان على مواجهة صعوباتها، لكنه مع ذلك ينبغي عليه ألا يقع تحت طائلة سوء الظن بالله تبارك وتعالى، بل عليه أن يقدر ذلك وأن يقول: إن الله تبارك وتعالى إنما ابتلاني لمصلحة يريد بها هو.

ثم إنه صحيح أن الله سبحانه وتعالى يأمر الإنسان بأن يدفع البلاء عن نفسه، لكنه ماذا يمكن أن يفعل إذا لم يستطع أن يفعله؟ إن الأمر حينئذٍ

(١) قال عزّ من قائل مادحاً الصابرين المحتسبين المسترجعين عند المصائب: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ * أَوْلَيْكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) ورد في الحديث الشريف عن رسولنا الأكرم ﷺ قوله: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه». الكافي ٢: ٢٥٣ / ٨، الجامع الصغير ١: ٥٧ / ٣٥٣.

سوف ينحصر بشيء واحد هو التسليم المطلق إلى الله تبارك وتعالى لا غير، والرضا بقدره وقضائه دون أن يكون ذلك سبباً للخروج عن آداب الصبر وآداب الدعاء وآداب الخطاب مع الله تبارك وتعالى. يروي العلماء والمؤرخون أن النبي إبراهيم عليه السلام حينما ألقى به في النار، اعترضه جبرائيل عليه السلام وقال له: «هل لك من حاجة؟». فقال: «أما إليك فلا». قال: «فاسأل الله». قال عليه السلام: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»^(١). أي أنه تبارك وتعالى مطلع عليّ، وهو أرحم بي من نفسي، وهو الذي أفاض عليّ الوجود؛ فهو أرف بنفسي مني، وعليه فأنا لست بحاجة إلى مساعدة من أحد غيره تبارك وتعالى.

وهذا اللون من رباطة الجأش والصلابة والصبر وتوطين النفس على التحمل ينبغي أن يتأمله الإنسان كلما وقع في شدة أو في ضراء أو في مصيبة. ولما للصبر من مرتبة عالية ومنزلة سامية فقد مدح الله تبارك وتعالى نبيه أيوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾

أيهما أفضل؛ الشكر على النعمة أم الصبر عند النقمة؟

يتساءل البعض من المفسرين وعلماء الأخلاق حول أي طرفي المعادلة أفضل وأحسن: هل هو شكر الإنسان على النعمة التي ينعم بها الله تبارك وتعالى عليه، أم صبره عندما يتلوه ببلية أو نقمة؟ وهنا فإنهم ينقسمون إلى قسمين:

الأول: ويرى أن الشكر على النعمة أفضل من الصبر عند البلية؛ لأنهم

(١) بحار الأنوار ٦٨: ١٥٦ / ٧٠، وانظر: الخصال: ٣٣٥ - ٣٣٦ / ٣٦، الدعوات: ١٦٨، تفسير الثعلبي ٦: ٢٨١.

يقولون: إن الشكر على النعمة هو وضعها في موضعها، وبهذا فإنها تصبح أفضل بكثير من الصبر عند المصيبة؛ ذلك أن الصبر عند المصيبة لا تكون إلا حيث يعرف الإنسان أنه لا طريق له إلا الصبر عليها دون أن يستطيع أن يفعل شيئاً إزاءها أو تغييرها، فهو واقع في تلك البلية؛ سواء صبر أو لم يصبر. وعليه فإنه إن صبر فلا يكون بمنزلة الشاكر؛ لأن الشاكر هو من يضع النعمة في موضعها دون أن يفرط فيها، أو دون أن يتصرف فيها تصرفاً شرعياً.

إن تقرير هذا الرأي هو أن السيطرة على النفس بحد ذاتها نعمة، فإذا سيطر الإنسان على نفسه مع وجود النعمة الأخرى، وتمكّن من أن يتغلب على أهوائها ومشتهاياتها ورغباتها ومطالبها، فإنه حتماً سوف يكون كذلك؛ لأنه حينئذٍ فقط سوف يكون قد وضع النعمة في موضعها. لكن للحقيقة نقول: إن السيطرة على النفس مع وجود النعم العظيمة لأبد أن يصحبه لون خاص من ألوان ترويض النفس؛ ذلك أنه يتعلّق بالسيطرة على الأموال الكثيرة التي ربما تدفعه وتشدّه إلى أن يرتكب المعصية. وهذا معناه أنه في حالة اختيار، فعليه أن يختار كيف يتصرف بتلك الأموال التي وهبها الله تبارك وتعالى له دون أن تكون آلة ووسيلة لدفعه إلى ارتكاب المعصية، كأن يلعب بها القمار، أو يشرب بها الخمر، أو ينفقها فيما لا يرضي الله تبارك وتعالى.

الثاني: ويرى أن الصبر عند المصيبة أو البلية والنقمة أفضل؛ ذلك أن الصبر هو في حقيقته عبارة عن الألم والحرمان، وشعور الإنسان بأنه قد أخذ منه ما أعطي لغيره، بخلاف من ينعم عليه فإنه يتنعم بتلك النعمة. فإذا ما صبر الإنسان كان أفضل من الإنسان الشاكر.

هذا هو تقرير رأي القسمين ، مع أن الواقع يفرض علينا أن نقول : إن كلتا الحالين فيهما تربية للنفس ؛ فالنعمة تربية للنفس بالعطاء الذي يمنّ الله تبارك وتعالى به عليها ، والصبر تربية للنفس بالألم الذي يصبر الإنسان عليه (١) .

الفضيلة الثانية: العبودية

ثم قالت : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ ﴾ ، فإنها إنما تشعر الإنسان بأنه يجب أن يعرف قدره ، وأنه في كل حال من أحواله لا يخلو من كونه عبداً من عبيد الله سبحانه وتعالى ، ليس له من أمره شيء إلا ما يرتضيه الله تبارك وتعالى له . والإنسان ما لم يشعر كذلك فإنه يكون ممّن يواجهه الله سبحانه وتعالى ويعانده . وقد مر بنا قضية بشر الحافي ؛ ذلك الإنسان الطالب للهو واللذات الدنيوية ، والذي عرف عنه بعد ذلك زهده حيث أصبح من الزهاد المعروفين . لقد كانت ليليه كلها حمراء ؛ تعزف فيها الأعواد ، وترقص فيها القيان ، وتراقق فيها الخمور ، حتى جاء ذلك اليوم الذي مرّبه من أمام بابهِ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ، فسمع ضرب الأعواد وأدوات الطرب ، فقد كان يعيش حينها ليلة صاخبة من ليالي الطرب ، وكان أن خرجت جارية له من الدار ويدها ما تبقى من طعام موائد اللهو وشرابها ممّا خلفه هؤلاء السكارى ، فسألها الإمام عليه السلام : « لمن هذه الدار؟ » . فأجابته

(١) وقد أجاب بعض علماء الأخلاق عن ذلك بالقول : إن مثل هذا السؤال مثل سؤال من يسأل : أيهما أفضل للإنسان الخبز أم الماء؟ وهنا يجيب أولئك العلماء بالقول : إن الإنسان إن كان جائعاً كان الخبز أفضل له من الماء ، وإن كان عطشاً كان الماء أفضل له من الخبز ، وإن كان جائعاً وعطشاً معاً في آن كانا كلاهما ضروريين له ؛ لأنه ربما ينعم عليه بنعمة بجهة ، ويتلى بمرض من جهة أخرى فيكون حينئذٍ أحوج إلى الشكر على تلك النعمة التي أنعم الله تبارك وتعالى بها عليه ، وأحوج إلى الصبر على تلك البلية التي ابتلي بها .

الجارية: هي لسيدي. فقال ﷺ: «سيدك حرّ أم عبد؟». قالت: بل حرّ. قال ﷺ: «صدقت؛ لو كان عبداً لله لاستحى من الله»^(١).

وما ذلك إلا لأن الكلمة قد خرجت من قلب متعظ وواعظ، وأخذت طريقها حتى فعلت فعلها في قلب بشر. إذن فالإنسان حينما يكون عبداً لله تبارك وتعالى، ويقرب بتلك العبودية، ويدعن بها أمامه عزّ وجل؛ فإنه سوف يستحي من الله تبارك وتعالى، ويطيعه ويطبق أوامره؛ لأن المفروض بالعبد أن يتبع أوامر سيّده.

الفضيلة الثالثة: الرجوع إلى الله تعالى

وأخيراً قالت: ﴿إِنَّهُ أَوْابٌ﴾، والأواب هو الذي يرجع إلى الله سبحانه وتعالى في كل أحواله وأوقاته، ويسلم إليه أبداً؛ إذ أنه يؤوب إلى ربه تبارك وتعالى؛ لأنه يعلم بأن لا أحد يمكن أن يضره أو أن ينفعه غيره تبارك وتعالى الذي بيده كل شيء؛ فهو النافع وهو الضارّ وهو المعطي وهو المانع^(٢)، وهكذا كان النبي أيوب ﷺ. وفي هذا إشارة إلى أن على الإنسان أن يعرف أنه ليس له من طريق سليم يمكن أن يكون مناراً له في حياته غير الأوبة إلى الله جلّ وعلا والرجوع إليه في كل ما يعتريه من خير وشر؛ فإذا مرّ به الخير رجع إلى ربه بالشكر، وإذا مرّ به الضرّ والألم رجع إلى ربه بالصبر. ولهذا فإن الآية الكريمة تمجّد النبي أيوب ﷺ، وتمدحه؛ إذ تصفه بهاتين الصفتين، وتنعت بهاتين الفضيلتين، وهما فضيلتا الصبر والأوبة.

(١) الكنى والألقاب ٢: ١٦٨.

(٢) قال عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ الشعراء: ٧٩.

وهكذا فالآية الكريمة في الواقع تتوّج النبي أيوب عليه السلام بهذه الفضائل الثلاث، فتعطيه تاج الصبر، وتاج الأوبة، وتاج العبودية حينما تمنعته وتقول: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

المبحث السادس: عاقبة صبر أيوب عليه السلام وأوبته

يقول المفسرون: أراد الله عز وجل أن ينهي محنة النبي أيوب عليه السلام، وأن يخلّصه من آلامه ومتاعبه، ولذا فإنه تعالى أمره بأن يقوم بأمر عدة: **الأول**: أن يركض الأرض برجله، أي أن يضربها بها كي ينبع منها الماء. **الثاني**: أن يغتسل من تلك العين بعد أن نبعت من الأرض. فاغتسل عليه السلام منها فعادت إليه عافيته وصحته.

الثالث: أن يلبس الثوبين اللذين أرسلها الله تبارك وتعالى له، فقد أرسل له ثوبين أبيضين ناصعين. فلما لبسهما عليه السلام عاد كأجمل ما يكون، وبرأت نفسه بعد أن برأ جسمه، وذهبت عنه جميع الآلام التي كانت تعترضه. وبعد أن منّ الله جلّ وعلا عليه بذلك خرج يمشي، فلقيته زوجته «ليا»، وهي حاملة الطعام له، فقالت له: هل رأيت الرجل المبتلى؟ والله إنني ما رأيت رجلاً أشبه به منك. فقال عليه السلام: «من هو؟». قالت: أيوب. فقال عليه السلام: «أنا أيوب». فلما سمعت ذلك منه أخذتها الفرحة وابتهجت، لكنه أراد أن ينفذ اليمين الذي حلف به والذي أوعداها به، فأخذ شمراخاً وضربها فيه ضربة واحدة، فكان فيه وفاء لعهدده وبرّ ليمينه. ثم إن الله تبارك وتعالى أعاد إليه أهله، وجمع شمله بهم، فرجع بهم وبزوجته إلى داره.

المبحث السابع: أبناء الإمام الحسين وأبناء النبي أيوب عليه السلام

ولم تشاهد زوجته (رضوان الله عليها) يوماً من الأيام أكثر سعادة من ذلك اليوم؛ لأنها رجعت إلى دارها مع أولادها وزوجها. فبطبيعة الحال أن الدار حينما تمتلئ بأهلها، وتغصّ بساكنيها فإن الفرح سوف يعمّها، والسرور سوف يخيم عليها، والبهجة سوف تظّلّها وترفرف عليها، سيما إذا عاد إليها أهلها بعد اغتراب أو سفر أو غياب. والعكس يحدث لو أن تلك الدار قد فقدت أهلها إذ خرجوا منها ولم يعودوا إليها؛ فإنها تصبح دياراً خالية باكية بلسان الحال. ولست أدري والله ما حال ديار آل محمد عليه السلام حينما رجعت إليها عائلة أبي عبد الله الحسين عليه السلام من السبا، وهي تراها خالية من ساكنيها، ليس فيها إلا الأرامل واليتامى، ولم يكن أشدّ ألماً وأسى تلك الساعة من أخت الحسين زينب عليها السلام حينما دخلت إلى دار أخيها أبي عبد الله الحسين عليه السلام، ووجدت محرابه خالياً، فأخذت تجول في الدار وهي تقول:

منازل كانت نيرات بأهلها
تولّى عليها غيرة وقيام
ألا لا تـزان الدار إلا بأهلها
على الدار من بعد الحسين سلام

ثم راحت تدور من دار إلى دار، وكيف كانت تلك الديار؟ يقول أحد الأعراب: مررت بالمدينة بعد واقعة الطفّ حتى جئت إلى حي من أحيائها، فسمعت بكاءً وأنيباً كانا ينبعثان من أحد المنازل، وسمعت عتاباً سمّر قدمي إلى الأرض، ولما سألت عن هذه الدار قالوا: هذه دار الحسين عليه السلام، وهذه الباكية ليلي أمّ عليّ الأكبر، حيث كانت تجول في الدار لا تهدأ الليل والنهار، فكانت مع العقيلة زينب تتجاوبان المحنة:

خوية أثنعش ساعة الليل
أشوف أدياركم وحشة
بين الولم والحسرة
وما عاول يروح الليل
لجنه علي سنين
تهل ولا تنام العين
يمر ليل وولم وونين
بلجي الصبح يلهيني

* * *

أحببتنا من اللضعائن بعدكم
فليت فداكم يا كرام الضعائن



الإسلام ودور المرأة في الحياة العامة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ
يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (١).

مباحث الآية الكريمة

المبحث الأول: القرآن مائدة السماء

إن من أبرز سمات الفرد المسلم التي تطبعه بطابع كونه مسلماً أن يكون مطيعاً لله عز وجل ، وسائراً في المنهج الذي رسمه له وإلا فإنه لا يمكن لنا أن نعبر عن إنسان بأنه مسلم ما لم يكن مطيعاً لأوامره تبارك وتعالى ومنتهاياً عن نواهيه؛ ذلك أن الإسلام له مفهوم واحد ومعنى واحد هو الامتثال لما أمر الله سبحانه وتعالى به والانتهاض عما نهى عنه، والأخذ بمضامين القرآن الكريم كتاب الله الذي أنزل ليُعمل به، وبالسنّة النبوية المطهرة.

(١) التوبة: ٦٧.

إذن فنحن إنما نسمي فلاناً مسلماً أو ننعته بأنه كذلك؛ فلأنه يكون دائماً في موقف هو كـلّه طاعة لله جلّ وعلا بحيث إنه لا يترك أمراً أمره به، ولا يفعل أمراً نهاه عنه. فإن كان كذلك كان مسلماً بما أن الإسلام هو الانقياد إلى الله تبارك وتعالى، والطاعة لأوامره جلّ شأنه.

المسلمون والقرآن

وبناء على أن الإسلام هو الانقياد إلى الله سبحانه، والعمل على ضوء كتابه الكريم، فإن على الناس جميعاً أن يعوا حقيقة أن الله تعالى إنما أنزل القرآن الكريم كما ذكرنا ليعمل الإنسان به ويسير على مضمونه، بحيث إنه يتقيّد بكل القوانين والقواعد الواردة فيه؛ سواء كانت هذه القواعد أخلاقية أو أدبية أو تشريعية أو اقتصادية أو غير ذلك ممّا يتعلّق بالفقه والعقائد والأحكام، وما إليها ممّا يدخل تحت نطاق الكتب التشريعية أو الدساتير التي تنظّم للإنسان حياته كاملة، ووجوده بشكل كلي في هذه الدنيا، وتقنّن له تصرّفاته وأخلاقياته وكلّ أفعاله، وما يمكن أن يقوم به. غير أننا نرى أن البعض لا يلتفت إلى هذه النقطة؛ فلا يتوجّه إلى حقيقة أن القرآن الكريم هو عبارة عن منظومة متكاملة من القوانين والنظّم ذات المضامين العالية والمفاهيم السامية التي تحاول أن ترقى بالإنسان إلى فضاء الأخلاق والمعرفة، وأن تسمو به إلى عالم فسيح رحب من الوجود الواعي المنظّم، والانطلاق إلى عالم حرية الفكر والعلم والكمال، وتخرج به إلى دنيا الوجود الحر وإلى دنيا الكرامة والعمل السليم والصحيح، بل إنهم يفرغونه من محتواه السامي ذاك وينظرون إليه على أنه كتاب للبركة فقط.

وهذا تصوّر مخطوء حول القرآن الكريم، ونظرة باهتة وغير صائبة إليه، وتصوير ساذج في المقام له ينبئ عن عقم في التفكير، ومحدودية في

الأفق المعرفي؛ تؤدّي إلى مساهمة سلبية في فهم مضامين القرآن الكريم، وإلى إسباغ صبغة مشوّهة ومشوّشة على أجوائه التربوية الشريفة عند التوجه إليه للتعامل معه ومحاولة فهمه. هذا مع أنه كتاب أُريد له أن يكون دستوراً وأداة لتمرير منظومة التشريعات السماوية إلى الناس. فالقرآن لم ينزل لمجرد البركة وإن كان كلّ بركة، لكن الله تبارك وتعالى أراد منا أن نستفيد من كلّ ما فيه من قوانين ونظم وسُنن، وتشريعات وأحكام، وعِبَر ومواعظ، وما إلى ذلك مما تكتنفه دفتاه من عطاء ضخّم لا يمكن أن يرقى إليه عطاء، ولا يمكن أن يصل إليه أحد في مثل ذلك الوجود الضخم العظيم المبارك الذي أرادنا الله سبحانه وتعالى أن نفيد منه أقصى غايات الإفادة.

إن التعامل الصحيح مع القرآن الكريم هو أن يكون بهذا اللون، أما أن يقتني أحداً قرآناً ويضعه على أحد رفوف بيته؛ لكي يحفظ بيته، أو لكي يجلب له البركة، دون أن يقرأ فيه، ودون أن يعمل به، فهذا مفهوم مخطوء وغير صحيح، ونظرة سلبية إلى هذا الكتاب العظيم؛ بما أنها تبتعد عن مراده وبيئته وأجوائه.

إن الله تبارك وتعالى قد أنزل القرآن دستوراً ليعمل به، وهو دستور يضع القواعد العامة لكل جوانب الحياة التي يحتاجها الإنسان، ويدرس السنن التي يمكن أن يستفيد منها الناس في حياتهم العملية، ويعطينا النتائج التي يخرج بها عند دراسة تلك السنن؛ سواء كانت نتائج سلبية، أو إيجابية؛ لكي يستفيد الإنسان منها؛ فيترك السنن التي تكون نتائجها سلبية، ويأخذ بالسنن التي تكون نتائجها إيجابية.

أي أن المراد من ذلك هو أن يستفيد الإنسان من هذا الكتاب المقدس في كلّ ما فيه، وبكل جوانب الإفادة التي يمكن أن يلمسها أو يتناولها منه؛ فهو مائدة الله تبارك وتعالى التي لا تنضب، وعطاؤه الذي لا ينفد..

المائدة التي يمكن أن توفر للإنسان الحلول الناجعة لكل ما يعترضه من مشاكل في الحياة على الأصعدة والمستويات كافة، فينهل منه متى شاء، ويأخذ منها غذاءه في أي وقت شاء، ولأي حاجة شاء.

المبحث الثاني: المنافقون في زمن الرسول الأكرم ﷺ

كما أنه في الوقت نفسه يصف لنا قضايا معينة ويأمرنا بالإيمان بها، ونحن بدورنا يتوجب علينا الانقياد له فيها، دون تردد أو إثارة تساؤلات، وذلك من قبيل العقائد التي تتعلق بالتوحيد والعدل، ومقامي النبوة والإمامة، وكذلك ما يتعلق بالحشر، أو فيما يتعلق بالصفات الإلهية وما إلى ذلك مما يتوجب علينا الإيمان به.

الناس في المنظور القرآني ثلاثة معسكرات

فكل هذه الأمور بأجمعها من عطاء القرآن الذي نلاحظ أنه كذلك يصنف حال الناس يوم القيامة بلحاظ أعمالهم إلى ثلاثة معسكرات، هي:

الأول: المنافقون

فهذا الكتاب الكريم، والدستور الشامل يتضمن سورة كاملة يسميها سورة (التوبة)، أو سورة غيرها يسميها سورة (المنافقون)، وهاتان السورتان وأمثالهما مما تضم بين طرفيها تعالج المجال نفسه^(١) تتضمنان وقائع عن جماعة كانوا معاصرين للنبي الأكرم ﷺ، ويوصفون بأنهم صحابة له ﷺ، لكنه - القرآن الكريم - يعبر عنهم بأنهم منافقون، وأنهم على غير نهج النبي ﷺ، وأنهم يضمرون الحقد والعداء له ﷺ وللدين الإسلامي الحنيف، وللمسلمين جميعاً.

(١) قال جل شأنه: ﴿ وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴾ الواقعة ٤١ - ٤٦.

الثاني: المؤمنون

في حين أننا في الوقت نفسه نجد أنه - القرآن الكريم - يصف جماعة أخرى بأنهم أصحاب اليمين، ويعطيهم منازل كبيرة عند الله تعالى، كما وصفها جلّ وعلا بقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلِّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاجِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفَرْشٍ مَّرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * غُرَبَاءَ * أَنْزَابًا﴾^(١).

وهو تعالى فوق هذا يعطيهم عطاءً كبيراً ضخماً.. عطاء ليس فوقه عطاء، وهو ما تعبّر عنه الآية الكريمة بقولها: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٢).

الثالث: أصحاب الأعراف^(٣)

فهذان معسكران وصفهما القرآن الكريم وصفاً صريحاً واضحاً، فكان

(١) الواقعة: ٢٧ - ٣٧. (٢) التوبة: ٧٢.

(٣) يشار إلى أن هناك روايات أخرى عن أهل بيت العصمة عليهم السلام تفسّر الأعراف بغير هذا التفسير، فعن أبان بن عمر قال: كنت عند أبي عبد الله تبارك وتعالى، فدخل عليه سفيان بن مصعب العبدي، فقال: جعلني الله فداك ما تقول في قوله تعالى ذكره: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾؟ قال: «هم الأوصياء من آل محمد عليهم السلام الاثنا عشر، لا يعرف الله إلا من عرفهم وعرفوه». قال: فما الأعراف جعلت فداك؟ قال: «كثائب من مسك عليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأوصياء، يعرفون كلًّا بسيماهم». فقال سفيان: أفلا أقول في ذلك شيئاً؟ فقال من قصيدة:

أيا ربهم هل فيك لي اليوم مربعٌ وهل لليالٍ كنّ لي فيك مرجعٌ
إلى أن يقول:

وأنتم ولاية الحشر والنشر والجزا وأنتم ليوم المفزع الهول مفزعٌ
وأنتم على الأعراف وهي كثائب من المسك ريّاها بكم يتضوعٌ
ثمانية بالعرش إذ يحملونه ومن بعدهم في الأرض هادون أريعٌ

أمرهما بيّناً، وهناك معسكر آخر أمره بين بين، وهو لجماعة وصفهم القرآن الكريم بقوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾^(١).

الثمرة من التقسيم

وبملاحظة هذا التقسيم القرآني لهذه المعسكرات التي يتحدّث عنها يمكن لنا أن نخرج بأكثر من ثمرة لهذه القسمة تستمدّ منها عبر ومواعظ تغنيها في حياتنا، وأن نجزم بأن هذا هو مراد القرآن الكريم منها. فمن خلال الرؤية الواقعية لهذا التقسيم الذي وضعه الله تعالى للناس. ونحن سوف نذكر منها هنا ثمريتين هامّتين إن شاء الله تبارك وتعالى، هما:

الأولى: حسن الإفادة من السنن الإلهية

فهذه المجتمعات التي يرسمها لنا القرآن الكريم، إنما يرسمها لأنه يريد أن يحدّد لنا معالم المجتمع الصالح والمجتمع الطالح منها عبر تأكيد على إظهار أبرز سماتهما وخصائصهما من خلال تلك اللوحة الناصعة التي يضعها بين أيدينا عنهما. وهو بهذا إنما يريد منا أن نقنّدي بالصالح، وأن نبتعد عن الطالح منهما، بعد أن يشير لنا إليهما كليهما.

الثانية: ضرورة تقييم الإنسان على ضوء القرآن الكريم

كما أنه في الوقت نفسه يريد منا أن نقيّم هذه المجتمعات تقييماً عقلياً منهجياً خاضعاً لقانون السماء وللرؤية القرآنية الكريمة التي تخضع عادة للمقاييس السماوية التي لا يمكن أن تميل لأحد على حساب أحد نتيجة تأثير عامل معيّن، أو ميل أو هوى، أو ما إلى ذلك.

(١) التوبة: ١٠٢.

إذن فالقرآن الكريم يريد منا أن نقيم هذه المجتمعات، وأن نميز السابقين للإسلام الذين هم الرواد الأوائل من المؤمنين الذين اتبعوا النبي ﷺ بإحسان وصدّقه إذ كذبه الآخرون، والذين هم أئمتنا، وينبغي علينا أن نعتبرهم قدوتنا، ومثلاً أعلى لنا نسير على هداهم، ونخطو على خطاهم، ونحذو حذوهم في كل ما كانوا عليه. كما أنه ينبغي علينا أن نجعل منهم موضع تقديرنا واحترامنا ومودّتنا؛ لأن مودّتهم مودّة الله ولرسوله.

أما أولئك الذين نعتهم القرآن الكريم بأنهم منافقون، فالذي ينبغي علينا حينئذٍ أن نحذر منهم^(١)، وأن نضع عليهم ألف علامة استفهام؛ كيلا نساق وراءهم - وهو الأمر الذي يعني أننا إنما نقود أنفسنا إلى النار - بدعوى أنهم صحبوا الرسول ﷺ. وهذا يعني أنه ينبغي علينا ألا نجعل من هؤلاء موضع تقدير، وألا يكونوا كذلك من أحد؛ لأنهم إنما كانوا عالة على الإسلام، بل إنهم كانوا يريدون أن يقضوا على الإسلام ويقضوا على صاحبه الرسول الأكرم ﷺ بشتى الوسائل التي كانوا يتبعونها، والتي حدثنا عنها القرآن الكريم وكتاب التواريخ والسير.

القرآن وتقييم الآخرين

إذن فمن الواجب أن نعطي لكل من أبناء هذه المعسكرات الثلاثة حقه من التقييم على طبق ما تقتضيه المسؤولية الشرعية التي ينبغي أن نخضع لها وفقاً لما تمليه علينا القواعد الأخلاقية الإسلامية، والقوانين القرآنية التي

(١) قال تعالى: ﴿كَانَهُمْ خُشْبٌ مِّنْ سِنْدَةٍ يَحْسَبُونَ أَنَّ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَاتْلَهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ المنافقون: ٤.

يجب أن ندعن لها في مثل هذه الأمور؛ لأن مسألة تقييم الآخرين هي مسألة حساسة للغاية ودقيقة جداً؛ ولذا كان ينبغي أن تخضع لدراسة معمّقة جداً، ولتأمل كبير بعيد الغور، بحيث إننا لا نمدح من هو أهل للقدح، ولا نقدح فيمن هو أهل للمدح؛ بل إننا نمدح ونقدح وفق الضوابط والمعايير القرآنية، ووفق المقاييس الأخلاقية الإسلامية التي قنّنها لنا كل من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

قال الله، وقال فلان

فهذه هي الموازين العقلانية التي ينبغي أن تُتبع. ونحن طبعاً مع كل هذا، لكن أن يأتي أحد ويقول: «قال الله، وأقول»، فهذا ممّا نعتبر أنه غير معقول وغير مقبول أبداً؛ ولذا فإنه يؤسّس على هذه المقولة أن كل الذين عاصروا النبي الأكرم ﷺ لا يمكن أن يمسّهم أحدٌ بسوء أبداً؛ لأن صحبتهم له ﷺ عاصمة لهم عن السنة الناس وعن أقلام النقد والتقييم الواقعيين اللذين كما ذكرنا يستمدان مشروعيتهما من قوانين القرآن الكريم، وقواعد السنة النبوية المطهرة، وضوابط العقل التي أمرنا الله تبارك وتعالى باتباعها وتعبّدنا بها.

الواقعية في التقييم

وعليه فإن قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ نعت لهم على الحال التي كانوا عليها، وهو في الوقت نفسه تقييم واقعي لهم. وهذا يعني أننا حينما نقيم أحداً فإننا لا نخرج عن هذا الإطار الذي وضعه لنا القرآن الكريم، ولا نخرج عن إطار السنة النبوية المطهرة؛ لأن القرآن الكريم نفسه هو الذي قيّم هؤلاء،

وأعطاهم تلك الصفات التقييمية التي تضع تصرفاتهم وأعمالهم تحت مجهر التقييم؛ لدراستها دراسة دقيقة على ضوء القانون القرآني، وميزان معرفة سلوك الإنسان في سيرته الحياتية العملية، وما إذا كان هذا الإنسان مستحقاً لأن يُمدح أو مستحقاً لأن يقدر فيه قبل أن نقول فيه ما لا يستحقه، وقبل أن ننساق وراء عواطفنا تجاه البعض.

ومن هذا فإننا نستنتج أنّ ما ورد في هذه الآية الكريمة وفي غيرها من الآيات الشريفة التي تناولت هذا الموضوع مركّزة على هذه الجنبه الحساسة والهامة في تاريخ الإسلام هي إشارة إلى أن منهجهم في الحياة هو منهج مَرَضِي غير مَرَضِي، بل إنه منهج مرفوض؛ لأنه يخالف بشكل صريح وفاضح المنهج الإلهي والتعاليم الربانية وتبتعد عن القواعد السماوية المقدسة التي وضعت لتقنن للإنسان حياته ولينتهجها ويسير على هديها، أما أن يسير على منهج غير منهجها فهذا يعتبر منهجاً غير صحيح وغير مقبول، بل إنه مرفوض؛ لأنه مخالف مخالفة صريحة للإسلام الحنيف، ولقواعده الشريفة.

إذن فالذي ينبغي أن يكون هو أننا يجب أن نسير على منهج القرآن، ولا نخرج عن الإطار الذي رسمه لنا، ولا الإطار الذي رسمته السنة النبوية المشرفة، وألاً نحيد عمّا قننته السماء فيما يختص في كلّ أمور حياتنا من صغيرها إلى كبيرها. ونحن إذ نقول: السنة النبوية المطهرة؛ فذلك لأنها قد أشارت بشكل صريح وواضح وبما لا يقبل اللبس والتأويل إلى أن هنالك جماعة من الأصحاب هم غير مرضي عنهم، وأنهم قد أحدثوا في الإسلام وفي هذا الدين بعد الرسول ﷺ ما أحدثوا، وخالفوا صراحة القواعد الإلهية أو الأوامر السماوية المقدسة. ولذا فإننا نجد أن

القرآن الكريم^(١) والنبي الأكرم ﷺ وآله الطاهرين ﷺ قد أخبرانا أن هناك جماعة من أصحابه^(٢) يكونون موضع رعاية الله تبارك وتعالى

(١) كقوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ الفتح: ٢٩.

(٢) بل وتابعهم أيضاً؛ فقد ورد في دعاء الإمام السجاد ﷺ في الصلاة على أصحاب نبينا الأكرم ﷺ، وأصحاب الرسل ﷺ ومصدق الرسل: «اللهم وأصحاب محمد ﷺ خاصة الذين أحسنوا صحابه، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه، وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به، ومن كانوا منطوين على محبته، يرجون تجارة لن تبور في مودته، والذين هجرتهم العشائر وتعلقوا بعروته، وانتفت منهم القرباب إذ سكنوا في ظل قرابته، فلا تُنس لهم اللهم ما تركوا لك وفيك، وأرضهم من رضوانك، وبما حاشوا الخلق عليك، وكانوا مع رسولك دعاة لك إليك، واشكرهم على هجرهم فيك ديار قومهم، وخرجهم من سعة المعاش إلى ضيقه، ومن كثرت في إعزاز دينك من مظلومهم. اللهم وأوصي إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون: ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِأَخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠] خير الجزاء، الذين قصدوا سمتهم، وتحروا وجهتهم، ومضوا على شاكلتهم، لم يثنهم ريب في بصيرتهم، ولم يختلجهم شك في قفو آثارهم والائتمام بهداية منارهم، مكانفين وموازين لهم، يدينون بدينهم، ويهتدون بهديهم، يتفقون عليهم، ولا يتهمونهم فيما أدوا إليهم. اللهم وصل على التابعين من يومنا هذا إلى يوم الدين، وعلى أزواجهم، وعلى ذرياتهم، وعلى من أطاعك منهم صلاة تعصمهم بها من معصيتك، وتفسح لهم في رياض جنتك، وتمنعهم بها من كيد الشيطان، وتعينهم بها على ما استعانوك عليه من برّ، وتقيهم طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرُق بخير، وتبعثهم بها على اعتقاد حسن الرجاء لك، والطمع فيما عندك، وترك التهمة فيما تحويه أيدي العباد، لتردّهم إلى الرغبة إليك والرغبة منك، وتزهدهم في سعة العاجل، وتحبب إليهم العمل للأجل، والاستعداد لما بعد الموت، وتهوّن عليهم كل كرب يحلّ بهم يوم خروج الأنفس من أبدانها، وتعافيهم مما تقع به الفتنة من محذوراتها، وكسبة النار وطول الخلود فيها، وتصيرهم إلى أمن من مقبل المتقين». الصحيفة السجادية الكاملة: ٣٩ - ٤٢ /

ورحمته في حين أن هنالك جماعة يكونون على خلاف ذلك كما يرويه أصحاب الحديث من قوله ﷺ في جماعة من أصحابه يحشرون يوم القيامة يخلجون دونه - يعني تأخذهم الملائكة - فيقول ﷺ: «أصحابي». فيقال له: «إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك»^(١).

فمثل هؤلاء حتماً سوف يذهب بهم إلى نار جهنم في حين أن هناك جماعة ينعمون بروح الله وريحانه؛ لأنهم صدقوا الله سبحانه وتعالى، وصدقوه ما هدوه عليه، وعبدوه حقَّ عبادته، وأطاعوه أحسن الطاعات؛ لمعرفة ما سيؤول إليه أمرهم يوم القيامة من روح وريحان، وتيقنهم الكامل بحصول ذلك؛ بناء على عدة الله تبارك وتعالى لهم بهذا، وتصديقهم بها.

المسلمون والموازين القرآنية

وبناء على هذا نقول: إننا كمسلمين يجب علينا ألا يغيب عن بالنا كل هذه الصور التي يضعها القرآن أمامنا، بل إن علينا أن نضعها نصب أعيننا دائماً وفي مقاييسنا؛ حتى لا نحيد عن الحق حينما نقيم الآخرين، وحتى

الدعاء: ٤.

وقد مدح الصحابة أمير المؤمنين علياً بقوله: «لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَمَا أَرَى أَحَدًا يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ؛ لَقَدْ كَانُوا يُضِيحُونَ شِعْناً غُبِراً وَقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وَقِيَاماً يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ خُدُودِهِمْ؛ وَيَقْفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ؛ كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكْبَ الْمَغْزَى مِنْ طُولِ سُجُودِهِمْ؛ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبَلَّ جَبُوبُهُمْ؛ وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ خَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ؛ وَرَجَاءً لِلنُّوَابِ». نهج البلاغة / الخطبة: ٩٧.

(١) مسند أحمد ١: ٣٨٤ وغيرها كثير، المصنّف (ابن أبي شيبه) ٧: ٤١٥ / ٣٥، المصنّف (الصنعاني) ١١: ٤٠٧ / ٢٠٨٥٥، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٥: ٤ / ٣٢١٥، فتح الباري ١١: ٣٣٣ وغيرها.

لا نخرج عن الإطار القرآني الشريف في معالجة أحوال هؤلاء، وفي محاولة التعامل معهم تقييماً؛ قدحاً، أو مدحاً، أو توقفاً.

فالواقع الذي لا محيد عنه ولا محيص منه يملي علينا أن نقيم هؤلاء وهؤلاء وفق المنهج القرآني، وأن نبقي ضمن النهج القويم له، والذي يحتم علينا أن نكون واقعيين ومنطقيين وخاضعين لأحكام السماء في عملية التقييم هذه دون أن نضطر إلى أن نرسم صورة بلهاء غير متزنة عن الآخرين خاضعة للهوى وميل النفس، والاحتكام إلى الموروث؛ انسياقاً وراء التقليد الأعمى والأهوج لما عليه الأسلاف وإن كانوا على غير هدى؛ فنقدس ما ليس بمقدس، ونمجّد ما هو غير ممجّد. وهو ما يؤول بنا إلى القدح فيمن يستحق المدح، والمدح لمن يستحق القدح.

ونتيجة هذا المخاض الذي تعالجه هذه النفوس الموبوءة تعني حقيقة واحدة غير خاضعة للتشكيك بحال، هي تعويم الحقائق والمفاهيم، وتغيب الحق والتعظيم عليه، وخلق جوّ من التشكيك الذي يعوم في ضبابية المفاهيم المشوشة والممسوخة التي يراد لها أن تحقن في ذاكرة الشعوب والأجيال لإشباع مطامع النفوس عبر تحقيق الرغائب الكامنة وراءها، والصيرورة إلى طريق يبتعد بنا عن العدل، يُسلب فيه حقّ ذي الحقّ، ويمنح فيه من لا يستحقّ ما لا يستحقّ؛ نكاية بالحقّ، وعزّة بالإثم. وكل ذلك - كما لا يخفى - عن قصد وإصرار؛ لإبعاد كلّ كلمة حقّ يمكن أن تقال في المقام، وزحزحتها عن مقامها.

إننا نعرف سلفاً أن بني الإنسان فيهم الصالح وفيهم الطالح وفيهم من هو بين ذلك، وبناء على هذا فينبغي أن يعطى كلّ أحد حقه من التقييم دون أن يصادر ذلك الحق من صاحبه؛ فلا يمدح مقدوح فيه، ولا يقدح في

ممدوح كما ذكرنا.

هذا على مستوى النظرية والقانون اللذين أمرنا بالخضوع لهما، أما على مستوى التطبيق والعمل فإننا حينما ندقق في تاريخنا وفي تراثنا فإننا سوف نجد فيه ثغرة بينة فاغرة فاها تريد أن تزدد كل الحقائق بعد أن أتت على ما كان منها؛ ذلك أن الذي يحصل فيه هو خلاف كل ذلك، فما من تقييم خاضع لمقاييس الدين والعقل، ولا من قدح في شخص أو ذم أو مدح له ويكون ذلك القدح أو المدح أو الذم وفق التعامل العقلاني الذي يخضع صاحبه لإطار السماء الذي قيّدنا ووجّهنا وجهة ثابتة نسير عليها ونحن نقيّم الآخرين.

مفارقات في تراثنا

ولذا فإن البعض - بناء على هذا النمط من التفكير - يعطي الآخرين فوق ما يستحقونه مع أنهم لا يستحقون ذلك الحق، في حين أنهم في الوقت نفسه ينزلون بآخرين إلى الحضيض مع أن من حق هؤلاء أن يُرفعوا فوق الأنجم. يروي أصحاب كتب الأدب طرفة تقول: إن أعرابياً صاد سنوراً فلم يعرفه، فتلقاه رجل، فقال: ما هذا السنور؟ وتلقاه آخر، فقال: ما هذا الهر؟ وآخر فقال: ما هذا الضيئون؟ وآخر فقال: ما هذا القط؟ فقال الأعرابي: إني أحمله وأبيعه، فسيجعل الله لي منه يسراً. فلما حمله إلى السوق قيل: بكم؟ قال بمئة. فقيل: إنه يساوي نصف درهم. فرمى به وقال: لعنه الله؛ فما أكثر أسماءه وأقل نفعه^(١) وهذه القصة في واقع الأمر تصوّر لنا الحالة التي نحن في صدد الحديث

(١) محاضرات الأدباء ٢: ٧١٩.

عنها تصويراً حياً، وتبين لنا أن هناك نمطاً من الناس هم من هذا النوع عينه، فإننا نجد أن في تاريخنا من لا تبلغ قيمته مثقال ذرة لكننا نجد أن البعض حينما يتناول شخصيته فإنه يعطيه ألقاباً ضخمة كثيرة وعناوين مبالغاً فيه كبيرة، وكل ذلك على حساب العقل وعلى حساب الموازين والأقيسة. وهذا التوجّه لا يعدو أن يكون أحد أمرين:

- ١- أنه مؤشّر فاضح ينمّ عن بله صاحبه.
- ٢- أنه نفاق منه لمن مدحه أو أعطاه تلك الألقاب؛ لأنه يريد أن يتقرّب منه، أو أن يتزلف إليه.

وأولئك الذين يعطون هذا النمط من الناس تلك العناوين والألقاب الضخمة نجد أنهم أنفسهم حينما يمرّون بقمّة من القمم التي لا يمكن أن تطالها الأنفس الوضيعة يندفعون ليحاولوا أن يقدحوا فيها بكل ما أوتوا من قابلية ومن قدرة على الكذب والافتراء، وبكل ما يملكون من قوّة في تزييف الحقائق، حتى يصل الأمر بأحدهم أن يصف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بأنه كاذب قد وُضع في لحدّه وهو لا يعرف من كتاب الله آية.

ضرورة الخضوع للحق

وهذه المفارقات التي نراها في تاريخنا وتراثنا هي حافز لنا على أن نقيم الآخرين وأقوالهم في زيد وعمرو وفي بكر وخالد، كما أنها تبعث في أدمغتنا نشاطاً يحثنا ويأخذ بأيدينا إلى عملية التقييم هذه؛ لأننا نريد أن نعرف طريق الحقّ فنّبعه من طريق الباطل فنجنّبه. أمّا أولئك الذين يحاولون أن يموهوا تلك الحقائق فلا بدّ من كشفهم وكشف زيفهم وكذب ادعائهم في مدحهم ثلّة هي من أخطّ الناس، وفي تغييبهم أو

توهينهم وتحجيمهم لمجموعة هي عبارة عن قمم ونجوم متألفة في سماء الدين وفي سماء الإسلام وفي حياة المسلمين كافة .

فالواقع يُملي علينا أن نعرف طريق الحق من طريق الباطل ، وأن نميز بينهما ، وأن نتبع منهج الحق وأن نترك منهج الباطل ؛ لأننا بهذا نكون قد امتلنا لكل ما رسمته لنا السماء ، ولا نخرج عن ذلك الإطار الإلهي المقدس الذي يريدنا أن نكون ضمن دائرته ، والإطار الذي يبيّن لنا المنهج الواضح الذي ينبغي أن نسير عليه .

إذن ليس من الصحيح أن نعمد إلى مبدأ « قال الله سبحانه وتعالى وأقول » ونعمل به ، مع ما يتضمنه من معاندة صريحة للأوامر الإلهية ، وما ينطوي عليه من مخالفة واضحة للمقاييس الشرعية؛ ذلك أننا نجد مثلاً وفق المقاييس الشرعية أن القرآن الكريم يعبر عن ثلّة من الصحابة بأنهم منافقون ومنافقات ، أما وفق مبدأ « قال الله تبارك وتعالى وأقول » فإننا نجد أن هناك الكثير ممن يسبغ على هؤلاء المنافقين صفة التقديس ، ويحلّهم موضع التكريم والاحترام ، بحيث إنه يكفّر من ينالهم بالقول ، أو ينال منهم أو يوجه إليهم أقلام النقد المبتني على المقاييس الشرعية ، وعلى المنهج القرآني .

إن مثل هذا الكلام ، ومثل هذه التصرفات يجب أن يُنأى بها عن حضرة الشرع الحنيف ، وأن تطرح عن دائرة المعقول ، وأن يرجع القائلون بها إلى ضوابط السماء ، وأن يعملوا على ضوئها وهم يتعاملون مع هذه الظاهرة ، وإلا فإنهم سيصبحون مصداقاً للمروق عن تعاليم الدين ، والتقيّد بها .

المبحث الثالث: نظرة القرآن الكريم إلى المرأة

تقول الآية الكريمة: ﴿الْمُنَافِقَاتُ﴾، وهنا نقطة ينبغي التنبيه إليها، وهي أن القرآن الكريم قد وضع المنافقات مع المنافقين، ونصّ عليهنّ في هذه الآية الكريمة، مع أن المجتمع العربي الذي نزل فيه القرآن كان مجتمعاً بدوياً جاهلاً لا يعطي للمرأة مساحة أكثر من تلك المساحة التي يركننها فيها بين الجدر وخلف الشُّتر؛ ذلك أن المرأة عندهم دائماً تكون في موضع اشمئزاز. وهذا ما نلتمسه من خلال مآثوراتهم الأدبية التي وصلتنا، والتي تصور لنا تلك النظرة التي كانوا عليها إزاء المرأة، وترجم لنا بدقة وتفصيل كيف كان موقفهم السلبي منها، يقول أحد الشعراء:

القبر أخفى سترةً للبناتِ ودفنهنّ يُرى من المكرماتِ
ألم ترَ الرحمن عزَّ اسمه قد وضع النعش بجنب البناتِ^(١)

في إشارة إلى المجموعة الكوكبية التي تسمى بنات نعش. وهذا تصوير منهم صريح بأنهم لا يريدون للمرأة أن تعيش، بل إن الواجب هو قبرها في ملحودتها حتى يُتخلّص من عارها الذي تصوّره لهم أو هامهم وموروثاتهم^(٢).

(١) ديوان الباخري ١: ١٠٠، وانظر: ذيل تاريخ بغداد ١٨: ٢٩٨، السيرة الحلبية ٢: ٤٣٦، المقاصد الحسنة ٢: ٣٤٧، التيسير بشرح الجامع الصغير ١: ٥٠٨، فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣: ٥٥٥، كشف الخفاء ١: ٤٠٧ / ١٣٠٨.

(٢) وبناء على ما أسلفنا من تعلق البعض - ممّن لا يرضيه الرجوع إلى قوانين العقل - بالموروث، فإننا نجد أن هناك من ينسب روايات تتضمّن هذا المعنى بنصّه عن رسولنا الأكرم ﷺ؛ حيث يُنسب إليه ﷺ قوله حينما دفن ابنته رقية ؓ: «الحمد لله؛ دفن البنات من المكرمات». المعجم الكبير ١١: ٣٦٦، مسند الشاميين ٣: ٣٢٥، مسند الشهاب

إذن فهؤلاء كان موقفهم من المرأة موقفاً سلبياً، وعلى هذه الشاكلة التي أبرزناها، بحيث إن الأمر يصل عندهم إلى مرحلة هي أن المرأة إذا حصلت لها العادة الشهرية فإنهم كانوا يبنذونها وراء البيوت، ويبعدوهن عن ممارسة نشاطاتهن وواجباتهن في الحياة العامة تماماً؛ بحيث إنها لم يكن لها أي دور عندهم في تلك الحياة أبداً.

وهذا هو الذي جعل من القرآن الكريم يقف منهم تلك المواقف المشهودة في محاولة تصحيح هذه النظرة المغلوطة إلى المرأة، وليخرج بالمرأة من هذه الصورة القاتمة التي يحدّد البعض معالمها فيها، ويرسم لها مجالاً واسعاً في الحياة وإن كان المجال الذي تتكلم عنه آية المقام الكريمة حيالها. والصورة التي رسمها القرآن الكريم لها هنا صورة ومجالاً سلبيين؛ لأنها كانت تقف إلى جانب المنافقين، في إشارة إلى تلك الثلة المنافقة من النساء التي كانت تعمل إلى جانب المنافقين من الرجال على هدم الإسلام والقضاء عليه.

الأثر الحقيقي للمرأة في الحياة الاجتماعية

إن هؤلاء النسوة المنافقات اللواتي كن يعملن على هدم الإسلام هنّ مسلمات كما هو معروف، وهذا يعني أن الإسلام الحنيف قد أعطى للمرأة حقّ التحرّك وحرّيته، وحرية التعبير عن رأيها بشكل كامل. ومن هنا نستدل على أن النساء في الإسلام كنّ يلعبن دوراً مميزاً وهاماً في ميادين الحياة كافة؛ سواء كان هذا الدور سلبياً أو إيجابياً كما ذكرنا.

١٧٣، ١: ١٧٢، السيرة الحلبية ٢: ٤٣٦. مع أن هذا الحديث يمكن توجيهه بغير ما ذهبوا إليه كما هو واضح ممّا يحتمله من معانٍ أخرى غير هذا.

تاريخ تجنيد المرأة في المنظومات الاستخبارية

وهذا الدور حاول المشركون واليهود استغلاله بكل أبعاده؛ ومن هنا فإننا نجد أن قريشاً حينما رأت المستوى الضخم الذي بلغته الدعوة الإسلامية، ورأت المبلغ العظيم التي بلغته ووصلت إليه؛ حيث إن هذه الدعوة أخذت تشق طريقها بتراتبية تصاعديّة وتيرة متسارعة إلى القلوب وإلى المجتمعات العربية وغيرها في ذلك الوقت.. المجتمعات التي كان الظلم ينخر فيها، وكان القوي فيها يأكل الضعيف - وهو ما حاول القرآن الكريم محاربتة؛ بحيث إنه توعدّ الظالمين وهددهم بأنهم سوف يتعرضون إلى أشدّ الحساب، وإلى نار جهنم جرّاءه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾^(١) - لأن ذلك المجتمع قد رأى فيها الدين الذي يحقق له العدل، والذي ينشر المساواة بين الناس، والذي ينتصف للمظلوم من الظالم وإن كان المظلوم إنساناً عامياً ومن الرعيّة، وكان الظالم إنساناً معروفاً، أو ملكاً، أو سيّداً.

ومن هذا، إضافة إلى عملية استقراء التاريخ، واستنطاق حقائقه التي سطرها القرآن الكريم والكتب المختصة بتدوين تاريخ المسيرة البشريّة نستنتج ثلاثة أمور في غاية الأهميّة هما:

الأول: أثر التوازن الاقتصادي في إرساء الاستقرار في المجتمعات

إننا نعي حقيقة أن للتوازن الاقتصادي في المجتمعات البشريّة عامّة أثراً كبيراً وهاماً في إرساء دعائم الاستقرار على أصدته كافة فيها؛ سواء كان

(١) الكهف: ٢٩.

استقراراً معاشياً، أو أمنياً، أو حتى على مستوى مسيرة التطور عندها، كما أن له أثراً واضحاً بيناً في تدعيم قواعد بناء البنى الأساس لتلك المجتمعات .

الثاني: أن المجتمع الجاهلي مجتمع غير متوازن

إن المجتمع البدوي الجاهلي كان مجتمعاً غير متوازن؛ فمن خلال ما مرّ نستطيع أن نقول: إن المجتمع الذي نزل فيه القرآن الكريم كان مجتمعاً يضمّ ثلة لا تجد حتى الرغيف الذي تأكله، كما أن في مقابل ذلك كانت هناك ثلة أخرى تأكل من الطعام بمقدارٍ لا تتسع له بطونهم، بل إلى الحدّ الذي كانوا يصابون معه بالبطنة من كثرة ما يأكلون وما يشربون، الوقت الذي يدركون فيه أن من حولهم أناساً غرثى لا يجدون ما يأكلون .

ولذا فإن رسولنا الأكرم ﷺ حينما أنزل عليه القرآن الكريم كان قد وضع نصب عينيه هدفاً محدداً من ضمن مجموعة الأهداف السامية التي سعى إلى تحقيقها، وأراد أن يرصد لها حركته التغييرية والإصلاحية العارمة، وهو أن يعدّل من ذلك التوازن إن لم نقل: يوجد، وأن يعيد توزيع الثروات التي أسيء توزيعها واستعمالها فيه، فجهّز مساحة عريضة من الأحكام المختصّة بهذه الجنبه في تلك المرحلة الهامة والحرجه، ولما بعدها من مراحل زمنية، وقنن الكثير من التشريعات المتعلقة بهذا الجانب الحيوي والحساس في حياة المجتمعات البشرية؛ لما له من دخل كبير في أمنها الاقتصادي، واستقرارها السياسي. وهذا ما صرحت به بعض آيات الذكر الحكيم، ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴿١﴾.

إذن فالقرآن الكريم وأمينه رسولنا الأكرم ﷺ بدأ رحلة عسيرة الوطء، طويلة المخاض تنزلزل لها الخطأ في عملية تعديل ذلك التوازن في تلك المجتمعات، وإعادته إليها من خلال حث المسلمين على الإنفاق، وتشجيعهم عليه برصد ما وصف لهم من الجنة إزاءه، ووعدته إيّاهم بها بما فيها ممّا لم ترّعين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب إنسان.

الثالث: أن الحركات التحرّرية أسرع انتشاراً في المجتمعات المسحوقة

وبما أن الأغلبية الساحقة كانت طبقة مسحوقة محرومة، ومزدراة، وفقيرة معدمة، فإن الإسلام أخذ ينتشر فيها انتشاراً كبيراً، بحيث إنه كان ينطبق عليه المثل القائل: «كانتشار النار في الهشيم»؛ لأن هؤلاء رأوا فيه الوسيلة الوحيدة للقضاء على ما كانوا يعيشونه من بؤس وظلم وازدراء واحتقار في المجتمع الذي كانوا ينتمون إليه.

وقريش حينما رأت أن هذا الدين الجديد قد أخذ ينتشر بين الناس انتشاراً كبيراً، وأن رقعته بدأت تتسع بشكل كبير وقياسي راحت تفكر في شتى الطرق للوقوف في وجهه، فكان أن استعملت - للوصول إلى ذلك - كلّ ما تملك من طاقات وقوى وقابليات لردعه، ولمحاربة المسلمين ومحاصرتهم، وتضييق الخناق عليهم؛ كي يمتنع الناس في نهاية المطاف عن التهافت على الدخول في هذا الدين.

وبعد تأمل اهتمدوا إلى حقيقة أن عنصر المرأة يمكن أن يلعب دوراً هاماً وبارزاً في هذا المجال الذي يريدون أن يوظفوا المرأة له؛ لأنها من

(١) البقرة: ٢٧٤.

الممكن أن تكون عنصراً فاعلاً ومؤثراً فيه ، بحيث إنها تبلّغهم مآربهم وأمانهم في النيل من الدين الإسلامي الحنيف .
وهذه النظرية لا تخلو من وجه صحّة؛ فمن البديهي والمعروف أن المرأة لها دور مهم وكبير في التأثير على الرجل وإلى حرفة عن الطريق الصحيح السوي ، وإلى تغييره ، وبالتالي إمكانية التأثير عليه وفق ما تمليه عليه تلك المرأة التي أخضعته لسحرها وتأثيرها .

المرأة في التاريخ الإنساني وجذور تأثيرها على الرجل

ونحن حينما نرجع إلى تاريخ الإنسانية نجد أن الإنسان من الممكن أن يصمد أمام كثير من المؤثرات التي تعترضه ، والتي ربما يبلغ الحد معها أن تصل إلى التعذيب وإلى تقطيع الأعضاء ، فمن الممكن أن يقف الإنسان في وجه تلك المؤثرات ويصمد دون أن يتراجع أو دون أن يتخلى عن مبدئه أو معتقده ، لكننا نجد أن البعض لا يمكن أن يصمد أمام تأثير المرأة وأمام إغوائها وسحرها . وهذه الظاهرة استغلتها المجتمعات البشرية في كل مكان حتى بتنا نسمع ونقرأ عن كثير من الأدوار التي لعبتها المرأة في الحروب وفي تغيير مسارها ، وفي عمليات التجسس التي كانت تقوم بها .

نماذج من دور المرأة وتأثيرها في الحياة

وهنا سوف نتطرق إن شاء الله تعالى إلى بضعة نماذج مما يمكن أن يتّسع له المجال حول تأثير المرأة في المسيرة البشرية ، وما كان لها من دور ملموس وملحوظ فيها ، وهي :

الأول: سارة مولاة أبي عمرو ومحاولة استغلالها في فتح مكة والذي يظهر أن قريشاً أيضاً ممن التفت إلى هذه الظاهرة كما ذكرنا، وحاول استغلالها عن طريق تسخير مجموعة من النساء تقوم بوظيفة ما يمكن أن نسميه الاستخبارات التي تمدّهم بأخبار المسلمين وبأخبار النبي ﷺ وبخططهم للانتشار والتوسع وفي خططهم الحربية وفي الدفاع وما إلى ذلك. ومن هذا ما يرويه المفسرون وغيرهم من كتاب السير من أن النبي ﷺ حينما عزم على فتح مكة كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم فيه الخبر، وبعث به مع سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هشام التي كانت قد أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة بعد بدر بستين، وكانت قريش قد أرسلتها لتتجسس لها أخبار المسلمين؛ لأنهم عرفوا أن الرسول ﷺ سيعزّوهم بعد أن خرقوا اتفاقهم معه ﷺ. وقد حدسوا بأن سيكون على إثرها نوع من التحرك الذي سيقوم به الرسول الأكرم ﷺ.

فلما جاءت رسول الله ﷺ قال لها: «أمسلمة جئت؟». قالت: لا. قال: «أمهاجرة جئت؟». قالت: لا. قال: «فما جاء بك؟». قالت: كتتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد ذهب موالِيّ، واحتجت حاجة شديدة، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني وتحملوني. فقال لها ﷺ: «فأين أنت من شبان مكة؟». وكانت مغنية ونائحة، فقالت: ما طلب مني ذلك بعد وقعة بدر. فحثّ رسول الله ﷺ بني عبد المطلب على إعادتها، فكسوها وأعطوها نفقة.

وكان رسول الله ﷺ يتجهّز لفتح مكة كما ذكرنا، فأثاها حاطب بن أبي بلتعة، وأعطاه ذلك الكتاب إلى أهل مكة، وأعطاه عشرة دنانير،

وكساها برداً على أن توصله إليهم، وكتب في الكتاب: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذرکم. وخرجت سارة من المدينة، فنزل جبرائيل عليه السلام، فأخبر النبي ﷺ بما فعل حاطب، فبعث رسول الله ﷺ لها من يأتي بالكتاب منها، فأخبرتهم بأن لا كتاب معها، وحلفت على ذلك. فعادوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أن ليس معها كتاب، وأنها قد حلفت على ذلك، فأرسل إليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وعماراً والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وعمر والزبير وطلحة، وقال ﷺ لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ^(١)؛ فإن بها طعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها».

فخرجوا حتى أدركوها في ذلك المكان الذي ذكره رسول الله ﷺ لهم، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، فنحوها وفتشوا متاعها، فلم يجدوا معها كتابه، فهمموا بالرجوع، فقال الإمام علي عليه السلام: «والله ما كذبنا، ولا كُذِّبنا». ثم سأل عليه السلام سيفه وقال لها: «أخرجي الكتاب وإلا والله لأضربن عنقك». فلما رأت الجدد أخرجته من ذؤابتها، وكانت قد خبأتها في شعرها. فرجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ.

فأرسل ﷺ إلى حاطب فأتاه، فقال له: «هل تعرف الكتاب؟». قال: نعم. قال: «فما حملك على ما صنعت؟». قال: يا رسول الله، والله ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحت لك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة من يمنعه، وهم عشيرته، أمّا أنا فكنت غريباً، وكان أهلي بين ظهرانيتهم، فخشيت عليهم منهم، فأردت أن

(١) خاخ: موضع بين الحرمين، بقرب حمراء الأسد من المدينة. معجم البلدان ٢: ٣٣٥ - خاخ.

أَتَّخِذْ عِنْدَهُمْ يَدًا، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ بِهِمْ بِأَسْهٍ، وَأَنَّ كِتَابِي لَا يَغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا.

وحاطب بن أبي بلتعة هذا كان بدرياً، وكان للبدريين مكانة كبيرة في قلب الرسول ﷺ وفي الإسلام، ولذا فإنه حينما برر موقفه بأنه لم يكفر بعد إسلام ولم يشك بعد إيمان، لكنها لحظات ضعف مرت به حيث إن عائلته كانت عند قريش وكان يخاف أن ينكّلوا بها فعمد إلى هذا الفعل وإلى هذا الأسلوب؛ لأنه يريد أن تكون له يد عند قريش وصنيع بحيث إذا ما تغلبوا على جيش النبي ﷺ فإنهم سوف يحفظون له ذلك الصنيع؛ فلا يؤذون عائلته.

الأنظمة الحديثة وقضية التنكيل بذوي أصحاب العلاقة

إن هذا الأسلوب الذي تحدث عنه حاطب بن بلتعة - وهو أنه كان يخشى على عائلته من تنكيل قريش - لهو أسلوب عامّ تستخدمه جميع النظم التي تدعي أنها نظم ثورية على مرّ التاريخ، حيث إنها تعمد إلى من يخالفها في الرأي وفي الرؤية وفي العقيدة أو المتبنيات الفكرية على أي مستوى كان إذا لم تتمكن من الإمساك به والقضاء عليه بأن تقتله أو تنفذ فيه حكم الإعدام فإنها تعمد إلى القبض عليه من خلال يده التي تؤلمه، فيعمدون مثلاً إلى أبنائه وبناته، أو إلى أمّه وزوجته فيقبضون عليهم، ويحاولون إهانة كرامة ذلك الإنسان عبر إهانة متعلّقيه أو لئلك؛ حتى يتمكنوا من أن يصلوا إليه، أو أن ينتزعوا منه اعترافاً فيما لو وقع بعد ذلك في قبضتهم، أو كان أساساً تحت قهرهم وسلطانهم دون أن يستطيعوا أن ينتزعوا منه ذلك الاعتراف الذي تطلبه منه تلك النظم التي تدعي أنها نظم ثورية جاءت لمصلحة الشعوب من أبناء الإنسانية.

وفي واقع الأمر إن هذا اللون من التصرف هو تصرف يبرهن على أن الإنسانية لازالت حتى الآن تعيش في مستنقع ضحل من القيم في ظل هذه الأنظمة، وتقع في حضيض من التعامل مع الإنسان الذي ينبغي أن يرفع وأن يعامل معاملة حرة كريمة، لا أن يُنظر إليه على أنه حثالة أو سلعة للبيع في أسواق مزاد رغبات الحكام الجائرين والمتسلطين على رقاب الناس، والذين يدعون أنهم أصحاب حق في تعاملهم مع أبناء شعوبهم كيف يشاؤون، سيما أولئك الذين يتميزون بأن لهم فكراً، أو بأنهم علماء، أو أصحاب اختراعات، أو ما إلى ذلك مما يعود على مجتمعاتهم بالفائدة.

فمثل هؤلاء بدلاً من أن يعاملوا بذلك اللون المنحط من المعاملة المزرية المشينة، وبدلاً من أن تهدر كراماتهم بالاعتداء على ذويهم، فإنهم يجب أن يكرموا وأن يوضعوا في مكان يليق بهم؛ لأنهم يمثلون نقطة إضاءة متألفة حيث يكونون، ويشكّلون مجد الأمة وعنوانها المتوهج، وواجهتها المشرقة، وتاريخها الحافل بالمفاخر، وليس تلك النظم المستبدة التي تعمد إلى قتل العلم وإلى قتل ذويه، والقضاء على الفكر عند هؤلاء، أو عند أبناء مجتمعاتها كافة؛ كي تتمكن من أن تحكم السيطرة عليها.

رجع

وعلى أي حال فإن النبي الأكرم ﷺ حينما سمع من حاطب ما قدّمه له من اعتذار في محاولة تبرير موقفه، صدّقه ﷺ وعذره على فعله ذلك ثم قال له: «وكلتك إلى إيمانك، وقد عفوت عنك، فاستغفر ربك ولا تعد إلى

مثلها» (١).

وفِعلاً فإنه ﷺ لم يرتب عليه أثراً حياًل فعله ذلك، مع أن أحد الصحابة طلب من النبي ﷺ أن يقتله، غير أنه ﷺ رفض ذلك لأنه كان بدرياً كما ذكرنا، والبدرى له مكانته غير المحدودة عند النبي وعند المسلمين وفي الإسلام.

وعلى أية حال فالنبي ﷺ أخذ بعين اعتباره وبنظرته الشفيقة والرحيمة الظرف النفسي الذي مر به حاطب هذا، حيث إنه ﷺ عرف بأن الظرف النفسي الذي كان يعيشه والضغوطات التي كانت تحاصره نتيجة وجود عائلته في مكة تحت رحمة المشركين الذين حدثنا التاريخ عمّا كانوا يفعلونه بعوائل المؤمنين، وبتعذيبهم وتقتيلهم كما فعلوا مع عمار بن ياسر ومع أبيه وأمه (رضوان الله عليهم) معذراً له، ولذا فإنه ﷺ قد عذره لذلك سيما إذا ضممننا إلى ذلك أمراً هو أن حاطباً هذا لم يكن يقصد تلك الخيانة مطلقاً، بل كان واقعاً تحت تلك الضغوط النفسية والظروف التي كان متأثراً بها إلى حدّ ما كما ذكرنا، وإلا فإنه ليس من المعقول أن يعفو عنه رسولنا الأكرم ﷺ لولا أن كان الأمر كما قلنا.

وعلى أية حال فالذي يهمننا من هذه القصة هنا هو أن عنصر المرأة كان عنصراً فاعلاً في المجتمعات، وكان له تأثير كبير على أن يوصل من يجنده إلى مبتغاه بما تملك تلك المرأة من قابلية على التأثير ومن سحر، وبالتالي فإنها تنجح في استخلاص المعلومات التي تريدها وفي سحبها

(١) انظر قصة حاطب هذا في الإرشاد ١: ٥٧ - ٥٩ مجمع البيان ٩: ٤٤٥، كشف الغمة ١: ٢١٦ - ٢١٧، المصنّف (ابن أبي شيبعة) ٨: ٦٨٥ / ٢٩، الجامع لأحكام القرآن ١٨: ٥٠، تاريخ المدينة ٣: ١٠٨٣.

ممن توظف للايقاع به .

وهكذا فاننا نعرف أنهم قد أخرجوا هذه المرأة من كونها عنصراً غير فاعلٍ ووضعوها في دور تكون فيه عنصراً فاعلاً ذا أثرٍ وتأثير كبيرين يعودان عليهم بالنفع؛ لأنهم وجدوا أن لها قابلية كبيرة على القيام بذلك الأمر وتحقيقه، فكان أن جندوها في وظيفة يمكن أن نسميها في وقتنا الحاضر وظيفة استخباراتية كما ذكرنا في أكثر من مكان .

الثاني: جوارى النضر بن الحارث وتأثيرهن على البعض

وأبرز مصداقٍ ودليلٍ على ذلك - وهو أن للمرأة تأثيراً على الرجل باستعمال الغرائز والسحر الأنثوي - ما كان يفعله النضر بن الحارث مع المسلمين مستخدماً جواريه، والذي يقول عنه المؤرخون: إنه كان يشتري الجوارى المسبيات اللاتي يجاء بهن من أفريقيا أو الخزر أو النبط أو من جهات أخرى من مختلف الجنسيات، ثم يأمرهن بمعاشرة المسلمين ليصرفهم عن دينهم، وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول: أطعميه واسقيه وغنيه. ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه، فنزلت فيه هذه الآية الكريمة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (١) ... (٢) .

إذن فالنضر بن الحارث كان يمارس هذا الدور مع المسلمين في ذلك الوقت، فكان يأمر جواريه بأن يخضبن أكفهن بالحناء، بعد أن يشتريها

(١) لقمان: ٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤: ٥٢، روح المعاني ٢١: ٦٧.

لهن ويوفر لهن كل وسائل الغواية، فيأخذن الحنء ويضربن بهن أيديهن مستعملات ما يمكن لهن من أدوات الزينة، ويخرجن يطفن في شعاب مكة وأزقتها وهن يتغنين بهجاء النبي ﷺ. ونحن نعرف أن الرأي العام هو بسيط سريع الانخداع سرعان ما يتأثر وينخدع بمثل تلك المؤثرات؛ لأنه عادة يفكر بأذنه وليس بعقله.

وكان من أمر النضر هذا الذي كان يغطي تلك النفقات التي كان يصرفها على أولئك الجواري اللواتي كن يطفن في شعاب مكة وأزقتها متغنيات بهجاء رسولنا الأكرم ﷺ قد وقع أسيراً بيد المسلمين بعد أن خرج لقتال النبي ﷺ في سرية من السرايا، فجاؤوا به أسيراً إلى النبي ﷺ، فقدموه بين يديه ليضرب عنقه فقال له: يا محمد، استبقني للصبيّة والعائلة. فقال له ﷺ: «إن استبقيتك لهم، فهل ترجع عما أنت فيه؟». فقال: نعم.

فعفا عنه رسولنا الأكرم ﷺ وأطلق سراحه، لكنه لم يحفظ العهد، بل عاد إلى ما كان عليه بأشدّ ممّا كان، وراح يمارس طريقته تلك بشكل أكبر، لكن القدر شاء أن يُجاء به أسيراً مرّة ثانية في معركة بدر، فأدخلوه على رسول الله، فقال له: «ألم أعف عنك؟».

فالنبي الأكرم ﷺ يريد أن يقول له: لماذا تشتمنا بهذا الشكل مع أنك تعلم أن الشتم ليس من شيم الرجال؟ ثم إنك حينما تشتمنا فإنما تشتم نفسك لأننا من المجتمع نفسه ومن المكان نفسه الذي نعيش فيه غير، أنه كما رأينا بعد أن أطلق النبي ﷺ سراحه في المرّة الأولى، عاد إلى مزاوله تلك المهنة نفسها وإلى السير على تلك السيرة التي كان عليها قبل أسره، بل إنه أخذ ينفق على تلك الأمور بشكل أكثر حتى إنه حشد لفيفاً كبيراً من الجواري والنساء اللواتي رحن يدرن في مكة ويتغنين بهجاء

النبي ﷺ وبشتمه (صلوات الله عليه).

وهنا طلب من النبي الكريم ﷺ أن يستبقه لصبيته قائلاً له: استبقني للصبية. فرفض النبي ﷺ ذلك قائلاً له: « تريد أن ترجع وتقول: هزئت بمحمد مرتين؟ قدّمه يا علي واضرب عنقه». فجذبه أمير المؤمنين عليه السلام، ثم اخترط سيفه فقتله.

فلما بلغ خبر قتله أخته قتيلة - أو ابنته - التي يبدو أنها كانت أديبة ومن نمط غير عادي كتبت إلى النبي ﷺ هذه الأبيات - وذلك قبل إسلامها - وهي أبيات من الشعر رائعة، كونها قطعة أديبة فيها نصوصٌ وأداء مباشر، وهي قولها:

يا راكباً إن الأثيل مظنة	من صبح خامسة وأنت موقف
أبلغ به ميئاً فإن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفق
مني إليه وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها وأخرى تخنق
هل يسمعن النضر إن ناديته	بل كيف تُسمع ميئاً لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه	لله أرحام هناك تشفق
صبراً يقاد إلى المنيّة متعباً	رسف المقيد وهو عانٍ موثق
أمحمد ولدتك صنو نجيبة	من قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما	منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
النضر أقرب من أسرت قرابة	وأحقهم إن كان عتق يعتق
لو كان قابل ندبة لندبته	بأعز ما يغلى به أو ينفق

فلما وصلت هذه الأبيات إلى النبي الأكرم ﷺ وهو المعروف بعطفه وشفقته هزته من أعماقه، وتألم كثيراً، وبكى حتى اخضلت بالدموع

لحيته الشريفة، وقال: «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه» (١).
والشاهد هنا هو أن النضر هذا وغيره من عتاة قريش قد حشدوا المرأة
في ميدان الدعاية ضد النبي الأكرم ﷺ؛ لما عرفوا لها من تأثير بالغ في
ميدان الدعاية هذا.

الثالث: تجنيد المرأة في حروبهم ضد الرسول الأكرم ﷺ

كما أنهم كذلك جندوها في ساحة الحرب حيث أخذ أبو سفيان مثلاً
الجواري ودفعهن في حربه مع الرسول الأكرم ﷺ حتى وصلت الحالة
بهن إلى أن يخرجن مواضع الفتنة من أجسادهن أمام الجيش الإسلامي
حتى يغرين أفراد ذلك الجيش بقصد استمالة عدد أكبر منهم إلى جانب
المشركين. بل إنهم عمدوا إلى أصحاب النبي ﷺ حتى في حالات
السلم التي مرّ بها الجمعان، فصاروا يمتنونهم بالنساء والأموال إغراءً
لهم، ومحاولة لحرفهم.

الرابع: محاولات عتاة قريش التأثير على الرسول ﷺ

كما أنهم قد حاولوا استغلال هذا الأمر حتى مع النبي الأكرم ﷺ حيث
جاؤوا إلى أبي طالب عليه السلام، وقالوا له: إن ابن أخيك إن أراد حكماً مَلَكناه،
وإن أراد مالاً أعطيناه من صفوة أموالنا، وإن أراد الزواج زوّجناه ممّن
يريد.

ذلك أن هؤلاء كانوا يتصورون أن المسألة التي كان عليها النبي
الأكرم ﷺ هي مسألة سطحية ومسألة عادية يمكن أن تحلّ عن طريق

(١) الاستيعاب ٤: ١٩٠٤ - ١٩٠٥ / ٤٠٧٠، شرح نهج البلاغة ١٤: ١٧١، أحكام القرآن ٤:
١٣٢، الجامع لأحكام القرآن ٨: ٥٩، التفات ١: ١٤٤.

الرغبات الجسدية، فكان أن عرضوا على النبي ﷺ ما عرضوا من أنهم سوف يزوجه بأجمل نساء قريش .
فالتفت أبو طالب إلى الرسول ﷺ وقال له: أسمع ما يقول قومك؟ فقال ﷺ: «والله ياعم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما فعلت»^(١).

الخامس: محاربة الإسلام عن طريق تحريض المرأة ضده

إذن هؤلاء قد جندوا المرأة في شتى الميادين، وليس في حالات الحرب فقط، حتى إنهم استغلّوها نفسها، فرفعوا ما أسموه بـ«قضايا المرأة» سلاحاً في وجه الإسلام لمحاولة القضاء عليه، أو لا أقل من الحد من تحركه وانتشاره. وهانحن على مشارف نهاية هذا القرن مع أنه يسمى بالعصر الحديث لكننا لا زلنا نجد هنا من يستغل هذه الظاهرة، فيعمل على مشروع القضاء على الإسلام عبر إثارة جملة من المسائل، فهذه الأنظمة المعادية للإسلام تحاول أن تحرض المرأة ضد الإسلام عن طريق إثارة مواضيع لها علاقة بالميراث وما إلى ذلك ممّا يحاولون أن يقدحوه في نفوسهن من أنه ظلم من الإسلام لهنّ، وأن مثل هذه التشريعات ليس فيها إنصاف لهنّ أبداً.

مع أن هذه الأنظمة التي تسعى جاهدة إلى تحريض المرأة ضد الإسلام إنما تفعل ذلك في محاولة لاستغلال بعض النقاط التي عالج بها دين الإسلام بعض المشاكل الحياتية التي تتعلق بالرجل والمرأة ممّا له صلة بالحياة الزوجية أو الأسرية، ومن هذه الأمور نذكر ثلاث مسائل هي:

(١) انظر: بحار الأنوار ١٨: ١٨٢، تاريخ الطبري ٢: ٦٧، البداية والنهاية ٣: ٦٣.

المسألة الأولى: قضية الميراث

إننا نعرف أن الله تبارك وتعالى قد أعطى المرأة في قانون الميراث الإسلامي نصف نصيب الرجل، وهذا ما تنصّ عليه الآية الكريمة التي تقول: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾^(١)؛ ولذا فإن هؤلاء حاولوا أن يستغلّوا هذه الظاهرة ضدّه بإثارة هذه المسألة في نفوسهن، مع علمهم مسبقاً بأن ضعيفات النفوس منهن سوف يصدّقن مثل هذا الهراء؛ فينجرفن وراءه بعيداً عن متطلّبات ثقافتهن الدينية، سيما من كان منهن على دين الإسلام، ويخضع مجتمعهن لمنظومة ثقافية إسلامية، ويعيش في ظلّ آدابه وأخلاقياته، سيما أولئك اللواتي يمتلكن وعياً ضحلاً وثقافة متدنية، لا يستطعن معهما أن يصمدن أمام مؤثرات الثقافة الهدّامة الوافدة، ولا أن يقاومن إغراءها بما توفّره لهن من عوامل إشباع حاجات الجسد دون الروح، ممّا يتناغم مع رغباتهن النفسية، والهوى الذي يتركن من أنفسهن الضعيفة الأمانة بالسوء أن تنساق وراءه بعيداً عن كلّ الأخلاقيات والقيم الدينية.

معالجة

وهؤلاء طبعاً غير ملتفتين إلى أن المرأة في النظام الإسلامي ووفق ضوابط التشريع السماوي المقدّس غير مسؤولة عن النفقات في شيء مطلقاً؛ ذلك أن الواجبات الاجتماعية كلّها تقع على عاتق الرجل دون أن يحمّلها الإسلام شيئاً منها؛ فلا الإنفاق على العائلة، ولا توفير المسكن، ولا توفير المأكل أو الملابس وما إلى ذلك من الالتزامات الاجتماعية

(١) النساء: ١١.

وغير الاجتماعية كافة تدخل في نطاق مسؤوليتها، بل إنها تقع ضمن دائرة مسؤولية الرجل وحده دون سواه. فكل ما يتعلق باحتياجات الأسرة؛ سواء كانت احتياجات طبية، أو احتياجات متعلقة بالمعيشة، أو احتياجات ثانوية أخرى، فإنها في عهدة الرجل دائماً.

ومن هنا فإننا نودّ إن نثبت أمرين اختصاراً لما سبق:

الأول: أننا نجد أن المرأة هي الراححة دوماً في هذه الجنبه وليس الرجل؛ لأنها حينما تأخذ نصيبها من الميراث فإنما تأخذه لنفسها فقط دون غيرها إلا إن أرادت أن تجود به.

وهذا أمر آخر خارج عن نطاق مانحن فيه؛ لأنها إنما تجود به بمحض إرادتها، وتطوّع به من نفسها دون إجبار أو قهر عليها من أحد، ودون تأثير منه عليها؛ بشكل مباشر، أو غير مباشر. أما الرجل حينما يأخذ نصيبه من ميراثه، فإنه ينفقه على أسرته وعلى عائلته وعلى التزاماته الاجتماعية وما تتعلق بحيثيات الحياة كافة.

الثاني: ومن خلال هذا التقريب والتصوير للمسألة، فإننا نستغرب أن تثار مثل هذه المواضيع أو المسائل التافهة، بعد أن عرفنا أنها تصبّ دائماً في مصلحة المرأة، لا في مصلحة الرجل.

المسألة الثانية: قضية شهادة المرأة

كما أن هؤلاء المغرضين يثيرون كذلك نقطة أخرى يعتبرونها انتقاصاً من الدين الإسلامي للمرأة، وهي أنه يعتبر شهادتها نصف شهادة الرجل، مصوّرين ذلك بنحو يعتبرها الإسلام فيه دون مستوى الرجل، ويعدها ناقصة عنه.

معالجة

وهذه مغالطة؛ لأن الإسلام بطبيعته لا يمكن أن يعتمد إلى شل المجتمع، وهو ينظر إلى المرأة على أنها تشكل نصفه؛ وبهذا فإنه لا يعتبرها ناقصة، وغاية ما في الأمر أن الإسلام إنما يشرع أحكامه عادة نظراً إلى الأعم الأغلب من الحالات التي يكون عليها مدار الحكم، ونعني به الإنسان هنا. وفي حالة المرأة التي نحن بصدد معالجتها هنا، فإن الإسلام ينظر إلى بعض الحالات التي تمرّ بها، والتي يمكن أن تؤثر سلباً على نفسيّتها وعلى عاطفتها، ممّا يدفعها لأن تكون خاضعة لذلك المجال النفسي أو العاطفي الحرج؛ وهو ما يؤدّي بها إلى أن تُخضع كل تصرّفات وأحكامها لذلك التأثير النفسي أو العاطفي؛ الأمر الذي يجعلها تقع فريسة للكثير من أعراض تلك المرحلة؛ وبالتالي فإنها سوف تعاني ممّا يجعلها قابلة لأن تكون عرضة إلى كثير من حالات الاضطراب التي ستمرّ بها حينها ممّا له علاقة بهذا الجانب، ومنها النسيان الذي عالجه المشرع الإسلامي عندها في مسألة الشهادة بضمّ امرأة معها فيها. فدرءاً لهذا نجده قد ضمّ إليها شهادة امرأة أخرى^(١).

المسألة الثالثة: قضية حرمان المرأة من العمل

إن هؤلاء يصورون هذه المسألة على النحو التالي، وهو أن المرأة تشكل نصف المجتمع فإذا منعناها عن العمل فإننا حينئذٍ نشل حركة نصف المجتمع وهو ما يجعلنا نشله كلّ، ونؤدّي به إلى التراجع.

(١) وهذا دليل واضح على أن الإسلام قد أعطى للمرأة حقّ الشهادة وإلا لم يعتبر شهادة امرأتين ولا ثلاث نساء ولا أكثر من ذلك. فقبوله بشهادة امرأتين، وإقراره لها دليل على إعطاء المرأة حقّ الشهادة في الميادين الحياتية عامّة.

معالجة

وبناء على هذه التراكمات التي تعيش في أذهان هؤلاء، وتحكم تصوّرهم المشوّه بصور مسبقة رسموها للإسلام من وحي حقدهم عليه كما ذكرنا في المسألة السابقة، فإنهم راحوا يُعملون معاولهم الهدّامة المستندة إلى مجموعة متراثة متراكمة من الأكاذيب التي اختلقوها واخترعوها من وهم خيالاتهم الموبوءة، ووحى أنفسهم المريضة الضالّة للنيل من الإسلام، وليحاولوا أن يحقّقوا عبرها أغراضهم الدنيئة لوقف حركة الإسلام، وعرقلة مسيرته التي كانت وما تزال تشقّ طريقها في هذه الحياة بتراثبية تسارعية دون توقف بين ركّام المشاكل والقضايا بما تحمله من منظومة عالية في القابليات على وضع الحلول لمشاكل هذه الحياة كلّها، أو محاولات الوقوف بوجهها وردعها عبر رصد أبعاد تلك المسيرة ووضع العراقيل في طريقها.

أما الواقع فهو أن الإسلام كان ولا يزال ينظر إلى المرأة على أنها نصف المجتمع، والدليل على هذا أن الإسلام قد اعتبر الزواج هو نصف الدين، أي أن المرأة تحقّق للرجل نصف دينه.

هذا في الأمور العبادية، أما في الأمور الدنيوية فإنها من باب أولى أن تكون النصف الثاني للرجل، والذي يكمل الإنسان في هذه الحياة. وبناء على هذا التصور الإسلامي فإن الإسلام لا يمكن أن يشلّ المجتمع عبر تقييد المرأة وتحجيم دورها فيه، بل إننا نجد على العكس من ذلك قد أعطاهما دوراً بارزاً وريادياً في كثير من الجوانب؛ فهناك العالمات في تاريخنا الإسلامي، والفقيهات، وهنالك المجاهدات، وهنالك اللواتي مارسن مهنة التمريض في المعارك الإسلامية، بل لهنّ اشتراكاً

فعلياً في حالات معينة في بعض المعارك الإسلامية مع الرسول الأكرم ﷺ في بعض الحالات الاستثنائية، بل حتى غير معارك الرسول ﷺ.

إذن فمن المستحيل أن يشلّ الإسلام المجتمع بشلّ هذا النصف الذي يصوره أعداؤه على أنه يعمد إلى تحييدها وتجميدها وتحجيم دورها فيه. وأنا أؤكد على أن الإسلام لا يمنع المرأة عن العمل ما دامت محتاجة إليه، أما إذا لم تكن محتاجة إليه لأن الإسلام قد كفل معيشتها ومستلزماتها وجعلها من مسؤولية الزوج، فلا داعي له حينئذٍ، سيما إن كانت ظروف العمل هذا تتقاطع مع خطوط الحفاظ على كرامتها وعفتها اللتين يؤكّد الإسلام عليهما في كل حال، وتحت أي ظرف.

المرأة وظروف العمل

وبناء على هذا فإن الإسلام يقرّ للمرأة أن تعمل فيما لو كانت محتاجة إليه وليس لها معيل يعيلها، لكنه يشترط أن يكون مكان العمل نظيفاً وغير موبوء بحيث إنه يحفظ لها عفتها وكرامتها ووجودها وحربيتها كامرأة ذات كرامة، وذات امتياز معين يمنع الآخرين من النظر إليها على أنها أداة تسلية متداولة ومبتذلة، أو آلة لإشباع الغرائز المسعورة.

وعليه فحينما يكون هنالك عمل يحافظ على فطرة المرأة ولا يؤدي إلى إفسادها أو إلى إهدار كرامتها، فإن الإسلام لا يمانع من أن تلج هذا الباب، أما إذا أدّى عملها إلى خلاف ذلك، بحيث إنها تهتك صونها وحجابها بواسطته، ويؤدي الأمر إلى إفسادها، فإن الإسلام حتماً سوف لن يقبل بذلك؛ لأنه ينظر إلى المرأة على أنها وحدة تصنيع العقول والأفكار،

ولما كانت كذلك فإنه لا يريد بأي حال من الأحوال، وتحت ضغط أي ظرف من الظروف كان أن تصاب وحدة التصنيع هذه بالأمراض الخُلُقِيَّة الجائحة والمعدية، والتي سوف تقضي حتماً على كيان المجتمعات الإنسانيَّة، وتهدمها من أساساتها.

ذلك أن الإسلام الحنيف يعي أن مثل هذه الأمراض السارية تشكّل بؤرة خطر كبيرة على المجتمعات البشرية كافة بما أنها سوف تلقي بظلالها القاتمة الحادّة والمدمّرة بشكل سلبي غير مقبول ولا مستساغ على جميع أفراد الأجيال اللاحقة لكل المجتمعات مهما اختلفت أعراقها وأجناسها بفعل هذا التأثير السلبي الهدّام؛ فتحرفها عن صراط الله سبحانه وتعالى.

المرأة والمجتمع

والإسلام إذ يتعامل مع أمثال هذه الحالات فهو إنما يتعامل معها لأنها تصبح مصدر خطر ضخم يهدّد كيان المجتمعات البشرية بما يمثّله انتقال تلك العدوى بين أفرادها من تهديد حقيقي للوجود الخُلُقِي فيهما؛ بسبب سرعة انتشار مثل هذه الأمراض الجائحة التي تكون عادة ممّا يتناغم مع ميول النفس الإنسانيَّة، وتتفاعل بسرعة كبيرة مع رغباتها وشهواتها، مع ملاحظة أمر هام جدّاً هو الميل السريع والكبير عند الإنسان في كل حال من أحواله إلى إشباع جميع هذه الرغبات والشهوات.

وعليه فدين الإسلام الحنيف - تأكيداً منه على الوجود الصحيح والسليم للمجتمعات المرتكز إلى طهارة المرأة وعفّتها، والمستند إليهما في كل

آن - كان منطلق حرصه على طهارة المرأة، وحفاظه على عفتها. فحرصاً على كرامة المرأة كان الحرص على طهارتها، وحرصاً على طهارتها كان الحرص على عفتها. فإذا كانت عفة المرأة وطهارتها وكرامتها هي المرادة والمرصودة في المنظور الإسلامي كان لابد من اعتبار ميدانها الأول والثاني والثالث هو البيت؛ بما أنها تصنع كل ذلك - العقول والأفكار - وبما أنها هي التي تخرّج الأجيال السليمة للمجتمع، وتربيهم إلا أن تكون هناك ضرورة ملحة خارجة عن إرادتها وإرادة المجتمع الإسلامي، فلا بأس حينئذٍ مع مراعاة الجوانب الخلقية التي أكد عليها الإسلام، وتبني الشروط التي ذكرناها آنفاً وفق التصور الإسلامي لطبيعة المرأة ودورها الحرج والخطير والفاعل في إعداد الأجيال.

وهذا هو السبب الأول والأساس الذي أراد الإسلام لأجله أن تكون المرأة جوهرة ثمينة بيضاء ناصعة العفة ونقية لا تشوبها شائبة.

فالإسلام كما نعرف حريص غاية الحرص وإلى أبعد تلك الغايات على تربية الأجيال تربية سليمة، وتنشئتهم تنشئة قويمه بحيث إنها تحفظ للمجتمع وجوده الصحيح والسليم والخالٍ من الأمراض والآفات الاجتماعية، وتحفظ له كيانه الصالح بعيداً عما يفسده من أمثال تلك الدعوات.

فالإسلام إذن ينظر إلى المرأة على أنها صانعة الأجيال، وأنها المبءة التي تربي الأجيال، فهي تصنع العقول وتصنع الأفكار، وإذا كان الأمر كذلك فإننا نعي حينها مدى الاهتمام الكبير الذي يوليه الإسلام لها في سبيل الحفاظ عليها.

وأنا أؤكد بأننا إذا ما رأينا ولداً غير ناضج أو غير متزن فإننا نجزم بأنه ليس

وراءه أم ناضجة، والعكس من ذلك هو الصحيح؛ ذلك أن الولد - كما هو معروف وثابت - لا يأخذ من أمه الحليب فقط بل إنما يأخذ منها مع الغذاء الأخلاق والتربية والقيم والمبادئ والالتزام بتلك المبادئ والصمود عليها وتطبيقها في الحياة العملية.

وبناء على هذا فإن هذا الإشكال الذي يضعه هؤلاء هو إشكال تعسفي غير وارد، وهو نابع من هوى يقبع في ظلمات نفوس هؤلاء ودياجير عقولهم الحائرة بما اعتادوا أن يكونوا عليه من محاولات لتسقيط مكانة الإسلام في نفوس الناس، وإبعادهم عنه، وإخراج من هو فيه منهم من ربقته، وإلا فإن الواقع الذي يأخذ برقابنا إلى التصديق به، ويحتم علينا قبوله هو أن الإسلام يكرم المرأة غاية التكريم، ويعطيها مكانة خاصة تختلف حتى عن تلك التي يعطيها للرجل^(١).

نعم الإسلام الحنيف إنما يمنع المرأة من العمل حينما تشكل بيئة العمل وسيلة خطرة عليها، وتصبح سبباً لإفسادها. ونحن نعلم أن فساد المرأة بشكل عام، والأم بشكل خاص لا يتوقف عليها كامرأة، بل إنه يتعدى هذا المفهوم الضيق والبليد، ويتسع لينظر إليه على أنه فساد الأم أو المرأة التي تحتضن الأجيال والإنسان؛ ولذا فإنه يعتبر مرضاً معدياً كما أشرنا؛ لأنه حينئذٍ سوف ينتقل إلى أبنائها، ومن ثم المجتمع كله بديهة؛

(١) كما في حديث: «الجنة تحت أقدام الأمهات». مستدرک وسائل الشیعة ١٥ : ١٨٠ /

١٧٩٣٣، مسند الشهاب ١ : ١٠٢ / ١١٨، كنز العمال ١٦ : ٤٥٤٣٩ / ٤٦١.

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال له: يا رسول الله، من أبر؟ قال ﷺ: «أمك». قال: ثم من؟ قال ﷺ: «أمك». قال: ثم من؟ قال ﷺ: «أمك». قال: ثم من؟ قال ﷺ: «أمك». قال: ثم من؟ قال ﷺ: «أمك». قال: ثم من؟ قال ﷺ: «أمك».

الكافي ٢ : ١٥٩ / ٩.

إلى غيرهما من الأحاديث الشريفة الواردة في هذا المضمار.

فيستشري فيه استشرَاء النار في الهشيم وانتشارها فيه .
 إذن فالمرأة إذا ما فسدت فقد فسد أبناؤها، وإذا ما فسد أبناؤها فسد
 المجتمع ؛ وبهذا فإن المجتمع الذي يدعو إليه القرآن الكريم والإسلام
 الحنيف سوف لن يكون ولن يوجد، وهو ما يخالف منطلقات الإسلام في
 بناء ذلك الوجود الصالح القائم على أساس الأخلاقيات الدينية،
 والمرتكز إلى المبادئ والقيم السماوية، والمبني على الأحكام الإلهية
 المقدسة.

موقف بعض المذاهب الإسلامية من تعليم المرأة

والغريب أننا لازلنا حتى الساعة نجد أن هناك من يأخذ بمجموعة من
 الأحاديث والروايات التي ترونها المذاهب الإسلامية الأخرى
 ويتمسكون بها، وهي روايات تمنع المرأة من التعلم أو حفظ بعض سور
 القرآن الكريم كسورة (يوسف) مثلاً^(١). ونحن نجزم بأن هذه الروايات
 هي روايات ضعيفة وغير صحيحة؛ لأنها تتنافى مع الخطوط العامة
 للإسلام الذي يصرح على لسان رسوله الكريم بالقول: «طلب العلم فريضة
 على كل مسلم ومسلمة»^(٢).

وحينما نشكل على أولئك المتمسكين بأمثال هذه الروايات التي نسماها

(١) انظر الكافي ٥: ٥١٦ / ١. وعلل بعض الأعلام ذلك بأن فيها حكاية العشق، وقال في
 روضة المتقين: «ولعل عدم تعليم سورة (يوسف) وتعليم سورة (النور) مختصان بالعرب
 وبمن يعرف معانيها، ويؤيده ما رواه الكليني في القوي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا تعلموا
 نساءكم سورة (يوسف)، ولا تقرئوهن إياها؛ فإن فيها الفتن، وعلموهن سورة (النور) فإن فيها
 المواعظ...». روضة المتقين ١٢: ٤٨، طبع شركة دار المصطفى عليه السلام بيروت.

(٢) مصباح الشريعة: ٢٢، مشكاة الأنوار: ٢٢٦، عوالي اللآلي ٤: ٧٠ / ٣٦، شرح مسند أبي
 حنيفة: ٥٢٧، المبسوط (السرخسي) ١: ٢.

بالضعف وعدم الثبوت فإنهم يردّون علينا بأن روايتها فلان وفلان، وهؤلاء ممّن لا يمكن تكذيبه.

إذن فهؤلاء يقدمون فلاناً وفلاناً حتى وإن تنافت رواياتهم مع الخطوط العامة للإسلام، ومع الخطوط العامة للعقل الذي تعبّدنا الله تبارك وتعالى به.

وليعلم هؤلاء بأن الإسلام يفتح أمام المرأة مشاركة الرجل في بعض الفعاليات الحياتية وبعض ميادينها التي يكون لها مدخل هام ورئيس في وجود الإنسان؛ لما لها من أهمية في تحديد وجوده وكيانه ومستقبله. ولسنا ندري لماذا يأتي البعض ليحاول أن يغلق تلك الأبواب والطرق في وجه المرأة، والتي فتحتها الإسلام لها؛ كي تساهم في بناء المجتمع الصالح، مشوّهاً بذلك صفحته الناصعة، ومبعداً عنه من يريد أن يدخل فيه.

نعم إن الإسلام قد حافظ على عفة المرأة، وحافظ على كرامتها، ودعا إلى ضرورة تأمين ذلك لها وعدم انتهاكها، وعليه فإن علينا أن نجعلها تشعر بالمسؤولية إزاء إرادة الإسلام هذه ونحوها، ومن كونها يجب أن تكون امرأة صالحة عفيفة كريمة، لكن علينا ألا نبعدنا عن المجتمع، بل علينا أن نضع في حساباتنا أنها يجب أن تكون في مجتمع فاضل تشكّل هي نصفه، وأن علينا أن نطلب منها أن تقوم بدورها الإيجابي والفاعل في بنائه وتأسيس كيانه وفق شروط المشرّع الأقدس، وعلى ضوء الأسس التربوية الصحيحة المرتكزة إلى نُظْم السماء والخاضعة لها. ذلك أننا حينما نضعها في ذلك المجتمع الفاضل، فإننا نكون قد بذرنا في هذا الوجود بذرة المجتمع السليم، وصنعنا منها امرأة فاضلة بناة تحافظ

على ديمومة الفضيلة في ذلك المجتمع، وتسهم في الإبقاء على نقاوته وطهارته، فتخلق بكل ذلك الأجيال الصالحة فيه.

المبحث الرابع: في صفة المنافقين

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾، وهذا يعني أنهم من سنخية واحدة؛ لأنهم يجمعهم عمل واحد وفكر واحد؛ فهم توحدتهم أعمالهم وأهدافهم وأفكارهم التي يسبغون عليها في القضاء على الإسلام الحنيف. أما العمل الذي يجمعهم فهو جملة من الصفات التي تطرقت إليها آية المقام الكريمة. وهنا سوف نتناول صفتي الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، كما أشارت الآية الكريمة.

إذن فنحن هنا إزاء جنبتين في حالة هؤلاء المنافقين وفي بيان صفتهم وهما:

الصفة الأولى: الأمر بالمنكر

والكيفية التي كانوا يأمرون فيها بالمنكر أنهم كانوا يحبّطون المسلمين عن الخروج إلى الجهاد حتى يحولوا دون تحقق الانتصار للإسلام ولجيشه، فكانوا يقولون لهم مثلاً في وسيلة لتحبيطهم ولفلّ عزائمهم ولثنيهم عن نية الجهاد مع رسول الله ﷺ: إنكم سوف تقتلون عن آخركم في حربكم هذه مع العرب التي اجتمعت عليكم، كما أن قريشاً هذه معروفة في كبريائها، وهي لا تزال كذلك - أي محافظة على ذلك الكبرياء - فهي ما ذلت منذ عزّت، وعليه فإنكم لا يمكن أن تذلوها ولا أن تذلوا العرب الذين يجتمعون معها.

ومجمل القول هو أن المنافقين يريدون أن يدلّسوا عليهم بقولهم لهم: أنتم إذ تخرجون مع النبي ﷺ فإنكم سوف تقتلون ولا يبقى منكم أحد؛ لأن العرب قد تضافرت عليكم، ولأن قريشاً عزيزة منذ كانت ولم تذلل أبداً، ولا يمكن لأي أحد أن يذلّها حتى أنتم، مع ما تدّعون من أن الله معكم .

الصفة الثانية: النهي عن المعروف ومصاديقها

إن معنى المعروف الوارد في هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة يراد به أمران، هما:

الأول: الإيمان بالله سبحانه ونبذ عبادة الأصنام

فهؤلاء كانوا يسعون إلى أن يحولوا دون الناس الراغبين في اعتناق الإسلام والدخول في دين الله تبارك وتعالى، ودون الإيمان به جلّ شأنه، ومنعهم من نبذ عبادة الأصنام، فهم يصدّون عن سبيله تعالى الذي هو الإيمان به جلّ وعلا. فكانوا يحاولون أن يمنعوا كلّ من أراد أن يلج في هذا الدين الجديد، ويقفون في وجه كلّ من أراد أن يدخل في الإسلام ويمنعونه منه، ويحبّذون له البقاء على عبادة الأصنام والأوثان، أو أي ديانة أخرى هو عليها.

وتر الموروث العقيدي

وهم إذ يتعاملون مع هذه المسألة بهذا النمط من التعامل فإنهم إنما يستغلون الرواسب والموروثات الجاهلية عند الناس، فيحثّونهم على البقاء على عبادة أصنامهم استجابة لها؛ لأن هذه الأصنام إنما هي آلهتهم وآلهة آبائهم؛ وأن عليهم ألا يغيروها؛ لأنهم حينما يغيرونها فإنهم

يصرخون منادين بأن آباءهم جميعاً كانوا على ضلال، ولا يعقل أن يكون كل آباءهم كذلك. وعليه فإن الواجب الذي يحتم على هؤلاء الذين يرغبون في الدخول في الإسلام ألا يدخلوا فيه لأن دخولهم فيه ينطوي على أمر هو نسبة آباءهم إلى الضلال ووصفهم به، وهذا ما لا يمكن أن يرضاه إنسان لأبيه. فالمفروض بهم ألا يؤمنوا حتى لا يسموا آباءهم بتلك السمة.

تأثر المسلمين بآباءهم الذين ماتوا في الجاهلية

وكما رأينا فإن هذه المسألة دقيقة جداً؛ ذلك أن هؤلاء كانوا يضربون على وتر غاية في الحساسية؛ لأنهم يعزفون على وتر آباء هؤلاء الذين كانوا أبناء لهم في الجاهلية، فالجاهلي كان يعتز بآبائه وكان ينظر إليهم نظرة أشبه ما تكون بالنظرة القدسية، فيضرب عليهم ستاراً من الإكرام والاحترام الكبيرين بحيث لا يسمح معه لأحد أن يمسهم بسوء، أو أن يشتمهم أو يسبهم. فهؤلاء إذن كانوا يستغلون هذه النبوة ويعزفون على هذا الوتر من أجل إبعاد الناس عن الدخول في الإيمان الذي عبرت عنه الآية الكريمة بأنه المعروف.

ودليل هذا ما يروى من أن البعض من المسلمين كانوا يعتزّون بآباءهم الجاهليين، بل ويفتخرون بهم، ويرفضون لأي إنسان أن يمسهم بسوء، حتى نزل فيهم قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾^(١) فكان أن رد عليهم الرسول الأكرم ﷺ بما يردعهم ويبين لهم حقيقة أولئك الآباء الذين ماتوا على الجاهلية وعلى القيم والمبادئ التي

(١) الزخرف: ٢٢.

ربوا عليها، وهي قيم تمثل ضلال الجاهلية وتعزّز مبادئها الواهية، وذلك بقوله ﷺ: « لا تفتخروا بأبائكم الذين ماتوا في الجاهلية؛ فوالذي نفسي بيده، ما يدحرج الجعل بأنفه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية»^(١).

أي أن الرسول الأكرم ﷺ كأنما يقول لهم: إنكم لستم ملزمين بالبقاء على طريق آبائكم ولا على اختطاط سبيلهم ومسلكهم إذا كانوا جهلة ضالين مشركين، و«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ» كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام^(٢).

وهكذا فإن على هؤلاء أن يعوا بأنهم قد انتقلوا من مجتمع إلى مجتمع، ومن حضارة إلى حضارة، ومن ثقافة إلى ثقافة أخرى، وكلها أمور تغاير ذلك الحال الذي كانوا عليه مغايرة كاملة تامة. وهذا يعني أن الإسلام قد نقلهم من الظلام إلى النور؛ ولهذا فكأنما لسان حال الرسول ﷺ مخاطباً إياهم بالقول: إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تصرّون إذن على البقاء على ضلال آبائكم، وعلى ظلام الأجواء التي كانوا يعيشونها؟

المسلمون اليوم والرواسب الجاهلية

ونحن لازلنا حتى هذه اللحظة نعاني من مثل هذه المشاكل ومن مثل هذا الواقع الذي كان يعانيه النبي الأكرم ﷺ في بداية الدعوة، ذلك أن الكثير من المسلمين لازل حتى الآن أسير موروثاته التي تقيده وتحدد له حياته وفكره وعقله دون أن يحاول أعمال ذلك الفكر والعقل اللذين منحهما

(١) المعجم الكبير ١١: ٢٥٢، المعجم الأوسط ٣: ٨٧ - ٨٨، السيرة الحلبية ١: ٤٦. وجاء في الحديث الشريف: «ليدعن الناس فخرهم في الجاهلية، أو ليكونن أبغض إلى الله تعالى من الخنافس». السيرة الحلبية ١: ٤٦.

(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ١٦٥.

الله تبارك وتعالى إياه. ومثل هؤلاء حينما يطالبهم أحد بأن يقرؤوا ويراجعوا ما عندهم من معلومات حتى لا يبقوا حبيسي التقليد الأعمى والأهوج الذي هم عليه؛ فإنهم ليس لهم من جواب حاضر حينها سوى أن السلف كانوا على ذلك، وأنهم لا يريدون مطلقاً أن يغيروا شيئاً مما كان عليه أسلافهم.

ثم إن هؤلاء إذ يتساءلون منكرين: فهل يعني هذا أن أسلافنا كانوا على ضلال؟ فإنهم بهذا إنما يواجهوننا بما واجه به المنافقون كل من أراد أن يدخل في دين الله في عصر الرسالة المشرفة. كما أنهم يحاولون أن يبقوا أنفسهم في قمم ذلك الموروث الذي يتنافى مع القواعد العامة للعقل وللقرآن الكريم، فهم يصرون على البقاء على ذلك وإن تنافى مع ما ذكرنا.

الثاني: منع المسلمين من الجهاد وتخليهم عنه

فالقرآن الكريم إذ يصف هؤلاء بصفة الإصرار على النهي عن المعروف، ويسمهم بتلك السمة التي كانت عندهم، فإنه يريد منها: الأمر الذي كانوا يزاولونه، وهو تخذيل المسلمين عن الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى بين يدي رسوله الكريم ﷺ لنصرته ونصرة رسوله ﷺ ونصرة دينه الحنيف، وتحبيط الآخرين عنه؛ لمحاولة منع انتشار رقعة الإسلام وحصره في دائرة ضيقة يردون له البقاء فيها؛ كي يتمكنوا من القضاء عليه بسهولة.

المبحث الخامس: في باقي صفات المنافقين

وبعد ذلك أخذت الآية الكريمة في معالجة الواقع الذي كان عليه هؤلاء المنافقون، فراحت في ميدان تقرير حقائقهم بذكر جملة من صفاتهم التي

تناولها ذيل هذه الآية المباركة ، وهي:

الصفة الثالثة: البخل

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾، فهؤلاء كانوا يمتنعون عن المساهمة في المعارك التي كان يخوضها الرسول الأكرم ﷺ، مع أن المفترض بهم كمسلمين كما يدعون أن يساهموا فيها بأنفسهم ودمائهم وأموالهم مساهمة حضورية فعالة. فالرسول الأكرم ﷺ كان حينما يخوض معركة ضدّ المشركين أو اليهود، ويرسل خلفهم طالباً منهم المساهمة في هذه المعارك والاشتراك فيها فإنهم كانوا يمتنعون عن الاشتراك في تلك المعارك، ويقبضون أيديهم عن تقديم المعونة مع أنهم كانوا موسرين، ويمتلكون القابلية على ذلك ولو لشراء السلاح أو لمساعدة عوائل المقاتلين والمجاهدين الذين يتركون أسرهم ويذهبون إلى الجهاد.

وقد عرفنا بأن هؤلاء لم يكونوا ينفقون في سبيل الله تبارك وتعالى أي شيء، بل كانوا يقبضون أيديهم عن كلّ ذلك، مع أنهم كانوا - كما نعرف من خلال ما قدّمه لنا التاريخ، وحدّثنا عنه - ينفقون أموالهم بسخاء وبكرم في سبيل الهوى ومنافعهم الشخصية، ولا شباع رغباتهم الدنيئة. يروى أنه أصاب أهل الكوفة مجاعة فخرج أكثر الناس إلى البوادي، وكان غالب أبو الفرزدق رئيس قومه في الكوفة، وكان سحيم بن وثيل التميمي رئيس قومه فيها، فاجتمعوا في مكان في أطراف السماوة، فعقر غالب لأهله ناقة وصنع لهم طعاماً، وأهدى إلى قوم من بني تميم منها، وجهاز إلى سحيم جفنة، فكفأها سحيم وضرب بها الذي أتى بها، وقال: أنا مفتقر إلى طعام غالب؟ إذا نحر ناقة نحررت أخرى.

فوقعت المنافسة، ونحر سحيم لأهله ناقة. فلما كان من الغد نحر غالب ناقتين، فعقر سحيم ناقتين كذلك، فلما كان اليوم الثالث نحر غالب ثلاثاً، فنحر سحيم ثلاثاً أيضاً، فلما كان اليوم الرابع نحر غالب مئة ناقة، ولم يكن عند سحيم هذا القدر، فلم يعقر شيئاً، وأسرّها في نفسه.

فلما انقضت المجاعة ودخل الناس الكوفة، قال بنو رياح لسحيم: جررت علينا عار الدهر، هلا نحررت كما نحر، وكنا نعطيك مكان كل ناقة ناقتين! فاعتذر إليهم أن إبله كانت غائبة، ثم نحر ثلاثمئة ناقة، وقال للناس: شأنكم والإيه، فكلوا منها ما أردتم.

فبلغ الخبر أمير المؤمنين عليه السلام - وقد استفتي في حلّ الأكل منها - فقضى عليه السلام بتحريمها، وقال عليه السلام: «هذه ذبحت لغير مأكلة، وإنها ممّا أهلّ لغير الله، ولم يكن المقصود منها إلاّ المفاخرة والمباهاة». فألقيت لحومها على كناسة الكوفة فأكلتها الكلاب والعقبان^(١).

إننا نجد هنا أن المسألة قد تحوّلت من كونها مسألة إنفاق في سبيل الله تبارك وتعالى ولوجهه إلى مسألة أخرى يكتنفها العامل الشخصي والموروث الجاهلي، وهو المفاخرة بين هؤلاء، فهذا كان يظن أن غالباً يريد أن يصبح شيخاً أو أميراً أو كبيراً على الناس؛ ولهذا فإنه حينما نحر بغيراً، قام هو لينحر آخر. وهكذا أخذت الحمية نفسها غالباً، فنحر ثلاثة، فكان أن فعل سحيم مثلها فنحر ثلاثة، ثم بدأت المزايمة والمفاخرة حتى وصل الأمر كما رأينا إلى ثلاثمئة ناقة.

(١) الشعور بالعود ١: ١٨٨ - ١٨٩ / ٥٠، خزنة الأدب ٣: ٥٧، ٥٨، الأمالي في لغة العرب (القالبي) ٣: ٥٣ - ٥٤، طبقات فحول الشعراء (محمد بن سلام الجمحي) ٢: ٥٧٦ / ٧٧٣ - ٧٧٥، مرآة الجنان (اليافعي) ١: ٢٣٨.

وهذا طبعاً لم ينحر لوجه الله تعالى ولم يقصد به وجهه كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام، وإنما قُصد به مفاخرة الجاهلية والتنافس على الرئاسة، وحبّ السيادة؛ الأمر الذي رأينا معه أنه حداً بالإمام عليه السلام أن يأمر بعدم الإطعام منه؛ لأنه لا يجوز أكله؛ فهو مما أهلّ به لغير الله سبحانه وتعالى.

مفارقات في تاريخ المسلمين

وهذا الحال الذي كان عليه المنافقون لم يكن خاصتهم وحدهم، بل إن قريشاً كانت في بداية الدعوة - كما تحدّثنا الآيات القرآنية، وكتب التاريخ - لا تألو جهداً في إنفاق أموالها، وما تستطيع إنفاقه من أجل الصدّ عن دخول الناس في هذا الدين الحنيف، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾^(١).

موقفهم من أبي سفيان

وبالرجوع إلى الفخر الرازي وغيره^(٢) في تفسيره لهذه الآية الكريمة نجد أنه يذهب إلى أنها نزلت في المطعميين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً من كبار قريش.

فالمطعمون هم رجال من قريش ضمنوا لمن يخرج مقاتلاً النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يمّولوه بالسلاح، وأن يمّولوا عائلته بالطعام والمتاع حتى يعود. أي أنهم ضمنوا للمقاتلين تغطية نفقاتهم الحربية ونفقات أسرهم المعيشية والحياتية حتى قال الرازي في تفسيره: «وقال سعيد بن جبير ومجاهد:

(١) الأنفال: ٣٦.

(٢) تفسير البيضاوي ٣: ١٠٦ - ١٠٧، تفسير أبي السعود ٤: ٢٠، إمتاع الأسماع ٦: ١٦٠ - ١٦١.

نزلت في أبي سفيان وإنفاقه المال على حرب النبي محمد ﷺ يوم أحد، وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب، وأنفق عليهم أربعين أوقية من الذهب، والأوقية اثنان وأربعون مثقالاً^(١).

هذا مع أن أبا سفيان كان معروفاً بالبخل، ولم يكن ينفق على نفسه أو على عياله شيئاً يذكر لما كان عليه من ذلك الشحّ والبخل الذي يصف بعض المحدثين شيئاً منه بهذه الرواية التي يروونها عن زوجته التي جاءت إلى النبي ﷺ حينما فتح مكة، وأرادت أن تباع مع النساء له ﷺ، حيث أمر النبي الكريم ﷺ بطشتٍ، فوضع فيه ماء، ووضع يده الشريفة فيه، وأمر المرأة التي تريد أن تباع أن تضع يدها في ذلك الماء.

والقرآن يحدثنا أن النبي ﷺ قد اشترط في أخذ البيعة عليهن أموراً ذكرتها الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَعْفِفْنَ لَهُنَّ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢). وكذلك اشترط عليهن أموراً أخرى منها أن يحافظن على أسرهنّ وأزواجهنّ، وعلى أموالهنّ؛ وهنا قالت له زوجة أبي سفيان: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل بخيل، فهل عليّ أن أطعم عيالنا من ماله؟ فقال ﷺ: «أأنت هند؟». قالت نعم يا رسول الله، فاعف. فقال: «لا»، أي لا يحقّ لك أن تأخذي من ماله «إلا بالمعروف»، أي بقدر الحاجة^(٣).

(١) التفسير الكبير ١٥: ١٦٠ - ١٦١، عن الكشاف ٢: ١٥٦ - ١٥٧.

(٢) الممتحنة: ١٢.

(٣) فتح الباري ٩: ٤٤٧، عمدة القاري ١٦: ٢٨٤، ٢١: ١٩، الإصابة ٨: ٣٤٧، تاريخ مدينة دمشق ٧٠: ١٧٧ - ١٧٨.

وموضع الشاهد هنا الذي نريد أن نذكره هو أن أبا سفيان كان معروفاً بأنه شحيح وبخيل، لكنه مع ذلك حينما وصل الأمر إلى محاربة رسول الله ﷺ كان قد أنفق أربعين أوقية من الذهب لمقاتلته، ولمقاتلة الإسلام، ومحاولة صدّه والوقوف بوجهه والقضاء عليه.

ومع كل ما كان عليه أبو سفيان هذا فإننا حينما نلج تاريخنا فسوف نجد أنه يعطيه مساحة كبيرة وعريضة من المدح والثناء، فيصفه بها بأنه كان مسلماً وموحّداً، بل إن الأمر وصل بالبعض أن يصفه بأنه شيخ الأرض، وأنه من المؤمنين، متناسياً عن قصد ما كان له من مواقف سلبية هدامة وكثيرة مع الرسول ﷺ^(١)، وما كان الرسول الأكرم ﷺ قد قال فيه وفي

(١) وذلك أنه ﷺ حينما دخل مكة جاء العباس بن عبد المطلب بأبي سفيان إليه؛ ليستأمنه له، فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟». قال: بأبي أنت وأمي، ما أكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنّا شيئاً. فقال ﷺ له: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله؟». قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! هذه والله كان في نفسي منها شيء حتى الآن. فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان، أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فأظهر الإسلام حينئذٍ؛ حقناً لدمه، فقبل النبي ﷺ ذلك منه. فلما انصرف قال رسول الله ﷺ: «يا عباس، احبس به بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرّ به جنود الله فيراها». قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبس به، ثم مرّت به القبائل على راياتها؛ كلّما مرت قبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: سليمان. فيقول: ما لي وسليمان؟ قال: ثم تمرّ القبيلة تلو القبيلة فيقول: من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان فيقول: ما لي ولبنو فلان؟ حتى مر رسول الله ﷺ في الخضراء؛ كتيبة فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق، فقال: سبحان الله من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد غدا ملك ابن أخيك الغداة عظيماً. فقلت: ويحك يا أبا سفيان، ليس هو الملك، وإنما هي النبوة. تاريخ الطبري ٢: ٣٣١ - ٣٣٢، تفسير البغوي ٤: ٥٣٨ - ٥٣٩، الثقات ٢: ٤٦ - ٤٧، الكامل في التاريخ ٢: ٢٤٥ - ٢٤٦، السيرة النبوية (ابن كثير) ٣: ٥٤٩، تاريخ الإسلام ٢: ٥٤٠ - ٥٤٢، البداية والنهاية ٤: ٣٣١ - ٣٣٢، إمتاع الأسماع (المقريزي) ١: ٣٦٠ - ٣٦١،

عقبه الكثير ممّا لا يخفى على المتابع المنصف^(١).

النزاع والتخاصم (المقريزي): ٥٧ - ٥٨، السيرة النبوية (ابن هشام) ٤: ٨٦٢ - ٨٦٣، المعجم الكبير ٨: ١١ - ١٣، الاستيعاب ٤: ١٦٧٨ - ١٦٧٩، الدرر (ابن عبد البر): ٢١٦ - ٢١٧، شرح نهج البلاغة ١٧: ٢٦٩ - ٢٧٠، كنز العمال ١٠: ٥٠٦ - ٥١٠ / ٣٠١٧٣ تاريخ مدينة دمشق ٢٣: ٤٤٩ - ٤٥٠، عيون الأثر ٢: ١٨٦ - ١٨٧.

ولمّا دخل النبي ﷺ مكة، ورآه أبو سفيان وهو في المسجد الحرام، قال في نفسه: ليت شعري، بأي شيء غلبني محمّد؟ فأقبل إليه رسول الله، وضرب بيده بين كتفيه، وقال: «بالله غلبتك». بغية الباحث (ابن أبي أسامة): ٢٨٤ / ٩٤٣.

وحيثما رأى الناس يطؤون عقب رسول الله ﷺ يوم الفتح، حسده، وقال في نفسه: لو عاودت الجمع لهذا الرجل. فجاءه النبي ﷺ، فضرب بيده في صدره، وقال له: «إذن يخزيك الله». الإصابة ٢: ١٧٩ / ٤٠٤٦، البداية والنهاية ٤: ٣٤٨.

ومنها ما قاله حينما سمع المؤذّن يقول: «أشهد أنّ محمداً رسول الله». حيث قال: أهاهنا من يحتشم؟ فقال أحد الحضور: لا. فقال: لله درّ أخي هاشم، انظروا أين وضع اسمه. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أسخن الله عينيك يا أبا سفيان، الله فعل ذلك بقوله: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]...». فقال: أسخن الله عين من قال: ليس هاهنا من يحتشم. قصص الأنبياء (الراوندي): ٢٩٣ - ٢٩٤، بحار الأنوار ١٨: ١٠٨ / ٦، ٣١: ٥٢٣ / ٢٢.

وحيثما توفي رسولنا الأكرم ﷺ استغلّ أبو سفيان الفراغ الذي أحدثته في مكة، فراح يعمل معاوله في هدّ بناء الصرح الإسلامي، وأخذ يواصل مسيرته الهدامة التي ابتدأها ضدّ الإسلام بدافع من عدائه له، فحاول أن يحمل الناس على أن يرتدوا عن الإسلام، غير أن سهيل بن عمرو العامري عليه السلام - وكان خطيباً فصيحاً بليغاً مصقلاً - تصدّى لمؤامراته، وتكفل بفضحها أمام الناس، فأعلن ذلك على الملأ قائلاً: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؟ وإني لأعلم أن هذا الدين سيمتدّ امتداد الشمس في طلوعها، فلا يغرّركم هذا (يعني أبا سفيان) من أنفسكم، فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم، لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم، فتوكلوا على ربكم؛ فإن دين الله قائم، وكلمته تامّة، وإن الله ناصر من نصره. فحال ﷺ دونهم ودون ما عزموا عليه من الارتداد. الاستيعاب ٢: ٦٧١، أحكام القرآن ٢: ٥٢٧، إمتاع الأسماع ١٢: ١٧٦. وغير ذلك كثير..

(١) ومنها قوله ﷺ: «رأيت بني أمية ينزون على منبري نزو القردة يردون الناس عن الدين

كما أن التاريخ يحدثنا بأنه كان يردّد قولته المشهورة على مسامع بني أمية: «تلاقفوها يا بني أمية تلاقف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان^(١)، مامن عذاب ولا حساب، ولا جنة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة، وإنما هو المسلك^(٢)».

القهقري: «الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨. وقال ﷺ يوماً، وقد رأى أبا سفيان راكباً، وابنه يزيد يسوقه، ومعاوية يقوده: «لعن الله السائق والراكب والقائد». المعجم الكبير ٣: ٧٣، ترجمة الإمام الحسن عليه السلام (ابن عساكر): ١٩١، شرح نهج البلاغة ١٥: ١٧٥.

وكان شعار رسول الله ﷺ البارز الذي لم تتمكن الأقدام المأجورة، ولا قهر السلطات الجائرة من إخفاء نوره، بل إنه ظلّ يصدح في مسامع الدنيا مجلجلاً في أذن الدهر: «إن الخلافة محرّمة على ولد أبي سفيان». الأمالي (الصدوق): ٢١٦، اللهوف في قتلى الطفوف: ١٨، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٢، ٣٢٦، حياة الحيوان ١: ٨٨ - ٨٩ ورئي ﷺ ذات يوم على واجماً على منبره، فسأله أصحابه عمّا به، فقال ﷺ: «رأيت بني أمية ينزون على منبري نزو القردة يردّون الناس عن الدين القهقري». جامع البيان ١٥: ١٤١، الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ٢١٠٨.

وروى الفخر الرازي وغيره عن ابن عباس قوله: إن الشجرة الملعونة في القرآن هم بنو أمية. وروى السيوطي عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: «إنكم الشجرة الملعونة في القرآن». انظر: التفسير الكبير ٢٠: ١٨٩، تفسير غرائب القرآن ٤: ٣٦٢، الدر المثور ٤: ٣٤٦.

(١) ولنلاحظ هنا عدم تصريحه الواضح والمتعمّد بما أقسم به. والسبب بيّن كما يتراءى، وهو أنه لا يؤمن بالله تبارك وتعالى؛ ولذا فإنه لم يقسم به، وبما أنه يخشى من التصريح بمعتقده الحقيقي القائم على الشرك، وأنه إنما يؤمن بتعدّد الآلهة، فقد تجنّب ذكرها صريحاً، مكثباً عنه بقوله: فوالذي يحلف به أبو سفيان.

(٢) شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥، ٩: ٥٣ - ٥٤.

وروي أن أبا سفيان قال لعثمان: بأبي أنت، أنفق ولا تكن كأبي حجر، وتداولوها يا بني أمية تداول الولدان الكرة، فوالله ما من جنة ولا نار. وكان الزبير حاضراً، فقال عثمان لأبي سفيان: اعزب. فقال: يا بني، أهاهنا أحد؟ قال الزبير: نعم، والله لأكتمتها عليك. شرح نهج البلاغة ٢: ٤٥.

موقفهم من أبي طالب عليه السلام وإيمانه

أما أبو طالب عليه السلام الذي كان يصدح صباح مساء بقوله:

ألم تعلموا أننا وجدنا محمداً نبياً كموسى خُطَّ في أول الكتب^(١)

وروي أنه لما بويح لعثمان دخل رحله فدخل إليه بنو أمية حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حرب: أ عندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا. قال: يا بني أمية، تلقفوها تلقف الكرة... فانتهره عثمان، وأمر بإخراجه. شرح نهج البلاغة ٩: ٥٣ - ٥٤. وقد ذكرنا جملة من أحواله في محاضرة (أصحاب النار وأصحاب الجنة) من الجزء الخامس من هذه الموسوعة الشريفة.

قال الشيخ الطبرسي عليه السلام: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] زعم القوم أنه نزل في أبي طالب، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يحب إسلامه، فنزلت هذه الآية، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يكره إسلام وحشي قاتل حمزة، فنزل فيه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (١) ديوان أبي طالب ١: ١٣، سيرة ابن إسحاق ٢: ١٣٨، السيرة النبوية ١: ٢٣٥، البداية والنهاية ٣: ١٠٧، ١٠٨، المقتفى من سيرة المصطفى ١: ٦٧. وهذا يعني أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان على سيرة المسلمين من الإيمان بأنبياء الله تعالى السابقين كلهم عليهم السلام أي أنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن مشركاً البتة في لحظة من لحظاته.

وفي آخر قصيدته عليه السلام هذه يقول:

فلسنا وربّ البيت نُسلمُ أحمداً
ولمّا تسينُ متاً ومنكم سِوالفُ
بمعترِكِ ضنكِ تُرى كِسْرُ القنا
وكان عليه السلام يقول:

كذبتم وبيت الله نخلي محمداً
ديوان أبي طالب ١: ٦٠، ويقول:

نبيّ أتاه الوحي من عند ربّه
ديوان أبي طالب ١: ٧٩.

ولو تمعنا في هذه الآيات التي تصرّح بشكل واضح أنه صلى الله عليه وآله وسلم مستعد للقتال دون نبيّنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، والموت من أجله، بضميمة العلة التي من أجلها نذر نفسه الشريفة أن يدافع بها من أجله صلى الله عليه وآله وسلم، وهي كونه نبياً مرسلأً صحيح الدعوى، لوجدنا أن فيها دليلاً كبيراً

فإنه كان ينعت بأنه مشرك، وأنه قد مات على الشرك والعصبية الجاهلية. والواقع أن وصفه بهذا الوصف هو العصبية الجاهلية عينها، بل هو هوى مقيت قائم على أسس من الحقد هارٍ؛ لأن هؤلاء تعصف بهم الآراء والأهواء الزائفة الزائلة؛ فيزيّنون الباطل ويجعلون منه حقاً، ويزيّفون الحق ويجعلون منه باطلاً. وإلا فإن العكس هو الذي يجب أن يكون، فيوسم أبو طالب ﷺ بالإسلام والإيمان، وبشيخ الأَرْض وشيخ الدين، ويوسم أبو سفيان بأنه مشرك ومنافق؛ لما كانت له من مواقف على الضدّ تماماً من المواقف التي كان عليها أبو طالب ﷺ، والتي كان يقفها من النبي الأكرم ﷺ، ومن الدين الجديد. وهي كلّها مواقف إيجابية مشرفة تؤسّر بشكل صريح وواضح إلى أنه ﷺ مؤمن بهذا الدين الجديد وبصاحبه ﷺ، وأنه من التابعين له، غير أنه قد كتم إيمانه خوفاً من

على إيمانه ﷺ، لأنه ما لم يكن كذلك لا يعقل أن يدافع عنه ﷺ دفاع المستميت. إِنَّهُ هُوَ الْعُقُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣]، فلم يسلم أبو طالب، وأسلم وحشي. ورووا ذلك، عن ابن عباس وغيره. وفي هذا نظر كما ترى، فإن النبي ﷺ لا يجوز أن يخالف الله سبحانه في إرادته، كما لا يجوز أن يخالفه في أوامره ونواهيه، وإذا كان الله تعالى على ما زعم القوم لم يرد إيمان أبي طالب وأراد النبي ﷺ إيمانه، فقد حصل غاية الخلاف بين إرادتي الرسول ﷺ والمرسل تعالى، فكأنه سبحانه يقول على مقتضى اعتقادهم: إنك يا محمد، تريد إيمانه، ولا أريد إيمانه، ولا أخلق فيه الإيمان مع تكفّله بنصرتك، وبذل مجهوده في إعانتك والذبّ عنك، ومحبتة لك ونعمته عليك، وتكره أنت إيمان وحشي لقتله عمك حمزة، وأنا أريد إيمانه، وأخلق في قلبه الإيمان. وفي هذا ما فيه. مجمع البيان ٧: ٤٤٨.

وتأسيساً على هذا نقل حديثاً رواه المتقي الهندي عن الرسول الأكرم ﷺ وهو قوله: «كانت مشيئة الله عز وجل في إسلام عمي العباس، ومشيتي في إسلام عمي أبي طالب، فغلبت مشيئة الله مشيتي». كنز العمال ١٢: ١٥٢ - ١٥٣ / ٣٤٤٣٩.

وهذا كما هو ظاهر للعيان تعارض واضح بين الإرادتين، وهو ممّا لا يمكن أن يكون بين سفير دولة وحكومته فضلاً عن كونه بين سفير السماء ومرسّله جلّ شأنه وتقدّس اسمه.

قريش؛ بسبب المناخ العقيدي الذي كان يسود مكة وغيرها من البلاد، والتعصب الجاهلي الذي كان يحكم أهلها، والظروف القاسية القاهرة التي كان المجتمع المسلم يمرّ بها، والتي كانت تحيط به وهو يعالج هذه النقلة النوعية الفريدة للمجتمعات المشركة في محاولة لإنقاذها من الظلام إلى النور^(١).

(١) ولهذا فقد ورد فيه مدح عظيم على لسان أئمة أهل البيت النبوي الطاهر عليهم السلام بسبب كتمه إيمانه، مشبّهين إياه عليه السلام بأصحاب الكهف (رضي الله تعالى عنهم)؛ فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان، وأظهروا الكفر؛ فأتاهم الله أجرهم مرتين، وإن أبا طالب أسرّ الإيمان وأظهر الشرك؛ فأتاه الله أجره مرتين، وما خرج من الدنيا حتى أتته البشارة من الله تعالى بالجنة». شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٠. وفي الحديث المشهور أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة مات أبو طالب: «أخرج منها؛ فقد مات ناصرك». المصدر نفسه.

ولو أننا تتبعنا الأحاديث الشريفة التي يرويها القوم حول أبي طالب عليه السلام إيماناً أشركاً عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، والتي تعالج هذه المسألة الهامة والحساسة في تاريخ العقيدة الإسلامية على مرّ هذه السنين، لوجدنا فيها تناقضاً واضحاً بيناً من خلال استعراضها، وهي روايات يمكن تصنيفها إلى طائفتين:

الأولى: روايات التكفير

فهم يروون أحاديث تنصّ صراحة على أنه عليه السلام مشرك، وأنه خرج من الدنيا دون أن يقبل بالنطق بكلمة التوحيد مع محاولة نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم معه من أجل ذلك، كما سنراه إن شاء الله تعالى من خلال ذكر بعضها.

الثانية: الروايات التي يُنسب منها إيمانه عليه السلام

وهذه الروايات كما ذكرنا يُستشفّ منها تصديقه عليه السلام بالرسالة الإسلامية الشريفة، وبصاحبها الأقدس نبينا الكريم صلى الله عليه وآله وسلم. ومن الأحاديث التي رواها القوم بهذا الخصوص، والمصرّحة بدفاعه عليه السلام عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، بل بإيمانه عليه السلام نذكر:

١ - قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما زالت قريش كافة عني حتى مات أبو طالب». تاريخ مدينة دمشق ٦٦: ٣٣٦، كنز العمال ١٢: ١٥٢ / ٣٤٤٤٠.

٢ - قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن لأبي طالب عندي رحماً سألها ببلاها». المصدر نفسه، كنز العمال ١٢: ٣٤٤٤١ / ١٥٢.

وعليه فهؤلاء حينما يطعنون على أبي طالب عليه السلام، وينعتونه بالكفر فإنما

٣ - قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك». المصدر نفسه، كنز العمال ١٢: ١٥٢ / ٣٤٤٤٢.

٤ - قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وصلتك رحم، وجزيت خيراً يا عم». المصدر نفسه، كنز العمال ١٢: ١٥٢ / ٣٤٤٤٣.

٥ - قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «كل الخير أرجو من ربي». لما سئل صلى الله عليه وآله وسلم: ما ترجو لأبي طالب؟. المصدر نفسه، كنز العمال ١٢: ١٥٢ / ٣٤٤٤٤.

٦ - وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بموت أبي طالب، فبكى ثم قال: اذهب فاغسله وكفنه وواره؛ غفر الله له ورحمه. ففعلت ما قال، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه وآله يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حزناً عليه. المصدر نفسه، المبسوط (السرخسي) ٢: ٥٥، الدر المنثور ٣: ٢٨٣، فتح القدير ٢: ٤١١، تفسير الآلوسي ١١: ٣٣. محاولة التوفيق بين روايات الطائفتين

وهكذا فإنهم في الوقت الذي يروون هذه الأحاديث التي تنص صراحة على أنه عليه السلام مشرك، وجدنا أنهم يروون أحاديث غيرها تصرح بإيمانه عليه السلام كما رأينا، وحينما التفتنا إلى هذا التناقض بعد جمع الحديث وتدوينه، حاولوا التوفيق بين روايات هذه الطائفة وتلك؛ فلققوا لها ما ليس من الدين. فهم مثلاً يروون أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم جعل يستغفر لأبي طالب عليه السلام أياماً بعد موته، ومكث لا يخرج من بيته حزناً عليه، أرادوا أن يوجهوا هذا لصالح رؤيتهم الذاتية إلى تكفيره، فادّعوا أن جبريل عليه السلام نزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم يحمل هذه الآية الكريمة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ التوبة: ١١٣. انظر مصادر الحديث عند الرقم: (٦) من هذا الهامش.

مناقشة

فهل يجوز للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يصل عمه أبا طالب؛ لأنه رحمه ويبلّ ذلك الرحم مع أنه ليس على الإيمان؟ وهل يسوغ له صلى الله عليه وآله وسلم فعل ذلك ما دام مشركاً؟ وهل يخالف رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ما ورد في القرآن الكريم من النهي عن صلة الرحم غير المؤمن؟ وهل يُرجي خير قليلاً أو كثيراً لمشرك؟ وهل يستغفر صلى الله عليه وآله وسلم لمشرك ويمر بتغسيله وتكفينه ودفنه على منهاج الإسلام؟

أمّا ما في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «والله! لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فواضح أنه عبارة «ما لم أنه عنك» غريبة عن الرواية؛ وذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يعمل ما يغضب الربّ تعالى مطلقاً، وبما أطلعته الله سبحانه وتعالى من علم الغيب فإنه صلى الله عليه وآله وسلم يعلم بأن الله تبارك وتعالى يريد هذا العمل

ينطلقون في ذلك من منطلق الهوى والعصبية والجاهلية المقيتة: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

ونحن حينما نطالب الآخرين الذين يسارعون بالحكم على أبي طالب عليه السلام بالكفر أو الشرك (٢) بأن يدرسوا الجوانب الحياتية لأبي طالب عليه السلام دراسة واقعية وعقلانية يتجرّد فيها صاحبها عن الهوى وعن الموروث

ويحبّه، ولا يريد غيره ولا يحبّه؛ فإن قلنا بأنه صلى الله عليه وآله يعلم بأن الله تبارك وتعالى يريد له أن يستغفر لأبي طالب عليه السلام، ويحبّ هذا الفعل منه، لم يكن معنى حينئذٍ لعبارة: «ما لم أنه عنك»؛ لأنها تكون حينها تحصيل حاصل، وهو ممتنع على العاقل فضلاً عنه صلى الله عليه وآله، وإن لم يكن صلى الله عليه وآله يعلم منه ذلك كان قدحاً من معتقده - أي معتقد أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لا يعلم الغيب بتعليم الله سبحانه وتعالى إياه - برسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله، وهو ما يجب أن تنزه عنه ساحته صلى الله عليه وآله. (١) الجاثية: ٢٣.

(٢) وهؤلاء إنما يسارعون إلى ذلك منطلقين من منطلق عصبي أو من منطلق التقليد الأهوج والأعمى لما كان عليه الأسلاف مما أسسه الأمويون والعباسيون من بعدهم، والذين رأينا وسنرى أنهم إنما عمدوا إلى إشاعة هذه الفكرة بغضاً لعلي عليه السلام ولأهل بيت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله:

فالأُمويون يبغضونه لأنه عليه السلام وترهم في كل المعارك التي خاضها ضدّ الإسلام؛ فكان أن كفّروا أباه؛ حقداً عليه.

أما العباسيون، فهم يبغضونه لأنهم يرون العلويين منافساً حقيقياً وشرعياً لهم على الخلافة، فكانوا يكفرون أباه في كثير من المحاولات حتى يبعدوا قضية الوراثة في الخلافة لأنهم صوروا تلك الخلافة على أنها وراثة دنيوية.

وهم حينما كثّروا عن أنبياهم المملوءة سمّاً للعلويين عبر السياسة الهوجاء التي انتهجوها ضدّهم بالاستبداد ودون أية رحمة؛ رأوا أن عليهم أن يبتكروا عنواناً جديداً ينضون تحته وهو عنوان أحقيّتهم بالقربى من النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بعد أن بيّنت لهم مواقف العلويين منهم، وثوراتهم المتتابة والمتصاعدة ضدّهم أن مظلمتهم لم تكن كما كانت من قبل بحيث إنها تعود بالتأييد لسلطانهم الجائر بعد أن انكشفت حقيقة نواياهم تجاه العلويين، بل إنهم راحوا يرون فيها مصدر خطر على وجودهم نفسه. وهكذا لم يجدوا أمامهم خياراً غير العباس جدهم

الجاهلي والمخلفات العصبية، والتي سوف ينتهي حتماً وفقها إلى رأي قاطع يحكم بمقتضاه عليه بأنه عليه السلام مؤمن عاش ومات مؤمناً وموحداً، فإنهم سوف يرفضون رفضاً قاطعاً هذه الفكرة، وينبذونها في وجه مخاطبهم؛ لأنه لا يريدون أن يخرج عن إطار تلك العصبية، ولا عن إसार التقليد الأعمى.

الذي راحوا يشيرون بين الناس أنه أحق بالخلافة من أمير المؤمنين عليه السلام وأبنائه عليهم السلام؛ وأنه الأحق بالإرث والخلافة له من بعده؛ وذلك لسببين: الأول: أنه عم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؛ الوحيد الذي بقي حياً بعد انتقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى؛ فهو أحق بوراثته؛ اختطاطاً لمبدأ التعصيب، وتأيداً له، وإضفاء للمشروعية عليه بما أنه إقرار له وبه من قمة هرم السلطة التي يدعى لها بأنها شرعية إسلامية. الثاني: أنه عاش على دين الإسلام، ومات عليه دون أبي طالب عليه السلام الذي راحوا يشيرون تبعاً لسياسة الأمويين بأنه عاش مشركاً ومات مشركاً؛ فهو - أي العباس - إذن أحق بخلافته صلى الله عليه وآله وسلم؛ تأسيساً لذلك على قانون الوراثة؛ مصوّرين إياها على أنها من سهام الميراث كما صدح به شعراؤهم؛ لأنهم يرون كما سنشاهده لاحقاً أن الخلافة وراثة دنيوية وليست توقيفية، أو نصاً سماوياً مقدساً.

وقد جندوا لهذا الغرض الأقلام المأجورة، سبّما وسائل الدعاية المعروفة آنذاك نعني بهم الشعراء، فالمتزلفون منهم والوصوليون والانتهازيون كانوا عادة يسارعون إلى تلبية رغبات السلطات؛ فيبيعون آخرتهم من أجل شيء من حطام الدنيا فإن، فراح هؤلاء المتزلفون يطبلون لهذه الظاهرة، ويعزفون على هذا الوتر مستغلين رغبة السلطة تلك مع أنه توجه مبتدئ على نظرية فقهية سنية في الميراث، وهي نظرية التعصيب التي لا يقول بها مذهب أهل البيت عليهم السلام. وقد أنشد الكثير من الشعر لتثبيت تلك النظرية التي تبتأها العباسيون، لا شيء إلا لأنها تحقق لهم رغبتهم في الوصول إلى السلطة، والبقاء فيها بعد أن يسبغ ذلك المذهب المشروعية التي يريدونها على استحواذهم على السلطة، وسلبهم أصحابها الشرعيين إياها. وكان من هؤلاء الشعراء مروان بن أبي حفصة الذي وقف موقفاً مناهضاً لمذهب أهل البيت، وللأئمة عليهم السلام الذين يمثلون واجهة الإسلام، فكان أن أنشد:

أنى يكون وليس ذاك بكائنٍ لبني البناتِ وراثَةُ الأعمامِ
ألغى سهامَهُمُ الكتابُ فحاولوا أن يشرعوا فيها بغير سهامِ
ظفرت بنو ساقِي الحَجِيجِ بحَقِّهِمُ وُعُررتُم بتوهُمِ الأحلامِ

ونحن نقول في هذا المقام: بأن الطود لا يمكن أن يؤثر فيه نطح ناطح، فهذا لا يقلل من قيمة أبي طالب عليه السلام ولا يضيره بشيء أبداً؛ لأنه علم وطود وسيبقى كذلك. وغاية ما يكشفه لنا هذا التصرف هو أن هؤلاء يملكون نفوساً وضيعة تبتعد عن الإسلام؛ لأنها تمشي على ضوء مقاييس مختلة، وعلى ضوء الازدواجية في التعامل مع الوقائع التي مرت في تاريخنا.

الصفة الرابعة: عدم ذكر الله تبارك وتعالى

ثم انتقلت الآية الكريمة فقالت: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾، فالآية الكريمة هنا في مقام الذم لهؤلاء؛ لأن من ينس الله تبارك وتعالى فلنا أن نتصور ما الذي سيكون عليه حاله في الدنيا وفي الآخرة^(١).

إذن فهؤلاء المنافقون قد اعتادوا على ألا يذكروا الله تبارك وتعالى، ولا يجعلوه نصب أعينهم فيما يفعلون وفيما يقومون به، بل وفيما يعتزمون القيام به؛ ولذا فإن الله سبحانه وتعالى قد أخرجهم من رحمته، ولم يجعل لهم وجوداً ضمن إطارها ودائرتها.

المراد من النسيان في آية المقام الكريمة

ولا بد أن نذكر هنا أن النسيان المراد في الآية الكريمة؛ سواء ذلك النسيان المنسوب إلى الله جل شأنه، أو المنسوب إلى المنافقين هو غير النسيان الذي يتبادر إلى أذهان الناس. ولذا فإنه يمكن معالجة هذا الأمر من

(١) والأدعية الشريفة الواردة عن أئمتنا: تلاحظ هذا الجانب حتى إنه ورد فيها: «لا تكني إلى نفسي طرفة عين»، انظر الكافي ٢: ٥٢٤ / ١٠، ٥٦١ / ٢٠، ٥٨١ / ١٥، ٣: ٣٤٦ / ٢٦، ٧: ٢ / ١، وغيره. أي إن الإنسان حينما يكله الله تبارك وتعالى إلى نفسه فإنه يكون قد نسيه، وإذا نسيه فإن ذلك يعني الخسران المبين للإنسان في الحياة الدنيا والآخرة. أما المراد بالنسيان هنا فهو ما سوف يبيّنه المحاضر لاحقاً.

جانبيين:

الأول: النسيان المتعلق بالمنافقين

فهنا لا يمكن أن نحمل النسيان على معناه المعروف والمألوف عند الإنسان؛ لأنه بهذا المعنى موجود عند الإنسان الذي يمكن أن ينسى فقط والذي يكون معذراً له عندما يترك بعض الطاعات أو يفعل بعض المحرمات والمنهيات لسببه؛ فيسقط العقوبة عنه. وقد ورد أن من جملة من رُفِع عنهم القلم هو الناسي وذلك في قوله ﷺ: «وضع عن أمتي تسع خصال: الخطأ والنسيان، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطروا إليه، وما استكروهوا عليه، والطيرة، والوسوسة في التفكر في الخلق، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد»^(١).

ولهذا فإن الصائم لو نسي وشرب ماءً أو أكل طعاماً فإنه لا يفطر، ولا يحكم ببطلان صومه؛ لأن النسيان معذّر له ومسقط للعقوبة عنه. وبناء على هذا فإذا كان النسيان معذراً للإنسان ومسقطاً للعقوبة عنه، وغير مسوّغ لها بحقه، فلماذا إذن يذمّ الله تبارك وتعالى هؤلاء ويعاقبهم عليه بأن ينساهم لأنهم نسوه؟

إن هؤلاء إذا كانوا قد نسوا الله، وإذا كان النسيان هو أمر غريزي عند الإنسان لا يمكن أن يتحكّم فيه فإن العدل يقتضي عدم محاسبتهم كما ذكرنا، وهو مذهب الإسلام في عدم محاسبة الناس مما رأينا من قوله ﷺ، ومن الأحكام الشرعية المتعلقة بالناسي، فلماذا نجد أن

(١) انظر: الكافي ٢: ٤٦٢ - ٤٦٣/١، فتح الباري ١١: ٤٧٨، التبيين ٦: ٥٠٦، باختلاف يسير، مجمع البيان ٦: ٢٧٨، بحار الأنوار ١٧: ٥٤، المعجم الأوسط ٨: ١٦٦.

القرآن الكريم - كما في آية المقام الكريمة - يرتب أثراً على هذا النسيان وعقوبة عليه؟ وهل في البين تناقض وتنافٍ، أم أن للنسيان معنى آخر مغايراً للمعنى الذي يتبادر إلى أذهاننا؟

والجواب أنه كما ذكرنا من أن هذا النسيان هو غير النسيان الذي يتبادر إلى ذهن الإنسان أو المألوف والمعروف عنده؛ لأن ذلك النسيان معذّر كما بينا، وبما أن الله سبحانه وتعالى يحاسب هؤلاء على نسيانهم فإنه لا بدّ أن يكون ليس ذلك النسيان المتبادر، أي أننا لا بدّ من أن نحمله على غير ذلك .

ودليل هذا أنه قد أسند إلى الله تعالى، ونحن نعرف أنه جلّ وعلا لا ينسى كما سيأتي في مناقشة وبيان الجنبّة الثانية وهي التي أطلقنا عليها «بيان النسيان المنسوب إلى الله سبحانه». فالله جلّ شأنه محيط بكل شيء؛ فلا يمكن أن ينسى شيئاً أو أن يعزب عنه شيء كما سنراه لاحقاً.

إذن فالإنسان لا يمكن أن يؤاخذ على النسيان، لكنه يمكن أن يؤاخذ على التناسي؛ أي أنه إذا ما تغافل عن ذكر الله تبارك وتعالى وتساهل في أوامره ونواهيه، فلم يعمل وفق أوامره، ولم ينته عن نواهيه جلّ شأنه؛ فإن هذا يكون منجزاً لوقوع العقوبة عليه، وغير معذّر له؛ لأنه إنما افتعل ذلك النسيان، وليس هو بنسيان على وجه الحقيقة.

بيضاء لا توارىها العمامة

إذن فالمراد من النسيان هنا هو إما التناسي وهو التغاضي عن الحق، أو أنه التساهل في فعل الطاعات والانتهاك عن المحرمات والتساهل بالجزاء الذي وعد الله سبحانه وتعالى به. فهذا هو الذي يؤاخذ الله تبارك وتعالى

به وعليه عباده. يروى أن أمير المؤمنين عليه السلام قام برحبة الكوفة خطيباً فقال: «أُتشد الله رجلاً سمع رسول الله ﷺ يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه؛ اللهم وال من ووالاً، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من نصب له العداء والبغضاء». فقام رجال فشهدوا، ولم يقم أنس بن مالك وكان حاضراً، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «لم لم تشهد؟». فقال: كبرت سني ونسيت. فقال له عليه السلام: «إن كنت كاذباً فضربك الله ببضء لا توارىها العمامة». فضربه الله ببرص لازمه حتى موته ^(١).

وكما رأينا هنا فإن الله جلّ وعلا قد أصاب أنساً بدعوة الإمام عليه السلام عليه؛ وذلك لأنه ادّعى النسيان مع أنه لم يكن ناسياً بل إنه تناسى، وهذا التناسي كان موجباً لوقوع عقوبة دعوة العبد الصالح عليه كما عبّر هو عنها حيث إنه قال لمن سأله عن سبب برصه: دعوة العبد الصالح علي بن أبي طالب عليه السلام نفذت في ^(٢).

إذن فالتناسي والتغاضي عن الحق وقوله هما اللذان يكونان سبباً مسوّغاً لوقوع عذاب الله سبحانه وتعالى على الناس ممن يفعلهما، والمتناسي هو الذي يؤخذ على ما فعل.

وبهذا فإننا نعرف أن المراد من قوله تبارك وتعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾: أنهم تناسوا ما أمرهم به، وما نهاهم عنه، كما أنهم تناسوا الجزاء الذي وعدهم به، فعاملوا البارئ جلّ شأنه معاملة الناسي، فكما أن الناسي لا

(١) انظر: المعارف (ابن قتيبة): ٥٨٠، حلية الأولياء ٥: ٢٧، محاضرات الأدباء ١: ٤٩٠، ٢: ٣١٨. ونقل شاذان بن جبرئيل في الروضة: ٢٠٤ - ٢٠٧ حديثاً فيه جملة من مناقب أمير المؤمنين عليه السلام برواية أنس هذا، ومنها هذه المنقبة.

(٢) المصدر نفسه.

يفعل الطاعة ولا يترك المعصية لنيانته، فهؤلاء لم يفعلوا الطاعة ولم يتركوا المعصية؛ لا لنيانٍ، بل لتناسٍ، فأعرضوا عن أوامره وتجاهلوا عقوباته التي وضعها إزاء معصيتهم له في الحياة الآخرة.

الثاني: النسيان المتعلق به تبارك وتعالى

ومن هذا فإننا نعرف أن النسيان الذي أسند إلى الله تبارك وتعالى هو أيضاً ليس ذلك النسيان المعروف والمألوف والذي يتبادر إلى أذهاننا؛ لأن الله سبحانه وتعالى كما ذكرنا في صدر هذا المبحث هو عليم حكيم محيط بكل شيء، ولا يخفى عليه شيء في جميع العوالم؛ صغيرها، وكبيرها، وهو جلّ وعلا عنده إحاطة بكل مخلوقاته من أحقرها إلى أخطرها. فإذا كان كذلك جلّ شأنه، فإنه لا يصحّ حينئذٍ أن ننسب إليه النسيان بهذه الكيفية.

وبناء على ما قررناه من نوع نسيان هؤلاء - وهو تجاهلهم أمر الله تبارك وتعالى ونهيه - فإن الله سبحانه حينما يقرر بأنه قد نسيهم فهو يريد بأنه يتجاهلهم أيضاً لما قدموا من آثام ومعاصٍ، فعاملهم معاملة الناسي. فكما أن الناسي لا يذكر من أحوال الشخص الذي نسيه شيئاً ولا يذكره بشيء من برّه، فكذلك الله تبارك وتعالى لا يذكرهم بشيء من برّه وخيره معاملة منه تعالى شأنه لهم بالمثل؛ لأنهم قد فعلوا معصية أدّت بهم إلى أن ينالوا ذلك المصير الذي صاروا إليه، وهو العقوبة.

إذن فهذا الاستعمال هو من باب ذكر الشيء وقبيله، أي أنهم كما تجاهلوا أوامر الله وعاملوه معاملة الناسي، فإن الله جلّ شأنه قد تجاهلهم أيضاً، أي تركهم وما يعملون، وعاملهم معاملة الناسي دون أن يقيم لهم

وزناً، أو دون أن يرى لهم اعتباراً أو خطراً أو ذكراً.

ثمرة في حمل ألفاظ القرآن الكريم على ظواهرها

ومن خلال هذا المقطع الشريف من آية المقام الكريمة يمكن أن نستفيد شيئاً هو أننا لا يمكن أن نحمل الكثير من الألفاظ القرآنية الشريفة على ظواهرها في كلِّ آن وفي كلِّ مورد، بل إننا في بعض الأحيان يجب أن نلجأ إلى تأويل تلك الألفاظ بما لا يتنافى مع الثوابت والقواعد العامة للإسلام، والخطوط العريضة له، ولعقائده الحقة، ولا لمقررات العقل كذلك.

آيات لا بد من تأويلها

ومن هنا فإننا نقول بأن هناك الكثير من الآيات الكريمة التي يتدخل العقل وقواعد الشريعة من قبله فيها من أجل تأويلها بما يوافق العقائد الإسلامية. فنحن إنما نلجأ إلى تأويل بعض ألفاظ القرآن الكريم وإلى أن نعدل عن ظواهرها؛ لأننا نريد أن نتخلص من حتمية تصادم تلك الظواهر مع الخطوط العامة للإسلام، ومن أن الأخذ بالظاهر ربما يؤدي إلى القول بالتناقض بين بعض الألفاظ القرآنية وبعض مقررات الدين والعقل. وهذا يعني أننا إذا لم نؤولها، فإننا سوف ندلف بأنفسنا في هوة تأخذ بنا إلى الوقوع في كثير من المشاكل التي ربما يكون بعضها عقيدياً، أي أننا نضع أنفسنا في مطبات عقيدية نكون قد ذهبنا وفقها إلى خلاف ما تقتضيه متبنيات العقيدة الإسلامية، ومن هذه الآيات الكريمة نذكر:

الأولى: آية أن له تعالى وجهاً

إننا إذ نقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(١)، فهل يعني هذا أننا نقول بأن الله تبارك وتعالى وجهاً كباقي

(١) الرحمن: ٢٦ - ٢٧.

الناس؟

والجواب طبعاً: لا؛ لأننا لا يمكن أن نقول بذلك بما أنه أمر يؤدي إلى التجسيم؛ ولذا فإننا نضطر إلى تأويل هذه الآية الكريمة ونقول: إن المراد من الوجه هنا: الذات الإلهي الأقدس، أي ذات الله تعالى. وهذا يعني أن الله جلّ وعلا سيبقى حينما يفنى الناس جميعاً ولا يبقى على الأرض من أحد، فهو سبحانه صاحب الدوام السرمدي الذي لا انقطاع له، أما أن يكون له جلّ شأنه وجه كوجوهنا مثلاً - أي بمعنى الجارحة الفانية الزائلة - فهذا غير ممكن وغير مقبول؛ كما أنه لا يلتقي مع عقائدنا الإسلامية.

الثانية: آية العرش

يقول تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(١)، والعرش كما هو معروف: الكرسي الذي يشغله الملك أو السلطان حينما يجلس للحكم، فهل يعني هذا أن الخالق جلّ شأنه هو من هذا النوع، أي أنه يجلس في مكان محدود على كرسي محدود ليحكم بين مخلوقاته؟

والجواب أيضاً هو النفي؛ لأن ذلك يؤدي إلى القول بالتجسيم الذي يتنافى مع صفات الله تبارك وتعالى كلّها. وبناء على هذا فإننا نعمد إلى التأويل وإلى أن نقول به، فنؤوّل الكرسي هنا على أن المقصود به دائرة الأمر والنهي.. فعرش الله جلّ شأنه هو تلك الدائرة التشريعية التي تتضمن الأوامر والنواهي الإلهية المقدسة التي صدرت عن المشرع الأقدس لتنظيم هذا الكون الشاسع كلّه، وإحكام سيطرته جلّ وعلا على الوجود بأسره.

(١) طه: ٥.

ونحن في استعمالاتنا اليومية لا نخرج عن هذا الإطار من التأويل، فنحن نقول مثلاً: قررت العاصمة مثلاً الشيء الفلاني، أو قضت العاصمة بالأمر الفلاني، أو قررت الحكومة الأمر الكذائي. وهذا لا يعني أن الأمر صادر من العاصمة نفسها مثلاً أو من الحكومة التي هي مجموعة من الكراسي أو العروش التي يشغلها أصحاب الشأن، وإنما يعني أنه صادر من رئيس الدولة الذي يبسط سلطته وسيطرته على كل أرجاء دولته.

إذن فاستواء الله تبارك وتعالى على عرشه هو استواؤه على تلك الدائرة المتعلقة بالأوامر والنواهي الإلهية، وسيطرته عليها، وإحكام قبضته التي تعني إرادته وسلطانه على كل ما في الكون من موجودات، وكذلك يعني وضعه عقوبة ومثوبة إزاء ترك أوامره أو فعلها، وفعل نواهيها أو تركها. وهكذا فإننا نجد أنفسنا هنا مضطرين إلى أن نؤوّل بعض الآيات القرآنية الكريمة لأننا إن حملنا بعضها على ظاهرها فإن هذا سوف يؤدي بنا إلى نتائج سلبية غير مقبولة إطلاقاً، وهي نتائج تتنافى مع مقررات العقيدة الإسلامية، وتتصادم مع ضوابطها.

ومن هذا نخلص إلى أن المراد من قوله تعالى في آية المقام الكريمة: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ هو أن الله سبحانه وتعالى سوف يعرض عن العبد الذي يعرض عنه إذا ما أصرّ على ذلك الإعراض ولم تنفع معه موعظة ولا بلاغ ولا بيان، (نسأل الله تعالى ألا ينسانا من رحمته، اللهم إنا هدنا إليك؛ فلا تحرمننا من عطائك ورحمتك).

إذن فالواقع الذي ينبغي أن نسعى إليه وأن نحصله هو أنه يجب ألا نخلق حاجزاً بيننا وبين الله تبارك وتعالى من الذنوب التي تحول بيننا وبين ما أعدّه جلّ شأنه لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون، ويوم لا ظلّ إلا ظلّه جلّ

شأنه، وعلينا ألا ننسى الله سبحانه وتعالى؛ كيلاً ننسى من رحمته وعطائه، ومغفرته ورضوانه؛ فنهوي في نار جهنم إلى قعرها بعيداً عن تلك الرحمة التي هي غاية ما يريده العبد يوم الدينونة. بل إن علينا أن نكون دائماً في دائرة ذكر الله تبارك وتعالى وفي موضع عبادته، ولا نغفل عنه حتى لا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

إننا نريد منه جل شأنه أن يذكرنا ويرحمنا باستمرار؛ لأن انقطاع تلك الرحمة لحظة من اللحظات يعني حقيقة واحدة هي الخسران المبين للإنسان، ولولج النار التي أعد الله سبحانه لعباده العاصين. فالله جل شأنه قد أعطانا العطاء الكافي من لطفه ورحمته، ومنه وبركته؛ ولذا فإن علينا أن نكون على مستوى شكر ذلك العطاء وردّه قولاً وفعلاً إلى الله تعالى بما يتناسب مع ذاته وقده.

المبحث السادس: الإمام الحسين عليه السلام والذكر

ومن هنا فإننا نجد أن بعض المصادر تطالعنا أن أولياء الله سبحانه وتعالى بل وسيدهم رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم كانوا إذا ما نزلت بهم نازلة يقولون: «اللهم إن كان هذا من سخط منك علينا فاشدد حتى ترضى»^(١).

وهذه السيرة المنيرة والمشفرة التي كان عليها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من ملازمته للذكر في كل حالة من حالاته؛ سواء في ضرائه أو في سرائه كانت موجودة عند خلفائه عليهم السلام الذين ارتضاهم الله تبارك وتعالى لقيادة الأمة ولزعامة الإسلام دون غيرهم من بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. ونحن نجد هذا المعنى واضحاً بارزاً بيناً في كل حركة من حركاتهم، وفي كل لحظة من

(١) دلائل الإمامة: ٧٢ / ١١، مقاتل الطالبين: ٣١، شجرة طوبى ١: ١٦١ - ١٦٢، عن علي ابن الحسن عليه السلام لما أدخل الحبس.

لحظاتهم: ، بل إننا نجد ذلك عندهم حتى في أحلك الحالات وفي أصعب المواقف وأشدّها.

إن المؤرّخين يطالعوننا فيما يروونه لنا عن الإمام الحسين عليه السلام أنه حينما مرّ على جموع الضحايا من أهل بيته وأصحابه - بعد أن تلفت إلى مخيم أهل بيته فوجده خالياً، وإلى مخيم الأنصار فوجده خالياً أيضاً - تمتمت شفّته بذكر الله بعد أن لم يبق معه أحد يواسيه، أو يذبّ دونه ويدفع الموت عنه، فجاء إلى باب الخباء ونادى: «من يقدّم لي جوادى وأنا ابن أمير المؤمنين؟ من يقدّم لي جوادى وأنا ابن فاطمة الزهراء؟»^(١).

وقد كان من قبل حينما ينادي يتسارع إليه العباس عليه السلام، أو علي الأكبر عليه السلام، أو الهاشميون، لكنه عليه السلام الآن وحيد لم يجد من يبادر إليه من أهل بيته، فخرجت إليه أخته الحوراء زينب، وهي تقول: أخي لمن تنادي، جرحت فؤادى، وليس في مخيمنا سوى النساء والأطفال؟

وها هو صوت العقيلة عليها السلام التي خرجت إليه بجواده، والتي أبت إلا أن تقف معه طيلة مسيرته في أشدّ المواقف وأحلكها، بل إلا أن تقف معه بعد تلك المسيرة بعد أن انتقل شهيداً إلى رضوان الله تبارك وتعالى وإلى دار القدس، والتي داومت على أن تكون الوجه المشرق المشرفّ لنهضة سيّد شباب أهل الجنة الإمام الحسين عليه السلام وعلى أن تمثل ذلك الوجه، وتعطي صورة مشرقة بيضاء ناصعة عن تلك الحركة المحمدية الخالصة التي أعادت الحقّ إلى نصابه، وأرجعت إلى الدين هيئته ووجوده وكيانه.. خرجت إليه وببدها عنان الفرس وباليد الأخرى الشكيمة، وهي تقوده، فأقبلت إليه قائلة: «ما أجلدني! وما أقسى قلبي! أي أخت تقدّم لأخيها

(١) شجرة طوبى: ٢٢٩.

فرس المنية؟».

ثم راحت تدعو له عياله ليودّعوه ويتزوّدوا منه قبل أن يلاقي تلك اللحظة الحاسمة:

قوموا إلى التوديع إن أخي دعا بجواده إن الفراق طويلاً
فبرزن ربّات الحجال حواسراً وغدا لها حول الحسين عويل
الله ما حال العليل وقد رأى تلك المدامح للوداع تسيل

ثم دمعت عيناها، يقول الإمام السجّاد عليه السلام: «أما عمّتي زينب عليها السلام، فقد اختنقت بعبرتها، فأخذ أبي الحسين عليه السلام منديله وكفّف دموعها»^(١).
يقول المؤرخون: ثم قال لها: «أخية تعزّي بعزاء الله، لا يذهبن بحلمك الشيطان، اعلمي أن أهل السماء لا يبكون، وأهل الأرض يموتون ولي، ولكلّ مسلم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسوة حسنة. أخية تمسّكي بحبال الصبر»^(٢). فصاحت:
والوعته ابن أمّ، أراك تغتصب نفسك اغتصاباً؟^(٣) ثم خرج عليها السلام إلى ساحة القتال.. إلى حيث يلقي ربّه بدمه الذي يستصرخ الأجيال والأحرار منبئاً إياهم عن مظلوميته التي فاقت أن تستوعبها العقول أو المدونات، فراحت عيناها عليها السلام تلاحقانه حتى نزل به قضاء الله جلّ وعلا:

أخّي من يحمي بنات محمدٍ إن صرن يسترحمن من لا يرحم^(٤)



(١) الإرشاد ٢: ٩١ - ٩٢، الكامل في التاريخ ٢: ٥٥٨، وقد مرّ مفصلاً في ج ٢ ص ٩١ من كتابنا هذا.

(٢) الإرشاد ٢: ٩٤، تاريخ الطبري ٤: ٣١٩، البداية والنهاية ٨: ١٩٢.

(٣) مقاتل الطالبين: ٧٥. (٤) شهداء أهل البيت عليهم السلام: ١٠٢.

الفهرس الإجمالي

الفصل الاول: مكانة المرأة

- ﴿١﴾ الإسلام والمرأة ٩
- ﴿٢﴾ حقوق المرأة في الإسلام ١٧
- ﴿٣﴾ المرأة بين الحقوق والواجبات ٣١
- ﴿٤﴾ تكريم المرأة ٤٥
- ﴿٥﴾ دور العلم في بناء الحضارة ٦١

الفصل الثاني: التربية الدينية

- ﴿٦﴾ معالم التربية الإسلامية ٨١
- ﴿٧﴾ أثر البيئة في التربية ١٠٩
- ﴿٨﴾ الفقه التربوي ١٤١

الفصل الثالث: سنّة الزواج

- ﴿٩﴾ مشروع الزواج الإسلامي ١٧٥
- ﴿١٠﴾ الزواج وقانون التكافؤ ٢١٧
- ﴿١١﴾ نظام تعدد الزوجات ٢٤٣

الفصل الرابع: الأسرة

- ﴿١٢﴾ البناء الأسري ٢٦٩

- ﴿١٣﴾ قانون الأسرة في التشريع ٢٨٩
- ﴿١٤﴾ نظام الأسرة في الإسلام ٣٢١
- ﴿١٥﴾ الإخاء ودوره في بناء الأسرة ٣٥٣
- ﴿١٦﴾ برّ الوالدين ٣٧١
- ﴿١٧﴾ التكافل الأسري ٣٨٩
- ﴿١٨﴾ اقتصاد الأسرة ٤٠٧
- ﴿١٩﴾ الأسرة الأنموذجية ٤٢٣
- ﴿٢٠﴾ فقه الأسرة ٤٥٣
- ﴿٢١﴾ من مسائل فقه الأسرة ٤٨١

الفصل الخامس: الفقه الديني

- ﴿٢٢﴾ الزينة ٥٠١
- ﴿٢٣﴾ مشاكل الزواج ٥١١
- ﴿٢٤﴾ أبغض الحلال إلى الله ٥٢٩
- ﴿٢٥﴾ مسائل في حياة المرأة ٥٥١
- ﴿٢٦﴾ وراثّة النساء ٥٧٥

الفصل السادس: جهاد المرأة

- ﴿٢٧﴾ دور المرأة الصالحة في بناء المجتمع ٥٩٥
- ﴿٢٨﴾ الإسلام ودور المرأة في الحياة العامّة ٦٢٥
- ﴿٢٩﴾ السيدة زينب عليها السلام المرأة النموذج ٦٩٥
- الفهرس الإجمالي ٧٤١

الفهرس التفصلي

كلمة المؤسسة ٥

الفصل الاول

مكانة المرأة

- ١ ﴿الإسلام والمرأة﴾ ٩
- المبحث الأول: المرأة بين الإسلام والجاهلية..... ٩
- المبحث الثاني: الفرق بين الرجل والمرأة؟ ١١
- المبحث الثالث: دور المرأة في واقعة كربلاء..... ١٥
- ٢ ﴿حقوق المرأة في الإسلام﴾ ١٧
- مقدمة حول دور المرأة في المجتمع الإسلامي ١٧
- الأولى: وجوب التفريق بين الإسلام والمجتمع الإسلامي ١٨
- الثانية: كل كائن خلقه الله ضمن وظيفته، وتكامله النسبي ١٩
- المبحث الأول: نظرة المجتمعات آنذاك إلى المرأة ١٩
- أثر المجتمعات في السلوك الشخصي للإنسان..... ٢٠
- المبحث الثاني: الطلاق وأخطاره الاجتماعيّة ٢٢
- المبحث الثالث: بعض الإشكالات حول تعامل الإسلام حيال المرأة ٢٤
- عدم أهليّة المرأة لإمامة الصلاة والقضاء ٢٤

- ٢٥ عدم إعطاء المرأة حقَّ التعلُّم.
- ٢٦ الإيرادات على الإسلام ليست من الإسلام.
- ٢٦ المبحث الرابع: في معنى ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ في الآية.
- ٢٧ المبحث الخامس: الفرق بين القبول والجزاء.
- ٢٨ المبحث السادس: الدور الحقيقي للمرأة في الإسلام، زينب أنموذجاً.
- ٢٩ موقف لعبد الله بن جعفر.
- ٣١ ﴿٣﴾ المرأة بين الحقوق والواجبات.
- ٣١ المبحث الأول: ورقة حقوق المرأة والمناوئين للإسلام.
- ٣٢ المبحث الثاني: إشكالات حول دور المرأة في المجتمع الإسلامي.
- ٣٣ الأول: مسألة الطلاق.
- ٣٣ شروط الطلاق عند الإمامية.
- ٣٤ أسباب الطلاق.
- ٣٨ الثاني: مسألة الميراث.
- ٣٩ ميراث أبناء الأبناء وحجبهم غيرهم.
- ٤٠ الزوجة تأخذ ثمن الأرض لا عينها.
- ٤١ الثالث: مسألة الجهاد.
- ٤٥ ﴿٤﴾ تكريم المرأة.
- ٤٥ المبحث الأول: بعض الجوانب الإيجابية حيال المرأة.
- ٤٦ الأول: الجانب الموضوعي.
- ٤٦ الثاني: الجانب الذاتي.
- ٤٧ المبحث الثاني: دوافع التعامل السلبي مع المرأة.

- الأول: دافع الشرف والكرامة ٤٧
- الثاني: دافع الفقر والجوع ٤٨
- الثالث: دافع الغلظة والقسوة ٥٠
- المبحث الثالث: مسألتان هامتان حول الزواج ٥٣
- الأولى: دور الأب في زواج ابنته ٥٣
- الثانية: النتائج السلبية للطلاق ٥٤
- النتيجة الأولى: عدم توفر فرصة للبنى في الزواج ٥٥
- النتيجة الثانية: ضياع الأطفال وتشردهم ٥٦
- المبحث الرابع: قضية الوأد ومعالجة الإسلام لها ٥٧
- ﴿٥﴾ دور العلم في بناء الحضارة ٦١
- مقدمة ٦١
- المبحث الأول: في أمية الرسول ﷺ ٦٢
- المبحث الثاني: لماذا وصف الله نفسه بـ ﴿الأكرم﴾؟ ٦٣
- السبب الأول: أنه منح قابلية الاقتدار على الكتابة ٦٣
- السبب الثاني: أنه تعالى لا ينتظر عوضاً على كرمه ٦٤
- السبب الثالث: أن كل كرم هو من كرمه تعالى ٦٥
- المبحث الثالث: حول أهمية العلم وتعلمه ٦٥
- مأساة الفكر ومحاربتة ٦٨
- دور السبب الطبيعي في الحياة ٧١
- المبحث الرابع: وجوب التعلم على الجنسين ٧٢
- المبحث الخامس: دور عالمة أهل البيت عليهم السلام ٧٤

الفصل الثاني

التربية الدينية

- ﴿٦﴾ معالم التربية الإسلامية ٨١
- المبحث الأول: منطقة الفراغ؛ تحديدها وإشباعها ٨١
- معالجة الإسلام لمشكلة الجوع ٨٢
- كيف عالج الإسلام مشكلة الزواج ٨٢
- معالجة الإسلام أزمة الأخلاق ٨٣
- أقسام التكافل في الإسلام ٨٣
- التكافل الاقتصادي ٨٤
- الإسلام يأخذ بالفوارق الدينية والخلقية ٨٦
- الإسلام يأخذ بالفوارق العلمية والثقافية ٨٧
- التكافل الأسري ٨٨
- التكافل النفسي ٨٩
- الدور الخطر والحساس لوسائل الإعلام ٩١
- المبحث الثاني: أسئلة وأجوبة ٩٦
- السؤال الأول: موقف الإمامية من شرع من كان قبلهم ٩٧
- السؤال الثاني: دخول ابن الزنا الجنة ٩٧
- السؤال الثالث: نكاح الصدق ٩٩
- السؤال الرابع: زواج أولاد النبي آدم عليه السلام ٩٩
- السؤال الخامس: مشروعية التحليلات الجنسية ١٠٠
- السؤال السادس: تأويل القرآن ١٠١
- السؤال السابع: الأخذ برواية غير الشيعي ١٠٣

- السؤال الثامن: وسائل منع الحمل ١٠٤
- السؤال التاسع: وسائل منع الحمل الدائمة ١٠٤
- السؤال العاشر: الحجاب الإسلامي ١٠٥
- السؤال الحادي عشر: خروج المرأة من غير إذن زوجها ١٠٥
- السؤال الثاني عشر: سماع الموسيقى ١٠٦
- النوع الأول: الموسيقى الوطنية ١٠٦
- النوع الثاني: الموسيقى الداعرة ١٠٦
- السؤال الثالث عشر: حدّ قطع اليد ١٠٧
- ﴿٧﴾ أثر البيئة في التربية ١٠٩
- المبحث الأول: مدارس التفسير ١٠٩
- الأولى: مدرسة التفسير بالرأى ١١٠
- الثانية: مدرسة التفسير بالمأثور ١١١
- الأول: التفسير بالمأثور اللغوي ١١١
- الثاني: التفسير بالمأثور الحديثي ١١٢
- المبحث الثاني: سلبيات التفسير بالمأثور ١١٢
- الكليني عليه السلام والبخاري ١١٣
- أُنموذجان من إسرئيليات القوم ١١٤
- الأول: البخاري يروي أن النبي موسى عليه السلام سمل عين عزرائيل ١١٤
- الثاني: أن الله قد كشف عن عورة نبيّه موسى عليه السلام ١١٥
- بين النقد والانتقاد ١١٩
- الوحدة الإسلامية وضرورة الحفاظ عليها ١٢٠
- المبحث الثالث: أثر النعمة في الإنسان المؤمن ١٢٠

١٢١	سبب نزول قوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾
١٢١	رواية الأذان
١٢١	نقد الرواية
١٢٢	استنتاجات على ضوء سبب النزول
١٢٢	النتيجة الأولى: أن الإنسان لا يستغني عن الرفيق
١٢٦	النتيجة الثانية: ذهاب الرفيق يؤدي إلى الاغتراب
١٢٩	حقيقة التصوف وأنواعه
١٢٩	الأول: التصوف المعتدل
١٢٩	الثاني: التصوف المتطرف
١٣١	النتيجة الثالثة: أن الإخوة لا تحول بينهم الرتب
١٣٣	أنموذج من مدرسة رسولنا الأعظم ﷺ
١٣٣	سلمان المحمدي ﷺ
١٣٤	أنموذج من زهد سلمان ﷺ
١٣٤	أنموذج من تواضعه ﷺ
١٣٥	أنموذج ثانٍ من تواضعه ﷺ
١٣٦	سارتر والوجودية
١٣٧	رجع
١٤١	﴿٨﴾ الفقه التربوي
١٤١	المبحث الأول: سبب النزول
١٤٢	المبحث الثاني: الملامح التربوية في القرآن والسنة
١٤٢	لكل قوم نكاح
١٤٣	وطء الشبهة

١٤٣ الآثار الوضعية للزنا
١٤٩ المبحث الثالث: تحريم ما لم يحرمه الله تعالى
١٤٩ البحيرة
١٥٠ السائبة
١٥٠ الوصيلة
١٥٠ الحامي
١٥٠ الإنسان والتشريع
١٥٠ الأول: إهدار المال والطاقة
١٥١ الثاني: تصدّي من ليس له أهليّة التشريع له
١٥٤ رجع
١٥٥ هشام بن الحكم يرى الطبيعة الجسيمية للضوء
١٥٨ المبحث الرابع: ضريبة السؤال اللاواعي
١٦٠ المبحث الخامس: في تحريف القرآن
١٦٠ مصحف علي <small>عليه السلام</small> وتحريف القرآن الكريم
١٦٠ الشيعة لا يقولون بوقوع التحريف بل غيرهم
١٦٤ المبحث السادس: وجوب السؤال عن القرآن والدقة في نقله
١٦٥ المبحث السابع: في البراءتين: الشرعية والعقلية
١٦٦ قبح العقاب بلا بيان
١٦٧ آية المودّة
١٦٩ استذكار الحسين <small>عليه السلام</small> استجلاء للحقّ
١٧٠ أوّل خدّ تقلّب على الثرى لأجل الحسين <small>عليه السلام</small>

الفصل الثالث

سنّة الزواج

- ﴿٩﴾ مشروع الزواج الإسلامي ١٧٥
- المبحث الأول: قانون الزوجية العامة ١٧٥
- الأول: أنها الأشياء المتقابلة ١٧٦
- الثاني: أنها الزوجية البايولوجية ١٧٧
- المسلمون والقرآن ١٧٧
- الأولى: أنه غريزة متأصلة في النفوس ١٧٨
- الثانية: أن الله تعالى لم يخلق الغريزة عبثاً ١٧٨
- المبحث الثاني: معالجات الإسلام لمعوقات الزواج ١٨٣
- العقبة الأولى: القضاء على الشعور العرقي (الشعور بالذات) ١٨٤
- تزويج العلوية من غير العلوي ١٨٦
- الأول: خبأ «رضاه في طاعته» ١٩١
- الثاني: خبأ «سخطه في معصيته» ١٩١
- الثالث: خبأ «أولياءه في خلقه» ١٩٢
- العقبة الثانية: حرية الاختيار ١٩٢
- الوآد قسمان ١٩٣
- الأول: الوآد في التراب ١٩٤
- الثاني: إيصال الفتاة إلى العنوسة ١٩٤
- القبيلة وضرورة الزواج من ابن العم ١٩٧
- سلبيات الزواج من الأقرباء ١٩٨
- مفهوم الحرية في الإسلام ١٩٩

٢٠٣ الزواج من غير المسلمة.
٢٠٣ مفهوم الكفاءة والتشيع.
٢٠٥ الأول: قولهم بفرية (خان الأمين)
٢٠٥ الثاني: مخالفتهم القرآن الكريم.
٢٠٦ جواب الإشكال الأول.
٢٠٧ جواب الإشكال الثاني.
٢٠٩ تزويج النواصب والزواج منهم.
٢١٢ المبحث الثالث: حقيقة زواج القاسم يوم الطف.
٢١٣ الأول: أن سكينه كانت متزوجة قبل تلك الفترة.
٢١٣ الثاني: صغر سنّ القاسم.
٢١٧ ﴿١٠﴾ الزواج وقانون التكافؤ.
٢١٧ المبحث الأول: الحكمة من سنّ الولادة بهذا الشكل المؤلف.
٢١٧ معنى الزوج.
٢٢٢ المبحث الثاني: آلية الزواج في الإسلام.
٢٢٣ الوقوف بوجه قانون إمداد النوع وأسبابه.
٢٢٤ أولاً: العقبات المادية.
٢٢٤ ثانياً: العقبات العرقية.
٢٢٦ تحديد مفهوم الكفاءة في الزواج.
٢٢٧ سلبية الوقوف بوجه الزواج.
٢٣٢ أثر العامل النفسي للمفسّر على النص.
٢٣٣ قانون زوجية المشاكلة.
٢٣٧ لولا علي <small>عليه السلام</small> لم يكن لفاطمة <small>عليها السلام</small> كفاء.

- ﴿١١﴾ نظام تعدد الزوجات ٢٤٣
- المبحث الأول: في أن أحكام الشرع بعضها ثابت وبعضها متغير ٢٤٣
- القسم الأول: الأحكام الثابتة (الفقه غير المتحرك) ٢٤٣
- القسم الثاني: الأحكام المتحركة (الفقه المتحرك) ٢٤٤
- المبحث الثاني: في أن نظام التعدد ميراث إنساني ٢٤٤
- أشكال التعدد عند المجتمعات ٢٤٥
- المبحث الثالث: أسباب التعدد وحلول الإسلام ٢٤٥
- السبب الأول: العامل الاقتصادي ٢٤٦
- السبب الثاني: العامل الاجتماعي ٢٤٦
- مغالطات المستشرقين ٢٤٨
- السبب الثالث: العامل النفسي ٢٤٨
- حب الحياة دليل على وجود يوم القيامة ٢٤٩
- إننا أعطيناك الكوثر ٢٥٠
- السبب الرابع: العامل الطبيعي ٢٥١
- علاج حالات نقص الذكور ٢٥٢
- الطريق الأول: الزواج غير المشروع ٢٥٢
- الطريق الثاني: الزواج المشروع ٢٥٢
- السبب الخامس: عامل الفقر ٢٥٣
- شرائط التعدد ومسوغاته ٢٥٣
- أسباب حظر التعدد ٢٥٤
- السبب الأول: التمكن من الإعالة والتربية ٢٥٤
- السبب الثاني: عدم العدل بين النساء ٢٥٥

٢٥٧	السبب الثالث: القدرة على الوطاء
٢٥٧	ملاك الزواج الدائم
٢٦٠	اختيار الزوجة
٢٦١	دعوى التناقض في قضية العدل في القرآن
٢٦١	الافتراءات على الشيعة
٢٦٢	الجهة الأولى: حول فرية الميراث
٢٦٣	الجهة الثانية: دعوى الزهراء <small>عليها السلام</small>
٢٦٤	المبحث الرابع: معنى ﴿فَلَا تَمِيلُوا﴾

الفصل الرابع

الأسرة

٢٦٩	﴿١٢﴾ البناء الأسري
٢٦٩	المبحث الأول: طبيعة الأسرة وكيفية بنائها
٢٦٩	تفاصيل علاقة الرجل بالمرأة
٢٧٠	خلق حواء
٢٧٣	المبحث الثاني: نوع الجعل في الآية
٢٧٣	الرأي الأول: أنه طرد وهم إمكانية الزواج من الجن
٢٧٥	الرأي الثاني: أنه جعل تكويني
٢٧٥	الرأي الثالث: أنه جعل تشريعي
٢٧٦	الجعل مركب وبسيط
٢٧٧	المبحث الثالث: عقبات في طريق الزواج
٢٧٧	الأولى: عقبة التكافؤ
٢٧٧	تحديد مفهوم التكافؤ في الزواج

- ٢٧٨ الثانية: عقبة المادة.
- ٢٧٩ المغيرة والانغماس في رذيلة الزنا
- ٢٨٠ النساء أربع
- ٢٨٢ المبحث الرابع: الحفدة
- ٢٨٣ أقسام الحفدة
- ٢٨٣ الرأي الأول: أنهم الأحفاد
- ٢٨٤ الرأي الثاني: أنهم أبناء الأصهار والأختان
- ٢٨٥ الرأي الثالث: أنهم الخدم
- ٢٨٥ المبحث الخامس: شبهة زواج القاسم
- ٢٨٩ ﴿١٣﴾ قانون الأسرة في التشريع
- ٢٨٩ المبحث الأول: الأسرة والمؤسسات الدينية
- ٢٩٠ مشروع الزواج في الإسلام
- ٢٩٠ النظم بين اليتامى وتعّد الزوجات في الآية
- ٢٩١ سبب نزول الآية
- ٢٩١ فكرة الزواج تحقيق للنظام التكويني للإنسان
- ٢٩٢ مواصفات الأسرة السليمة
- ٢٩٣ الأولى: أنّ المرأة صانعة جيل وليست وعاء غريزة
- ٢٩٤ الثانية: أنّها تتحمل العبء الأكبر في عملية التربية
- ٢٩٧ المبحث الثاني: افتقار المجتمع الإسلامي إلى مؤسسات تربية
- ٢٩٧ أولاً: اختيار شريك الحياة المناسب
- ٢٩٧ ثانياً: تقنين الزوجات
- ٢٩٩ من المسؤول عن قيام هذه المنظومة المؤسساتية؟

٢٩٩	الجهة الأولى: المجتمع
٢٩٩	الجهة الثانية: الدولة
٣٠٠	الأمّن الأسروي
٣٠٠	المبحث الثالث: دلالة ﴿مَا﴾ في الآية
٣٠٠	الأول: أنّها لغير العاقل
٣٠٢	الثاني: في مقدار العدد الشرعي للزواج
٣٠٣	مناقشة
٣٠٤	تقليد المرأة
٣٠٥	المبحث الرابع: في معنى ﴿مَا طَابَ لَكُمْ﴾
٣٠٥	الأول: الزواج من غير المحارم
٣٠٦	الثاني: الحجر النظيف من الدنس
٣٠٧	المبحث الخامس: في موانع التعدّد
٣٠٧	الأول: أنّه مطلق الخوف
٣٠٧	الثاني: أنّه الخوف من عدم العدل في النفقة
٣٠٨	مراعاة بيئة المرأة في النفقة
٣٠٩	أسباب التعدّد
٣٠٩	مشكلة العزوف عن الزواج عند البعض وحلولها
٣١٠	الحل القائم على أساس المجتمع
٣١٢	الحل القائم على أساس الدولة
٣١٢	حلول الإسلام لمشكلة الزواج
٣١٣	المبحث السادس: مسألة الإمام
٣١٥	المبحث السابع: في معنى ﴿تَعُولُوا﴾

- الأول: الفقر ٣١٥
- الثاني: مشاكل الأسرة ٣١٥
- المبحث الثامن: في زواج القاسم بن الحسن عليه السلام ٣١٧
- ﴿١٤﴾ نظام الأسرة في الإسلام ٣٢١
- المبحث الأول: الأسرة في القرآن الكريم ٣٢١
- طرق إشباع الغريزة ٣٢٢
- الأول: الإشباع المباشر ٣٢٢
- الثاني: الإشباع غير المباشر ٣٢٢
- الغريزة والإسلام ٣٢٣
- عوامل هدم الأسرة ٣٢٤
- الأول: تقديم تسهيلات بديلة عن الزواج ٣٢٤
- الثاني: وضع العقبات أمام المتزوجين ٣٢٤
- الإسلام يذلل عقبات الزواج ٣٢٥
- الأولى: عقبة المهور ٣٢٥
- ما يصح منه المهر ٣٢٦
- الثانية: عقبة الكفاءة ٣٢٧
- الثالثة: عقبة الفقر ٣٢٨
- لماذا القسوة في عقوبة الزنا؟ ٣٣٠
- المبحث الثاني: قضية الرق في الإسلام ٣٣١
- الرقيق وإدارة مواقع الاقتصاد ٣٣٢
- لماذا لم يحرم الإسلام الرق؟ ٣٣٢
- مناشئ الرق المشروعة ٣٣٣

٣٣٤	الأول: سبي الحرب المشروعة
٣٣٤	الثاني: أولاد الجواري
٣٣٥	وسائل الإسلام للقضاء على الرقّ
٣٣٥	إثارتان حول الآية الكريمة
٣٣٥	الأولى: حصر وسائل الاتصال الجنسي بالزوجة وملك اليمين
٣٣٦	مشروعية المتعة
٣٣٨	ردّ دعوى بطلان المتعة
٣٣٨	الأولى: بطلان الإجماع
٣٣٨	الثاني: أن من الزوجة الدائمة من لا ترث ولا نفقة لها
٣٣٨	الثالث: أنه رخصة
٣٤٠	الأحناف يفتون بالمتعة
٣٤١	التلقيح الصناعي
٣٤٤	المبحث الثالث: الهدف الأخلاقي في الآية الكريمة
٣٤٨	الأصابع اليهودية في نشر الرذيلة
٣٤٩	يزيد يستشير مسيحياً في استعمال والٍ على الكوفة
٣٥٣	﴿١٥﴾ الإخاء ودوره في بناء الأسرة
٣٥٣	المبحث الأول: أقسام العلاقات بين الأخوة
٣٥٤	هل تدخل طاعة الوالدين في باب التزامهم؟
٣٥٦	منشأ المعرفة عند الإنسان بين العلم والدين
٣٥٨	علاقات الأشقاء من وجهة نظر علم الاجتماع
٣٥٨	المبحث الثاني: آراء المفسرين في سرقة يوسف <small>عليه السلام</small>
٣٥٩	الرأي الأول: أنه <small>عليه السلام</small> سرق لجائع بيضة من بيت أهله

- الرأي الثاني: أنه ﷺ سرق له دجاجة من بيت أهله. ٣٥٩
- الرأي الثالث: أنه ﷺ سرق منطقة جدّه لأُمّه. ٣٥٩
- الرأي الرابع: أنه ﷺ سرق المودة من قلب أبيه ﷺ. ٣٥٩
- الرأي الخامس: أنه ﷺ سرق صنماً لجدّه لأُمّه ﷺ. ٣٦١
- الرأي السادس: أن عمته ادّعت أنه سرق منطقة جدّه لتحفظ به. ٣٦١
- المبحث الثالث: ثوابت الشريعة ومتغيراتها. ٣٦٢
- أنواع الإكراه. ٣٦٣
- مقدار القطع في يد السارق. ٣٦٣
- المبحث الرابع: إشكالية اتهام يوسف ﷺ إخوته بالسرقة. ٣٦٤
- المبحث الخامس: أسباب زجّ الحسين ﷺ إخوته في المعركة. ٣٦٥
- السبب الأول: أنه ﷺ أراد لجدوة التضحية الهاشمية ألا تنطفئ. ٣٦٦
- السبب الثاني: تضيخ هذه الجدوة بخصائص أهل البيت ﷺ. ٣٦٧
- السبب الثالث: البرهنة على أن الإيمان يقهر الطبع والتطبّع. ٣٦٨
- ﴿١٦﴾ برّ الوالدين. ٣٧١
- المبحث الأول: رعاية الأسرة في القرآن. ٣٧١
- المبحث الثاني: دور الوالدين وأثرهما في الابن. ٣٧٢
- المبحث الثالث: الفصال والآثار الوضعية للرضاعة. ٣٧٤
- آثار الرضاعة الوضعية على الوليد. ٣٧٤
- آثار الرضاعة الوضعية على الأم. ٣٧٥
- أهداف تحديد الرضاعة بالعامين. ٣٧٥
- الأول: عدم استحقاق الأجرة بعدهما. ٣٧٦
- الثاني: درء النزاع فيما لو طالب الزوج بالرضاعة أكثر. ٣٧٦

٣٧٦	الثالث: بيان أجل نشر الحرمة
٣٧٧	المبحث الرابع: متعلق الشكر في ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي﴾
٣٧٧	الأول: سبب شكر الأبوين
٣٧٨	الثاني: كيفية شكرهما وماهيته
٣٧٩	المبحث الخامس: الإطلاق في الوصية بالوالدين
٣٨١	مشروع الأسرة بين الإسلام والغرب
٣٨٣	لماذا أوصى الله الأبناء بالآباء وليس العكس؟
٣٨٩	﴿١٧﴾ التكافل الأسري
٣٨٩	المبحث الأول: الشريعة الإسلامية ونظام التكافل
٣٩١	المبحث الثاني: مفهوم التكافل وأقسامه
٣٩٣	حقوق الولد في الإسلام
٣٩٣	مراحل تربية الولد
٣٩٤	أقسام التكافل في الإسلام
٣٩٥	الأول: التكافل المادي
٣٩٥	الثاني: التكافل الأخلاقي
٣٩٨	الثالث: التكافل الاجتماعي
٣٩٨	المبحث الثالث: في أحوال وآلام الحمل والوضع ومدتهما
٣٩٩	المبحث الرابع: نظرية تأثر الولد بأمه
٤٠١	أهل البيت <small>عليهم السلام</small> وتجسيد أجواء القرآن الكريم
٤٠٧	﴿١٨﴾ اقتصاد الأسرة
٤٠٧	مقدمة في أقسام العلاقات الأسرية
٤٠٨	المبحث الأول: الإنفاق وآثاره الوضعية

- الأول: أنه حصن من الانحراف ٤٠٨
- الثاني: أنه مجلبة للرزق ٤٠٨
- الثالث: أنه يدفع عذاب القبر ٤٠٩
- تربية الأبناء بين الإفراط والتفريط ٤٠٩
- المبحث الثاني: نظام النفقة وحدوده في الإسلام ٤١٠
- الإنفاق على الزوجة ٤١٢
- السيدة فاطمة الزهراء مثل أعلى ٤١٣
- دور المرأة في بناء الأسرة ٤١٥
- الأول: زوجة صخر بن عمرو ٤١٥
- الثاني: غزالة زوجة شبيب ٤١٦
- موقف أمير المؤمنين عليه السلام من الخوارج ٤١٧
- المبحث الثالث: متعلق **﴿يُكَلِّفُ﴾** في الآية ٤١٨
- المبحث الرابع: الإنسان ومعطيات العسر واليسر في الحياة ٤٢٠
- ﴿١٩﴾** الأسرة الأنموذجية ٤٢٣
- المبحث الأول: محرّمات الزواج ٤٢٣
- نظر الإسلام إلى الزواج والجنبه العبادية فيه ٤٢٤
- المبحث الثاني: المقصود ب**﴿مَا﴾** في هذه الآية ٤٢٦
- اختلاف العلماء ٤٢٧
- الهدف من التركيز على هذا الموضوع ٤٢٧
- نماذج من الاختلاف بين الفقهاء ٤٢٨
- الأول: الاختلاف في حليّة الضبع وحرمتها ٤٢٩
- دليل السنّة الفعلية ٤٣١

٤٣١ الثاني: ميراث البنت وحدها
٤٣٢ نقد الرواية
٤٣٢ نظرة حول الروايات
٤٣٢ طاووس راو مجروح
٤٣٣ الثالث: رؤية الله تعالى
٤٣٤ اتساع الكون
٤٣٥ الرأي الأول: أنها مصدرية
٤٣٦ الأول: زواج المقت
٤٣٧ الثاني: زواج الشغار
٤٣٧ سلبيات زواج الشغار
٤٣٧ الأول: سلب الفتاة حقّ الذمّة المالي
٤٣٧ الثاني: سلب الفتاة إرادتها
٤٣٨ إكراه بعض الفتيات على الزواج من أقربائهن
٤٣٩ أنواع الحرمة في الزواج
٤٤٠ الرأي الثاني: أنها موصولية
٤٤٠ حول حرمة الزواج من زوجة الجد
٤٤٣ هل إن النهي يتناول الوطاء أم العقد فقط؟
٤٤٤ المبحث الثالث: في أن الإسلام يجب ما قبله
٤٤٤ اتهام الشيعة بأن آباءهم مجوس
٤٤٥ المبحث الرابع: في معنى الفاحشة
٤٤٥ الأول: اصطدامه بالطباع
٤٤٥ الثاني: أنه ينشر العهر والرذيلة داخل الأسرة

- ٤٤٦ المبحث الخامس: في معنى المقت.
- ٤٤٨ المبحث السادس: ضرورة النسب الطاهر.
- ٤٥٣ ﴿٢٠﴾ فقه الأسرة.
- ٤٥٣ المبحث الأول: بناء الأسرة النظيفة.
- ٤٥٨ الآثار الوضعية للزنا.
- ٤٥٩ المبحث الثاني: معنى حفظ الفروج.
- ٤٦٠ دور الآباء في تحقيق هدف السماء.
- ٤٦٠ الإسلام يشجع على تذييل العقبات.
- ٤٦١ الأول: إقحام المؤسسات في بناء العملية التربوية.
- ٣٦٢ الثاني: تذييب العقبات المصطنعة.
- ٤٦٤ المبحث الثالث: المورد المشروع للزواج.
- ٤٦٤ إشكال حول المتعة.
- ٤٦٤ حلّ الإشكال.
- ٤٦٥ المتعة عند المذاهب الإسلامية.
- ٤٦٧ أدلة زوجية المتمتع بها.
- ٤٦٧ الأول: وجوب العدة عليها.
- ٤٦٧ الثاني: أن لها حقّ الإرث عند اشتراطه.
- ٤٦٧ الثالث: لحوق الولد بالأب.
- ٤٦٨ شبهات حول زوجية المتمتع بها.
- ٤٦٩ الأولى: عدم ميراث المتمتع بها.
- ٤٦٩ الثانية: عدم ثبوت النفقة لها.
- ٤٦٩ المبحث الرابع: في موارد النكاح المحرم.

٤٧٠	أقسام الشبهة ومنشؤها
٤٧٠	الأول: ماكان منشأ الشبهة فيه الفاعل
٤٧٠	الثاني: الشبهة الناشئة عن العقد وأقسامها
٤٧٠	الأولى: ظن صحة العقد
٤٧٠	الثانية: نكاح البنت من الزنا
٤٧٢	الثالث: الشبهة التي يكون منشؤها القابل وأقسامها
٤٧٣	الأول: الأمة المملوكة مناصفة
٤٧٣	الثاني: مملوكة المكاتب
٤٧٣	حكم المكاتب
٤٧٤	المبحث الخامس: أهداف الزواج الشرعي
٤٧٤	الهدف من الأديان
٤٧٤	الأول: حماية النفوس بالقصاص
٤٧٥	الثاني: حماية العقول
٤٧٥	الثالث: حماية النشاء الجديد
٤٧٦	الرابع: حماية الأموال
٤٧٦	الخامس: حماية الدين من الشبهة
٤٨١	﴿٢١﴾ من مسائل فقه الأسرة
٤٨١	مقدمة في أقسام الابتلاءات الشرعية
٤٨٢	النوع الأول: الابتلاءات الطارئة
٤٨٢	النوع الثاني: الابتلاءات المستمرة
٤٨٢	القسم الأول: الابتلاءات المحددة بزمن ما
٤٨٢	القسم الثاني: الابتلاءات غير المحددة بزمن ما

٤٨٢	المبحث الأول: الطلاق وأقسامه وآثاره
٤٨٥	ذيول الطلاق والمشاكل المترتبة عليه
٤٨٦	المطلقة وموضوع السكن في الفقه الإسلامي
٤٨٦	أقسام المطلقات
٤٨٧	القسم الأول: المطلقة الرجعية
٤٨٧	القسم الثاني: المطلقة البائنة
٤٨٧	أولاً: المرأة غير الحامل
٤٨٧	الرأي الأول: أن لها حق السكن والنفقة
٤٨٧	الرأي الثاني: أنها لا تستحق السكن والنفقة
٤٨٨	الرأي الثالث: أنها تستحق السكن دون النفقة
٤٨٨	ثانياً: المرأة الحامل
٤٩١	مفهوم الإسراف
٤٩٢	المبحث الثاني: المضارة من وجهة نظر الإسلام
٤٩٢	جهات التضيق
٤٩٣	المبحث الثالث: طلاق الحامل

الفصل الخامس

الفقه الديني

٥٠١	﴿٢٢﴾ الزينة
٥٠١	المبحث الأول: في تكليف الكافر بالفروع
٥٠٢	فلسفة التكليف بالفروع
٥٠٣	المبحث الثاني: هل أن ولد الولد ولد على الحقيقة؟
٥٠٣	بنوة الحسنين <small>عليهما السلام</small>

٥٠٤	المبحث الثالث: فلسفة التعرّي
٥٠٥	حجاب المرأة
٥٠٦	المبحث الرابع: الآراء في الزينة
٥٠٧	الإمام الرضا والمتصوّف
٥٠٨	الطبيب المسيحي
٥١١	﴿٢٣﴾ مشاكل الزواج
٥١١	المبحث الأول: معنى النسب في الآية
٥١٢	الأول: أن إبليس شريك الله في الخلق، فهو أخوه
٥١٣	الثاني: أن الملائكة بنات الله
٥١٥	الثالث: أن الله تعالى صاهر الجن
٥١٦	المبحث الثاني: امتيازات الأنسباء عند الخلفاء
٥١٦	من مساوئ مروان
٥١٨	المأمون ومظاهر بذخه
٥١٩	خطبة علي لفاطمة <small>عليها السلام</small>
٥٢٣	المبحث الثالث: تكريم الزوجة في الإسلام
٥٢٩	﴿٢٤﴾ أبغض الحلال إلى الله
٥٢٩	المبحث الأول: الآثار السلبية للطلاق
٥٣٣	لماذا لم تعط المرأة حقّ التطليق؟
٥٣٦	المبحث الثاني: الالتفات في الخطاب القرآني
٥٣٦	السياق في آية التطهير وحجّيته
٥٣٧	المبحث الثالث: تعريف الطلاق وأحكامه
٥٣٧	صيغة الطلاق

٥٣٨	شروط الطلاق
٥٣٨	الأول: أن يكون بالغاً
٥٣٨	الثاني: العقل
٥٣٨	الثالث: الاختيار
٥٣٩	الرابع: القصد
٥٤١	في طلاق الثلاث
٥٤٢	المبحث الرابع: الزمان الذي يصح وقوع الطلاق فيه
٥٤٣	المبحث الخامس: في فترة العدة والحقوق المترتبة فيها
٥٤٣	حقوق الزوجة خلال العدة
٥٤٤	حقوق الزوج خلال العدة
٥٤٥	المبحث السادس: في معنى الإضافة في: «بُيُوتِهِنَّ»
٥٤٥	احتجاج عثمان على عائشة وحفصة
٥٥١	﴿٢٥﴾ مسائل في حياة المرأة
٥٥١	المبحث الأول: أساس نظام تقسيم الخلق
٥٥٢	هل الحاجة تخلق الوظيفة
٥٥٣	المبحث الثاني: حقوق المرأة وواجباتها
٥٥٣	الأمر الأول: مسألة الطلاق
٥٥٤	من غرائب مسائل الطلاق
٥٥٥	مشاكل الزواج غير المدروس
٥٥٧	الأمر الثاني: معنى كونها ناقصة عقل
٥٥٨	مسألة الشهادة
٥٥٨	الأمر الثالث: مسألة الميراث

- ٥٥٩ الأمر الرابع: مسألة الجهاد.
- ٥٦٢ حرية المرأة
- ٥٦٣ المبحث الثالث: معنى علو الرجال على النساء درجة.
- ٥٦٤ المبحث الرابع: دور المرأة في التاريخ.
- ٥٦٥ المرأة في المجتمع الإسلامي
- ٥٦٦ دور نساء بيت الوحي في تاريخ الرسالة.
- ٥٦٧ الأنموذج الأول: خديجة الكبرى عليها السلام.
- ٥٦٩ الأنموذج الثاني: زينب بنت أمير المؤمنين عليها السلام.
- ٥٧٠ من مظاهر صلابة زينب الكبرى عليها السلام في الطف.
- ٥٧٥ ﴿٢٦﴾ وراثة النساء.
- ٥٧٥ المبحث الأول: الجانب المدني والحضاري في حياة الإنسان.
- ٥٧٦ النظرة إلى المرأة هي انعكاس عن جملة من الأوضاع.
- ٥٧٦ الانعكاس عن الأوضاع الاقتصادية.
- ٥٧٧ الانعكاس عن الأوضاع الاجتماعية.
- ٥٧٧ الانعكاس عن الأوضاع العقيدية.
- ٥٧٩ المبحث الثاني: نظرة الإسلام إلى المرأة.
- ٥٨٣ المبحث الثالث: معنى وراثة النساء.
- ٥٨٥ المبحث الرابع: ما معنى العضل في الآية؟ ومن المخاطب بها؟
- ٥٨٨ المبحث الخامس: معنى الفاحشة المبينة.
- ٥٨٩ المبحث السادس: دور المرأة في واقعة كربلاء، زينب أنموذجاً.

الفصل السادس

جهاد المرأة

- ٥٩٥ دور المرأة الصالحة في بناء المجتمع ﴿٢٧﴾
- ٥٩٥ مقدمة: في ثقل المرأة
- ٥٩٦ المبحث الأول: في مرض النبي أيوب عليه السلام
- ٥٩٧ المبحث الثاني: الملابس التي ترتبط بآية المقام
- ٥٩٧ الملابس الأولى: هل توحى الآية الكريمة بحيلة شرعية؟
- ٥٩٨ الحيل وأقسامها
- ٥٩٨ نماذج من الحيل غير الشرعية
- ٥٩٨ الأولى: حيلة التهرب من الحقوق
- ٥٩٩ الثانية: حيلة المرأة المختلعة
- ٦٠١ رأي الفقهاء في المسألة
- ٦٠٢ حقيقة الأمر وجليته
- ٦٠٢ الأثر السلبي للحيلة الشرعية
- ٦٠٣ الملابس الثانية: التشريع الإيضائي في الإسلام
- ٦٠٣ المبحث الثالث: أنه ليس هناك من بديل للضرب
- ٦٠٤ مشروعية ضرب الزوجة
- ٦٠٦ الضرب الشرعي
- ٦٠٧ المبحث الرابع: في بعض شطحات الصوفية
- ٦٠٨ ضرب الحجر والرقص
- ٦٠٨ إضافات مفتعلة
- ٦٠٨ الأولى: حديث المنزلة

- ٦٠٩..... الثانية: رواية «أشبهت خَلقي و خُلقي».....
- ٦٠٩..... الثالثة: رواية رقص الأحباش في مسجد النبي ﷺ.....
- ٦١٠..... مشكلة النقل عن الآخرين والادعاء عليهم.....
- ٦١١..... ﴿وَلَا تَرَرُّ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾.....
- ٦١٢..... المدينة لا يدخلها الوباء وفقه أبي حنيفة.....
- ٦١٣..... شعار «تكفير بغير دليل».....
- ٦١٤..... المبحث الخامس: في بعض فضائل النبي أيوب عليه السلام.....
- ٦١٥..... الفضيلة الأولى: فضيلة الصبر.....
- ٦١٦..... متعلقات الصبر.....
- ٦١٧..... أيهما أفضل: الشكر على النعمة أم الصبر عند النعمة؟.....
- ٦١٩..... الفضيلة الثانية: العبودية.....
- ٦٢٠..... الفضيلة الثالثة: الرجوع إلى الله تعالى.....
- ٦٢١..... المبحث السادس: عاقبة صبر أيوب عليه السلام وأوبته.....
- ٦٢٢..... المبحث السابع: أبناء الإمام الحسين وأبناء النبي أيوب عليه السلام.....
- ٦٢٥..... ﴿٢٨﴾ الإسلام ودور المرأة في الحياة العامة.....
- ٦٢٥..... المبحث الأول: القرآن مائدة السماء.....
- ٦٢٦..... المسلمون والقرآن.....
- ٦٢٨..... المبحث الثاني: المنافقون في زمن الرسول الأكرم ﷺ.....
- ٦٢٨..... الناس في المنظور القرآني ثلاثة معسكرات.....
- ٦٣٠..... الثمرة من التقسيم.....
- ٦٣١..... القرآن وتقييم الآخرين.....
- ٦٣٢..... قال الله، وقال فلان.....

- الواقعية في التقويم ٦٣٢
- المسلمون والموازن القرآنية ٦٣٥
- مفارقات في تراثنا ٦٣٧
- ضرورة الخضوع للحق ٦٣٨
- المبحث الثالث: نظرة القرآن الكريم إلى المرأة ٦٤٠
- الأثر الحقيقي للمرأة في الحياة الاجتماعية ٦٤١
- تاريخ تجنيد المرأة في المنظومات الاستخبارية ٦٤٢
- المرأة في التاريخ الإنساني وجذور تأثيرها على الرجل ٦٤٥
- نماذج من دور المرأة وتأثيرها في الحياة ٦٤٥
- الأنظمة الحديثة وقضية التنكيل بذوي أصحاب العلاقة ٦٤٨
- رجع ٦٤٩
- معالجة ٦٥٦
- معالجة ٦٥٨
- معالجة ٦٥٩
- المرأة وظروف العمل ٦٦٠
- المرأة والمجتمع ٦٦١
- موقف بعض المذاهب الإسلامية من تعليم المرأة ٦٦٤
- المبحث الرابع: في صفة المنافقين ٦٦٦
- وتر الموروث العقيدي ٦٦٧
- تأثر المسلمين بأبائهم الذين ماتوا في الجاهلية ٦٦٨
- المسلمون اليوم والرواسب الجاهلية ٦٦٩
- الثاني: منع المسلمين من الجهاد وتخذيهم عنه ٦٧٠

٦٧٠	المبحث الخامس: في باقي صفات المنافقين.....
٦٧١	الصفة الثالثة: البخل.....
٦٧٣	مفارقات في تاريخ المسلمين.....
٦٧٣	موقفهم من أبي سفيان.....
٦٧٨	موقفهم من أبي طالب <small>عليه السلام</small> وإيمانه.....
٦٨٤	الصفة الرابعة: عدم ذكر الله تبارك وتعالى.....
٦٨٤	المراد من النسيان في آية المقام الكريمة.....
٦٨٦	بيضاء لا تواريها العمامة.....
٦٨٩	ثمرة في حمل ألفاظ القرآن الكريم على ظواهرها.....
٦٨٩	آيات لابد من تأويلها.....
٦٩٢	المبحث السادس: الإمام الحسين <small>عليه السلام</small> والذكر.....
٦٩٥	الفهرس الإجمالي.....
٦٩٧	الفهرس التفصيلي.....

